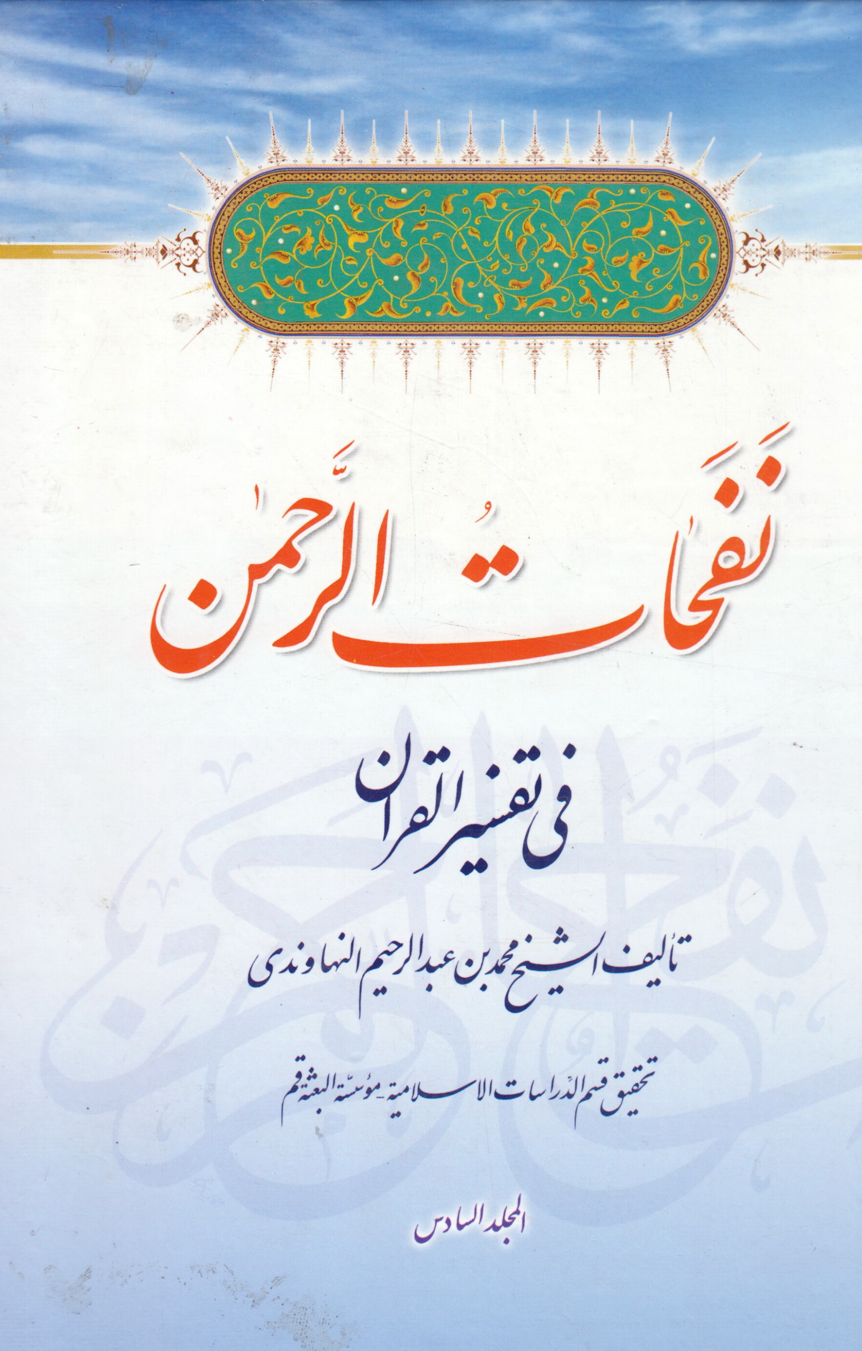

نَفَحاتُ الرَّحمٰن
فى تفسير القرآن
تأليف الشيخ محمد بن عبد الرحيم النهاوندى
تحقيق قسم الدراسات الاسلامية - مؤسّسة البعثة قم
المجلد السادس

بسم الله الرحمن الرحيم



نفحات الرحمن

في

تفسير القرآن

تأليف

الشيخ محمد بن عبدالرحيم النهاوندي

(١٢٩١ـ ١٣٧١هـ)

الجزء السادس

تحقيق

قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة ـ قم

مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة

اسم الكتاب: نفحات الرحمن في تفسير القرآن ج٦

تأليف: الشيخ محمد عبدالرحيم النهاوندي(١٢٩١ ـ ١٣٧١ هـ)

تحقيق: قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة ـ قم

الطبعة: الأولى ١٤٢٥ هـ. ق

الكمية: ٢٠٠٠ نسخة

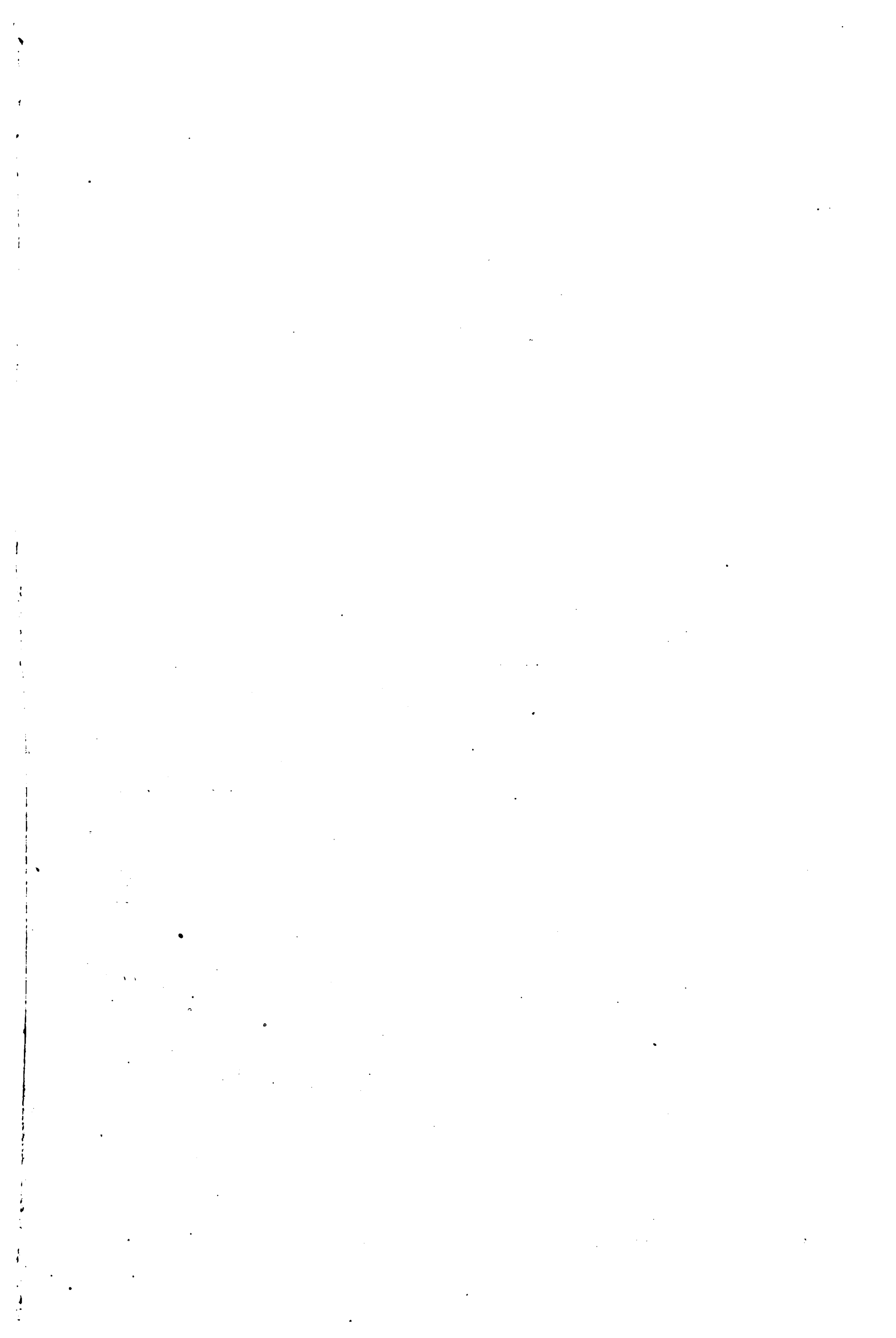
التوزيع: مؤسسة البعثة

طهران ـ شارع سميّة ـ بين شارعي الشهيد مفتح وفرصت

هاتف: ٨٨٢٢٢٤٤ ـ ٨٨٢٢٣٧٤، فاكس: ٨٨٢١٣٧٠، ص. ب: ١٥٨١٥/١٣٦١

بيروت ـ ص. ب: ٢٤/١٢٤، تلكس: ٤٠٥١٢ كمك

بسم الله الرحمن الرحيم



في تفسير سورة الحجرات

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ وَرَسُولِهِ وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الفتح المبتدئة ببيان فتح مكّة وألطاف الله على النبي ﷺ بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾[١] والمختتمة ببيان علّو مقامه، وبيان فضائل أصحابه، وكونهم رُحماء بينهم، أُردفت بسورة الحجرات المبتدئة بايجاب حفظ احترام النبي ﷺ وتعظيمه، وتعليم أدب حضوره، وبيان وظيفة المؤمنين وتعليم كيفية سلوك بعضهم مع بعضٍ، ووجوب الاصلاح بينهم إذا تخاصموا وتنازعوا، وغير ذلك من المطالب المناسبة لما في السورة السابقة، فابتدأها بذكر الأسماء الحُسنى حسب دأبه تعالى تعليماً للعباد وتبرّكاً بقوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ لمّا كانت السورة مشتملةً على التكاليف الشاقة، ابتدأها بالنداء شفاهية للمؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليُزيل التعب والعَناء بلذّة النداء، ولينشّط قلوبهم بتوصيفهم بالايمان، وليبين أن امتثالها من لوازمه، وأن الايمان باعثٌ على المحافظة عليها، رادع عن الإخلال بها.

ثمّ شرع سبحانه في بيان وظائف المؤمنين مع النبي ﷺ بقوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾ أنفسكم في المشي، أو أمر من الأُمور، ولا تقطعوه ﴿بَيْنَ يَدَيِ ٱللهِ وَرَسُولِهِ﴾ وأمامهما، وذكر ذاته المقدسة باسم الجلالة لتعظيم الرسول ﷺ، أو المراد بحضرتهما وفي منظرهما، إلّا بعد أن يحكُما به ويأذنا فيه ﴿وَٱتَّقُوا ٱللهَ﴾ العظيم الذي أنتم بين يديه وفي منظره في جميع أقوالكم وأفعالكم ﴿إِنَّ ٱللهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمائركم وأعمالكم، فيُجازيكم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

قيل: نزلت الآية في النهي عن الذبح يوم الأضحى قبل الصلاة، فانّ ناساً ذبحوا قبل صلاة النبي ﷺ[٢].

---

١. الفتح: ٢/٤٨.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٦٢.

وعن البراء أنّه خطبنا النبي ﷺ يوم النحر، فقال: «إنّ أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلّي ثمّ نرجع وننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سُنّتنا، ومن ذبح قبل أن نُصلّي فانّما هو لحمٌ عجّله لأهله، ليس من النُسك في شيء»[١].

وعن عائشة: أنّها نزلت في النهي عن صوم يوم الشكّ، والمعنى لا تصوموا قبل أن يصوم نبيّكم[٢].

وعن الحسن: لمّا استقرّ رسول الله ﷺ بالمدينة، أتته الوفود من الآفاق، فأكثروا عليه بالمسائل، فنهوا عن أن يبتدؤا بالمسألة حتى يكون النبي ﷺ هو المبتدئ[٣]، والظاهر والاعتبار مقتضي لأن يكون النهي عن كلّ ما يُقدّم عليه سواء كان بالقول أو بالفعل، كالأكل والمشي وغيرهما.

كرّر النداء بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ازدياداً لاظهار اللُّطف بهم والاهتمام بالمُنادى له واستقلاله ﴿لَا تَرْفَعُوا﴾ ولا تعلوا ﴿أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ في تكلّمكم عنده تعظيماً له وتأدّباً منه.

روى بعض العامة عن عبدالله بن الزبير: أنّ الأقرع بن حابس من بني تميم، قَدِم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله، استعمله على قومه. فقال عمر: لا نستعمله يا رسول الله، بل استعمل القَعْقَاع بن مَعْبَد. فتكلّما عند النبي ﷺ حتى ارتفعت أصواتهما، فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلّا خلافي. فقال عمر: ما أردتُ خلافك. فنزلت الآية. فكان عمر بعد ذلك إذا تكلّم عند النبي ﷺ لا يسمع كلامه حتى يستفهمه، وقال أبو بكر: آليت على نفسي أن لا أُكلّم النبي ﷺ إلّا سرّاً[٤].

أقول: العجب من العامة القائلين بأفضلية الرجلين على أمير المؤمنين عليه السلام، وروايتهم عن النبي ﷺ أنّه قال: «ما طلعت شمس، وما غربت على أحدٍ بعد النبيين والمرسلين خير - أو أفضل - من أبي بكر»[٥] مع أنّهم رووا نزول كثيرٍ من الآيات في ردع الرجلين عن زلاتهما، ولم يُرو نزول آية في ردع أمير المؤمنين عليه السلام عن زلّة، بل ما نزلت آية فيه إلّا وفيها مدحة وبيان فضله.

وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ[٢]

ثمّ إنّه تعالى بعد النهي عن تعلية الصوت على صوت النبي ﷺ حين مكاملته، نهى عن تسوية الصوت في الجهر لصوته بقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾ أيها المؤمنون بالنبي ﷺ ﴿لَهُ﴾ بصوتكم

١. تفسير روح البيان ٩: ٦٢.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٦٢.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٦٢.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٦٣.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٦٢.

﴿بِالْقَوْلِ﴾ إذا كلمتموه[1] وكلّمكم ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ﴾ بصوته عند مخاطبتكم ﴿لِبَعْضٍ﴾ آخر، بل أجعلوا أصواتكم عند مكالمته أخفض من صوته، مراعاةً لجلالته وعظمته، كما هو الدأب في مخاطبة العبد الذليل لسيده العظيم المهيب كراهة ﴿أَن تَحْبَطَ﴾ وتبطُل ﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ فانّ عدم الاعتناء بشأن النبي ﷺ وتحقيره مؤدٍّ الى الارتداد الموجب لردّ الأعمال وعدم قبولها ﴿وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ بأنّ مخالفة هذا النهي مؤدّ إلى الكفر حبط الأعمال.

روى بعض العامة عن ابن عباس: أنّها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس، فانّه كان في اُذنيه وقرٌ، وكان جَهوري الصوت، وربما كان يُكلّم رسول الله ﷺ فيتأذّى بصوته[2].

وعن أنس: أنّه لمّا نزلت هذه الآية فُقِد ثابت، فتفقّده رسول الله ﷺ، فأخبِر بشأنه، فدعاه ﷺ فسأله، فقال: يا رسول الله، لقد اُنزلت إليك هذه الآية، وإنّي رجلٌ جهير الصوت، فأخاف أن يكون عملي قد حَبِط. فقال: «لست هناك، إنّك تعيش بخيرٍ، وتموت بخيرٍ، وإنّك من أهل الجنّة»[3].

قيل: إنّه قُتِل شهيداً يوم مُسيلمة الكذّاب[4].

وقيل: إنّ الفرق بين النهيين، أنّ النهي عن رفع الصوت فيما إذا تكلّمتم وتكلّم النبي ﷺ، فعلى المؤمنين أن لا يَبْلُغوا بأصواتهم فوق الحدّ الذي يبلُغ إليه صوت النبي ﷺ، وأن يغضّوا من أصواتهم بحيث يكون صوت النبي عالياً على أصواتهم، والنهي عن الجَهْر فيما إذا كلّمه المؤمنون وهو ساكت، فنهي المؤمنين عن أن يَبْلغُوا بالجَهْر في القول الجَهْر الدائر بينهم، بل يجب عليهم أن يلينوا القول ليناً يُقارب الهَمْس[5].

وعن الكاظم عليه السلام: «أنّ رسول الله ﷺ لمّا قَدِم المدينة، وكثُر حوله المهاجرون والأنصار، كثُرت عليه المسائل، وكانوا يُخاطبونه بالخِطاب العظيم الذي لا يليق به، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ...﴾ الآية وكان رسول الله ﷺ بهم رحيماً، وعليهم عطوفاً، وفي إزالة الآثام عنهم مجتهداً، حتى إنّه كان يَنْظُر إلى من يُخاطبه، فيَعمِد على أن يكون صوته مرتفعاً على صوته، ليُزيل عنه ما توعّده الله من حَبْط أعماله، حتى إنّ رجلاً أعرابياً ناداه يوماً من خلف حائط بصوت جهوري: يا محمد، فأجابه بأرفع من صوته، يُريد أن لا يأثم الأعرابي بارتفاع

---

١. في النسخة: تكلمتموه.
٢. جوامع الجامع: ٤٥٦، تفسير روح البيان ٩: ٦٤، تفسير الصافي ٥: ٤٧.
٣. جوامع الجامع: ٤٥٦، تفسير روح البيان ٩: ٦٥، تفسير الصافي ٥: ٤٨.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٦٥.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٦٤.

صوته»[١].

وعن القمي ﷺ: نزلت في وَفْدٍ من بني تميم، كانوا إذا قَدِموا على رسول الله ﷺ وقفوا على باب حُجرته، ونادوا يا محمد، اخرُج إلينا، وكانوا إذا خرج رسول الله ﷺ تقدّموه في المشي، وكانوا إذا كلّموه[٢] رفعوا أصواتهم فوق صوته، ويقولون: يا محمد، يا محمد، ما تقول في كذا؟ كما يكلّمون بعضهم بعضاً، فأنزل الله [الآية][٣].

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللهِ أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٣ـ٥]

ثمّ إنه تعالى بعد ترهيب المؤمنين من مخالفة نهيه، رغّبهم في امتثاله بقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ﴾ ويَخفضون ﴿أَصْوَاتَهُمْ﴾ حين تكلّمهم ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللهِ﴾ وفي حضُوره مراعاةً للأدب، وخشيةً من مخالفته نهي الله عن رفع الصوت فوق صوته، والجَهر له بالقول ﴿أُولٰئِكَ﴾ المؤمنون هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وأخلصها ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ ووسعها له، أو مرّنها عليه ﴿لَهُم﴾ في الآخرة ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ وسترٌ كامل لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا يسع البيان حُسنه وقدره.

ثمّ ذمّ الله سبحانه الرافعين أصواتهم المسيئين للأدب بالنسبة إلى النبي بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ يا محمد ﴿مِن وَرَاءِ ٱلْحُجُرَاتِ﴾ وخارج البيوت المسكونة لأزواجك حين استراحتك فيها ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولا يُدركون قَباحة سوء الأدب بالنسبة إلى من لا يُدانيه أحد من الأولين والآخرين في الجلالة والعظمة ووخامة عاقبته. وقيل: الأكثر هنا بمعنى الكلّ[٤] ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا﴾ وتوقّفوا خارج الحُجرات، ولم يُنادونك ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ﴾ من حُجرتك متوجّهاً ﴿إِلَيْهِمْ﴾ لا إلى غيرهم، والله ﴿لَكَانَ﴾ ذلك الصبر والتوّقف، وترك التعجيل والنداء ﴿خَيْراً لَهُمْ﴾ وأصلح وأنفع في الدنيا والآخرة من التعجيل في لقائك، ورفع الصوت بندائك ﴿وَٱللهُ غَفُورٌ﴾ لذنب أُولئك المسيئين للأدب إن تابوا ونَدِموا على ما صدر منهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم إن صَلَحوا.

قيل: إنّ الذين نادوا الرسول عُيينة بن الحُصين الفَزَاري، والأقرع بن حابس التميمي، وفدا على

---

١. التفسير المنسوب إلى الامام العسكري عليه السلام: ٣٠٥/٤٧٧، تفسير الصافي ٥: ٤٨. ٢. في النسخة تكلموه.
٣. تفسير القمي ٢: ٣١٨، تفسير الصافي ٥: ٤٧. ٤. تفسير روح البيان ٩: ٦٨.

رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من بني تميم وقت الظهيرة، وهو راقد، فقالا: يا محمد، اخرُج إلينا، فنحن الذين مَدْحُنا زَيْنٌ وذمّنا شَينٌ، فاستيقظ ﷺ، فخرج وقال لهم: «ويحكم ذلكم الله»[١].

ورُوي أنّه سُئِل رسول الله ﷺ عنهم فقال: «هم جُفاة بني تميم، لولا أنّهم من أشدّ الناس قتالاً للأعور الدجّال، لدعوت الله أن يُهلكهم، فنزلت الآية ذمّاً لهم[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنه: أنّه بعث رسول الله ﷺ سَرِيَّةً إلى حي بني العنبر، وأمرّ عليهم عُيينة بن الحُصين، فلمّا عَلِموا أنّه توجّه نحوهم هربوا وتركوا عيالهم، فسباهم عُيينة، وقَدِم بهم إلى رسول الله ﷺ فجاء بعد ذاك رجالهم يفدون الذراري، فقَدِموا وقت الظهيرة، فوافوا رسول الله ﷺ قائلاً في أهله، فلمّا رأتهم الذراریى أجهشوا إلى آبائهم يبكون، وكان لكلّ امرأةٍ من نساء النبي ﷺ بيتٌ وحُجرةٌ، فجعلوا ينادون: يا محمد، اخرُج إلينا، حتى ايقضوه من نومه، فخرج إليهم فقالوا: يا محمد، فادنا عيالنا. فنزل جَبْرئيل فقال: إنّ الله يأمُرك أن تجعل بينك وبينهم رجلاً.

فقال ﷺ: «أترضون أن يكون بيني وبينكم سَبْرة بن عمرو، وهو على دينكم؟» قالوا: نعم. قال سَبْرة: أنا لا أحكُم بينهم وعمي شاهدٌ، وهو أعور بن بَشَامة بن ضِرَار. فرضوا به.

فقال الأعور: فأنا أرى أن تُفادي نصفهم، وتُعتق نصفهم. فقال ﷺ: «قد رضيت» ففادى نصفهم، وأعتق نصفهم. وقال مقاتل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ لأنك كنتَ تُعتقهم جميعاً وتُطلقهم بلا فِداء[٣].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ[٦]

ثمّ إنّه تعالى بعد تعليم المؤمنين الأدب مع الرسول ﷺ علّمهم كيفية معاملتهم مع سائر الناس، فابتدأ بكيفية معاملتهم مع الفُسّاق بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ﴾ وأنبأكم ﴿فَاسِقٌ﴾ من الفُسّاق ﴿بِنَبَإٍ﴾ وأخبركم بخبرٍ يعظُم وَقْعه في القلوب، كالإخبار بإرادة قومٍ قتالكم ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ وتَفَحّصوا عن صدقه وكذبه حتى تظهر حقيقة الحال، ولا تعتمدوا على خبره، فانّ من لا يحترز عن الفِسق لا يؤمن منه الكذب، فيكون في تحقيق الحال من الحذر ﴿أَن تُصِيبُوا﴾ أيّها المؤمنون وتَضُرّوا﴿قَوْماً﴾ من المسلمين ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ وبسبب عدم العلم بواقع الحال، وعدم طريق عُقلائي دالّ

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٦٧.

٢. تفسير روح البيان ٩: ٦٨.

٣. تفسير روح البيان ٩: ٦٨.

عليه، أو بسفاهةٍ وعدم رعاية حكم العقل ﴿فَتُصْبِحُوا﴾ وتصيروا بعد ظهور خطأكم ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ﴾ من الإضرار على القوم ﴿نَادِمِينَ﴾ مغتمّين متمنّين عدم صدور ذلك الفعل منكم.

في بعض مطاعن عثمان

رُوي أنّ الوليد بن عُقبة بن أبي مُعيط أخا عثمان بن عفان لأمّه، بعثه النبي ﷺ إلى بني المُصْطَلِق ليأخُذ صدقاتهم ويُجبي زكاتهم، وكان بينه وبينهم إحْنَةٌ[1] وحقدٌ كامنٌ في الجاهلية بسبب دم، فلمّا سَمِعوا بقدومه استقبلوه رُكباناً، فحسب أنّهم مقاتلوه، فرجع هارباً منهم، وقال لرسول الله ﷺ: إنّهم قد ارتّدوا، ومنعوا الزكاة، وهمّوا بقتلي، فَهَمّ رسول الله ﷺ في الظاهر بقتالهم، فنزلت الآية[2].

وقيل: إنّه ﷺ بعث إليهم خالد بن الوليد بعد رجوع الوليد بن عُقبة عنهم في عسكر، وقال له: اخفِ عنهم قدومك بالعسكر، وادخُل عليهم ليلاً متجسّساً، هل ترى فيهم شعائر الاسلام وآدابه، فان رأيت منهم ذلك فخُذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تَر ذلك فافعل بهم ما يُفْعَل بالكفّار، فجاءهم خالد وقت المغرب فسَمِع منهم أذان المغرب والعشاء، ووجدهم مجتهدين باذلين وسعهم ومجهودهم في امتثال أمر الله، فأخذ منهم صدقاتهم، وانصرف إلى رسول الله ﷺ [وأخبره الخبر فنزلت: ﴿أَن تُصِيبُوا...﴾][3].

أقول: من مطاعن عثمان أنّه ولّى هذا الوليد الفاسق الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، فصلّى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعاً،ثمّ قال: هل أزيدكم؟ ومن الواضح أنّه لم يكن حاله خفياً على عثمان مع كونه أخاه.

ويدُلّ على كون المراد من الفاسق هو الوليد بن عُقبة ما روى في (الاحتجاج) عن الحسن المجتبى عليه السلام ـ في حديث ـ أنه قال: «وأما أنت يا وليد بن عُقبة، فوالله ما ألومك على أن تُبغِض علياً وقد جلدك في الخمر ثمانين جلدة، وقتل أباك صبراً بيده يوم بدر، أم كيف لا تَسُبّه وقد سمّاه الله مؤمناً في عشر آيات من القرآن، وسمّاك فاسقاً وهو قوله: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ ...الآيه»[4].

وعن القمي رحمه الله: نزلت في عائشة حين رَمَت مارية القبطية، واتّهمها بجُريح القِبطي، فأمر رسول الله بقتل جُريح ليُظهر كذبها، وترجع عن ذنبها[5].

أقول: لعلّ المراد من النزول جَريانها في حقّها.

في الاستدلال على حجية خبر الواحد

ثمّ اعلم أن العامة وكثيراً من الخاصة استدلّوا بالآية المباركة على حجية خبر العدل

---

١. الإحْنَة: الحِقْد والضِّغْن.

٢ و٣. تفسير روح البيان ٩: ٧٠.

٤. الاحتجاج: ٢٧٦، تفسير الصافي ٥: ٤٩.

٥. تفسير القمي ٢: ٣١٨، تفسير الصافي ٥: ٤٩.

الواحد، حيث رتّب وجوب التبيين على كون المخبِر فاسقاً، ولو لم يجُز قبول خبر العادل، لما كان للترتيب على خبر الفاسق فائدة، وتقريره أنّ تعليق وجوب التبيين على خبر الفاسق، يقتضي انتفاء الوجوب عند انتفاء الفِسق في المُخبِر، وهو بكون المخبر عادلاً، وحينئذٍ فإمّا نقول بعدم قَبول خبره ولو مع التبيين، بمعنى كون التبيين لغواً في مورده، فيلزم كون خبر العادل أسوأ حالاً من خبر الفاسق، وهو باطل، مع أنّ التبيّن سبب لليقين بصدقه، ولا معنى لعدم قبول الخبر المتيقّن الصدق. وإمّا نقول بوجوب قَبول خبره بلا تبيّن، فهو المطلوب، وفيه أنّ الاستدلال مبني على القول بحجيّة مفهوم الوصف، وتعليق الحكم عليه، وهو ممنوع، كما حُقّق في محلّه.

نعم لو تمسّك بمفهوم الشرط، بأن يقال: إنّ الآية نظير قولك: إن جاءك زيد سائلاً فأعطه درهماً، فانّ مفهومه إن جاءك غير سائل فلا تُعطه، وفيه: أن الشرط هنا لبيان تحقّق الموضوع، كقولك: إن رُزِقت ولداً فاختِنه، وهذه القضية الشرطية لا مفهوم لها إلّا أن يقال الموضوع هو النبأ، والمعنى: النبأ إن جاء به الفاسق فتبيّنوا، وإن جاء به غير الفاسق، وهو العادل، فلا تبيّنوا.

﴿وَٱعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلٰكِنَّ ٱللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلرَّاشِدُونَ ❁ فَضْلاً مِنَ ٱللهِ وَنِعْمَةً وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٧و٨]

ثمّ لمّا أخبر الوليد بقيام بني المُصْطَلِق لقتال المسلمين، رأى جمع من الأصحاب تجهيز الجيش وإصابتهم، وكانوا يتوقّعون أن رسول الله ﷺ يتّبع رأيهم، فردعهم عن هذا التوقّع بقوله: **﴿وَٱعْلَمُوا﴾** أيّها المسلمون **﴿أَنَّ﴾** محمداً الذي يكون **﴿فِيكُمْ﴾** ويعيش بينكم كأحدكم هو **﴿رَسُولَ ٱللهِ﴾** العالم بحقائق الأمور، المحيط بجميع المصالح والمفاسد، فلا تتوقعوا منه أن يتّبع آراءكم ويُطيعكم في أهوائكم، تنزيلاً له عن شأنه، وحسباناً أنّه كأحدكم، جهلاً بمقامه، فانّه ﷺ **﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾** ويتّبع آراءكم **﴿فِى كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾** وغالب الوقائع بالله **﴿لَعَنِتُّمْ﴾** وابتُليتم بالمفاسد، ووقعتم في المهالك أو المشاقّ، لجهلكم وقصور فهمكم وعقلكم، ولا تتوهّموا أنّكم لكمال عقلكم وجَودة أفهامكم وتنوّر أفكاركم، اخترتم الايمان، واحترزتم عن الكفر والفِسق والعِصيان، وتستدلّون به على إصابة رأيكم في جميع الأمور، وحُسن أنظاركم في تشخيص المصالح **﴿وَلٰكِنَّ ٱللهَ﴾** برحمته ولُطفه عليكم **﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَانَ﴾** بالله ورسوله، ورغّبكم إليه **﴿وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾** وحسّنه في ضمائركم بإقامة البراهين القاطعة، وإراءة المعجزات الباهرة، وتوفيقكم لقبوله، وتنبيهكم على فوائده **﴿وَكَرَّهَ**

﴿إِلَيْكُمُ﴾ وأبغض لديكم ﴿الْكُفْرَ﴾ والشرك ﴿وَالْفُسُوقَ﴾ والكذب على ماروي عن الباقر عليه السلام[١] ﴿وَالْعِصْيَانَ﴾ ومخالفة أحكام الله كافّة.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عن الحبّ والبغض أهو من الايمان؟ قال: «وهل الإيمان إلّا الحبّ والبغض» ثمّ تلا هذه الآية[٢].

ثمّ مدح سبحانه المحبّين للايمان، المبغضين للكفر والعصيان بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفتين الجليلتين ﴿هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ والمهتدون إلى الطريق المُوصل إلى قُرب الله وجنّته التي وعد المتّقون، وإنّما ذلكم الحبّ والبغض يكون ﴿فَضْلاً﴾ وإحساناً ﴿مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً﴾ عظيمةً منه تعالى ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾ بقابليات الأشخاص و ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله، لا يُعطي أحداً إلّا بالاستحقاق.

عن الصادق عليه السلام في تأويل الآية: «﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ يعني الأول والثاني والثالث»[٣].

أقول: تحقيقه أنّ حبّ الايمان عين حبّ أمير المؤمنين عليه السلام، لكونه عليه السلام مُجسّمة الايمان، وبُغض أعمال الثلاثة عين بُغض الثلاثة الذين هم مُجسّمتها.

وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ[٩]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه عدم جواز الاعتماد على خبر الفاسق المورث لإثارة الفتنة بين المسلمين ووقوع القتال فيهم، بيّن حُكم القتال الواقع بينهم، ورغّب في الإصلاح بقوله: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وجمعان منهم ﴿اقْتَتَلُوا﴾ وتنازعوا في أمرٍ من الأُمور الدينية أو الدنيوية، والجمع باعتبار الأفراد، فانّهم يقتتلون ﴿فَأَصْلِحُوا﴾ بالوعظ والنُّصح والتهديد وبذل المال وغيرها ﴿بَيْنَهُمَا﴾ حفظاً لنفوسهما، وردعاً لهم عن المنكر.

بيان فضيلة الاصلاح بين المؤمنين

عن النبي صلى الله عليه وآله: «ألا أُخبركم بأفضل من الصيام والصلاة والصدقة؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «إصلاح ذات البين»[٤].

﴿فَإِنْ بَغَتْ﴾ وتعدّت ﴿إِحْدَاهُمَا عَلَى﴾ الطائفة ﴿الْأُخْرَىٰ﴾ ولم ترتدع بالوعظ

---

١. مجمع البيان ٩: ٢٠٠، تفسير الصافي ٥: ٤٩. ٢. الكافي ٢: ٥/١٠٢، تفسير الصافي ٥: ٥٠.
٣. تفسير القمي ٢: ٣١٩، الكافي ١: ٧١/٣٥٢، تفسير الصافي ٥: ٥٠. ٤. تفسير روح البيان ٩: ٧٣.

والنُّصح وغيرهما ﴿فَقَاتِلُوا﴾ أيّها المؤمنون الطائفة ﴿ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ وتتعدّى على الطائفة الأخرى ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ﴾ وترجع الطائفة الباغية ﴿إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ جبراً، ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾ وانقادت لحكمه قهراً، من وجوب كفّ اليد عن قتال المؤمنين، والتحذّر عن البغي عليهم، فاذا انصرفوا عن القتال ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ والانصاف، واحسِموا مادة النزاع والفساد بإجراء حكم الله، وإحقاق حقّ المظلوم، ومنع الظالم عن ظُلمه، على كتاب الله وسنّة نبيه.

ولمّا كان بعد القتال مظنّة الحِقد والحيف، قيّد الصّلح بالعدل، وأكّده بقوله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓا﴾ واعدِلوا في هذا الأمر وسائر الأمور ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ عادلٌ ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ والعادلين.

عن ابن عباس رضي الله عنه: أنّ النبي مرّ يوماً على ملأ من الأنصار، فيهم عبدالله بن أُبي المنافق، ورسول الله صلى الله عليه وآله راكبٌ على حماره، فوقف عليهم يَعِظهم، فبال حماره ـ أو راث ـ فأمسك عبدالله بن أُبي بأنفه، وقال: نحّ عنا نَتن حمارك. فقد آذيتنا بنَتْنه، فمن جاء منّا فعِظْه. فسَمِع ذلك عبدالله بن رواحة، فقال: ألحمار رسول الله تقول هذا؟! والله إن بول حمار رسول الله أطيب رائحةً منك. فمرّ صلى الله عليه وآله، وطال الكلام بين عبدالله بن أُبي الخزرجي المنافق، وبين عبدالله بن رواحة الأوسي، حتى استبّا وتجالدا، وجاء قوم كلّ منهما من الأوس والخزرج، وتجالدوا بالعِصيّ، أو بالنعال والأيدي، أو بالسيف، فنزلت الآية، فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم، فقرأها عليهم وأصلح بينهم[1].

وعن الصادق عليه السلام قال: «لمّا نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ منكم من يقاتل على التأويل كما قاتلتُ على التنزيل، فسُئل: من هو؟ قال: خاصف النَّعل ـ يعني أمير المؤمنين عليه السلام ـ فقال عمّار بن ياسر: قاتلتُ بهذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثاً، وهذه الرابعة، والله لو ضربونا حتى يُبْلغوننا سَعَفات هَجر، لعلمنا أنّا على الحقّ، وأنّهم على الباطل. وكانت السيرة فيهم من أمير المؤمنين عليه السلام ما كان من رسول الله صلى الله عليه وآله في أهل مكّة يوم فتح [مكة]»[2].

عن الصادق عليه السلام: «إنّما جاء تأويل الآية يوم البصرة، وهم أهل هذه الآية، وهم الذين بَغوا على أمير المؤمنين عليه السلام، فكان الواجب قتالهم وقتلهم حتى يفيئوا إلى أمر الله». إلى أن قال: «فكان الواجب على أمير المؤمنين عليه السلام أن يعدِل فيهم، حيث كان ظَفِر بهم، كما عدل رسول الله صلى الله عليه وآله في أهل مكّة، إنّما منّ وعفا، وكذلك صنع أمير المؤمنين بأهل البصرة»[3].

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٧٤.

٢. تفسير القمي ٢: ٣٢١، الكافي ٥: ٢/١١، التهذيب ٦: ٢٣٠/١٣٧، تفسير الصافي ٥: ٥٠.

٣. الكافي ٨: ٢٠٢/١٨٠، تفسير الصافي ٥: ٥١.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ[١٠]

ثمّ حثّ سبحانه المؤمنين إلى الاصلاح بين المقاتلين والمنازعين منهم بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فقط ﴿إِخْوَةٌ﴾ وأشخاص متحابّون، كالمتنسبين إلى أبٍ واحدٍ وأمٍ واحدة.

روي عن النبي ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلِمه ولا يَشْتُمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج [عن] مسلمٍ كُربةً فرّج الله عنه بها كُربةً من كُربات يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[1].

عن الصادق عليه السلام: «المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأُمّه، لأنّ الله خلق المؤمنين من طينة الجِنان، وأجرى في صُوركم من ريح الجنة»[2].

وعنه عليه السلام أنّه سُئل عن تفسير هذا الحديث: «المؤمن ينظُر بنور الله» فقال: «إنّ الله خلق المؤمنين من نوره، وصبغهم في رحمته، وأخذ ميثاقهم لنا بالولاية على معرفته يوم عرّفهم نفسه، فالمؤمن أخ المؤمن لأبيه وأُمّه، أبوه النور، وأُمّه الرحمة، وإنّما ينظُر بذلك النور الذي خُلِق منه»[3].

أقول: يُمكن أن يكون وجه آخر لأُخوّتهم، وهو أن ولادتهم الايمانية من الرسول والوصي عليهما السلام، كما قال: «أنا وعليّ أبوا هذه الأُمّة»[4].

وعنه عليه السلام: المؤمن أخ المؤمن، عينه ودليله، لا يخونه ولا يظلِمه ولا يعيبه، ولا يَعِده عِدَةً فيُخلفه[5].

ثمّ رتّب سبحانه على أخوّتهم ما هو من لوازمها، وهو كون كلّ منهم مجداً في تحصيل صلاح الآخر بقوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وأرفعوا التنازع منهم، وحصّلوا التوادّ والرحمة فيهم ﴿وَٱتَّقُوا ٱللهَ﴾ في جميع الأُمور التي منها ما أُمرتم به من الاصلاح وإيجاد التراحم بين المؤمنين ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ من قبل ربّكم ﴿تُرْحَمُونَ﴾ على إحسانكم بهم وتقواكم من الله.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ[١١]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان وظيفة المؤمنين بالنسبة إلى الظالم والمظلوم منهم، ووجوب إحقاق حقّ المظلوم، نهى عن إهانة المؤمن بذكر ما يُوجب وهنه وتحقيره بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ اعلموا

---

١. مجمع البيان ٩: ٢٠٠، تفسير روح البيان ٩: ٧٨.
٢. الكافي ٢: ٧/١٣٣، وتفسير الصافي ٥: ٥١، عن الباقر عليه السلام.
٣. بصائر الدرجات: ٢/١٠٠، تفسير الصافي ٥: ٥١.
٤. سعد السعود: ٢٧٥، تفسير الصافي ٥: ٥٢.
٥. الكافي ٢: ٣/١٣٣، تفسير الصافي ٥: ٥١.

أنّ من وظائف الإيمان أن ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ﴾ وجمعٌ من رجالكم ﴿مِن قَوْمٍ﴾ وجمعٍ آخرين منهم، ويستهزئ بعضكم ببعضٍ ﴿عَسَىٰ﴾ ويُرجى ﴿أَن يَكُونُوا﴾ أولئك المسخورون والمستهزئون بهم[١] أفضل من الساخرين، و﴿خَيْراً مِنْهُمْ﴾ وأقرب عند الله ﴿وَلَا﴾ تَسْخَر ﴿نِسَاءٌ﴾ منكم ﴿مِن نِسَاءٍ﴾ أُخر منكم، ولا تستهزئ بعض المؤمنات ببعضٍ آخر ﴿عَسَىٰ﴾ ويُرجى ﴿أَن يَكُنَّ﴾ أُولئك المسخورات والمستهزئات بهنّ[٢] أفضل من الساخرات والمُهزّئات[٣] و﴿خَيْراً مِنْهُنَّ﴾ عند الله، فانّ مِلاك القُرب والبُعد عند الله مستورٌ عنكم، ليس ممّا يظهر من الأشكال والصُّور، ولا الأوضاع ولا الأطوار التي يدور عليها أمر السُّخرية غالباً، فليس لأحدٍ أن يُحقّر أحداً، فيكون قد حقّر من عظّمة الله، وأهان من وقّره الله، كإبليس الذي حقّر آدم فحقّره الله وطرده من رحمته، ولذا رُوي: أنّ الله تعالى قال: «أوليائي تحت قِبابي، لا يعرفهم غيري»[٤].

وإنّما لم يذكُر سبحانه سُخرية الرجال للنساء وبالعكس، لأنّهما نادران[٥] ويُحتمل أنّه تعالى أراد من (يكون) معنى (يصير) فالمعنى: أن يصيروا خيراً منهم، ويصرن خير منهنّ، فانّ الغنيّ الذي يستهزئ بالفقير لفقْره، يحتمل ان يصير الغني المهزّئ[٦] فقير، ويصير الفقير المُهزّأ به[٧] غنياً، وهكذا.

عن ابن عباس: أنّ الآية نزلت في ثابت بن قيس بن شمّاس، كان في أُذنه وقراً، فكان إذا أتى مجلس رسول الله ﷺ وسّعوا له حتى يجلِس إلى جنبه، يسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر، فلمّا انصرف النبي ﷺ من الصلاة اقبل نحو رسول الله يتخطّىٰ رقاب الناس وهو يقول: تفسّحوا تفسّحوا، فجعلوا يتفسّحون حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ بينه وبينه رجلٌ، فقال له: تفسّح، فلم يفعل، فقال: من هذا؟ فقال له الرجل: إنا فلان بن فلان؟ فقال: بل أنت ابن فلانة، يُريد أُمّا له كان يُعيّر بها في الجاهلية، فَخجِل الرجل، ونكّس رأسه، فأنزل الله هذه الآية[٨].

ورُوي أنّ عائشة قالت: إنّ أُمّ سَلَمة جميلةٌ لولا أنّها قصيرةٌ[٩].

وعن القمي: أنّها نزلت في صفية بنت حُيي بن أخطب زوجة رسول الله ﷺ، وذلك أن عائشة وحَفْصة كانتا تُؤذيانها وتَشْتَمانها، وتقولان لها: يا بنت اليهودية، فشكت ذلك إلى رسول الله، فقال: «ألا تجيبيهما؟» فقالت: بماذا يا رسول الله؟ قال: قولي إنّ أبي هارون نبي الله، وعمّي موسى كليم الله، وزوجي محمد رسول الله، فما تُنكِران منّي؟!» فقالت لهما، فقالتا: هذا ما علّمك رسول الله. فأنزل الله

---

١. كذا، والصواب: المسخور منهم، والمُسْتَهزَأ بهم.
٢. كذا، والصواب: المسخور منهنّ، والمُسْتَهزَأ بهنّ.
٣. كذا، والصواب: المستهزئات.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٨٠
٥. في النسخة: نادر.
٦. كذا، والصواب: المُسْتَهزِئ.
٧. كذا، والصواب: المُسْتَهزَأ به.
٨ و٩. تفسير روح البيان ٩: ٨٠

في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ﴾ ... الآية[١].

وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ[١١]

ثمّ نهى سبحانه عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بالقول بقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا﴾ ولا تعيبوا غيركم من المؤمنين، أو لا تَطْعنوهم فكأنّهم تعيبون ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ لأنّ المؤمنين كنفسٍ واحدةٍ، فما يُصيب واحداً منهم كأنّه يُصيب جميعهم.

وقيل: إنّ المعنى لا تعيبوا غيركم، فانّه يكون سبباً لأن يبحث من عبتموه عن عيوبكم فيعيبكم، فبالتعييب عبتم أنفسكم[٢].

وقيل: إنّ المراد لا تفعلوا ما تعيبون به، فكأنّكم تعيبون أنفسكم[٣].

﴿وَلَا تَنَابَزُوا﴾ ولا يدعوا غيركم من المؤمنين ﴿بِالْأَلْقَابِ﴾ السوء ﴿بِئْسَ الاسْمُ﴾ وساء الذكر المرتفع بين الناس ﴿الْفُسُوقُ﴾ والذكر الذي يُخرج المذكور من الايمان ﴿بَعْدَ﴾ كونهم داخلين في ﴿الْإِيمَانِ﴾.

في ذكر بعض مطاعن عائشة وحفصة

روت العامة أنّ الآية نزلت في صفية بنت حُيي بن أخطب، أتت رسول الله صلى الله عليه وآله باكيةً، فقالت: إنّ عائشة قالت لي: يا يهودية بنت اليهوديين، فقال صلى الله عليه وآله: «هلا قلت إن أبي هارون، وعمّي موسى، وزوجي محمد؟!»[٤].

أقول: انظُروا إلى هذه البذيّة، كيف يُطهّرها العامة من الذنوب والعيوب، ويُفضّلونها على فاطمة المعصومة، ليت الرسول علّمها أن تقول لها: يا مشركة بنت المشركين، وفي الحديث «مَن عيّر مؤمناً بذنبٍ تاب منه» كان حقاً على الله أن يبتليه به، ويفضحه بين الناس»[٥].

أقول: قد حقّق مضمون الحديث في عائشة، فانّها عيّرت صفية بكفرها، فابتلاها الله بالقتال مع عليّ عليه السلام الذي كان نفس الرسول صلى الله عليه وآله وهو كفر، أو بمنزلة الكفر.

ثمّ حثّ سبحانه الناس على التوبة من تلك المنهيات التي كلّها ظلمٌ على المؤمنين بقوله: ﴿وَمَن﴾ ارتكب تلك المعاصي و﴿لَمْ يَتُبْ﴾ إلى الله تعالى منها ﴿فَأُولَئِكَ﴾ العُصاة ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ على ربّهم بخروجهم عن طاعته، وكفران نعمته، وتضييع حقوقه، وعلى أنفسهم بتعريضها للهلاك

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٢١، تفسير الصافي ٥: ٥٢.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ١٣٢.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ١٣٢، تفسير روح البيان ٩: ٨١
٤. تفسير روح البيان ٩: ٨٢
٥. تفسير روح البيان ٩: ٨٢

والعذاب.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ[١٢]

ثمّ علّم سبحانه المؤمنين أدب العِشرة بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱجْتَنِبُوا**﴾ واحترزوا ﴿**كَثِيراً مِنَ ٱلظَّنِّ**﴾ بالرسول وبالمؤمنين، وابعدوا أنفسكم من الحسبان السوء، والحسبان الذي لا تعلمون أنه حَسَن أو سيء، وهو كثير، وفي مقابلة الظنّ الذي تعلمون أنّه حَسَن، وهو بالنسبة إلى غيره قليل، وذلك ﴿**إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ**﴾ بهم، وهو ظنّ السوء ﴿**إِثْمٌ**﴾ وحرامٌ تتبعه عقوبة وعذاب، فعليكم الاحتياط والتروّي حتى تعلموا من أي القبيل من الظنّ سوء أو حَسَن.

رُوي عن النبي ﷺ أنّه قال «ظنّوا بالمؤمن خيراً»[١].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك مايقلِبك[٢] منه، ولا تظُنّ بكلمةٍ خرجت من أخيك سوءاً، وأنت تجد لها في الخير محملاً»[٣].

﴿**وَلَا تَجَسَّسُوا**﴾ ولا تفتّشوا عن معايبهم المستورة، وزلّاتهم الخفية، ولا تبحثوا عن عوراتهم.

عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: لا تطلبوا عثرات المؤمنين، فانّه من تتبّع عثرات أخيه تتبّع الله عثرته، ومن تتبّع الله عثرته يفضحه ولو في جوف بيته»[٤]. ورواه بعض العامة عن النبي ﷺ[٥].

ورووا أن جَبْرئيل قال: يا محمد، لو كانت عبادتنا على وجه الأرض، لعملنا ثلاث خصال: سقي الماء للمسلمين، وإعانة أصحاب القتال، وستر الذنوب على المسلمين[٦].

في ذكر بعض مطاعن عمر

وروى بعض العامة أنّ عمر يَعُسّ ذات ليلة، فنظر إلى مصباح من خلل باب، فاطّلع فاذا قومٌ على شراب لهم، لم يدرِ كيف يصنع، فدخل المسجد، فأخرج عبدالرحمن بن عوف، فجاء به إلى الباب، فنظر وقال له: كيف ترى أن نعمل؟ فقال: أرى والله أنّا قد أتينا إلى ما نهانا الله عنه، لأنّا تَجَسّسنا واطّلعنا على عورة قوم سُتروا دوننا، وما كان لنا أن نكشِف ستر الله. فقال عمر: ما أراك إلّا وقد صَدَقت، فانصرفا[٧].

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ١٣٤.
٢. في الكافي: يغلبك.
٣. الكافي ٢: ٣/٣٦٩، تفسير الصافي ٥: ٥٣.
٤. الكافي ٢: ٥/٢٦٥، تفسير الصافي ٥: ٥٣.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٨٦
٦. تفسير روح البيان ٩: ٨٦
٧. تفسير روح البيان ٩: ٨٧

أقول: فيه طعنٌ عظيمٌ على عمر، حيث دلّ على أنّه أجهل الناس بأحكام الكتاب، وتكليف نفسه، وأرتكب كثيراً من المعاصي، وليس ذلك ببعيد ممّن قال: كلّ الناس افقه من عمر حتى المُخدّرات في الحِجال.

﴿وَلَا يَغْتَب﴾ أيها المؤمنون، ولا يذكر بالسوء ﴿بَعْضُكُم بَعْضاً﴾ في غيابه.

روي عن النبي ﷺ أنّه سُئل عن الغِيبة، فقال: «أن تذكُر أخاك بما يكره، فان كان فيه فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتّه»[1].

في حرمة الغيبة وأحكامها

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عن الغيبة، فقال: «هو أن تقول لأخيك في دينه ما لم يفعل، وتبثّ أمراً ستره الله عليه، لم يُقَم عليه فيه الحدّ»[2].

وفي رواية: «وأمّا الأمر الظاهر فيه مثل الحِدّة والعَجَلة فلا»[3].

وعن الكاظم عليه السلام: «من ذكر رجلاً من خلفه بما هو فيه ممّا عرفه الناس لم يغتبه، ومن ذكره من خلفه بما هو فيه ممّا لا يعرفه الناس اغتابه، ومن ذكره بما ليس فيه فقد بهته»[4].

وروت العامة عن النبي ﷺ: «إياكم والغيبة، فانّ الغيبة أشدّ من الزنا».

ثمّ قال: «إن الرجل يزني ويتوب، فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يُغفَر له إلّا أن يغفِر له صاحبه». وعن ابن عباس: الغيبة أدام كلاب النار[5].

ورُوي «أنّ المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخُل الجنّة، وإن لم يتُب أول من يدخُل النار»[6]. إلى غير ذلك من الأخبار.

ثمّ شبّه سبحانه تناول عِرض المؤمن بأكل لحمه بعد موته مبالغةً في الزجر عنه بقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾ ويرغب في ﴿أَن يَأْكُلَ لَحْمَ﴾ جسد ﴿أَخِيهِ﴾ النسبي

حال كونه ﴿مَيْتاً﴾ وجيفة، ومن الواضح أنكم إذا ابتُليتم بأكل هذا اللحم ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وتنفِر منه طِباعكم، واشمأزّت منه نفوسكم، وحَكَم بقُبحه عقولكم، فكذا تناول عِرض المؤمن الذي هو أخوكم في الايمان حال غيبته.

قيل: لمّا كان مجال توهّم أنّ اللّمز والنّبز حرامان، لاطلاع المؤمن عليهما وتألّمه بهما غايته، وأمّا الغيبة فلا وجه لحرمتها وقُبحها، لعدم تألم المغتاب منها؛ لأنّه لا يطّلع عليها، دفعه سبحانه بأن أكل

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٨٧

٢. الكافي ٢: ٣/٢٦٦، تفسير الصافي ٥: ٥٣.

٣. الكافي ٢: ٧/٢٦٧، تفسير الصافي ٥: ٥٣.

٤. الكافي ٢: ٦/٢٦٦، تفسير الصافي ٥: ٥٣.

٥. تفسير روح البيان ٩: ٨٩

٦. مصباح الشريعة: ٢٠٥.

لحم الأخ الميت لايُؤلمه أيضاً، مع أنّه في غاية القُبح[١]، لكونه في غاية البُعد عن رعاية حقّ الأُخوة[٢].

وفي الآية والروايات دلالةٌ واضحةٌ على كونها من الكبائر، ولذا أكّد سبحانه حرمتها بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ واحذروا عقابه في ارتكابها.

ثمّ حثّ سبحانه على التوبة منها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾ سريع القبول لتوبة التائبين ممّا فَرَط منهم ﴿رَحِيمٌ﴾ بمن اتقّى ما نهى عنه، ومُتفضّل عليه بالثواب.

روى بعض العامة أنّ رسول الله ﷺ إذا عزا أو سافر، ضمّ الرجل المحتاج إلى رجلين موسرين يخدِمهما ويتقدّمهما إلى المنزل، فيهيىء لهما طعامهما وشرابهما، فضّم سلمان إلى رجلين في بعض أسفاره، فتقدّم سلمان إلى المنزل، فغلبته عيناه، فلم يُهيّىء لهما شيئاً، فلمّا قَدِما قالا له: ما صنعت شيئاً؟ قال: لا، غلبتني عيناي. قالا له: انطلق إلى رسول الله واسأله طعاماً. فقال ﷺ: «انطلق إلى أُسامة بن زيد، وقل له إن كان عنده فضلٌ من الطعام فليُعطك» وكان أُسامة خازن رسول الله على رحله وطعامه، فأتاه فقال له أُسامة: ما عندي شيء، فرجع سلمان إلى الرجلين فأخبرهما، فقالا: كان عند أُسامة شيء، ولكن بخِل به، فبعثا سلمان إلى طائفةٍ من الصحابة، فلم يجد عندهم شيئاً، فلمّا رَجع قالوا: لو بعثناه إلى بئر سُمَيحة[٣] لغار ماؤها ثمّ انطلقا إلى أُسامة يتجسّسان هل عنده ما أمر لهما به رسول الله ﷺ من الطعام، فلمّا جاءا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «مالي أرى خُضرة اللحم في أفواهكما؟» قالوا: والله يا رسول الله، ما تناولنا يومنا هذا لحماً؟ قال ﷺ: «ظللتما تأكلان لحم أُسامة وسلمان» فأنزل الله الآية[٤].

وقد عيّن الرجلين في رواية (الجوامع) فانّه روى أنّ أبا بكر وعمر بعثا سلمان إلى رسول الله ﷺ ليأتي لهما بطعامٍ، فبعثه إلى أُسامة بن زيد، وكان خازن رسول الله ﷺ على رحله، فقال: ما عندي فعاد إليهما فقالا: بَخِل أُسامة، ولو بعثنا سلمان إلى بئر سُمَيحة لغار ماؤها ثمّ انطلقا إلى رسول الله ﷺ فقال لهما: «مالي أرى خُضرة اللَّحم في أفواهكما» قالا: يا رسول الله، ما تناولنا اليوم لحماً. قال: «ظللتم تفكّهون لحم سلمان وأُسامة» فنزلت[٥].

وعن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا عُرِج بي مررتُ بقومٍ لهم أظفار من نُحاس، يخْمُشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبرئيل؟ فقال: هم الذين يأكُلون لحوم الناس، ويقعون في

---

١. في النسخة: الفتح.　　٢. تفسير الرازي ٢٨/١٣٥.

٣. سُمَيحة: بئر بالمدينة غزيرة الماء.　　٤. تفسير روح البيان ٩: ٨٨.

٥. جوامع الجامع: ٤٥٩، تفسير الصافي ٥: ٥٤.

أعراضهم»[١] فظهر من ذلك أنّه لا يحرُم ذكر مساوئ غير المؤمن وغير المميّز، بل غير البالغين، لانصراف الأخ في الآية والأخبار إليهم، وإن الاحتراز أحوط، وكذا غير المتستّرين، فمن كان عيبه ظاهراً، أو بفسقه متجاهراً فلا غيبة له في عيوبه الظاهرة، وما تجاهر به لتوصيف المذكور بما ستره الله عليه، ولمّا رُوي «أنّ من ألقى جِلباب الحياء فلا غيبة له»[٢]. بل إطلاق الرواية تَدُلّ على جواز غيبة المتجاهر بفِسقٍ في غير ما تجاهر به.

وكما أنّه تحرُم الغيبة يحرُم استماعها، لما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «المغتاب والمستمع شريكان في الاثم»[٣].

والظاهر منه ومن غيره من الأخبار أنّ ذكر عيب شخص لا يكون غيبةً إذا لم يكُن له مستمعٌ، فانّ الظاهر من الأدلة حُرمة كشف العورة وهتك ما ستره الله، ومنه يظهر اشتراط كون المغتاب بالفتح معروفاً عند المستمع، فانّ ذكر عيبه لا يكون كشفاً للمستور، إلّا إذا كان معروفاً بالتفصيل أو بالاجمال في المحصورين كالاثنين والثلاث ونظائرهما، وكذا عدم اختصاصه بالذكر باللسان، بل يَعُم ذلك والكتابة والإشارة، ولا بالتصريح بل تَعُمّ التعريض والكناية، ولا يعتبر في حُرمتها قصد الازراء والتنقيص والذمّ. نعم، إذا صدرت بتلك القصود، كانت حُرمتها أشدّ وآكد، وكذا لا فرق بين كون العيب المذكور في بدنه أو خُلقه أو نسبه أو فعله أو قوله أو دينه أو اُمور دنياه حتى ثوبه أو داره، كلّ ذلك إذا لم يكن ظاهراً مكشوفاً لمن رأه، أو للمستمع.

وإذا احتمل المستمع جواز الغيبة في حقّ المُغتاب بالكسر، لظهور العيب أو للتجاهر أو لكونه مظلوماً أو غير ذلك، كان عليه حمل فعله على الصحة والجواز، فلا يحرُم عليه استماعها، لتلازم جواز الغيبة وجواز استماعها، وكذا العكس، وإنّما صدّر الآية بالخطاب للمؤمنين تنبيهاً على أنّ امتثال الأحكام المذكورة من لوازم الايمان.

ثمّ لمّا نهى سبحانه عن سوء الظّن بالمؤمنين وتنقيصهم بالظّن فضلاً عن الشكّ والترديد، وكان مجال أن يقول أحد: إذا ظننّا بهم سوءاًن نتفحّص عن واقع أمرهم حتى نتيقّن بما ظننّا، ثمّ نقول فيهم باليقين، نهى سبحانه عن التجسّس والتفحّص عن معايبهم وزلّاتهم، وتحصيل العلم بها، ثمّ نهى عن ذكر ما عُلِم اتفاقاً أو حصّله عصياناً.

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٨٩.

٢. تفسير روح البيان ٩: ٩٠.

٣. تفسير روح البيان ٩: ٨٩.

إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ[١٣]

ثمّ لمّا كان الاستهزاء بالغير ولمزه ونبزه واغتيابه لتحقيره والتفاخر عليه، بيّن سبحانه أنّه لا تفاوت بين الناس في الشرف والرفعة إلّا من حيث الايمان والتقوى الذي أمر به بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾ وأولدناكم ﴿مِن ذَكَرٍ﴾ وهو آدم ﴿وَأُنثَىٰ﴾ وهي حوّاء، فليس لأحدٍ أن يفتخر على أحدٍ بالنسب؛ لأنّ جميعكم أبناء رجلٍ وأب واحد، وامرأة وأمّ واحدة.

وقيل: إنّ المراد من الذّكر الأب المتّصل، ومن الأنثى الأمّ المتصلة، والمقصود أنّ كُلّكم في الخلق سيّان، ومن جنسٍ واحدٍ، حيث إنّ كلّ واحدٍ منكم ولدكما ولد غيره، وخالقه خالق غيره، فلا مزيّة لأحدٍ على أحدٍ في أصله[١].

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ﴾ وصيّرناكم ﴿شُعُوباً﴾ وجماعات عظماء منتسبين إلى أبٍ واحدٍ ﴿وَقَبَائِلَ﴾ وطوائف منشعبةً من كلّ شعب.

قيل: إنّ الشعوب جماعات لا يُدري من يجمعهم كالعجم، والقبائل جماعات منتسبون إلى أبٍ واحدٍ معلوم كالعرب[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «الشعوب العجم، والقبائل العرب»[٣].

وقيل: إنّ الشعوب داخلة في القبائل، فانّ القبيلة تحتها شعوبٌ، والشعوب تحتها بطون[٤].

وإنّما كان ذلك الجعل ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ويعرف بعضكم بعضاً بحسب الأنساب، لا لتفاخروا بالآباء والقبائل، وتدّعون الشرف والتفاضل.

وقيل: لا لتناكروا بالسُّخرية واللّمز والنّبز والغيبة، فانّ كلّ واحدٍ منها يُؤدّي إلى التناكر[٥].

في فضيلة التقوى

وقيل: إنّ المعنى إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى لتعبُدوا، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا[٦].

واعلموا ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ﴾ واعلاكم شأناً ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وفي نظره ﴿أَتْقَاكُمْ﴾ وأعلمكم بطاعته، وإن كان عبداً حبشياً.

روي أنّها نزلت حين أمر النبي صلّى الله عليه وآله بلالاً بعد فتح مكّة ليُؤذّن، فعلا ظهر الكعبة. فاذّن، فقال عتّاب بن اسيد، وكان من الطُّلقاء: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لم يَرَ هذا اليوم، ولم يسمع هذا الصوت.

---

١. تفسير الرازي ١٣٧/٢٨، تفسير روح البيان ٩٠/٩. ٢. تفسير الرازي ٢٨: ١٣٨.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٢٢، وتفسير الصافي ٥: ٥٤، ولم ينسباه إلى أحد. ٤. تفسير الرازي ٢٨: ١٣٨.
٥. تفسير الرازي ٢٨: ١٣٨. ٦. تفسير الرازي ١٣٨/٢٨.

وقال الحارث بن هِشام: أما وجد رسول الله سوى هذا الغُراب الأسود[١].

وقيل: إنّ الآية نزلت في أبي هند من الصحابة، حين أمر رسول الله ﷺ بني بَياضة أن يُزَوّجوه امرأة منهم، فقالوا: يا رسول الله، نزوّج بناتنا موالينا[٢].

وروي أنّ رسول الله مرّ في سوق المدينة، فرآى غُلاماً أسود يُباع، وهو يقول: من اشتراني فعلى شرط أن لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول الله: فاشتراه رجلٌ، فكان رسول الله ﷺ يراه عند كلّ صلاة فقعده فسأل عنه صاحبه، فقال: هو محمومٌ فعاده، ثمّ سأل عنه بعد أيام فقيل! هو مشرفٌ على الموت، فجاءه وهو في بقية حركة، فتولّى غُسله ودفنه، فدخل على المهاجرين والأنصار أمرٌ عظيمٌ، فنزلت[٣].

روي عن النبي ﷺ أنّه قال يوم فتح مكّة: «إنّ الله قد أذهب عنكم بالاسلام نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، إنّ العربية ليست بأبٍ والد، وإنّما هو لسانٌ ناطقٌ، فمن تكلّم به فهو عربي، إلّا أنكم من آدم، وآدم من التراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم»[٤].

وعنه ﷺ: «أنّ ربّكم واحدٌ، وأبوكم واحدٌ، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على اسود، ولا أسود على أحمر إلّا بالتقوى»[٥].

وإنّما ذكر سبحانه من أسباب التفاخر الدنيوي النسب، مع أن أسبابه كثيرة كالمال والأولاد وغيرهما، لأنّ النسب أعلاها من حيث أنّه ثابتٌ مستمرٌ غير مقدور التحصيل بخلاف غيره؛ ولأنّه كان بين العرب من أعظم أسباب الافتخار، وكان دأبهم الشائع الافتخار به.

روي أنّه سئل عيسى عليه السلام: أي الناس أشرف؟ فقبض قبضتين من التراب، ثمّ قال: أي هذين أشرف؟ ثمّ جمعهما فطرحهما، وقال: الناس من تُراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم[٦].

وعن النبي ﷺ: «يقول الله يوم القيامة: أمرتكم فضيّعتم ما عَهِدت إليكم فيه، ورفعتم أنسابكم، اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتّقون؟ إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[٧].

وعن أبي هُريرة: أنّ الناس يُحشَرون يوم القيامة، ثمّ يُوقَفُون، ثمّ يقول الله لهم: طالما كنتم تكلّمون وأنا ساكتٌ، فاسكُتوا اليوم حتى أتكلّم، إنّي رفعت نسبي وأبيتم إلّا أنسابكم، قلتُ إنّ أكرمكم أتقاكم، وأبيتم أنتم، وقلتم: لا بل فلان بن فلان وفلان بن فلان، فرفعتم أنسابكم، ووضعتم نسبي، فاليوم أرفع

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٩: ٩٠.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٩١.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٢٢، تفسير الصافي ٥: ٥٤.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٩١.
٦. تفسير روح البيان ٩: ٩١.
٧. مجمع البيان ٩: ٢٠٧، تفسير الصافي ٥: ٥٤.

نسبي، وأضع أنسابكم، سيعلم أهل الجمع من أصحاب الكرم أين المتّقون[١].

وعن الصادق، عن أبيه، عن جدّه عليهم السلام: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: اتقى الناس من قال الحقّ فيما له وعليه»[٢].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عن قوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ قال:«أعملكم بالتقية»[٣].

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ﴾ بأنسابكم وأعمالكم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطنكم وضمائركم، لا يخفى عليه إسراركم.

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[١٤]

ثمّ لمّا كان التقوى متوقفاً على الايمان الراسخ في القلب بالتوحيد ورسالة الرسول، ردّ الله سبحانه دعوى مُدّعي الايمان مع كون إيمانهم صورياً بقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ وسَكَنة البوادي لك: ﴿آمَنَّا﴾ بتوحيد الله ورسالتك ﴿قُل﴾ يا محمد لهم ردّاً عليهم: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ عن صميم القلب، فلا تقولوا: آمنا ﴿وَلٰكِن﴾ لمّا أسلمتم وأظهرتم الشهادتين باللسان، وتركتم المقاتلة: ﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ ودخلنا في السلم والانقياد مخافة أنفسنا وأعراضنا. كيف تقولون آمنا ﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ﴾ بعد ﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وما باشر اليقين بالتوحيد ورسالة الرسول أفئدتكم.

قيل: نزلت في نفرٍ من بني أسد، قَدِموا المدينة في سنة جَدْب، فأظهروا الشهادتين، وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها، وأتيناك بأثقالنا وعيالنا وذرارينا، ولم نُقاتلك كما قاتلت بنو فلان، يُريدون الصدقة[٤]، ويَمُنّون عليه ما فعلوا[٥].

في بيان الاختلاف في الفرق بين الايمان والاسلام

أقول: ذهب بعض العامة إلى أنّه لا فرق بين الاسلام والايمان[٦]، وقال بعضهم: الإسلام أعمّ من الايمان، فانّ الايمان لا يحصُل إلّا في القلب، والاسلام يحصُل باللسان[٧].

وعن الصادق عليه السلام: «الايمان: هو الاقرار باللسان، وعقد القلب، وعمل بالأركان»إلى أن قال: «فقد

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٩٢.
٢. من لا يحضره الفقيه ٤: ٨٣٦/٢٨٢، تفسير الصافي ٥: ٥٥.
٣. اعتقادات الصدوق: ١٠٨، تفسير الصافي ٥: ٥٥.
٤. في تفسير روح البيان: يرون الصدق.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٢٣، تفسير روح البيان ٩: ٩٢.
٦. تفسير الرازي ٢٨: ١٤١.
٧. تفسير الرازي ٢٨: ١٤٢.

يكون العبد مسلماً قبل أن يكون مؤمناً، ولا يكون مؤمناً حتى يكون مُسلماً، فالاسلام قبل الايمان، وهو يشارك الايمان» الخبر[1].

وعن الباقر عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله، قال: «الاسلام علانية، والايمان في القلب» وأشار إلى صدره[2].

وفي رواية: «الاسلام: هو الظاهر الذي عليه الناس، وهو شهادة أن لا إله إلّا الله، وأنّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحجّ البيت، وصيام شهر رمضان، فهذا الاسلام والايمان: معرفة هذا الأمر مع هذا، فإن أقرّ بها ولم يعرف هذا الأمر، كان مسلماً، وكان ضالاً»[3].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ الاسلام قبل الايمان، وعليه يتوارثون ويتناكحون، والايمان عليه يُثابون»[4] ولذا قال سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ عن الايمان الخالص وترك النفاق ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ ولا يُنقِصكم ﴿مِن﴾ أجور ﴿أَعْمَالِكُمْ﴾ وثوابها ﴿شَيْئاً﴾ يسيراً.

وقيل: إن أتيتم بما يليق بضَعْفكم من الأعمال الحسنة المقرونة بالاخلاص وترك النفاق، فهو تعالى يأتكم بما يليق بفضله من الجزاء، لا يُنقِص منه شيئاً، نظراً إلى ما في حسناتكم من النُّقصان والتقصير[5].

﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ وستّار لما فَرَط من المطيعين ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم رمتفضّل عليهم بالثواب العظيم.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[١٥-١٨]

ثمّ وصف سبحانه حقيقة الايمان إرشاداً للأعراب القائلين: آمنا بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ الذين يحِقّ منهم دعوى الايمان، ويَصدُقون في دعواه، هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب ﴿بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالتوحيد والرسالة ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ ولم يشكّوا بسبب تشكيك المشكّك، ولم يختلج

---

١. الكافي ٢: ١/٢٣، تفسير الصافي ٥: ٥٥.
٢. مجمع البيان ٩: ٢٠٨، وتفسبر الصافي ٥: ٥٦، عن النبي صلى الله عليه وآله.
٣. الكافي ٢: ٤/٢٠، تفسير الصافي ٥: ٥٥.
٤. الكافي ١: ٤/١٣٢، تفسير الصافي ٥: ٥٥.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٩٣.

ببالهم كذب الرسول في دعوى الرسالة وفيما أخبر عن الله ﴿وَجَاهَدُوا﴾ الكفّار والمنافقين ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ وفدوهما ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وطلباً لمرضاته وترويج شريعته ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات الجليلة ﴿هُمُ﴾ بالخصوص ﴿ٱلصَّادِقُونَ﴾ في دعوى الايمان لا غيرهم.

قيل: لمّا نزلت الآية جاءت الأعراب، وحلفوا أنّهم مؤمنون صادقون، فنزل[1] ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم رداً عليهم: أيّها الأعراب ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ﴾ وتُخبِرونه ﴿بِدِينِكُمْ﴾ الذي أنتم عليه بقولكم: آمنا ﴿وَٱللَّهُ﴾ باحاطته بجميع الموجودات وكلّ مخلوقاته ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لا يعزُب عنه مثقال ذرّة فيهما ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ جليل وحقير، خفيّ أو أخفى ﴿عَلِيمٌ﴾ فكيف تخفى عليه ضمائركم حتى يحتاج في الاطّلاع عليها إلى إخباركم؟! وفيه توبيخٌ لهم على اجتهادهم في إخفاء نفاقهم.

ثمّ لمّا أظهر الأعراب المِنّة على الرسول بإسلامهمن حيث قالوا: إنا أتيناك بأثقالنا وعيالنا وذرارينا ولم نُقاتلك كما قاتلك بنو فلان، وكان قولهم ذلك في غاية القُبح والشناعة، وبّخهم الله سبحانه عليه بقوله: ﴿يَمُنُّونَ﴾ هؤلاء الأعراب، ويُظهرون التفضّل ﴿عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾ وحسبوا بجهلهم أنّ إسلامهم نعمةٌ عليك ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الجُهّال: ﴿لَا تَمُنُّوا﴾ ولا تعُدّوا النعمة ﴿عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾ الظاهري المقرون بالنفاق، لأنّه ليس بنعمةٍ عليّ، ولا مِنّة لي عليكم بدعوتكم إليه، لأنّي عملت بوظيفة رسالتي من قبل ربّي ﴿بَلِ ٱللَّهُ﴾ المنّان ﴿يَمُنُّ﴾ ويتفضّل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأعظم النِّعم، وهو ﴿أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ وأرشدكم إليه بتبليغي ودعوتي، ووفّقكم لقبوله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى الايمان.

عن القمي ﵀: أنّها نزلت في عثمان يوم الخندق، وقد ارتفع الغُبار من الحُفرة، فوضع عثمان كُمّه على أنفه، فقال عمار:

لا يستوي من يعمر المساجدا	فيُصلي[2] فيها راكعاً وساجداً
ومن يُمرّ بالغُبار حائداً	يعرض عنه جاحداً معانداً

فالتفت عثمان إليه، وقال: يا بن السوداء، إياي تعني؟ ثمّ أتى رسول الله ﷺ فقال: لم ندخُل معك لتَسبّ أعراضنا؟ فقال رسول الله: «قد أقلتك إسلامك» فأنزل الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾[3].

ثمّ أكّد الله سبحانه علمه بالمُغيبات التي منها ما في ضمائر الناس من اعتقاد حقّانية الاسلام وعدمه

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٩٦.
٢. كذا، والظاهر: يُصلّي.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٢٢، تفسير الصافي ٥: ٥٦.

بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ بذاته ﴿غَيْبَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وخفياتها التي لا يعلم بها غيره أحد، فكيف يخفى عليه إسراركم وما في ضمائركم من الكفر والايمان ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌ﴾ بغير جارحة ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ بجوارحكم من الخيرات والشرور والطاعة والعِصيان.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة الحجرات في كلّ ليلةٍ أو كلّ يوم، كان من زُوّار محمد صلى الله عليه وآله»[1].

الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسير السورة المباركة.

---

١. ثواب الاعمال: ١١٥، مجمع البيان ٩: ١٩٣، تفسير الصافي ٥: ٥٧.

في تفسير سورة ق

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ق وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ[١ـ٣]

ثمّ لمّا ختمت سورة الحجرات ببيان منّة الأعراب على النبي ﷺ باسلامهم الدالّ على عدم إيمانهم برسوله وكتابه واليوم الآخر، نُظِمت بعدها سورة (ق) المبتدئة ببيان عظمة القرآن وجلالته، وبيان رسالة رسوله وأدلّة التوحيد، وتهديد مكذّبي رسوله بما نزل على الأمم الماضية من العذاب، فابتدأها بذكر الأسماء المباركات بقوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ افتتحها بذكر حرف ﴿ق﴾ جلباً لتوجّه القلوب إلى ما يرد عليها فلا يفوتها حلاوة الكلمات الرائقة، وفَهْم المعاني الفائقة، وقدّ مرّ أنّ تلك الحروف رموزٌ.

عن ابن عباس: هو اسم من اسماء الله، أقسم الله به[1].

وقيل: هو رمزٌ عن كلّ اسمٍ من الأسماء الحُسنى المصدّرة بالقاف، كالقادر والقدير والقديم والقاهر والقهّار والقائم بالقسط والقاضي بالحقّ والقريب والقابض[2] والقُدّوس نحوها[3]، فانّ العرب قد ترمُز عن كلمةٍ بحرفٍ.

وقيل: هو قسم بقوة قلب حبيبه[4].

وعن الصادق عليه السلام: «وأمّا ﴿ق﴾ فهو جبلٌ محيطٌ [بالأرض] وخُضرة السماء منه، وبه يُمسِك الله الارض أن تميد بأهلها»[5].

وقال جمع من العامة: هو جبل محيطٌ بالأرض كاحاطة بياض العين بسوادها، وهو أعظم جبال الدنيا، خلقه الله من زُمُرُّدٍ أخضر، أو زَبَرجَدٍ أخضر، منه خُضرة السماء، والسماء ملتزقة به، وليس

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٩٩.

٢. في تفسير روح البيان: والقهّار والقريب والقابض والقاضي.

٣. تفسير روح البيان ٩: ٩٩.

٤. تفسير روح البيان ٩: ١٠٠.

٥. معاني الأخبار: ١/٢٢، تفسير الصافي ٥: ٥٨.

مدينة من المدائن أو قرية من القُرى إلّا وفيها عِرقٌ من عُروقه، ومَلَك مُوكّل به، واضعٌ يديه على تلك العُروق، فاذا أراد الله بقومٍ هلاكاً أوحى إلى ذلك المَلَك فحرّك عِرقاً، فخسف بأهلها، والشياطين ينطلقون إلى ذلك الزَّبَرجَد، فيأخُذون منه، فيَبُثّونه في الناس[١]، ونُسِب ذلك القول إلى ابن عباس[٢].

والظاهر أن حرف (ق) رمزٌ من كلمة قاف التي هي اسم للجبل، فلا يَرِد اعتراض الفخر الرازي أنّه لو كان اسماً للجبل لكتب (قاف) بالألف والفاء[٣].

ثمّ عظّم القرآن بالحَلْف به وتوصيفه بالعظمة بقوله: ﴿وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ﴾ والكتاب العظيم لعِظم فوائده وكونه من الله العظيم، وآية عظمته حيث عجز الخلق عن الإتيان بمثله.

وقيل: إنّ المجيد بمعنى الكريم، وتوصيفه بكثرة الكرم، لأنّه لا يطلُب أحد مقصوداً منه إلّا وجده، ولا يتمسّك به محتاجٌ إلّا أغناه[٤]. وإنّما لم يذكُر قبل (ق) أداة القسم، قيل: لوكالة[٥] دخول الحرف على الحرف[٦].

وحاصل المفاد أقسم بالجبل العظيم الذي به بقاء دنياكم، وبالقرآن الذي به بقاء دينكم، أنّ محمداً رسولٌ منذرٌ من جانب الله، والعجب أنّ قريشاً أنكروا رسالته مع دلالة المعجزات الباهرات على صدقه، ولم يكتفوا بالانكار ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ لخُبث ذاتهم وقلّة عقولهم من ﴿أَن جَاءَهُم﴾ رسولٌ ﴿مُنذِرٌ﴾ مع كونه رجلاً ﴿مِنْهُمْ﴾ يأكُل الطعام، ويمشي في الأسواق، وليس من جنس الملائكة ﴿فَقَالَ﴾ اولئك ﴿ٱلْكَافِرُونَ﴾ لنِعَم ربّهم بعضهم لبعضٍ عِناداً ولَجاجاً: ﴿هٰذَا﴾ الأمر الذي يدّعيه محمد من رسالته مع كونه بشراً ﴿شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ يحِقّ أن يُتَعجّب منه، مضافاً إلى أنه يقول بما لا يقبله العقلاء من أنّا نحيا بعد موتنا مرّةً أُخرى، أنصفوا أيّها العقلاء ﴿ءَإِذَا مِتْنَا﴾ وأُقبرنا ﴿وكُنَّا﴾ بعد سنين ﴿تُرَاباً﴾ نرجِع إلى ما كنّا عليه من الحياة؟ لا يكون ذلك أبداً، لأنّ ﴿ذٰلِكَ﴾ الرجوع الذي يدّعيه محمد ﴿رَجْعٌ﴾ وردّ ﴿بَعِيدٌ﴾ عن العادة أو الإمكان والصدق، لاختلاط أجزاء الموتى عند صيرورتهم تُراباً بعضها ببعضٍ، وعدم تميّز أجزاء كلّ ميت عن أجزاء الآخرين، فكيف يُمكن جمعها وإعادة خلق كلّ ميتٍ من أجزائه التي كانت له حال حياته؟!

قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِى أَمْرٍ مَرِيجٍ * أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٠١.
٢. تفسير الجامع للقرطبي ١٧: ٢.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ١٤٧.
٤. تفسير الرازي ٢٨: ١٤٨.
٥. كذا، والظاهر: لركاكة.
٦. تفسير الرازي ٢٨: ١٤٦ فيه اشارة إلى هذا.

وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ [٤ ـ ٦]

ثمّ ردّ سبحانه استبعادهم بأنّ عدم تميّز الأجزاء إنّما هو عندكم، لقصور علمكم، وأمّا نحن فانّا ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ وميّزنا كلّ ذرةٍ من تُراب ﴿مَا تَنقُصُ﴾ وتأكل ﴿الْأَرْضُ﴾ من أجزاء كلّ جسد ﴿مِنْهُمْ﴾ وتُصيّر من لحومهم وعظامهم وتُغيّرنا تراباً مع التفرّق في أقطارها وتُخومها، واختلاط بعضها مع بعضٍ ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ ومَصُون من الغَلَط والتغيير والسهو، فيه تفاصيل الأشياء كلّها جزءاً جزءاً، وهو اللوح المحفوظ.

وقيل: إنّ المراد تمثيل علمه تعالى بعلم من عنده كتاب مضبوط فيه تفاصيل جميع الموجودات في العالم[١]، يعلم الناظر فيه بخصوصيات كلّ ذرّةٍ منها، بحيث لا يشتبه عليه جزءٌ بجزءٍ، فكيف يُسْتَبْعد ممّن كان علمه بهذه السّعة والكمال رجعهم وإعادتهم أحياءً؟ لا والله ليس الإعادة عندهم بذلك البعيد ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ عِناداً ولَجاجاً ﴿بِالْحَقِّ﴾ ورسالة محمد الثابتة بالمعجزات الباهرات، أو القرآن الثابت كونه كلام الله باشتماله على وجوهٍ من الإعجاز ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ من غير تفكّر وتأمّل في براهين صدقه ﴿فَهُمْ﴾ كائنون ﴿فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ قيل: إنّ المراد في رأيٍ مختلف وقولٍ مختلطٍ، حيث قالوا تارةً إنّه شاعر أو شِعر، وتارة إنّه كاهن أو كِهانة[٢].

وقيل: يعني في حالٍ مضطربٍ، فانّهم تارةً يُظهِرون الشكّ في صدقه، وتارةً يُظهِرون الظنّ بكذبه، ويتعجّبون من دعوته، وتارةً يُظهِرون الجزم بكذبه[٣].

ثمّ إنّه تعالى بعد إبطال استبعادهم بقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ إلى آخره، استبعد منهم ذلك الاستبعاد مع ظهور قدرته بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا﴾ قيل: إنّ التقدير أكان المنكرون للبعث عمياناً فلم ينظُروا نظراً منهياً[٤] ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ وهي ظاهرةٌ عندهم غير غائبةٍ عنهم حيث إنّها ﴿فَوْقَهُمْ﴾ فيروا أنّا ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ ورفعناها مع عظمتها بغير عَمَدٍ؟! ومن المعلوم أنّ بناءها أصعب من نباء أساس أبدانهم ﴿وَ﴾ كيف ﴿زَيَّنَّاهَا﴾ بزينة الكواكب مع أنّ تزيينها أصعب وأكمل من تزيين أبدانهم باللحم والجلد والسمع والبصر ﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿مَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ وفتوق ومَسام وخَلَل، ولبدن الانسان خَلَل ومسامات، ومن الواضح أنّ تأليف ما خَلَل له ولا مَسامّ أصعب من تأليف ماله خَلَل وفُرَج ومَسام، فكيف تستبعدون خلق الأبدان ثانياً مع كونه أهون؟!

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٤٢٠، تفسير أبي السعود ٨: ١٢٦، تفسير روح البيان ٩: ١٠٥.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ١٥٤.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ١٥٤.
٤. تفسير روح البيان ٩: ١٠٦.

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ[٧ـ٩]

ثمّ بالغ سبحانه في الاستدلال على قدرته الموجب لرفع استبعاد المعاد بقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ فوق الماء، وبسطناها كالفِراش، كما رفعنا السماء كالسقف ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ في الأرض، كما تُلقى الحصاة ﴿فِيهَا﴾ جبالاً ﴿رَوَاسِيَ﴾ وثوابت، لترسو الأرض، وتمنعها من الحركة والاضطراب فوق الماء.

رُوي أنّه لمّا خلق الله الأرض جَعَلت تَمُور، فقالت الملائكة: ما هي بمقرّ أحدٍ على ظهرها، فأصبحت وقد اُرسيت بالجبال[١] ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ بقدرتنا بعد يُبسها وزلاقها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ وصنفٍ من النباتات ﴿بَهِيجٍ﴾ وذي حُسن ونظارة، وإنّما فعلنا تلك الأفعال البديعة، وخلقنا تلك الأشياء العجيبة، لتكون ﴿تَبْصِرَةً﴾ ومسبباً لمعرفة خالقهم، ومنبّه بالتفكّر فيها ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ وعِظةً وداعيةً إلى شكرها للناس، وإنّما الانتفاع بها ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ وراجعٍ إلى ربّه بالتفكّر في بدائع صُنعه ونِعَمه الموجبة لشكره وأداء حقّه ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ برحمتنا ﴿مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾ بالأمطار ﴿مَاءً مُّبَارَكاً﴾ كثير النفع، حيث إنّه به حياة كلّ شيءٍ من الأرض والنبات والحيوان والناس ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ﴾ في الأرض ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين من حيث أشجارها المُثمرة وغير المثمرة وأنبتنا ﴿وَحَبَّ﴾ الزرع ﴿ٱلْحَصِيدِ﴾ في كلّ سنة من البُرّ والشعير والدُّخن وغيرها.

وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ[١٠ و ١١]

ثمّ خصّ النخل بالذكر مع دخولها في الجنات، لكثرة منافعها وشرفها على سائر الأشجار المثمرة بقوله: ﴿وَ﴾ انبتنا ﴿ٱلنَّخْلَ﴾ التي تكون ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ وطوالاً، أو حوامل بالثمار ﴿لَّهَا طَلْعٌ﴾ وعُنقود ﴿نَّضِيدٌ﴾ وموضوع بعض الحبوب على بعض أكمامها، كسُنبلة البُرّ، فان كانت اُنثى تصير تلك الحبوب بُسراً وتمراً، وهو من العجائب، فانّ الأشجار الطوال أثمارها بارزة متميزة بعضها من بعض، لكلّ واحدٍ منها أصلٌ يخرُج منه، كالجوز واللوز وغيرهما، وإنّما أنبتنا الحبوب والثمار والنخل ليكون ﴿رِّزْقاً﴾ ومعاشاً ﴿لِّلْعِبَادِ﴾.

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٠٧.

وقيل: إنّ الرزق بمعنى الإنبات، والمعنى أنبتنا إنباتاً للعباد[١].

وعلى أي تقدير إنّما علّل سبحانه خلق الثمار بكونها رزقاً مع أنّ فيها أيضاً تبصرةً وذكرى، لكون الارتزاق بها عند الناس أظهر فوائدها، ولأنّ الله تعالى بعد بيان كونه قادراً على خلق أجسادهم، بيّن نعمه عليهم المقتضية لغاية قُبح تكذيبهم مُنعِمهم.

ثمّ استدلّ سبحانه على قدرته على إحيائهم بعد خلق أجسادهم بقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾ وأرضاً يابسةً جَدبة لا نبات ولا نَماء فيها، فتشقّقت وخرج منها بالمطر أنواع النبات والأزهار ﴿كَذٰلِكَ﴾ الإحياء للأرض إحياؤكم في القبور، وكخروج النباتات ﴿ٱلْخُرُوجُ﴾ منها للحشر والحساب.

رُوي أنّ الله يُمطِر السماء أربعين ليلة كمَنِيّ الرجال، يدخُل في الأرض، فيُنبِت لحومهم وعروقهم وعظامهم، ثمّ يُحييهم ويُخرِجهم من تحت الأرض[٢].

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ[١٢ ـ ١٤]

ثمّ هدّد سبحانه المكذّبين للرسول ﷺ والمنكرين للمعاد من كفّار قريش وغيرهم بما نزل من العذاب على أمثالهم من الأمم الماضية بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ بالرسول والمعاد ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ من بني شيث وبني قابيل ﴿وَ﴾ كذب ﴿أَصْحَابُ ٱلرَّسِّ﴾.

في قصة أصحاب الرّسّ

قيل: كان الرَّسّ بئراً بعدن لأمّة من بقايا ثمود، وكان لهم مَلِكٌ عادلٌ حَسنُ السيرة، اسمه عليس، وكانت البئر كثيرة الماء بحيث تسقي المدينة وباديتها وجميع ما فيها من أهاليها ودوابّها وأنعامها، ولم يكُن لهم ماء غيره، فطال عُمر المَلِك، فلمّا مات ضجّوا جميعاً بالبُكاء، لمّا رأوا أن أمرهم قد فَسَد، ثمّ طَلَوا جسده بالدُّهن لتبقى صورته، ولا يتغير، واغتنم الشيطان ذلك منهم، فدخل في جُثّة المَلِك بعد موته بأيامٍ كثيرةٍ فكلّمهم، وقال: إنّي لم أمُت، ولكنّي تغيّبت عنكم حتى أرى صنيعكم بعدي. ففرحوا أشدّ الفرَح، وأمر خاصته أن يضربوا حِجاباً بينه وبينهم، ويُكلّمهم من ورائه كيلا يُعرَف الموت في صورته، فنصبوه صنماً من وراء الحِجاب، لا يأكل ولا يشرب، وأخبرهم أنّه لا يموت ابداً، وأنّه إلههم، ويتكلم الشيطان ذلك كلّه على لسانه، فصدّق كثيرٌ منهم، وارتاب بعضهم، وكان المؤمن المُكذّب أقلّ من المصدّق. فكلّما تكلّم ناصحٌ

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ١٥٧ و١٥٨.

٢. تفسير روح البيان ٩: ١٠٩.

منهم زُجر وقُهر، فاتّفقوا على عبادته، فبعث الله لهم نبياً كان الوحي ينزل عليه في النوم دون اليقظة، وكان اسمه حنظلة بن صفوان، فاعلمهم أنّ الصورة صنمٌ لا روح له، وأنّ الشيطان فيه، وأنّ الله لا يتمثّل بالخَلْق، وأنّ المَلِك لا يكون شريكاً لله تعالى، ونصحهم وحَذرهم سَطْوة ربّهم ونَقِمته، فأذوه وعادوه، وهو يبالغ في نُصحهم ووعظهم، حتى قتلوه وطرحوه في بئرٍ، وعند ذلك حلّت عليهم النقمة، وأصبحوا والبئر [قد] غار ماؤها، فصاحوا بأجمعهم، وضجّ النساء والولدان والبهائم عطشاً حتى هلكوا، وتبدّلت اشجارهم المُثمرة بالسِّدر والشوك[١].

وقيل: إنّ الرَّسّ بئرٌ قريب من اليمامة[٢].

وقيل: بئر أذربايجان[٣]، أو اسم وادٍ[٤]، وقد سبقت قصتهم في سورة الفرقان.

﴿وَ﴾ كذّبت ﴿ثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ الذي كان مفترٍ ومستخفاً بقومه فأطاعوه وأتّبعوه، ولذا لم يقل: قوم فِرعون ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ وإنّما عبّر سبحانه عن قوم لوط بإخوان، لأنّهم كانوا طائفةً من قوم إبراهيم، لهم سابقةٌ معروفةٌ بلوط، وكذا قيل[٥] ﴿وَأَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ والغَيطة، وهم من قوم شعيب ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الحِمْيَري مَلِك اليمن ﴿كُلٌّ﴾ من أفراد هؤلاء الأقوام ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ المبعوثين إليهم، أو الرسل جميعاً فيما أُرسلوا به من التوحيد والبعث والشرائع ﴿فَحَقَّ﴾ وثبت، أو حلّ عليهم ﴿وَعِيدِ﴾ الله، وما أنذروهم به من العذاب، وفي الآية تسلية للرسول، لئلا يَحْزَن بتكذيب قومه، ويصبِر على أذاهم، كما صبر الرُّسل على أذى قومهم، ويطمئنّ بالظُّفر على أعدائه كما ظَفِروا.

أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ[١٥]

ثمّ إنّه تعالى بعد تعداد الآيات الآفاقية الدالة على التوحيد وصحّة البعث عاطفاً بعضها على بعضٍ بالواو لكون جميعها من جنسٍ واحدٍ، استدلّ بخلق أنفسهم عاطفاً له بالفاء لتأخّره في الرُّتبة عن تلك الآيات بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ وعَجَزنا عن خلقكم ثاني مرّة ﴿بِالْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ وبسبب إيجادهم في الدنيا أو بخلق السماوات والأرض؟! لا والله إنّهم لا يُنكِرون أنّا خلقنا السماوات والأرض، وأنّا خلقناهم في الدنيا ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ﴾ وشكٌ وشُبهةٍ ﴿مِنْ خَلْقٍ﴾ لهم ﴿جَدِيدٍ﴾ وثاني مرة، لكونه على خلاف العادة في الدنيا، ويقولون: أيُكَرّر ويُجدّد خلقنا، ونرجِع ثانياً أحياء؟! ذلك رجعٌ بعيدٌ.

قال بعض المتكلمين: إنّ ابن آدم في كلّ زمان متلبّس بخلقٍ جديدٍ، فإنّه تتحلّل أجزاؤه، ويَخْلَق لها

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٠٩.
٢ و٣. تفسير روح البيان ٩: ١١٠.
٤. تفسير روح البيان ٩: ١١٠.
٥. تفسير الرازي ٢٨: ١٦١.

بدل ما يتحلّل، فهو في هذا العالم يتجدّد خلقه، والله تعالى في كلّ يومٍ من خلقه، بل من خلق العالم في شأن، وعليه يكون معنى الآية أنّه لا يختصّ تجديد خلقهم بما بعد خُروجهم من الدنيا، بل هم في هذه الدنيا متلبّسون في كلّ يومٍ بخلق آخر جديد[١].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «تأويل ذلك أن الله تعالى إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم، وسكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، جدّد الله عالماً آخر غير هذا العالم، وجدّد خلقاً من غير فُحوله ولا إناث يَعْبُدونه ويُوحدّونه، وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملِهم، وسماءً غير هذه السماء تُظلّلهم، لغلك ترى أن الله إنّما خلق هذا العالم الواحد، أو ترى أنّ الله لم يخلُق بشراً غيركم؟ بلى والله لقد خلق الله ألف ألف عالم، وألف ألف آدم، وأنت في آخر تلك العوالم، وأُولئك الآدميين»[٢].

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ [١٦ـ١٨]

ثمّ بيّن سبحانه كمال قدرته وسَعَة علمه المبنيين لإمكان الخلق الجديد بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ بقدرتناالكاملة ﴿ٱلْإِنسَانَ﴾ في الدنيا من غير مثالٍ سابقٍ ﴿وَنَعْلَمُ﴾ بذاتنا ﴿مَا تُوَسْوِسُ﴾ وتُحدّث ﴿بِهِ نَفْسُهُ﴾ وتخطِر على قلبه من خيرٍ أو شرٍ، أو خَطَرات السوء الحاصلة بإلقاء الشيطان ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾ علماً ﴿إِلَيْهِ﴾ من كلّ قريبٍ حتى ﴿مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ والعِرق المتّصل بقلبه المخالط للحمه، وفيه مجاري روحه الحيواني، وهو كناية عن نِهاية القُرب، والمعنى أنّ الله تعالى أقرب إلى الانسان من رُوحه ونفسه ﴿إِذْ يَتَلَقَّى﴾ وحين يتلقّن المَلَكان ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ والآخذان من الانسان فعله وقوله، وكاتبان عليه كلّما يصدُر منه، فليس توكيلهما عليه لكتابة أعماله للحاجة في الاطلاع على أعماله إلى ضبطهما وثبتهما أعماله، لأنّا أقرب إليه من كلّ قريب، وأعلم بحاله من نفسه، بل لكونه بعد الاطلاع على أنّ عليه ملكين موكلين لكتابة أعماله، أدعى له إلى الطاعة، وأزجر له عن المعصية، وكلّ منهما ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ من الانسان ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ منه ﴿قَعِيدٌ﴾ وجالس.

﴿مَا يَلْفِظُ﴾ وما يرمى به ﴿مِن قَوْلٍ﴾ وكلام خير أو شرّ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ﴾ مَلَك ﴿رَقِيبٌ﴾ يُراقِب ذلك القول ويكتُبه في صحيفته، وهو ﴿عَتِيدٌ﴾ ومُهيأ لكتابته، أو هو حاضرٌ عنده أينما كان، لا يفارقه ولا

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١١١.

٢. التوحيد: ٢/٢٧٧، تفسير الصافي ٥: ٦٠.

يَغفُل عنه.

روى بعض العامة عن النبي ﷺ أنّه قال: «نقّوا أفواهكم بالخِلال، فانّها مجلس المَلَكين الكريمين الحافظين، وإنّ مدادهما الرِّيق، وقلمهما اللسان، وليس عليهما شيءٌ أمرّ من بقايا الطعام بين الأسنان»[١].

ورووا عنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: «عند نابيه»[٢].

ورووا عنه ﷺ أنّه قال: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمير وأمين على كاتب السيئات، فاذا عَمِل حسنةً كتبها مَلَك اليمين عشراً، وإذا عَمِل سيئةً قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: دعه سبع ساعات لعلّه يُسبّح ويستغفر»[٣] وروى أصحابنا عن الصادق عليه السلام ما يقرُب منه[٤].

وعن النبي ﷺ: «أنّ ملائكة الليل وملائكة النهار يُصلّون معكم العصر، فتصعد ملائكة النهار وتمكُث ملائكة الليل، فاذا كان الفجر نزل ملائكة النهار ويُصلّون الصبح، فتصعد ملائكة الليل وتمكُث ملائكة النهار، وما من حافظين يرفعان إلى الله ما حَفِظا فيرى الله في أول الصحيفة خيراً وفي آخرها خيراً إلّا قال لملائكته: اشهدوا أنّي قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة»[٥].

وعنه ﷺ: «أنّ الله تبارك وتعالى وكّل بعبده المؤمن مَلَكين يكتُبان عمله، فاذا مات قال المَلَكان للذين يكتُبان عمله: قد مات فلان، فتأذن لنا أن نصعد إلى السماء. فيقول الله تعالى: إنّ سمائي مملوءة من ملائكتي يُسبّحون. فيقولان: فأين؟ فيقول: قُوما على قبر عبدي فكبّراني وهلّلاني: واكتُبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة»[٦].

وقيل: إنّ التلقّي بمعنى الاستقبال، والمعنى بناءً عليه: أنّ لكلِ إنسانٍ مَلَكين يستقبلان روحه حين موته، فيأخُذان روحه من مَلَك الموت، أحدهما يأخُذ أرواح الصالحين، وينقُلها إلى دار السرور، والآخر يأخُذ أرواح الطالحين، وينقُلها الى الويل والثبور، وعنده مَلَكان يكتُبان أعماله، فاذا نزل المتلقيان يسألان الكاتبين أن الذي مات من الصالحين، أو من الطالحين، فإن كان من الصالحين يأخُذ روحه مَلَك السرور، ويرجِع إلى الآخر مسروراً، وإن كان من الطالحين يأخُذها مَلَك العذاب، ويرجِع إلى الآخر محزوناً»[٧].

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٩: ١١٦.
٣. جوامع الجامع: ٤٦١، تفسير الصافي ٥: ٦١، تفسير روح البيان ٩: ١١٥.
٤. الكافي ٢: ٣١٣/٤، تفسير الصافي ٥: ٦١.
٥. تفسير روح البيان ٩: ١١٦.
٦. تفسير روح البيان ٩: ١١٧.
٧. تفسير الرازي ٢٨: ١٦٣.

أقول: فيه أنّ الظاهر أنّ الآيتين بيان لحال الانسان قبل خروج روحه.

وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ[١٩]

ثمّ لمّا استبعدوا البعث بيّن سبحانه بعض أهوال النّزع وقيام الساعة بقوله: **﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾** وشدّته المُذهِبة للعقول المُزيلة للفِطن الجاعلة للانسان كالسكران **﴿بِالْحَقِّ﴾** والموت الثابت الذي لا محيص عنه.

نقل رواية عامية في فضيلة علي عليه السلام وجهل عمر

كما حكى بعض العامة أنّ رجلاً أتى عمر وقال: إنّي اُحبّ الفتنة، وأكره الحقّ، وأشهد بما لم أره. فحبسه عمر، فبلغت قصّته أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: «يا عمر حبسته ظلماً» فقال: كيف ذلك؟ قال: «لأنّه يحبّ المال والولد، وقال الله تعالى: **﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتنَةٌ﴾**[١] ويكره الموت وهو الحقّ، قال تعالى: **﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾** ويشهد بأنّ الله واحد وهو لم يره» فقال عمر: لولا عليّ لهلك عمر[٢] انتهى.

فيقول له مَلَك الموت، أو لسان حاله: يا إنسان **﴿ذٰلِكَ﴾** الموت الذي نزل بك هو **﴿مَا كُنتَ﴾** في الدنيا **﴿مِنْهُ تَحِيدُ﴾** وتميل وتهرُب، بل تحسَب أن لا ينزل عليك لانغمارك في شهوات الدنيا وحبّها، والتعبير بالماضي للإيذان بتحقّقه وقُربه، وإسناد إتيان الموت إلى سكرته لبيان غاية شدّتها، فكأنّ شدّة حال النزع اقتضت الموت، وأمات ذلك الانسان.

وقيل: إنّ المراد بالحقّ الدين الذي جاء به الرسول[٣]، فانّ الانسان حال احتضاره يظهر له حقّانيته، فكنّى سبحانه عن ظهور الحقّ بالسّكرة باتيانها به، أو المراد من الحقّ العذاب المُعدّ للكفّار، فإنّه ينزل عليه بالموت، أو يراه في حال الاحتضار وميله عن الحقّ على التقديرين إنكاره إياه.

عن القمي رحمه الله، قال: نزلت في الأول[٤].

أقول: يعني أنّه أظهر من تنطبق عليه الآية، روت العامة عن عائشة، أنّها قالت: أخذت أبا بكر غشيةٌ من الموت، فبكيت عليه، فأفاق أبو بكر، فقال: **﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾**[٥].

وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ

---

١. التغابن: ١٥/٦٤. ٢. تفسير روح البيان ٩: ١١٨. ٣. تفسير الرازي ٢٨: ١٦٤.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٢٤، تفسير الصافي ٥: ٦١. ٥. تفسير روح البيان ٩: ١١٨.

قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ * ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ[٢٠ـ٢٩]

ثمّ ذكر سبحانه أهوال البعث بعد الموت بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ النفخة الثانية، وهي نفخة البعث والنشور، فيقول لهم المَلَك تهويلاً: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوقت الذى بُعِثتم فيه ﴿يَوْمُ﴾ إنجاز ﴿ٱلْوَعِيدِ﴾ الذي أوعدكم الله على لسان رسله به من العذاب والأهوال ﴿وَجَاءَتْ﴾ من القبور إلى المحشر ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البرّة والفاجرة و﴿مَعَهَا﴾ مَلَك ﴿سَائِقٌ﴾ له يسوقه إلى المحشر، وإن اختلفت كيفية سوق المؤمن والكافر، والمطيع والعاصي ﴿وَ﴾ مَلَك ﴿شَهِيدٌ﴾ على أعمالها أنّها خيرٌ تستحقّ بها الجنّة، أو شرّ تستحق بها النار.

وفي (نهج البلاغة): «سائق يسوقها إلى المحشر، وشاهد يشهد عليها بعملها»[١].

قيل: إنهما المَلَكان الكاتبان[٢]. وقيل: مَلَكٌ واحدٌ يسوقها ويشهد على عملها[٣]. وقيل: السائق مَلَكٌ، والشهيد جوارحه[٤].

ثمّ يقال لذلك المَسُوق: ﴿لَقَدْ كُنتَ﴾ في الدنيا غائراً ﴿فِى غَفْلَةٍ﴾ عظيمةٍ ﴿مِنْ هَٰذَا﴾ اليوم وما فيه من الأهوال ﴿فَكَشَفْنَا﴾ وأزلنا ﴿عَنكَ﴾ غفلتك التي كانت ﴿غِطَاءَكَ﴾ وحِجابك الذي يمنعك عن اليقين بمجيء هذا اليوم، ويُحتمل كون المراد من الغطاء الجهل والشهوة وحبّ الدنيا ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ﴾ لانكشاف الغطاء عنه ﴿حَدِيدٌ﴾ ونافذ، تبصُر ما كنت منُكره وتستبعده وتتعجّب ممّن يُخبر به، ولكن لا ينفعك اليوم إبصار ﴿وَقَالَ﴾ المَلَك الذي هو ﴿قَرِينُهُ﴾ في الدنيا يكتُب أعماله، أو المَلَك الشهيد عليه، كما عنهما عليهما السلام[٥]: ﴿هَٰذَا﴾ الكتاب الذي فيه أعمالك ﴿مَا لَدَيَّ﴾ وهو الذي عندي ﴿عَتِيدٌ﴾ وحاضرٌ، أو مهيّأ جميعاً للعرض.

وقيل: إنّ المراد بالقرين الشيطان المُقيّض له[٦]. يقول هذا الشخص العاصي الطاغي: ما لدي والذي عندي وفي ملكتي ومقدوري عتيد ومُهيأ لورود جهنّم، قد هيأته له بإغوائي وإضلالي، فيقول الله تعالى للسائق والشهيد، أو المَلَكين من خَزَنة النار: ﴿أَلْقِيَا﴾ أيها المَلَكان ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾ هذا الكافر

---

١. نهج البلاغة: ١١٦، الخطبة ٨٥ تفسير الصافي ٥: ٦١.
٢. تفسير روح البيان ٩: ١٢١.
٣ و ٤. تفسير البيضاوي ٢: ٤٢٢.
٥. مجمع البيان ٩: ٢٢٠، تفسير الصافي ٥: ٦٢.
٦. تفسير أبي السعود ٩: ١٣١، وفي النسخة: المقبض له.

و﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ وكثير الطغيان على المُنعم ومبالغ في التضييع لحقوقه بانكار توحيده ونعمه.

وقيل: يعني كلّ كافرٍ حامل غيره على كفره[١]، عنيد ومبغض للحقّ، أو منحرف عن الطاعة، أو معجب بما عنده.

وعن القمي: أنّه خطاب للنبي ﷺ وعلي عليه السلام[٢].

وعن السجاد عليه السلام، عن أبيه، عن جدّه أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: إنّ الله تبارك وتعالى إذا جمع الناس يوم القيامة في صعيدٍ واحدٍ كنت أنا وأنت عن يمين العرش، ثمّ يقول الله تبارك وتعالى لي ولك: قُوما فالقيا من أبغضكما وكذّبكما في النار»[٣].

وفي (المجمع) و(الأمالي) من طرق العامة مثله، وزادا: «وأدخلا في الجنّة من أحبكما، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾»[٤].

﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ وكثير البُخل بالمال، الممتنع عن أداء حقوق الله من الزكاة والخمس وغيرهما من الواجبات المالية.

وقيل: إنّ المراد بالخير الاسلام. قيل: نزلت في الوليد بن المُغيرة لمّا منع بني أخيه منه، وكان يقول: من دخل منكم في الاسلام لم أنفعه بخيرٍ ما عشت[٥].

﴿مُعْتَدٍ﴾ ومجاوز عن حدود العقل، ظالم على نفسه وعلى العباد، ومعاند لآيات الله ولأهل الحقّ ﴿مُرِيبٍ﴾ وشاكّ في دين الاسلام، أو في البعث ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ واختلق من قبل نفسه وهواه ﴿مَعَ ٱللهِ﴾ وأشرك به في العبادة ﴿إِلٰهاً ءَاخَرَ﴾ ومعبوداً غيره من مخلوقاته، كالكواكب والأصنام، فكلّ من كان من الناس بهذه الصفات ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ هذا الأمر تأكيدٌ لما سبق.

ثمّ قيل: إنّ الكفار يعتذرون إلى الله بأنّ الشيطان الذي كان قريننا في الدنيا أضلّنا وأطغانا، فهو المستحقّ للعذاب دوننا ﴿قَالَ﴾ الشيطان الذي هو ﴿قَرِينُهُۥ﴾ ومصاحبه في الدنيا ﴿رَبَّنَا﴾ ما أضللته و﴿مَا أَطْغَيْتُهُۥ﴾ بالقهر والجبر ﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ هو لخبث ذاته وسوء أخلاقه مستقراً ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ وانحرافٍ ظاهرٍ عن صراطك المستقيم ﴿بَعِيدٍ﴾ عن طريق الحقّ القويم، بحيث لا يُرجى منه الرجوع إليه، وأنا أعنته على ضلاله وطغيانه بالإغواء والدعوة لا عن قهرٍ وإلجاء. ﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿لَا تَخْتَصِمُوا﴾ ولا تنازعوا ﴿لَدَىَّ﴾ وفي محضر عدلي وموقف حكومتي، إذ لا فائدة فيه، ولا عُذر

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٢٣.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٢٤، تفسير الصافي ٥: ٦٢.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٢٤، تفسير الصافي ٥: ٦٢.
٤. أمالي الطوسي: ٥٦٣/٢٩٠، مجمع البيان ٩: ٢٢٠، تفسير الصافي ٥: ٦٢.
٥. تفسير روح البيان ٩: ١٢٤.

مقبول ﴿وَ﴾ الحال أنّي ﴿قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم﴾ وأعلمتكم في دار الدنيا بتوسّط رسلي وكتبي ﴿بِالْوَعِيدِ﴾ والعذاب الشديد على الشرك والطغيان، وأتممت الحجّةَ عليكم، وقطعت عُذركم، فاليوم ﴿مَا يُبَدَّلُ﴾ ولا يُغيّر ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ الذي قلته، والوعيد الذي وعدته على الشرك والكفر والطغيان في كتابي بقولي: ﴿إِنَّ ٱللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[١] وقولي: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ﴾[٢] ﴿فَأُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٣].

﴿لَدَيَّ﴾ بوقوع الخُلف فيه ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بتعذيبهم بغير استحقاق أشدّ العذاب مع كونهم أهلين للرحمة والعطوفة وإنّما نفى كثرة الظلم عن نفسه مع أنّه لا يصدُر منه أقلّه؛ لأنّه لو عذّبهم بهذا العذاب الشديد بغير استحقاق، كان أكثر ظلماً من كلّ ظالم.

قيل: إنّ كثرة الظلم المنفي باعتبار كثرة العبيد[٤]. وقيل: إنّ المبالغة راجعةٌ إلى النفي، لا إن النفي واردٌ على صيغة المبالغة[٥]. وقيل: إنّ الظلّام بمعنى الظالم، كالتمّار بمعنى التامر.

وقيل: إنّ الظلام تقديري، والمعنى أنّي لو ظلمت عبدي الضعيف المستحقّ لغاية الرحمة، لكان ذلك غاية الظلم، وما أنا بذلك[٦]. وقيل: إنّ نفي كونه ظلّاماً لا ينافي نفي كونه ظالماً، ونفيه للعبيد لا ينافي عدم كونه ظالماً لغيرهم[٧].

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَزِيدٍ * وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ[٣٠-٣٢]

وذكر العبيد والتخصيص بهم لكونهم أقرب إليه، وكونه أقبح منه، كما أنّه لا ينافي نفي كونه ظالماً في جميع الأزمنة تخصيص نفيه بيوم القيامة بقوله: ﴿يَوْمَ﴾ والمعنى ما أنا بظلام للعبيد في يوم ﴿نَقُولُ﴾ في ذلك اليوم مع عظمتنا، طلباً[٨] لتصديقنا في أخبارنا، وتحقيق وعدنا، وتقريع أهل العذاب ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ ودار العذاب بعد إلقاء جميع الكفّار من الجنّ والإنس فيها: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ بمن ألقينا فيك، وهل وفينا بوعدنا إيّاك أن نملأك من الجنّة والناس؟ ﴿وَتَقُولُ﴾ جهنّم مجيبةً لنا، واستكثاراً لما أُلقي فيها مع غاية سَعَتها وتباعُد أقطارها وأطرافها: يا رب ﴿هَلْ مِن مَزِيدٍ﴾ وموضعٍ يُمكن أن يُلقى فيه[٩] زيادة على ما أُلقي فيّ، لا وعزّتك لم يبقَ فيّ موضع يَسَع إبرة.

وقيل: إنّ الاستفهام لطلب الزيادة غيظاً على الكفّار والعُصاة، وكان السؤال قبل إدخال الكلّ فيها، أو

---

١. النساء: ٤/٤٨ و١١٦. ٢. النساء: ٤/٤٨ و١١٦. ٣. البقرة: ٢/٨١. ٤. تفسير روح البيان ٩: ١٢٦.
٥ و٦. تفسير الرازي ٢٨: ١٧٢. ٧. تفسير الرازي ٢٨: ١٧٣.
٨. في النسخة: طالباً. ٩. في النسخة: في.

كان بعد إدخال الكلّ، وهي تطلُب الزيادة في سَعَتها وإلقاء الكفّار فيها[١].

وقيل: إنّه لا يكون سؤال وجواب، وإنّما ذَكَر الله سبحانه ذلك على سبيل التمثيل والتخيّل[٢]. إظهاراً لامتلاء جهنّم، واشتياقها إلى الكفّار، والحقّ أنّه بيان الحقيقة والواقع، حيث إنّ جهنّم بل جميع ما في عالم الآخرة لها شعور وحياة وقوة نطق، كما دلّ عليه بعض الأخبار.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان شدة غضبه وعذابه على الكفّار، بيّن كثرة لُطفه ورحمته للمؤمنين المتقين بقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ وقربت ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ في ذلك اليوم ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمحترزين عن الشرك والكفر والعصيان، بحيث يَرونها من الموقف، ويطّلعون على ما فيها من المحاسن والبهجة والنِّعم، ليزيد فرحهم وابتهاجهم، وهي تكون شيئاً ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ عنهم، وفيه تأكيدٌ لكمال قُربها منهم وإكرامه لهم، وأيضاً في صدر الآية دلالةٌ على أنّ الجنة تقرُب إليهم، لا أنّهم يقرُبون إلى الجنّة، ويُحتمل أن يكون المراد بالقُرب هنا كناية عن سُهولة دخولهم فيها.

وعن القمي ﷺ: أنّ المعنى زُيّنت الجنّة للمتقين بسرعة[٣].

ثمّ يقال لهم تفريحاً لقلوبهم: ﴿هَٰذَا﴾ الذي تُشاهدونه من الجنّة ونعيمها ﴿مَا﴾ كنتم في الدنيا ﴿تُوعَدُونَ﴾ وتُبشّرون به على إيمانكم وطاعتكم، في كتابنا المُنزَل على لسان النبي المرسل. ثمّ ابدل سبحانه عن المتّقين بقوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ ورجّاع إلى ربّه بالتوبة والاستغفار من ذنوبه ﴿حَفِيظٍ﴾ يَحْفَظ توبته من النقض، وعهده مع الله بالطاعة من الرفض، وقيل: الرجّاع إلى الله بالفِكر[٤] والتوجّه بالقلب، شديد التحفّظ على طاعة أحكامه وأوامره ونواهيه.

مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ * لَهُم مَا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ[٣٣-٣٥]

ثمّ بالغ سبحانه في توضيح المتّقين بقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ وخاف من الله العظيم، مع كونه الرحمن المبالغ في الرحمة والعطوفة بعبده حال كونه ﴿بِالْغَيْبِ﴾ من خلقه لا يرونه بالحواسّ الظاهرة، أو خشي الرحمن من أن يُعاقبه حال كون عقابه بالغيب لم يَرَه بعينه ﴿وَجَاءَ﴾ ربه في الآخرة ﴿بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ وحضر عنده مع قلبٍ سليم من الشرك ورذائل الأخلاق والشكّ والنفاق.

ثمّ يقال لهم على رؤوس الأشهاد من قبل الله تبارك وتعالى: أيّها المتقون، اذهبوا إلى الجنة التي

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ١٧٤.

٢. تفسير البيضاوي ٢: ٤٢٤، تفسير أبي السعود ٨: ١٣٢، تفسير روح البيان ٩: ١٢٧.

٣. تفسير القمي ٢: ٣٢٧، تفسير الصافي ٥: ٦٣.

٤. تفسير الرازي ٢٨: ١٧٦.

ترونها و﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ حال كونكم مُكرَّمين ﴿بِسَلَامٍ﴾ من الله وملائكته، أو متلبّسين بسلامة من العذاب والآفات وزوال النعم وحلول النقم، آمنين منها ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم الذي أنتم فيه ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ في الجنّة ونعمها والبقاء فيها أبداً.

ثمّ بشّر الله سبحانه في الدنيا المتّقين بنعمه التي أُعدّت لهم في الجنّة بقوله: ﴿لَهُم مَا يَشَاؤُونَ﴾ ويشتهون ﴿فِيهَا﴾ من المآكل اللذيذة، والأشربة الطيبة، والملابس الناعمة الفاخرة، والحُور والقُصور، والسُّرر المرفوعة، والنَّمارِق المصفوفة وغيرها في أيّ زمانٍ وحالٍ. ويُحتمل أن يكون ذلك خطاباً للملائكة الموكّلين بخدمتهم، والمراد اعلموا يا ملائكتي أن لهم مايشاؤون، فأحضِروا عندهم ما يشتهون ﴿وَلَدَيْنَا﴾ على ذلك ﴿مَزِيدٌ﴾ ممّا لا يخطِر ببالهم، ولا تقدِرون أنتم عليه، ولا يندرج تحت مشيئتهم من أنواع اللّذات والكَرَامات.

قيل: إنّهم يسألون الله حتى تنتهي مسألتهم فيُعطيهم ما شاءوا، ثمّ يزيدهم من عنده ما لم يسألوه، ولم تبلُغه أمانيهم[1].

قيل: إنّ السَّحاب تمُرّ بأهل الجنّة فتُمطِرهم الحُور، فتقول: نحن المزيد الذي قال الله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[2]. ورُوي أنّ هذه الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى[3]. وعن القمي ﷺ، قال: النظر إلى رحمة الله[4].

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشاً فَنَقَّبوا فِى ٱلْبِلَادِ هَلْ مِن مَحِيصٍ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ[٣٦ و ٣٧]

ثمّ إنّه تعالى بعد تهديد المشركين المنكرين للبعث بعذاب الآخرة وأهوالها، وترغيبهم إلى الايمان والتقوى ببيان حُسن عاقبة المتّقين، هدّدهم بما نزل على أمثالهم من الأُمم الماضية من العذاب بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ وكثيراً ما عذّبنا بعذاب الاستئصال ﴿قَبْلَهُم﴾ وفي الأعصار السابقة على عصر قومك ﴿مِن قَرْنٍ﴾ وجماعات مقترنين في العصر ﴿هُمْ أَشَدُّ﴾ من قومك وأكثر ﴿مِنْهُم بَطْشاً﴾ وقوةً في الجسم، كعاد وثمود وغيرهم، لكفرهم وتكذيبهم الرسل وإنكارهم البعث ﴿فَنَقَّبوا﴾ وبحثوا وتصرّفوا، أو جالوا ﴿فِى ٱلْبِلَادِ﴾ وأذلّوا أهلها وقهروهم وأستولوا عليهم، وهم قائلون حين نزول

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٣٢.
٢ و٣. تفسير روح البيان ٩: ١٣٢.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٢٧، تفسير الصافي ٥: ٦٤.

العذاب عليهم ﴿هَلْ مِن مَحِيصٍ﴾ ومَفَرّ أو ملجأ منه؟ ولم يجدوه.

وقيل: إنّه من كلام الله تعالى مخاطباً لقوم النبي ﷺ[1]، والمعنى: أنّ الأمم الماضية اُهلِكوا مع قوة بطشهم، فهل لكم يا قوم محمد من مَحيصٍ ومَهْرَب عن العذاب؟

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من إهلاك الأمم لكفرهم وطُغياهم، والله ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ وعِظَةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ يَفْقَه به ويتفكّر فيما يَرِد فيها، ويُدرِك سوء عاقبة الكفر والطغيان، أو لمن كان له عقل، كما عن الكاظم عليه السلام. وعن ابن عباس[2] ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ ولم يُمسكه عن سَماع ما يُتلى عليه من الوحي الناطق بما جرى عليهم ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وحاضرٌ بذهنه ليفهم معانيه، أو شاهد بصدقه فيتّعظ بظواهره وينزجر بزواجره.

وقيل: يعني والمنذر الذي تعجّبتم منه شهيدٌ، كما قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً﴾[3].

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ * وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ [٣٨ـ ٤١]

ثمّ عاد سبحانه إلى الاستدلال على إمكان إعادة الخلق للحساب بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّماوَاتِ﴾ السبع ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ بطبقاتها ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الموجودات ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وأوقات بلا استعانةٍ بالغير ﴿وَمَا مَسَّنَا﴾ وما أصابنا بذلك شيء ﴿مِن لُغُوبٍ﴾ وتعبٍ ونَصَبٍ حتى نعجِز من إعادة الخلق ثانياً، فانّ خلق كلٍّ منها بالارادة المُعبّر عنها بأمر (كُن) بلا حاجة إلى حركة وتحمّل كلفة ومشقّة، لاستحالة الحاجة في الواجب، وفيه أيضاً ردّ على اليهود حيث زعموا أنّ الله بدأ خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستلقى يوم السبت على العرش واستراح.

ثمّ لمّا كان شدّة إنكار المشركين رسالة الرسول والبعث والمعاد ثقيلاً على قلب النبي ﷺ، أمره سبحانه بالصبر وتنزيهه تعالى عن العجز بقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿عَلَىٰ﴾ أذى المشركين و﴿مَا يَقُولُونَ﴾ في شأنك وشأن البعث من التعجّب من رسالتك واستبعاد البعث والإعادة بعد الموت، كما

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ١٨٢.
٢. الكافي ١: ١٢/١٢، تفسير الصافي ٥: ٦٤، تفسير روح البيان ٩: ١٣٥.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ١٨٣، والآية من سورة الفتح: ٨/٤٨.

صبر أُولو العزم من الرسل، فانّك تَظفَر على أعدائك كما ظَفِروا ﴿وَسَبِّحْ﴾ ونزّه الله من العجز من تجديد الخلق وسائر الصفات الممكنات، وأقرن تسبيحه ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على ما أنعم عليك من الرسالة وإصابة الحقّ في الوقتين ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ وهو وقت العصر، فأنهما أشرف الأوقات ﴿وَمِنَ﴾ أول ﴿ٱلَّيْلِ﴾ أو بعضه ﴿فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ﴾ وأعقابه.

قيل: إنّ المراد أمر النبي ﷺ بإظهار عظمة الله وتنزيهه من العجز بالبرهان في مجامع العرب، وأن لا يسأم عن التبليغ بسبب أقاويلهم الباطلة، فانّ العرب كانوا يجتمعون في تلك الأوقات[١].

وقيل: إنّ المراد بالتسبيح قبل طلوع الشمس صلاة الفجر، وقبل الغروب صلاة الظهر والعصر، وفي بعض الليل أو أوله صلاة المغرب والعشاء، وبالتسبيح في أدبار السجود صلاة النوافل أدبار الفرائض[٢].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عن قوله: ﴿وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ﴾ قال: «ركعتان بعد المغرب»[٣].

وعن الرضا عليه السلام، قال: «أربع ركعات بعد المغرب»[٤].

وعن الصادق عليه السلام «أنّه الوتر في آخر الليل»[٥].

وقيل: إنّ المراد بالتسبيح والتحميد قول: سبحان الله والحمد لله[٦].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «تقول حين تُمسي وحين تُصبح عشر مرات: لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يُحيي ويُميت، وهو على كلّ شيءٍ قدير»[٧].

قيل: إنّ وظيفة النبي ﷺ هداية الخلق وعبادة الحقّ[٨]، والمراد من الآية إذا لم يهتدوا بهدايتك، فاشتغل بعبادة ربك ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ يا محمد ما اُوحي إليك، ولا تكن من المُعرضين عنه، أو استمع النداء ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ بقوله: ﴿ٱحشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وأَزوَاجَهُمْ﴾[٩] أو بقوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾[١٠] وقوله للمتقين: ﴿آدخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾[١١] أو بقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[١٢] واعلم أنّ هذه الوجوه مبنية على كون المنادي هو الله عز وجل.

أو بقوله: ايتها العظام النخرة، اجتمعن واتّصلن واحشرن للحساب، بناءً على كون المنادي إسرافيل.

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ١٨٥.
٢. تفسير روح البيان ٩: ١٤٠.
٣. الكافي ٣: ١١/٤٤٤، تفسير الصافي ٥: ٦٥.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٢٧، تفسير الصافي ٥: ٦٥.
٥. مجمع البيان ٩: ٢٢٥، تفسير الصافي ٥: ٦٥.
٦. تفسير الرازي ٢٨: ١٨٥.
٧. مجمع البيان ٩: ٢٢٥، تفسير الصافي ٥: ٦٥.
٨. تفسير الرازي ٢٨: ١٨٥.
٩. الصافات: ٢٢/٣٧.
١٠. سورة ق: ٢٤/٥٠.
١١. سورة ق: ٣٤/٥٠.
١٢. الأنعام: ٢٢/٦.

قيل: إن إسرافيل يقوم على الصخرة وينادي: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطّعة، واللحوم المتمزّقة، والشعور المتفرّقة، إنّ الله يأمُركن أن تجتمعن لفصل القضاء[١].

وقيل: إنّ جَبْرئيل يُنادي بالحشر[٢]. ﴿مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من جميع الناس يسمعه كلّهم على حدٍّ سواء.

يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ[٤٢_٤٥]

ثمّ بيّن سبحانه يوم نداء المنادي بقوله: ﴿يَوْمَ﴾ يخرُج جميع الناس من القبور و ﴿يَسْمَعُونَ﴾ من إسرافيل ﴿ٱلصَّيْحَةَ﴾ والنفخة الثانية في الصُّور، وهي مقرونةٌ ومتلبّسةٌ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ والتحقّق، أو مصحوبةٌ باليقين والقطع، لا بالظنّ والشكّ، أو المراد بالصيحة بالحشر الذي هو الحقّ بقوله: يا عظام اجتمعي.

أقول: هذا التفسير لا يُوافق سَماع الناس تلك الصيحة.

﴿ذٰلِكَ﴾ اليوم الذي تُسمع فيه الصيحة ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور والسوق إلى المحشر والحساب، ثمّ إلى الجنّة، أو النار.

وعن القمي ﴿يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ باسم القائم واسم أبيه[٣] ﴿مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيث [يصل] نداؤه إلى الكلّ سواء ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ قال: صيحة القائم من السماء ﴿ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾[٤].

وعنه، عن الصادق عليه السلام قال: «هي الرجعة»[٥].

أقول: هذا تأويل الآية لا تفسيرها.

ثمّ قرّر سبحانه دليل البعث والنشور بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ بقدرتنا الكاملة ﴿نُحْيِي﴾ الناس جميعاً في الدنيا ﴿وَنُمِيتُ﴾ جميعهم فيها ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ والمرجع في الآخرة لحساب أعمالهم وجزائها، وذلك الرجوع إلينا يكون ﴿يَوْمَ﴾ يحيا الناس في قبورهم ﴿تَشَقَّقُ

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٤٢.
٢. تفسير روح البيان ٩: ١٤٢.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٢٧، تفسير الصافي ٥: ٦٥، وفي النسخة: واسم الله.
٤ و٥. تفسير القمي ٢: ٣٢٧، تفسير الصافي ٥: ٦٥.

﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ ونكشِف حِجاب التُّراب ﴿عَنۡهُمۡ﴾ ويخرجُون من القبور ﴿سِرَاعٗاۚ﴾ بلا ريثٍ وبُطء ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإحياء والخروج ﴿حَشۡرٌ﴾ وبعثٌ عودٌ، وهو ﴿عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ وهيّنٌ لا عسر وصعب.

ثمّ سلّى سبحانه نبيه وحبيبه ﷺ بقوله: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ﴾ من كلّ أحدٍ ﴿بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ هؤلاء الكفّار من إنكار الرسالة، واستبعاد البعث بعد الموت، وتكذيب الآيات الناطقة به، وأنت لا تُتعب نفسك بدعوتهم إلى الايمان بك وبكتابك وبالآخرة، لأنّك لا تكون عليهم رقيباً ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ﴾ تُجبِرهم على تصديقك، وتُقهر على الاقرار بالمعاد والبعث، وإنّما عليك البلاغ والتذكير ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ الذي أُنزل إليك، المشتمل على أدلّة رسالتك بجهات إعجازه، وأدلّة قاطعة وبراهين واضحة على صحة البعث وجزاء الأعمال، وعِظ بما فيه من المواعظ الشافية والعِبر الوافية ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ الله وتهديده بالعذاب الأُخروي والدنيوي، فانّهم المنتفعون بمواعظ الله ورسله، وأمّا مَن عداهم ففوّض أمرهم إلينا، فانّا نُعاملهم بما يستحقّون، ونفعل بهم ما يستوجبون له.

قيل: كان رسول الله ﷺ يخطُب في كثيرٍ من الأوقات بسورة (ق) لاشتمالها على ذِكر الله والثناء عليه، وعلمه بما تُوسوس به النفوس، وما تكتبه الملائكة، وتذكير الموت وسكرته وشدّته، وتذكير القيامة وأهوالها، والشهادة على الخلائق بأعمالهم، وتذكير الجنّة والنار والصّيحة والنُّشور والخُروج من القبور، والمواظبة على الصلوات[1].

وفي الحديث: «من قرأ سورة (ق) هوّن الله عليه تارات الموت وسَكَراته»[2].

وعن الباقر عليه السلام: «من أدمن في فرائضه ونوافله سورة (ق) وسّع الله عليه في رزقه، وأعطاه كتابه بيمينه، وحاسبه حساباً يسيراً»[3].

الحمد لله الذي مَنّ عليّ بالتوفيق لإتمام تفسير السورة المباركة، وأسأله التوفيق لإدمان قراءتها.

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٤٥.

٢. تفسير روح البيان ٩: ١٤٥، ونقل عن حواشي سعدى المفتي، تارات الموت: إفاقاته وغشياته.

٣. ثواب الأعمال: ١١٥، مجمع البيان ٩: ٢١٠، تفسير الصافي ٥: ٦٦.

في تفسير سورة الذاريات

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلذَّارِيَاتِ ذَرْواً * فَالْحامِلاَتِ وِقْـراً * فَـالْجَارِيَاتِ يُسْـراً * فَـالْمُقَسِّماتِ أَمْراً[١ ـ ٤]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة (ق) المُصدّرة بالحَلْف على صدق رسالة رسـوله وإثـباته، وإثـبات البـعث، وتهديد المكذّبين بما نزل على قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وقوم لوط، وإثـبات التـوحيد بـبناء السماء ومدّ الأرض وغيرها من الآيات، اُردفت بسورة الذاريات المـصدّرة بـالحَلْف عـلى صـدق المعاد، وتهديد المنكرين بما نزل على اُولئك الأمم مع شِرْذِمةٍ من تفصيل العذاب الواقع بهم، واثبات التوحيد ببناء السماء وفرش الأرض، وبعض آخر من المطالب المهمة المربوطة بـمطالب السـورة السابقة.

قيل: لمّا بيّن الله الحشر بدلائله في السورة السابقة، وقال: ﴿ذٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[1] وذكر إصرار المشركين على الإنكار بقوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيهِم بِجَبَّارٍ﴾[2] لم يبق إلّا اليمين، فنظمت بـعدها سـورة والذاريات[3]، المُصدّرة بالحَلْف على المعاد، وصـدق البـعث والحسـاب، فـابتدأها بـذكر الاسـماء الحسنى، بقوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع سبحانه بالحَلْف على صدق المعاد، فابتدأ بالحَلْف بالرياح التي تَذُرّ التراب وتفرّقه فـي أقطار الأرض بقوله: ﴿وَٱلذَّارِيَاتِ﴾ والمُطِيرات للتُّراب والأشياء الخِفاف كالحشائش والتـبن[4] فـي أطراف الأرض ﴿ذَرْواً﴾ وإطارةً خاصةً بها، وإنّما قدّم سبحانه الحَلْف بها لكـونها أدلّ عـلى كـمال قدرته، ثمّ حلف بقطعات السّحاب الحاملات للأمطار بقوله: ﴿فَالْحامِلاَتِ وِقْراً﴾ وحملاً ثقيلاً من الماء، وإنّما قدّمها لكونها أنفع للناس بعد الرياح، ثمّ حلف سبحانه بالسُّفن الجارية بتوسّط الريـاح

---

١. سورة ق: ٤٤/٥٠.　　٢. سورة ق: ٤٥/٥٠.　　٣. تفسير الرازي ٢٨: ١٩٣.

٤. في النسخة التبين.

بقوله: ﴿فَالْجَارِيَاتِ﴾ في البحار جرياناً ﴿يُسْراً﴾ وسهلاً. ثم حلف بالملائكة الذين يُقسّمون الأمطار والأرزاق بقوله: ﴿فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً﴾ والمراد بالأمر جنسه، فيشمُل جميع الأمور المنقسمة بين الخلائق.

روى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «الذاريات هي الرياح، والحاملات هي السّحاب، والجاريات هي السُّفن، والمُقسِمات هي الملائكة الذين يُقسّمون الأرزاق»[١].

وعن القمي رحمه الله، عن الصادق عليه السلام: «أن أمير المؤمنين سُئل عن (الذاريات ذرواً) قال: الريح، وعن (الحاملات وقراً) قال: السَّحاب، وعن (الجاريات يسراً) قال: هي السُّفن، وعن (المقسمات امراً) قال: الملائكة»[٢]. وعن (الاحتجاج) عن أمير المؤمنين عليه السلام مثله[٣].

والعجب من الفخر الرازي أنّه نقل هذا التفسير عن أمير المؤمنين عليه السلام، ومع ذلك اختار غيره، مع رواية العامة عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أنا مدينة العلم، وعليّ بابها»[٤] وأنّه مع الحقّ والحقّ معه»[٥].

قال الناصب: الأقرب أنّ هذه صفات أربع للرياح التي تُنشئ السَّحاب أولاً، والحاملات هي الرياح التي تحمِل السُّحب التي هي بُخار المياه التي إذا سَحت جرت السيول العظيمة، وهي أوقار أثقل من الجبال، والجاريات هي الرياح التي تجري بالسُّحب بعد حملها، والمُقسمات هي الرياح التي تُفرّق الأمطار على الأقطار[٦].

وفيه مع أنّه تفسير بالرأي ومن فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار ومخالفٌ لما فسّره به نفس الرسول صلى الله عليه وآله ولسانه وعَيبة علمه، على تقدير ثبوته، فاسدٌ في نفسه لظهور أنّ الذاريات غير المُنشئات، والسائقات غير الحاملات، والجاريات غير المجريات، والمقسمات مطلق الأمر الشامل للأمطار والأرزاق وغيرها، غير مقسمات خصوص المطر، فالمقسمات أمراً كالمدبرات أمراً، قيل: هم أربعة: جَبرئيل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل[٧]. والظاهر أنّ هؤلاء عُمَد المُدبّرات، وإلّا فالمُدبّرات أكثر.

قيل: إنّ هذه الأُمور دلائل التوحيد أخرجها بصورة القسم[٨].

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ١٩٥.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٢٧، تفسير الصافي ٥: ٦٧.
٣. الاحتجاج: ٢٥٩، تفسير الصافي ٥: ٦٧.
٤. مستدرك الحاكم ٣: ١٢٦ و١٢٧، جامع الاصول ٩: ٦٤٨٩/٤٧٣، أُسد الغابة ٤: ٢٢، تاريخ بغداد ١١: ٤٩ و٥٠.
٥. مناقب الخوارزمي: ٥٧، ترجمة الامام علي عليه السلام من تاريخ دمشق ٣: ١١٧٢/٥٣.
٦. تفسير الرازي ٢٨: ١٩٥.
٧. تفسير روح البيان ٩: ١٤٨.
٨. تفسير الرازي ٢٨: ١٩٤.

قيل: إنّ الرياح في الدلالة على كمال القدرة أتمّ لكونها أسباباً للسُّحب، والسُّحب أتمّ دلالة عليه من السفن لكونها أغرب ماهيةً وأكثر نفعاً، وهذه الثلاثة لكونها من المحسوسات غير القابلة للانكار أتمّ دلالة من الملائكة، لإمكان إنكار المُنكِر وجودهم، ولذا صدّر الثلاثة بالفاء[١].

وقيل: إنّ الترتيب المترقّي من الأضعف إلى الأقوى، فانّ السُّحب أقوى دلالةً على كمال القدرة من الرياح، لتألّفها من الأجزاء المائية والهوائية. وقليل من الأجزاء الأرضية والنارية، وفيها غرائب من الآثار العُلوية، والسُّفن أقوى دلالةً من السُّحب، لتألفها [من] جميع العناصر على ما فيها من الصنعة البديعة والأُمور العجيبة من حمل الأثقال مع خفّة الحامل، وقطعها المسافة البعيدة في زمانٍ يسيرٍ بهبوب الرياح العاصفة، والأدلّ من الجميع إقداره الروحانيات مع لطافتهم على التصرّف في الجسمانيات مع كثافته، ولا اعتبار بانكار من لا عبرة به[٢].

وقيل: إنّ وجه الترتيب كون حركة السَّحاب والسفن من آثار الرياح، وبعد الحلف بما يكون سبباً للرزق ذكر مُقسّمات الأرزاق[٣].

وقيل: إنّ المراد بالذاريات الكواكب السريعة في السير من ذرا يذرو، بمعنى أسرع. وقيل: إنّ المراد الملائكة. وقيل: إنّ التقدير: وربّ الذاريات[٤].

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ * وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ[٥ ـ ٩]

ثمّ ذكر سبحانه المُقسَم عليه بقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أيها المشركون من البعث والحشر والحساب ﴿لَصَادِقٌ﴾ ومطابقٌ للواقع، لا مجال للشكّ فيه. قيل: إنّ الصادق بمعنى ذو صدق[٥]. وقيل: إنّ في وصف المصدر بما يُوصَف به الفاعل غاية المبالغة[٦]. ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾ وجزاء الأعمال في الآخرة ﴿لَوَاقِعٌ﴾ وكائنٌ لا مُحالة.

ثمّ حكى سبحانه اختلاف طريقة المشركين في تكذيب الرسول والمعاد والقرآن، مؤكّداً بالحَلْف بقوله: ﴿وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ والطرائق المختلفة للكواكب، أو ذات الأشكال المختلفة بسبب النجوم.

وعن ابن عباس: ذات الخَلْق الحَسن المستوي[٧].

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٤٨.
٢. تفسير روح البيان ٩: ١٤٨.
٣. تفسير روح البيان ٩: ١٤٨.
٤. تفسير الرازي ٢٨: ١٩٥.
٥ و٦. تفسير الرازي ٢٨: ١٩٦.
٧. تفسير أبي السعود ٨: ١٣٧، تفسير روح البيان ٩: ١٥٠.

﴿إِنَّكُمْ﴾ أيّها المشركون ﴿لَفِى قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ ومتناقضٍ في شأن الرسول، فتارةً تقولون: إنّه ساحرٌ، وتارةً تقولون: إنّه كاهنٌ، وتارةً تقولون: إنّه شاعرٌ، وتارةً تقولون: إنّه مجنونٌ، ومرّةً تقولون: إنّه مجادلٌ ونحن عاجزون من الجدل، وسادسة تقولون: إنّه أمين، وسابعة تقولون: إنّه كاذب.

وفي شأن القرآن تارةً تقولون: إنّه سِحرٌ، وتارةً تقولون: إنّه شعر، وتارةً تقولون: إنّه كِهانة، وتارةً تقولون: إنّه أساطير.

وفي شأن المعاد تارةً تقولون: إنّه متيقّن والأصنام شُفعاؤنا عند الله، وتارةً تقولون: إنّه مظنونٌ، وتارةً تقولون: إنّه مشكوكٌ، وتارة تقولون: إنّه مقطوع العدم.

وقيل: إنّ المراد أنّكم غير ثابتين على قولٍ، ومن يكون كذلك لا يكون متيقناً في اعتقاده[١].

ثمّ بالغ سبحانه في ذمّهم بقوله: ﴿يُؤْفَكُ﴾ عن الرسول، أو عن القرآن، أو عن القول بالحشر، ويُصرَف ﴿عَنْهُ﴾ مع كونه حقاً يجب الايمان به ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ وصُرِف عن كلّ خيرٍ وسعادةٍ، إذا لا صرف أفظع وأشنع منه.

وقيل: إنّه مدحٌ للمؤمنين، فإنّهم يُصْرَفون عن القول المختلف [ويَصْرِفون] من صُرِف عن كلّ باطلٍ، ويُرشِدون إلى القول المستوي[٢]، وفيه ما لا يخفى من الضَّعْف.

قُتِلَ ٱلْخَرَّاصُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ[١٠-١٤]

ثمّ أظهر سبحانه الغضب على منكري رسالة الرسول والقرآن بالدعاء عليهم بقوله: ﴿قُتِلَ﴾ ولُعِن ﴿ٱلْخَرَّاصُونَ﴾ والمعتمدون على الحَدَس والتخمين في دينهم، والمتّبعون فيه لهوى أنفسهم، مع أنّ الدين لابدّ فيه من اليقين والاعتماد على البراهين.

ثمّ لمّا كانت توصيفهم بالخَرْص غير صريحٍ في الذمّ، وصفهم بما فيه التصريح به بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ كائنون ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ وشدّة جهلٍ وضلالٍ و ﴿سَاهُونَ﴾ وغافلون عمّا يُراد بهم، بل عن أنفسهم، أو عمّا أُمروا به من قبل ربّهم.

ثمّ حكى سبحانه ما يدلّ على شدّة جهالتهم وبُغضهم للحقّ بقوله: ﴿يَسْأَلُونَ﴾ أولئك المشركون عنك استهزاءً بقولك: (انّ الدين لواقع) ويقولون: يا محمد ﴿أَيَّانَ﴾ ومتى يقع ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ ووقت

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ١٩٧.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ١٩٨.

جزاء الأعمال وابتلائنا بالعذاب.

ثمّ لمّا كان غرضهم من السؤال الاستهزاء، هدّدهم بما يُشبه الجواب وليس بجواب بقوله: **﴿يَوْمَ هُمْ﴾** فيه **﴿عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾** ويُعذّبون بها، كما يُفتَن الذهب بالنار ويُحرَق خَبَثه. قيل: يعني يُعرَضون على النار كعرض المُجرّب للذهب المُذهّب عليها[1]، كأنّهم يُجَرّبون عليها، وتقول لهم خَزَنة جهنّم حين تعذيبهم: **﴿ذُوقُوا﴾** أيّها المنكرون للحشر **﴿فِتْنَتَكُمْ﴾** وعذابكم، أو ما به امتحانكم وابتلاؤكم في الدنيا من العقائد والأعمال **﴿هٰذَا﴾** العذاب **﴿ٱلَّذِى﴾** يتذوّقونه الآن ما **﴿كُنتُم بِهِ﴾** في الدنيا **﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾** استهزاءاً بالرسول وبإخبارنا به في كتابنا، وسخريةً منه حيث كنتم تقولون: متى هذا الوعد، أو أيّان يوم الدين.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلاً مِنَ ٱللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ[١٥ـ١٨]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان سوء عاقبة المشركين وشدّة عذابهم في الآخرة، بيّن حُسن عاقبة المتّقين والمجتنبين عن الشرك والكفر والعِصيان في الدنيا، المحترزين من عذاب الله في الآخرة بقوله: **﴿إِنَّ﴾** المؤمنين **﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾** عن الشرك والعِصيان في الدنيا، متمكّنون في الآخرة **﴿فِى جَنَّاتٍ﴾** وبساتين ذات قصورٍ وبهاءٍ وبهجةٍ لا يمكن توصيفها **﴿وَ﴾** في ظلال **﴿عُيُونٍ﴾** غريزة، وأنهار جارية في أطرافهم بحيث يَرَونها ويفرحون بالنظر إليها حال كونهم **﴿آخِذِينَ﴾** وقابلين **﴿مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾** بفضله من النِّعم الجِسام، وراضين به لغاية جودته وكماله.

قيل: في قوله: **﴿مَا آتَاهُمْ﴾** بصيغة الماضي، دلالةٌ على أنّ الإعطاء والتمليك كان في الدنيا، والقَبول والأخذ كان منهم في الآخرة[2].

ثمّ بيّن الله سبحانه علّة الإنعام على المتّقين بتلك النِّعم العظيمة الجسيمة بقوله: **﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾** في العالم الذي كان **﴿قَبْلَ ذٰلِكَ﴾** العالم، وهو عالم الدنيا **﴿مُحْسِنِينَ﴾** في عقائدهم وأعمالهم وأقوالهم، فأعطوا بذلك أحسن الجزاء، وكان من حسناتهم أنّهم **﴿كَانُوا﴾** في الدنيا مقداراً وزماناً **﴿قَلِيلاً مِنَ ٱللَّيْلِ﴾** ووقت نوم جميع الناس **﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾** وينامون، وزماناً كثيراً منه يذكُرون الله، ويُصلّون ويعبُدون.

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ١٩٩.

٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٠١.

قيل: إن كلمة (ما) في (ما يهجعون) زائدةٌ مؤكِّدةٌ للقِلّة[١]. وقيل: إنّها مصدريّة، والمعنى قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم[٢].

قيل: نزلت في شأن الأنصار حيث كانوا يُصلّون في مسجد النبي ﷺ، ثمّ يمضُون إلى قُبا، وبينهما مِيلان[٣]. وقيل: إنّهم كانوا لا ينامون حتى يُصلّون العِشاء الآخرة[٤].

وروى بعض العامة عن الصادق عليه السلام، أنه قال: «من يَهجَع ما بين المغرب والعِشاء حتى يشهد العِشاء فهو منهم»[٥].

وفي (الكافي) عنه عليه السلام: «كانوا أقلّ الليالي تفوتهم لا يقومون فيها»[٦].

وعن الباقر عليه السلام: «كان القوم ينامون، ولكن كلّما انقلب أحدهم قال: الحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر»[٧].

﴿وَبِالْأَسْحَارِ﴾ والثُّلث الآخر من الليالي ﴿هُمْ﴾ على الدوام ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ربّهم لذنوبهم. وقيل: يعني بالأسحار يُصلّون طلباً لمغفرة ذنوبهم[٨].

في فضيلة الاستغفار في الأسحار

روي أنّ الله تعالى قال: «إنّ أحبّ أحبّائي إليّ هم الذين يستغفرون بالأسحار أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض شيئاً ذكرتهم فصرفت بهم عنهم»[٩].

قيل: يا رسول الله، كيف الاستغفار؟ قال ﷺ: «قولوا: اللهمّ اغفر لنا، وأرحمنا، وتُب علينا، إنّك أنت التواب الرحيم»[١٠].

وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَفِى الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ[١٩-٢١]

ثمّ إنّه تعالى بعد مدح المتّقين بعبادة ربّهم وتعظيمه، وشفقتهم على أنفسهم بطلب مغفرة ذنوبهم، مدحهم بشفقتهم على الخَلْق وإحسانهم إلى العباد بقوله: ﴿وَفِى أَمْوَالِهِمْ﴾ التي أعطاهم الله إياها، وخصّهم الله بها ﴿حَقٌّ﴾ عظيمٌ ونصيبٌ وافرٌ يُوجبونه على أنفسهم ﴿لِلسَّائِلِ﴾ والفقير الذي يستعطيهم ﴿وَ﴾ الفقير ﴿الْمَحْرُومِ﴾ الذي لا يستعطيهم، بل يتعفّف عن السؤال والطلب، بحيث يَحْسَبه الناس غنياً فيُحرَم الصدقات.

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٢٠١، تفسير روح البيان ٩: ١٥٣.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٠٢، تفسير أبي السعود ٨: ١٣٨.
٣ ـ ٥. تفسير روح البيان ٩: ١٥٣.
٦. الكافي ٣: ١٨/٤٤٦، تفسير الصافي ٥: ٦٩.
٧. التهذيب ٢: ١٣٨٤/٣٣٥، تفسير الصافي ٥: ٦٩.
٨. تفسير الرازي ٢٨: ٢٠٥، تفسير روح البيان ٩: ١٥٥.
٩. تفسير روح البيان ٩: ١٥٤.
١٠. تفسير روح البيان ٩: ١٥٤.

عن الصادق عليه السلام، قال: «المحروم المُحارِف[١] الذي حُرِم كدّ يده من الشراء والبيع»[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «المحروم الذي ليس بعقله بأس، ولا يُبْسَط له الرزق، وهو مُحارف»[٣].

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان عبادة المتقين وحُسن أعمالهم وحُسن جزائهم، بيّن استحقاقه للعبادة والجُهد في الطاعة وطلب مرضاته بقوله: **﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾** سهلها وجبلها، وبَرّها وبحرها، وعيونها وأنهارها، ومسالكها وفِجاجها، ونباتها وأشجارها، وأثمارها ومعادنها، وما رتّب فيها ودبّر لمنافعها لسُكّانها **﴿آيَاتٌ﴾** عظيمة، ودلائل واضحة على وجود صانعها ووحدانيته، وقُدرته وعلمه وحكمته، وإرادته ورحمته، وإنّما يكون الانتفاع بتلك الآيات **﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾** بتوحيد الله، فانّهم لا يغفلون عنه في حال، ويرون له في كلّ شيء آيةً **﴿وَفِى أَنفُسِكُمْ﴾** خصوصاً آيات ودلائل على أن لها صانعاً مُستجمعاً لجميع الكمالات، حيث إنّه انطوى في كلّ فردٍ منكم نظير كلّ موجودٍ يكون في العالم، مع ماله من الأفعال البديعة والصنائع المختلفة العجيبة، والعلوم الشريفة، والمعارف العالية، والكمالات النفسانية الانسانية، أأنتم عمون **﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾** تلك الآيات بعين البصيرة حتى تعتبروا وتستدلّوا بالصنعة على الصانع وبالنقش على النقّاش وكماله.

في فضيلة علي عليه السلام

روى بعض العامة: أنّ علياً عليه السلام صَعِد يوماً على المِنْبَر فقال: «سلوني عمّا دون العرش، فانّ ما بين جوانحي علمٌ جمٌّ، هذا لُعاب رسول الله صلى الله عليه وآله في فمي، هذا ما رزقني الله من رسول الله صلى الله عليه وآله رزقاً» وفي رواية: «هذا ما زقّني رسول الله زقّاً، فوالذي نفسي بيده، لو اذِن الله للتوراة والانجيل أن يتكلّما، فأخبرتُ بما فيهما لصدقاني».

وكان في المجلس رجلٌ يماني، فقال: ادّعى هذا الرجل دعوىً عريضةً لأفضحنّه. فقام وقال: يا علي، أسأل؟ قال «سلْ تفقّهاً ولا تسأل تعنّتاً».

فقال: أنت حملتني على ذلك، هل رأيت ربّك يا علي؟ قال: «ما كنت أعبُدُ رباً لم أره». فقال: كيف رأيت؟ فقال: «لم تره العيون بمشاهدة العِيان، ولكن رأت القلوب بحقيقة الإيمان، ربّي واحدٌ لا شريك له، أحدٌ لا ثاني له، فَردٌ لا مثل له، لا يحويه مكان، ولا يداوله زمان، ولا يُدرَك بالحواسّ، ولا يُقاس بالقياس» فسقط اليماني مغشياً عليه، فلمّا أفاق، قال: عاهدت الله أن لا أسال تعنّتاً[٤].

وَفِى ٱلسَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا

---

١. المُحارف: المحروم يطلُبُ فلا يُرزَق. ٢. الكافي ٣: ١٢/٥٠٠، تفسير الصافي ٥: ٧٠.
٣. الكافي ٣: ١٢/٥٠٠، وتفسير الصافي ٥: ٧٠، عن الباقر والصادق عليهما السلام. ٤. تفسير روح البيان ٩: ١٥٩.

أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ * هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلاَ تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِن طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ[٢٢ـ٣٤]

ثمّ لمّا مدح الله سبحانه المتّقين بأنّ في أموالهم حقاً معلوماً، حثّ الناس على إنفاق أموالهم بقوله تعالى: ﴿**وَفِى ٱلسَّماءِ**﴾ مكتوبٌ ومقدّرٌ ﴿**رِزْقُكُمْ**﴾ وما يَلزَم لمعايشكم، ولولا التقدير لما حصل لكم في الأرض حبّة قوتٍ، ولو بذلتم في تحصيله غاية الجهد. وقيل: يعني أسباب رزقكم[١] من المطر وغيره ﴿**وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ من خيرٍ وشرٍّ ورخاءٍ وثوابٍ وعقاب.

وعن المجتبى عليه السلام أنّه سُئِل عن أرزاق الخلائق، فقال: «في السماء الرابعة، تنزِل بقدرٍ وتُبسَط بقدر»[٢].

﴿**فَوَ رَبِّ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ**﴾ الذي يربّيهما ويربّي ما فيهما بإيصال ما يوجب بقاءها وكمالها ﴿**إِنَّهُ لَحَقٌّ**﴾ وصدق.

قيل: الضمير راجعٌ إلى (يوم الدين) حيث قالوا: (ايان يوم الدين)[٣].

وقيل: إنّه راجعٌ إلى القرآن حيث قال سبحانه: ﴿**يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ**﴾ ومعنى المقسم عليه أنّه حقّ يُكلّم به المَلَك من قبل الله، وينطق[٤] به ﴿**مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾ وتتكلّمون[٥]. وقيل: إنّه راجعٌ إلى ما يُوعَدون من الجنّة[٦]. والمعنى كما أنّكم تتكلّمون ولا تَشكّون في كلامكم.

وقيل: إنّه راجعٌ إلى ما أخبر به من كون الأرزاق في السماء[٧]، وهو الأظهر.

في الحديث: «أبى ابن آدم أن يُصدّق ربّه حتى أقسم له فقال: ﴿**فَوَ رَبِّ ٱلسَّماءِ**﴾» الآية[٨].

وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «قاتل الله أقواماً أقسم الله لهم بنفسه فلم يُصدّقوه» انتهى[٩].

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٥٩.
٢. تفسير القمي ٢: ٢٧١، تفسير الصافي ٥: ٧١.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ٢٠٩.
٤. في النسخة: ونطق.
٥ و٧. تفسير الرازي ٢٨: ٢٠٩.
٧. تفسير روح البيان ٩: ١٥٩.
٨. تفسير روح البيان ٩: ١٥٩.
٩. تفسير روح البيان ٩: ١٥٩.

قيل: لو أنّ يهودياً وعد لانسانٍ رزقه، وأقسم به عليه، لاعتمد بوعده وقسمه، فقاتله الله كيف لا يعتمد على وعد الله وقسمه برزقه؟![1]

حكي أنّ هَرم بن سِنان قال لأويس القَرني: أين تأمُرني أن أكون؟ فأوما إلى الشام، فقال هَرم: كيف المعيشة بها؟ قال أويس: أُفٍّ لهذه القلوب التي قد خالطها الشك، فما تنفعها العِظة[2].

قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم باسحاق

ثمّ شرع سبحانه في تهديد الكفّار بما نزل على الأُمم السابقة المُهلَكة، بكفرهم وطغيانهم من العذاب بقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمد وسَمِعت من أحدٍ ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ﴾ جدّك ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الذين كانوا عند الله من ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ ومعظّمين بالعصمة والاصطفاء والقُرب، حيث كانوا من الملائكة الذين وصفهم الله بأنّهم عباد مُكرَمون.

وقيل: يعني كانوا مُكرَمين عند إبراهيم عليه السلام حيث خَدَمهم بنفسه بحُسبان أنّهم ضيف[3]. قيل: لم يُكذّبه الله في حُسبانه إكراماً له[4].

﴿إِذْ دَخَلُوا﴾ وحين وردوا ﴿عَلَيْهِ فَقَالُوا﴾ بعد دخولهم تأدّباً وتحيةً له: نُسلّم عليك ﴿سَلاماً﴾ فردّ إبراهيم تحيّتهم و ﴿قَالَ سَلامٌ﴾ عليكم. قيل: إنّه عليه السلام لمّا ردّ عليهم قال في نفسه: هؤلاء ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ غير معروفين في هذا البلد، حيث كان أهله كفّاراً، ولم تكن تحيتهم السلام[5].

وقيل: إنّه عليه السلام قال لهم: أنتم قوم منكرون، لم أرَ مثلكم في حُسن الصورة والقامة، فعرّفوني أنفسكم. قالوا: نحن أضيافك[6].

﴿فَرَاغَ﴾ وذهب ﴿إِلَى أَهْلِهِ﴾ وزوجته سارة خُفيةً من أضيافه، لئلا يمنعوه من إتيان الطعام وتحمّل الكُلفة ﴿فَجَاءَ﴾ إليهم ﴿بِعِجْلٍ﴾ وولد بقرٍ ﴿سَمِينٍ﴾ كثير اللحم مشويّ؛ لأنّه كان عامة ماله البقر ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ ووضعه بين أيديهم ليأكلوا منه، فلم يَمُدّوا أيديهم إليه، ولم يأكُلوا منه ﴿قَالَ﴾ إبراهيم حثّاً لهم على الأكل: ﴿أَلاَ تَأْكُلُونَ﴾ من اللحم المشوي؟

روي أنّهم قالوا: لا نأكُل منه بغير ثمنٍ. قال إبراهيم: كُلوا وأعطوا ثمنه. قالوا: وما ثمنه؟ قال إبراهيم: إذا أكلتم فقولوا: بسم الله، وإذا فرغتم فقولوا: الحمد لله، فتعجّبوا من قوله، ثمّ أنّهم مع ذلك لم يأكلوا منه ﴿فَأَوْجَسَ﴾ وأضمر في نفسه ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لتوهّمه أنهم اعدوّه جاءوا بالشرّ، لكون العادة أنّ من يجيء بالشرّ ما كان يأكُل من طعام من يُريد إضراره[7]. وقيل: وقع في نفسه أنّهم ملائكة أُرسلوا

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٦٠.
٢. تفسير روح البيان ٩: ١٦٠.
٣. تفسير روح البيان ٩: ١٦١.
٤. تفسير الرازي ٢٨: ٢١٠.
٥. تفسير روح البيان ٩: ١٦٢.
٦. تفسير روح البيان ٩: ١٦٢.
٧. تفسير روح البيان ٩: ١٦٢.

للعذاب[١]. فلمّا أحسّوا بخوفه ﴿قَالُوا﴾ يا إبراهيم ﴿لَا تَخَفْ﴾ من شرّنا وضرّنا، إنّا رسل ربّك. قيل: مسح جَبْرئيل العِجل بجَناحه فقام يمشي حتى لحق بأُمّه، فعرفهم وأمِن منهم[٢].

﴿وَبَشَّرُوهُ﴾ تطيباً لقلبه ﴿بِغُلَامٍ﴾ وولد ذكر ﴿عَلِيمٍ﴾ من سارة عقيمة لم تلد له ﴿فَأَقْبَلَتِ آمْرَأَتُهُ﴾ سارة على أهلها لمّا سَمِعت البشارة، وهي ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ وصيحةٍ تقول: يا ويلتا. وعن الصادق عليه السلام: «في جماعة[٣] من نسائها» ﴿فَصَكَّتْ﴾ ولطمت ﴿وَجْهَهَا﴾ تعجّباً من قولهم، كما هو عادة النساء إذا أنكرن وتعجّبن من شيءٍ ﴿وَقَالَتْ﴾ استبعاداً لما بشّرت به بحكم العادة: كيف ألد الآن وأنا ﴿عَجُوزٌ﴾ قد بلغتُ من العمر تسعاً وتسعين سنة، على ما قيل[٤]: ﴿عَقِيمٌ﴾ لم ألد مدّة عمري قطّ؟ فأجابها الملائكة و﴿قَالُوا﴾ لها ردعاً لها عن الاستبعاد والتعجّب: ما قلنا ذلك من قبل أنفسنا، بل ﴿كَذَٰلِكِ﴾ الذي بشّرناك ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ الذي خلقك بقدرته، وبلّغك برحمته إلى المرتبة العالية من الكمالات الجسمانية والروحانية، ونحن أخبرناك بما قال ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعاله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوال عباده، فلا محالة يكون حقاً، وفعله محكماً، فليس لكِ أن تقولي: لم يُعطيني الولد في شبابي، وبشّرني به في زمان كِبري وعجزي.

رُوي أنّ جبرئيل قال لها: انظُري إلى سقف بيتك، فنظرت فإذا جذوعة مُورِقةٌ ومثمرةٌ، فأيقنت[٥].

قيل: لمّا عرف إبراهيم الرسل وأنس بهم، استعجلوا في الخروج من عنده ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ وأي الأمر العظيم عجّل بكم بعد هذا الأنس[٦] ﴿أَيُّهَا﴾ الملائكة ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لبشارتي؟

﴿قَالُوا﴾ ما أُرسِلنا لبشارتك فقط، بل ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾ من جانب ربّك ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ ومُصرّين على الكفر والطُّغيان، وهم قوم لُوط ﴿لِنُرْسِلَ﴾ ونُمطِر ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من السماء ﴿حِجَارَةً﴾ مخلوقةً ﴿مِن طِينٍ﴾ مُتحجّرٍ مطبوخٍ بنار جهنّم، على ما قيل[٧]، فلا يُتوهّم أنّها من بَرَد، كما قيل[٨] إنّ الحجارة قد تُطلَق عليه، وتلك الحجارة تكون ﴿مُسَوَّمَةً﴾ ومُعلّمة كلّ واحدةٍ منها باسم من يُقتَل بها، أو المراد مخلوقة لتعذيبهم ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ وبقدرته، لا للانتفاع بها كسائر الأحجار، أو مرسلة في علم الله ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ولإهلاك المجاوزين عن الحدّ في الفجور.

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٤٠، تفسير روح البيان ٩: ١٦٢.
٢. تفسير أبي السعود ٨: ١٤٠، تفسير روح البيان ٩: ١٦٢.
٣. مجمع البيان ٩: ٢٣٨، تفسير الصافي ٥: ٧١، تفسير القمي ٢: ٣٣٠، لم ينسبه إلى أحد.
٤. تفسير روح البيان ٩: ١٦٣.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٤٠، تفسير روح البيان ٩: ١٦٣.
٦. تفسير الرازي ٢٨: ٢١٦.
٧. تفسير روح البيان ٩: ١٦٤.
٨. تفسير الرازي ٢٨: ٢١٧، تفسير روح البيان ٩: ١٦٤.

عن ابن عباس: أي للمشركين، فانّ الشّرك أسرف الذنوب وأعظمها[١].

فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ * وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ * وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ * فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ [٣٥ـ٤٦]

ثمّ أخبر الله سبحانه بلُطفه بلُوط بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ قبل نزول العذاب على القرى الخمسة، أو السبعة ﴿مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن قلنا للُوط: ﴿أَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيلِ﴾[٢].

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا﴾ أهلاً للنجاة من العذاب ﴿غَيْرَ﴾ أهل ﴿بَيْتٍ﴾ واحدٍ ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وهم لُوط وأهله، كما عن النبي ﷺ[٣]، قيل: أهله بنتاه[٤]، وقيل: كانوا ثلاثة عشر سوى امرأته الكافرة[٥]، ﴿وَتَرَكْنَا﴾ بتعذيب أهل القرى ﴿فِيهَا آيَةً﴾ عظيمةً ودلالةً واضحةً على التوحيد وبطلان الشرك، وهي تلك الحجارة المُسوّمة، أو ماءٌ أسود مُنتِن خرج من أرضهم ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فانّهم يرون آثار العذاب آيةً، ويعتبرون بها، لسلامة فطرتهم، وتنوّر قلوبهم، وقوّة بصيرتهم دون من عداهم.

﴿وَفِي﴾ حديث ﴿مُوسَىٰ﴾ بن عمران عليه السلام أيضاً آيةً وعبرةً ـ وقيل: إنّه عطفٌ على قوله: ﴿وفى الارض آيات﴾[٦] ـ ﴿إِذْ أَرْسَلْنَاهُ﴾ من جانب الطور الأيمن ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ مَلِك مِصر مستدلاً على رسالته ﴿بِسُلْطَانٍ﴾ ومعجزٍ باهرٍ ﴿مُبِينٍ﴾ كالعصا واليد والبيضاء وغيرهما ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ فرعون، وأعرض عن دعوة موسى عليه السلام ﴿بِرُكْنِهِ﴾ وجانبه، ولم يقبل دعوته، ولم يعتنِ به. وقيل: يعني وتقوّى على معارضة موسى بقومه وجُنده[٧]، أو تصدّى لدفع[٨] موسى بقوّة نفسه حيث قال: ذروني أقتل

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٦٤.
٢. هود: ٨١/١١.
٣. علل الشرائع: ٥/٥٥٠، تفسير الصافي ٥: ٧٢.
٤. مجمع البيان ٩: ٢٣٨، تفسير روح البيان ٩: ١٦٤.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٤١، تفسير روح البيان ٩: ١٦٥.
٦. تفسير روح البيان ٩: ١٦٥.
٧. تفسير روح البيان ٩: ١٦٦.
٨. في النسخة: دفع.

موسى ومن معه ﴿قَالَ﴾ لقومه في حقّ موسى عليه السلام: إنّه ﴿سَاحِرٌ﴾ يفعل ما يفعل من خوارق العادات بالسحر والشّعبذة، ﴿أَوْ﴾ هو ﴿مَجْنُونٌ﴾ فاقد العقل حيث يقول قولاً لا يقبله[1] منه عاقل، مع أن فيه هلاك نفسه وقومه.

قيل: إنّ الساحر والمجنون كلاهما يستعينان بالجنّ، والفرق أنّ الساحر يأتي الجنّ باختياره، والمجنون يأتيه الجنّ بغير اختياره، وغرضه من الترديد صيانة كلامه من الكذب[2].

وقيل: إنّه لغاية جهله طعن على موسى عليه السلام بالمتضادين، حيث إنّ السحر مستلزمٌ للعقل وجَودة الذهن وكمال الحَذاقة والجنون هو زوال العقل وعدم الفَهم والادراك، وهما ضدّان[3].

وقيل: إنّ كلمة (أو) بمعنى الواو؛ لأنّه نسبه إليهما جميعاً[4]، وعلى أي تقدير عصى فرعون وطغى ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ بذنبهم، كما يأخُذ أحدكم الحُصيات الصغار بكفّه ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ وطرحناهم ﴿فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ومستحق للملامة عند العقلاء وعند نفسه بما ارتكب من معارضة موسى عليه السلام وطُغيانه بالكفر والعِصيان.

﴿وَفِي﴾ قصّة قوم ﴿عَادٍ﴾ الذين عارضوا هود آيات وعِبر للناس إلى يوم القيامة ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ عقوبةً على كفرهم وطُغيانهم ومعارضة رسولهم هود ﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ والصَّرصر العاتية التي لم تلد خيراً من إنشاء مطر أو تلقيح شجر، وكيف يُتوقّع منها الخير؟ وقيل: وُصِفت بالعقيم لأنّها قَطَعت دابرهم[5]، فشُبّهت بالنساء العقيمات اللاتي لا يلدن، لأنّها كانت سبب قطع الأرحام من الولادة بإهلاكهم، والحال أنّها ﴿مَا تَذَرُ﴾ وما تترك ﴿مِن شَيْءٍ أَتَتْ﴾ وجرت ﴿عَلَيْهِ﴾ من انفسهم وأموالهم وأبنيتهم ومواشيهم ﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ﴾ وصيّرته لشدّتها ﴿كَالرَّمِيمِ﴾ ومثل الحشيش اليابس المتفتّت.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الرياح خمسة: الريح العقيم، فتعوّذوا بالله من شرّها»[6].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ لله جُنوداً من الريح، يُعذّب بها من عصاه»[7].

﴿وَفِي﴾ حديث قوم ﴿ثَمُودَ﴾ وهم قوم صالح آيات أو آية ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ والقائل صالح بعد عَقْرهم ناقة الله: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ وانتفعوا أيّها القوم بالحياة ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وإلى وقت نزول العذاب، وهو آخر ثلاثة أيام، أو إلى انقضاء آجالكم المقدّرة، فإن أحسنتم حصل لكم التمتّع في الدارين، وإلّا فما لكم في الآخرة من نصيب ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ وطَغَوا على خالقهم ونبيّهم، ولم يعتنوا بإنذاره،

---

١. في النسخة: لا يقبل. ٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٢١.
٣ و٦. تفسير روح البيان ٩: ١٦٦. ٥. تفسير روح البيان ٩: ١٦٧.
٦. من لا يحضره الفقيه ١: ١٥٢٧/٣٤٥، تفسير الصافي ٥: ٧٣.
٧. الكافي ٨: ٦٣/٩١، من لا يحضره الفقيه ١: ١٥٢٥/٣٤٤، تفسير الصافي ٥: ٧٣.

حيث قال لهم صالح: تُصبح غداً وجوهكم مُصفرّةً، وبعد غدٍ مُحمّرة، وفي اليوم الثالث مُسوّدة، ثمّ يُصبّحكم العذاب.

قيل: لمّا رأوا وجوههم كما قال صالح، عَمَدوا إلى قتله، فنجّاه الله إلى ارض فِلَسْطين، ولمّا كان اليوم الرابع تَحنّطوا وتكفّنوا[1] ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ﴾ والنار النازلة من السماء ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها حين نزولها.

وقيل: انّ المراد بالصاعقة صيحة جَبْرئيل مجازاً، ويُحتَمل أنّه كانت الصاعقه مع الصيحة، فانّ الصيحة لا يُنظر إليها، بل تُسمَع بالأُذن[2].

وقيل: هو من الانتظار، والمعنى: هم ينتظرون ما أُوعدوا به من العذاب، حيث شاهدوا علامات نزوله[3].

وقيل: إنّ معنى ينظُرون يتحيّرون[4]، فأُهلكوا جميعاً ﴿فَمَا ٱسْتَطَاعُوا﴾ شيئاً قليلاً ﴿مِن قِيَامٍ﴾ وما قَدَروا عليه، فضلاً عن الهرب، أو المراد ما قَدَروا على قليلٍ من المقاومة والثّبات له ﴿وَمَا كَانُوا﴾ حينئذٍ ﴿مُنتَصِرِينَ﴾ بغيرهم في دفع العذاب، أو ما كانوا مدافعين عن أنفسهم، أو ممّن له شائبة الدفاع.

﴿وَ﴾ أهلكنا ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ بالغرق، أو اذكُرهم ﴿مِن قَبلُ﴾ وفي عصرٍ سابقٍ على أعصار هؤلاء المُهلكين، ثمّ ذكر سبحانه سبب إهلاكهم بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ حال حياتهم ﴿قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ وخارجين عن طاعة الله ورسوله، وفي ذكر القضايا الخمسة تسلية للنبي ﷺ، كيلا لا يشُقّ عليه كفر وعِنادهم، فانّ البلية إذا عمّت طابت.

وَٱلسَّماءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ ٱلْمَاهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوْا إِلَى ٱللهِ إِنِّى لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللهِ إِلٰهاً آخَرَ إِنِّى لَكُم مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ [٤٧ ـ ٥١]

ثمّ إنّه تعالى بعد إثبات الحشر وتهديد منكريه، شرع في إثبات التوحيد بالموجودات بقوله: ﴿وَٱلسَّماءَ﴾ المرفوعة التي تَرَونها لهذا العام والدار الدنيا سقفاً محفوظاً، لاشكّ في أنّه ما بنتها الكواكب التي فيها، ولا الأصنام التي تنحتونها، بل نحن ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ ورفعناها ﴿بِأَيْدٍ﴾ وقوةٍ وقدرةٍ لنا

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٤٢، تفسير روح البيان ٩: ١٦٩.

٢ ـ ٤. تفسير روح البيان ٩: ١٦٩.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ها بحيث تُحيط بجميع كُرات العناصر، بل كلّها بالنسبة إليها كحَلقة في فَلاة، أو لموسعون الرزق على الخلق منها، أو المراد لقادرون على خلق أمثالها ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ البسيطة التي تَسْكُنونها، نحن ﴿فَرَشْنَاهَا﴾ وبسطناها تحتكم، لتستقرّوا عليها، ومَهّدناها لكم كالفَراش، تنامون وتتقلبون عليها ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَاهِدُونَ﴾ نحن، أو ماهدها.

﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء، وجنسٍ من الاجناس ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ ونوعين، أو صنفين، كالجوهر والعَرَض، والمُجرّد والمادي، والجماد والنامي، والمدرك والنبات، والناطق والصامت، والذكر والأُنثى، إلى غير ذلك، وإنّما فعلنا جميع ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ أيّها الناس ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وتتنبّهون أنّ ربكم قادرٌ على كلّ شيءٍ، وفردٌ لا زوج له، وأنّه خلق للدنيا زوجاً، وهو الآخرة، وأنّه مستحق للعبادة، ومتفرّد في الأُلوهية، فقل يا محمد إذا ظهر لكم أنّ الأمر كذلك: ﴿فَفِرُّوا﴾ وأهربوا من العذاب، ومن كلّ ما تخافون منه ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ القادر المُنعِم عليكم وحده، واسرعوا في الايمان بتوحيده والتسليم لأحكامه، وبادروا إلى عبادته، كي تنجوا من عقابه، وتفوزوا بثوابه ﴿إِنِّى لَكُم﴾ يا عباد الله ﴿مِنْهُ نَذِير﴾ ومخوّفٌ من عذابه على الشرك ﴿مُبِين﴾ وظاهر رسالتي عنه ببرهان قاطع ومعجز باهر، لا عُذر لكم في تكذيبي وعدم اتّباع قولي.

ثمّ أكّد الأمر بالتوحيد بالنهي عن الشرك بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا﴾ بهوى أنفسكم ﴿مَعَ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد في الأُلوهية والربوبية والمعبودية ﴿إِلَٰهاً﴾ ومعبوداً ﴿آخَرَ﴾ من مخلوقاته، كالكواكب والأصنام وغيرهما، ولا تدعوا معه غيره ﴿إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

كَذَٰلِكَ مَا أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * أَتَوَاصَوْا بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ[٥٢ ـ ٥٥]

ثمّ لمّا كان النبي ﷺ كلمّا دعا قومه إلى التوحيد والايمان بالبعث بعد الموت، قالوا إنّه مجنون وكلّما أتى بالمعجزات قالوا: إنّه ساحر، وكان يتأثّر قلبه الشريف من ذلك، سلّاه سبحانه بالإخبار بأنّ سائر الأُمم كان دأبهم ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أمر سائر الأُمم، فانّه ﴿مَا أَتَى﴾ الأُمم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ من زمان نوح ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ مبعوثٍ لهدايتهم ﴿إِلَّا قَالُوا﴾ في حقّه إذا أتاهم بمعجزة: إنّه ﴿سَاحِرٌ أَوْ﴾ إذا دعاهم إلى التوحيد والمعاد: إنّه ﴿مَجْنُونٌ﴾ فلاتحزَن على ما قال قومك في حقّك.

والعجب من اتّفاق جميع الأُمم على هذا القول الشنيع في حقّ رسلهم ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ وتعاهد

بعضهم مع بعض أن يقولوا هذا القول، لا ليس توافقهم عليه لتوصيتهم بذلك، لبعد زمانهم، وعدم تلاقيهم في وقت ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مشركون في عداوة الله والإعراض عن الحقّ، فاشتركوا في التفوّه بتلك الكلمة الشنيعة ﴿فَتَوَلَّ﴾ يا محمد وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ فإنّك قد بالغت في دعوتهم، وأتعبت نفسك في نُصحهم ووعظهم، وأتممت الحُجّة عليهم ﴿فَمَا أَنتَ﴾ بعد ذلك ﴿بِمَلُومٍ﴾ في تركهم والإعراض عنهم، فان كنت رحيماً وعطوفاً بهم، ولا تُريد أن تَدَعهم بالكُلية ﴿وَذَكِّرْ﴾ وعِظ الناس ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ والعِظَة وبيان العلوم والمعارف وأُمور الآخرة ﴿تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حيث إنّها تنوّر قلوبهم، وتزيد في إيمانهم ورغبتهم إلى الطاعة والعبادة.

عنهما عليهما السلام قالا: «إنّ الناس لمّا كذبوا رسول الله صلى الله عليه وآله همّ الله بإهلاك أهل الأرض إلّا علياً فما سواه بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ ثمّ بدا له فرَحِم المؤمنين، ثمّ قال لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾»[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام «لمّا نزلت ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لم يبق أحد منّا إلّا أيقن بالهَلكة، فلمّا نزل ﴿وَذَكِّرْ﴾ ... الآية طابت أنفسنا»[2].

وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[٥٦]

ثمّ لمّا كان ازدياد المعرفة ورغبة المؤمنين في العبادة من منافع التذكير، بيّن سبحانه أنّ معرفته وعبادته هو الغرض من الخلقة بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ﴾ أولاً وهم أعمّ من المَلَك ﴿وَٱلْإِنسَ﴾ بعدهم لغرض من الأغراض وحكمة من الحكم ﴿إِلَّا﴾ ليعرفون ربّهم بالوجود والحكمة والقدرة وسائر الصفات الجمالية والجلالية و﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ خالقهم، فيستكملوا بالعلم والعبادة، ويستعدّوا للنيل بالفيوضات الأبدية، ويستأهلوا للحياة الدائمة والنِّعم الباقية، والكرامات الفائقة غير المتناهية.

عن الصادق عليه السلام، قال: «خرج الحسين بن علي عليه السلام على أصحابه، فقال: أيّها الناس، إنّ الله ما خلق العباد إلّا ليعرفوه، فاذا عرفوه عبدوه، وإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه» فقال رجل: يابن رسول الله، بأبي أنت وأُمّي، فما معرفة الله؟ قال: «معرفة أهل كلّ زمان إمامهم الذي يجب عليهم طاعته»[3].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «خلقهم ليأمُرهم بالعبادة» قيل: قوله تعالى: ﴿وَلَا

---

١. الكافي ٨: ١٠٣/٧٨، تفسير الصافي ٥: ٧٤.
٢. مجمع البيان ٩: ٢٤٣، تفسير الصافي ٥: ٧٥.
٣. علل الشرائع: ١/٩، تفسير الصافي ٥: ٧٥.

يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾؟ قال: «خلقهم ليفعلوا ما يستوجبون رحمته [فيرحمهم]»[1].

تحقيق في الجمع بين الروايات

أقول: بعد ما بينا أنّ معرفة الله مستلزمةٌ لعبادته، وعبادته مستلزمةٌ لاستحقاق رحمته، والغرض من الخلق أن يستكملوا أنفسهم وتترقّى من حضيض الحيوانية إلى كمال الانسانية حتى تستأهل للرحمة الدائمة والفيوضات الأبدية، صحّ أن يقال: خلقهم الله لمعرفته ولعبادته، ولمّا كان حصول العبادة متوقّفاً على أمر الله ونهيه، وتعليمه كيفية عبادته، كتوقّفه على معرفته، صحّ أن يقال: خلقهم ليأمُرهم بالعبادة، للتنبيه على أنّ العبادة التي هي المقصودة من الخلق، هي العبادة الاختيارية لا الجبرية والاضطرارية، فظهر ممّا ذكر صحّة تعليل الخلق بكلّ من المعرفة والأمر بالعبادة، والعبادة والرحمة، ولمّا كان ظاهر الآية المباركة كون العبادة غاية الغايات، بيّن سبحانه بقوله: ﴿وَلِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أنّ غاية الغايات نيلهم بالرحمة والنعم لا نفس العبادة، ومن ذلك يصحّ إطلاق الناسخ على الآية الثانية، كما ورد في حديث «أنّ الآية منسوخةٌ بقوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾»[2] فلا تنافي بين الروايات.

مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ * فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ[٥٧ ـ ٦٠]

ثمّ لمّا كانت الآية موهمةً لحاجته تعالى إلى عبادة خلقه، صرّح سبحانه بأنّ الغرض استكمال الخلق لا استكمال نفسه بقوله: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُم﴾ شيئاً ﴿من رِزْقٍ﴾ ومالٍ يكتسبون لي لأنظِم به أمور معيشتي، كما يُريد الموالي من عبيدهم ذلك ﴿وَمَا أُرِيدُ﴾ منهم أقلّ من ذلك، مثل ﴿أَن﴾ يَطْبَخوا لي طعاماً ﴿يُطْعِمُونِ﴾ وحاصل مفاد الآية والله أعلم: إنّي لا أريد منهم مالاً ارتزق به، أو عملاً أقضي به حاجتي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي هو خالق كلّ شيءٍ ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ لعباده، فكيف يُريد منهم الرزق وهو ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ والشديد على جميع خلقه، فكيف يحتاج إلى عملهم له؟

وإذا عُلِم أنّ خلق الثقلين للعبادة ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ولم يَعْتَنوا بالغرض الذي خُلقوا له، ووضعوا عبادتهم في غير موضعها، بأن عبدوا غير الله، و وضعوا مكان تصديق النبي ﷺ تكذيبه، أو ضيّعوا

---

١. علل الشرائع: ١٠/١٣، تفسير الصافي ٥: ٧٥.

٢. تفسير القمي ٢: ٣٣١، تفسير الصافي ٥: ٧٥، والآية من سورة هود: ١١٨/١١.

حقّ أنفسهم بتعريضها للعذاب الدائم ﴿ذَنُوباً﴾ ونصيباً وافراً من العذاب ﴿مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ وأنصباء نظرائهم من الأمم المُهْلَكة، أو المراد أنّ لهم تَبِعات من العذاب مثل تَبِعات أضرابهم من الطُّغاة الذين استأصلهم العذاب ﴿فَلاَ يَسْتَعْجِلُونِ﴾ ولا يسألون سرعة مجيئه بقولهم: ﴿فاتنا بما تعدنا﴾[1] أو ﴿متى هذا الوعد﴾[2] فانّه نازلٌ بهم في الوقت المعيّن عندنا.

ثمّ عظّم سبحانه ذلك العذاب الموعود تهويلاً لهم بقوله: ﴿ فَوَيْلٌ﴾ أي ويل ﴿لِلَّذِينَ﴾ استحقّوا أشدّ العذاب، لأنّهم ﴿ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ بعد خروجهم من الدنيا من يوم القيامة، أو زمان الرجعة، فوافق أوّل السورة آخرها، حيث قال في أولها: ﴿انما توعدون لصادق﴾[3] وفي آخرها: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة والذاريات في يومه أو ليلته، أصلح الله له معيشته، وآتاه برزقٍ واسع، ونوّر له في قبره بسراجٍ يَزْهَر إلى يوم القيامة»[4].

---

١. الأعراف: ٧/٧٠. ٢. الأنبياء: ٢١/٣٨. ٣. الذاريات: ٥١/٥.

٤. ثواب الأعمال: ١١٥، مجمع البيان ٩: ٢٢٨، تفسير الصافي ٥: ٧٦.

في تفسير سورة الطور

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَنشُورٍ * وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ * وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ * وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ[١ـ٦]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة والذاريات المُبتدئة بأربعة أيمان على أنّ وعد الله بالعذاب والحشر صادقٌ، وبيان كون يوم القيامة يوم يُفتَنون على النار، المُتضمّنة بسوء عاقبة الكفار، وحسن عاقبة المتّقين، المُختتمة بذكر الويل للكافرين، أُردفت بسورة الطور المُبتدئة بخمسة أيمان على أنّ العذاب في القيامة واقعٌ لا محالة، وبيان كون القيامة فيه أهوالٌ عظيمةٌ، وذكر الويل للمكذّبين بيوم الدين، إلى غير ذلك من المطالب المناسبة للسورة السابقة، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنى بقوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ لمّا كان العرب يتحرّزون عن الأيمان الكاذبة، وأنّ الشخص العظيم لا يحلِف إلّا على الأمر العظيم الذي لا يرتدع[١] المُنكِر بالبرهان لنسبته إلى الجدل، أكّد سبحانه البرهان على الحشر بالأيمان بقوله: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ وهو على ما قيل: الجبل الذي كلّم الله عليه موسى بن عمران، أو طور سِينين، أو مطلق الجبل[٢]. وعن ابن عباس: الطور كلّ جبلٍ يُنبِت[٣]. ﴿وَكِتَابٍ﴾ كريم ﴿مَسْطُورٍ﴾ ومكتوبٍ على وجه الانتظام. قيل: هو التوراة المكتوب في الألواح[٤]. وقيل: هو القرآن[٥] المكتوب ﴿فِى رَقٍّ﴾ وجلدٍ رقيقٍ ﴿مَنشُورٍ﴾ ومبسوطٍ وقيل: هو اللّوح المحفوظ[٦]. وقيل: هو صحائف الأعمال[٧] المبسوطة للناس يوم القيامة، أو مفتوحة له لا ختم عليها[٨].

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ الذي يكون تحت العرش، أو في السماء السابعة، أو الرابعة بحيال الكعبة، وعُمرانه بطَواف الملائكة، يطوف به كلّ يوم سبعون ألف مَلَك، ويُصلّون فيه، ولا يعودون إليه أبداً،

---

١. كذا، والظاهر لا يردع. ٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٣٩. ٣. تفسير روح البيان ٩: ١٨٤.
٤ و٥. تفسير روح البيان ٩: ١٨٥. ٦ و٧. جوامع الجامع: ٤٦٦.
٨. تفسير روح البيان ٩: ١٨٥.

وحرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض.

عن الباقر عليه السلام: «أنّ الله وضع تحت العرش أربع أساطين، وسمّاهن الضُّراح، وهو البيت المعمور، وقال للملائكة: طوفوا به، ثم بعث ملائكةً، وقال: ابنوا في الارض بيتاً بمثاله وقَدَره، وأمر [من] في الأرض أن يطوفوا بالبيت»[1].

وعن النبي صلى الله عليه وآله في حديث المعراج: «أنّه في السماء السابعة»[2]. وعن القمي: أنّه في السماء الرابعة[3].وعن النبي صلى الله عليه وآله في رواية: «أنّه في السماء»[4]. وفي رواية أُخرى عنه صلى الله عليه وآله: «أنّه في السماءالدنيا»[5].

وعنه صلى الله عليه وآله: «البيت الذي في السماء يقال له الضُّراح، وهو بِفناء البيت الحرام، لو سقط لسقط عليه، يدخُله كلّ يوم ألف مَلَك لا يعودون فيه أبداً»[6].

وعن أمير المؤمنين صلى الله عليه وآله قال: «ويدخُله كلّ يوم سبعون ألف مَلَك، ثمّ لايعودون اليه أبداً»[7]. وقيل: إنّ المراد منه بيت الله الحرام[8].

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ عن الأرض، وهو السماء، أو العرش، وفي إرداف السقف بالبيت ما لا يخفى من الحُسن ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ والمملوء من الماء. قيل: هو البحر المحيط الذي هو مادة سائر البحار[9].

وروى بعض العامة، عن أمير المؤمنين عليه السلام: «هو بحر تحت العرش، عمقه كما بين سبع سماوات إلى سبع أرضين، فيه ماءٌ غليظٌ، يقال له بحر الحيوان، وهو بحرٌ مكفوفٌ، يمطُر منه على الموتى ماءً كالمَنيّ بعد النَّفحة الأُولى أربعين صباحاً، فينبُتون في قبورهم»[10].

وقيل: هو بحرٌ في السماء الدنيا، لولاه لأحرقت الشمس الدنيا[11]. وقيل: المسجور بمعنى المُوقد، لما رُوي أن الله تعالى يجعل البحار يوم القيامة ناراً، يُسجرّ بها نار جهنّم[12].

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِن دَافِعٍ * يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَاءُ مَوْراً * وَتَسِيرُ

---

١. مجمع البيان ١: ٣٨٩، تفسير الصافي ٥: ٧٧.
٢. تفسير القمي ٢: ٩، تفسير الصافي ٥: ٧٧.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٣١، تفسير الصافي ٥: ٧٧.
٤. الجامع للقرطبي ١٧: ٥٩، مجمع البيان ٩: ٢٤٧.
٥. مجمع البيان ٩: ٢٤٧، تفسير الصافي ٥: ٧٧.
٦. مجمع البيان ٩: ٢٤٧، تفسير الصافي ٥: ٧٧، عن أمير المؤمنين عليه السلام.
٧. مجمع البيان ٩: ٢٤٧، تفسير الصافي ٥: ٧٧.
٨. تفسير الرازي ٢٨: ٢٣٩.
٩. تفسير روح البيان ٩: ١٨٦.
١٠. تفسير روح البيان ٩: ١٨٦.
١١. تفسير روح البيان ٩: ١٨٦.
١٢. تفسير الصافي ٥: ٧٨، تفسير روح البيان ٩: ١٨٦.

ٱلْجِبَالُ سَيْراً * فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً[٧ـ ١٣]

ثمّ ذكر سبحانه المُقسَم عليه بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ ونازل لا محالة، وفي لفظ (ربّك) تأمين للرسول منه.

قيل: إنّ الحَلف بالطُّور والبيت المعمور الذي هو ملاذ الملائكة، وبالسماء والبحر، مع أن وجود كلّ منها وبقائه بقدرة الله، مُشعِرٌ بأن لا مَهرَب من ذلك العذاب[1]، كما صرح به سبحانه بقوله: ﴿مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ حيث إنّ التحصّن منه إما بالذّهاب إلى شاهق الجبل، أو بالتحصين في البيت، أو بالصعود إلى السماء، أو بالغوص في البحر، ومن المعلوم أنّ كلّها تحت قدرة الله وإحاطته، حيث وصف زمان وقوع ذلك العذاب بقوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّماءُ﴾ وتضطرب، وتجيء وتذهب ﴿مَوْراً﴾ واضطراباً شديداً عجيباً. قيل: تدور السماء كما تدور الرَّحى، وتتكفّأ بأهلها تكفّؤ السفينة[2] ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ﴾ كالريح كما عن القمي[3]، أو كالسَّحاب كما عن بعض العامة[4] ﴿سَيْراً﴾ سريعاً، ثمّ تصير كالعِهن، وذلك لانقضاء الدنيا، وعدم انتفاع بني آدم بها، وعدم عودهم إليها، فاذا كان الأمر كذلك ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بتوحيد الله ورسله.

ثمّ ذمّهم سبحانه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ مستقرّون ﴿فِى خَوْضٍ﴾ واندفاعٍ عجيبٍ عظيمٍ، وانغماسٍ في الأباطيل والأكاذيب، كما يُغاص في الماء و﴿يَلْعَبُونَ﴾ ويَلهون بالدنيا ويتشاغلون بما يصرِفهم عمّا فيه خيرهم وسعادتهم الأبدية، ثمّ وصف سبحانه ذلك اليوم الذي فيه الويل للمكذبين بقوله: ﴿يوم﴾ كأنّه قال ذلك اليوم يكون يوم ﴿يُدَعُّونَ﴾ ويُدْفَعُ المُكذّبون بالعُنف والشِّدّة ﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعّاً﴾ ودفعاً شديداً حتى يُصلَون فيها على وجوههم وأقفيتهم. وقيل: إنّ اليوم بدل عن قوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ﴾ أو ظرف للقول المقدّر فيما بعد[5].

هٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هٰذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ * ٱصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لاَ تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ * فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ

---

١. مجمع البيان ٩: ٢٤٨. ٢. تفسير أبي السعود ٨: ١٤٧، تفسير روح البيان ٩: ١٨٩.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٣٢، تفسير الصافي ٥: ٧٨. ٤. تفسير روح البيان ٩: ١٨٩.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٤٧، تفسير روح البيان ٩: ١٨٩.

ٱلْجَحِيمِ[١٤ـ١٨]

ثمّ يقول لهم خازن النار تقريعاً وتوبيخاً: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ﴾ التي تَصْلَونها هي النار ﴿ٱلَّتِى كُنتُم﴾ في الدنيا بالنبي الذي كان يُهدّدكم ﴿بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وتستهزؤن، وكنتم تنسُبون القرآن الناطق به إلى السِّحر ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ الذي تَرَون ﴿أَمْ أَنتُم﴾ عُميٌ ﴿لَا تُبْصِرُونَ﴾ النار التي وُعدتم بها، كما كنتم في الدنيا عُمياً عن معجزات الرسول وآيات التوحيد والمعاد. فلمّا ثبت أنها نارٌ في الواقع ولا خلل في أبصاركم، ذوقوا حرّها وألمها ﴿ٱصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا﴾ أيّها المُكذّبون على النار وشدائدها ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُوا﴾ لا خلاص لكم منها أبداً ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ الأمران الصبر والجَزَع، لا الصبر يُنجيكم منها، ولا الجَزَع يدفعها عنكم.

واعلموا أنّ تعذيبكم بها ليس ظُلماً عليكم، بل هو ما اخترتم لأنفسكم بأعمالكم ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وترتكبون من الكفر والعِصيان، بلا زيادة ولا نُقصان.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان سوء حال الكفار المكذّبين للآيات في الآخرة، بيّن حسن حال [المتقين بقوله: ﴿إِنَّ] ٱلْمُتَّقِينَ﴾ من الكفر والعِصيان، والمُصدّقين بالرسول والمعاد، يومئذٍ طوبى لهم، فانّهم حين ابتلاء الكفّار بعذاب النار في جهنّم، متمكّنون ﴿فِى جَنَّاتٍ وَ﴾ بساتين عديدة، ومستغرقون في ﴿نَعِيمٍ﴾ دائمٍ لا نِهاية له حال كونهم ﴿فَاكِهِينَ﴾ ومتلذّذين ﴿بِمَا آتَاهُمْ﴾ وأعطاهم ﴿رَبُّهُمْ﴾ اللطيف بهم من خزائن رحمته، ومسرورين به، ﴿وَ﴾ بأنّه ﴿وَقَاهُمْ﴾ وحَفِظهم ﴿رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ والاحتراق بالنار الجاحمة[١].

كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ[١٩ و ٢٠]

ثمّ يقول له خازن الجنة أو خالقها إذناً واباحةً وإكراماً لهم: ﴿كُلُوا﴾ أيّها المؤمنون المتّقون من أيّ مأكولٍ اشتهيتم ﴿وَٱشْرَبُوا﴾ من أيّ مشروبٍ أحببتم، أكلاً وشرباً ﴿هَنِيئاً﴾ سائغاً لا تكدير فيه من التُّخَم والسُّقَم والمرض والنَّكب وخوف الانقطاع ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعمَلُونَ﴾ من الايمان والأعمال الصالحة وترك المشتهيات المُحرّمة، فان الله لا يضيع أجر المحسنين، ويكون أكلهم وشُربهم حال كونهم ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ ومستندين كالسلاطين على نَمارق ووسائد موضوعة ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ وعروشٍ متعدّدة ﴿مَصْفُوفَةٍ﴾ ومُصطفّةٍ متصلةٍ بعضها ببعضٍ. قيل: طول كلّ سرير في السماء

---
١. النار الجاحمة: الشديدة الحرّ، وفي النسخة: الماحجة.

مائة ذراع، إذا أراد المؤمن الصعود عليه اتّضع له، فاذا قَعَد عليه ارتفع إلى أصل حاله[١]. وقيل: إنّ المصفوفة بمعنى المزيّنة بالذهب والفضة والجواهر[٢].

﴿وَزَوَّجْنَاهُم﴾ وقرنّاهم ﴿بِحُورٍ﴾ ونساءٍ يَحار الناظر في حُسنهنّ ﴿عِينٍ﴾ واسعات الأحداق، وفيه إظهار غاية اللطف بهم، حيث نسب تزويجهم إلى نفسه، وبيّن أنّه المتصدّي له، ثمّ وصف أزواجهم بغاية الحُسن، فانّ أحسن الأعضاء الوجه، وأحسن ما في الوجه العَين، وأحسن العيون العين الواسعة. قيل: إنّ سَعَة العين سبب كَثرة الروح المصوّبة[٣] إليها[٤].

فبيّن سبحانه إتمام النِّعم على المتّقين، فانّ أول ما يحتاج إليه المسكن، ثمّ المأكول والمشروب، ثمّ الفرش والبُسط، ثمّ الأزواج، فذكر سبحانه جميعها على الترتيب، ووصف كلاً منها بغاية الكمال.

وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ [٢١]

ثمّ لمّا كان شفقة المؤمنين في الآخرة على الأولاد كشفقتهم في الدنيا عليهم، طيّب سبحانه قلوب المؤمنين بأنّه يجمع بينهم في الجنّ بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بل إنّه عطفٌ على قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ وقيل: على قوله: ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ والمعنى: وقرنّاهم بحورٍ عينٍ وبالذين آمنوا[٥] ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ﴾ ووافقتهم ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ وأولادهم ﴿بِإِيمَانٍ﴾ حكمي كما في غير المُميز، أو حقيقي كما في المُميّز، ولو كان قليلاً وضعيفاً ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾ وجعلنا في درجتهم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ يتنعّمون بما يتنعمون به آباؤهم ﴿وَمَا أَلَتنَاهُمْ﴾ وما أنقصنا بالحاق أولادهم بهم ﴿مِنْ﴾ ثواب ﴿عَمَلِهِم﴾ في الدنيا ﴿مِن شَيءٍ﴾ قليل، بأن أعطينا بعض مثوباتهم أبناءهم، بل لا يكون رفعهم إلى درجة آبائهم إلّا بالاحسان والتفضّل عليهم، لكون فِطرتهم فِطرة الاسلام، والتفضّل عليهم تفضيل على والديهم.

رُوي عن النبي ﷺ أنّه قال: «يرفع ذُرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه، لتَقَرّ بهم عينُه» ثمّ تلا هذه الآية[٦].

ورُوي أنّه سألت خديجة رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا في الجاهلية، فقال ﷺ: «هما في النار» فكرهت. فقال ﷺ: «لو رأيت مكانهما لأبغضتِهما» قالت: فالذي منك؟ قال: «في الجنة، إن

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٩١.
٢. تفسير روح البيان ٩: ١٩١.
٣. في النسخة: المصبوبة.
٤. تفسير الرازي ٢٨: ٢٤٩.
٥. تفسير الرازي ٢٨: ٢٥١.
٦. تفسير الصافي ٥: ٧٩، تفسير روح البيان ٩: ١٩٢.

المؤمنين وأولادهم في الجنّة، وإنّ المشركين وأولادهم في النار»[١].

عن الصادق عليه السلام، قال: «أطفال المؤمنين يُهدَون إلى آبائهم يوم القيامة»[٢].

وعنه عليه السلام: «قصُرت الأبناء عن عمل الآباء، فألحقوا[٣] الأبناء بالآباء لتقرّ بذلك أعينهم»[٤].

وعنه عليه السلام قال: «إنّ الله تبارك وتعالى كفّل إبراهيم وسارة أطفال المؤمنين، يغذونهم بشجرة في الجنّة، لها أخلاف كأخلاف البقر، في قصرٍ من درّة، فاذا كان يوم القيامة أُلبِسوا وطُيّبوا وأُهدوا إلى آبائهم، فهم ملوك في الجنّة مع آبائهم، وهذا قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾» الآية[٥].

أقول: الظاهر أنّ الوعد لا يختصّ بالآباء المؤمنين، بل إذا كانت الأمّ مسلمةً، ولحق بها الولد في الدنيا، لحق بها في الآخرة أيضاً.

ثمّ لمّا ذكر سبحانه لُحوق الأولاد بآبائهم في درجة الجنة، وإن لم يكن لهم إيمانٌ حقيقيٌ وعملٌ صالح، بل إيمان تبعيٌ وحُكميٌ، بيّن سبحانه أنّ الايمان الحقيقي والعمل الصالح لا يُطلَب إلّا ممّن بلغ مبلغ الرجال بقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍ﴾ ورجلٍ بالغ ﴿بِمَا كَسَبَ﴾ من الايمان والعمل الصالح ﴿رَهِينٌ﴾ ومحتبسٍ عند الله، فان أدّى ما عليه من الاحسان وصالح الأعمال فُك وخلّص من الرهانة والحبس ودخل الجنة، وكذا المرأة، دون الصبي والصبية، فانّهما يدخُلان الجنّة بعمل الآباء والأمّهات.

وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْساً لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلاَ تَأْثِيمٌ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ * وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ[٢٢-٢٨]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه عدم تنقيص ثواب أعمال المؤمنين بالحاق أولادهم بهم، بيّن أنّه لا يقتصر على إعطاء ثواب أعمالهم، بل يزيدهم آناً فآناً من فضله بقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾ وزدناهم على ما ذكر من النِّعم بأن نتفضّل عليهم ﴿بِفَاكِهَةٍ﴾ كثيرةٍ طيبةٍ دائمةٍ من ثمار الجنة ﴿وَلَحْمٍ﴾ كثيرٍ طيبٍ، وهما أرفع

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٩٣.

٢. تفسير القمي ٢: ٣٣٢، مجمع البيان ٩: ٢٥١، تفسير الصافي ٥: ٧٩.

٣. في التوحيد ومن لا يحضره الفقيه: فألحق الله عزّ وجلّ.

٤. التوحيد: ٧/٣٩٤، من لا يحضره الفقيه ٣: ١٥٣٧/٣١٦، الكافي ٣: ٥/٢٤٩، تفسير الصافي ٥: ٧٩.

٥. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٥٣٦/٣١٦، تفسير الصافي ٥: ٧٩.

أنواع المأكولات للمتنعّمين، ولا يقتصر على نوعٍ خاصٍ، بل يُعطون ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ويرغبون إليه من أنواع الفواكه واللحوم. رُوي أنّ المؤمن إذا اشتهى الطير يخِرّ بين يديه مشوياً[١] ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ ويَتعاطون ﴿فِيهَا﴾ بنحو التجاذب والتلاعب ﴿كَأْساً﴾ مملوءةً من خمر الجنة، لكن ﴿لَا لَغْوٌ﴾ وكلامٌ باطلٌ وواهٍ ﴿فِيهَا﴾ كما يكون في شُرب خمر الدنيا ﴿وَلَا﴾ يكون فيها ﴿تَأْثِيمٌ﴾ وفعلٌ قبيحٌ من السبّ والفُحش، كما هو لازم السُّكر في الدنيا، بل لا يتكلّمون إلّا بأحاسن الكلام، ولا يفعلون إلّا ما يفعله الكرام، لعدم حصول نقصٍ في عقولهم، فضلاً من زوالها. وقيل: لا يكون في شربها إثمٌ وعِصيان[٢].

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ ويدور حولهم لخدمتهم، أو بكؤوسهم ﴿غِلْمَانٌ﴾ وخدمٌ حِسانُ الوجوه، مخلوقون ﴿لَهُمْ﴾ في الجنّة ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في البياض والصفاء ﴿لُؤْلُؤٌ﴾ رطبٌ ﴿مَكْنُونٌ﴾ ومصونٌ في الصَّدَف عن الغُبار ومسّ الأيدي، أو مخزونٌ فانّه لا يُخزَن إلّا الثمين الغالي القيمة.

روي أنّه قيل لرسول الله ﷺ: هذا لخادم، فكيف المخدوم! فقال: «والذي نفسي بيده إنّ فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[٣].

ورُوى أنّه ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنّة منزلةً من يُنادي الخادم من خُدّامه، فيُجيبه ألفُ ببابه: لبيك لبيك»[٤].

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر، وتوجّه إليه، وهم يتحادثون و ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ تلذّذاً وتفكّهاً واستئناساً، ويتذاكرون أحوالهم وأعمالهم في الدنيا، وبأنّه نالوا الكرامة في الآخرة ﴿قَالُوا﴾ جواباً للسائلين عن أحوالهم: يا إخواننا ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ في زمان حياتنا ﴿قَبْلُ﴾ وفي دار الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا﴾ وأقاربنا ﴿مُشْفِقِينَ﴾ وخائفين من مخالفة أحكام الله وسوء عاقبتنا وأهوال الآخرة ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالتوفيق لطاعته ﴿وَوَقَانَا﴾ بذلك وحفظنا به من ﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ والاحتراق بالنار الحارة النافذة في منافذ الجسد، كالريح الحارة النافذة فيها ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ وفي دار الدنيا نعبُدُ الله و ﴿نَدْعُوهُ﴾ أن يقينا من العذاب، فَوَقانا واستجاب داعاءنا، وأدخلنا في جنته ورحمته ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ والمُحسِن بعباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن آمن به وأطاعه، الكثير الرحمة على من أقبل إليه.

فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ

---

١. تفسير روح البيان ٩: ١٩٥.
٢. مجمع البيان ٩: ٢٥١.
٣. مجمع البيان ٩: ٢٥١، تفسير الصافي ٥: ٨٠.
٤. تفسير أبي السعود ٨: ١٤٩، تفسير روح البيان ٩: ١٩٦.

رَيْبَ ٱلْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُم مِنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ * أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ[٢٩ـ٣٢]

ثمّ لمّا أمر سبحانه في آخر السورة السابقة بتذكير الخائفين من الوعيد، وذكر هنا حال الخائفين من عذابه، أمره بوعظهم وتذكيرهم بقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد وعظ الخائفين من الله بآيات الكتاب الكريم، ولا تعتنِ بما يقوله الكفار من أنّ محمداً كاهنٌ أو مجنون ﴿فَمَا أَنتَ﴾ بحمد الله و﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ التي أنعمها عليك من كمال العقل ومنصب الرسالة ﴿بِكَاهِنٍ﴾ ومُخبِر بالغيب بتوسّط الجنّ ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وفاسد العقل.

ثمّ وبّخهم سبحانه على بعض أقاويلهم الشنيعة تعجّباً منها بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ اُولئك الطُّغاة إذا سَمِعوا القرآن: إنّ محمداً ﴿شَاعِرٌ﴾ ومُلفّق الكلمات الموزونة المزينة المُموّهة[1] لطلب المال، ولا نُعارضه خوفاً من أن يَغلبنا بقوة شعره، أو يهجونا، بل ﴿نَتَرَبَّصُ﴾ وننتظر ﴿بِهِ﴾ في خلاصنا من شرّه ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ وحوادث الدهر، أو موته وهلاكه ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المعاندين: ﴿تَرَبَّصُوا﴾ وانتظروا هلاكي بحوادث الدهر ﴿فَإِنِّى مَعَكُم﴾ أيضاً متربّص ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ لهلاككم بالعذاب النازل عليكم من الله أو بأيدينا.

ثمّ وبّخهم سبحانه على ضَعْف عقولهم بقوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ﴾ وتبعثهم ﴿أَحْلَامُهُم﴾ وعقولهم ﴿بِهَٰذَا﴾ القول الشنيع، وإلى التكلّم بالمتناقضات، حيث إنّ لازم الكِهانة الفِطنة والعقل والدقّة في الأمور، ولازم الجنون عدم الفَهم واختلال الفكر، ولازم الشاعر القدرة على الكلام الموزون المُتّسق المُخيّل بقوة الفكر، ولا يمكن اجتماع الثلاثة في شخصٍ واحدٍ، لا والله لا يُجوّز العقل التكلّم بها ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ وهل هم إلّا طائفة معاندون لله ولكلّ حقٍّ وصوابٍ، يبعثهم عِنادهم إلى التكلّم بالخُرافات التي لا تصدُر من ذي شعور، والمكابرة بالتفوّه بكلّ كلامٍ باطلٍ لإطفاء الحقّ مع ظهوره.

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَا يُؤْمِنُونَ * فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ * أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ * أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ[٣٣ـ٣٨]

---

١. في النسخة: المموّهمة.

ثمّ وبّخهم سبحانه على الطعن على القرآن الذي فيه وجوه من الاعجاز بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾: إنّ القرآن الذي جاء به جَبْرئيل مما ﴿تَقَوَّلَهُ﴾ محمدٌ، واختلقه من قبل نفسه، وينسُبه كذباً إلى الله؟ لا والله ليس كذلك، ولا يعتقدون ذلك ﴿بَل﴾ هم قومٌ خَتَم الله على قلوبهم، فهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بآيةٍ من الآيات، ولا يُصدّقون معجزةً من المعجزات، فان كان القرآن ممّا تقوّله محمد كما يقولون الكفّار ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ﴾ وكلامٍ مركّبٍ ﴿مِثْلِهِ﴾ في الفصاحة والبلاغة وحُسن الأُسلوب، والاشتمال على العلوم والمعارف، من عند أنفسهم ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في ما يقولون من أنّه كلام البشر، مع أنّهم مَهَرة الكلام وفُرسان ميدان الفصاحة والبلاغة، وطول ممارستهم الخُطب والأشعار، وكثرة مزاولتهم لأساليب النَّظم والنثر، وشدّة اهتمامهم بحِفظ الوقائع والأيام ولا يُمكنهم الإتيان بسورةٍ منه فضلاً عن جميعه.

ثمّ إنّه تعالى بعد توبيخ المشركين على الطعن على رسوله وكتابه، وبّخهم على إنكار الله تعالى بقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا﴾ قيل: إنّ التقدير أما خُلِقوا أصلاً[١]، أم خُلِقوا وقُدِّروا ووجِدوا ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ يكون خالقهم ومقدّراً وموجداً لهم ﴿أَم﴾ لهم موجدٌ وخالقٌ، ولكن ﴿هُم﴾ أنفسهم ﴿ٱلْخَالِقُونَ﴾ لأنفسهم؟ وكل الصور الثلاث باطلٌ بالبَداهة، لتحقّق خَلْقهم، وامتناع وجود المخلوق بغير خالق، وامتناع كون أنفسهم خالقاً لهم.

وقيل: إنّ المراد من قوله: ﴿خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ من غير حكمةٍ، وعبثاً لا لشيء[٢]. وقيل: يعني خُلِقوا من غير أبٍ وأُمٍّ[٣].

وقيل: في وجه ارتباط الآية: إنّه لمّا كذّبوا النبي ﷺ ونسبوه إلى الكِهانة والجنون والشعر، ذكر الدليل على صدقه[٤]، حيث إنّه يدّعي التوحيد والرسالة والحشر، ودليل كلٍّ منها ظاهرٌ في أنفسهم، أمّا دلالة وجودهم على التوحيد فظاهر، وأما دلالته على الحشر فلأنّ الخلق الأوّل دليلٌ على الخلق الثاني، والمراد: أما خُلِقوا أصلاً، فيُنكِرون التوحيد لانتفاء الايجاد، ويُنكِرون الحشر لانتفاء الخلق الأول، أم يقولون: إنّهم ما خُلِقوا لشيءٍ فلا إعادة، أو ما خُلِقوا من تُرابٍ وماءٍ أو من نُطفةٍ حتى يخفى عليهم أنّ لهم خالقاً ويقولون: إنّ خَلْقنا كان اتّفاقياً، أم هم الخالقون للموجودات، فيَعْجِزون بكثرة العمل عن الخلق الثاني مرّة، كما أن الإعياء[٥] دأب الانسان؟

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٢٦٠..
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٦٠.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ٢٦٠، تفسير روح البيان ٩: ٢٠٢.
٤. تفسير الرازي ٢٨: ٢٥٩.
٥. في النسخة الأعباء.

﴿أَمْ﴾ هم ﴿خَلَقُوا﴾ بقدرتهم ﴿ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فلا يستدلّون بهما على وجود الصانع القادر الحكيم؟ لا والله لا يقولون بأنّهم خالقهما ﴿بَل﴾ يَشُكّون في خالقهما و﴿لَّا يُوقِنُونَ﴾ بالنظر إلى الآيات الآفاقية والأنفسية المذكورة بأنّ الله خالقهما وخالق كلّ شيءٍ، وإلّا لما أعرضوا عن عبادته، وما أنكروا قدرته على البعث ﴿أَمْ عِندَهُمْ﴾ وتحت تَصرُّفهم ﴿خَزَائِنُ﴾ رحمة ﴿رَبِّكَ﴾ حتى يُعطوا النبوة من شاءوا ويمنعوها عمّن شاءوا؟ ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ والغالبون على من له الخزائن حتى يجبروه على الاعطاء والمنع على وفق إرادتهم وهوى أنفسهم؟ ﴿أَمْ﴾ لا يحتاجون إلى الرسول، بل ﴿لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ يصعدون فيه إلى السماء، و﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ من الملائكة ما يحتاجون إلى العلم به من الأحكام وسائر الأمور حال كونهم صاعدين ﴿فِيهِ﴾؟ فان كانوا يَدّعون ذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾ من الملائكة بصعوده إلى السماء ﴿بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ وبرهانٍ واضحٍ على استماعه وصدقه في دعواه.

أَمْ لَهُ ٱلْبَنَاتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِن مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ * أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ ٱللهِ سُبْحَانَ ٱللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ[٣٩ـ٤٣]

ثمّ وبّخ جماعة من قريش على قولهم: إنّ الملائكة بنات الله، وعبادتهم إياهم لكونهم أولاده بقوله: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَاتُ﴾ اللاتي هنّ أخسّ الأولاد عندكم ﴿وَلَكُمُ﴾ أيّها السُّفهاء ﴿ٱلْبَنُونَ﴾ الذين هم أشرف الأولاد؟ قيل: إنّ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للتشديد والتوبيخ[١]. قيل: فيه إيذانٌ بأنّ من هذا رأيه لا يُعَدّ من العقلاء فضلاً من أن يَرقى إلى السماء ويَطلّع على الأسرار الغيبية[٢].

ثمّ لمّا كان ظهور نبوة النبي ﷺ بحيث لم يبق لأحدٍ مجال الشكّ والانكار، أعرض سبحانه عن المشركين، ووجّه خطابه للنبي ﷺ بقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ وتطلُب منهم على تبليغ الرسالة ﴿أَجْراً﴾ وجُعلاً من المال ﴿فَهُم﴾ لأجل ذلك ﴿مِن مَغْرَمٍ﴾ ومالٍ ألزمتهم بأدائه إليك ﴿مُثْقَلُونَ﴾ ومتقاعدون عن الايمان بك واتّباعك، الثقل أجرك عليهم؟ وفيه تسلية النبي ﷺ وإظهار عدم تقصيره في أداء وظيفته ﴿أَمْ﴾ لا يحتاجون إلى الرسول؛ لأنّ ﴿عِندَهُمُ﴾ اللوح المحفوظ الذي فيه ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ وما لا يعلم به إلّا بإعلام الله ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما فيه ليبقى في حِفظهم، ويراجعون إليه عند نسيانهم شيئاً منه، ولذا لا يتّبعونك؟ أيكتف المشركون بتلك التُّرّهات ولأقاويل الباطلة ﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾ مع ذلك

---

١ و٢. تفسير أبي السعود ٨: ١٥١.

﴿كَيْداً﴾ وإساءة إليك في الخَفاء منك، كالقتل والحبس والاخراج من البلد، أو حيلة وتدبير سوء في إطفاء نورك والاخلال في أمر رسالتك؟

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأنكروا رسالتك ﴿هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ ومستحقّون لما ينزل بهم من العذاب غفلةً وبَغتةً، أو هم الذين يعود إليهم وَبال مكرهم وكيدهم من القتل والعذاب بعلّة كفرهم، لا من يُريدون أن يكيدوه، فانّه المنصور من الله قولاً وفعلاً وحُجّةً وسيفاً، أو هم المغلوبون في الكيد، ألهم صبرٌ على ما ينزِل عليهم من العذاب ﴿أَمْ لَهُمْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ﴾ يحرُسهم منه؟ ﴿سُبْحَانَ اللهِ﴾ ونُنزّهه ﴿عَن﴾ شركة ﴿مَا يُشْرِكُونَ﴾ به، أو عن إشراكهم.

وَإِن يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ سَاقِطاً يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ * فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لاَ يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذٰلِكَ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ[٤٤ـ٤٧]

ثمّ بيّن كيفية نزول العذاب عليهم غفلةً وبَغتةً بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا﴾ حين انقضاء مدّة إمهالهم ﴿كِسْفاً﴾ وقطعةً من العذاب، نازلاً عليهم ﴿مِنَ السَّماءِ﴾ أو قطعةً منها، ﴿سَاقِطاً﴾ عليهم ﴿يَقُولُوا﴾ من فَرط الغفلة: هذا الذي نرى ﴿سَحَابٌ﴾ غليظٌ ﴿مَرْكُومٌ﴾ ومُنضمٌ بعضه ببعضٍ، أو مُلقى بعضه فوق بعضٍ يُمطرنا الساعة.

وقيل: إنّه بيان لغاية لجاجهم وعِنادهم، والمراد أنّهم في اللّجاج والعِناد بحيث لو أسقطنا عليهم قطعةً من السماء حسبما قالوا: (أو تسقط علينا كسفاً من السماء لقالوا هذا سحاب مركوم) ولم يُصدّقوا أنّه كِسْفٌ من السماء ساقطٌ عليهم لتعذيبهم[١]. فاذا كان لَجاجهم وعِنادهم إلى هذا الحدّ ﴿فَذَرهُمْ﴾ واتركُهم على حالهم، ولا تتعِب نفسك بالاصرار على دعوتهم ﴿حَتَّىٰ يُلاقُوا﴾ ويُعاينوا ﴿يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ ويُهلَكون بالعذاب، أعني ﴿يَومَ لَا يُغْنِى﴾ ولا يكفي في دفع العذاب ﴿عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ﴾ ومكرهم وتدبيرهم ﴿شَيْئاً﴾ من الإغناء ﴿وَلَا هُمْ﴾ من جهة الغير ﴿يُنصَرُونَ﴾ ويُحْفَظون من العذاب.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه لا يقتصر في حقّ المصرّين على العِناد واللّجاج على عذاب الآخرة، بل لهم في الدنيا عذابٌ أخفّ من عذاب الآخرة بقوله: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على أنفسهم بالإصرار على الكفر والعِناد، وعلى الله تعالى بتضييع حقّ ربوبيته ونعمته، وعلى الرسول بتكذيبه وكُفران نعِمة هدايته.

---

١. تفسير الصافي ٥: ٨٢، تفسير الكشاف ٤: ٤١٥.

القمي: ظلموا آل محمد[١] ﴿عَذَاباً﴾ أليماً في الدنيا ﴿دُونَ ذٰلِكَ﴾ العذاب الموعود في الآخرة وقبله، أو أخفّ منه. عن القمي: عذاب الرجعة بالسيف[٢]. وقيل: يعني عذاباً أخفّ قبل العذاب بالقتل، وهو العذاب بالقَحْط[٣]. وقيل: يعني وراء عذاب الدنيا، وهو عذاب الآخرة[٤].

﴿وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لفَرْط جهلهم وعِنادهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، وإنّما يعلمه أقلّهم، وهم الذين آمنوا. وقيل: يعني أنّهم في أكثر أحوالهم ـ وهو حال اشتغالهم بالدنيا ـ لا يعلمون، وفي أقلها ـ وهو حال احتضارهم ـ يعلمون. وقيل: إنّ أكثر هنا بمعنى الكلّ[٥].

وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ[٤٨ و ٤٩]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه عِناد القوم وكيدهم في شأن رسوله، سلّاه بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ يا محمد، على عِناد القوم وأذاهم ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم إلى اليوم الموعود، ولا يضيق صدرك بما يقولون، ولا تخف من كيدهم ﴿فَإِنَّكَ﴾ محفوظٌ من الآفات جميعها ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وفي مرآنا، أو بحفظنا وفي حمايتنا. وجَمَع العين لجمع الضمير، وللإيذان بغاية الاعتناء بحفظه وبكثرة أسبابه.

ولا تَدْعُ على أعدائك، ولا تشغل قلبك بالتفكّر في سوء فِعالهم وأقوالهم، بل فرّغه للعبادة ﴿وَسَبِّحْ﴾ الله ونزّهه عن النقائص الإمكانية، واقرِن تسبيحك ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على نِعمه عليك ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من النوم لصلاة الليل، كما عن القمي[٦]. أو تقوم من النوم في أيّ وقتٍ، كما رُوي أنّه ﷺ كان يُسبّح بعد الانتباه[٧]. أو تقوم من مجلسك، لما رُوي عنه ﷺ أنّه قال: «من جلس مجلساً فكثُر فيه لَغَطه، فقال قبل أن يقوم: سبحانك اللهمّ وبحمدك، أشهد أنّ لا إله إلّا أنت، استغفرك وأتوب إليك، كان كَفارةً لما بينهما»[٨]. أو تقوم إلى الصلاة، لمّا رُوي عنه ﷺ: «إذا قمت إلى الصلاة، فقل: سبحانك اللهمّ وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدّك، ولا إله غيرك»[٩].

أقول: أو في جميع تلك الأوقات المذكورة في الروايات.

﴿وَ﴾ بعضاً ﴿مِنَ ٱللَّيْلِ﴾ أوله، أو آخره ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ فانّه أفضل أوقات العبادة. وقيل: القدر الذي

---

١ و٢. تفسير القمي ٢: ٣٣٣، تفسير الصافي ٥: ٨٣ ٣. تفسير أبي السعود ٨: ١٥٢، تفسير روح البيان ٩: ٢٠٥.
٤. تفسير الرازي ٢٨: ٢٧٣، تفسير أبي السعود ٨: ١٥٣، تفسير روح البيان ٩: ١٠٥. ٥. تفسير الرازي ٢٨: ٢٧٤.
٦. تفسير القمي ٢: ٣٣٣، تفسير الصافي ٥: ٨٣ ٧. تفسير الرازي ٢٨: ٢٧٥.
٨. تفسير روح البيان ٩: ٢٠٧. ٩. تفسير الرازي ٢٨: ٢٧٥.

يكون فيه يقظان[١]. وعن القمي: صلاة الليل[٢]. ﴿وَ﴾ كذا ﴿إِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ وحين يخفى ضياؤها وهو وقت الصبح. وقيل: إنّ المراد من التسبيح في الليل صلاة العِشاءين، ومن التسبيح إدبار النجوم صلاة الفجر[٣]. وقيل: إنّه ركعتان قبل الفجر[٤].

وعنهما عليهما السلام: «﴿وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني الرُّكعتين قبل صلاة الفجر»[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة الطور جمع الله له خير الدنيا والآخرة»[٦].

الحمد لله الذي وفقني لتفسيرها.

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٢٧٦.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٣٣، تفسير الصافي ٥: ٨٣.
٣. تفسير أبي السعود ٨: ١٥٣، تفسير روح البيان ٩: ٢٠٨.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٢٠٨.
٥. مجمع البيان ٩: ٢٥٧، تفسير الصافي ٥: ٨٣.
٦. ثواب الأعمال: ١١٦، عن الباقر والصادق عليهما السلام، مجمع البيان ٩: ٢٤٥، عن الباقر عليه السلام، تفسير الصافي ٥: ٨٣.

في تفسير سورة النجم

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ[١ ـ ٤]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الطُّور المتضمنّة لبيان إنعام الله على النبي بنِعمة الرسالة، وردّ من قال إنّه ﷺ كاهنٌ أو مجنونٌ أو شاعرٌ، ومن قال بأنّ القرآن اختلقه محمدٌ ﷺ، وتوبيخ المشركين على إنكارهم توحيد الله، وقولهم بأنّ له البنات ولهم البنون، وردّ قولهم بعدم حاجتهم إلى الرسول بأنّهم لا يعلمون الغيب حتى لا يحتاجوا إلى المُبلّغ عن الله، وأمر الرسول بالاعراض عن المُصرّين على الكفر بقوله: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاَقُوا﴾[1] نُظِمت سورة النجم المتضمّنة لإثبات نبوة النبي ﷺ، ونفي الضلالة والغَواية عنه، وأنّ ما يقوله ليس إلّا ما يُوحىٰ إليه، وأنّ ما يعلمه ليس إلّا ما علّمه الله بتوسّط جَبْرئيل لا بالكِهانة، وإثبات التوحيد ونفي الوهية اللات والعُزى وسائر الأصنام، وتوبيخ المشركين على قولهم بأنّ لهم الذكر وله الأنثى، وإنكار كونهم عالمين بالغيب حتى لا يحتاجون إلى الرسول بقوله: ﴿أَعِندَهُ عِلمُ ٱلغَيبِ﴾[2]، وأمر الرسول بالإعراض عن المعرضين عن ذكر الله، إلى غير ذلك من المطالب المناسبة للسورة السابقة، فابتدأها بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ افتتحها بالحَلْف على صدق محمد ﷺ في الرسالة بقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ قيل: هو الثُّريا، والحَلْف به لكونه أحسن النجوم عند قريش وأظهرها للرائي، لأنّه له علامة لا يلتبس بغيره[3]، وتخصيص الحَلْف بحال هَوْيهِ بقوله: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ وسقط ومال إلى الغروب؛ لأنّه يهتدي الساري به حين الزوال، كما يُهتدىٰ بالنبي بخفض جَناحه ولين جانبه.

قيل: لمّا كان بعض المشركين يَعْبُدونه، فقرن سبحانه تعظيمه بالحَلْف به بما يدُلّ على عدم قابليته

---

١. الطور: ٤٥/٥٢. ٢. النجم: ٣٥/٥٣. ٣. تفسير الرازي ٢٨: ٢٧٩.

للعبادة، لكونه هاوياً آفلاً، كما قال إبراهيم: ﴿لا أحب الآفلين﴾[١].

وقيل: إنّ المراد بالنجم جنسه الثابت في السماء للاهتداء[٢].

وقيل: جنس النجوم المنقضّة التي هي رجومٌ للشياطين[٣]، كما أنّ النبي ﷺ مُنجي المؤمنين من هَمَزات الشياطين.

وقيل: إنّ الحَلْف بربّ النجم، والتقدير: وربّ النجم[٤] وعن ابن عباس: قال: يقول: وخالق النجم[٥].

وقيل: إنّ المراد بالنجم النباتات التي لا ساق لها[٦]، وهواه سقوطه على الأرض[٧]، وهو سجوده.

وقيل: إنّه نجوم القرآن[٨]، والحَلْف به استدلالٌ بأعظم معجزات النبي ﷺ على صدقه.

ثمّ ذكر سبحانه المحلوف عليه بقوله: ﴿مَا ضَلَّ﴾ وما عَدَل عن الصراط المستقيم المُوصل إلى كلّ خيرٍ، وما انحرف عن طريق القرب إلى الله والنيل بِنِعم الآخرة لنقص عقله محمد ﷺ الذي هو ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ ومُعاشِرِكم من أول عمره إلى الآن، وما رأيتم منه كذباً ولا خِيانةً. وقيل: يعني سيدكم[٩] ومالك اُموركم ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ وما وقع في أمرٍ باطلٍ وفاسدٍ باغواء الشياطين ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾ بشيء ولا يتكلم بكلمة صادرة ﴿عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ وميل نفسه وشهوته.

وقيل: إنّه دليلٌ على عدم ضلالته، والمراد أنّه كيف يضِلّ ويغوي وهو لا ينطِق عن الهوى؟ وإنّما يضِلّ من اتّبع الهوى، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[١٠].

وقيل: إنّ كلمة (عن) بمعنى باء، والمعنى لا ينطِق بسبب الهوى[١١].

﴿إِنْ﴾ الذي ينطِق به، وما ﴿هُوَ﴾ شيءٌ ﴿إِلَّا وَحْيٌ﴾ من الله تعالى ﴿يُوحَىٰ﴾ إليه حقيقةً بواسطة جَبْرئيل لا مجازاً، وما هو بكاهنٍ ولا شاعرٍ ولا مجنونٍ.

ذكر فضيلة لعلي عليه السلام ونصّ الامامة

وقال العلامة رحمه الله في (نهج البلاغة): روى الجمهور عن ابن عباس، قال: كنت جالساً مع فِتيةٍ من بني هاشم عند النبي ﷺ، إذ انقض كوكبٌ، فقال رسول الله ﷺ: «من انقضّ هذا النجم في منزله فهو الوصيّ من بعدي» فقام فِتيةٌ من بني هاشم فنظروا، فإذا الكوكب انقضّ في منزل علي بن أبي طالب عليه السلام. فقالوا: يا رسول الله، غويت في حبّ علي.

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨٠، والآية من سورة الأنعام: ٧٦/٦.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٧٩.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ٢٧٩.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٢٠٩.
٥. أمالي الصدوق: ٨٩٣/٦٦٠، تفسير الصافي ٥: ٨٤.
٦. تفسير روح البيان ٩: ٢١١.
٧. تفسير روح البيان ٩: ٢١١.
٨. جوامع الجامع: ٤٦٨، تفسير الرازي ٢٨: ٢٧٩.
٩. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨٠.
١٠. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨٠، والآية من سورة ص: ٢٦/٣٨.
١١. تفسير روح البيان ٩: ٢١٣.

فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[١].

وعن (المجالس) عن ابن عباس، قال: صلّينا العِشاء الآخرة مع رسول الله، فلمّا سلّم أقبل علينا بوجهه ثمّ قال: «سينقضّ كوكب من السماء مع طلوع الفجر، فيسقط في دار أحدكم، فمن سقط ذلك الكوكب في داره فهو وصيي وخليفتي والامام بعدي» فلمّا قرُب الفجر، جلس كلّ أحدٍ منا في داره، وكان أطمع القوم في ذلك أبي العباس بن عبدالمطلب، فلمّا طلع الفجر انقضّ الكوكب من الهواء، فسقط في دار علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي: «يا علي، والذي بعثني بالنبوة، لقد وجبت لك الوصية والخلافة والامامة بعدي». فقال المنافقون عبدالله بن اُبي وأصحابه: لقد ضلّ محمد في محبّة ابن عمّه وغوى، وما ينطِق في شأنه إلّا بالهوى. فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ في محبّة علي بن أبي طالب ﴿وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ في شأنه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٢]. وروىٰ ما يقرُب منه عن الصادق عليه السلام[٣].

ورُوي عن الباقر عليه السلام قال: «ما ضلّ في عليّ وما غوى، وما ينطِق فيه عن الهوى، وما كان ما قاله فيه إلّا بالوحي الذي اُوحي إليه»[٤].

وعن الصادق عليه السلام، قال: «إنّ رضى الناس لا يُملك، وألسنتهم لا تُضبَط، وكيف يَسْلَمون ممّا لا يَسْلَم منه أنبياء الله ورسله وحجج الله... ألم ينسِبوا نبيّنا محمدً صلى الله عليه وآله إلى أنه ينطِق عن الهوى في ابن عمّه عليّ عليه السلام حتى كذّبهم الله فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾»[٥].

وعن الرضا عليه السلام في تأويل الآية: «النجم رسول الله»[٦].

وعن الباقر عليه السلام: «أقسم الله بمحمدٍ صلى الله عليه وآله[٧] إذا قُبض ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ لتفضيله أهل بيته ﴿وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ يقول: ما يتكلّم بفضل أهل بيته بهواه، وهو قول الله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾»[٨].

عَلَّمَهُ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِالْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ * مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ

---

١. نهج الحق: ١٩٣. ٢. أمالي الصدوق: ٨٩٣/٦٥٩، تفسير الصافي ٥: ٨٤

٣. أمالي الصدوق: ٨٩٤/٦٦٠، تفسير الصافي ٥: ٨٥ ٤. تفسير القمي ٢: ٣٣٤، تفسير الصافي ٥: ٨٥

٥. أمالي الصدوق: ١٦٣/١٦٤، تفسير الصافي ٥: ٨٥

٦. تفسير القمي ٢: ٣٣٣، ولم ينسبه إلى أحد، تفسير الصافي ٥: ٨٥

٧. في الكافي: أقسم بقبض محمد، في تفسير الصافي: أقسم بقبر محمد.

٨. الكافي ٨: ٥٧٤/٣٨٠، تفسير الصافي ٥: ٨٥

مَا رَأَىٰ [٥ـ ١١]

ثمّ لمّا كان بعض المشركين يقولون: إنّما علّم محمداً ما ينطق وما يقول من العلوم بعضُ أهل الكتاب في أسفاره إلى الشام، ردّهم الله سبحانه بقوله: ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ جَبْرَئيل الذي هو ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ في العلوم والأعمال، لا البشر الذي هو ضعيف القوة وقليل العلم، وذلك المَلَك ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ وكمال في الجسم والعقل والدين وحسُن الأخلاق واستحكام الأركان ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ ذلك المَلَك واستقام متوجّهاً إلى تعليم محمد ﷺ، واستقر على صورته الأصلية التي خُلِق عليها، أو استقرّ محمد ﷺ على التعلُّم منه، كما عن القمي[١].

وقيل: إنّ فاعل (علّمه) الله، والمعنى علّمه الله الذي هو شديد القوى في العلوم، وما بعده أوصاف الرسول ﷺ والمعنى: أنّ الرسول ذو مِرّةٍ، فاستوى: وأستقام للتعلُّم من الله[٢].

عن الرضا عليه السلام: «ما بعث الله نبياً إلّا صاحب مِرّة سوداء صافية»[٣].

﴿وَهُوَ﴾ متمكّن ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أو المقام الأرفع من الكلمات الانسانية، والمرتبة الأسنىٰ من الفضائل الجسمانية والروحانية بحيث لا يُدانيه مَلَك مُقرّب ولا نبيّ مرسل ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ رسول الله وقرُب من الله بالعلم والكمال الصفاتي ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ الله وقرُب منه.

عن الكاظم عليه السلام، قال: «هذه لغة قريش، إذا أراد الرجل أن يقول: سَمِعتُ، يقول: تدلّيت، وإنّما التدلّي: الفَهْم»[٤].

أقول: وعليه يكون المعنى: ثمّ دنا رسول الله ﷺ فسمِع وفَهم من الله.

﴿فَكَانَ﴾ مقدار المسافة بين الله وبين رسوله ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ وقدر ما بين سِيَة[٥] القوس إلى رأسها، كما عن الصادق عليه السلام[٦]. وقيل: مقدار ما بين الوتر والقوس[٧]. وهو حدّ الفصل في مجالسة الأحبّاء المتأدّبين[٨].

قيل: مثّل لغاية القرب، وأصله أنّ الحليفين كانا إذا أراد عقد الصفاء أخرجا قوسيهما، فألصقا بينهما، وهو إشارة إلى كونهما متظاهرين يحامي كلٌّ منهما عن صاحبه[٩].

وقيل: إن الكبيرين من العرب إذا اصطلحا وتعاهدا، أخرجا قوسيهما، ووتر كلّ واحدٍ منهما طرف

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٣٤، تفسير الصافي ٥: ٨٥
٢. تفسير القمي ٢: ٢٣٤.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٣٤، تفسير الصافي ٥: ٨٥
٤. الاحتجاج: ٣٨٧، تفسير الصافي ٥: ٨٧
٥. سِية القوس: ما عُطِف من طرفيها.
٦. الكافي ١: ١٣/٣٦٨، تفسير الصافي ٥: ٨٧
٧. تفسير روح البيان ٩: ٢١٧.
٨. تفسير روح البيان ٩: ٢١٨.
٩. تفسير روح البيان ٩: ٢١٧.

قوسه بطرف قوس صاحبه[١]. فجعل سبحانه نفسه ونبيه ﷺ بمنزلة أميرين كبيرين اجتمعا للتعاهد والتصافي والتعاضد.

في (الامالي) عن النبي ﷺ، قال: «لمّا عُرِج بي إلى السماء دنوتُ من ربي عز وجل حتى كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى، فقال: يا محمد، من تُحبّ من الخلق؟ قلت: يا ربّ، علياً. قال: فالتفت يا محمد. فالتفت عن يساري، فاذا علي بن أبي طالب»[٢].

وعن السجاد ﷺ: «أنا بن من علا فاستعلا، فجاز سدرة المنتهى، فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى»[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّه أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مسيرة شهر، وعُرِج به في ملكوت السماوات مسيرة خمسين ألف عام في أقلّ من ثلث ليلة، حتى انتهى إلى ساق العرش، فدنا بالعلم فتدلّى، فدنا له من الجنّة رفرفٌ أخضر، وغشي النور بصره، فرأى عظمة الله بفؤاده، ولم يرها بعينه، فكان قاب قوسين بينهما وبينه أو أدنى»[٤].

وفي رواية عن الصادق عليه السلام، قال: «وكان كما قال الله ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾» قيل: ما قاب قوسين؟ قال: «ما بين سِيتها إلى رأسها» قال: «فكان بينهما حِجابٌ يتلألأ يخفِقُ ـ ولا أعلمه إلّا وقد قال: زَبَرجد ـ فنظر في مثل سَمّ الإبرة إلى ما شاء الله من نور العظمة، فقال الله تعالى: يا محمد، قال: لبيك ربّي. قال: من لأُمتّك من بعدك؟ قال: الله تعالى أعلم.قال: علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، وسيد المسلمين، وقائد الغُرّ المُحجّلين».

ثمّ قال الصادق عليه السلام: «ما جاءت ولاية عليّ عليه السلام من الأرض، ولكن جاءت من السماء مُشافهةً»[٥].

أقول: الظاهر أنّ أول حضوره في الحضرة كان قربه قاب قوسين، ثمّ صار أقرب، ولذا أضرب سبحانه عن الحدّ الأول بقوله تعالى: ﴿أَو أَدنىٰ﴾ وأقرب. عن الصادق عليه السلام في رواية: «وكان من الله عزّ وجلّ كما قال: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي بل أدنى»[٦].

وقيل: كلمة (او) للترديد، والمعنى: أو أقرب على تقديركم أيّها المخاطبون، كما في قوله تعالى:﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾[٧] فالترديد والشكّ من جهة العباد، لا من الله، لامتناع الشكّ[٨].

وقيل: إنّ المعنى فدنا من جَبْرَئيل فتدلّى واسترسل جَبْرئيل نفسه من الأفق الأعلى، وهو مَطْلع

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨٦.
٢. أمالي الطوسي: ٧٢٧/٣٥٢، تفسير الصافي ٥: ٨٦
٣. الاحتجاج: ٣١١، تفسير الصافي ٥: ٨٦
٤. الاحتجاج: ٢٢٠، تفسير الصافي ٥: ٨٧
٥. الكافي ١: ١٣/٣٦٨، تفسير الصافي ٥: ٨٧
٦. تفسير الصافي ٥: ٨٦
٧. الصافات: ١٤٧/٣٧.
٨. تفسير روح البيان ٩: ٢١٨.

الشمس، كما أنّ أُفق المغرب الأدنى، فدنا من النبي ﷺ[١].

وقيل: إنّ النبي ﷺ أحبّ أن، يرى جبرئيل في صورته التي خُلِق عليها، وكان ﷺ بجبل حِراء، المسمى بجبل النور في قرب مكة، فقال جَبْرَئيل: إنّ الارض لا تسعني، ولكن انظُر إلى السماء، فطلع له جَبْرَئيل من المشرق، فسدّ الأرض من المغرب، وملأ الأفق، فخرّ رسول الله ﷺ كما خرّ موسى في الطور، فنزل جَبْرَئيل في صور الأدميين، فضمّه إلى نفسه، وجعل يمسح الغُبار عن وجهه[٢].

وقيل: إنّ الله تعالى نزّل جَبرئيل والنبي ﷺ في لقائهما منزلة كبيرين من الناس، إذا قربا للتعاهد والتعاضد، ثمّ لمّا كان جَبْرئيل بالنسبة إلى النبي ﷺ بمنزلة الرعية إذا أراد أن يبايع السلطان، فانّه يقرُب منه ويُمدّ يده ليضعها في كفّ السلطان، فانّه يقرُب منه بقدر الباع، وهو أقصر من القوسين[٣].

وقيل: إنّ البُعد المقدّر بين النبي ﷺ وجَبْرئيل هو بُعد البشرية عن حقيقة المَلَكية، فإنّ النبي ﷺ وإن تنزّه عن نقائص البشرية [وزال عن الصفات التي تخالف صفات المَلَك] من الشهوة والغضب والجهل والبُعد عن الله وغيرها من الرذائل [لكن بشريته باقية]، وجَبْرئيل [وان ترك الكمال واللطف الذي يمنع الرؤية والاحتجاب، لكن لم يخرج عن كونه مَلَكاً، فارتفع النبي ﷺ حتى بلغ الأُفق الأعلى من البشرية وجبرئيل] تدلّى إلى الأفق الأدنى من المَلَكية، فتقاربا ولم يبق بينهما إلّا [اختلاف] حقيقتهما[٤].

قيل: إنّ معنى الآيات: علّم النبي ﷺ جَبْرئيل الذي هو كامل القوى للتعليم، وذو حصافة[٥] في العقل، فاستوى محمد ﷺ وتكامل للرسالة، أو استقام جبرئيل على صورته الأصلية في حال كان محمد ﷺ في الأُفق الأعلى من مراتب كمال الانسانية،وهو مرتبة النبوة، ثم دنا من جَبْرَئيل وتخلّع بخِلعة الرسالة، ثمّ تدلى إلى أُمتّه بالرفق واللين[٦].

عن السجاد عليه السلام - في رواية - «فتدلّى فنظر في تحته ملكوت الأرض حتى ظنّ أنّه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى»[٧].

﴿فَأَوْحَىٰ﴾ الله بلا واسطة جَبْرئيل ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمدٍ، أو جبرئيل إلى رسول الله وعبده ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ من عظائم الأمور التي لا تَسَعها العبائر على الأوّل، أو ما أوحى الله إلى جبرئيل على الثاني. قيل: إنّ ما أوحى هو الصلاة[٨].

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٥٥.
٢. تفسير أبي السعود ٨: ١٥٥، تفسير روح البيان ٩: ٢١٤.
٣. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨٦ و٢٨٧.
٤. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨٧.
٥. الحصافة: استحكام العقل وجودة الرأي.
٦. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨٦.
٧. علل الشرائع: ١/١٣٢، تفسير الصافي ٥: ٨٦
٨. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨٧.

وعن (الاحتجاج): هو آية ﴿لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ ...الآية[١].

وقيل: كلّما جاء به جَبْرَئيل[٢].

ويُحتَمل أنّه الولاية، عن القمي: سُئل رسول الله ﷺ عن ذلك الوحي، فقال: «أوحى الله إلي أنّ علياً سيد المؤمنين، وإمام المتّقين، وقائد الغُرّ المحجلين، وأول خليفة يخلُفه خاتم النبيين»[٣].

﴿مَا كَذَبَ﴾ وما أخطأ الفؤاد الذي لمحمدٍ ﴿مَا رَأَىٰ﴾ محمد ﷺ من نور عظمة الله في العرش، كما رُوي عن النبي ﷺ[٤]، أو جَبْرئيل في الأرض على صورته الأصلية[٥].

وعن الرضا عليه السلام: «ما رأت عيناه [ثمّ أخبر بما رأى] فقال: ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ فآيات الله غير الله»[٦].

وقيل: ما رأى فؤاد محمد ﷺ بحقيقة الايمان هو ربّه[٧]، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لم أعبُد ربّاً لم أره»[٨].

عن الكاظم عليه السلام أنّه سُئل: هل رأى رسول الله ربّه عزّ وجلّ؟ فقال «نعم، بقلبه رآه، أما سَمِعت الله يقول: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾؟ ما رآه بالبصر، ولكن رآه بفؤاده»[٩].

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ محمداً ﷺ رأى ربّه بفؤاده»[١٠].

فَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ [١٢ـ١٤]

ثمّ وبّخ سبحانه المشركين على مجادلتهم رسوله فيما أخبر به من رؤيته جَبْرئيل بقوله: ﴿أَفَتُمَارُونَهُ﴾ وتجادلونه أيّها المشركون ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ من جَبْرئيل على صورته.

رُوي أنّ النبيّ ﷺ لمّا أخبر برؤيته جَبْرئيل تعجّبوا منه وأنكروا[١١].

وعن القمي: بعد الإخبار بما قال الله في عليّ عليه السلام دخل القوم في الكلام، فقالوا: أمن الله، أو من رسوله؟ فقال جلّ ذكره لرسوله ﷺ: قل لهم: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ثمّ ردّ عليهم فقال:

---

١. الاحتجاج: ٢٢٠، تفسير الصافي ٥: ٨٨، والآية من سورة البقرة: ٢٨٤/٢.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٨٨.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٣٤، تفسير الصافي ٥: ٨٩.
٤. مجمع البيان ٩: ٢٦٥، تفسير الصافي ٥: ٨٩.
٥. مجمع البيان ٩: ٢٦٦.
٦. الكافي ١: ٢/٧٥، التوحيد: ٩/١١١، تفسير الصافي ٥: ٨٩
٧. تفسير الرازي ٢٨: ٢٩٠، تفسير روح البيان ٩: ٢٢٢.
٨. التوحيد: ١/٣٠٥، و: ٢/٣٠٨، أمالي الصدوق: ٥٦٠/٤٢٣.
٩. التوحيد: ١٧/١١٦، تفسير الصافي ٥: ٨٩
١٠. مجمع البيان ٩: ٢٦٤، تفسير الصافي ٥: ٨٩
١١. تفسير روح البيان ٩: ٢١٨.

﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾[١].

وقيل: إنّ المعنى: كيف توردون الشكّ على ما يراه بعين اليقين، ولا شكّ بعد الرؤية، وأنتم تقولون أصابه الجنّ[٢].

ثمّ أكّد سبحانه رؤية محمد ﷺ ربّه بقوله: وَلَقَدْ رَآهُ﴾ محمدٌ ﷺ ﴿نَزْلَةً﴾ ومرّة ﴿أُخْرَىٰ﴾ حين رجوعه من العرش، فانّ له نزولات وعروجات لسؤال التخفيف على ما قيل[٣]. وعن كعب: أنّ النبي ﷺ رأى ربّه مرّتين[٤] ﴿عِندَ﴾ شجرة ﴿سِدْرَةِ﴾ كانت في السماء السادسة أو السابعة ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ إليها صعود الملائكة وأعمال العباد، وهو مقام جَبرئيل بحيث لا يُمكنه التجاوز، ولذا تخلّف عن النبي ﷺ حين عروجه إلى العرش، وقال: لو دنوت أنْمُلة لاحترقت.

عن الباقر عليه السلام، قال: «فلمّا انتهى إلى سِدرة المنتهى تخلّف عنه جَبْرئيل، فقال رسول الله ﷺ: يا جبرئيل، في مثل هذا الموضع تَخذُلني؟ فقال: تقدّم أمامك، فوالله لقد بلغت مبلغاً لم يَبْلُغه خَلْقٌ مِن خَلْق [الله] قبلك، فرأيت من نور ربّي، وحال بيني وبينه السّبحة، قيل: وما السّبحة؟فأومأ بوجهه إلى الأرض، وبيده إلى السماء، وهو يقول: جلال ربّي، جلال ربّي، ثلاث مرات»[٥].

وعنه عليه السلام، قال: «﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ يعني عندها وافى به جَبْرئيل حين صعِد إلى السماء، فلمّا انتهى إلى محلّ السّدرة وقف جَبْرئيل دونها، وقال: يا محمد، إنّ هذا موقفي الذي وضعني الله عزّ وجلّ فيه، ولم أقدِر على أن أتقدّسه، ولكن أمضِ أنت أمامك إلى السُّدرة، فوقف عندها» قال: «فتقدّم رسول الله إلى السّدرة، وتخلّف جَبْرَئيل».

قال: «إنّما سُمّيت سِدرة المنتهى؛ لأنّ أعمال أهل الأرض تصعد بها الملائكة الحَفَظة إلى محلّ السدرة، والحَفَظة الكِرام البَرَرة دون السُّدره يكتبون ما يرفع إليهم الملائكة من أعمال العباد في الأرض». قال: «فينتهون بها إلى محلّ السُّدرة».

قال: «فنظر رسول الله ﷺ فرأى أغصانها تحت العرش وحوله، فتجلّى لمحمد ﷺ نور الجبّار عزّ وجلّ، فلمّا غشي النور محمد ﷺ شَخَص بصره، وارتعدت فرائصه» قال: «فشدّ الله عزّ وجلّ لمحمد ﷺ قلبه، وقوّى له بصره حتى رأى من آيات ربّه ما رأى، وذلك قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾.

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٣٤، تفسير الصافي ٥: ٨٩.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٢٩٠.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٢٢٤.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٢٢٥، ولم ينسبه إلى أحد.
٥. تفسير القمي ٢: ٢٤٣، تفسير الصافي ٥: ٩٠.

إلى أن قال: «وإنّ غِلَظ السدرة لمسيرة مائة عام من أيام الدنيا، وإنّ الورقة منها تُغطّى أهل الدنيا»[١].

وعن النبي ﷺ قال: «رأيت على كلّ ورقةٍ منها مَلَكاً قائماً يُسبّح الله»[٢].

وقيل: إنّها شجرة طوبى[٣]، وقيل: إنّها في منتهى الجنه[٤]. وقيل: ينتهي إليها ما يهبِط من فوقها من الأحكام، ويصعد من تحتها من الآثار[٥].

وعن أبي هُريرة: لمّا أُسرى بالنبي ﷺ انتهى إلى السِّدرة، فقيل له ﷺ: هذه السِّدرة ينتهي إليها كلّ أحدٍ من أُمّتك مات على سُنّتك[٦].

وعن كعب الأحبار: أنّها سِدرةٌ في أصل العرش على رؤوس حَمَلة العرش، وإليها ينتهي الخلائق، وما خلفها غيبٌ لا يعلمه إلّا الله[٧].

وقيل: إنّه منتهى العلوم[٨].

وقيل: إنّ ضمير (رآه) راجعٌ إلى جَبْرئيل والمعنى: والله لقد رأى محمد ﷺ جَبرئيل بصورته الأصلية مرة أُخرى من نزوله[٩].

نُقِل عن عائشة أنّها قالت: أنا سألت النبي ﷺ عن ذلك، فقال: «رأيت جَبْرئيل نازلاً في الأُفق على خِلقته وصُورته»[١٠].

عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ * مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ * لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ [١٥ـ١٨]

ثمّ عظّم سبحانه السِّدرة بقوله: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ﴾ هي ﴿ٱلمَأْوَىٰ﴾ والمرجِع والمقرّ للمُتّقين والشهداء والصالحين: أو مأوى آدم وحوّاء.

ثم بالغ سبحانه في تعظيم السِّدرة ببيان وقت رؤية النبي ﷺ ما رأى من نور عظمة الله، أو جبرئيل، بقوله: ﴿إِذْ يَغْشَى﴾ قيل: معناه لقد رآه حين يُغطّي ويستُر[١١] ﴿ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ ويُغطّيها ما لا يفي البيان كيفاً ولا كمّاً من نور عظمة الله. قيل: لمّا وصل النبي ﷺ إليها تجلّى ربّه لها، كما تجلّى للجبل، ولمّا كانت أقوى من الجبل، وقلب محمد ﷺ أربط من قلب موسى عليه السلام لم تندكّ السِّدرة، ولم

---

١. علل الشرايع: ١/٢٧٧، تفسير الصافي ٥: ٩٠.
٢. مجمع البيان ٩: ٢٦٥، تفسير الصافي ٥: ٩٠.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٢٢٥.
٤. تفسير أبي السعود ٨: ١٥٦، تفسير روح البيان ٩: ٢٢٤.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٢٢٤.
٦. تفسير روح البيان ٩: ٢٢٥.
٧. تفسير روح البيان ٩: ٢٢٥.
٨. تفسير روح البيان ٩: ٢٢٥.
٩. تفسير روح البيان ٩: ٢٢٤.
١٠. تفسير روح البيان ٩: ٢٢٥.
١١. تفسير روح البيان ٩: ٢٢٧.

يتزلزل محمد ﷺ. كما اندكّ الجبل، وخرّ موسى صَعِقاً[١].

وعن القمي رحمه الله، لمّا رُفِع الحِجاب بينه وبين رسول الله ﷺ غشي نوره السِّدرة[٢].

وقيل: غشّتها الملائكة[٣].

عنه ﷺ: «رأيت السِّدرة يغشّيها فَراشٌ من ذهب، ورأيت على كلّ ورقةٍ منها مَلَكاً قائماً يُسبّح الله»[٤].

وعنه ﷺ: «يغشيّها رَفْرَفٌ من طُيورٍ خُضرٍ»[٥].

وقيل: يغشّيها جَبْرئيل[٦].

وهو ﷺ ما شاهد هناك من الأمور المحيّرة ﴿مَا زَاغَ﴾ وما مال منه ﴿ٱلْبَصَرُ﴾ أدنى ميلٍ عمّا رآه من العجائب، وما التفت إلى يمين وشمال لعظمة الهيبة ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ محمد ﷺ وما جاوز عن حدّ الاستقامة والثبات، ولم يتوجّه إلى شيءٍ سواه، بل استغرق في التوجّه إلى الحقّ واسمائه وصفاته وتجلّياته، أو إلى عجائب مُبدعاته بالله ﴿لَقَدْ رَأَىٰ﴾ محمد ﷺ في عُروجه إلى السماء ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ﴾ الآية ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أو آيات هنّ أكبر الآيات. عن الباقر عليه السلام: «يعني أكبر الآيات»[٧].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال بعد ذكر الآية: «رأى جَبْرَئيل في صورته مرّتين، هذه المرة، ومرة اُخرى، وذلك أنّ خَلْق جَبرئيل عظيمٌ، وهو من الرّوحانيين الذين لا يُدرِك خلقهم وصفتهم إلّا الله ربّ العالمين»[٨].

وعن الصادق عليه السلام، أنّه سُئِل عن هذه الآية فقال: « رأى جبرئيل على ساقة الدُّرّ، مثل القَطْر على البَقْل، له ستمائة جَناح، قد ملأ ما بين السماء والأرض»[٩].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما لله آية أكبر منّي»[١٠].

عن القمي، عن النبي ﷺ، قال لعلي: «يا علي، إنّ الله أشهدك معي في سبعة مواطن، أمّا أوّل ذلك فليلة اُسري بي إلى السماء، قال لي جبرئيل: أين أخوك؟ فقلت: خلّفته ورائي. قال: أدعُ الله فليأتك به. فدعوت الله، فاذا مِثالك معي، وإذ الملائكة وقوفٌ صفوفٌ، فقلت: يا جبرئيل، من هؤلاء؟ قال: هم

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ٢٩٣.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٣٨، تفسير الصافي ٥: ٩١.
٣. الرازي ٢٨: ٢٩٣، تفسير البيضاوي ٢: ٤٣٩، تفسير أبي السعود ٨: ١٥٧.
٤. تفسير أبي السعود ٨: ١٥٧، تفسير روح البيان ٩: ٢٢٧.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٥٧، تفسير روح البيان ٩: ٢٢٧.
٦. مجمع البيان ٩: ٢٦٦.
٧. علل الشرائع: ١/٢٧٨، تفسير الصافي ٥: ٩٠.
٨. التوحيد: ٥/٢٦٣، تفسير الصافي ٥: ٩١.
٩. التوحيد: ١٨/١١٦، تفسير الصافي ٥: ٩١.
١٠. الكافي ١: ٣/١٦١، تفسير الصافي ٥: ٩٢.

الذين يُباهيهم الله بك يوم القيامةَ فدنوت فنطقت بما كان وما يكون إلى يوم القيامة، والثاني حين أُسر بي في المرّة الثانية، فقال لي جبرئيل: أين أخوك؟ قلت: خلّفته ورائي. قال: ادعُ الله فليأتك به. فدعوت الله، فاذا مِثالك معي، فكُشِط لي عن سبع سماوات حتى رأيت سُكّانها وعُمّارها وموضع كلّ مَلَك منها» الخبر[1].

﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَا أَنزَلَ ٱللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾[١٩ ـ ٢٣]

ثمّ لمّا قرّر سبحانه النبوّة، ذكر بطلان الشِّرك الذي هو أهم ما يكون الرسول مأموراً بتبليغه، بإظهار سَفَه القائلين بألوهية الأصنام المعروفة بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ﴾ وهي صنم ثَقيف في الطائف ﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾ وهي صنمٌ، أو سَمُرةٌ عبدتها قبيلة غَطفان ﴿وَمَنَاةَ﴾ وهي صخرةٌ يعبدها هُذيل وخُزاعة، أو صنم للأوس والخزرج، وهي تكون ﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾ للأوّلين ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾ والأدون والأذلّ منهما بنات الله وأهِلات للعبادة، أو إنّكم رأيتم حقارتها، فكيف تُشرِكون بها مع الله تعالى مع كمال عظمته؟

عن القمي رحمه الله: اللات رجلٌ، والعُزّى امرأته، ومَناة صنمٌ بالمسلك الخارج عن الحرم على ستة أميال[2].

قيل: إنّ كون مَناة أذلّ من الأولين؛ لأنّ اللات على صورة الآدمي، والعُزّى على صورة نبات، ومَناة على صورة صخرة، والجماد أدون وأذل من الآدمي والنبات، ومتأخّر رتبةً منهما[3].

وقيل: إنّ المعنى أفرايتم اللات والعُزّى المعبودين بالباطل ومناة الثالثة المعبودة الأُخرى[4].

ثمّ لمّا كان مُحالٌ أن يقول المشركون: نحن نعترف بأنّ الله تعالى أعظم من كلّ شيء، ولكن لمّا كانت الملائكة بنات الله صوّرنا لهنّ صُوراً نعبُدها تعظيماً لهنّ، فوبخّهم الله على ذلك القول الشنيع بقوله: ﴿أَلَكُمُ﴾ أيّها الجُهّال الولد ﴿ٱلذَّكَرُ﴾ الذي هو أشرف الاولاد وأكملهم وأنفعهم مع كونكم مخلوقَ الله وعبيده ﴿وَلَهُ﴾ تعالى مع كمال عظمته وقدرته الولد ﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾ الذي هو أخسّ الأولاد وأنقصهم[5] بحيث إذا بُشّر أحدكم به ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم ﴿تِلْكَ﴾ القسمة أو نسبة البنات إلى الله مع اعتقادكم أنهنّ ناقصات، واختياركم البنين مع أعتقادكم أنّهم كاملون ﴿إِذاً﴾ وفي حال كونكم

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٣٥، تفسير الصافي ٥: ٩١.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٣٨، تفسير الصافي ٥: ٩٢.
٣. تفسيرالرازي٢٨: ٢٩٦.
٤. تفسيرالرازي٢٨: ٢٩٦.
٥. في النسخة: وأنقصه.

في غاية النقص والحقارة، وكون الله تعالى في نهاية الكمال والعظمة ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ وجائرة، حيث إنّ العقل حاكمٌ بأنّ الله لا يلد، وعلى فرض الولادة لا يختار لنفسه إلّا الولد الكامل ﴿إنْ﴾ الالفاظ التي تُديرونها على أُلسنتكم من قولكم: إنّ الملائكة بنات الله وشفعاؤكم، وإنّ الأصنام آلهةٌ، وما ﴿هى﴾ في الواقع والحقيقة ﴿إلّا أسماءٌ﴾ لا مُسمّيات لها، والألفاظ لا معنى تحتها ﴿سَمَّيْتُمُوهَا﴾ ووضعتموها ﴿أَنتُم﴾ تقليداً لآبائكم، ﴿وَ﴾ وضعها ﴿آبَاؤُكُم﴾ تبعاً لكُبرائهم، والحال أنّه ﴿مَا أَنزَلَ آللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ وحُجةٍ وبرهانٍ تتمسكون به وتعتمدون عليه.

إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا آلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى آلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِن رَبِّهِمُ آلْهُدَىٰ * أَم لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ * فَلِلَّهِ آلْآخِرَةُ وَآلْأُولَىٰ * وَكَم مِن مَلَكٍ فِى آلسَّماوَاتِ لاَ تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ آللهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ[٢٣ـ٢٦]

ثمّ أعرض سبحانه عنهم إيذاناً بسقوطهم عن قابلية الخطاب بسَفَههم، ووجّه الخطاب إلى العقلاء بقوله: ﴿إن يَتَّبِعُونَ﴾ هؤلاء السُّفهاء في تسمية الملائكة الذين هم عباد الله المكرمون بنات الله، واللات والعُزّى ومَناة اللاتي كُلّهن عجزة وغير شاعرات بالآلهة ﴿إلّا آلظَّنَّ﴾ السيء والحُسبان الباطل ﴿وَمَا تَهْوَى﴾ وتشتهي ﴿آلأَنفُسُ﴾ الأمّارة بالسوء ﴿وَ﴾ الحال أنّه بالله ﴿لَقَدْ جَاءَهُم مِن﴾ جانب ﴿رَبِّهِمُ﴾ اللطيف بهم ﴿آلهُدَىٰ﴾ وأسباب الرَّشاد إلى الحقّ من رسولٍ عليمٍ كريمٍ وكتابٍ حكيم، وهم لكثرة جهلهم وعِنادهم كذبوهما واستهزءوا بهما.

ثمّ أنكر سبحانه عليهم اتّباع الهوى واشتهاء الأنفس بقوله: ﴿أَم لِلإِنسَانِ﴾ وهل له ﴿مَا تَمَنَّىٰ﴾ وتشتهيه من القول بأنّ الملائكة بنات الله والشفعاء عنده، وأنّ الاصنام آلهةٌ، لا والله لا يحصُل لهم مايشتهونه.

ويُحتمل أن لا تكون كلمة (أم) منقطعة، بل متّصلة، والمعنى: الله القادر على كلّ شيءٍ ما أراد، أم للانسان العاجز عن كلّ ما يشتهيه، فاذا كانوا متّبعين لهواهم وظنونهم ﴿فللهِ﴾ وحده الدار ﴿آلآخِرَةُ وَآلأُولَىٰ﴾ يُعاقبهم فيهما على مخالفتهم لله.

قيل: إنّ الآية بيان العلّة لانتفاء أن يكون للانسان ماتمنّاه[1]، والمعنى: ليس للانسان ما تمنّاه، لاختصاص اُمور العالمين به، فيعطي من أيّهما ما يُريد لمن يُريد، وليس لأحدٍ أن يحكُم عليه في شيءٍ منهما.

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٥٩، تفسير الصافي ٩: ٢٣٦.

ثمّ أقنطهم سبحانه عن الطمع في شفاعة الملائكة فضلاً عن الأصنام بقوله تعالى: ﴿وَكَم مِن مَلَكٍ﴾ وكثير من الروحانيين الساكنين ﴿فِى ٱلسَّماوَاتِ﴾ السبع ﴿لَا تُغْنِى﴾ ولا تنفع ﴿شَفَاعَتُهُمْ﴾ عند الله لأحدٍ ﴿شَيئاً﴾ من الإغناء والنفع، وفي وقت من الأوقات ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللهُ﴾ لهم في الشفاعة ﴿لِمَن يَشَاءُ﴾ أن يشفعوا له ﴿وَيَرْضَىٰ﴾ عنه بتديّنه بالدين المرضي عنده، وهو الاسلام.

وقيل: يعني من بعد أن يأذَن الله لمن يشاء من الملائكة في الشفاعة، ولا يُؤذن لهم إلّا في الشفاعة لأهل الايمان بالتوحيد[1] ورسالة خاتم النبيين، فانّهم آهلين للشفاعة دون الكفّار والمشركين، هذا حال أعظم المخلوقات عند الله، فكيف حال الأصنام اللّاتي هُنّ أخسّها؟

إِنَّ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلاَئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً * فَأَعْرِضْ عَن مَن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا * ذٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ[٢٧ ـ ٣٠]

ثمّ ذمّ سبحانه القائلين بانوثة الملائكة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عن صميم القلب وخُلوص النية ﴿بِالآخِرَةِ﴾ ودار الجزاء ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلمَلَائِكَةَ﴾ الذين هم عباد الرحمن تسمية تُشبه ﴿تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ﴾ ويقولون لهم بنات الله.

قيل: إن القائلين بأنّ الملائكة بنات الله، لم يكونوا معتقدين بالمعاد ودار الجزاء، بل كانوا يقولون لا حشر ولا بعث[2]، ولو فُرض تحقيقه كانت الملائكة والأصنام شفعائنا، ولذا اجترءوا على هذا القول ﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿مَا لَهُم بِهِ﴾ شيء ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ وأقلّ مرتبةٍ من اليقين، بل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ ولا يوافقون في قولهم هذا ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ والحُسبان، كما لم يتّبعوا في القول بألوهية الأصنام إلّا ذلك ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ مطلقاً، أيّ ظنٍّ كان ﴿لَا يُغنِى﴾ ولا يكفي ﴿مِنَ﴾ الوصول إلى ﴿ٱلحَقِّ﴾ والواقع في العقائد ﴿شَيئاً﴾ يسيراً من الاغناء والكفاية. قيل: إنّ المعنى: لا يُغني الظنّ شيئاً من الحقّ، فانّ الحقائق لا تُدرَك إلّا بالعلم[3].

فلمّا رأيتهم لا يُصغون إلى البرهان، ولا يعتنون بالقرآن، ولا ينصرفون عن اتّباع الظنّ والحُسبان ﴿فَأَعْرِضْ﴾ يا محمد ﴿عَن﴾ دعوتهم إلى الحقّ بالحكمة والموعظة الحسنة، لعدم التأثير في

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٦٠، تفسير روح البيان ٩: ٢٣٧.
٢. تفسير الرازي ٢٨: ٣٠٨، تفسير روح البيان ٩: ٢٣٧. ٣. تفسير أبي السعود ٨: ١٦٠، تفسير روح البيان ٩: ٢٣٨.

قلوبهم، فانّهم[١] ﴿مَن تَوَلَّىٰ﴾ وأعرض بقلبه ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ والمنبّهات النازلة منّا من القرآن الذي فيه تبيان كلّ شيء، والبراهين المتقنة المثبتة للحقّ ﴿وَ﴾ ذلك لأنّه ﴿لَمْ يُرِدْ﴾ ولم يطلب ﴿إِلَّا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ومشتهياتها، فأغفلته شدّة طلبها والانهماك في لذّاتها عن التفكّر في مآلها وتبعاتها، والاعتقاد بعالم الآخرة ودار الجزاء، ومن غفل عن الآخرة وترك التفكّر فيها، لا يخاف العقوبة على سيئاته، ولا يرجع عمّا هو عليه من الباطل ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من حياة الدنيا وشهواتها المحسوسة ﴿مَبْلَغُهُم﴾ وحدّ ما وصلوا إليه ﴿مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ والادراك، لا يكاد يُجاوزونه إلى المعقولات حتى ينفعهم التعليم والارشاد ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن﴾ خَبُثت طينته، وقلّ عقله، وساءت أخلاقه من كلّ عالم لو فُرض وجوده، ولذا ﴿ضَلَّ﴾ وانحرف ﴿عَن﴾ دين الله الذي هو ﴿سَبِيلِهِۦ﴾ المُؤدّي إلى قُربه ورحمته ضلالاً أبدياً بحيث لا يُرجى أن يرجع إليه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ﴾ طابت طينتُه، وتنوّر قلبُه، وانشرح صدرُه، وحسنت اخلاقُه، ولذا ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ إلى دين الحقّ، وسلك سبيلة، ونال خير الدنيا والآخرة، وفي تكرير قوله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ﴾ زيادة التقرير والايذان بتباين المعلومين.

قيل: إنّ معنى (أعلم) هنا العالم الذي لا عالم مثله[٢]، وإنّما قدّم سبحانه بيان علمه بضلال الضالين؛ لأنّ المقصود تهديدهم وتسلية النبي ﷺ.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا بِٱلْحُسْنَىٰ * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[٣١ و ٣٢]

ثمّ لمّا لم يكن العلم بالضلال مرعباً إلّا مع القدرة على العقوبة، بيّن سبحانه كمال قدرته بقوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ تعالى وحده ﴿مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إيجاداً وإعداماً وتصرّفاً، ومن الواضح أنّه لم يكن خلقهما عبثاً، بل إنّما خلق جميع ذلك ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا﴾ السوء ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا. وقيل: إنّ التقدير بعقوبة ما عَمِلوا[٣] ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وأطاعوا ربّهم ﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ والمَثُوبة العظيمة، وهي الجنّة والنّعم الدائمة. وقيل: يعني بالأعمال الحسنى[٤].

ثمّ بيّن سبحانه المحسنين بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ﴾ الأفعال التي تكون ﴿كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ وعظائم المعاصي من حين بلوغهم أو اسلامهم إلى الموت سواء كانت ترك الواجبات أو إتيان

---

١. في النسخة: فان هم. ٢. تفسير الرازي ٢٩: ٣. ٣. تفسير أبي السعود ٨: ١٦١.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ٦.

المُحرّمات. ويُحتَمل أن تكون الجملة لبيان اشتراط قَبول الحسنات بالاجتناب عن المعاصي الكبيرة.

وقيل: إنّه لمّا بيّن سبحانه حال المسيئين وحال المحسنين، بيّن حال من لم يأتِ بالحسنات ولم يرتكب المحرّمات الكبيرة[١] ﴿وَٱلفَوَاحِشَ﴾ والقبائح الشديدة القُبح، كالشرك والزنا واللواط وقتل النفس المحترمة وسبّ النبي أو أحد من المعصومين، فانّها أكبر الكبائر ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ وما يفعله مرّةً واتّفاقاً من غير عادةٍ ولا استمرارٍ عليه.

عن ابن عباس، قال: معناه إلّا أن يُلمّ بالفاحشة مرّةً ثمّ يتوب، ولم يثبُت عليه، فانّ الله يقبل توبته[٢].

عن الصادق عليه السلام. قال: «الفواحش: الزنا والسرقة، واللّمم: الرجل يُلِمّ بالذنب فيستغفر الله منه»[٣].

أقول: يُلمّ بالذنب. أي يَقرَبه ويرتكبه ولا يُقيم عليه.

وعنه عليه السلام: «ما من ذنبٍ إلّا وقد طُبع عليه المؤمن، يهجره الزمان ثمّ يُلمّ به وهو قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾» قال: «اللَّمّام: العبد الذي يُلمّ بالذنب بعد الذنب، ليس بسليقته» أي من طبعه[٤].

أقول: «وقد طُبع عليه المؤمن» أي يرغب إليه بطبعه وقوله: «ثمّ يُلِمّ به» أي يرتكبه ويقع فيه اتفاقاً، وقوله «يُلِمّ بالذنب بعد الذنب» أي يقرَبه مرةً بعد مرةٍ من باب الاتفاق لا للعادة كما عن بعضٍ، قال: اللّمم والإلمام: ما يعمله الانسان الحين بعد الحين، ولا يكون له عادة ولا إقامة عليه[٥].

أقول: على ذلك يكون الاستثناء متّصلاً، وقيل: إنّ كلمة (إلّا) بمعنى غير، والمعنى والفواحش غير اللّمم[٦]. وقيل: إنّ الاستثناء منقطعٌ، والمراد باللّمم المعاصي الصغيرة[٧].

وروي أنّ نَبهان التمّار أتته امرأةٌ لتشتري التمر، فقال لها: ادخُلي الحانوت، فعانقها وقبّلها، فقالت المرأة: خُنت أخاك ولم تُصِب حاجتك، فنَدِم وذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فنزلت[٨].

أقول: نزول الآية في مورد الصغيرة الواقعة من باب الاتفاق، لا ينافي شُمولها الكبيرة الاتفاقية، ودلالة الآية على قَبول التوبة من جميعها، بل مغفرته بلا توبة ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ لا تضيق مغفرته عن ذنوب جميع الخلق، إلّا أنّه تعالى أوجب التوبة ووعد بقبولها.

هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٦. ٢. تفسير روح البيان ٩: ٢٤٢.
٣. الكافي ٢: ٧/٢١٢، تفسير الصافي ٥: ٩٤. ٤. الكافي ٢: ٥/٣٢٠، تفسير الصافي ٥: ٩٤.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٢٤٢. ٦. تفسير الرازي ٢٩: ٨.
٧ و٨. تفسير روح البيان ٩: ٢٤٢.

تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ[٣٢]

ثمّ قرر سبحانه علمه بأعمال عباده وأحوالهم بقوله: ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ من كلّ أحدٍ ﴿بِكُمْ﴾ أيها الناس وبأحوالكم ﴿إِذْ أَنشَأَكُم﴾ وحين خلقكم في ضمن خلق أبيكم آدم ﴿مِنَ﴾ تراب ﴿الْأَرْضِ﴾ ثمّ من نُطفةٍ ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ ووقت كونكم أولاداً مستورين ومتمكّنين ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ وظُلمات أرحامهنّ على أطوارٍ مختلفةٍ، فاذا كان الأمر كذلك ﴿فَلَا تُزَكُّوا﴾ ولا تُنزّهوا ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ من الضلالة والمعصية وذمائم الأخلاق ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿أَعْلَمُ﴾ من كلّ أحدٍ ﴿بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ وأحترز من الضلالة والشرك والمعاصي قبل أن يُخرِجه من صُلب آدم. قيل: كان ناسٌ يعملون أعمالاً حَسنةً، ثمّ يقولون: صلاتنا وصيامنا وحجّنا، فنزلت الآية[1].

عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال: «لا يفخر أحدكم بكثرة صلاته وصيامه وزكاته ونُسكه؛ لأنّ الله يقول: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتقَىٰ﴾»[2].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عنها فقال: «قول الانسان: صليتُ البارحة، وصُمت أمسِ، ونحو هذا» ثمّ قال: «إنّ قوماً يُصبحون فيقولون: صلينا البارحة، وصُمنا أمسِ، فقال عليّ: لكنّي أنام الليل والنهار، ولو أجد بينهما شيئاً لنمته»[3].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لولا ما نهى الله عنه من تزكية المرء نفسه لذكر ذاكرٌ فضائل جمّة، تعرِفها قلوب المؤمنين، وتَمُجّها آذان السامعين»[4].

قيل: لمّا نزل ﴿فاعرض عن من تولى﴾ قال لنبيه صلى الله عليه وآله: قد عَلِم الله كونك ومن معك على الحقّ، وكون المشركين على الباطل، فأعرضوا[5] عنهم، ولا تقولوا: نحن على الحقّ وأنتم على الضلال؛ لأنّهم يقابلونكم بمثل ذلك، وفوّض الأمر إلى الله فانّه أعلم بمن اتقى ومن طغى[6].

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ[٣٣ و ٣٤]

ثمّ لمّا أمر سبحانه النبي صلى الله عليه وآله بالتولّي عن المتولّين عن ذكره، أظهر العجب من غاية شقاء بعض المتولّين عن ذكره بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ يا محمد، الكافرَ ﴿الَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن ذكرنا حتى تتعجّب من أنّه كيف تولّى تولياً فظيعاً، وأعرض إعراضاً شنيعاً ﴿وَأَعْطَىٰ﴾ شيئاً ﴿قَلِيلاً﴾ من ماله

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٦٢، تفسير روح البيان ٩: ٢٤٤.
٢. علل الشرائع: ٨١/٦١٠، تفسير الصافي ٥: ٩٤.
٣. معاني الأخبار: ١/٢٤٣، تفسير الصافي ٥: ٩٤.
٤. الاحتجاج: ١٧٧، تفسير الصافي ٥: ٩٥.
٥. في تفسير الرازي: فأعرض.
٦. تفسير الرازي ٢٩: ١٠.

لغيره، ليتحمّل عنه وزره وعذاب الآخرة ﴿وَأَكْدَىٰ﴾ وبَخِل بإعطاء باقي ما شرط إعطاءه فخالف حكم العقل؛ لأنّه أعطى ليحمل الوزر، وهو لا يحصُل له، وخالف العُرف لأنّه خالف عهده.

ذكر طعن في عثمان وردّ الفخر الرازي

حكى الفخر الرازي عن بعض المفسرين: أنّها نزلت في الوليد بن المُغيرة، قالوا: إنّه جلس عند النبي ﷺ، وسمِع وَعظة، فأثّرت الحكمة فيه تأثيراً قوياً، فقال له رجل: لِمَ تترُك دين آبائك؟ ثمّ قال له: لا تَخف أعطني كذا وأنا أتحمّل أوزارك، فأعطاه بعض ما التزمه، وتولّى عن الوعظ وسَماع الكلام من النبي ﷺ.

ثمّ قال الفخر: وقال بعض المفسرين: نزلت في عثمان، كان يُعطي من ماله عطاءً كثيراً، فقال له أخوه من أمّه عبدالله بن سعد بن أبي سرح: يُوشِك أن يفني مالك، فأمسِك. فقال عثمان: إنّ لي ذنوباً أرجو أن تُغفَر لي بسبب العطاء فقال له أخوه: أنا اتحمّل عنك ذنوبك على أن تُعطيني ناقتك مع كذا. فأعطاه ما طلب، وأمسك يده عن العطاء، فنزلت.

ثمّ قال الفخر: وهذا قول باطلٌ؛ لأنّه لم يتواتر ذلك، ولا اشتهر، وظاهر حال عثمان يأبى ذلك[1].

أقول: ظاهر حال عثمان من شدّة حماقته مؤيد لصدق الرواية، لوضوح أنّ عثمان كان أشدّ حُمقاً من الوليد بن المُغيرة الذي كان عند قريش مشهوراً بالعقل والرّزانة والفِطنة، فكيف يُقبَل هذا العمل من الوليد، ولا يُقبَل من عثمان مع صدور ما هو أقبح منه، حيث إنّ السُّدّي الذي كان من قدماء المفسرين وعظمائهم روى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمنَا بِاللهِ وبالرَّسُولِ وَأَطَعنَا ثُمَّ يَتَوَلَىٰ فَرِيقٌ مِنهُم مِن بَعدِ ذٰلِكَ﴾ إلى آخر الآيات أنّه نزلت في عثمان بن عفان، قال: لمّا فتح رسول الله ﷺ بني النَّضير، فقسّم أموالهم، فقال عثمان لعلي: إئتِ رسول الله ﷺ واسأله أرض كذا وكذا، فانْ أعطاكها فأشركني فيها، وأنا آتيه وأساله، فأنت شريكي فيها، فسأله عثمان أولاً فأعطاه إياها، فقال علي عليه السلام: «أشركني» فأبى عثمان، فقال: بيني وبينك رسول الله ﷺ، فأبى أن يُخاصمه إلى النبي ﷺ، فقيل له: لم لا تنطلق معه إلى النبي ﷺ؟ فقال: هو ابن عمّه، فاخاف أن يقضي له، فنزلت ﴿وإِذَا دُعُوا إِلىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ إلى قوله ﴿أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الخبر[2].

أَعِندَهُ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ ٱلْجَزَاءَ ٱلْأَوْفَىٰ * وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ [٣٥-٤٢]

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ١١.

٢. والآيتان من سورة النور: ٤٧/٢٤ و٤٨.

ثمّ أنكر سبحانه عليهم اعتقادهم، بتحمّل الغير وزرهم بقوله: ﴿أَعِندَهُ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾ من أنّه يحمل الغير وزره يوم القيامة مع أنّه غائبٌ عنهم ﴿فَهُوَ يَرَىٰ﴾ بقلبه ويعتقد بجَنانه أنّه يتخلّص من العقوبة على سيّئاته بتحمّلها غيره ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ ولم يُخبر بتوسّط النبي ﷺ، أو غيره من أهل الكتاب ﴿بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ وأسفار التوراة أو ألواحها ﴿وَ﴾ بما في صُحف ﴿إِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰ﴾ بما عاهد الله، وبالغ في العمل بأوامره. وقيل: يعني وفّىٰ وأتمّ ما ابتلي به من الكلمات[1].

وعن الباقر عليه السلام، أنّه سُئِل ما عنى بقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰ﴾؟ قال: «كلمات بالغ فيهنّ» قيل: وما هنّ؟ قال: «كان إذا أصبح قال: أصبحت وربّي محمودٌ، أصبحت لا أُشرِك بالله شيئاً، ولا ادعو مع الله إلهاً، ولا أجد من دونه ولياً ـ ثلاثاً ـ وإذا أمسى قال ثلاثاً»[2].

وروى بعض العامة عن النبي ﷺ أنّه قال: «ألا أُخبركم لِمَ سَمّىٰ الله الخليل الذي وفىٰ؟ كان يقول إذا أصبح وأمسى: ﴿فسبحان الله حين تُمسون وحين تُصبحون * وله الحمد فى السماوات والارض وعشيّاً وحين تُظهرون﴾»[3].

ثمّ بيّن سبحانه ما في صُحفهما بقوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا يُعاقَب أحدٌ بذنب غيره ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ﴾ ثواب وأجر ﴿إِلَّا﴾ ثواب ﴿مَا سَعَىٰ﴾ وله جدّ في تحصيله، فلا يُثاب أحدٌ على عمل غيره، وأما إثابتهم على عمل من ناب عنهم، فان كانت النيابة باستدعاء المُناب عنه فهو ثواب على عملهم، وإن كان عمل النائب تبرعاً وبغير الاستدعاء فهو من آثار إيمانهم المكتسبة بسعيهم.

وعن ابن عباس وعِكرمة: أنّه منسوخٌ في شريعة خاتم النبيين ﷺ، فانّ المؤمنين يُثابون بصدقات إخوانهم المؤمنين وعباداتهم عنهم في هذه الشريعة[4].

وقيل: إنّ الاثابة في المورد وأمثاله بالتفضل[5]، فلا نسخ على هذا وعلى الأول.

﴿وَ﴾ فيها ﴿أَنَّ سَعْيَهُ﴾ وعين ما عَمِله محفوظٌ عند ربّه و ﴿سَوفَ يُرَىٰ﴾ ويُعاين ذلك العمل بصورته الواقعية في القيامة ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ﴾ ويُثاب عليه في ذلك اليوم ﴿ٱلْجَزَاءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ والثواب الأكمل الأوفر الذي لا يُمكن أكمل ولا أوفر منه ﴿وَ﴾ فيها ﴿أَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ يا محمد، أو أيها العاقل، لا إلى غيره ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أو المصير لجميع الخلائق بعد الموت وحين البعث، فيُجازي كلاً منهم على

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٢٤٦.
٢. الكافي ٢: ٣٨/٣٨٨، تفسير الصافي ٥: ٩٥.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٢٤٦، والآيتان من سورة الروم: ١٧/٣٠ و١٨.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٢٤٧.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٢٤٨.

حسب أعمالهم، إنّ خيراً فخير، وإنّ شراً فشرّاً.

وقيل: إنّ المراد أنّ منتهى جميع المُمكنات في الوجود إلى الواجب، ولو بالوسائط، لوضوح أنّ ما بالغير لابُدّ أن ينتهي إلى ما بالذات[١].

وعن أبي بن كعب: أنّه قال النبي ﷺ: «﴿أَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ لا فكرة في الربّ»[٢].

وعن أنس، عنه ﷺ، أنّه قال: «إذا ذُكِر الربّ فانتهوا» أي اقطعوا التكلّم فيه[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ الله يقول: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ فاذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا»[٤].

وعن الباقر عليه السلام: قيل له: إن الناس قبلنا قد أكثروا في الصفة، فما تقول؟ قال: «مكروهٌ، أما تسمع الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ تكلّموا دون ذلك»[٥].

أقول: يعني النظر في ذاته وصفاته، فانّه لا تزيد إلّا تحيّراً لقصور العقول بالغة ما بلغت عن إدراكها بُكُنهها، فاذا انتهى النظر إليها فقفوا.

وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ * وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ * وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً ٱلْأُولَىٰ * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ [٤٣ ـ ٥٤]

ثمّ بيّن سبحانه كمال قدرته الموجبة لأرعاب القلوب بقوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ﴾ تعالى بقدرته الكاملة ﴿أَضْحَكَ﴾ الانسان ﴿وَأَبْكَىٰ﴾ رُوي عن عائشة: أنّ النبي ﷺ مرّ على قومٍ يضحكون، فقال: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً، ولضحكتم قليلاً» فنزل جَبْرَئيل فقال: إنّ الله يقول: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ فرجع ﷺ إليهم، فقال: ما خطوت أربعين خطوةً حتى أتاني جَبْرَئيل فقال: إئت هؤلاء القوم، فقل لهم: إنّ الله يقول: ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾[٦].

قيل: أي أضحك الأرض بالنبات والأشجار والأنوار، وأبكى السماء بالأمطار، كما عن القمي[٧]. فمن قدر على إيجاد الضدّين، لا نهاية لقدرته؟

---

١ و٢. تفسير الرازي ٢٩: ١٧. ٣. تفسير الرازي ٢٩: ١٧.
٤. الكافي ١: ٢/٧٢، التوحيد: ٩/٤٥٦، تفسير الصافي ٥: ٩٦.
٥. التوحيد: ١٨/٤٥٧، تفسير الصافي ٥: ٩٦. ٦. تفسير روح البيان ٩: ٢٥٤.
٧. تفسير القمي ٢: ٣٣٩، تفسير الصافي ٥: ٩٦.

﴿وَأَنَّهُ﴾ تعالى وحده ﴿هُوَ أَمَاتَ﴾ الأحياء ﴿وَأَحْيَا﴾ الموتى، ولا يقدِر عليهما غيره ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ والصنفين من كلّ حيوان ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلأُنثَىٰ﴾ مع كونهما متضادّين ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ وماءٍ متكوّن في الصُّلب ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ وتُدفَق في الرَّحِم، أو تتحوّل من الدم مع اتخاذ صورتها. وقيل: معنى (إذا تمنى) إذا قُدّر منها الولد[1].

﴿وَأَنَّ﴾ الله يجب ﴿عَلَيْهِ﴾ بحكم العقل وبمقتضى الحكمة أن يوجد ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلأُخْرَىٰ﴾ ويُعيد الخلق فيها تارةً أُخرى، ليجزي الذين أساءوا بما عَمِلوا ويجزي الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى.

وقيل: إنّ المراد من النشأة الأُخرى نفخ الروح الانساني في الجسد[2] بعد خلقه وتكميل أجزائه وصورته، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾[3].

﴿وَأَنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ أَغْنَىٰ﴾ الانسان، وأعطاه جميع ما يحتاج إليه في تعيّشه ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ وأعطاه القُنية والأموال المُدّخرة الباقية كالإبل والبقر والغنم والمرعى الطيّب والرياض النَّضرة.

وعن الصادق عليه السلام، عن آبائه، عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه في هذه الآية. قال: «أغنى كلّ إنسان بمعيشته، وأرضاه بكسب يده»[4].

﴿وَأَنَّهُ﴾ تعالى ﴿هُوَ﴾ بالخصوص ﴿رَبُّ﴾ الكوكب ﴿ٱلشِّعْرَىٰ﴾ قيل: إنّه كوكبٌ يطلُع خلف الجوزاء، تعبُده خُزاعة[5].

وعن القمي رحمه الله، قال: نجمٌ في السماء يُسمّى الشِّعرى، وكانت قريش وقومٌ من العرب يعبُدونه، وهو نجمٌ يطلُع في آخر الليل[6]. والمعنى: أعبُدوا الربّ دون المربوب.

وقيل: في النجوم شِعريان: أحديهما شامية، والأُخرى يمانية، وكان العرب يعبُدون اليمانية[7].

﴿وَأَنَّهُ﴾ تعالى ﴿أَهْلَكَ﴾ بالعذاب ﴿عَاداً ٱلأُولَىٰ﴾ وهم قوم هود، قدّم ذكرهم ووصفهم بالأولى؛ لأنّهم أولى الأُمم هلاكاً بعد قوم نوح. وقيل: إنّ عاداً الأُخرى من نسلهم، وهي التي قاتلها موسى بأريحا[8].

﴿وَ﴾ أهلك ﴿ثَمُودَ﴾ بالصيحة ﴿فَمَا أَبْقَىٰ﴾ على وجه الأرض منهم، أو من الفريقين أحداً، لكفرانهم نِعم ربّهم، وطُغيانهم عليه بعد إغنائهم وإقنائهم ﴿وَ﴾ إنّه أهلك ﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ بالطُّوفان والغَرق ﴿مِن قَبْلُ﴾ وفي العصر السابق على أعصار سائر الأمم المُهلَكة ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ على نبيّهم

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٢٥٥.
٢. تفسير الرازي ٢٩: ٢١.
٣. المؤمنون: ١٤/٢٣.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٣٩، معاني الأخبار: ١/٢١٤، تفسير الصافي ٥: ٩٧.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٢٥٧.
٦. تفسير القمي ٢: ٣٣٩، تفسير الصافي ٥: ٩٧.
٧. تفسير الرازي ٢٩: ٢٣، تفسير روح البيان ٩: ٢٥٧.
٨ تفسير روح البيان ٩: ٢٥٧.

نوح ﴿هُمْ أَظْلَمَ﴾ من الفريقين، حيث كانوا يُؤذونه ويضرِبونه حتى لا يبقى له حِراك ﴿وَأَطْغَىٰ﴾ عليه، أو على ربّهم منهم. قيل: كانوا يُنفرّون الناس عنه، ويُحذّرون صبيانهم من أن يقرَبوا منه ويستمعوا وعظه[١].

﴿وَ﴾ أهلك القرى ﴿ٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ والمُنقلبة بأهلها بحيث جعل عاليها سافلها، وهي قرى قوم لوط، فانّ الله ﴿أَهْوَىٰ﴾ وأسقطها إلى الأرض بعد رفعها إلى السماء على جَناح جَبْرَئيل. وقيل: يعني ألقاها في الهاوية[٢]. وقيل: كانت بيوتهم مرتفعةً، فأهواها الله بالزّلزلة، وجعل عاليها سافلها[٣].

وقيل: إنّ المراد من المؤتفكة كلّ قوم انقلبت مساكنهم، وخَربت منازلهم[٤]، وهو خلاف الظاهر، بل الظاهر أنّ المراد القرى المعهودة لقوم لوط.

﴿فَغَشَّاهَا﴾ واحاط بها ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ها،وأحاط بها من أنواع العذاب، وفي إبهام عذابهم ما لا نهاية له من التهويل.

فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ * هَٰذَا نَذِيرٌ مِنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰ * أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ[٥٥ـ٥٨]

ثمّ إنّه تعالى بعد تعداد نِعمه على الانسان من خلق الذكر والأُنثى، وإغنائه وإقنائه، وإهلاك الظَّلمة والطُّغاة، ونُصرة انبيائه ورسله، نبّه على أنّه لا مجال للشكّ في نِعمه بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكَ﴾ ونِعمه أيّها الانسان ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ وتشُكّ أو تُجادل إنكاراً له.

وقيل: إنّ الخطاب للنبي ﷺ من باب التعريض بالغير[٥] على طريقة: إياك أعني واسمعي يا جارة.

قيل: إنّ الله عدّ النِّقم التي ذكرها قبل الآلاء نِعماً من أجل أنّها عبر للمُعتبرين، ونُصرةٌ للأنبياء والمرسلين والمؤمنين[٦].

ثمّ لمّا ذكر سبحانه إهلاك الأُمم المُكذّبة لرسلهم أشار إلى النبي ﷺ بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ الشخص الشريف الذي يدعوكم أيّها الناس إلى التوحيد ودين الحقّ، ويُرشدكم إلى سعادة الدارين ﴿نَذِيرٌ﴾ لكم من الله تعالى، ورسولٌ مبعوثٌ من قبله ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ومن قبيل الرسل السابقة، فلا تكذّبوه فانّه يُصيبكم ما اصاب الأُمم المُكذّبة لرسلهم.

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٦٥، تفسير روح البيان ٩: ٢٥٨.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٢٥٨.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ٢٤.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ٢٤.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٦٥، تفسير روح البيان ٩: ٢٥٨.
٦. تفسير البيضاوي ٢: ٤٤٣، تفسير أبي السعود ٨: ١٦٥، تفسير روح البيان ٩: ٢٥٨.

عن الصادق عليه السلام - في رواية -: أنّه سُئل عن الآية، فقال: «يعني محمداً»[١].

وقيل: إنّ كلمة (هذا) إشارة إلى القرآن، والمعنى أنّ هذا القرآن الذي تُشاهدونه وتسمعونه إنذارٌ من قبيل الانذارات المتقدّمة التي سَمِعتم عاقبتها[٢]، فان اتّعظتم به فهو خيرٌ لكم وسعادتكم، وإلّا فلو فُرِض أنّا لا نُعذّبكم في الدنيا نعذّبكم بالعذاب الشديد في القيامة، فانّه قد ﴿أَزِفَتِ﴾ وقَرُبت تلك القيامة التي هي ﴿ٱلْآزِفَةُ﴾ والقريبة منكم كل يومٍ وكلّ ساعةٍ بحيث تتضيق عليكم وقت التدارك لها و ﴿لَيْسَ﴾ في عالم الوجود ﴿لَهَا مِن دُونِ ٱللهِ﴾ ومن قبل غيره نفس ﴿كَاشِفَةٌ﴾ ومخبرة عنها كما هي ومتى يكون وقتها، أو المعنى: ليس لها نفسٌ قادرةٌ على ردّها وإزالتها عند وقوعها في الوقت المقدّر لها إلّا الله.

أَفَمِنْ هٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ * فَاسْجُدُوا للهِ وَٱعْبُدُوا[٥٩ - ٦٢]

ثمّ أنكر سبحانه على المشركين المستهزئين بالقرآن، أو بالأخبار بقرب القيامة بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَمِنْ هٰذَا﴾ القرآن الذي هو أحسن ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ أو من حديث قرب القيامة، أو ممّا تقدّم من الأخبار، كما عن الصادق عليه السلام[٣].

أنتم ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكاراً ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ سُخريةً واستهزاءً ﴿وَلَا تَبكُونَ﴾ على سوء حالكم ووخامة عاقبتكم وقُرب ابتلائكم بالعذاب والشدائد ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ وغافلون عن نتائج أعمالكم القبيحة، أو مستكبرون عن الايمان بالرسول والقرآن والحشر، مع أن الحقّ أن تبكوا كثيراً، وتضحكوا قليلاً، وتُؤمنوا به سريعاً، وتخشع له قلوبكم، وتخضع له جوارحكم.

روى أنّ النبي صلّى الله عليه وآله لم يُرَ ضاحكاً بعد نزول هذه الآية[٤].

عن أبي هُريرة: لمّا نزلت الآية بكى أهل الصُفّة حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلمّا سَمع رسول الله صلّى الله عليه وآله حنينهم بكى معهم، وبكينا لبكائه، فقال صلّى الله عليه وآله: «لا يَلِج النار من بكى من خشية الله، ولا يدخل الجنّة مُصرّ على معصية الله»..الخبر[٥].

سجدة واجبة ثمّ لمّا وبّخ سبحانه المشركين على التعجّب من كون القرآن من جانب الله تعالى، وعلى استهزائهم به، أمر المؤمنين بأداء شكر نعمة نزوله عليهم بقوله: ﴿فَاسْجُدُوا للهِ﴾ أيّها المؤمنون

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٤٠، تفسير الصافي ٥: ٩٨.
٢. تفسير أبي السعود ٨: ١٦٥، تفسير روح البيان ٩: ٢٥٩.
٣. مجمع البيان ٩: ٢٧٧، تفسير الصافي ٥: ٩٨.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٢٦٠.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٢٦٠.

شُكراً عى هدايتكم بالقرآن ﴿وَٱعبُدُوا﴾ الله خالصاً مخلصاً له الدين، ولا تعبُدوا غيره.

قد حكى كثيرٌ من الأصحاب وجوب السجود على من تلاها، أو استمع تلاوتها، ودلت عليه الأخبار المعتبرة.

عن الصادق عليه السلام: «من كان يُدمن قراءة سورة النجم في كلّ يوم، أو في كلّ ليلةٍ، عاش محموداً بين الناس، وكان مغفوراً له[1] ومحبوباً بين الناس، أو عند الله تعالى»[2].

١. في ثواب الاعمال: موفوراً له.

٢. ثواب الاعمال: ١١٦، مجمع البيان ٩: ٢٥٨، تفسير الصافي ٥: ٩٨، في ثواب الاعمال إلى كلمة: الناس، وفي تفسير الصافي: الناس إن شاء الله.

في تفسير سورة القمر

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ[١]

ذكـر معجزة شقّ القمر

ثمّ لمّا خُتمت سورة النجم المختتمة باثبات النبوة، والإخبار بقُرب القيامة، وتـوبيخ المشركين على إنكارها، نُظمت سورة القمر المبدوءة بالإخبار بقرب يـوم القـيامة، والاستدلال عليه بانشقاق القمر باعجاز النـبي ﷺ الذي هـو مـن أشـراط السـاعة، وتوبيخ المشركين على إنكار بنوّته، ونسبة معجزاته إلى السحر واتّباعهم هوى أنفسهم، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنى بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ افتتحها بالإخبار بقرب القيامة بقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ ودنت القيامة، وقرُب قيامها ووقوعها.

رُوي عن النبي ﷺ أنّه قال: «أنا والساعة كهاتين»[١] وضمّ وجمع بين سبابته ووسطاه.

وعنه ﷺ: «أنّ الله جعل الدنيا قليلاً، فما بقي منها قليلٌ من قليلٍ»[٢].

وعنه ﷺ: «مثلي ومثل الساعة كَفَرسي رهان»[٣].

ثمّ لما كان انشقاق القمر من أشراط الساعة، قرن سبحانه الإخبار بـه بـاقترابـها بـقوله: ﴿وَٱنشَـقَّ ٱلقَمَرُ﴾ وصار فِلقتين، وحصلت آية اقترابها.

رُوي أنّه خطب حُذيفة بن اليمان بالمدائن، وكان من خطبته: ألا إنّ الساعة قد أقتربت، وإنّ القمر قد انشقّ على عهد نبيّكم[٤].

وعن ابن عباس رضوان الله عليه: أنّه اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن كنت صادقاً فشُقّ لنا القمر فرقتين. فقال لهم: «إن فعلت تؤمنوا؟» فقالوا: نعم. وكانت ليلة بدر، فسأل ربّه أن يُعطيه ما قالوا، فانشقّ القمر فِرقتين، ورسول الله ﷺ ينادي: «يا فلان، يا فلان، اشهدوا»[٥].

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٩ و٣٠.

٢ و٣. تفسير روح البيان ٩: ٢٦٢.

٤. تفسير روح البيان ٩: ٢٦٣.

٥. مجمع البيان ٩: ٢٨١، تفسير الصافي ٥: ٩٩.

وفي رواية: فرفع رسول الله ﷺ إصبعه، وأمر القمر بأن ينشقّ نصفين، فانفلق فِلقتين: فِلقة ذهبت عن موضع القمر، وفِلقة بقيت في موضعه[١].

وعن جُبير بن مُطعِم: انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ حتى صار فرقتين على هذا الجبل، فقال ناسٌ: سحرنا محمد. فقال رجلٌ: إن كان سَحَركم، فلم يَسحَر الناس كلّهم[٢].

وفي رواية، قال كفّار قريش: سَحَركم ابن أبي كبشة، فقال رجل منهم: إن كان محمد سَحَر القمر بالنسبة إليكم، فانّه لا يبلُغ من سِحره أن يَسْحَر جميع أهل الأرض، فاسألوا من يأتيكم من البلاد، فسألوا أهل الآفاق فأخبروا كلّهم بذلك[٣].

وعن ابن مسعود: رأيتُ حِراء بين فِلقتي القمر[٤].

قال بعض العامة: عليه عامة الصحابة وجلّ المفسّرين[٥].

وعن (شرح المواقف): أنّ خبر انشقاق القمر متواتر[٦].

في ردّ التشكيك في صحّة شقّ القمر

اقول: كفى في ثبوته اشتهاره بين المسلمين من قديم الدهر، بحيث كان من المُسلّمات، والتشكيك فيه بأنّه لو كان واقعاً لنقله جميع الفرق وأهل التواريخ من سائر الأديان، لكونه من عظائم الأمور، وتوفّر الدواعي إلى نقله، ساقطٌ عن الاعتبار، لوضوح عدم التفات كثيرٍ من الناس إلى الأوضاع الفلكية، كما نرى أنّ كثيراً ما لا يلتفتون إلى كُسوف القمر، كما أنّه يُمكن وقوعه في وقتٍ كان أكثر الناس نياماً، أو اختفاؤه[٧] عن قومٍ دون قومٍ بسبب الغَيم واختلاف الأُفق، واقتضاء حكمته تعالى صرف كثيرٍ من الناس عن التوجّه إليه، لتتِمّ الحجّة على الحاضرين والمقترحين، ويقع الاختلاف في غيرهم، مع اخبار الله به في كتابه ونقل الثقاة إياه.

وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ[٢-٨]

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٢٦٤.
٢. مجمع البيان ٩: ٢٨٢، تفسير الصافي ٥: ٩٩.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٢٦٤.
٤. تفسير أبي السعود ٨: ١٦٧، تفسير روح البيان ٩: ٢٦٤.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٢٦٣.
٦. تفسير روح البيان ٩: ٢٦٣.
٧. في النسخة: واختفاؤه.

ثمّ إنّه تعالى بعد إخباره بهذه الآية العظيمة والمعجزة الباهرة، وبّخ الكفّار على إنكاره ونسبتها إلى السّحر بقوله: ﴿وَإِن يَرَوا﴾ بأعينهم ﴿آيَةً﴾ ومعجزةً عظيمةً دالةً على صدق النبي ﷺ كشقّ القمر، وحنين الجِذع اليابس، والإخبار بالمغيبات وغيرها ﴿يُعْرِضُوا﴾ عن التأمّل فيها، ولا يعتنوا بها عِناداً ولَجاجاً ﴿وَيَقُولُوا﴾ دفعاً لدلالتها على صدق النبي ﷺ: هذه الخوارق للعادات التي يعجِز الناس عن الاتيان بمثلها ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ ومُطّرد يأتي به محمد على مرّ الزمان بحيث يتبع بعضه بعضاً، أو سحرٌ قويٌّ محكمٌ بحيث يُؤثّر في السماويات والفلكيات، أو سحرٌ مارٌّ ذاهب لا بقاء له، وذلك القول لأنّهم أنكروا نبوة محمد ﷺ عناداً ولجَاجاً ﴿وَكَذَّبُوا﴾ه في دعوى رسالته، أو في إخباره بقرب الساعة، أو كذّبوا معجزاته ونسبوها إلى السحر والكِهانة ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ في تكذيبه ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ وشهوات أنفسهم على عادتهم القديمة ﴿وَكُلُّ أَمرٍ﴾ من الخير والشرّ ﴿مُستَقِرٌّ﴾ وثابتٌ منتهٍ بالآخرة[1] إلى خذلان ونصرة في الدنيا وشقاوة وسعادة في الآخرة.

ثمّ لمّا حثّهم سبحانه إلى الايمان والعمل ببيان اقتراب الساعة وإقامة الدليل عليه بوقوع انشقاق القمر، وهو من أشراط الساعة، وتوبيخهم على إنكار المعجزات وتكذيب الرسول ﷺ واتباعهم هوى أنفسهم، بيّن سبحانه غاية خُبثهم وعدم تأثّرهم بالمواعظ بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم﴾ في القرآن وسائر الكتب السماوية ﴿مِنَ الْأَنبَاءِ﴾ المُوحشة والأخبار العظيمة الهائلة من ابتلاء الأُمم الماضية بأنواع العذاب في الدنيا على تكذيبهم الرسل ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ ورادعٌ عن التكذيب والعِصيان، ومانعٌ عن السوء والطُّغيان، وصارفٌ عن اتّباع الهوى، ومن الواضح أنّ تلك الأُمور التي فيها عِظةٌ، أو الأنباء التي في القرآن ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ غايتها لا خَلل فيها، أو بالغةٌ غايةَ الإنذار والوعظ ﴿فَمَا تُغْنِ﴾ ولا تُفيد هداية النفوس الخبيثة والقلوب القاسية ﴿النُّذُرُ﴾ والرسل والمواعظ والتخويفات شيئاً.

وقيل: إنّ كملة (ما) استفهامية إنكارية، والمعنى أيّ إغناءٍ وفائدةٍ في النذر إذا خالفوا وكذّبوا[2]، وعاندوا ولجّوا، إذن لا تُتعِب نفسك الشريفة بالاصرار في دعوتهم إلى الايمان والاتّعاظ ﴿فَتَوَلَّ﴾ وأعرِض ﴿عَنْهُمْ﴾ ولا تعتنِ بهم، وانتظر ﴿يَوْمَ يَدْعُ﴾ إسرافيل الذي هو ﴿الدَّاعِ﴾ لجميع الخلق بنفخة في الصُّور ﴿إِلى﴾ المحشر و﴿شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ وفظيع لا سابقة لهم به، وهو أهوال يوم القيامة، وهم يُجيبونه في حال كونهم ﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ﴾ وأذلّة جوارحهم عند رؤية العذاب، وإجابتهم له بأنّهم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ والقبور انقياداً له، وينتشرون في الأرض، ويتفرّقون في أقطارها ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ ومتفرّق فيها كثرةً وتفرّقاً وهم مع ذلك يكونون ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ ومسرعين في

١. أي في آخر الأمر.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٢٦٩.

المشي ﴿إِلَى﴾ جهة ﴿ٱلدَّاعِ﴾ مادّين أعناقهم إليه، أو ناظرين إليه غير قالعين أبصارهم عنه، وعند ذلك ﴿يَقُولُ ٱلْكَافِرُونَ﴾ بالله والرسول واليوم الآخر: ﴿هَٰذَا﴾ اليوم الذيابتلينا به ﴿يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ وصعبٌ علينا، شديدة أهواله لنا، وأمّا المؤمنون فانّهم يقولون: هذا يومٌ يسيرٌ.

عن السجّاد عليه السلام، عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليه السلام - في حديث - يذكُر [فيه] أهوال يوم القيامة: «فيُشرف الجبّار تبارك وتعالى عليهم من فوق عرشه في ظلالٍ من الملائكة، فيأمر مَلَكاً من الملائكة فينادي فيهم: يا معشرالخلائق، أنصتوا واستمعوا منادي الجبار» قال: «فيستمع آخرهم كما يستمع أولهم فتنكسر أصواتهم عند ذلك، وتخشع أبصارهم، وتضطرب فرائصهم، وتفزَع قلوبهم، ويرفعون رؤوسهم إلى ناحية الصوت مهطعين إلى الداعي» قال: «فعند ذلك يقول الكافرون: هذا يومٌ عَسِرٌ»[١].

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى ٱلْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ * وَلَقَد تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ[٩-١٥]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه المشركين نبوّة نبيّه صلى الله عليه وآله ونسبتهم معجزاته إلى السِّحر، ذَكَر حال الأمم المُهلَكة الذين كانوا قبل كفّار مكّة تهويلاً لهم وتسليةً لحبيبه محمد صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ بالرسل والآيات ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ في دعوى رسالته وتوحيد الله، كما كذّبت قومك رسالتك وآية انشقاق القمر ﴿فَكَذَّبُوا﴾ لتكذيبهم جميع الرسل ﴿عَبْدَنَا﴾ ورسولنا نوح في دعوى رسالته مع علوّ شأنه، وبالغوا في تكذيبه حتى رموه بزوال العقل ﴿وَقَالُوا﴾ إنّه ﴿مَجْنُونٌ﴾ حيث يتكلّم بما لا يتكلّم به عاقل، ويدعوا إلى ما لا يقبله أحدٌ ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ ومُنِع عن تبليغ رسالته بالشتم والضرب وأنواع الأذى، حين يئس من إيمانهم، وتَرَك دعوتهم. وقيل: إنّه من كلام القوم، والمعنى: ازدجره الجنّ، وتَخبّطه وأفسدته[٢].

﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ بعد يأسه عن إيمانهم، وكان دعاؤه ﴿أَنِّى﴾ يا ربّ ﴿مَغْلُوبٌ﴾ من جهة قومي، ولا أقدِر على دفعهم ومنعهم عن إيذائي، وعِيْلَ صبري ﴿فَانتَصِرْ﴾ إذن لعبدك[٣] نوح، وانتقم له من أعدائه، أو انتصر لنفسك من أعدائك، فاستجبنا دعاءه ﴿فَفَتَحْنَا﴾ لاهلاك قومه ﴿أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ﴾

---

١. الكافي ٨: ٧٩/١٠٤، تفسير الصافي ٥: ١٠٠.	٢. تفسير روح البيان ٩: ٢٧١.

٣. في النسخة: عبدك.

وطُرقها من طرف المجرّة على ما روى عن أمير المؤمنين عليه السلام[١] وكان فتحها ﴿بِمَاءٍ﴾ كثيرٍ ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ ومنصبٍّ على الأرض انصباباً شديداً، فصار صبّ الماء كالمفتاح للأبواب. قيل: كان القوم يطلُبون المطر سنين، فكأنّ مطلوبهم جاء إلى الباب ففتحه[٢]، أو المراد فتحنا الأبواب مقرونةً بماءٍ منصبّ[٣] ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ وشققنا ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بحيث صارت كلّها ﴿عُيُوناً﴾ تجري منها الماء.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَاءُ﴾ النازل من السماء، والماء النابع من الأرض، واتّصلا واختلطا، فصارا ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ﴾ وحالٍ ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ من جانب الله لإهلاك القوم، أو على حال صار كلّ من الماءين بقدر الآخر، أو على قَدَره لا يعلم مقداره كانا متساويين، أو أحدهما أزيد من الآخر.

فلمّا غَرِقت الأرض بدعاء نوح نجيناه ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾ ومَن آمن معه ﴿عَلَىٰ﴾ سفينة ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ﴾ وصاحبة قطعات من الخشب، ﴿وَ﴾ ذات ﴿دُسُرٍ﴾ ومسامير، فهي مع سهولة انفكاكها ﴿تَجْرِى﴾ وتسير في الطُّوفان ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ وحِفْظنا، أوبمرأى منّا، وإنّما كان ذلك الحمل والنجاة من الغَرق، أو حِفظ السفينة من الانفكاك والغَرق، أو إجابة دعائه وفتح أبواب السماء، أو جميع ما ذُكِر ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ﴾ وجوده وبعثه في الخلق نعمةً عظيمةً من الله تعالى، ثمّ ﴿كُفِرَ﴾ ذلك الشخص بترك إطاعته، والقيام بعداوته، والتظاهر على إيذائه، فصبر على جميع ذلك، فنُصِر على أعدائه بغَرَقهم، وإنجائه بوسيلة السفينة.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا﴾ وأبقيناها على وجه الأرض دهراً طويلاً، لتكون ﴿آيَةً﴾ وعِبرةً يعتبر بها من نظر إليها. قيل: بقيت إلى أوائل هذه الأُمّة[٤]. وقيل: يعني جعلناها آيةً عظيمةً يعتبر بها من يقف على خبرها[٥] ﴿فَهَلْ﴾ في الناس ﴿مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ومعتَبِر بالعِبَر ومُتّعظ بالمواعظ الإلهية، فيخاف من الله المنتقم، ويترُك عِصيانه.

فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ[١٦ـ٢١]

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٢٧٢.
٢. تفسير الرازي ٢٩: ٣٧.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ٣٧.
٤. تفسير أبي السعود ٨: ١٧٠، تفسير روح البيان ٩: ٢٧٣.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٧٠، تفسير روح البيان ٩: ٢٧٣.

ثمّ أظهر سبحانه عظمة عذابه، والتعجّب منه، ومن كيفية إنذاراته بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾ يا محمد، أو أيّها الناس بعد اطّلاعهم على غَرَق أهل الأرض ﴿عَذَابِى﴾ في العظمة والشدّة ﴿وَنُذُرِ﴾ي ومواعظي التي أنزلتها إليكم في الكثرة والكمال، أو رسلي في عظمة الشأن، والصبر على اذي قومهم، وصدق مواعيدهم، فاصبر أنت يا محمد، فانّ عاقبة أمرك كعاقبة أُولئك الرسل ﴿وَ﴾ تالله ﴿لَقَدْ يَسَّرْنَا﴾ وسهّلنا ﴿ٱلْقُرْآنَ﴾ النازل عليكم، بأن جعلناه بلسانكم، وصرفنا فيه من أنواع المواعظ والوعيد ﴿لِلذِّكْرِ﴾ والاتّعاظ، حيث أتينا فيه بكلّ حكمةٍ، أو للحفظ على ظهر القلب ﴿فَهَلْ﴾ منكم ﴿مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ومُتعظٍ بالقرآن، أو حافظٍ له.

ثمّ وعظ سبحانه بذكر قصّة قوم عاد بقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قوم هود، واسمهم ﴿عَادٌ﴾ بجميع الرسل، وإنّما لم يذكُر سبحانه هنا تكذيبهم هوداً للاختصار، وإنّما ذكر فيما قبل اسم نوح وتكذيبه[1] لبيان شأنه، وطول مدّة دعوته، وتحمّله أذى قومه، كذا قيل[2].

ثمّ سأل سبحانه عن كيفية تعذيبهم، توجيهاً للسامعين إلى إصغاء ما يُلقى إليهم بقوله ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾ أيّها المستمعون ﴿عَذَابى﴾ النازل عليهم ﴿وَنُذُرِ﴾ي لهم، وتخويفاتي إياهم؟ ثمّ كأنّه قيل: بيّن لنا يا رب كيف كان عذابهم، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا﴾ وسلّطنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ غضباً وسخطاً ﴿رِيحاً صَرْصَراً﴾ شديدة الصوت والهُبوب، أو باردة ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ﴾ وشُؤم ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ شؤمه عليهم، أو إلى آخر الدهر، وهو آخر أربعاء من الشهر. عن ابن عباس: آخر أربعاء في الشهر يوم نحْس مستمر[3].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّه كان في يوم الأربعاء، في آخر الشهر لا يدور»[4].

وعن الصادق عليه السلام: «الأبعاء يوم نَحْس مستمر؛ لأنّه أول يوم وآخر يوم من الأيام التي قال الله عزّ وجلّ: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾»[5].

وكانت شدّة تلك الريح بحيث ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ وتقلعهم من الأرض، وتَصْرعهم موتى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ وأُصوله ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ ومنقلعٍ عن مَغْرِسه، أو ذاهبٍ في قَعْر الأرض.

روى الكلبي[6]: أنّه كان طول كلّ واحدٍ سبعين ذراعاً، فاستهزءوا حين ذكر لهم الريح، فخرجوا إلى الفضاء، وضربوا بأرجلهم وغيبوها في الأرض إلى قريبٍ من الرُّكبة، فقالوا لهود: قل للريح حتى ترفعنا، فجاءت الريح، فدخلت تحت الأرض، وجعلت ترفع كلّ اثنين، وتضرِب أحدهما بالآخر

---

١. أي تكذيبهم إياه. ٢. تفسير الرازي ٢٩: ٤٣. ٣. تفسير روح البيان ٩: ٢٧٥.
٤. مجمع البيان ٩: ٢٨٧، تفسير الصافي ٥: ١٠٢.
٥. علل الشرائع: ٢/٣٨١، تفسير الصافي ٥: ١٠١، والآية من سورة الحاقة: ٧/٦٩. ٦. في النسخة: الكليني.

بعدما ترفعهما في الهواء، ثمّ تُلقيهما على الأرض، والباقون ينظُرون إليهما، حتى رفعتهم كُلّهم، ثـمّ رَمت بالرّمل والتُّراب عليهم[١].

وقيل: شبّهت أجسادهم بالنخل لطول قامتهم، ولأنّ الريح كان تقلعهم وتصرعهم على رؤوسهم، فتدُقّ رقابهم، فتَبين الرؤوس من أجسادهم، فتبقى أجساداً بلا رؤوس[٢].

ثمّ كرّر سبحانه قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ تهويلاً لهما، وتعجيباً من أمـرهما[٣]. وقـيل: إنّ الأول في الدنيا، والثاني في العُقبى[٤].

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِى ضَلاَلٍ وَسُعُرٍ [٢٢ ـ ٢٤]

ثمّ أكّد سبحانه كون القرآن أكمل المذكّرات وأوفى المواعظ بتكرار قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْـقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ﴾.

ثمّ ذكر سبحانه طُغيان قوم صالح بقوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾ ثوم صالح، اسمهم ﴿ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ والمواعظ التي استمعوها من صالح، أو بالرسل جميعاً من صالح ومن قبله من الرسـل، لانكـارهم صـلاحية: البشر للرسالة، كما حكاه سبحانه بقوله: ﴿فَقَالُوا﴾ إنكاراً واستعجاباً ﴿أَبَشَراً مِنَّا﴾ وإنساناً كائناً مـن جنسنا مع كونه ﴿وَاحِداً﴾ منّا، لا فضيلة له علينا، حيث إنّه يأكُل ويمشي في الأسواق، أو واحداً لا تَبَع له، ومنفرداً لا أحد من الملائكة معه ﴿نَتَّبِعُهُ﴾ ونُطيعه في أوامره ونواهيه، ونقتدي بـه فـي عـقائده وأعماله ﴿إِنَّا﴾ مع كَثْرتنا وشوكتنا ﴿إِذاً﴾ وعلى تقدير انقيادنا له واتّباعنا إياه مـع تـفرّده فـي الرأي والاعتقاد، وكونه مثلنا في البشرية والحاجة ﴿لَفِى ضَلاَلٍ﴾ وانحرافٍ عن طريق الصلاح والصواب ﴿وَسُعُرٍ﴾ ونيران الذلّ والهوان. قيل: كان صالح يقول لهم: إن لم تتّبعوني تكونوا في ضلالٍ عن الحقّ في الدنيا، ونيرانٍ في الآخرة، فعكسوا عليه عُتواً وقالوا: إن اتّبعناه كنّا في ضَلال وسُعُر[٥]، أو المراد كنّا في سُعُرٍ وجنونٍ، لكون اتّباعه خلاف حُكم العقل.

أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غداً مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُوا ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ * وَنَـبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْـمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٢٧٦.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٢٧٥.
٣ و٤. تفسير روح البيان ٩: ٢٧٦.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٧١، تفسير روح البيان ٩: ٢٧٧.

عَذَابِى وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ[٢٥-٣٢]

ثمّ بالغوا في إنكار رسالته بقولهم: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ﴾ وأُنزلت الرسالة والوحي ﴿عَلَيْهِ﴾ وانتُخِب لهذا المنصب الجليل ﴿مِن بَيْنِنَا﴾ وفينا من هو فوقه في الشرف وأحقّ به؟ لا والله ليس كما يقول ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ ومُصرّ على القول بخلاف الواقع والدعوى الباطل، و﴿أَشِرٌ﴾ وبَطِر في كذبه حمله عليه حبّ الترفع والرئاسة علينا، لا ضرورة وحاجة، أو متجبّر.

ثمّ هدّدهم سبحانه حين قولهم ذلك بالوحي إلى صالح بقوله: ﴿سَيَعلمُونَ﴾ هؤلاء الطُّغاة، ﴾ فيما بعد هذا الزمان، وهو زمان نزول العذاب ﴿مَنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ والمُصرّ

وسهلنا لكم فَهْمه، بأن جعلناه بلسانكم أيّها العرب ﴿لِلذِكْرِ﴾ والاتّعاظ، أو للحفظ على ظهر القلب ﴿فَهَل﴾ فيكم ﴿مِن مُدَّكِرٍ﴾ ومُتّعظٍ فيرتدع عن الكفر والعِصيان، وفي التكرار تأكيدٌ ومبالغةٌ في التّذكار.

قيل: إنّ الله تعالى أطال قصة صالح من بين القَصص الخمس التي ذكرها في هذه السورة، لكون معجزة صالح ـ وهي إخراج الناقة العظيمة من الجبل، أو الصخرة غير القابلة للحياة ـ أعجب من معجزات سائر الأنبياء، كما أنّ شقّ القمر الذي هو معجزة نبينا ﷺ، والمُصدّرة به السورة أعجب من معجزاتهم، حيث إنّ جميع معجزاتهم كانت أرضية، ومعجزة نبينا ﷺ كانت سماوية، مع أنّ المشركين والفلاسفة قائلون بامتناع تصرّف أحدٍ في السماويات، واستحالة الشقّ والخَرق فيها، فأشبه حال صالح حال نبيّنا ﷺ، فكان تسليه ببيان حال صالح أتمّ وأكمل فأطاله[١].

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِندِنَا كَذٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ[٣٣ـ٣٧]

ثمّ ذكر سبحانه قصة قوم لوط، وإلطافه به، وابتلائهم بالعذاب بقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ والتخويفات والمواعظ الإلهية، أو بالمنذرين والرسل.

ثمّ بيّن سبحانه كيفية تعذيبهم بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ غضباً وانتقاماً منهم عذاباً أو ريحاً ﴿حَاصِباً﴾ ورامياً لهم بالحجارة الصغار ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ وأهله، فانّا ﴿نَجَّيْنَاهُم﴾ من العذاب ﴿بِسَحَرٍ﴾ من الأسحار، وإنّما كان إنجاؤهم ﴿نِعْمَةً﴾ عظيمة كائنة ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وتفضلاً عليهم من قبلنا لايمانهم وطاعتهم لنا، كما أنّ تعذيب القوم كان عدلاً منّا، وأداءً لما يستحقّون علينا ﴿كَذٰلِكَ﴾ الإنجاء من العذاب الذي كان نعمة ﴿نَجْزِى﴾ في الدنيا ﴿مَن شَكَرَ﴾ نِعمنا بالايمان والطاعة من أيّ قوم وأية اُمّة كان.

وقيل: يعني كما نجّيناهم من عذاب الدنيا، نجزي من آمن بالنجاة من عذاب الآخرة.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ عذابهم كان بعد إتمام الحجة عليهم وطغيانهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ وخوّفهم لوط ﴿بَطْشَتَنَا﴾ وأخذتنا الشديدة بالعذاب ﴿فَتَمَارَوْا﴾ اُولئك الطُّغاة وكذّبوا ﴿بِالنُّذُرِ﴾

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٥٢.

والتخويفات بالعذاب الدنيوي والأُخروي، مع كونهم شاكّين فيه.

ثمّ إنّ القوم لمّا سَمِعوا بورود شُبّان حِسان الوجوه على لوط ضيفاً له، وطَمعوا في أن يُمكّنهم لوط من عمل الفحشاء بهم ﴿وَ﴾ تالله ﴿لَقَدْ رَاوَدُوهُ﴾ وطالبوه عن تمكينهم ﴿عَن ضَيْفِهِ﴾ وهم الملائكة أن يفجُروا بهم ومعهم جَبْرَئيل ﴿فَطَمَسنَا﴾ ومسحنا ﴿أَعْيُنَهُمْ﴾ وسوّيناها كسائر وجوههم بحيث لم يرَ لها شقّ، بضرب جبرئيل جَناحه عليها، أو باشارته إليها، أو بضرب كفٍّ من البَطحاء على وجوههم، وقلنا لهم بلسان الملائكة: إذا بلغ طُغيانكم إلى هذا الحدّ ﴿فَذُوقُوا﴾ أيّها الطُّغاة ﴿عَذَابِى﴾ وهو الطَّمْس ﴿وَنُذُرِ﴾ي، ومآل تخويفاتي بلسان لوط إيّاكم، لا خلاص لكم منه بالصُّراخ والضَّراعة.

وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ * وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ[٣٨-٤٢]

قيل: إنّ المراد بمآل الانذارات عذاب الآخرة، فانّ أوّله متصلٌ بآخر عذاب الدنيا، فهما كالواقع في زمانٍ واحدٍ[١].

ثمّ إنّه تعالى بعد ذكر العذاب الخاصّ بالداخلين على لوط المراودين له عن ضيفه، ذكر العذاب العام لجميع القوم بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم﴾ وجاءهم حين طُلوع الفجر ﴿بُكْرَةً﴾ من البكر، أو أوّل طلوعه بلا تأخير ﴿عَذَابٌ﴾ عامّ ﴿مُستَقِرٌّ﴾ وثابت ودائم عليهم، متّصل بعذاب الآخرة، أو ثابت لامُدفِع له، أو ثابت عليهم لا يتعدّى غيرهم، وهو جَعْل أعلى قريتهم أسفلها، وإمطار الحجارة عليهم، وقلنا لهم تشديداً لعذابهم: إذن ﴿فَذُوقُوا﴾ أيّها الكفرة الطُّغاة ﴿عَذَابِى﴾ على كفركم وطُغيانكم ﴿وَنُذُرِ﴾ي وإيعاداتي.

ثمّ بالغ سبحانه في التنبيه على كون القرآن المشتمل على تلك القَصص أكمل المواعظ بتَكْرار قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ والعِظة ﴿فَهَلْ مِن مُدَّكِرٍ﴾ فانّ في التكرير مبالغةً في التنبيه والايقاظ، وتقريراً للمعاني في الأسماع والقلوب، وتثبيتاً لها في الصدور، وكلّما زاد ازدادت للأُمور المذكورة.

ثمّ ذكر سبحانه شدّة طُغيان فرعون وقومه، وابتلاءهم بالعذاب بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وأشراف قومه الذين شاركوه في الطُّغيان وإضلال الناس ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ والأيعادات والتخويفات من قبل

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٦١.

الله على لسان موسى، أو المنذرون والرسل كموسى وهارون.

ثمّ كأنّه قيل: فما فعلوا حينئذٍ؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ومعجزات رسلنا ﴿كُلِّهَا﴾ عِناداً ولَجاجاً ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ بالعذاب بسبب تكذيبهم ﴿أَخْذَ﴾ مَلِك ﴿عَزِيزٍ﴾ وقاهرٍ لا يُقهَر و﴿مُقْتَدِرٍ﴾ لا يعجِزه شيءٌ.

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِن أُولٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ * بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ[٤٣ـ٤٦]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه ابتلاء مكذّبي الرسل بأنواع العذاب، وجّه الخطاب إلى كفّار العرب، أو المكذّبين لخاتم النبيين ﷺ من قريش وأهل مكّة، وبيّن أنّهم في استحقاق العذاب كمن تقدّمهم من الأمم المُهلَكة المُكذّبة للرسل بقوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ أيّها العرب المُصرّون على تكذيب رسولنا، أو يا أهل مكّة ﴿خَيْرٌ﴾ عند الله، وأقلّ استحقاقاً للعذاب ﴿مِن أُولٰئِكُمْ﴾ الطُّغاة الذين اُهلِكوا بما سَمِعتم من أنواع العذاب حتى تأمنوا منه ﴿أَمْ﴾ لا تكونون خيراً منهم، ولكن ﴿لَكُم﴾ من جانب الله ﴿بَرَاءَةٌ﴾ وأمانٌ من عذاب الله مكتوبٌ ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ والكتب السماوية التي نزلت على الرسل إن أصررتم على الكفر وتكذيب الرسل، فلذا تُصِرّون على الشرك وتكذيب محمد ﷺ وتجترئون على المعاصي، ولا تخافون من نزول العذاب عليكم، وأن يكون حالكم حال الأُمم الذين كانوا قبلكم، لا والله ليس لكم تلك البراءة في كتابٍ من الكتب السماوية فضلاً عن جميعها.

ثمّ أعرض سبحانه عن خطابهم إيذاناً بعدم قابليتهم للخطاب لغاية الجهل، ووجّه خطابه إلى العقلاء بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أُولئك الجُهّال الحُمقاء: إنْ نَزَل العذاب فانّا ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ وكثيرٌ متّفقون على دفعه ﴿مُنتَصِرٌ﴾ ومتعاونٌ بعضنا مع بعض[1]، أو ممتنع بقوّتنا عن الابتلاء به، وإنّما أفرد لفظ المنتصر إمّا باعتبار لفظ (الجميع)، والمعنى نحن جميعٌ جنسٌ منتصرٌ، أو باعتبار أنّ (جميع) بمعنى كلّ واحدٍ، والمعنى كلّ واحدٍ منّا منتصرٌ يغلِب محمداً، أو يدفع عن نفسه العذاب.

ثمّ ردّ الله قولهم الفرضي[2] بقوله تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ وتنكسر البتة شوكتهم ﴿وَيُوَلُّونَ﴾ وينصرفون في حرب محمدٍ ﷺ ﴿ٱلدُّبُرَ﴾ وإفراده لإرادة الجنس، كما وقع يوم بدرٍ.

عن عمر بن الخطاب، قال: لمّا نزلت (سيهزم الجمع) كنت لا أدري أي جمعٍ، فلمّا كان يوم بدر

---

١. في النسخة: ببعض.　　٢. في النسخة: الفرضية.

رأيت رسول الله ﷺ يلبس الدّرع ويقول: (سيهزم الجمع)[١].

وقال ابن عباس: كان بين نزول الآية وبين يوم بدر سبع سنين[٢]. وهذا من معجزاته ﷺ، حيث أخبر عن الغيب، فكان كما أخبر.

وقيل: إنّ الدُّبر بملاحظة كلّ واحدٍ، أو لتنزيل فِرار جميعهم منزلة فِرار شخص واحد، والمراد أنّهم في التولية كنفسٍ واحدٍ لا يتخلّف أحدهم من الجميع[٣].

ثمّ أخبر سبحانه بأنّه ليس ذلك تمام عقوبتهم بقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ﴾ ويوم القيامة ﴿مَوْعِدُهُمْ﴾ ووقت عذابهم، وهذا العذاب في الدنيا من طلائعه ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ﴾ وأعظم فظيعةً ﴿وَأَمَرُّ﴾ وأشدّ عذاباً من يوم بدر وأدوم.

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ[٤٧-٤٩]

ثمّ بيّن سبحانه حال المشركين المعارضين للنبي ﷺ في ذلك اليوم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والطُّغاة في ذلك اليوم مستقرّون ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ وهلاكٍ، أو بُعدٍ من طريق الوصول إلى الرحمة والجنة ﴿وَ﴾ في ﴿سُعُرٍ﴾ ونيرانٍ مُوقَدة. وقيل: إنّ المراد أنّ المشركين المجرمين في الدنيا في ضلالٍ وجنونٍ لا يعقِلون ولا يهتدون إلى الحقّ، وفي الآخرة في سَعَرٍ ونيرانٍ[٤].

ويقال لهم ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ ويُجَرّون ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ بعُنفٍ ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أيّها المجرمون ﴿ذُوقُوا﴾ وأدركوا أكمل الإدراك ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ ولمس نار جهنم وألمها.

قيل: إنّ سقَر عَلَمٌ لجهنّم[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ في جهنم لوادياً [للمتكبرين] يقال له سَقَر، شكا إلى الله شدّة حرّه، وسأله أن يأذَن له أن يتنفّس، فتنفس فأحرق جهنّم»[٦].

ثمّ بيّن سبحانه كمال قدرته لتهويل العباد بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ﴾ وموجودٍ في عالم الأجسام والأرواح والمُلك والملكوت من الجواهر والأعراض نحن ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ وأوجدناه ﴿بِقَدَرٍ﴾ وحدٍّ معينٍ اقتضته الحكمة، مكتوب في اللّوح المحفوظ قبل وجوده.

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٧٤، تفسير روح البيان ٩: ٢٨٢.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٢٨٢.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ٦٨.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ٧١.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٧٤، تفسير روح البيان ٩: ٢٨٣.
٦. عقاب الأعمال: ٢٢٢، تفسير روح البيان ٥: ١٠٤.

في الحديث: «كتب الله مقادير الخلائق كلّها قبل أن يخلُق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء»[١].

وقيل: إنّ المراد بالقدر القدر المستعمل في جنب القضاء والقضاء علمه بصلاح إيجاد الموجودات المكتوب في اللّوح المحفوظ والقدر إرادة إيجاد كلّ موجودٍ[٢].

عن النبي ﷺ: «لا يُؤمِن عبدٌ حتى يُؤمِن بأربع: يشهد أن لا إله إلّا الله، وأنّي رسول الله بعثت بالحقّ، ويُؤمِن بالبعث، ويُؤمِن بالقدر خيرِه وشرِّه»[٣].

أقول: الظاهر أنّ المراد الايمان بأنّ كلّ ما يُوجَد بإرادة الله.

وعنه ﷺ: « القدرُ خيرُه وشرُّه من الله»[٤].

قيل: إنّ أكثر المفسرين اتّفقوا على أنّ آية: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ نزلت في القدرية[٥].

وعن أبي هريرة، قال: جاء مشركو قريش يُخاصمون رسول الله ﷺ في القدر، فانزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٦].

وعن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «مجوس هذه الأمة القدرية» وهم المجرمون الذين سمّاهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾[٧].

وعن الصادق عليه السلام قال: «إنّ القدرية مجوس هذه الأمّة، وهم الذين أرادوا أن يَصفوا الله بعدله فأخرجوه عن سُلطانه، وفيهم نزلت ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ﴾ إلى قوله: ﴿بِقَدَرٍ﴾»[٨].

وسُئل عن الرُّقى[٩] أتدفع من القدر شيئاً؟ فقال: «هي من القدر»[١٠].

وعنه عليه السلام قال: «ما أنزل الله هذه الآيات إلّا في القدرية ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿بِقَدَرٍ﴾»[١١].

وعن الباقر عليه السلام: «نزلت هذه الآية في القدرية ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾»[١٢].

وعن الصادق عليه السلام قال: «وجدت لأهل القدر اسماً في كتاب الله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إلى قوله: ﴿بِقَدَرٍ﴾» قال: «فهم المجرمون»[١٣].

أقول: مقتضى قول الصادق عليه السلام: «هم الذين أرادوا أن يصفوا الله بعدله، فأخرجوه من سُلطانه» كون

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٢٨٤.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٢٨٤.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٢٨٤.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٢٨٤.
٥ ـ ٦. تفسير الرازي ٢٩: ٦٩.
٨. التوحيد: ٢٩/٣٨٢، تفسير الصافي ٥: ١٠٥.
٩. الرُّقى: جمع رُقية، وهي العوذة التي يُرقى بها.
١٠. بحار الأنوار ٥: ٢٤/٩٨.
١١. عقاب الأعمال: ٢١٢، تفسير الصافي ٥: ١٠٥.
١٢. عقاب الأعمال: ٢١٣، تفسير الصافي ٥: ١٠٥.
١٣. تفسير القمي ٢: ٣٤٢، تفسير الصافي ٥: ١٠٥.

المعتزلة القائلين بأنّ العبد مستقل في أفعاله، ولا يقدِر الله على منعه منها وصرفه عنها، هم القدرية، لأنهم اشركوا بالله خلقه في افعالهم.

ومقتضى حديث أمير المؤمنين عليه السلام مع الشيخ الذي منعه عن المسير إلى الشام - حيث قال: أخبرنا يا أمير المؤمنين عن مسيرنا إلى الشام، ألقضاء[1] من الله وقدر؟ فقال علي عليه السلام: «يا شيخ، ما علوتم تلعة، ولا هبطتم بطن وادٍ، إلّا بقضاءٍ من الله وقدر».

فقال الشيخ: عند الله أحتسب عنائي.

فقال علي عليه السلام: «وتظُنّ أنّه قضاءٌ حَتمٌ، أو قدر لازمٌ، لا إنّه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب، والأمر والنهي، والزجر من الله، وسقط معنى الوعد والوعيد، فلم تكن لائمة من الله للمذنب، ولا مَحْمَدة للمُحسِن، تلك مقالة عَبَدَة الأوثان، وخُصماء الرحمن، وقدرية هذه الأمّة»[2] - أن الأشاعرة القائلين بأن افعال العباد مخلوقةٌ لله.

وقال بعض الأفاضل: «تلك مقالة عَبَدة الأوثان» إشارةٌ إلى الأشاعرة. وقوله: «قدرية هذه الأمّة» إشارة إلى المعتزلة[3].

وقال بعض الأجلّة: «القدرية هم المنسوبون إلى القدر، ويزعُمون أنّ كلّ عبدٍ خالق فعله، ولا يرون الكفر والمعاصي بتقدير الله ومشيئته، فنُسبوا إلى القدر لأنّه بِدعتهم وضلالتهم[4].

وقال شارح (المواقف): قيل: القدرية هم المعتزلة لاسنادهم أفعالهم إلى قدرتهم.

وفي الحديث: «لا يدخُل الجنّة قدريّ، وهو الذي يقول: لا يكون ما شاء الله، ويكون ما شاء إبليس».

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ * إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ [٥٠-٥٥]

ثمّ بيّن سبحانه كمال قدرته بقوله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا﴾ لشيءٍ إذا نُريد إيجاده ﴿إِلَّا﴾ كلمة ﴿وَاحِدَةٌ﴾ لا تَكْرار فيها، وهي كلمة (كن) التي يعبّر بها عن الإرادة التكوينية، فاذا يكون الشيء المراد وجوده ويوجد بسرعة ويسير ﴿كَلَمْحٍ﴾ ونظرٍ سريعٍ ﴿بِالْبَصَرِ﴾.

قيل: لمّا اشتملت الآيات السابقة على وعيد الكفار بالاهلاك عاجلاً وآجلاً، والوعد للمؤمنين

---

١. في الاحتجاج: أبقضاء.
٢. الاحتجاج: ٢٠٨.
٣. تفسير الرازي ٧٠/٢٩.
٤. تفسير الرازي ٦٩/٢٩.

بالانتصار منهم جيء بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ تأكيداً للوعيد والوعد، يعني أنّ الوعيد والوعد حقٌّ وصدقٌ، والموعود مثبتٌ في اللوح المحفوظ، مقدّرٌ عند الله، لا يزيد ولا ينقُص، وذلك على الله يسير، لأنّ قضاءه في خلقه أسرع من لمح البصر[1].

﴿وَ﴾ تالله ﴿لَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ بأنواع العذاب في الأعصار السابقة ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ وأشباهكم في الكفر والطُّغيان من الأمم الذين كانوا أقوى منكم ﴿فَهَلْ﴾ فيكم أيّها الكفّار الحاضرون ﴿مِن مُّدَّكِرٍ﴾ ومتّعظ بما نزل عليهم ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ وعمل من الكفر والعِصيان ﴿فَعَلُوهُ﴾ في الليل والنهار والخَلوة والجَلوة مكتوبٌ ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾ ودواوين الحفَظة الكِرام البَرَرة ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ﴾ من أعمالهم وأعمال غيرهم في مدّة أعمارهم ﴿وَكَبِيرٍ﴾ منها، كلّ بتفاصيلها ﴿مُسْتَطَرٌ﴾ ومثبوتٌ في كتاب لا يترُك كَتْب عملٍ صغيرٍ لصِغَره، ولا كبيرٍ للاعتقاد بعدم نسيانه.

رُوي أنّ النبي ﷺ ضرب لصغائر الذنوب مثلاً، وقال ﷺ: «إنّ مَثَل مُحقّرات الذنوب كمثَل قومٍ نزلوا بفَلاة من الأرض، وحضر جميع القوم، فانطلق كلّ واحدٍ منهم يحطِب، فجعل الرجل يجيء بالعُود والآخر بالعُود حتى جمعوا سواداً، وأججوا ناراً، فشَووا خُبزهم، وإنّ ذنب الصغير يجتمع على صاحبه فيُهلكه، إلّا أن يغفِر الله، اتّقوا مُحقّرات الذنوب، فانّ لها من الله طالباً»[2].

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان سوء حال الكفّار في الآخرة، وأنّهم يُسحَبون على وجوههم في النار، بيّن حُسن حال المتقين والمحترزين من الكفر والعصيان بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والمعرضين عن الكفر والعصيان في الدنيا مستقرّون في الآخرة ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ وبساتين كثيرة الأشجار، لا يُوصَف حُسنها ونظارتها ونعمها ﴿وَ﴾ في خلال ﴿نَهَرٍ﴾ أعظم الأنهار وأصفاها، جارٍ من الكوثر على قول، أو من عين الرضوان على آخر[3].

وقيل: إنّ المراد من النهر جنسه، وإفراده لرعاية الفواصل[4].

وهو قاعد ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ ومجلسٍ صالحٍ مرضيّ، أو مجلس حقّ لا لغو فيه ولاتأثيم، وكائن ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ وسلطان عظيم الشأن، وفي قرب من مالك الملوك ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ لا نهاية لقدرته ومُلكه وسلطانه، فأيّ منزلةٍ أكرم من تلك المنزلة، وأجمع للغِبطة والسعادة، وألذّ واشرف منها.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة (اقتربت) أخرجه الله من قبره على ناقةٍ من نُوق الجنة»[5].

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٢٨٤.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٢٨٥.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ٧٩.
٤. تفسير أبي السعود ٨: ١٧٥، تفسير روح البيان ٩: ٢٨٥.
٥. ثواب الأعمال: ١١٦، مجمع البيان ٩: ٢٧٩، تفسير الصافي ٥: ١٠٥.

في تفسير سورة الرحمن

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ[١ـ٤]

ثمّ لمّا ختم سبحانه سورة القمر المبتدئة باظهار المهابة بالإخبار باقتراب الساعة، وذِكْر أعظم معجزات النبي ﷺ وهو انشقاق القمر، وتكرار ذكر تسهيل نعمة القرآن للذِّكْر والاتعاظ به، وتكرار شدّة عذابه وكَثْرَة إنذاره بقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾[1] مرّةً بعد مرةٍ، وتعداد ما نزل على الأمم السالفة من أنواع العذاب، وختمها بذكر أسمائه الدالّة على كمال عظمته واقتداره المشعر بشدّة انتقامه، نُظِمت سورة الرحمن المبتدئة باظهار كمال رحمته، وذكر أعظم المعجزات العقلية لنبينا، وهو تعليم القرآن الذي فيه صفاء القلوب وشِفاء الصدور، وتكرار تذكير آلائه ونِعمه بقوله: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[2] وتعداد تفصيل نِعمه الدنيوية والأُخروية على المؤمنين، فابتدأها بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ أعلن برحمته الواسعة لجميع الموجودات بقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمٰنُ﴾ والذات العطوف على جميع الخلق بالايجاد أولاً، والرزق وتهيئة أسباب البقاء ثانياً، وموجبات السعادة والهداية ثالثاً.

وإنّما خصّ هذا الاسم الاعظم بذاته المقدّسة بحيث لا يجوز إطلاقه على غيره، لكون سائر أسمائه تحت هذا الاسم، ولا يكون أحدٌ قابلاً لتسميته به، كاسم الله الدالّ على الذات، والمستجمع لجميع الصفات الكمالية، ولذا أقرنهما في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱللهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمٰنَ﴾[3].

ثمّ شرع سبحانه في تعداد نِعمه الدنيوية والاخروية والجسمانية والروحانية اللاتي كلّها من شؤون الرحمانية، ولمّا كان أعظمها قدراً وأرفعها شأناً القرآن الذي هو مدار السعادة الدنيوية والأُخروية، ومظهر لحقائق الكتب السماوية، ومَناط لكون سائر النِّعم نِعماً، بدأ بإظهار المنّة بتعليمه بقوله: ﴿عَلَّمَ﴾ بتوسّط جَبْرئيل محمداً ﷺ، وبتوسّطه غيره ﴿ٱلْقُرْآنَ﴾ العظيم الشأن.

---

١. القمر: ١٦/٥٤. ٢. الرحمن: ١٣/٥٥. ٣. الإسراء: ١١٠/١٧.

قيل: يعني الذي علّم آدم الأسماء وفضّله بها على الملائكة، هو الذي علّمكم القرآن، وفضّلكم به على جميع الأمم[١].

وقيل: إنّ المعنى جعل القرآن علامةً لنبوة محمد ﷺ ومعجزةٍ له، كما جعل شقّ القمر الذي أخبر به في أوّل السورة السابقة علامةً لنبوته ومعجزةً له[٢].

وقيل: إنّ المراد أنّه تعالى علّم القرآن أولاً ملائكته المقرّبين[٣]، ثمّ بيّن أنّه علّمه ثانياً الانسان بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾. قيل: إنّ المراد جنسه[٤]، وقيل: إنّ المراد محمد[٥]. و﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ وهو القرآن الذي فيه تبيان كلّ شيء.

وقيل: إنّه تعالى ذكر أولاً أعظم النّعم، وهو تعليم القرآن[٦]، ولم يذكُر من علمه لعظم نعمة التعليم، ثمّ بيّن من علمه بقوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ ثمّ بيّن كيفية تعليمه بقوله: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ وطريق كشف ما في الضمير بالنُّطق وفهمه، والحقّ أنّ المراد تعداد عظائم نِعمه على الانسان ومطالبته بالشكر فذكر أولاً أعظم النِّعم التي[٧] لا نِعمة لأحدٍ مع فقدها، ثمّ أعظم النِّعم الداخلية بعدها، وهو نعمة وجود الانسان، ثمّ أعظم النِّعم بعد نِعمة الوجود، وهو نِعمة البيان والمنطق، فانّه به يمتاز عن غيره من الحيوانات.

ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ[٥ و ٦]

ثمّ ذكر بعد النعمتين الداخلتين نعمتين خارجتين ظاهريتين سماويتين بقوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ بجريانهما ﴿بِحُسبَانٍ﴾ وحركات مقدّرة في بُرجهما ومنازلهما، آتيين لها في فلكيهما، بحيث ينتظم بها اُمور العالم السُّفلى، وتختلف الفصول والأوقات، ويُعلَم بها السنون والشهور، مع أنّ لوجودهما وكونهما فوق الأرض منافع مهمّة لا تُحصى، كزوال الظُّلمة، وتربية الأجسام، وتنمية النباتات والأشجار، وتربية المعادن والزراعات، ونَضج الثِّمار وغير ذلك.

ثمّ بيّن نعمتين ظاهرتين أرضيتين، بهما بقاء الانسان والحيوان ومعاشهما بقوله: ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ وهو النبات الذي لا ساق له، كالبقول والحشيش والعُشب المنبسطة على الأرض ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ وهو النبات الذي له ساق كالحنطة والشعير والشجر والنخل وغيرها ﴿يَسجُدَانِ﴾ وينقادان لأمره تعالى وإرادته

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٢٨٨.
٢. تفسير الرازي ٢٩: ٨٢.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ٨٤.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ٨٥، تفسير روح البيان ٩: ٢٨٩.
٥. تفسير الرازي ٢٩: ٨٥.
٦. تفسير الرازي ٢٩: ٨٥.
٧. في النسخة: الذي.

انقياد الساجد، وقيل: إنّ المراد من سجودهما سجود ظِلالهما. وقيل: غير ذلك[١].

وإخلاء الجملة الأُولى عن العاطف، لكون النظر فيها إلى تعداد النعم، وذَكَره في هذه الجملة لتناسبها مع سابقتها من حيث التقابل؛ لأنّ الشمس والقمر علويان، والنجم والشجر سفليان، وكون فعل الجميع من الجريان والسجود من باب الانقياد لأمر الله، وإنّما قدّم النجم لمناسبته اللفظية مع الشمس والقمر، ولأنّ حال السجود فيه أظهر لانبساطه على الأرض، كما أنّ تقديم الشمس على القمر لأشرفيتها منه، ولأنّ الحساب فيها أظهر.

وَٱلسَّماءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ[٧ ـ ٩]

ثمّ ذكر واحداً من نِعمه المهمة السماوية بقوله: ﴿وَٱلسَّماءَ﴾ المُطلّة ﴿رَفَعَهَا﴾ وخلقها فوق الأرض، لتكون سقفاً محفوظاً. وقيل: اُريد من رفعها رفع رُتبتها، لكونها محلّ ملائكته، ومنشأ اقضيته، ومتنزّل أوامره وأحكامه[٢].

ثمّ ذكر واحداً من نعمه المهمة الأرضية بقوله: ﴿وَوَضَعَ﴾ في الأرض، وجعل فيها ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ لتعيين الحقوق وتسويتها، ولولاه لوقع بين الناس العداوة والبغضاء، فانّ العدل سبب لبقاء عِمارة العالم، وأخص أسبابه الميزان، ولذا عدّه من النِّعمالعظيمة، فكأنّه قال: نشر سبحانه العدل الذي أخصّ أسبابه الميزان، وإنّما جعل ذلك لأجل ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ ولا تجاوزوا عن الحدّ الواجب من الحقوق ﴿فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ بأن لا تُنقصوا من[٣] حقّ الغير، ولا تتعدّوا على[٤] الغير بأخذ الزائد عن حقّكم.

ثمّ قرّر سبحانه ذلك بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ﴾ وداروا معرفة قدر الحقوق ﴿بِالْقِسْطِ﴾ والعدل ﴿وَلَا تُخْسِرُوا﴾ ولا تُنقصوا ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾ قيل: لا تُنقصوا الموزون في الميزان، وإنّما كرّر لفظ الميزان تشديداً للوصية به، وحثّاً على استعماله[٥].

وقيل: إنّ لفظ (ميزان) اُريد به فى كلّ آية معنىً، ففي الآية الأُولى اُريد به الآلة أو العدل، وفي الثانية اُريد به الوزن أو الآلة، وفي الثالثة اُريد به الموزون[٦].

وعن الرضا عليه السلام ـ في تأويل الآيات وبيان بطنها في رواية ـ قيل له: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾؟ قال: «ذلك أمير المؤمنين عليه السلام» قيل: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾؟ قال: «علّمه بيان كلّ شيءٍ يحتاج إليه الناس».

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٨٩. ٢. تفسير أبي السعود ٨: ١٧٧، تفسير روح البيان ٩: ٢٩.
٣ و٤. في النسخة: عن. ٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٧٧. ٦. تفسير الرازي ٢٩: ٩٠.

قيل: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ قال: «هما بعذاب الله». قيل: الشمس والقمر يُعذّبان؟ قال: «سألت عن شيءٍ فأتقنه، إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله تجريان بأمره، مطيعان له، ضوؤهما من نور عرشه، وحرّهما من جهنم، فاذا كانت القيامة عاد إلى العرش نورهما، وعاد إلى النار حرّهما، فلا يكون شمس ولا قمر، وإنّما عناهما لعنهما الله، أو ليس قد روى الناس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال «الشمس والقمر نوران في النار» قيل: بلى. قال: «أما سَمِعت قول الناس: فلان وفلان شمسا هذه الأمّة ونورهما؟ فهما في النار، والله ما عنى غيرهما».

قيل: ﴿ٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾؟ قال: «النجم: رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد سمّاه الله في غير موضعٍ فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾[1] وقال: ﴿وَعَلامَاتٍ وَبالنَّجْمِ هُمْ يَهتَدُونَ﴾[2] فالعلامات الأوصياء، والنجم رسول الله صلى الله عليه وآله». قيل: ﴿يَسْجُدَانِ﴾؟ قال: «يَعْبُدان».

قيل: ﴿وَٱلسَّماءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾؟ قال: «السماء: رسول الله صلى الله عليه وآله، رفعه الله إليه، والميزان: أمير المؤمنين عليه السلام، نصبه في خلقه».

قيل: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ﴾؟ قال: «لا تعصوا الامام». قيل: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾؟ قال: «أقيموا الامام بالعدل». قيل: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾؟

قال: «لا تخسروا الإمام حقّه ولا تَظْلِموه» الخبر[3].

وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ[١٠ و ١١]

ثمّ بعد المنّة بذكر وضع الميزان منّ سبحانه على الناس بذكر وضع الأرض بقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ وبسطها لتكون مِهاداً وفِراشاً ﴿لِلْأَنَامِ﴾ من الجنّ والانس على قول[4]. وعن الرضا عليه السلام قال: «للناس»[5]. وقيل: إنّ الأرض موضوعة لكلّ ما عليها، وإنّما خصّ الانسان بالذكر، لأنّ انتفاعه بها أكثر[6].

قيل: كلّما كان من النِّعم العظام مختّصاً بالانسان، قدّم سبحانه الفعل بالآية كقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ * وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ وكلّما لم يكن مختصاً بالانسان، أو لم يكن نفعه عظيماً كثيراً، قدّم الاسم كقوله: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ فانّ نفع الأرض مشتركٌ بين الانسان وسائر الحيوانات[7].

---

١. النجم: ١/٥٣.
٢. النحل: ١٦/١٦.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٤٣، تفسير الصافي ٥: ١٠٧.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٢٩١.
٥. تفسير القمي ٢: ٣٤٣، تفسير الصافي ٥: ١٠٨.
٦. تفسير الرازي ٢٩: ٩٢.
٧. تفسير الرازي ٢٩: ٩٢.

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ﴾ وأشجار كثيرة تلتذّ النفوس بثمارها الطيبة ﴿وَ﴾ فيها ﴿ٱلنَّخْلُ﴾ بأصنافها، وإنّما نكّر الفاكهة لإظهار قلّة نفعها بالنسبة إلى النخل، أو للاشارة إلى كثرة أنواعها، وإنّما ذَكَر الفاكهة دون شجرها بخلاف النخل فانّ منافعها كثيرة جداً.

ثمّ نبّه سبحانه على تكميل نعمة النخل بتوصيفها بقوله: ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ والأوعية للتمر، فانّ في جعل ثمارها في الأوعية سهولة جمعها والانتفاع بها، حيث إنّ النخل شجرةٌ عظيمةٌ لا تسقُط ثمارها بهزّها، فلابدّ من قطفها، فلو كان حبّات ثمرها متفرّقة لصعب قَطْفُها واحدةً بعد واحدةٍ[١]، فجعله الله في وعاء إذا اقتُطِف ذلك الوعاء والكُمّ اقتُطِف قدرٌ كثيرٌ من الرُّطب والتمر.

وقيل: إنّ الكُمّ بالضمّ: كلّما يغطّي النخل من ليفٍ وسَعَفٍ وغيرهما[٢]، فانه يُنْتَفع به كما يُنْتَفع بجذوعهما.

وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[١٢ و ١٣]

ثمّ ذكر سبحانه بعد نعمة الأشجار نعمة الزرع، ارتقاءً من النِّعمة الأنزل وهي الفاكهة والنخل إلى النِّعمة الأعلى بقوله: ﴿وَٱلْحَبُّ﴾ مِن البُرّ والشعير والأرز وغيرهما ممّا يُقتات به أو يُؤدم به ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ والتِبن، كما عن الرضا عليه السلام[٣]. ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ قيل: إنّ الريحان هنا بمعنى الرزق، كما عن ابن عباس[٤]. وقيل: إنّه الحبّ المأكول[٥]. وقيل: إنّه كلّما طابت رائحته من النباتات[٦]. وقيل: هو الريحان المعروف، فانّ بَزره من الأدوية النافعة، فالعصف عَلَف الدواب والريحان دواء الانسان[٧].

ثمّ إنّه تعالى بعد تعداد نعمه طالب من الثقلين الإقرار بنعمه والشُّكر عليها بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ أيّها الجنّ والانس، وبأيّ النعم الظاهرة والباطنة التي أنعم عليكما مالككما ومربّيكما ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ وتكفران؟ عن الصادق عليه السلام ـ في تأويل الآية ـ «فبأيّ النِّعمتين تكفُران؟ بمحمدٍ صلى الله عليه وآله أم بعلي عليه السلام»[٨]. وفي رواية (الكافي): «أبالنبي، أم بالوصيّ»[٩].

عن جابر، أنّه قال: قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وآله سورة الرحمن حتى ختمها، ثمّ قال: «مالي أراكم سكوتاً؟ فانّ الجنّ أحسن منكم ردّاً ما قُرئت عليهم هذه الآية مرة ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلّا قالوا: لا بشيءٍ من نعمك ربّنا نكذّب، فلله الحمد»[١٠].

---

١. في النسخة: واحداً بعد واحد.
٢. تفسير أبي السعود ٨: ١٧٨.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٤٤، تفسير الصافي ٥: ١٠٨.
٤ ـ ٦. تفسير روح البيان ٩: ٢٩٢.
٧. تفسير الرازي ٢٩: ٩٤.
٨. تفسير القمي ٢: ٣٤٤، تفسير الصافي ٥: ١٠٨.
٩. الكافي ١: ١٦٩/٢، تفسير الصافي ٥: ١٠٨.
١٠. تفسير روح البيان ٩: ٢٩٣، وفيه: فلك الحمد.

وقيل: إنّ الخطاب للعدوّ والولي بقوله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وقيل: إنّ الخطاب للذكر والأنثى. وقيل: غير ذلك[١].

قيل: كُرّرت الآية في هذه السورة المباركة إحدى وثلاثين مرة، ثمان منها بعد تعداد عجائب خلق الله وبدائع صُنعه ومبدأ الخلق ومعادهم مبالغةً في الحثّ على الشكر، ثمّ سبع منها عَقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدها بعدد أبواب جهنّم، وذكر الالاء عَقيبه؛ لانّ في التخويف بها والبعث على دفعها نعمةً تُوازي النِّعم المذكورة، أو لأنّ ابتلاء الأعداء بها نعمةٌ على المؤمنين، ثمّ ثمان منها بعد ذكر الجنات ونِعمها على عدد أبواب الجنة، وثمان منها بعد ذكر الجنّتين اللتين دونها ونِعمها[٢].

وقيل: إنّما التفت سبحانه من الغيبة إلى الخطاب، لكونه أبلغ في التقريع والزجر عن الكفران والتكذيب، حيث إنّه تعالى نبّه المكذّب الغافل على أنّه كالواقف بين يدي ربّه، وهو يقول له: إنّي أنعمت عليك بكذا وكذا، فكيف تُكذّب نعمائي؟ ولاشكّ أن المكذّب يكون عند ذلك أشدّ استحياءً[٣]، وإنّما وصف سبحانه ذاته المقدّسة بالربوبية في الآية، لكونه المناسب لتعداد نَعمائه التي من شؤون ربوبيته.

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَارِجٍ مِن نَارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[١٤-١٦]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه نعمة خلق الانسان وبسط الأرض لأنتفاع الجنّ والانس، ذكر مبدأ خلقهما إظهاراً لكمال قدرته، وبياناً لاتمام نعمته بقوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ﴾ أولاً وفي البدو ﴿مِن صَلصَالٍ﴾ وطينٍ نَتِنٍ أو يابس، له صليلٌ وصوتٌ إذا وقع بعضُه على بعضٍ ﴿كَالفَخَّارِ﴾ والطين المطبوخ بالنار، فانّ مبدأ خلق آدم من تراب جعله طيناً، ثمّ صيّره حمأً مسنوناً، ثمّ صيّره صَلْصَالاً ﴿وَخَلَقَ الجَانَّ﴾ وهو أبو الجنّ، أو جنسه ﴿مِن مَارِجٍ﴾ وخالصٍ ﴿مِن نَارٍ﴾ لا يخالطها دُخانٌ، أو من مختلطٍ منها بالدخان، أو الهواء. قيل: خلق الجن من عُنصرين: النار والهواء، وخلق الانسان من عُنصرين: التُّراب والماء[٤].

وعن مجاهد: المارج هو المختلط بعضه ببعضٍ من اللهب الأحمر والأصفر والأخضر الذي يعلو النار[٥].

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٩٥.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٢٩٣.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ٩٦.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٢٩٤.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٢٩٤.

ثمّ أنكر سبحانه عليهما الكُفران لنعمه بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ أيّها الجنّ والانس ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ وتكفُران؟

رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[١٧ـ٢٣]

ثمّ من المعلوم أنّ الربّ الذي له هذه المَرتبة من القدرة لا يختصّ ربوبيته بكما، بل هو ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ مشرق الصيف ومشرق الشتاء، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام[١]، أو مشرق الشمس ومشرق القمر.

وعن الصادق عليه السلام: «تأويل المشرقين برسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام»[٢].

﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ لكلّ من المشرقين، وعنه عليه السلام: «المغربين الحسن والحسين عليهما السلام»[٣].

ومن المعلوم أنّ لازم ربوبيته لها ربوبيته لجميع ما بينها من الموجودات والنِّعم التي لا تُحصى ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ ونعمه أيّها الثقلان ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ وأيّها تُنكِران؟

ثمّ لمّا ذكر الشمس والقمر اللذين لهما جريان، ذكر نعمة البحر الذي له جريان بقوله: ﴿مَرَجَ﴾ وأرسل ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ بحر السماء وبحر الأرض، أو بحر العَذب وبحر المِلح الأُجاج، أو بحر الروم وبحر فارس أحدهما إلى الآخر بحيث ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ ويتماسّ سطحاهما، أو بحيث يكون من شأنهما الالتقاء والاختلاط، ومع ذلك ﴿بَيْنَهُمَا﴾ في الواقع من الأرض أو غيرها بقدرة الله ﴿بَرْزَخٌ﴾ وحاجِزٌ ومانِعٌ من الاختلاط.

قيل: إنّ الماء ينجذب بعضه إلى بعضٍ كأجزاء الزئبق[٤]. ولذا لا يكون له إلّا حيّزٌ ومكانٌ واحدٌ، فلذا من طبع البحرين وشأنهما أن يلتقيا ويختلطا، ومع ذلك يبقى كلٌّ في مكانٍ متميّزٍ لمانع جعله الله بقدرته الكاملة، وقد رُؤي في صورة جريان الماء العذب في الماء المالح أو بالعكس، وفي جريان الماء الصافي في الماء المختلط بالطين وبالعكس، لا يختلطان في مقدارٍ من الزمان أو مطلقاً، لمانعٍ جعله الله بينهما بقدرته، كقطعةٍ من الأرض ﴿لَا يَبْغِيَانِ﴾ ولا يتجاوزان حدّيهما حتى يمتزجا أو يُغرِقا ما بينهما من الأرض، ولا يطلبان غير ما قُدرّ لهما.

---

١. الاحتجاج: ٢٥٩، تفسير الصافي ٥: ١٠٨.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٤٤، تفسير الصافي ٥: ١٠٨.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٤٤، تفسير الصافي ٥: ١٠٨.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ١٠٠.

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع أنّه ليس شيءٌ ممّا ذكر قابلاً للتكذيب لظهوره وظهور منافعه ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ﴾ وهو الكِبار من الدُّرّ ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ وهو صغاره، أو الخَرَز الأحمر.

قيل: إنّ المشهور بين الغواصين أنّهما يُخرَجان من البحر الأُجاج، من الموضع الذي يقع فيه النهر من الماء العذب[1].

وعن ابن عباس: أنّه يكون اللؤلؤ والمرجان في البحر بنزول المطر، لأنّ الصَّدَف تفتح أفواهها للمطر[2].

وعن الصادق عليه السلام عن أبيه، عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ قال: «من ماء السماء، ومن ماء البحر، فاذا أمطرت فتحت الأصداف أفواهها [في البحر] فيقع فيها من ماء المطر، فيُخلق اللؤلؤ، الصغير من القطرة الصغيرة، واللؤلؤ الكبير من القطرة الكبيرة»[3].

أقول: ويُؤيد ذلك ما أشتهر من أنّه إذا أجدبت السنة هَزَلت الحيتان وقلّت الأصداف والجواهر.

ذكر منقبة علي وفاطمة وابنيهما عليهم السلام

وعن الصادق عليه السلام في بيان بطن الآية قال: «علي وفاطمة عليهما السلام بحران يلتقيان، لا يبغي أحدهما صاحبه ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾» قال: «الحسن والحسين عليهما السلام»[4].

وقال العلامة في (نهج الحق) روى الجمهور عن ابن عباس، أنه قال: البحران علي وفاطمة عليهما السلام ﴿ الحسن والحسين، ولم

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٢٩٥.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٢٩٦.
٣. قرب الاسناد: ٤٨٥/١٣٧، تفسير الصافي ٥: ١٠٩.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٤٤، تفسير الصافي ٥: ١٠٩.

خديجة بفاطمة كانت فاطمة عليها السلام تحدّثها من بطنها، وتؤنسها في وحدتها، وكانت تكتُم ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله، فدخل النبي صلى الله عليه وآله يوماًن فسَمِع خديجة تُحدّث فاطمة، فقال لها: «يا خديجة، لمن تُحدثين؟» قالت: أُحدّث الجنين الذي في بطني، فانّه يُحدّثني ويُؤنسني. قال: «يا خديجة، أبشري فانّها أُنثى، وإنّها النسلة الطاهرة الميمونة، فانّ الله تعالى قد جعلها من نسلي، وسيجعل من نسلها خلفاء في أرضه بعد انقضاء وحيه».

فما بَرِح ذلك النور يعلو، وأشعته في الافاق تنمو، حتى جاءه المَلَك فقال: يا محمد، أنا الملك المحمود، وإنّ الله بعثني أن أزوّج النور من نور. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ممّن» قال: علي من فاطمة، فانّ الله قد زوّجها من فوق سبع سماواته، وقد شَهِد مِلاكها جَبْرَئيل وميكائيل وإسرافيل في سبعين ألفاً من الكَروبيين، وسبعين ألفاً من الملائكة الكِرام الذين إذا سجد أحدهم سجدةً لا يرفع رأسه إلى يوم القيامة، أوحى الله تبارك وتعالى إليهم: أن ارفعوا رؤوسكم، واشهدوا مِلاك عليّ بفاطمة، فكان الخاطب جَبرئيل، والشاهدان ميكائيل وإسرافيل.

ثمّ أمر الله عزّ وجلّ بحور العين أن يَحضُرن تحت شجرة طوبى، وأوحى إلى شجرة طُوبى أن انثُري مافيك، فنثرت ما فيها من جوزٍ ولوزٍ وسُكّرٍ، فاللّوز من دُرّ، والجَوز من ياقوتٍ، والسُّكّر من سُكّر الجنّة، فالتقطته حُور العين، فهو عندهنّ في الاطباق يتهادينه، يقُلن: هذا من نِثار تزويج فاطمه بعلي.

فعند ذلك أحضر النبي أصحابه، وقال: «أُشهدكم أنّي زوّجت فاطمة من علي» فلما التقى البحران: بحر ماء النبوة من فاطمة، وبحر ماء الفتوّة من علي كرم الله وجهه، هناك ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ بَرْزَخ التقوى، لا يبغي علي عليه السلام على فاطمة بدعوى، ولا فاطمة على علي عليه السلام بشكوى ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ اللؤلؤ الحسن، والمرجان: الحسين عليهما السلام، فجاء السبطين شهيدين حبيبين إلى سيد الكونين، فهما روحاه وريحانتاه، كلّما راح عليهما وارتاح إليهما يقوله: «هذان ريحانتاي من الدنيا» وكلّما اشتاق إليهما يقول: «ولداي هذان سيدا شباب أهل الجنّة، وأبوهما خيرٌ منهما وفاطمة بضعةٌ منّي يريبني ما رابها، ويُؤذيني ما يُؤذيها، ويسُرّني ما يَسُرّها ﴿قُل لَّآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[١]».

ثمّ قال القاضي رحمه الله: وبه ظهر أيضاً وجه كون النبي صلى الله عليه وآله بَرْزَخاً بينهما، فانّ وجوده صلى الله عليه وآله مُؤكّد لعصمتها وعدم صدور خلاف الأولى من أحدهما على الآخر[٢].

---

١. الشورى: ٢٣/٤٢. ٢. إحقاق الحق ٣: ٢٧٧.

وقال شارح (نقش الفصوص في شرح كلمة حكمة إلهية في كلمة آدمية) على ما حكاه القاضي رحمه الله قالوا: الانسان الكامل البَرْزَخ بين البحرين، والحاجز بين العالمين، وإليه الاشارة بقوله سبحانه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾[1].

وقال إسماعيل حقي في (تفسير روح البيان) قيل: البحران علي وفاطمة رضي الله عنهما، والبَرْزَخ النبي صلى الله عليه وآله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ الحسن والحسين رضي الله عنهما، انتهى[2].

ثمّ طالب سبحانه بعد ذكر النعمة العظيمة الشكر عليها، وأنكر الكُفران بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَآتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَالِ وَٱلْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[٢٤-٢٨]

ثمّ بعد ذكر نعمة البحر ذكر سبحانه نعمة السُّفن بقوله: ﴿وَلَهُ﴾ تعالى السُّفن ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ والسائرات و﴿ٱلْمُنشَآتُ﴾ والمخلوقات لنفع العباد، أو مرفوعات الشُّرُع، أو المرفوعات على الماء ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾ وهنّ في الارتفاع والعَظَمة ﴿كَٱلْأَعْلَامِ﴾ والجبال الطوال، فالسفن في البحر كالجبال، كما أنّ الابل في البرّ كالسُّفن في البحر.

ثمّ لمّا كان في خلق مواد السُّفن وأجزائها، والأرشاد إلى تركيبها وصُنعها، وإجرائها في البحر بقطع المسافات البعيدة في الأوقات القليلة، وحمل الأشياء النافعة الكثيرة إلى البلاد النائية، وتيسير المعاملات والتجارات بسببها، نعمٌ عظيمةٌ لا مدخل لغير الله تعالى فيها، حثّ الثقلين على الإقرار بها وشُكرها بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثمّ لمّا ذكر سبحانه البحر الذي هو من المهالك للبشر؛ ونبّه على أنّ النجاة منه بالسُّفن من نِعم الله تعالى، نبّه سبحانه على أنّه ليس لأحدٍ أن يغترّ بالنجاة من المهالك في مّدة عمره المُقدّر له، فانّ مآل كلّ أحدٍ إلى الفناء والموت بقوله: ﴿كُلُّ مَنْ﴾ تمكّن في الأرض، واستقرّ ﴿عَلَيْهَا﴾ من الموجودات: العقلاء وغيرهم ﴿فَانٍ﴾ وزائلٌ من وجه الأرض لا محالة، فلا يغترّ العاقل ببقائه في الدنيا وبقاء ماله من الصحة والعزّ والغنى والمال والولد، فانّ الذي يدوم ﴿وَيَبْقَىٰ﴾ ولا يزول ولا يفنى ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أيّها الانسان وذاته المقدّسة عن الحاجة والنقائص الامكانية، ووجوده المنزّه عن شَوب العدم

---

١. احقاق الحق ٣: ٢٧٦. ٢. تفسير روح البيان ٩: ٢٩٦.

والعوارض الجسمانية والروحانية، المتّصف بصفة الربوبية التي من شؤونها الإنعام على خلقه، والاحسان على عباده، فذلك الباقي بعد فناء كلّ شيءٍ، والمنعم على ما سواه، وهو ﴿ذُو الجَلالِ﴾ والعظمة التي لا نهاية لها ﴿وَ﴾ ذو ﴿آلْإِكْرَامِ﴾ والفضل الذي لا حدّ له ولا إحصاء، فعلى الخلق أن يخضعوا له ويتضرّعوا إليه.

عن الجواد عليه السلام في حديث: «وإذا أفنى الله الأشياء أفنى الصُّور والهِجاء والتقطيع[1]، ولا يزالُ من لم يَزَل عالماً»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ نحن وجه الله»[3].

وعن السجاد عليه السلام: «نحن وجه الله الذي يُؤتى منه»[4].

قيل: إنّ وصفه بالوصفين مرتبٌ على الأمرين السابقين، فذو الجلال مرتّبٌ على فناء ما في الأرض، وذو الإكرام مرتّبٌ على بقائه بعد فناء كّل شيءٍ، فيُوجد من يُريد ويُفيض عليه بعد إعادته أنواع رحمته ونِعمه[5].

ثمّ لمّا كان الموت والخروج من الدنيا الدنية، والتنبيه على ذلك، والإعلام ببقاء ذاته المقدّسة وغاية عظمته وإفضاله من النِّعم العِظام، حثّ سبحانه على الإقرار بنعمه وشُكرها بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يَسْأَلُهُ مَن فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[٢٩ و ٣٠]

ثمّ بيّن سبحانه سَعَة كرمه وإنعامه وكمال قدرته وجوده وغِناه بقوله: ﴿يَسأَلُهُ﴾ ويطلُب منه ﴿مَن فِى ٱلسَّمَاوَاتِ﴾ السبع من الملائكة وسائر الموجودات التي فيها ﴿وَ﴾ من في ﴿آلْأَرْضِ﴾ من الانس والجنّ وسائر الحيوانات والموجودات بلسان الحال والمقال جميع ما يحتاجون إليه في بقائهم وكمالهم فيُعطيهم مايسألونه من خزائن كرمه.

عن ابن عباس: فأهل السماوات يسألونه المغفرة، وأهل الارض يسألونه الرزق والمغفرة[6]، فهو ﴿كُلَّ

---

١. في النسخة: وينقطع، وفي التوحيد: ولا ينقطع، وما أثبتناه من الكافي، والمراد صور الحروف وهجاؤها وتقطيعها، كما في صدر الرواية.

٢. الكافي ١: ٧/٩١، التوحيد: ٧/١٩٣، تفسير الصافي ٥: ١١٠.

٣. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٢٧٢، تفسير الصافي ٥: ١١٠.

٤. تفسير القمي ٢: ٣٤٥، تفسير الصافي ٥: ١١٠.

٥. تفسير الرازي ٢٩: ١٠٧.

٦. تفسير روح البيان ٩: ٢٩٩.

يَوم﴾ وآنٍ كائنٌ ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ من شؤون رحمانيته وربوبيته وفيّاضيته، ولا يَشْغُله شأنٌ عن شأن.

عن النبي ﷺ: «أنّ الربّ لينظُر إلى عباده كلّ يومٍ ثلاثمائة وستين نظرة، يخلُق ويرزُق ويحيي ويُميت» ويُعزّ ويُذلّ، ويفعل ما يشاء، فذلك قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾»[١].

وفي الحديث: «من شأنه أن يغفِر ذنباً، ويُفرّج كرْباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين»[٢].

عن مقاتل، قال: نزلت الآية في اليهود حين قالوا: إنّ الله لا يقضي يوم السبت شيئاً، ففيها ردّ لهم[٣].

وقيل: إنّ قوله: ﴿هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ صفة اليوم، والمعنى: أنّ في كلّ يومٍ هو في شأن، يسأله من في السماوات والأرض، لا اليوم الذي فيه في شأن، وهو اليوم الذي يُهلِك جميع الموجودات، ويقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ﴾[٤] فانّ فيه لا يبقى أحدٌ يسأله، فهو السائل وهو المجيب[٥].

أقول: الظاهر أنّه إخبار بعد إخبار. ثمّ إنّه تعالى لمّا ذكر إفاضته إلى جميع الخلق بنعمه التي لا تُحصى، طالبهم بالإقرار والشُكر بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[٣١ و ٣٢]

ثمّ لمّا أخبر سبحانه بتوجّهه في الدنيا إلى شؤون خلقه، أخبر بأنّه في الآخرة يُصرَف عن تلك الشؤون الدنيوية وبتوجّه إلى شؤونهم من الحساب وجزاء الأعمال بقوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾ وعن قريبٍ نتجرّد عن الاشتغال بأُمور دنياكم لحساب أعمالكم ومجازاتكم عليها ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ وسنقصِدكم أيّها الجنّ والإنس.

وإنّما سمّيا بالثّقلين لرَزانة رأيهما على قول، أو لغلو قدْرهما في الموجودات على آخر، أو لتشبيه الأرض بالحمولة، وجعل الإنس والجنّ أثقالاً محمولةً عليها على ثالث[٦].

وعن الصادق عليه السلام: «سمّيا ثقلين لأنهما يثْقُلان بالذنوب»[٧].

وقيل: إنّ الكلام مسوقٌ للتهديد[٨] بشدّة الاهتمام بأمرهم، وليس المقصود حقيقة الفَراغ، فانّ السيّد يقول عند الغضب لعبده: سأفرغ لك، مع كونه فارغاً جالساً لا يمنعه شُغل[٩].

ثمّ لمّا كان تعذيب الكفّار في القيامة، وصرفه عن المؤمنين نِعمةً عظيمةً عليهم، والتنبيه عليهما

---

١. مجمع البيان ٩: ٣٠٦، تفسير روح البيان ٩: ٣٠٠.
٢. مجمع البيان ٩: ٣٠٦، تفسير الصافي ٥: ١١٠، تفسير روح البيان، ٩: ٣٠٠.
٣. مجمع البيان ٩: ٣٠٦، تفسير الصافي ٥: ١١٠، تفسير روح البيان، ٩: ٣٠٠.
٤. غافر: ١٦/٤٠.
٥. تفسير الرازي ٢٩: ١٠٩.
٦. تفسير روح البيان ٩: ٣٠١.
٧. تفسير روح البيان ٩: ٣٠١.
٨. تفسير الرازي ٢٩: ١١٠.
٩. تفسير الرازي ٢٩: ١١١.

نعمة عظيمة أُخرى، حثّ الناس على الإقرار بها والشكر عليها بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[٣٣و ٣٤]

ثمّ بيّن سبحانه لطفاً بالعباد بعض أهوال القيامة وشدائدها بقوله: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ وأيتها الجماعة العظيمة من الجنسين ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ وقَدَرتم ﴿أَن تَنفُذُوا﴾ وتخرُجوا ﴿مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وجوانبهما وأطرافهما فِراراً من عذاب الله ونكاله، وتهرُبوا من مُلك الله وسُلطانه ﴿فَانفُذُوا﴾ أو اخرُجوا فارّين منه، ومن الواضح أنّكم ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ ولا تخرجون منهما ولا تتخلّصون من أخذ الله وعذابه ﴿إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ وقوّةٍ وقهرٍ، وأنىٰ لكم ذلك؟ وإنّما قدّم الجنّ على الإنس لكونهم أقدم خَلْقاً، وأقوى نُفوذاً، وأشد بَطشاً من الإنس.

رُوي أنّ الملائكة تنزل وتُحيط بجميع الخلائق، فيهرُب الإنس والجنّ، فلا يأتون وجهاً إلّا وجدوا الملائكة أحاطت به، فيقول لهم الملائكة ذلك[1].

وعن (المجمع): قد جاء في الخبر: يُحاط على الخلق بالملائكة وبلسانٍ من نار، ثمّ يُنادون: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ إلى قوله: ﴿شواظ من نار﴾[2].

وعن الصادق عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة جمع الله العباد في صعيدٍ واحدٍ، وذلك أنّه يُوحي إلى السماء الدنيا: أن أهبِطي بمن فيك، فيهبِط اهل السماء الدنيا بمثلي من في الأرض من الجنّ والإنس والملائكة، فلا يزالون كذلك حتى يهبِط[3] أهل سبع سماوات، فيصير الجنّ والإنس في سبع سَرادُقات من الملائكة، ثمّ ينادي منادٍ ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ الآية، فينظُرون فإذا أحاط بهم سبع أطواق[4] من الملائكة»[5].

ثمّ لمّا ذُكِر قال سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من التنبيه والتحذير والمساهلة والعفو مع كمال القدرة.

يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِن نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ[٣٥ و ٣٧]

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٠٢. ٢. مجمع البيان ٩: ٣١١، تفسير الصافي ٥: ١١١.
٣. في النسخة: يحيط. ٤. في مجمع البيان: سرادقات.
٥. مجمع البيان ٩: ٣١١، تفسير الصافي ٥: ١١١.

ثمّ يقول المنادي لهم تهويلاً في ذلك اليوم: اليوم ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾ يا عُصاة الجنّ والإنس ﴿شُوَاظٌ﴾ ولَهبٌ عظيمٌ بلا دُخانٍ مُتصاعدٍ ﴿مِن نَارٍ﴾ ليَسُوقكم إلى المحشر، كما عن ابن عباس[١]. وقيل: إنّ الشُواظ هو اللُهب المُختلط بالدُخان[٢] ﴿وَنُحَاسٌ﴾ وقِطْرٌ مُذابٌ يُصَبّ من فوق رؤوسهم. وقيل: إنّه الدُخان الخالص[٣] ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ ولا تمتنعان من العذاب.

وقيل: إنّ قوله: ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنّه لا مَهْرَب لهم من العذاب قبل نزوله[٤]. وقوله: ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ إشارة إلى أنّه لا ناصر ولا منجٍ لهم منه بعد نزوله.

ثمّ لمّا كان بيان عاقبة الكفر والعِصيان والتحذير عنها من الالطاف العظيمة والنِّعم الجسيمة قال سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثمّ بالغ سبحانه في إرعاب القلوب بقوله: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ﴾ وانصدعت ﴿السَّمَاءُ﴾ وانفكّ بعضها من بعضٍ لعدم الحاجة إليها والدلالة على انقراض الدنيا المحتاجة إلى السقف والكواكب، أو لنزول الملائكة ﴿فَكَانَتْ﴾ وصارت حمراء تُشبه ﴿وَرْدَةً﴾ حمراء - والزهرة المعروفة التي تُشَم - في اللون قيل: إنّ السماء لونها في الواقع الحُمرة، وإنّما تُرى زرقاء للبُعد[٥]. وقيل: يعني تتقلّب حمراء بعد أن كانت صفراء ﴿كَالدِّهَانِ﴾، أو صارت كلون الورد تتلوّن كالأدهان المختلفة. وقيل: يعني تصير حمراء كالورد من حرارة جهنّم، وتذوب وتجري كالدُّهن المُذاب[٦]. وجواب (إذا) محذوف، والمعنى: إذا صارت السماء كذلك، يكون من الأحوال والأهوال ما لا تُحيط به دائرة المقال، أو رأيت أمراً عظيماً هائلاً.

فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[٣٨-٤٥]

ولمّا كان الإخبار بما ذكر من الزواجر التي هي أعظم النِّعم، قال سبحانه: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٠٢. ٢. تفسير الرازي ٢٩: ١١٤، تفسير أبي السعود ٨: ١٨٢.
٣. تفسير أبي السعود ٨: ١٨٢، تفسير روح البيان ٩: ٣٠٢، وفيهما: اللهب الخالص. ٤. تفسير الرازي ٢٩: ١١٤.
٥ و٦. تفسير روح البيان ٩: ٣٠٢.

تُكَذِّبَانِ﴾ مع غاية ظهورها **﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾** وحينئذ **﴿لَا يُسْأَلُ﴾** أحدٌ من قبل الله أو غيره **﴿عَن ذَنبِهِ﴾** الذي ارتكبه في الدنيا، لا **﴿إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾** لأنّ العُصاة معروفون بسيماهم، فلا يحتاج عرفانهم إلى السؤال عن ذنبهم. قيل: لا يسألون في أول حشرهم إلى الموقف، ويسألون حين المحاسبة. عن ابن عباس: لا يسألهم: هل عَمِلتم كذا وكذا؟ فانّه أعلم بذلك، ولكن يسألهم لِمَ عملتم كذا وكذا؟[١] وعنه أيضاً: لا يسألون سؤال شِفاء وراحة، وإنّما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ[٢].

عن الرضا عليه السلام - في هذه الآية - قال: «من اعتقد الحقّ ثمّ أذنب ولم يتُب في الدنيا عُذّب [في البرزخ ويخرج يوم القيامة وليس له ذنب يسأل عنه]»[٣] **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾**.

ثمّ بيّن سبحانه علّة عدم السؤال من الجن والإنس عن ذنبه بقوله: **﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ﴾** والعُصاة في ذلك اليوم **﴿بِسِيمَاهُمْ﴾** وعلامة الذنب الظاهرة في وجوههم من السواد وزرقة العين والغُبرة والقَترة والحزن والنِكاية **﴿فَيُؤْخَذُ﴾** أولئك العُصاة **﴿بِالنَّوَاصِي﴾** وشُعور مُقدّم رؤوسهم **﴿وَالْأَقْدَامِ﴾** قيل: يأخذ الملائكة بشعر رؤوسهم وأقدامهم، فَيَقْذِفونهم في النار[٤]. أو المراد تَسحبهم الملائكة وتَجُرّهم إلى النار تارةً بالأخذ بنواصيهم وتارةً بالأخذ بأقدامهم[٥] **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾** من المواعظ والزواجر مع كون منافعها في غاية الظهور؟ ثمّ يقال لهم توبيخاً وتقريعاً **﴿هَذِهِ﴾** النار التي ترونها وتدخُلونها هي **﴿جَهَنَّمُ الَّتِي﴾** وعد الله بها العُصاة في الدنيا على لسان رسله، وكان **﴿يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾** والمُصرّون على الكفر والعِصيان، فانظُروا اليوم إلى المكذّبين أنّهم **﴿يَطُوفُونَ﴾** ويَدُورون **﴿بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾** وماءٍ حارٍّ **﴿آنٍ﴾** وبالغ منتهى الحرارة وأقصاها، يُصَبّ عليهم، أو يُسقون منه.

عن كعب الأحبار: أنّ وادياً من أودية جهنم يُجمَع فيه صَديد أهل النار، فيُنْطَلَق بهم في الأغلال، فيُغمسَون فيه حتى تَنْخَلع أوصالهم، ثمّ يُخرَجون منه، وقد أحدث الله لهم خَلقاً جديداً، فيُلقون في النار[٦]. ومن الواضح أنّ الإخبار بهذه الأمور العِظام من نِعم الله على الأنام **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾** أيها الثقلان **﴿تُكَذِّبَانِ﴾** وقيل: يعني **﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾** ممّا عددناه من أوّل السورة **﴿تُكَذِّبَانِ﴾** فتستحقّان هذا العذاب الشديد[٧].

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٠٣.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٠٣.
٣. مجمع البيان ٩: ٣١٢، تفسير الصافي ٥: ١١٢.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٣٠٣.
٥. تفسير الرازي ٢٩: ١٢١، تفسير أبي السعود ٩: ١٨٣، تفسير روح البيان ٩: ٣٠٣.
٦. تفسير روح البيان ٩: ٣٠٣ و٣٠٤.
٧. تفسير الرازي ٢٩: ١٢١.

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[٤٦ـ٤٩]

ثمّ لمّا حذّر الله العُصاة بذكر سوء عاقبتهم وعذاب عِصيانهم، زجراً لهم عمّا هم عليه، بيّن سبحانه حُسن عاقبة المؤمنين الخائفين من عِصيانه، ترغيباً لهم إلى طاعته بقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ وحين الحضور في موقف فصل قضائه في القيامة، وظهور آثار قدرته وسَطوته وسُلطانه، وهَتْك السور، وكشف حقائق الأمور، وقيام الأشهاد، فاجتَنَب لخوفه ذلك مخالفته وعِصيانه في الدنيا ﴿جَنَّتَانِ﴾ قيل: جنة لتركه المعاصي والشهوات، وجنّة لفعل الطاعات[١]. وقيل: جنّة لإيمانه، وجنّة لعمله[٢]، وأمّا الجنتان فجنّة عَدْن، وجنّة نعيم[٣]. وقيل: جنة داخل القصر، وجنّة خارجة[٤]. وقيل: جنّة لسكونته، وجنّة لسكونة أزواجه وخَدَمه[٥]. وقيل: جنّة من ذهبٍ، وجنّة من فِضة[٦]، يطوف بينهما كما يطوف المُجرم بين جهنّم وحميم، وإنّما لم يقل يطوف بينهما الخائفون، لوضوحه ولإظهار أنّهم ملوكٌ يُطافُ عليهم احتراماً لهم وإكراماً في حقّهم، ولا يُطاف بهم.

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: «من عَلِم أنّ الله يراه ويسمع ما يقول ويعلم ما يعمله من خير أو شرٍ، فحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال، فذلك الذي خاف مقام ربّه [ونهى النفس عن الهوى]»[٧].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «من عرضت له فاحشةٌ أو شهوةٌ فاجتنبها من مخافة الله، حرّم الله عليه النار، وآمنه من الفزع الأكبر، وأنجز له ما وعده في كتابه في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾»[٨].

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ من نعم الدنيا والآخرة ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

ثمّ وصف سبحانه الجنّتين بقوله: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ وصاحبتا أغصانٍ منشعبة من الشجرة، عليها أوراقٌ عجيبةٌ، وأثمارٌ طيبةٌ من غير سُوق غِلاظٍ، مانعةٍ عن التردّد فيها كيف شاء، كذا قيل[٩]. وقيل: يعني صاحبتا أنواعٍ من الأشجار المُثمرة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ من الآلاء الدنيوية والأُخروية ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ *فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ١٢٣، تفسير روح البيان ٩: ٣٠٤.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٠٤، وفيه: لعقيدته، بدل لإيمانه.
٣ـ٦. مجمع البيان ٩: ٣١٤.
٧. الكافي ٢: ١٠/٥٧، تفسير الصافي ٥: ١١٣.
٨. من لا يحضره الفقيه ٤: ١/٧، تفسير الصافي ٥: ١١٣.
٩. تفسير الرازي ٢٩: ١٢٤.

ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[٥٢ـ٥٥]

ثمّ وصف سبحانه الجنتين بغاية الصفاء والنَّزاهة بقوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ﴾ من ماءٍ غير آسنٍ ﴿تَجْرِيَانِ﴾ من جبلٍ من مِسكٍ على ما قيل[١]، وعن ابن عباس: تجريان بالماء الزُّلال، إحداهما التَّسْنيم، والآخر السَّلسبيل[٢]. قيل: تجري في كلّ جنةٍ عينٌ[٣]، كما قال تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾[٤]. ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثمّ لمّا وصف الجنتين بغاية النَّزاهة التي هي الأهمّ في نظر المتنعّمين، وصفها باستجماعهما لجميع الفواكه بقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ﴾ نوعٍ من ﴿فَاكِهَةٍ﴾ متصوّرة من الفواكه ﴿زَوْجَانِ﴾ وصنفان: حُلوٌ وحامضٌ، أو رطبٌ ويابسٌ، أو معهودٌ وغير معهودٍ.

عن ابن عباس: ما في الدنيا حلوةٌ ولا مرّة إلّا وهي في الجنّة حتى الحَنظَل، إلّا أنه حُلوٌ[٥] ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثمّ بيّن سبحانه حال استراحة الخائفين في الجنّة بقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ ومعتمدين كالمُلوك حال جلوسهم ﴿عَلَىٰ فُرُشٍ﴾ مبسوطةٍ تحتهم بعضها على بعضٍ، وتلك الفُرش ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وديباجٍ ثخينٍ، فما ظنكم بظهائرها التي لابدّ أن تكون أعلى وأشرف من البطائنّ قيل: إنّ ظهائرها من سُندسٍ[٦] وحريرٍ رقيقٍ، وقيل: من نورٍ[٧] ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ وثمارها التي تُقطَف ﴿دَانٍ﴾ وقريبٌ بحيث يُجتنى في كلّ حالٍ بلا كُلفة القيام والمشي واستعمال الآلة.

عن ابن عباس. قال: تدنو الشجرة حتى يجتنيها ولي الله، إن شاء قائماً، وإن شاء قاعداً وإن شاء مضطجعاً[٨] ﴿فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[٥٦ـ٦١]

ثمّ وصف سبحانه أزواجهم في الجنة بقوله: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ﴾ على أزواجهن، لا تتجاوز أعينهنّ إلى غيرهم، ولا ينظُرن إلى سواهم لشدّة حبّهن لهم. قيل: تقول كلُّ منهنّ لزوجها: وعزّة ربّي

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٨٤، تفسير روح البيان ٩: ٣٠٦.

٢ و٣. تفسير أبي السعود ٨: ١٨٤، تفسير روح البيان ٩: ٣٠٦.

٤. الغاشية: ١٢/٨٨.

٥. تفسير روح البيان ٩: ٣٠٦ و٣٠٧.

٦ـ٨. تفسير أبي السعود ٨: ١٨٥، تفسير روح البيان ٩: ٣٠٧.

ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك، فالحمد لله الذي جعلك زوجي، وجعلني زوجك[١].

وعن القمي: الحُور العِين يقصُر الطرفُ عنها من ضوء نورها[٢]. وقيل: إنّ قصر الطَّرف كنايةٌ عن الحَياء والدُّلال[٣]. وقيل: إنّ المراد أنّهن مانعات أبصارهنّ عند الخروج عن النظر إلى اليمين والشمال لغاية عفّتهن[٤].

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ ولم يَمَسّهن، أو لم يفضضنّ ﴿إِنسٌ﴾ غير أزواجهنّ ﴿قَبْلَهُمْ﴾ في الجنّة ﴿وَلَا جَانٌّ﴾ بل هن باكرات غير ملموسات ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثمّ بيّن سبحانه كمال جمالهنّ بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ في الصَّفاء والحُسن ﴿الْيَاقُوتُ﴾ الأحمر ﴿وَالْمَرْجَانُ﴾ واللؤلؤ الصِّغار الأبيض، فانّه أصفى من اللؤلؤ الكِبار.

عن النبي ﷺ أنّه قال: «إنّ المرأة من أهل الجنّة ليُرى بياض ساقها من وراء سبعين حُلّة ومُخّها، إنّ الله يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾»[٥] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثمّ أكّد سبحانه وعده المؤمنين بالجنّة والنِّعم المذكورة ببيان حكم العقل بوجوب كون جزاء المحسن هو الاحسان بقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ﴾ إلى الغير بحكم العقل السليم أيها العقلاء ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَانُ﴾ إلى المحسن، لا والله لا يكون جزاء المحسن على إحسانه إلّا الاحسان إليه، فلابدّ من أن يُجازي المؤمن المُحسن بعمله من الله بالجنّة والنِّعم الدائمة.

عن أنس، قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ جَزَاءُ ٱلْإِحْسَانِ...﴾ الآية، ثمّ قال: «هل تدرون ما قال ربّكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «يقول هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتي وتوحيدي إلّا أن اسكنه جنّتي وحظيرة قُدسي برحمتي»[٦].

وعن الحسن بن علي عليه السلام عن النبي ﷺ، قال: «هل جزاء من قال لا إله إلّا الله إلّا الجنّة»[٧].

وعن الصادق عليه السلام: «أن هذه الآية جرت في الكافر والمؤمن والبرّ والفاجر، من صُنِع إليه معروفٌ فعليه أن يكافئ به، وليس المكأفاه أن تصنع كما صَنَع حتى تربي، فإن صنعت كما صنع كان له الفضل بالابتداء»[٨].

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ من النِّعم العقلانية والنفسانية والروحانية والجسمانية ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

---

١. مجمع البيان ٩: ٣١٥، تفسير روح البيان ٩: ٣٠٧.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٤٦، تفسير الصافي ٥: ١١٣.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٣٠٨.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ١٢٩.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٣٠٩.
٦. تفسير روح البيان ٩: ٣٠٩.
٧. علل الشرائع: ٨/٢٥١، تفسير الصافي ٥: ١١٤.
٨. مجمع البيان ٩: ٣١٦، تفسير الصافي ٥: ١١٤.

وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ [٦٢ و ٦٣]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان جزاء الخائفين المقرّبين بأنّ لهم جنتين موصوفتين بأعلى مراتب الحُسن، بيّن جزاء من دونهم في القُرب بقوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ وأنزل منهما شرفاً وحُسناً ﴿جَنَّتَانِ﴾ اُخريان لمن دون الخائفين رُتبةً ومنزلةً عند الله.

قال بعض المفسرين: من دون الجنتين الأوليين جنتان اُخريان من فِضّة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما[1].

وروى (المجمع) عن النبي ﷺ ما يقرُب منه[2].

وعن الصادق عليه السلام: «لا تقولنّ الجنة واحدة، إنّ الله تعالى يقول: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ولا تقولن واحدة، إن الله يقول: (درجات بعضها فوق بعض)[3] إنّما تفاضَل القوم بالأعمال»[4].

وعنه عليه السلام قيل له: الناس يتعجّبون منّا، كنّا إذا قلنا يخرُج قومٌ من النار فيدخُلون الجنّة، فيقولون لنا: فيكونون مع اولياء الله في الجنّة؟ فقال عليه السلام: «إنّ الله يقول: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ لا والله ما يكونون مع اولياء الله»[5].

وقيل: إنّ الجنّتين الأدنيين[6] لذرّيتهم الذين ألحقهم بهم ولأتباعهم، وإنّما جعلهما الله لهم إنعاماً على المؤمنين، كأنّه يقول الله لهم: هاتان الأخريان لكم، أسكِنوا فيهما من تُريدون[7].

وقيل: إنّ لكلّ من المؤمن والمؤمنة أربع جنات عن يمين ويسار، وقدّام وخلف، ليتضاعف له السرور بالانتقال من جنةٍ إلى جنةٍ، فإنّه ابعد من المَلَل فيما طُبع عليه من البشرية[8].

وعن القمي، عن الصادق عليه السلام، أنّه سُئِل عن قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ قال: «خضراوان في الدنيا يأكُل المؤمنون منهما حتى يَفرُغوا من الحساب»[9].

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ من الآلاء الأُخروية والجنّات العديدة ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣١٠، وفي النسخة: أبنيتهما وما فيهما، وجنتان أوليان من ذهب أبنيتها.
٢. مجمع البيان ٩: ٣١٨، تفسير الصافي ٥: ١١٤.
٣. في سورة الانعام: ١٦٥/٦ ﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾.
٤ و٥. مجمع البيان ٩: ٣١٨، تفسير الصافي ٥: ١١٥. ٦. في النسخة: الأدونين. ٧. تفسير الرازي ٢٩: ١٣٣.
٨. تفسير روح البيان ٩: ٣١٠. ٩. تفسير القمي ٢: ٣٤٥، تفسير الصافي ٥: ١١٥.

تُكَذِّبَانِ[٦٤ـ٦٩]

ثمّ وصف سبحانه الجنّتين الادنيين[١] بصفات أدون من ضفات الجنتين الأوليين، حيث وصف الأوليين بقوله: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ووصف الأخريين بقوله: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ ومُخضرّتان غاية الخُضرة بحيث تضربان الى السواد.

قيل: هذا الوصف يدُلّ على أنّ الاخريين دون الأُوليين مكاناً[٢]، فالمؤمنون إذا نظروا إلى فوقهم يَرَون الأفنان والأغصان تُظلّهم، وإذا نظروا إلى تحتهم يَرَون أرضاً مُخضرة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ من خُضرة نباتات هاتين الجنّتين، فتتمتع أبصاركم بهما، وانتفاع أُنوفكم بشمّ رياحينهما ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

ثمّ وصف سبحانه نزاهتهما وصفائهما بقوله: تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ وفوّارتان إلى جهة الفوق بالماء. وقيل: بالخير والبركة[٣]. وعن ابن عباس: بالمِسك والعَنْبر[٤] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا﴾ من ريّكم بالشراب، والتذاذكم بنزهة الجنّتين ﴿تُكَذِّبَانِ﴾.

في مدح الرّمان

ثمّ وصف سبحانه المأكول فيهما بقوله: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ﴾ كثيرة، ومايُتلذّذ به من ثمار الأشجار، ثمّ خصّ النوعين منهما بالذكر بقوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ لفضلهما على سائر الفواكه، فانّ الرُّطَب والتمر فاكهة وغذاء، والرمان فاكهة ودواء. قيل: إنّ الفواكه أرضية وشجرية، فالأرضية كالبِطّيخ داخلة في قوله: ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ والشجرية كالتُفاح والسّفرجل والعِنب وغيرها[٥]، هي المراد من الآية.

عن ابن عباس: نخل الجنة جُذوعها من زُمرّد أخضر، وكَرَبها من ذهبٍ أحمر، وسَعَفها كُسورةٌ لأهل الجنّة، وثمرها أمثال القِلال[٦] أو الدِّلا، أشدّ بياضاً من اللّبن، وأحلى من العَسل، وألين من الزُّبد، ليس له عَجم[٧]، كلّما نُزِعت ثمرةٌ عادت مكانها أُخرى[٨].

وعنه: ما لَقِحت رُمّانة قطّ إلّا بحبّة من الجنّة[٩].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا أكلتم الرمان، فكُلوه ببعض شَحْمه، فانّه دِباغ للمِعدة، وما من حبّةٍ منه تُقيم في جوف مؤمن إلّا أنارت قلبه، وأخرجت شيطان الوسوسة منه أربعين يوماً»[١٠].

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «من أكل رُماناً أنار الله قلبه أربعين يوماً»[١١].

---

١. في النسخة: الأدونين. ٢. تفسير روح البيان ٩: ٣١١.
٣ و ٤. تفسير روح البيان ٩: ٣١١. ٥. تفسير الرازي ٢٩: ١٣٤.
٦. القِلال: جمع قُلّة، وهي إناءٌ من الفَخّار يُشرَب منه.
٧. العَجَم: جمع عَجَمة، وهي نواة التمر أو الرمان أو العنب وغيرها.
٨ ـ ١٠. تفسير روح البيان ٩: ٣١٢. ١١. تفسير روح البيان ٩: ٣١٢.

وعن الصادق عليه السلام: «الفاكهة مائة وعشرون لوناً، سيّدها الرُّمّان»[١].

وعنه عليه السلام: «خمسٌ من فواكه الجنّة في الدنيا: الرُّمّان الأمليس»[٢] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[٧٠ ـ ٧٣]

ثمّ وصف سبحانه المنكوحات في الجنتين بقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ﴾ أخلاقهن ﴿حِسَانٌ﴾ وجوههنّ. عن (المجمع) عن النبيّ صلّى الله عليه وآله: «أي نساء خيرات الأخلاق، حسان الوجوه»[٣].

وقيل في تفسير الخَيرات: لسن بذَمِرات ولا بَخرات ولا مُتطلّعات ولا مُتشوّفات ولا ذَرِبات ولا سَليطات ولا طَمِحات ولا طوّافات في الطُّرق[٤]. وفي تفسير الحسان: حسان الخَلق والخُلق[٥].

عن الصادق عليه السلام: «هن صوالح المؤمنات العارفات»[٦].

وعنه عليه السلام: «الخيرات الحسان من نساء أهل الدنيا، وهنّ أجمل من حُور العِين»[٧].

روى بعض العامة: أن حُور العِين يقُلن: نحن الناعمات فلا نبأس، الراضيات فلا نسخَط، طُوبى لمن كنّا له؛ فاذا قلن هذه [المقالة] أجابتهنّ المؤمنات من نساء الدنيا: نحن المُصلّيات وما صليتنّ، ونحن الصائمات وما صُمتنّ، ونحن المُتصدقات وما تصدّقتنّ، فغلبنهنّ، والله غلبنهنّ[٨].

وقيل: إنّ المراد من الخيرات الحُور العين[٩] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وقد أنعم الله عليكم بالخيرات الحسان.

ثمّ بالغ سبحانه في وصف نساء الجنة بقوله: ﴿حُورٌ﴾ ونساء بيض ﴿مَقْصُورَاتٌ﴾ ومُخدّرات ﴿فِي الْخِيَامِ﴾ والخُدور، أو مستورات في الحِجال، لا يظهرن لغير أزواجهن، ولا يخرُجن من سُورهنّ لغاية عظمتهنّ وعِفّتهن على ما قيل[١٠].

عن الصادق عليه السلام، قال: «الحور هنّ البيض، والمقصورات المخدّرات في خيام الدُّرّ والياقوت

---

١. الكافي ٦: ٢/٣٥٢، تفسير الصافي ٥: ١١٥.

٢. الكافي ٦: ١/٣٤٩، تفسير الصافي ٥: ١١٥، وفي النسخة: الأملس، والرمان الإمليس، أو الإمليسي، هو رمانٌ حلوٌ طيب لا عَجَم له.

٣. مجمع البيان ٩: ٣١٩، تفسير الصافي ٥: ١١٦.

٤. تفسير روح البيان ٩: ٣١٢، والدّمِر: النتن، والبَخر: النتن في الفم والابط وغيرهما، والذربة: السليطة اللسان، والطَمِحات، يقال: طمح بصره إليه، كمنع: ارتفع، والطوافات في الطرق: دوارات.

٥. تفسير روح البيان ٩: ٣١٢.

٦. الكافي ٨: ١٤٧/١٥٦، تفسير الصافي ٥: ١١٦.

٧. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٤٣٢/٢٩٩، تفسير الصافي ٥: ١١٦.

٨. تفسير روح البيان ٩: ٣١٣.

٩. تفسير الطبري ٢٧: ٩١.

١٠. مجمع البيان ٩: ٣٢٠.

والمَرْجان، لكلّ خَيمةٍ أربعة أبواب، على كلّ باب سبعون مَلَكاً، حُجّاباً لهنّ، وتأتيهنّ في كل يومٍ كرامةٌ من الله عزّ ذكره، يبشّر الله عز وجلّ بهن المؤمنين»[1].

وعن ابن مسعود: لكلّ زوجةٍ خيمةٌ طولها ستون ميلاً[2].

وقيل: إنّ الخَيمة من خيامهنّ دُرّة مُجوّفة عرضها ستون ميلاً، في كلّ زاوية منها أهلون لا يرون إلّا حين يطوف عليهنّ المؤمنون[3] ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع أنّه خلق لكما من النساء المقصورات المحبوسات.

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلاَلِ وَٱلْإِكْرَامِ[٧٤-٧٨]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ أزواج المؤمنين كأزواج المقرّبين في البَكارة وعدم مسّ غير أزواجهنّ بقوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ ولم يَمَسّهنّ، أو لم يفتضّهن غير أزواجهن، لا ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا﴾ أحد ﴿جَانٌّ﴾ بل كلّهن باكرات غير ملموسات ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع إنعامه عليكما بأعلى النِّعم.

ثمّ بيّن سبحانه راحة المؤمنين في الجنّتين بقوله: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ ومعتمدين فيهما ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ وفُرشٍ مرتفعةٍ، كما عن بعض[4]، أو مجالس[5]، كما عن ابن عباس، أو مرافِق[6] ومساند ﴿خُضْرٍ﴾ لكونه أحسن الالوان ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ وفُرش ﴿حِسَانٍ﴾ أو بُسط موشّاة[7]، أو فيها صور، وهي على كلّ تقديرٍ في غاية الجَودة ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع أنّه قد هيّأ لكم ما به نِهاية الراحة والكرامة.

ثمّ لمّا ذكر سبحانه نِعمه الدنيوية والأُخروية التي كلّها من شؤون رحمانيته وفيّاضيته على جميع الموجودات، وصف ذاته بعلوّ الشأن أو بكَثْرة الخير والبركة بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى شأناً، أو كثر خيراً، أو دام ﴿ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ وما يحكي عن ذاته كالرحمن الذي افتُتحت به السورة المباركة، فكيف بذاته المقدّسة، فانّ عظمة الاسم دالةٌ على عظمة المُسمّى.

ثمّ إنّه تعالى بعد تعداد النِّعم الدنيوية والتنبيه على فَناء العالم أخبر ببقاء ذاته، وعبّر عنها بالوجه، والمراد به وجوده الواجب غير القابل للعدم والزوال، وبعد تعداد نعمه الدائمة الأُخروية أخبر بدوام اسمه المبارك في ألسنة الذاكرين في الجنّة، أو كثرة خيراته وبركاته، أو عُلّو شأنه اللازم لتوجّه الخلق

---

١. الكافي ٨: ١٤٧/١٥٦، تفسير الصافي ٥: ١١٦.
٢. مجمع البيان ٩: ٣٢٠، تفسير روح البيان ٩: ٣١٣.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٣١٣.
٤-٦. مجمع البيان ٩: ٣٢٠.
٧. في النسخة: موشّئ.

إليه وتعظيمه.

وقيل: إنّ المراد بالاسم صفته الرحمانية والرحيمية[١]. وقيل: إنّ المراد ذاته المقدسة[٢].

وفي كلا الموضعين نبّه على جلالته، وتنزّهه عن النقائص، ووفور كرمه، ونهاية كبريائه بقوله: ﴿ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ إرعاباً للقلوب، لمكان الجلال، وإيناساً لها به لمكان الإكرام، ففي هذين الوصفين تربيةٌ للخوف والرجاء.

قيل: من اللطائف أنّه تعالى ختم السورة السابقة ببيان سَعَة مُلكه وكمال قُدرته بقوله تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٣] وختم هذه السورة ببيان نهاية جلالته التي من آثار سَعَة مُلكه، ونهاية إكرامه التي من آثار كمال قدرته.

عن الباقر عليه السلام ـ في هذه الآية ـ: «نحن جلال الله وكرامته التي أكرم الله تبارك وتعالى العباد بطاعتنا ومحبّتنا»[٤].

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة الرحمن فقال عند كلّ آية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ لا بشيء من آلائك ربّ أكذّب، فان قرأها ليلاً ثمّ مات مات شهيداً، وإن قرأها نهاراً ثمّ مات مات شهيداً»[٥].

قيل: إن آيات أوّل هذه السورة المباركة أول ما قُرئ من القرآن على قريش[٦].

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣١٥.   ٢. مجمع البيان ٩: ٣٢٠.

٣. تفسير الرازي ٢٩: ١٣٧، والآية من سورة القمر: ٥٥/٥٤.

٤. تفسير القمي ٢: ٣٤٦، تفسير الصافي ٥: ١١٧.   ٥. ثواب الأعمال: ١١٦، تفسير الصافي ٥: ١١٨.

٦. تفسير روح البيان ٩: ٣١٥.

في تفسير سورة الواقعة

بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ [١ ـ ٣]

ثمّ لمّا خُتمت سورة الرحمن المبتدئة بالاعلان بسَعة الرحمة، ثمّ عظمة القرآن المحتوية لبيان النِّعم الدنيوية والأُخروية، وبيان فَناء الموجودات الجسمانية، وأهوال القيامة، وكون الناس فيها فرقاً ثلاث: المجرمين، والمُقرّبين، والمؤمنين الأبرار، نُظِمت بعدها سورة الواقعة المبتدئة بإظهار المهابة ببيان أهوال القيامة، وبيان فَناء الدنيا وخرابها فيها، وكون الناس فيها فرقاً ثلاث: السابقين المقربين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وغير ذلك من المطالب المربوطة بالسورة السابقة، فابتدأها بذكر أسمائه الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع سبحانه فيها ببيان أهوال القيامة الموجبة للخوف عن مقامه وإرعاب القلوب من مهابته بقوله: ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾ القيامة التي هي ﴿ٱلوَاقِعَةُ﴾ لا محالة، أو هي الواقعة العظيمة التي من عظمتها وشدائدها لا يتصوّر لها نظير، أو الزلزلة التي تَضَع لهَوْلها كلّ ذات حَمْل حَمْلها. قيل: إنّ جواب (إذا) محذوفٌ، والتقدير: تكون أهوال وشدائد[١].

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ وحدوثها نفس ﴿كَاذِبَةٌ﴾ ومُنكِرة إيّاها لشهودها وشهود أهوالها، أو لا يوجد نفس كاذبة لأجل شدّ تهاوأهوالها، ومن عظمتها أنّها ﴿خَافِضَةٌ﴾ لأقوام، و﴿رَافِعَةٌ﴾ لآخرين عن ابن عباس: تخفِض أقواماً كانوا مرتفعين في الدنيا، وترفع أقواماً كانوا متّضعين فيها[٢].

وعن السجاد عليه السلام: «﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلوَاقِعَةُ﴾ يعني القيامة ﴿خَافِضَةٌ﴾ خفضت والله بأعداء الله إلى النار ﴿رَافِعَةٌ﴾ رفعت والله أولياء الله إلى الجنّة»[٣].

وقيل: إنّه بيان لنفي وجود الكاذب في ذلك اليوم[٤]، والمعنى: ليس فيها نفسٌ كاذبةٌ تغيّر الكلام

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ١٤٠، تفسير أبي السعود ٨: ١٨٨.
٢. مجمع البيان ٩: ٣٢٤، تفسير روح البيان ٩: ٣١٦.
٣. الخصال: ٩٥/٦٤، تفسير الصافي ٥: ١١٩.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ١٤١.

وتخفِض كلمة أو ترفعها، أو المراد أنّ تلك الواقعة تخفِض بعض الأشياء، وترفع بعضاً، تحطّ الأشقياء، وترفع السُّعداء، وتُزيل الأجرام عن مقارّها بنثر الكواكب وإسقاط السماء كِسَفاً، وتسيير الجبال في الجو كالسَّحاب، وصيرورتها بعد الرفع عن الأرض [كثيباً] مَهيلاً منبسطاً، وصيرورة الأرض كَثيباً مرتفعاً، وإنّما قدّم الخفض للتشديد والتهويل.

إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجّاً * وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسّاً * فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثّاً * وَكُنتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً * فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ * وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ * أُولٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ[٤-١١]

ثمّ بيّن سبحانه وقت كون القيامة خافضة رافعة بقوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ وزُلزِلت ﴿ٱلْأَرْضُ رَجّاً﴾ وزلزالاً عظيماً، وحُرّكت تحريكاً شديداً بحيث لا يبقى فوقها بناءٌ ﴿وَبُسَّتِ﴾ وفتّتت ﴿ٱلجِبَالُ﴾ أو سيقت وسُيّرت من أماكنها ﴿بَسّاً﴾ وتفتيناً عيجباً، أو سوقاً وسيراً سريعاً ﴿فَكَانَتْ﴾ وصارت جميع الجبال بسبب ذلك التفتت أو السوق ﴿هَبَاءً﴾ أو غباراً مرتفعاً، أو كالذرّات التي تُرى في شُعاع الشمس، أو ما يتطاير من شَرَر النار، أو ما ذرّت الريح من الأوراق ﴿مُنبَثّاً﴾ ومتفرّقاً ومنتشراً في الجوّ.

قيل: إنّ الله تعالى يبعث ريحاً، فتحمل الأرض والجبال، وتضرِب بعضها ببعضٍ، ولا تزال كذلك حتى تصير غُباراً[١].

﴿وَكُنتُمْ﴾ أيّها الناس، من الأولين والآخرين في ذلك اليوم ﴿أَزوَاجاً﴾ وأصنافاً ﴿ثَلاثَةً﴾ حسب اختلاف عقائدهم وأعمالهم في الدنيا، أما الصنف الأول ﴿فَأَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ والبركة والسعادة، أو أهل المنزلة الرفيعة، أو ذوي الصحائف التي يُعطونها بأيمانهم، أو الجماعة الذين[٢] يقومون عن يمين العرش، أو كانوا على يمين آدم في عالم الذّر ويوم الميثاق، وما تدرون أيّها العقلاء ﴿مَا أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ وأيّ شيءٍ هم في الفخامة وعلوّ الرُّتبة؟ فتتعجبون من حُسن حالهم، لكونهم مؤمنين صالحين، وإن كان لهم تَبِعات يقومون بها للحساب ﴿وَ﴾ الصنف الثاني ﴿وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ﴾ والشرّ والشقاوة، وأهل الذّلة والشراسة والنَّكْبة والدّناءة و﴿مَا﴾ تدرون ما ﴿أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ﴾ وأيّ شيءٍ هم في سوء الحظّ وحطّ المنزلة؟ فتتعجبون من سوء حالهم لكونهم كفّاراً طُغاةً مستحقّين للعذاب ﴿وَ﴾ الثالث ﴿ٱلسَّابِقُونَ﴾ والمبادرون إلى الايمان والطاعة، والمسارعون إلى الخيرات، وهم ﴿ٱلسَّابِقُونَ﴾ والمبادرون إلى الجنة بغير حساب، والمسارعون إلى الدرجات العاليات.

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣١٧.

٢. في النسخة: التي.

وقيل: إنّ المراد أنّ (السابقون) هم السابقون المعروفون بحُسن الحال[١]. أو هم الذيـن لا يُـمكن الإخبار عن عظمتهم إلّا بأن يقال: هم السابقون، لكون حُسن حالهم وعلوّ مقامهم فوق أن يُحيط به علم البشر[٢]. وقيل: إنّ (السابقون) الثاني تأكيدٌ للأول[٣]. وقيل: إنّ المـعنى: السـابقون مـا السـابقون؟ فحُذِفت كلمة (ما) لدلالة الجملتين السابقتين عليها[٤]. وقيل: إنّ (السابقون) الثاني مبتدأ، وخبره قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[٥] إلى الله بأعلى درجات القُرب الذي يكون للبشر، أو المقربون إلى العرش، لأنّ درجاتهم فوق درجات غيرهم في الجنّة التي سقفها عرش الرحمن ، لقول النبي ﷺ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفِرْدَوس، فانّه أوسط الجنّة وأعلاها، وفوقه عرش الرحمن»[٦].

وقيل: إنّهم مقربون إلى الجنّة حين كون أصحاب الميمنة في مقام الحساب[٧].

قيل: قدّم سبحانه عند ذكر الأصناف أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، لأنّهم الذين ينفعهم ذكر أهوال القيامة دون السابقين الذين لا يختلف حالهم بالخوف والرجاء[٨].

نقل كلام بعض العامة وردّه

قال بعض العامة: السابقون اربعة: سابق اُمّة موسى عليه السلام وهو جزبيل[٩] أو حزقيل مؤمن آل فرعون، وسابق اُمّة عيسى وهو حبيب النجار صاحب أنطاكية، وسابقا اُمّة محمد وهما أبو بكر وعمر[١٠].

أقول: هذا القول مما تضحك به الثكلى، لوضوح أنّ الرجلين لا سبق لهما لا في الإيمان ولا فـي الطاعة، للاتفاق على أنّ إسلام أبي بكر كان بعد إسلام ثلاثة أو أربعة[١١]، وإسلام عمر كان بعد إسلام تسعة وثلاثين أو أربعين من الصحابة، مع أنّه روى الجمهور عن ابن عباس، أنّه قال: سابق هذه الامة علي بن أبي طالب عليه السلام[١٢].

وقال فضل بن روزبهان الناصب: جاء في رواية أهل السنّة: «سباق الأُمم ثلاثة: مؤمن آل فرعون، وحبيب النجّار، وعلي بن أبي طالب»[١٣]. وفيما رواه الفخر الرازي: «هو أفضلهم»[١٤].

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٩٠.　　٢. تفسير الرازي ٢٩: ١٤٥.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ١٤٦، تفسير روح البيان ٩: ٣١٨، وفي النسخة: تأكيد الأول.
٤ و٥. تفسير روح البيان ٩: ٣١٨.　　٦. تفسير روح البيان ٩: ٣١٨.
٧. تفسير الرازي ٢٩: ١٤٦.　　٨. تفسير الرازي ٢٩: ١٤٢　　٩. في تفسير روح البيان: خربيل.
١٠. تفسير روح البيان ٩: ٣١٨.
١١. وروى الطبري مسنداً عن محمد بن سعد، قال: قلت لأبي: أكان أبو بكر أولكم إسلاماً؟ فقال: لا، ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين. تاريخ الطبري ٢: ٣١٦.
١٢. نهج الحق: ١٣/١٨١، مناقب ابن المغازلي: ٣٦٥/٣٢٠، الصواعق المحرقة: ٢٩/٢٥، ينابيع المودة: ٦٠، مناقب الخوارزمي: ٢٠، شواهد التنزيل ٢: ٩٢٤/٢١٣ ـ ٩٣١.　　١٣. إحقاق الحق ٣: ١٢١.
١٤. تفسير الرازي ٢٧: ٥٧.

وعن الباقر عليه السلام: «السابقون أربعة: ابن آدم المقتول، وسابق أمّة موسى وهو مؤمن آل فرعون، وسابق أمّة عيسى وهو حبيب النجّار، والسابق في أمّة محمد وهو علي بن أبي طالب عليه السلام»[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «﴿ٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فيّ نزلت»[٢].

وعنه عليه السلام قال: «خلق الله الناس على ثلاث طبقات، وأنزلهم ثلاث منازل، وذلك قول الله: (اصحاب الميمنة واصحاب المشئمة والسابقون) وأمّا السابقون فهم أنبياءٌ مرسلون وغير مرسلين، جعل الله فيهم خمسة أرواح: رُوح القُدُس، وبها بعثوا أنبياء مرسلين وغير مرسلين، وبها عَلِموا الأشياء، ورُوح الايمان وبها عَبَدوا الله، ولم يُشركوا به شيئاً، وروح القوّة وبها جاهدوا عدوّهم وعالجوا معاشهم، وروح الشهوة وبها أصابوا لذيذ الطعام، ونكحوا الحلال من شباب النساء، وروح البدن وبها دبّوا ودرجوا، وأمّا أصحاب الميمنة، وهم المؤمنون حقّاً، جعل الله فيهم أربعة أرواح: روح الايمان، وروح القوة، وروح الشهوة، وروح البدن -إلى أن قال - ﴿وَأَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ﴾ فهم اليهود والنصارى ... جحدوا ما عرفوا، فسلبهم الله تعالى روح الايمان»[٣] ورُوي عن الصادق عليه السلام ما يقرُب منه[٤].

وعن (الامالي) عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «قال جَبْرئيل: ذلك عليّ وشيعته هم السابقون إلى الجنّة، المقربون الى الله بكرامته [لهم]»[٥].

وعن الباقر عليه السلام - في حديث -: «نحن السابقون السابقون إلى الجنّة، ونحن الآخرون»[٦].

وعن الصادق عليه السلام قال: «قال أبي لأناسٍ من الشيعة: أنتم شيعة الله، وأنتم أنصار الله، وأنتم السابقون الأولون، والسابقون الآخرون، والسابقون في الدنيا إلى ولايتنا، والسابقون في الآخرة إلى الجنّة»[٧].

فِى جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ[١٢-١٩]

ثمّ قدّم سبحانه ذكر حال السابقين بقوله: ﴿فِى جَنَّاتِ﴾ والتقدير: هم كائنون أو مستقرّون في جناتٍ مشتملةٍ على ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ وأنواع اللذات الجسمانية والروحانية، وهم ﴿ثُلَّةٌ﴾ وجماعة عظيمة

---

١. مجمع البيان ٩: ٣٢٥، تفسير الصافي ٥: ١٢٠.
٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٨٨/٦٥، تفسير الصافي ٥: ١٢٠.
٣. الكافي ٢: ٢١٤/١٦.
٤. الكافي ١: ٢١٣/١، تفسير الصافي ٥: ١٢٠.
٥. أمالي الطوسي: ١٠٤/٧٢، تفسير الصافي ٥: ١٢٠.
٦. كمال الدين: ٢٠٦/٢٠، تفسير الصافي ٥: ١٢٠.
٧. الكافي ٨: ٢١٣/٢٥٩، تفسير الصافي ٥: ١٢٠.

﴿مِنَ﴾ المؤمنين ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من لدن آدم عليه السلام إلى بعث الخاتم ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ﴾ المؤمنين ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ من أُمّة خاتم النبيين، كلّهم قاعدون في الجنّة ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ ومجالسٍ مرتفعةٍ من الأرض مُعدّةٍ لحال السرور، وتُجعَل للملوك ﴿مَوضُونَةٍ﴾ ومنسوجةٍ بعضها على بعض، أو منسوجة بالحرير، أو باليواقيت والجواهر، أو بالذهب.

قيل: قوائمها من الجواهر، وأرضها من الذهب[1]. عن ابن عباس: ألواحها من الذهب، مُكلّلة بالزّبَرجد والدُّرّ والياقوت، مرتفعة ما لم يجئ صاحبها، فاذا أراد صاحبها الجلوس عليها تواضعت حتى يجلس عليها، ثمّ تُرفَع إلى موضعها[2].

حال كونهم ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ ومعتمدين ﴿عَلَيْهَا﴾ كالملوك، وكونهم ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ ومتوجّهين بعضهم إلى بعضٍ ومستأنسين بعضهم ببعضٍ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ ويدور حولهم للخدمة ﴿وِلْدَانٌ﴾ وغِلمان ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ ومُبقون على شَكْلهم وطَرواتهم أبداً.

قيل: إنّهم مخلوقون [للخدمة] في الجنة[3]، والمخلّدون بمعنى مُقرّطون، أو مُسوّرون[4].

وقيل: إنّهم أطفال المشركين[5]، عن النبي صلى الله عليه وآله: «أولاد الكفّار خُدّام أهل الجنّة»[6].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «هم أولاد أهل الدنيا»[7].

ويكون طوافهم ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ وأوانٍ - لا عُروة لها ولا خُرطُوم - من الذهب والجواهر. وقيل: إنّها الأقداح الكبيرة[8] ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ وأوانٍ لها عُرى وخُرطُوم تُبرِق من صفائها ﴿وَكَأْسٍ﴾ مملوءٍ من خمرٍ جارية ﴿مِن مَعِينٍ﴾ ومنبع في الجنّة.

وقيل: إنّ المعنى كأسٌ مملوءٌ من خمر ظاهره يُعايَن بالأبصار[9]، وجمع الأكواب والأباريق للدلالة على الكَثرة، وإفراد الكأس لعدم حاجة شخصٍ واحدٍ إلى أكثر من واحدٍ.

قيل: إنّه يُصَبّ الخمر من الأكواب في الأباريق، ومن الأباريق في الكأس[10].

ثمّ وصف سبحانه خمر الجنة بقوله: ﴿لَا يُصَدَّعُونَ﴾ ولا يُصيبهم وَجَع الرأس المُسبّب منها الصادرة ﴿عَنْهَا﴾ كما يُصيبهم ذلك من خمر الدنيا ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ ولا يَسْكَرون.

عن ابن عبّاس: في الخمر أربعة خِصال: السُّكر، والصُّداع، والقَيء، والبول، وليست في خمر

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ١٤٩. ٢. تفسير القرطبي ١٧: ٢٠٢. ٣. مجمع البيان ٩: ٣٢٧.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٣٢١.
٥. مجمع البيان ٩: ٣٢٧، تفسير الصافي ٥: ١٢١، تفسير روح البيان ٩: ٣٢١. ٦. تفسير روح البيان ٩: ٣٢١.
٧. مجمع البيان ٩: ٣٢٧، تفسير الصافي ٥: ١٢١. ٨. مجمع البيان ٩: ٣٢٧، تفسير الرازي ٢٩: ١٥٠.
٩. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٢. ١٠. تفسير الرازي ٢٩: ١٥٠.

الجنّة، بل هي لذّة بلا أذى[١]. وقيل: (لا ينزفون) بمعنى لا يفقِدون الشراب[٢].

وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[٢٠ـ٢٤]

ثمّ لمّا كان دأب شاربي خمر الدنيا أكل شيءٍ بعد الشرب من فاكهةٍ أو لحمٍ أو غيرهما، ممّا يُغيّر الذائقة، وساقي الخمر يأتي للشارب بعد الشُّرب بأحد الاشياء اللذيذة، عطف سبحانه على قوله: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ بقوله ﴿وَفَاكِهَةٍ﴾ وثمارٍ لذيذةٍ ﴿مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ ويختارون، مع أنّ كلّها خِيار ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾ من طيور الجنّة ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ وتميل إليه طباعهم مشوياً أو مطبوخاً ﴿وَ﴾ عندهم ﴿حُورٌ﴾ ونساءٌ بيضٌ، أو شديد بياض عيونهنّ[٣] وسوادها ﴿عِينٌ﴾ وواسعات الأحداق وهنّ في الصفاء والبياض ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ﴾ والدُّر ﴿الْمَكْنُونِ﴾ والمخزون في الصدف لم تَمسّه الأيدي، ولم تَرَه الأعين، أو المصون ممّا يضُرّ بصفاته وشدّة بياضه، وإنّما نُنعم عليهم بتلك النِّعم العِظام لكونها ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الحسنة الصالحة.

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلَا تَأْثِيماً * إِلَّا قِيلاً سَلَاماً سَلَاماً * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً * عُرُباً أَتْرَاباً * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ[٢٥ـ٤٠]

ثمّ ذكر سبحانه ما تلتذ به اسماعهم في الجنّة بقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً﴾ وباطلاً، وكلاماً لا ينتفع ولا يُعتدّ به ﴿وَلَا تَأْثِيماً﴾ وكلاماً فيه نسبتهم إلى الباطل والمعصية، كقول: أنت فاسق أو سارق، أو شارب خمر مُحرّم، كما قيل[٤].

وعن ابن عباس، قال: لا يقول بعضهم لبعض: أثِمت[٥].

وعن القمي: يعني الفُحش والكَذِب [والغناء][٦].

والحاصل أنّه ليس في الجنة كلام لغوٍ ولا مُؤلمٌ لا مُحقّقاً ولا فرضاً ﴿إِلَّا قِيلاً﴾ وكلاماً مفروض

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٢.
٢. تفسير الرازي ٢٩: ١٥٢، تفسير روح البيان ٩: ٣٢٢.
٣. في النسخة: شديدة بياض عيونهم.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ١٥٨ و١٥٩.
٥. مجمع البيان ٩: ٣٢٨.
٦. تفسير القمي ٢: ٣٤٨، تفسير الصافي ٥: ١٢٢.

اللغوية على الفرض المُحال، وهو قول بعضٍ لبعضٍ عند الملاقات في الجنة، أو حين التوجه، أو قول الملائكة لهم: سلّمت ﴿سَلاماً﴾ أوسلّمك الله ﴿سَلاماً﴾.

وقيل: إنّ الاستثناء منقطعٌ، والمعنى: ولكن يسمعون سلاماً بعد سلامٍ[١] من الله، كما قال سبحانه ﴿سلام قولاً من ربّ رحيم﴾[٢] أو من الملائكة، كما قال تعالى: ﴿يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم﴾[٣] أو بعضهم على بعض، كما قال تعالى: ﴿فسلام لك من أصحاب اليمين﴾[٤] أو المراد أنّهم يُفشون السلام، أو لا يسمع المُسلِّم والمُسلَّم عليه إلّا السلام بدءاً ورداً[٥].

ثمّ شرع سبحانه في بيان حسن حال اصحاب الميمنة بقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ﴾ وما تَدرون ﴿مَا أَصحَابُ ٱليَمِينِ﴾ وأيّ اشخاص هم في العظمة والكرامة عند الله؟ هم يوم القيامة متمكّنون ﴿فِي﴾ جنةٍ ذات ﴿سِدرٍ﴾ وشجر نَبقٍ، وهو عزيز عند العرب، ورَقه في غاية الصِّغر، وثمره محبوبٌ عندهم، ولكن يخالف سِدر الدنيا في أنّ له شوكاً كثيراً يكسر وَرَقه، ولولاه لكان أصفى الشجر عند العرب لكَثرة أوراقه، ودخول بعضها في بعضٍ، وسِدر الجنة بلا شوك، وهو معنى ﴿مَخْضُودٍ﴾ على ما قيل[٦]. وقيل: إنّ معنى مخضود منعطف الأغصان إلى الأسفل لكثرة ثمره[٧].

﴿وَ﴾ ذات ﴿طَلحٍ﴾ وشجر موز ورقه في غاية الكِبر و﴿مَنضُودٍ﴾ بعضه فوق بعضٍ بحيث لا يكون فصل بين أوراقه. وقيل: منضود حَمْله وراكب بعضه على بعض من أسفله إلى أعلاه، ليس له ساق بارز[٨].

وقيل: الطلح: شجر أُمّ غيلان، له أنوار كثيرة منتظمة طيبة الرائحة، تقصِد العرب منه النُّزهة والزِّينة[٩].

وعن مجاهد: كان لأهل الطائف وادٍ معجب، فيه الطَّلح والسِّدر، فقالوا: يا ليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي، فنزلت هذه الآية[١٠].

﴿وَ﴾ ذات ﴿ظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ عريض لا ينتقص أبداً، كظلّ ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

رُوى أنّ أوقات الجنة كغُدرات الصيف لا يكون فيه حر ولا برد[١١].

وفي الحديث: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»[١٢].

وعن الباقر عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث يصف أهل الجنة قال: «ويتنعمون في جنّاتهم في ظلٍّ ممدودٍ في مثل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وأطيب من ذلك»[١٣].

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٣.
٢. يس: ٥٨/٣٦.
٣. الرعد: ٢٣/١٣ و٢٤.
٤. الواقعة: ٩١/٥٦.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ١٩٢، تفسير روح البيان ٩: ٣٢٤.
٦ ـ ١٠. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٤.
١١. مجمع البيان ٩: ٣٣٠.
١٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٥.
١٣. الكافي ٨: ٦٩/٩٩، تفسير الصافي ٥: ١٢٣.

وقيل: إنّ الظّل الممدود كناية عن الراحة الدائمة[١].

﴿وَ﴾ ذات ﴿مَاءٍ﴾ كثيرٍ ﴿مَسكُوب﴾ ومصبوبٍ من فوق أينما شاء، وكيفما أراد، فانّ العرب لم يكن لهم مياهٌ ساكبةٌ من العيون التي في الجبال، بل كان مياههم في الآبار والبِرَك.

وقيل: إن المسكوب بمعنى الجاري في غير أُخدود[٢]. وقيل: إنّه كنايةٌ عن الكَثرة[٣]، لأنّ الماء لعزّته عند العرب لا يُسكَب ولا يُراق، بل يُحفظ ويُشرَب.

﴿وَ﴾ ذات ﴿فَاكِهَةٍ﴾ دائمةٍ مبذولةٍ ﴿كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ﴾ ومعدومةٍ في وقت من الأوقات كفواكه الدنيا صيفيها لا يكون في الشتاء، وشتويها لا يكون في الصيف ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ عن أهلها بسبب من الأسباب.

وفي الحديث: «ما قُطِعت ثمرةٌ من ثِمار الجنّة إلّا أبدل الله مكانها ضِعفين»[٤].

وعن النبي ﷺ قال: «لمّا دخلتُ الجنة رأيت في الجنة شجرة طُوبى أصلها في دار علي، وما في الجنة قصرٌ ولا منزلٌ إلّا وفيها فنن [منها] عليها[٥] أسفاط حُللٍ من سُندسٍ واستبرق، يكون للعبد المؤمن ألف ألف سَفَط، وفي كلّ سَفَطٍ مائة حُلّة، وما فيها حُلّة تشبه الاخرى، على ألوانٍ مختلفةٍ، وثياب أهل الجنّة وسطها ظلّ ممدود في عرض الجنة، وعَرض الجنة كعَرض السماء والأرض أُعدّت للذين آمنوا بالله ورسله، يسير الراكب في ذلك الظلّ مسيرة مائتي عام فلا يقطعه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ وأسفلها ثمار أهل الجنة وطعامهم متدلٍ في بيوتهم، يكون في القضيب منها مائة لونٍ من الفاكهة ممّا رأيتم في دار الدنيا وممّا لم تَرَوه وما سمعتم به وما لم تسمعوا مثلها[٦]، وكلّما يُجتنى منها شيءٌ نبتت مكانها أُخرى لا مقطوعة ولا ممنوعة»[٧].

﴿وَ﴾ ذات ﴿فُرُشٍ﴾ وبُسط ﴿مَرفُوعةٍ﴾ القدر على السرر، أو بعضها على بعضٍ من الحرير والدِّيباج، بألوانٍ مختلفةٍ، وحشوها المِسك والعنبر والكافور، رواه في (الكافي)[٨] عن النبي ﷺ في حديث صفة أهل الجنّة.

وقيل: ارتفاعها كما بين السماء والأرض[٩].

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٥.
٢. مجمع البيان ٩: ٣٣٠، تفسير أبي السعود ٨: ١٩٣، تفسير روح البيان ٩: ٣٢٥.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ١٦٤، تفسير روح البيان ٩: ٣٢٥.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٥.
٥. في النسخة: وفيها قتر عليها، وفي تفسير القمي: وفيها فرع منها أعلاها.
٦. في تفسير الصافي: تسمعوه منها.
٧. تفسير القمي ٢: ٣٣٦، تفسير الصافي ٥: ١٢٣.
٨. الكافي ٨: ٩٧/٦٩، تفسير الصافي ٤: ٣١٨، و٥: ١٢٤.
٩. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٥.

وقيل: إنّ الفُرش كنايةٌ عن الأزواج[١]، وارتفاعهنّ كونهنّ على الأرائك، أو رفعتهنّ في الجمال والكمال، ويُؤيده إرجاع الضمير إليهنّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ وخلقناهنّ بغير ولادة ﴿إِنشَاءً﴾ وخَلقاً عجيباً.

وقيل: إن الفُرش بمعناه[٢]، ولمّا كان الفرش التي هي المضاجع دليلة بالألتزام على الأزواج، ذكر أوصافهنّ بلا تصريحٍ بذكرهنّ إشعاراً بصونهن وتخدّرهن.

وقيل: إنّ المراد بهنّ حُور العين، كما عن القمي وبعض مفسري العامة[٣].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل من أي شيءٍ خلقن الحور العين؟ قال: «من تُربة الجنّة النورانية»[٤].

وقيل: إنّ المراد نساء الدنيا، والمراد من إنشائهنّ إعادة خلقهنّ في الآخرة، لقوله تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾[٥] ولو كان المراد حُور العين كان ذلك الوصف توضيح الواضح.

وفي الحديث: «هنّ اللواتي قُبِضن في دار الدنيا عجائز شُمطاً رُمصاً، جعلهن الله بعد الكِبر أتراباً على ميلادٍ واحدٍ في الاستواء، كلّما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكاراً»...الخبر[٦].

ورُوى أنّه قالت عجوز من بني عامر: يا رسول الله، ادعُ الله أن يُدخلني الجنّة. فقال صلى الله عليه وآله مزاحاً: «يا أمّ فلان، إنّ الجنّة لا يدخُلها عجوز» فولّت وهي تبكي، فقال صلى الله عليه وآله: «أخبروها أنّها لست يومئذٍ بعجوزٍ» وقرأ: ﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾[٧].

﴿عُرُباً﴾ متحنّنات إلى أزواجهنّ، ومتحبّبات إليهم.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سئل عن العروبة[٨] فقال: «هي الغَنجة الرضية الشهية»[٩].

وعن القمي، قال: يتكلّمن بلسان العربية[١٠]. وقال به بعض مفسري العامة[١١].

﴿أَتْرَاباً﴾ ومستويات في السنّ لأزواجهن، أو بعضهم لبعضٍ، لا تفاوت بينهنّ بصِغر ولا كِبر، كلّهنّ بنات ثلاث وثلاثين سنة، أو متماثلات في النّظر إليهنّ. وقيل: يعني متساويات في السن[١٢] ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ كما ذكرنا لا يُعيّرون ازواجهنّ بكِبر السنّ وعلى التفسيرين الأولين قوله: ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ متعلق بقوله: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ والمعنى خلقناهنّ لأصحاب اليمين.

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ١٩٣، تفسير روح البيان ٩: ٣٢٥.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٥.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٤٨، تفسير الصافي ٥: ١٢٤.
٤. تفسير القمي ٢: ٨٢، تفسير الصافي ٥: ١٢٤.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٦.
٦. جوامع الجامع ٤٧٨، تفسير روح البيان ٩: ٣٢٥.
٧. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٦.
٨. في النسخة: العربي.
٩. تفسير الصافي ٥: ١٢٤.
١٠. تفسير القمي ٢: ٣٤٨، تفسير الصافي ٥: ١٢٤.
١١. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٦.
١٢. تفسير الرازي ٢٩: ١٦٦، تفسير أبي السعود ٨: ١٩٤.

ثمّ لمّا نزل قوله في السابقين السابقين ﴿ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقليل مِنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ بكى بعض الصحابة وقال: يا نبي الله، نحن آمنا بك صدّقناك، ولا ينجو منّا إلا قليل! فنزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[1].

قيل: إنّ الثُّلّتين من أمّة نبينا ﷺ، الثلة الأُولى الذين كانوا في زمانه، والثُلّة الأُخرى الذين جاءوا بعد زمانه[2].

وفي الحديث: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنّة؟» قالوا: نعم قال: «أترضون أن تكونوا ثُلث أهل الجنة؟» قالوا: نعم، قال: «والذي نفس محمدٍ بيده إنّي لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنّة»[3].

وفي رواية عنه ﷺ: «إنّ جميع الثُّلّتين من اُمّتي»[4].

أقول: الأظهر أنّ المراد من الأولين أُمم الأنبياء السابقين من آدم إلى زمان خاتم النبيين، ومن الآخرين اُمّة نبينا ﷺ، كما قلنا أولاً، لوضوح أنّ في سائر الأُمم أصحاب اليمين أيضاً، كما أنّ فيهم السابقين، ولدلالة قوله: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنّة» ولما روي عنه ﷺ أنه قال: «إني لأرجو أن تكونوا شَطْر أهل الجنّة» ثمّ تلا هذه الآية»[5]، لوضوح أنّ النصف الآخر والشطر الآخر لابدّ أن يكون من سائر الأُمم.

وَأَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِن يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ[٤١ـ٤٤]

ثمّ ذكر سبحانه سوء حال الفرقة الثالثة الذين عبّر سبحانه عنهم أولاً بأصحاب المشأمة، لأنّ فساد الدنيا إنّما هو لشؤم كفرهم وعِصيانهم، وعبّر عنهم هنا بقوله: ﴿وَأَصْحَابُ ٱلشِّمَالِ﴾ قيل: لكونهم في شِمال العرش[6]. وقيل: في شمال المحشر. وقيل: لإعطاء كتاب أعمالهم بشمِالهم[7] فيه.

وما تدرون ﴿مَا أَصحَابُ ٱلشِّمَالِ﴾ وأيّ شيءٍ هم في الذلّة وسوء العاقبة والحال في الآخرة وشدّة العذاب؟ أولئك الملعونون في القيامة مستقرّون ﴿فِى سَمُومٍ﴾ ونارٍ نافذٍ في ثَقْب أجسادهم ومنافذ أبدانهم. وقيل: إنّ السّموم ريحٌ حارةٌ عَفِنة قتّالة ﴿وَ﴾ في ﴿حَمِيمٍ﴾ وماءٍ بالغ منتهى الحرارة ﴿وَ﴾ في ﴿ظِلٍّ﴾ وفيء ﴿مِن﴾ جنس ﴿يَحْمُومٍ﴾ ودخانٍ أسود كالفحم، أو ظلّ ناشئ من نارٍ

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٠.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٧.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٣٢٠.
٤. مجمع البيان ٩: ٣٣١، تفسير الصافي ٥: ١٢٥.
٥. مجمع البيان ٩: ٣٣٢، تفسير الصافي ٥: ١٢٥، تفسير روح البيان ٩: ٣٢٧.
٦. لم نعثر عليه.
٧. مجمع البيان ٩: ٣٣٣، تفسير أبى السعود ٨: ١٩٤، تفسير الرازي ٢٩: ١٦٨.

سوداء. وقيل: إنّ يحموم من أسماء جهنّم[١].

ولمّا كان الظلّ مطلوباً لبرده واستفادة الراحة فيه، وصف الظلّ بضدّ ما يكون مطلوباً له بقوله: ﴿لا بَارِدٍ﴾ ذلك الظلّ ﴿وَلا كَرِيمٍ﴾ ونافع ومريح من أذى الحرّ.

قيل: لمّا كان المُترفون والمتنعمون يطلُبون أحسن الأهوية، وأعذب المياه وأبردها[٢]، القعود في الظلال، بيّن سبحانه أنّهم إذا طلبوا الهواء الطيب يهُبّ عليهم السَّموم، وإذا أرادوا دفع حُرقته بالماء البارد كان ماؤهم حميماً، وإذا أرادوا أن يستكنوا ويدفعوا عن أنفسهم السَّموم يكونون في ظلّ من يَحْمُوم.

وقيل: إنّ السموم يُحرقهم فيعطشون، فيشربون من الحميم فيُقطّع أمعاءهم، ويستظلّون منه، فيكون ظلّهم من يَحموم[٣].

إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنْثِ ٱلْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَ آبَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّالُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ[٤٥ـ٥٥]

ثمّ بيّن سبحانه سبب استحقاقهم ذلك العذاب بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذٰلِكَ﴾ اليوم في الدنيا ﴿مُتْرَفِينَ﴾ ومتنعّمين بالنِّعم الدنيوية فألهتهم عن ذكر الله وكفروا نعمه ﴿وَكَانُوا﴾ مع ذلك ﴿يُصِرُّونَ عَلَى ٱلحِنْثِ﴾ والذنب ﴿ٱلعَظِيمِ﴾ وهو الشِّرك بالله العظيم، ويكذّبون الأنبياء الذين يدعونهم إلى التوحيد والإقرار بالمعاد ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ﴾ إنكاراً لهم واستبعاداً لقولهم بالبعث بعد الموت: ﴿ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا﴾ بعد الموت ﴿تُرَاباً وَعِظَاماً﴾ نَخِرةً باليةً ﴿ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ من القبور، ومُخرَجون منها أحياءً؟ ﴿أَوَ﴾ يبعث ﴿آبَاؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ وأجدادنا السابقون بعد تفرّق أجزاء تُرابهم في أقطار الأرض، واختلاطها بغيرها من التراب؟ وفي إعادة الاستفهام مبالغة في الإنكار.

ثمّ أمر الله سبحانه نبيّه ﷺ بردّهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: نعم ﴿إِنَّ﴾ الأمم ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والسابقين من لدُن آدم إلى زمانكم هذا ﴿وَ﴾ الأمم ﴿ٱلآخِرِينَ﴾ الذين يأتون إلى يوم فَناء الدنيا

١. مجمع البيان ٩: ٣٣٣، تفسير أبي السعود ٨: ١٩٤، تفسير الرازي ٢٩: ١٦٨.
٢. مجمع البيان ٩: ٣٣٣، تفسير أبي السعود ٨: ١٩٤، تفسير الرازي ٢٩: ١٦٨.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ١٦٨.

﴿لَمَجمُوعُونَ﴾ بعد الاحياء في المحشر، ومبعوثون لا محالة ﴿إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ﴾ ووقت واحدٍ معينٍ ﴿مَعلُومٍ﴾ عند الله لا يعلمه غيره، وهو يوم القيامة.

﴿ثُمَّ﴾ بعد الإحياء والبعث ﴿إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّالُّونَ﴾ عن طريق الحقّ والمنحرفون عن مسلك الصواب ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ للرسل إخبارهم بالبعث بعد الموت، والله ﴿لَآكِلُونَ﴾ بعد البعث والجمع ودخول جهنّم ﴿مِن شَجَرٍ﴾ من أشجار جهنّم، أعني ﴿مِن﴾ شجر ﴿زَقُّومٍ﴾ وهو شجر كريه المنظر، مرّ الطعم، حار في اللّمس مُنتِن في الرائحة، ولا يقنع منه بالأكل من تلك الأشجار والثمار، بل يُجبَرون على الإكثار من أكلها ﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا﴾ كرهاً ﴿ٱلْبُطُونَ﴾ أو لشدّة الجوع، فيعطَشون من حرارة الزَّقُّوم وحُرقته ﴿فَشَارِبُونَ﴾ أنتم بعد أكله ﴿عَلَيْهِ﴾ شراباً ﴿مِنَ الحَمِيمِ﴾ والماء الحار البالغ منتهى الحرارة ﴿فَشَارِبُونَ﴾ أنتم منه كرهاً وجبراً ﴿شُرْبَ ٱلهِيمِ﴾ والجِمال التي بها داء الاستسقاء، لا تروي من الماء حتى تموت، أو مثل شرب الرمال التي لا تتماسك.

عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن الهِيم، قال: «الابل»[1] وفي رواية: «إنّه الرّمل»[2].

وحاصل المعنى على ماقيل: أنّه يُسلّط عليكم أيّها الضالّون من الجُوع ما يضطرّكم إلى أكل الزقّوم الذي هو كالمُهل، فاذا ملأتم منه بطونكم، وهو في غاية المرارة والحرارة، سلّط عليكم من العطش مايضطرّكم إلى شُرب الحميم الذي يقطّع أمعاءكم ثمّ يُلزِمونكم على أن تشربوا منه، ولا يكون شُربكم شرباً معتاداً، بل يكون شُربكم مثل شُرب الجمل الذي به مرض العُطاش، أو مثل شرب كثيب الرّمل.

هٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ * نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلاَ تُصَدِّقُونَ * أَفَرَأَيْتُم ما تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ[٥٦ ـ ٥٩]

ثمّ بيّن سبحانه أن ما ذكر ليس جميع عذابهم، بل هو أوّل ما يَلْقَونه يوم القيامة بقوله: ﴿هٰـذَا﴾ المذكور ﴿نُزُلُهُمْ﴾ وأوّل ما يُهيّأ لهم ﴿يَومَ ٱلدِّينِ﴾ ووقت الجزاء على الضلال وتكذيب الرسل والبعث، وبعدما استقروا في الجحيم أشّد وأشقّ، وفيه من التهكّم ما لا يخفى، فانّ النُّزل ما يُعدّ تَكْرِمَةً للضيف أوّل وروده.

ثمّ أخذ سبحانه في الاستدلال على صحّة البعث وصدق الرسل في إخبارهم به بقوله: ﴿نَـحْنُ﴾

---

١. المحاسن:٣٢/٥٧٦ـ٣٤، معاني الأخبار: ٣/١٥٠، تفسير الصافي ٥: ١٢٦.

٢. المحاسن: ٣٦/٥٧٧، معاني الأخبار: ٣/١٥٠، تفسير الصافي ٥: ١٢٦.

بقدرتنا ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ أوّل مرة، فاذا علمتم ذلك ﴿فَلَولاَ تُصدِّقُونَ﴾ الرسل في قولهم بالبعث، وهلا تُقرّون بخلقكم ثاني مرّة؟ مع أنّه في نظركم أهون وأسهل، وإن أنكـرتم أنّكـم مـخلوقون بـقدرتنا، وقلتم: إنّا موجودون من المَنيّ بتأثير الطبيعة أو الكواكب فيه، نقول: ﴿أَفَرَأَيتُم﴾ وأخبروني عن ﴿مَا تُمنُونَ﴾ وتَدفُقون من المَنيّ في ارحام النساء، فانّه لابُدّ له من خالقٍ يخلُقه في أصلابكم ﴿ءَأَنتُمْ﴾ بقدرتكم ﴿تَخلُقُونَهُ﴾ في أصلابكم ﴿أَمْ نَحنُ ٱلخَالِقُونَ﴾ لذلك المنيّ من غير دخل شيءٍ في خلقه وتقديره في الأصلاب وأطواره وتصويره في الأرحام؟ لا مجال لأحدٍ إلاّ القول بأنّا خالقه، وإلا لتسلسل، فمن خلقه وصوّره في ظلمات ثلاث وأحياه، قادرٌ على إحيائكم ثانياً بعد موتكم.

نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَن نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِأَكُمْ فِى مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلأُولَىٰ فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ[٦٠ ـ ٦٢]

ثمّ إنّه تعالى بعد إثبات أن الخلق بقدرته، لا دخل لأحدٍ فيه، أثبت أنّ الموت أيضاً بقدرته، ليس قدرته على الخلق والإحياء فقط، بل الحياة والموت كلاهما بقدرته وإرادته بقوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾ وجعلنا، أو قسّمنا ﴿بَيْنَكُمُ ٱلمَوتَ﴾ بقدرتنا ومشيئتنا المبنية على الحكم البالغة ﴿وَمَا نَحنُ﴾ في آن من الآنات ﴿بِمَسبُوقِينَ﴾ وغير قادرين ﴿عَلَىٰ أَن﴾ نُعدِمكم ونُميتكم و﴿نُبَدِّلَ﴾ منكم ﴿أَمثَالَكُمْ﴾ ونخلُق عوضاً منكم في مكانكم أشباهكم في الخلق.

وقيل: قوله: ﴿عَلَىٰ أَن نُبَدِّلَ﴾ متعلق بقوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلمَوتَ﴾[1] والمعنى: نحن قدّرنا بينكم الموت، لكن لا بأن نهلِككم دُفعةً واحدةً، بل قدّرنا بأن نُميتكم ونجعل بـدلكم فـي الأرض مثلكم مدّة طويلةً ثم نهلِككم جميعاً ﴿وَنُنشِأَكُمْ﴾ ونخلُقكم ثانياً ﴿فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مـن الوقت والزمان وفيه تحريض على الايمان والعمل الصالح، والإعداد ليومٍ لا يُعلم وقوعه في أي وقت.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلأُولَىٰ﴾ والخلق الأول في دار الدنيا، حيث إنّه خلقكم أولاً من تُرابٍ، ثمّ من نُطفةٍ، ثمّ من عَلقةٍ، ثمّ من مُضغةٍ ثمّ جعلكم عظاماً، ثمّ كسا العظام لحماً، ثمّ جعلكم خلقاً ذا حـياة وقوة وقدرة وشعور ﴿فَلَولَا﴾ وهلّا ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ وتعتبرون أنّ من قَدِر عليها قَدِر على النشأة الأُخرى والخلق الآخر؟

في الخبر: «عجباً كـلّ العـجب للـمكذّب بـالنشأة الآخـرة، وهـوى يـرىٰ النشأة الأُولىٰ»[2]. وعـن

---

١. تفسير الرازي ٩: ١٧٩.

٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٣١.

السجاد عليه السلام ما يقرُب منه[١].

أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّارِعُونَ[٦٣ـ ٦٤]

ثمّ إنّه تعالى بعد الاستدلال على المعاد بقدرته على الخلق الأول، استدلّ بقدرته على خلق ما يحتاجون إليه في بقائهم من المأكول بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ وأخبروني عمّا تبذُرون من الحبوب كالحنطة والشعير ونحوهما ﴿ءَأَنتُمْ﴾ بقدرتكم ﴿تَزرَعُونَهُ﴾ وتُنبتونه من الأرض، وتبلغونه إلى الثمر المقصود ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّارِعُونَ﴾ والمُنبتون له من الأرض، والمُبلغون له إلى الثمر بحيث تنتفعون به وتأكلونه؟

في الحديث «لا يقولنّ أحدكم: زرعت، بل يقول: حرثت، فانّ الزارع هو الله تعالى»[٢].

قيل: يُستحبّ لمن ألقى في الأرض بَذراً أن يقرأ بعد الاستعاذة: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ إلى قوله: ﴿بل نحن محرومون﴾[٣] ثمّ يقول الله الزارع والمُنبِت والمُبلغ اللهم صلّ على محمد وآل محمد، وارزُقنا ثَمَره، واجنبنا ضرَرَه، واجعلنا لأنْعُمك من الشاكرين فانّ الدعاء أمانٌ لذلك الزرع من جميع الآفات[٤].

وحاصل الآية أنّ من قَدِر على إنبات الزرع من الأرض، قادرٌ على خلق الانسان من النُّطفة المستديرة الباقية في القبر.

لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَاءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ[٦٥ـ ٧٠]

ثمّ استدلّ سبحانه على قدرته على حفظ الزرع إلى بلوغ الثمر بقوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ بعد إنبات الزرع واستوائه على سُوقه ﴿لَجَعَلْنَاهُ﴾ وصيّرناه ﴿حُطَاماً﴾ ويابساً منكسراً متفتّتاً ﴿فَظَلْتُمْ﴾ وبقيتم بسبب فساد زرعكم ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ وتتحدّثون بعجيب ما رأيتم من فساد الزرع بعد ما كان على أحسن الحال من النمو والاشراف على الثمر، أو تندمون على ما انفقتم فيه، وما بذلتم فيه من غاية الجُهد، وتقولون: يا قوم ﴿إِنَّا لَمُغرَمُونَ﴾ ومتضرّرون بفساد زرعنا أو مُهلَكون بهلاك رزقنا ﴿بل نحن محرومون﴾ من

---

١. الكافي ٣: ٢٨/٢٥٨، تفسير الصافي ٥: ١٢٧.

٢. مجمع البيان ٩: ٣٣٧، تفسير الصافي ٥: ١٢٧، تفسير روح البيان ٩: ٣٣٢.

٣. الواقعة: ٦٧/٥٦.

٤. تفسير روح البيان ٩: ٣٣٢.

حظّنا، وممنوعون من رزقنا.

ثمّ استدلّ سبحانه على قدرته الكاملة بإنزال ما يشربونه من الماء العذب بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَاءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ وأخبروني عنه ﴿ءَأَنتُمْ﴾ بقدرتكم ﴿أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ والسّحاب المتّصل بالماء ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ له بقدرتنا لشُربكم الذي هو أهمّ منافعكم، وبه بقائكم؟

ثمّ بالغ سبحانه فِي إظهار قدرته بقوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ﴾ عدم استقائكم ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ وصيّرناه ﴿أُجَاجاً﴾ ومُرّاً من شدّة المُلوحة، فلا يمكنكم شُربه ﴿فَلَوْلَا﴾ وهلّا ﴿تَشْكُرُونَ﴾ الله على إكمال نعمة مأكولكم بنعمة مشروبكم؟ قيل: تصدير جزاء الشرطية الأولى باللام للدلالة على أن سَلب نعمة المأكول أشدّ على [الانسان من سلب] نعمة المشروب، لكون الحاجة إلى المشروب تبعٌ للحاجة إلى المأكول[1].

عن ابن عباس: أنّ تحت العرش بحرٌ تنزل [منه] أرزاق الحيواناتن يُوحي الله إليه ما شاء من السماء إلى السماء، حتى ينتهي إلى سماء الدنيا، ثمّ يُوحي الله إلى سماء الدنيا أن غربليه فتُغربله، فليس من قطرةٍ تقطر إلّا ومعها مَلَك يضعها موضعها، ولا تنزل من السماء قطرةٌ إلّا بكيلٍ معلوم ووزن معلومٍ، إلّا ما كان من يوم الطُّوفان، فانّه نزل بغير كيلٍ ووزن[2].

أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ[٧١ـ٧٣]

ثمّ استدلّ سبحانه بالنار المنقدحة من الزّناد بقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ وأخبروني عن البَرقة التي تقدحونها وتُخرجونها من عودين يُحَك أحدهما بآخر ﴿ءَأَنتُم﴾ أيّها العرب ﴿أَنشَأْتُمْ﴾ وأوجدتم بقدرتكم ﴿شَجَرَتَهَا﴾ التي منها الزّند والزّندة، وهي المَرْخ والعَفَار[3]؟ وقيل: أُريد مطلق الشجر الذي يصلح للايقاد[4] ﴿أَمْ نَحنُ ٱلْمُنشِئُونَ﴾ والموجدون لها بقدرتنا؟

ثمّ بيّن سبحانه منافع النار بقوله: ﴿نَحنُ﴾ بقدرتنا وحكمتنا ﴿جَعَلْنَاهَا تَذكِرَةً﴾ ومنبهاً لصحة البعث، حيث إنّ من قدِر على إيداع النار في الشجر الأخضر، قادرٌ على أن يخلُق في بدن الميت حرارة غريزية يحيا بها الميت، أو تذكرةً لنار القيامة، فيخشى العاقل من عذاب ربّه إذا رأى النار الموقدة ﴿وَمَتَاعاً﴾ ومنفعةً مهمةً ﴿لِلمُقوِينَ﴾ والمسافرين الذين ينزلون البوادي والقِفار، فانّهم اشدّ

---

١ و٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٣٤.

٣. المَرْخ: شجرٌ سريع الوَرْي يُقْتَدح به. والعَفَار: شجر يُتّخذ منه الزّناد.

٤. تفسير الرازي ٢٩: ١٨٤.

حاجةً بالنار لحفظهم من السباع ودفع البرد وغير ذلك. وقيل: يعني للذين أوقدوها وقوّوها[١]، أو للذين خَلَت بطونهم، أو مزاودهم[٢] من الطعام، وفي تقديم التذكرة إشعار بأهمية المنافع العقلية من المنافع الجسمانية.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ[٧٤-٧٦]

ثمّ لمّا أثبت سبحانه التوحيد والمعاد، أمر نبيّه ﷺ بتنزيهه عن الشريك وترك إعادة الخلق للحساب بقوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ﴾ يا محمد ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ وذاته المقدسة عمّا لايليق به من الشريك، وخلق العالم عبثاً، وعدم إعادة الخلق للحساب والجزاء، وفي إضافة التسبيح إلى اسمه دلالةٌ على نهاية عظمة المُسمّى، والظاهر أنّ المراد أمر النبي ﷺ بتسبيح الله وإقران تسبيحه بذكر اسم ربّه العظيم، بأن يقول: سبحانه ربّي العظيم.

روي عن النبي ﷺ أنّه لمّا نزلت الآية قال: «اجعلوها في ركوعكم»[٣].

ثمّ إنّه تعالى بعد إثبات التوحيد والمعاد بالأدلة القاطعة، وكان ذلك دليلاً على صحّة نبوة نبينا ﷺ وصدق القرآن، ولم يبق مجالٌ للاستدلال عليهما لوضوحهما، أقسم سبحانه عليهما بقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ التي في السماء ومساقطها. قيل: هي مشارقها ومغاربها، أو مغاربها وحدها، أو منازلها وبروجها، أو مساقطها في اتّباع الشياطين، أو في القيامة حين انتشارها[٤].

وقيل: إنّ المراد بالنجوم معاني الآيات وأحكامها التي وردت فيها.

قيل: إن كلمة (لا) زائدة يُجاء بها لتأكيد القسم[٥]. وقيل: إنّ الأصل لأقسم بلام التأكيد، أُشبِعت فتحتها فصارت (لا)[٦] وقيل: إنّها نافية على أصلها[٧]، والمنفي محذوفٌ، والتقدير: فلا صحة لقول الكفار من انكار البعث، أو كون القرآن كلام البشر، أُقسم عليه بمواقع النجوم: وقيل: إنّ المعنى لا أُقسم لظهور الأمر ووضوحه[٨]، وإلا لكنتُ أُقسم بمواقع النجوم، وفيه دلالةٌ بناءً عليه على ظهور الأمر والحَلف عليه. وعن الصادق عليه السلام قال: «كان أهل الجاهلية يحلِفون بها، فقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾»[٩].

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ١٨٤.
٢. المزاود: جمع مِزوَد: وعاء الزاد.
٣. مجمع البيان ٩: ٣٣٩، تفسير الصافي ٥: ١٢٨.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ١٨٨.
٥ ـ٧. تفسير الرازي ٢٩: ١٨٧.
٨. تفسير أبي السعود ٨: ١٩٩، تفسير روح البيان ٩: ٣٣٦.
٩. الكافي ٧: ٤/٤٥٠، تفسير الصافي ٥: ١٢٨.

وعنهما عليهما السلام: «أن مواقع النجوم رُجومها للشياطين، فكان المشركون يُقسمون بها، فقال سبحانه: فلا اقسم بها»[١].

وقال الطريحي: في الحديث يعني به اليمين بالبراءة من الأئمة عليهم السلام، يحلِف بها الرجل، يقول: إنّ ذلك عند الله عظيم[٢]، وهو قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٣].

قيل: إنّ المعنى: ليس تركي للقسم بمواقع النجوم لأجل أنّه ليس بقسم[٤]، أو ليس بقسمٍ عظيم، بل لأنّي أُريد بتركي القسم به أن اقسم بأعظم منه لغاية جزمي بصحّة المقسم عليه[٥]، وإنّ القسم بمواقع النجوم عظيمٌ لو تعلمون عظمته، أو لو كنتم من أهل العلم لصدّقتموني[٦].

ولمّا كان المقسم به ـ وهو اختلاف مواقع النجوم ومغاربها ـ دليلاً على كمال قدرة الله، استدلّ بها بصورة القسم، كأنّ المعنى: لو تعلمون أنّ اختلافها ليس إلّا لكونها تحت قدرة القادر المختار الحكيم، لاعترفتم بمدلوله، وهو توحيد الله وقدرته على كلّ شيءٍ، ومنه حشر الأجساد البالية.

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِن رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ[٧٧ـ ٨٢]

ثمّ ذكر سبحانه المُقسَم عليه، وهو كون القرآن كلام الله بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرآنٌ﴾ متلوّ على النبي صلى الله عليه وآله من جانب الله، وهو ﴿كَرِيمٌ﴾ وذو فضلٍ عميمٍ ونفعٍ عظيمٍ في الدنيا والآخرة، لاشتماله على اُصول العلوم وصلاح المعاش والمعاد، أو حَسَن مرضيّ من الكتب، أو ذو كرامة عند الله، ولذا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو مكتوبٌ ﴿فِى كِتَابٍ مَكنُونٍ﴾ ومصونٍ عن أن تناله أيدي الثقلين، أو محفوظٍ عن التغيير والتبديل، أو مستورٍ عن أعين غير المقرّبين من الملائكة، وهو اللّوح المحفوظ، وفيه ردّ على المشركين القائلين بأنّه كلام البشر، أو شعر أ سحر وكِهانة.

ثمّ بالغ سبحانه في بيان عَظَمة شأنه عنده بقوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ من الأخباث والأحداث، وهم الملائكة المُنزهون عن الادناس الجسمانية، والمؤمنون المنظفون عن الأحداث البشرية.

---

١. مجمع البيان ٩: ٣٤١، تفسير الصافي ٥: ١٢٨.
٢. من لا يحضره الفقيه ٣: ١١٢٣/٢٣٧، تفسير الصافي ٥: ١٢٨.
٣. مجمع البحرين ٣: ١٩٦١ ـ وقع ـ
٤. تفسير الرازي ٢٩: ١٩٠.
٥. تفسير الرازي ٢٩: ١٩٠.
٦. تفسير الرازي ٢٩: ١٨٩.

عن الكاظم عليه السلام قال: «المُصحف لا تَمَسّه على غير طُهرٍ ولا جُنباً، ولا تَمَسّ خيطه، ولا تُعلّقه، إنّ الله تعالى يقول: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾»[1].

وفي (الاحتجاج): لمّا استخلف عمر سأل علياً عليه السلام أن يدفع إليهم القرآن فيُحرّفوه فيما بينهم، فقال: يا أبا الحسن، إن جئت بالقرآن الذي جئت به إلى أبي بكر حتى نجتمع عليه؟ فقال عليه السلام: «هيهات، ليس إلى ذلك سبيل، إنّما جئتُ به إلى أبي بكر لتقوم الحُجّة عليكم، ولا تقولوا يوم القيامة: إنّا كنّا عن هذا غافلين، أو تقولوا: ما جئتنا به، فانّ القرآن الذي عندي لا يَمَسّه إلّا المُطهّرون، وهم الأوصياء من ولدي. فقال عمر: فهل لإظهاره وقتٌ معلوم؟ فقال: نعم، إذا قام القائم من ولدي يُظهره ويحمل الناس عليه، فتجري السنة به»[2].

أقول: المراد من التحريف تغيير ما كتبه أمير المؤمنين من التفسير والتأويل، لا تغيير ألفاظ الآيات التي نزلت من السماء، ومن وقوله (لا يَمسّه إلّا المُطهّرون وهم الأوصياء) بيان تأويله وبطنه لا تنزيله.

وقيل: إنّه وصف الكتاب المكنون. وهو اللوح المحفوظ[3]، والأصحّ الأول، لقوله: ﴿تَنزِيلٌ﴾ ومُنزّل هذا القرآن ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ وفي نسبة تنزيله إلى ذاته مع توصيفها بربّ العالمين دلالةٌ على غاية عظمة القرآن المُنزّل منه، وكونه من شؤون ربوبيته لجميع الموجودات.

ثمّ وبّخ سبحانه المشركين على إهانتهم بهذا الكتاب العظيم بقوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الذي هو أحسن الحديث، وهذا القرآن الذي هو أعظم الكتب السماوية ﴿أَنتُم﴾ ايّها المشركون ﴿مُّدْهِنُونَ﴾ وتُكذّبون، أو تهينون ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ ومعاشكم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ محمداً وكتابه، أو المراد تجعلون شُكر رزقكم ونِعم ربّكم تكذيبكم بمن أنزله عليكم ورزقكم نِعمه بأن تَنسُبونها إلى الأنواء.

عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه قرأ الواقعة فقال: ﴿تجعلون شُكركم أنّكم تُكذّبون﴾ فلمّا انصرف قال: «إنّي قد عَرَفت أنّه سيقول قائل: لم قرأ هكذا قرأتها، لأني سَمِعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأها كذلك، وكانوا إذا أُمطروا قالوا: أُمطرنا بنَوء كذا، فأنزل الله تعالى: ﴿تجعلون شكركم انكن تكذبون﴾»[4].

وعن الصادق عليه السلام في الآية قال: ﴿وتجعلون شكركم﴾[5].

أقول: في الرواية العلوية دلالةٌ واضحةٌ على اشتهار قراءة ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ في الصدر الأول، فيمكن أن تكون قراءة ﴿شكركم﴾ تفسيراً للآية، كما فسّرها به كثيرٌ من المفسّرين، أو يكون نزول

---

١. التهذيب ١: ٣٤٤/١٢٧، تفسير الصافي ٥: ١٢٩.
٢. الاحتجاج: ١٥٦، تفسير الصافي ٥: ١٢٩.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ١٩٢.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٤٩، تفسير الصافي ٥: ١٢٩.
٥. تفسير القمي ٢: ٣٥٠، تفسير الصافي ٥: ١٣٠.

الآية على النحوين (رزقكم) و(شكركم).

والذي يهوّن الخطب أن الروايتين لا حُجّية فيهما، لكونهما أخبار آحاد، وغير قطعيتين، وعدم ترتّب عملٍ عليهما، بل عدم جوازه، لوضوح عدم حُرمة مسّ (شُكركم) إذا كتب بدل (رزقكم) وعدم جواز قراءته في الصلاة، أو في غير الصلاة بقصد القرآنية.

ومن المعلوم أنّ هذا النحو من الحذف والوصل كثيرٌ في القرآن المجيد، وقد ورد أنّ الآية توبيخٌ لمن نسب الأمطار والأرزاق إلى الأنواء، وهي منازل القمر، أو النجوم التي يسقُط واحدٌ منها عند طلوع الفجر في جانب المغرب، ويطلُع رقيبه من ساعته في جانب المشرق، وكانت العرب تنسُب الأمطار والرياح إلى الساقط أو إلى الطالع منها، وهو الشّرك بالله العظيم، وتكذيب لقوله: **﴿هو الذى ينزل الغيث﴾**[1] وقوله: **﴿أفرأيتم الماء الذى تشربون﴾**[2] إلى غير ذلك.

فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ[٨٣ـ٨٧]

ثمّ بيّن سبحانه أنّهم لا يبقون على ذلك التكذيب والقول بالأنواء عند الموت وحين انكشاف حقائق الأمور بقوله: **﴿فَلَوْلَآ﴾** وهلّا تقولون أيّها المشركون هذه الأقوال الشنيعة **﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾** أرواحكم **﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾** ومجرى النفس، وتداعت إلى الخروج من أبدانكم **﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾** إلى ما أنتم فيه من غَمَرات الموت، ولو كان ما تقولونه لكان الواجب أن تقولونه في ذلك الوقت الذي هو زمان ظهور الواقعيات ورفع حجاب الجهل والشُّبهات.

وقيل: إنّ الخطاب للحاضرين عند المحتضر[3]، والمعنى والحال أنّكم في ذلك الوقت حاضرون عند من بلغت الروح حلقه، وتنظرون إلى ما هو فيه من سَكَرات الموت، وتعطِفون عليه غاية العُطوفة، وتشتاقون إلى أن تُنجونه من الموت والهلاك **﴿وَ﴾** مع كمال قُربكم منه **﴿نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾** في تلك الحال، وفي جميع الأحوال علماً وقدرةً وتصرفاً، حيث إنّا متولّون لجميع أحواله **﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾** ولا تُدرِكون قُربنا إليه وإحاطتنا به، وكونه بشراشِر وجوده تحت قُدرتنا وتصرفنا.

---

١. الشورى: ٢٨/٤٢. ٢. الواقعة: ٦٨/٥٦.

٣. تفسير البيضاوي ٢: ٤٦٤، تفسير الصافي ٥: ١٣٠، تفسير روح البيان ٩: ٣٣٩.

ثمّ أكّد سبحانه تحضيضهم بتكرار كلمة التحضيض بقوله: ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ وغير مملوكين ومقهورين تحت قدرتنا، أو غير مجزيين بأعمالكم في الآخرة، تعيدون أنفسكم و ﴿تَرجِعُونَهَا﴾ إلى الدنيا كما كنتم في الدنيا مختارين في الذهاب، والإياب والقُعود في الأماكن، وحاصل المعنى، والله أعلم: إنّ كنتم غير مملوكين ومخلوقين لنا، أو غير مجزيين في دار الآخرة، أو غير مقيمين فيها لاستيفاء جزاء الأعمال، لم لا تُرجعون أنفسكم إلى الدنيا، لوضوح أنّه لولا المقهورية تحت قدرتنا، أو إرادتنا بقاءكم في الآخرة للجزاء، لكنتم مختارين في الرجوع إلى الدنيا، أو إرجاع أنفسكم بعد بلوغها إلى الحلقوم إلى ابدانكم، كما كنتم مختارين في الرجوع إلى أيّ مكانٍ تُريدون، أو أي عملٍ تهوون ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى كونكم غير مخلوقين لله، أو غير مجازين في الآخرة، أو غير مقيمين في العذاب، كما قالت اليهود: ﴿لن تمسنا النار إلا اياماً معدودة﴾.

فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ[٨٨ـ٩٦]

ثمّ إنّه تعالى بعد إثبات الحشر، وذكر حال النَّزع، بيّن حال الفِرق من الناس بعد خروج روحهم، أو في المحشر بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ﴾ الذي بلغت روحه حُلقومه، أو حُشِر في المحشر ﴿مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ من الله، السابقين إلى الإيمان والطاعة في الدنيا ﴿فَرَوحٌ﴾ وراحةٌ دائمةٌ، أو رحمةٌ أبديةٌ، أو فرحٌ بسبب لقاء الله ﴿وَرَيحَانٌ﴾ ورزقٌ طيبٌ مرضيّ، أو ورق، أو زهرٌ طيب الرائحة ﴿وجَنَّةُ﴾ الخُلد التي ذات ﴿نَعِيمٍ﴾ لا يُوصف.

عن الصادق عليه السلام قال: «﴿فَرَوحٌ وَرَيحَانٌ﴾ يعني في قبره ﴿وجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ يعني في الآخرة»[١].

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ﴾ المُتوفّى ﴿مِنْ﴾ جملة ﴿أَصْحَابِ ٱلْيَمِينِ﴾ وأهل اليُمن والسعادة، أو الواقفين عن يمين العرش، أو يمين المحشر، أو الذين يُؤتون كتابهم بأيمانهم ﴿فَسَلَامٌ﴾ وأمانٌ ابدي من جميع الآفات والمكروهات ﴿لَكَ﴾ يا صاحب اليُمن والسعادة والكرامة ﴿مِنْ أَصحَابِ ٱلْيَمِينِ﴾.

قيل: إنّ المراد أنّ اصحاب اليمين كلّ يبشّر الآخر بالسلامة من المكاره، كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿لا

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٥٠، أمالي الصدوق: ٤٥٥/٣٦٥ و: ٧٥٣/٥٦١، تفسير الصافي ٥: ١٣٠.

يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً﴾[١] أو المراد سلام التحية، والمقصود أنّ أصحاب اليمين يُسلّم بعضهم على بعضٍ[٢].

وقيل: إنّ خطاب (لك) إلى النبي ﷺ والمراد بيان عدم حاجتهم إلى الشفاعة، والمعنى: فسلام لك يا محمد لا يَهُمّك أمرهم، فأنّهم في سلامة وعافية[٣]. أو المراد أنّ أصحاب اليمين يسلّمون عليك يا محمد، وفيه دلالةٌ على عظمتهم، فانّ العظيم لا يُسلم عليه إلّا العظيم ـ كذا قيل ـ[٤] وعلى أنّ أصحاب اليمين وإن كان مكانهم دون المقرّبين، إلّا أنه لا ينقطع بينهم التسليم والمكالمة، كما أنّهم يُسلمون عليك.

﴿وَأما إن كَانَ﴾ المُتوفّى **﴿مِنَ﴾** الكفار **﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾** للرسل في دعوى الرسالة والتوحيد والبعث من جهة كونهم من **﴿ٱلضَّالِينَ﴾** والمُنحرفين عن طريق الحق والهدى، أو الواقفين عن شمال العرش، أو المَحْشَر، المؤتين كتابهم[٥] بشمالهم.

عن الباقر عليه السلام: «فهولاء المشركون»[٦].

﴿فَنُزُلٌ﴾ وما أعد لهم حين ورودهم علينا، كائنٌ **﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾** وماءٍ متناهٍ في الحرارة تُقطّع به أمعاءهم. قيل: هذا في قبره **﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾** وإلقاء في النار، وهذا في الآخرة، كما عن الصادق عليه السلام[٧]. **﴿إنّ هٰذَا﴾** المذكور في هذه السورة المباركة، أو أصناف الناس وجزاؤهم في الآخرة، والله **﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾** والثابت الذي لا ريب فيه[٨]، والثابت المتيقن أو حقّ الخبر[٩] اليقين، أو الثابت الذي لا يَطرأ عليه التبديل والتغيير. وقيل: يعني يقين حق اليقين[١٠].

ثمّ لمّا كان حقّية ما في السورة الكريمة ممّا يُوجِب تَنزّهه تعالى عن الشرك والكذب وسائر ما لا يليق بربوبيته تعالى، رتّب على بيان ما في السورة أمر نبيّه ﷺ بتسبيحه وتنزيهه بقوله تعالى: **﴿فَسَبِّحْ﴾** يا محمد **﴿بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾** وقد مرّ تفسيره أو المراد فسبّح شُكراً لما أنزلتُ إليك من المطالب العالية التي ما نزلت على غيرك من الرسل.

وقيل: لمّا بيّن سبحانه الحقّ، وامتنع الكفّار عن قبوله، أمر نبيّه ﷺ بتسبيحه وتنزيهه[١١]، والمراد إن امتنع الكفّار من قبول ما فصّل في السورة، فلا تترُكهم ولا تُعرِض عنهم، وسبّح ربّك في نفسك، وما

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٠٢، والآية من سورة الواقعة: ٢٥/٥٦.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٤١.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ٢٠٢.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ٢٠٢.
٥. في النسخة المؤتون كتابتهم.
٦. الكافي ٢: ١/٢٥، تفسير الصافي ٥: ١٣١.
٧. تفسير القمي ٢: ٣٥٠، امالي الصدوق: ٤٥٥/٣٦٦، و: ٧٥٣/٥٦١، تفسير الصافي ٥: ١٣١.
٨. في النسخة: التي لا ريب فيها.
٩. في النسخة: بالخبر.
١٠. تفسير روح البيان ٩: ٣٤٢.
١١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٠٤.

عليك إن صدّقوك أو كذّبوك.

رُوي أنّ عثمان بن عفان عاد عبدالله بن مسعود في مرض موته، فقال له: ممّا تشتكي؟ قال: أشتكي من ذنوبي. قال: عثمان: ما تشتهي؟ قال: رحمة ربّي. قال: أفلا تدعو الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني. قال: أفلا آمر لك بعطائك؟ قال: منعتنيه وأنا محتاجٌ إليه، تعطينيه وأنا مستغنٍ عنه! قال: أجعل عطاءك بعدك لبناتك؟ قال: لا حاجة لهن فيه؛ لأنّي علمتهنّ سورة الواقعة يقرأنها بعد العِشاء، وإنّي سَمِعتُ رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة بعد العِشاء لم تُصبه فاقة»[1].

وفي رواية، قال: «من قرأ سورة الواقعة [في كل ليلة] لم تُصبه فاقة أبداً»[2].

وفي حديث آخر: «من داوم على قراءة سورة الواقعة لم يفتقر أبداً»[3].

وعن الغزالي: أنّ قراءة هذه السورة عند الشدّة في أمر الرزق والخَصَاصة شيءٌ وردت به الأخبار المأثورة عن النبي ﷺ وعن الصحابة[4].

وعن الباقر عليه السلام: «من قرأ الواقعة كلّ ليلةٍ قبل أن ينام لقي الله عزّ وجلّ ووجهه كالقمر ليلة البدر»[5].

الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسيرها، وأسأله التوفيق لتلاوتها.

---

١. مجمع البيان ٩: ٣٢١، تفسير روح البيان ٩: ٣٤٣.

٢. مجمع البيان ٩: ٣٢١، تفسير البيضاوي ٢: ٤٦٥، تفسير أبي السعود ٨: ٢٠٢.

٣. تفسير روح البيان ٩: ٣٤٤.

٤. تفسير روح البيان ٩: ٣٤٤.

٥. ثواب الأعمال: ١١٧، مجمع البيان ٩: ٣٢١، تفسير الصافي ٥: ١٣١.

في تفسير سورة الحديد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتمت السورة المباركة المتضمّنة لأحوال الفِرق الثلاثة المقرّبين، وأصحاب اليمين، والمكذّبين الضالين، المختتمة بأمر النبي ﷺ بالتسبيح، نُظِمت سورة الحديد المتضمّنة لأحوال الفِرق الثلاث المؤمنين المُخلصين، والمنافقين، والكفّار، المبدوؤة ببيان تسبيح الموجودات، فافتتحها سبحانه بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ثمّ شرع فيها ببيان تسبيح جميع الموجودات بقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كأنّه قال تعالى: سَبِّح يا محمد باسم ربك العظيم، كما أنّ جميع الموجودات سبّحته خالصة[١] له بلسان الحال والمقال، كما سُمِع حنين الجِذع، وذِكر بعض الجمادات. وقيل: إنّ المراد بما في السماوات والأرض الموجودات الأحياء العقلاء، كالملائكة وحَمَلة العرش والجنّ والإنس[٢].

ثمّ بيّن سبحانه صفاته الموجبة لتسبيحه وتنزيهه عن النقائص الإمكانية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ والغالب على كلّ شيءٍ، ولا يغلِبه شيءٌ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ والعالم بجميع مصالح الأشياء ومفاسدها، والفاعل لما هو الأصلح والأصوب بنظام العالم ﴿لَهُ﴾ خاصة ﴿مُلْكُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسلطنة التامة المطلقة على جميع الممكنات، والتصرّف الكُلّي، ونفوذ الإرادة فيها إيجاداً وإعداماً، وتغييراً وتقلّباً، ومن آثار سلطنته أنّه ﴿يُحْيِي﴾ الميت ﴿وَيُمِيتُ﴾ الحيّ، كما تشاهدون في حياة النُّطف وموت الحيوانات.

ثمّ نبّه على عدم اختصاص قدرته بالاحياء والاماتة بقوله: ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء المُتَصوّرة وغير المُتَصوّرة، وكلّ فعلٍ من الأفعال الممكنة ﴿قَدِيرٌ﴾ بذاته، بلا حاجة إلى

---

١. في النسخة: سبّحه خالصاً.

٢. تفسير الرازي ٢٩: ٢٠٧.

معاونٍ ومُعاضدٍ وإلهٍ ومادةٍ ومدةٍ، ومن المعلوم أنّ من له هذه القدرة الكاملة والعلم الشامل، والغَناء والسلطان الدائم، مُستحقّاً للتنزيه عن العجز والجهل والحاجة والفقر بحكم العقل.

هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[٣]

ثمّ وصف سبحانه ذاته بالأزلية والأبدية المساوقتين لوجوب الوجود بقوله: ﴿هُوَ﴾ تعالى الموجود ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ الذي لا أول له، والسابق الذي لم يَسبِقه شيءٌ في الوجود، والكائن الذي لا كينونية لشيءٍ قبل كينونيّته ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ الذي لا آخر له ولا متأخّر عنه، والباقي الذي لا فَناء له ولا زوال ﴿وَٱلظَّاهِرُ﴾ والمشهود بالصفات والآثار ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ والخفيّ بالذات والكُنه.

قيل: يعني هو الأول في سلسلة الموجودات، والآخر لها بحيث ينتهي إليه كلّ شيءٍ، والظاهر يعني الغالب على كلّ شيء، والباطن يعني العالم ببواطن كلّ شيء[١].

وقيل: إنّه أول لأنّه قبل كلّ شيءٍ، وإنّه آخر لأنّه بعد كلّ شيءٍ[٢]، وإنّه ظاهر بحسب الدلائل، وإنّه باطنٌ لأنّه لايُدرَك بالحواس.

رُوي أنّ فاطمة الزهراء عليها السلام دخلت على رسول‌الله صلى الله عليه وآله فسألته خادماً فقال صلى الله عليه وآله: «ألا أدُلّك على ما هو خيرٌ لك من ذلك؟» قالت: «نعم». قال: «قولي: اللهم ربّ السماوات السبع ورب العرش العظيم، وربّنا وربّ كلّ شيءٍ، مُنزِل التوراة والانجيل والفرقان، فالق الحبّ والنّوى، أعوذ بك من شرّ كلّ ذي شرّ أنت آخذ بناصيته - أو من شرّ كل دابة أنت آخذ بناصيتها - أنت الأول فليس قبلك شيءٌ، وأنت الآخر فليس بعدك شيءٌ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيءٌ، وأنت الباطن فليس دونك شيءٌ، اقضِ عنّي الدين، وأغنني من الفقر»[٣].

وفي رواية: «صلِّ على محمدٍ وآله، واقضِ عنّي الدين، وأغنني من الفقر، ويَسّر لي كلّ الأمر برحمتك يا أرحم الراحمين»[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «الذي ليس لأوّليته نهاية، ولا لآخريته حدّ ولا غاية» وقال: «الذي بطن من خفيّاته الأمور، وظهر في العقول بما يُرى في خلقه من علامات التدبير»[٥].

وقيل: يعني هو الأول بالأزلية، والآخر بالأبدية، والظاهر بالأحدية، والباطن بالصَّمدية[٦]، وحاصل الجميع أنّه لا ابتداء لوجوده، ولا اختتام له، لاستحالة عدمه بدواً وختماً، وكلّ شيءٍ منه بدأ وإليه

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٠٤.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٤٦.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٣٤٧.
٤. بحار الأنوار ٩٥: ٤٠٦.
٥. الكافي ١: ٧/١٠٩، تفسير الصافي ٥: ١٣٢.
٦. مجمع البيان ٩: ٣٤٧، تفسير روح البيان ٩: ٣٤٩.

يعود، والظاهر الواضح للأُلوهية والربوبية بالآثار والدلائل، والباطن المحتجب كُنهه عن العقول والأوهام.

قيل: يجب أن ينعدم جميع ما يكون من الجنّة والنار وأهلها حتى يصِحّ كونه آخراً[1]. وفيه: أنه بعد ثبوت بقاء الموجودات الأُخروية، مع حُكم العقل بإمكانه، لابدّ من حمل آخريته على معنى اختصاص شأنيتها به تعالى، وإن لم يقع انعدام غيره بقدرته، أو آخريته بعد فَناء الدنيا.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ ظاهره وباطنه ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يعزُب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، إذ ما من موجودٍ إلاّ وهو بشَراشِره مخلوقةٌ ومصنُوعَةٌ.

قيل: من قرأ هذه الآية بعد صلاة ركعتين خمساً وأربعين مرّة قضى الله حاجته[2].

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ * يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ [٤ ـ ٦]

ثمّ بيّن سبحانه علّة كون جميع الموجودات ملكاً له تعالى وتحت سُلطانه بقوله: ﴿هُوَ﴾ الإله القادر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وأوجدهما بقدرته الكاملة وحكمته البالغة ﴿فِى﴾ مدّةٍ مُقدّرةٍ بـ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، ليتعلم العباد التأنّي في الأُمور ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ واستولى بالعلم والقدرة ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ المُفسّر في آية الكُرسيّ.

ثمّ صرّح سبحانه بإحاطته العلمية بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ ويدخُل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّماءِ﴾ إلى الأرض ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ وما يصعد من الأرض إليها، وقد مرّ تفسيرها في سوره سبأ[3] ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿مَعَكُمْ﴾ بالاحاطة والقُدرة ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ وفي أيّ مكانٍ تمكّنتم من الأرض، تحتها أو فوقها، خلوتها أو جلوتها ﴿وَٱللهُ﴾ العظيم حسب اُلوهيته ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة والعِصيان ﴿بَصِيرٌ﴾ وشهيدٌ، فيجازيكم عليه بالثواب الجزيل والعقاب الشديد.

ثمّ أعاد سبحانه بيان سلطنته التامة المطلقة على جميع الموجودات بقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّماوَاتِ

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢١٢.

٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٥٠.

٣. تقدّم في سورة سبأ: ٢/٣٤.

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ تمهيداً لإثبات المعاد بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ القادر على كلّ شيء ﴿تُرْجَعُ﴾ وتُردّ ﴿ٱلْأُمُورُ﴾ كلّها من الأعمال الصالحة والطالحة، فيجازيكم عليها، فاستعدّوا للقائه باختيار الأعمال الصالحة وأحسنها عنده.

ثمّ استدلّ سبحانه على إعادة الخلق بإعادة كلّ من الليل والنهار إلى ما كانا عليه بعد إذهاب جزء من الليل وجعله من النهار وبالعكس بقوله: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ بجعل ساعات منه جزءاً من النهار حتى يصير خمس عشرة ساعة ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ بجعل ساعات منه جزءاً من الليل حتى يصير خمس عشرة ساعة، ويعود كلٌّ منها إلى ما كان عليه قبل الادخال، فمن كان قادراً على إذهاب ساعاتٍ من الليل حتّى يصير تسع ساعات، ثمّ إعادة تلك الساعات الذاهبة حتّى يصير الليل مثل ما كان قبل وبالعكس، قادرٌ على إعادة خلق الانسان بعد صيرورته تُراباً.

ثمّ بعد إحاطته سبحانه بالأعمال الجوارحية، بيّن إحاطته بالأعمال الجوانحية بقوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ﴾ ومحيطٌ غاية الإحاطة ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ والمخفيّات في القلوب من العقائد الفاسدة، والنيات السيئة، والمكنونات القبيحة.

عن ابن عباس: اسم الله الأعظم في ستّ من أول سورة الحديد، فإذا عُلّقت على المقاتل في الصفّ لم ينفُذ إليه حديد[1].

﴿ءَامِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ [٧ و ٨]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه دلائل توحيده وقدرته وعلمه، وكونه مبدأً للخلق ومعادهم، دعاهم إلى الايمان به وبرسوله بقوله: ﴿ءَامِنُوا﴾ أيّها الناس ﴿بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ عن صميم القلب ثمّ دعاهم إلى أهمّ الأعمال بقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا﴾ في سبيل الله ﴿مِمَّا﴾ أعطاكم الله من فضله، و ﴿جَعَلَكُم مُسْتَخْلَفِينَ﴾ ونائبين عنه في التصرّف ﴿فِيهِ﴾ من غير أن تملِكوه حقيقةً، فلا ينبغي أن يشُقّ عليكم إنفاق ما هو في أيديكم بعنوان النيابة والوكالة عن مالكه الحقيقي، كما لا يشُقّ على أحدٍ إنفاق مال الغير إذا أذِن له فيه، أو المراد جعلكم مستخلفين ممّن كان قبلكم، حيث إنّ ما بأيديكم من الأموال كان لغيركم زماناً، ثمّ انتقل إليكم بالإرث وغيره، فإذا بَخِلتم به ينتقل منكم إلى غيركم، كما انتقل من غيركم إليكم، فلا يبقى

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٥٣

لكم عينه ولا منافعه، وأما إذا انفقتم في سبيل الله يبقى لكم إلى الأبد، بل يربو ويُضاعف أضعافاً كثيرة بشرط الإيمان الحقيقي، كما نبّه سبحانه عليه بقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ﴾ [إيماناً] خالصاً لله ﴿وَأَنفَقُوا﴾ في سبيله وطلباً لمرضاته بعنوان الزكاة أو غيرها من الوجوه البِرّية ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وثوابٌ عظيمٌ.

قيل: نزلت الآية في غزوة تبوك[١].

ثمّ وبّخ سبحانه على ترك الايمان مع تأكّد مقتضياته بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ وأيّ فائدةٍ أو عُذرٍ في ترك الايمان تتصوّرون، ولذا ﴿لاَ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ مع حُكم العقل والعقلاء بوجوبه؟ ﴿وَالرَّسُولُ﴾ المُرسَل من جانب الله لدعوتكم إلى الايمان ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إليه، ويبعثكم عليه بالحجج والمواعظ الحسنة ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾ اللطيف بكم، المُنعِم عليكم ﴿وَقَدْ أَخَذَ﴾ الله ﴿مِيثَاقَكُمْ﴾ والعهد الأكيد منكم على الايمان به في عالم الذرّ، على ما قاله جمع من المفسرين[٢]، أو بإقامة الحجج والبراهين القاطعة على توحيده، ونصب الدلائل الواضحة، وتمكينكم من النظر فيها، وذلك أوثق من الحَلْف والعهد اللفظي ﴿إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ﴾ بشيءٍ لأجل الدليل عليه، فتوحيد الله شيءٌ لا يُساويه شيءٌ في كَثْرة الدليل عليه.

وقيل: يعني إن كنتُم مُصدّقين بالميثاق[٣].

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[٩ ـ ١٠]

ثمّ بيّن سبحانه دليل ربوبيته ورسالة رسوله ورجوع[٤] فائدة الايمان إليهم بقوله: ﴿هُوَ﴾ الرب اللطيف ﴿الَّذِي يُنَزِّلُ﴾ من قِبَله، أو من اللّوح المحفوظ ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ بتوسّط جَبْرئيل ﴿آيَاتٍ﴾ عظيمة الشأن ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ وواضحات الدلالات على كلّ حقّ وحقيقة، وإنّما فعل ذلك ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ أيّها الناس، أو العرب، أو الحاضرين في مكّة بسبب ذلك ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمة

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٥٣

٢. تفسير الرازي ٢٩: ٢١٧.

٣. تفسير روح البيان ٩: ٣٥٤.

٤. كذا الظاهر، والكلمة غير واضحة في النسخة.

الكفر، وظلمة الجهل، وظلمة الأخلاق السيئة ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ نور العلم، ونور الايمان في الدنيا، ونور الرحمة والمغفرة والرضوان في الآخرة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ﴾ أيّها الناس ﴿لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ لا يرضى بضلالكم وحرمانكم من الخيرات الدنيوية والأُخروية، بل يُحبّ أن يهديكم إلى الكمالات النفسانية والمقامات العالية العلمية والأخلاقية في الدنيا، والدرجات العالية في الجنّة والنِّعم الدائمة في الآخرة.

ثمّ لامهم سبحانه على ترك الانفاق في سبيله مع كَثْرة فوائده الدنيوية والأُخروية بقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ أيّها المؤمنون، وأيّ عُذرٍ تتصوّرون في ﴿أَلَّا تُنفِقُوا﴾ ولا تصرفوا بعض أموالكم التي هي في الواقع ليست لكم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وتحصيل مرضاته، ﴿وَ﴾ الحال أنّ ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿مِيرَاثُ﴾ أهل ﴿ٱلسَّمَاوَاتِ وَ﴾ أهل ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بعد موتهم، فانّه ينتقل بموتهم جميع ما في أيديهم إلى الله، فإذا عُلِم أنّه لا تَبقى هذه الأموال في ملككم وتحت تصرّفكم، بل تخرُج من أيديكم لا مُحالة بالموت، كان إخراجها بالانفاق الموجب للمدح والثواب العظيم خيرٌ في حكم العقل والعقلاء من ترك الانفاق وإبقائها حتّى تخرُج قهراً من ملككم بالموت فتستحقّون اللعن والعقاب، أو المراد إنّ أمركم بالانفاق ليس لحاجة الله إلى أموالكم، فانّ لله جميع ما لأهل السماوات والأرض، يُنقَل إليه بموتهم، أوله ما يرثونه من الأموال في زمان حياتهم، وإنّما يأمُركم بالانفاق لحاجتكم إليه في الآخرة، وكون فوائده لكم.

ثمّ لمّا بيّن سبحانه وجوب الانفاق وفضيلته، بيّن أفضلية المبادرة إليه حين ضَعْف الاسلام بقوله: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم﴾ أيّها المؤمنون في الفضيلة ﴿مَنْ أَنفَقَ﴾ من أمواله في سبيل الله ونُصرة دين الاسلام ﴿مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ قيل: يعني فتح مكة[1]. وقيل: فتح الحُديبية[2] ﴿وَ﴾ من ﴿قَاتَلَ﴾ أعداء الله، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتلهم ﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ المؤمنون المنفقون والمقاتلون من قبل الفتح، وفي زمان ضَعف الاسلام ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ وأرفع منزلةً، وأعلى رُتبةً عند الله في الدنيا والآخرة ﴿مِنَ﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ وجاهدوا بأنفسهم في حال قوة الاسلام وكثرة المسلمين ﴿وَكُلًّا﴾ من الفريقين ﴿وَعَدَ﴾ه ﴿ٱللَّهُ﴾ المثوبة ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والدرجة العليا في الجنّة.

ثمّ لمّا كان الوفاء بالوعد موقوفاً على العلم بالأعمال وخصوصياتها، أخبر سبحانه بعلمه بجميع أعمال العباد بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال ظاهرة وباطنة ومزاياه وخصوصياته ﴿خَبِيرٌ﴾

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢١٨، مجمع البيان ٩: ٣٥٠، تفسير روح البيان ٩: ٣٥٦.
٢. مجمع البيان ٩: ٣٥٠، تفسير روح البيان ٩: ٣٥٦.

وبصير، فيجازيكم بحسبه.

رُوي أنّ جماعة من الصحابة أنفقوا نفقات كثيرة حتّى قال ناس: هؤلاء أعظم أجراً من كلّ من أنفق قديماً، فنزلت الآية[١]، وبيّن سبحانه أنّ النفقة قبل فتح مكة أعظم أجراً.

روى الفخر الرازي عن الكلبي أنّه قال: نزلت هذه الآية في فضل أبي‌بكر؛ لأنّه أول من أنفق المال على رسول الله ﷺ في سبيل الله. قال عمر: كنت قاعداً عند رسول الله ﷺ وعنده أبوبكر، وعليه عباءة قد خلّلها في صدره بخِلال، فنزل جَبْرَئيل فقال: مالي أرى أبابكر عليه عباءة خلّلها في صدره، فقال: أنفق ماله عليّ قبل الفتح[٢]،... انتهى.

في نقد كلام بعض العامة في فضيلة أبي‌بكر وردّه

أقول: ليث شعري من أين علم الكلبي أنّ أبابكر أول من أنفق على رسول‌الله ﷺ مع أنّه لم يُعلَم له مال، بل عُلِم فقره، فانّه كان معلم أطفال، وكان أبوه من فقراء مكّة، بل المعلوم أنّ أول من أنفق ماله على رسول الله ﷺ خديجة ثم أبوطالب.

وقول عمر ـ على فرض صدقه ـ لا يدُلّ على نزول الآية في فضل خصوص أبي‌بكر، بل يَدُلّ على أنّ أبابكر كان من المنفقين من قبل الفتح، ومن المعلوم أنّ المنفقين قبل الفتح كثيرٌ من الصحابة، وليس في الرواية أنّ الآية نزلت حين قول رسول‌الله ﷺ أنّه أنفق قبل الفتح.

وأعجب من ذلك أنّ الفخر حكى عن الواحدي أنّه قال: إنّ أبابكر كان أوّل من قاتل على الاسلام، وذلك لأنّ علياً في أول ظهور الاسلام كان صبياً صغيراً، ولم يكن صاحب قتال، وأما أبوبكر فإنّه كان شيخاً مقدّماً، وكان يذُبّ عن الاسلام حتى ضُرِب بسببه ضرباً أشرف [به] على الموت[٣]... انتهى.
فإنّه حين كان عليّ عليه السلام صبياً لم يكن قتال، ولم يكن ذبّ أبي‌بكر ـ على تقدير التسليم ـ إلّا باللسان، وضربه حتى أشرف على الموت لايدُلّ على قتاله، بل يدُلّ على ضَعْفه وعدم قدرته على الدفاع عن نفسه، فضلاً عن القتال، كما أن قتل والد عمار لايدُلّ على قتاله.

وأعجب العجائب أنّهم يتمسّكون بهذه التُرّهات على فضيلة أبي‌بكر، ويُغمضون على الروايات المتواترة الدالة على أفضلية أمير المؤمنين عليه السلام على جميع الصحابة بعد النبي ﷺ، ويؤولون الروايات الناصّة على خلافته وإمامته.

ثمّ اعلم أنّ تقديم ذكر من أنفق قبل الفتح على من قاتل لا يدُلّ على تقدّم صاحب الانفاق على صاحب القتال، كما ادّعاه الفخر الرازي؛ لأنّ الكلام في الحثّ على الانفاق، وإنّما ذكر صاحب القتال

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٥٦.
٢. تفسير الرازي ٢٩: ٢١٩.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ٢١٩.

هنا لأهميته وشدّة الاعتناء به، فما قال الفخر ـ من أنّ صاحب الانفاق أبوبكر، وصاحب القتال عليّ عليه السلام، وفي تقديم صاحب الإنفاق إيماءً إلى تقديم أبي‌بكر ـ من تُرّهات الكلام.

مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ * يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ[١١ و ١٢]

ثمّ بالغ سبحانه في الحثّ على الانفاق في نُصرة المسلمين ومواساة فقرائهم بقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾ يُنفِق ماله في سبيل الله رجاء أن يأخُذ عوضه، فإنّه كمن ﴿يُقْرِضُ ٱللهَ﴾ ماله ﴿قَرْضاً حَسَناً﴾ وخالصاً لوجه الله، أو يُقرض الله مالاً حسناً، وهو المال الحلال الطيب ﴿فَيُضَاعِفَهُ﴾ الله، ويزيد ذلك المال أمثاله ﴿لَهُ﴾ من فضله ﴿وَلَهُ﴾ مضافاً إلى ذلك ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وثوابٌ مرضيٌ لا يُوصَف بالبيان.

في فضيلة الانفاق في سبيل الله

رُوي أنه لمّا نزلت الآية جعل أبو الدَّحداح يتصدّق بنصف كلّ شيءٍ يملكه في سبيل الله، حتى إنّه خلع إحدى نعليه، ثمّ جاء إلى أمّ الدَّحداح فقال: إنّي بايعتُ ربّي فقالت: رَبِح بيعُك. فقال النبي صلى الله عليه وآله: «كم من نخلةٍ مدلّاة عُذوقها في الجنّة لأبي الدَّحداح»[١].

عن الصادق عليه السلام: «أنّ الله تعالى لم يسأل خلقه من حاجةٍ به إلى ذلك، وما كان لله من حقّ فإنّما هو لوليّه»[٢].

وعن الكاظم عليه السلام: «نزلت في صِلة الإمام»[٣].

ثمّ عيّن سبحانه يوم تأدية ذلك القرض بقوله: ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ يا محمد، أو يا من له شأنية الرؤية ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾ في ذلك اليوم إذا خرجوا من قبورهم، يسعون إلى المحشر و ﴿يَسْعَىٰ﴾ ويسير سريعاً ﴿نُورُهُم﴾ الحاصل لهم بإيمانهم، ومعرفتهم بالله، وأعمالهم الصالحة ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وفي قُدّامهم ﴿وَبِأَيْمَانِهِم﴾ لأنّهم أصحاب اليمين، ويكون مسيرهم إلى الجنّة من جانب اليمين، كما عن النبي صلى الله عليه وآله «أنّ كلّ مُثابٍ يحصُل له النور على قدر عمله»[٤]. وقيل: إنّ المراد بالنور ما يُهتدى به إلى الجنّة[٥].

ويقول لهم الملائكة: أيّها المؤمنون ﴿بُشْرَاكُمُ﴾ والخبر الذي يسرُّ قلوبكم، هو أنّ لكم ﴿ٱلْيَوْمَ

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٥٩.
٢. الكافي ١: ٣/٤٥١، تفسير الصافي ٥: ١٣٤.
٣. الكافي ١: ٤/٤٥١، تفسير الصافي ٥: ١٣٤.
٤ و٥. تفسير الرازي ٢٩: ٢٢٢.

﴿جَنَّاتٌ﴾ كثيرة الأشجار ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ حال كونكم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً، لا تُخرَجون منها طَرْفة عين ﴿ذَٰلِكَ﴾ الثواب العظيم الذي أعدّه الله لكم ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ والنَّيل بأعلى المطالب وأقصى المقاصد.

يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ[١٣]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حُسن حال المؤمنين المخلصين، بيّن سوء حال المنافقين بقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ﴾ لمّا رأو أنفسهم في ظُلمةٍ لا يُمكنهم المشي فيها، ورأوا المؤمنين تتلألأ وجوههم نوراً يمشون بنورهم كالبرق الخاطف ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب: يا أيّها المؤمنون ﴿ٱنظُرُونَا﴾ واستقبلونا بوجوهكم، أو انتظرونا ﴿نَقْتَبِسْ﴾ ونستضيء ﴿مِن نُورِكُمْ﴾ ونمشي فيه معكم ﴿قِيلَ﴾ تخييباً[١] لهم وتهكّماً بهم من جهة المؤمنين: أو الملائكة أيّها المنافقون والمنافقات، ليس لكم من النور الذي حصّلناه في الدنيا بالايمان الخالص والأعمال الحسنة حظّ ونصيبٌ، فإن أردتم النور ﴿ٱرْجِعُوا﴾ إلى الدنيا التي خلّفتموها ﴿وَرَاءَكُمْ﴾ إن أمكنكم الرجوع إليها ﴿فَٱلْتَمِسُوا﴾ وحصّلوا لأنفسكم بالايمان الخالص والعلم والمعرفة ﴿نُوراً﴾ كنورنا تمشونا فيه.

قيل: إنّ الناس يكونون في ظُلمةٍ شديدةٍ، ثمّ المؤمنون يُعطون الأنوار، فإذا أسرع المؤمن في الذّهاب، قال المنافقون: انظُرونا نقتبس من نوركم. فيقال لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً. وهي خُدعة خُدِع بها المنافقون. كما قال الله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[٢] فيرجِعون إلى المكان الذي قسّم فيه النور، فلا يجدون شيئاً فينظُرون إليهم[٣].

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ وبين المؤمنون ﴿بِسُورٍ﴾ وحائطٍ عريضٍ مرتفعٍ، كسُور البلد ﴿لَهُ بَابٌ﴾ يدخُل فيه المؤمنون، وداخل ذلك السُّور الذي يلي المؤمنين و ﴿بَاطِنُهُ﴾ وجَوُّه[٤] ﴿فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ الالهية، وهي الجنّة ﴿وَظَاهِرُهُ﴾ وخارجه الذي يلي المنافقين ﴿مِن قِبَلِهِ﴾ يأتيهم ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ وحاصله: أنّ بين الجنّة والنار سوراً وحائطاً، قيل: هو حِجاب الأعراف، له باب يدخُل المؤمنون من ذلك الباب الجنة،

---

١. في النسخة: تجنيتاً. ٢. النساء: ١٤٢/٤. ٣. تفسير الرازي ٢٩: ٢٣٥، تفسير روح البيان ٩: ٣٦١.
٤. جوُّ كلّ شيء: باطنه وداخله.

والمنافقون يُمْنَعون من الدخول، ويبقون في العذاب والنار[1].

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ ٱللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ ٱلْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ ٱلنَّارُ هِيَ مَوْلَٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ[١٤ و ١٥]

فلمّا رأى المنافقون أنّ المؤمنين يدخُلون الجنّة ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ ويقولون لهم: أيها المؤمنون ﴿أَلَمْ نَكُن﴾ في الدنيا ﴿مَعَكُمْ﴾ في العبادات والمساجد والصلوات والغزوات؟ فأجابهم المؤمنون و ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ كنتم معنا في إظهار الايمان، والاشتغال بالعبادات ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ﴾ وأضررتم ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بالكفر وارتكاب المعاصي، ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالتوبة، وأخّرتموها، كما عن ابن عباس[2]، أو تربّصتم بمحمدٍ ﷺ الموت، وقلتم: يُوشِك أن يموت محمد فنستريح منه[3]. أو دائرة السوء، فتلتحقوا بالكفار، وتتخلّصوا من النفاق[4] ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ وشككتم في نبوة محمد ﷺ وصحّة البعث والقيامة، وصدق وعيد الله بالعذاب ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ﴾ وَشَغلتكم أباطيل الدنيا وشهواتها، وخُدَع الشيطان ﴿حَتَّىٰ جَاءَ﴾ كم ﴿أَمْرُ ٱللهِ﴾ وقضاؤه بموتكم ﴿وَغَرَّكُم﴾ وخدَعكم ﴿بِاللهِ﴾ وأطمعكم في عفوه الشيطان ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الخدّاع ﴿فَالْيَوْمَ﴾ الذي تكونون فيه أيّها المنافقون هو يوم القيامة ﴿لاَ يُؤْخَذُ﴾ ولا يُقبَل ﴿مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ ومالٌ تدفعون به العذاب عن أنفسكم ﴿وَلاَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظاهراً وباطناً بل ﴿مَأْوَاكُمُ﴾ ومَرجعكم ﴿ٱلنَّارُ﴾ ومسكنكم جهنّم ﴿هِيَ مَوْلَٰكُمْ﴾ ومصيركم، كما عن ابن عباس[5]. أو أولى بالتصرّف فيكم، والسُّكونة لكم ﴿وَ﴾ هي ﴿بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وساء المنقلب لكم.

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ[١٦]

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٢٦.
٢. تفسير الرازي ٢٩: ٢٢٦.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ٢٢٦، مجمع البيان ٩: ٣٥٥، تفسير روح البيان ٩: ٣٦٢.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ٢٢٦.
٥. تفسير الرازي ٢٩: ٢٢٧.

ثمّ لمّا ذكر سبحانه بعض أهوال القيامه حثّ المؤمنين على الخَشية والخُشوع لله بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ وأما حان ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بعد أن عمّروا طويلاً في الايمان، وشاهدوا آثار عظمة الله، وعَلِموا عِظَم عِصيانه وشدّة عقابه ﴿أَن تَخْشَعَ﴾ وتضرَع وترقّ ﴿قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾ والتنبيه لعظمته، فيسارعوا إلى طاعته بلا توانٍ وفتورٍ، أو لموعظته ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ﴾ القرآن ﴿الْحَقِّ﴾ والصدق، فيبادرون إلى العمل بما فيه من الأحكام التي منها الانفاق في سبيل الله.

رُوي أنّ المؤمنين كانوا مُجْدِبين بمكة، فلمّا هاجروا أصابوا الرزق والنعمة، ففتروا عمّا كانوا عليه من الخشوع، فنزلت[1].

وقيل: إنّه لمّا بدا في الصحابة شيءٌ من المِزاح فنزلت[2].

عن ابن عباس: أنّ الله استبطأ خُشوع قلوبٍ فعاتبهم على رأس ثلاثة عشرة سنة من نزول القرآن[3].

وعن ابن مسعود: ما كان بين إسلامنا وبين أن عُوتبنا بهذه الآية أربع سنين[4].

﴿وَ﴾ لم يأنِ أن ﴿لاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ﴾ كاليهود والنصارى ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ والزمان الذي بينهم وبين أنبيائهم ﴿فَقَسَتْ﴾ وصَلُبت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ وذهب عنهم الخوف ورقّة القلب التي كانت تأتيهم بتلاوة التوراة والانجيل ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ اليوم لشدّة قساوة قلوبهم ﴿فَاسِقُونَ﴾ وخارجون عن حدود دينهم، ورافضون لما في كتبهم من الأحكام، وفيه إشعار بأنّ عدم الخشوع في أوّل الأمر يُفضي إلى الفِسق والخُروج من الدين في الآخر.

اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ[١٧ و ١٨]

ثمّ بالغ سبحانه في الترغيب في الخشوع، بتمثيل القلوب في إحيائها بالخشوع بالأرض الميتة التي تحيا بالمطر بقوله: ﴿اعْلَمُوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ﴾ بالمطر الذي ينزل من السماء ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ ويُبسها، فكذلك القلوب تحيا بالخشوع والذكر وتلاوة القرآن بعد موتها بالقساوة.

وقيل: رغّب سبحانه في الخُشوع والخضوع بالتذكير بإحياء الأرض ببعث الأموات[5] ﴿قَدْ بَيَّنَّا﴾ وأوضحنا ﴿لَكُمْ﴾ أيّها الناس ﴿الآيَاتِ﴾ التي فيها بيان موجبات سعادتكم في الدارين ﴿لَعَلَّكُمْ

١. تفسير أبي السعود ٨: ٢٠٨، تفسير روح البيان ٩: ٣٦٣.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٦٤.
٣. تفسير أبي السعود ٨: ٢٠٨، تفسير روح البيان ٩: ٣٦٤.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٣٦٤.
٥. تفسير الرازي ٢٩: ٢٣٠، تفسير روح البيان ٩: ٣٦٥.

﴿تَعْقِلُونَ﴾ وتَفْهَمون ما فيها، وتعملون به، وتفوزون بالدرجات العالية، والراحة الأبدية، والنِّعم الدائمة وقيل: يعني كي تكمُل عقولكم[١].

ثمّ بالغ سبحانه في الحثّ على الانفاق لوجهه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ والمنفقين أموالهم في وجوه الخير ﴿وَٱلْمُصَّدِّقَاتِ﴾ والمنفقات ﴿وَ﴾ هم ﴿أَقْرَضُوا ٱللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ وسلّموا أموالهم إلى الله بإنفاقهم في سبيله برجاء العوض والأجر ﴿يُضَاعَفُ﴾ ذلك المال المُنفَق ﴿لَهُمْ﴾ ويتزايد مقداره في ميزانهم على ما كان في الدنيا مرّات ﴿وَلَهُمْ﴾ مع التضاعف ﴿أَجْرٌ﴾ وثوابٌ ﴿كَرِيمٌ﴾ مرضيّ.

وقيل: إنّ المُصدّقين بمعنى الذين تصدّقوا، ولذا صحّ عطف الجملة الفعلية عليه[٢].

وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ[١٩]

ثمّ أنه تعالى بعد بيان حال المؤمنين والمنافقين، بيّن حال المؤمنين والكفّار المتظاهرين بالكفر بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب ﴿بِاللهِ وَ﴾ بجميع ﴿رُسُلِهِ﴾ من آدم إلى الخاتم ﴿أُولٰئِكَ﴾ العالون في الشأن والمنزله ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَاءُ﴾ والكاملون في الايمان، أو بمنزلة المستشهدين في سبيل الله في عظمة الأجر ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وفي حُكمه ونظره.

عن السجاد عليه السلام، عن أبيه عليه السلام، قال: «ما من شيعتنا إلّا صديق شهيد. قيل: أنّى يكون ذلك، وعامّتهم يموتون على فُرشهم؟ فقال عليه السلام: أما تتلو كتاب الله في الحديد ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَاءُ﴾ قال: «لو كان الشهداء كما يقولون، كان الشهداء قليلاً»[٣].

وعن الباقر عليه السلام قال: «العارف منكم هذا الأمر، المنتظر له، المحتسب فيه الخير، كمن جاهد والله مع القائم بسيفه» ثمّ قال: «بل والله كمن جاهد مع رسول الله بسيفه» ثم قال الثالثة: «بل والله كمن استُشهد مع رسول الله صلّى الله عليه وآله في فُسطاطه، وفيكم آيةٌ من كتاب الله.

قيل: وأيّة آية؟ قال: «قول الله: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ...﴾ الآية» ثمّ قال: «صرتم والله الصديقون والشهداء عند ربكم»[٤].

أقول: حاصل الروايات أنّ المؤمن بما جاء به النبي صلّى الله عليه وآله ومنه الولاية بمنزلة الصدّيقين والشُّهداء في المعركة لنُصرة الإسلام ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الموعودان لهم المعروفان بالعظمة والكمال.

---

١. تفسير الصافي ٥: ١٣٥.
٢. تفسير أبي السعود ٨: ٢٠٩.
٣. المحاسن: ١١٥/١٦٣، تفسير الصافي ٥: ١٣٦.
٤. مجمع البيان ٩: ٣٥٩، تفسير الصافي ٥: ١٣٦.

ثمّ بيّن حال الكفّار بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله ﴿وَكَذَّبُوا بِـآيَاتِنَا﴾ المـنزلة ﴿أُولَـٰئِكَ﴾ البُعداء عن الرحمة ﴿أَصْحَابُ ٱلْجَحِيمِ﴾ وملازمو النار، لاخلاص لهم منها.

ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَـهْوٌ وَزِيـنَةٌ وَتَـفَاخُرٌ بَـيْنَكُمْ وَتَكَـاثُرٌ فِـى ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ[٢٠]

ثمّ لمّا كان الكفر والنفاق بسبب حُبّ الدنيا وشهواتها، أخبر سبحانه بحقارتها وسرعة زوالها بقوله: ﴿ٱعْلَمُوا﴾ أيّها الناس ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ومُشتهياتها التي لايُراد بها التوصّل إلى السعادة الأُخروية ﴿لَعِبٌ﴾ وعملٌ يُتعِب الانسان نفسه فيه بغير غرضٍ عقلاني، كعمل الصبيان الذي يُتعِبون أنفسهم فيه بغير فائدةٍ ﴿وَلَهْوٌ﴾ واشتغالٌ باللذائذ السـريعة الزوال، السيئة العـاقبة، والوخـيمة المآل، المـوجبة للحسرة والندامة، كأشغال الشُّبّان التي ليس غرضهم منها إلّا التذاذ النفس مع الغفلة عن وَخامة عاقبتها ﴿وَزِينَةٌ﴾ وتحسينٌ للظاهر في الأوهام مع عدم حقيقة وواقعية له، كلبس الملابس الفاخرة، وركوب المراكب الفارهة، والسكونة في المساكن البهية الحسنة، ونظائرها كتزيين النُّسوان صُورهنّ للرجال ﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾ بالمزايا الجسمانية الزائلة بالأمراض والموت، كالقوة والقدرة والجـمال والنسب والرئاسة ونظائرها ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ وتزايد ﴿فِى ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ﴾.

ومن الواضح أنّ هذه الأُمور الجامعة للمشتهيات النفسانية الدنيوية، ممّا يستحقرها العقل السليم، ولا يعتني به العاقل الفهيم، لسرعة زوالها، وعدم فائدة مهمة لها، مع استلزام توجّه النفس إليها فوات فوائدٍ عظيمة باقية.

ثمّ أكّد سبحانه حقارة المشاغل الدنيوية السريعة الزوال، المفوّتة للمنافع الأُخروية بضرب مـثلٍ لسرعة زوال الدنيا بقوله: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ ونظير مطرٍ نافعٍ أنبت بنزوله من الأرض اليابسة النباتات النافعة بحيث ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ﴾ والزارعين الذين يكفرون ويستُرون البذور بالتُّراب ﴿نَبَاتُهُ﴾ ومـا يخرُج من الأرض بسببه.

وقيل: إنّ المراد بالكفار الكافرون بالله، فانّهم أشدّ إعجاباً بزينة الدنيا[١]. بل إعجابه مختصّ بهم، لأنّ نظرهم إلى المحسوسات، وأمّا المؤمنون فإنّهم لا يُعجبهم نـموّه وخُضرته، وإنّـما يُـعجبهم قـدرة

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٣٤، تفسير البيضاوي ٢: ٤٧٠.

خالقهم وربّهم.

﴿ثُمَّ﴾ بعد النمو والخُضرة والنَّظارة ﴿يَهِيجُ﴾ وييبس وتزول خُضرته ونَظارته ﴿فَتَرَاهُ﴾ أيّها الرائي بعد مدّةٍ قليلةٍ ﴿مُصْفَرّاً﴾ بعد ما رأيته ناضراً مونقاً ﴿ثُمَّ يَكُونُ﴾ بعد اصفراره ويُبسه ﴿حُطَاماً﴾ ومُنكسراً ومتفتّتاً ﴿وَ﴾ يكون ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ لمن أعجبه الدنيا وأقبل عليها، ولم يطلُب بها الآخرة ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لايُقادر قدره ﴿وَ﴾ لمن طلب الآخرة بها ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمةٌ كائنةٌ ﴿مِنَ اللهِ﴾ العظيم الغفور ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ منه تعالى، المستلزم لدخول الجنّة والتنعّم بالنِّعم الدائمة.

ثمّ بيّن سبحانه نتيجة شرح المشاغل الدنيوية وحاصل المثل الذي ضرب للدنيا ﴿وَ﴾ زينتها بقوله: ﴿مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ ولذائذها ﴿إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ وانتفاع يُخدَع الانسان الجاهل به، وفيه غاية تحقير الدنيا، والحثّ على الإعراض عنها، وتعظيم الآخرة.

سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[٢١]

ثمّ حثّ على الجدّ في تحصيل ما يُنتَفع به فيها بقوله: ﴿سَابِقُوا﴾ أيّها المؤمنون، واجتهدوا في التقدّم على الأقران، وسارعوا مسارعة السابقين في المِضمار ﴿إِلَىٰ﴾ موجبات ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة كائنة ﴿مِن رَبِّكُمْ﴾ وخالقكم اللطيف بكم، وإتيان الأعمال الموجبة للدخول في بستان ﴿وَجَنَّةٍ﴾ وسيعة ﴿عَرْضُهَا﴾ وسَعَتها ﴿كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ وسَعَتهما إذا بُسِطا ﴿أُعِدَّتْ﴾ وهيّئت تلك الجنّة من قبل الله تعالى ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ﴾ جميعاً، ولا يقول: نؤمن ببعض، ونكفر ببعض.

عن ابن عباس: إنّ الجنان أربعة، قال الله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[١] ثمّ قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[٢] فذكر الله هنا تشبيه واحدة من الجنات الأربع في العَرض بالسماوات السبع[٣].

وعنه أيضاً: أنّ لكلّ من المطيعين جنّة بهذه الصفة[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «أن أدنى أهل الجنّة منزلاً من لو نزل به الثقلان الجنّ والانس لوسعهم طعاماً وشراباً»[٥].

﴿ذٰلِكَ﴾ الثواب العظيم المذكور ﴿فَضْلُ اللهِ﴾ وإنعامه ﴿يُؤْتِيهِ﴾ ويُعطيه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إعطاءه إياه

---

١. الرحمن: ٤٦/٥٥. ٢. الرحمن: ٦٢/٥٥. ٣. تفسير الرازي ٢٩: ٢٣٥.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ٢٣٤. ٥. تفسير القمي ٢: ٨٢، تفسير الصافي ٥: ١٣٧.

من عباده المؤمنين ﴿وَٱللَّهُ﴾ العظيم ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والإحسان الجسيم.

في الرّد على الأشاعرة

ثمّ لايخفى أنّ استحقاق الأجر بالعمل لا يُوجِب على الله إعطاء الجنة بهذه الصفة، فإعطاؤها فضل من الله، مع أنّ الفضل لايكون إلّا في المحلّ القابل، والمراد بالاستحقاق القابلية التي لايجوز البُخل مع وجودها، وبالوجوب على الله كونه مقتضى الحكمة التي هي وضع الشيء في موضعه، فظهر أنّ استدلال الاشاعرة بالآية على عدم استحقاق العبد على الله شيئاً ـ وأنّ كلّما يُعطي الله بإزاء العمل تفضّلٌ منه تعالى، يجوز له في حكم العقل منعه والبخل به ـ فاسدٌ جدّاً.

مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلاَ فِى أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذٰلِكَ عَلَىٰ ٱللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَٱللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ[٢٢ و ٢٣]

ثمّ لمّا كان الحُزن على الأمور الدنيوية والفرح بها شاغلاً للقلب عن الإقبال على العبادة والتوجّه إلى الآخرة، نبّه سبحانه على أنّ الحوادث كلّها بتقدير الله بقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ﴾ ولا حدث عن حادثٍ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من قَحْط أو فساد ﴿وَلاَ﴾ عارضة ﴿فِى أَنفُسِكُمْ﴾ من[1] المرض والجُرح والصحّة والغنى والفقر وغيرها ﴿إِلَّا﴾ وهو مكتوبٌ ﴿فِى كِتَابٍ﴾ مكنون ولوحٍ محفوظٍ ﴿مِن قَبْلِ أَن﴾ نخلُق هذه الحوادث و ﴿نَبْرَأَهَا﴾ ونُوجدها. وقيل: يعني من قبل أن نُوجِد الأنفس، أو نوجِد الأرض[2].

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ مَلَك الأرحام يكتُب كلّ ما يصيب الانسان في الدنيا بين عينيه، فذلك قول الله عز وجل: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ﴾ الآية[3].

عن الصادق عليه السلام في رواية: «كتابه في السماء علمه [بها]، وكتابه في الأرض علومنا في ليلة القدر وفي غيرها»[4].

﴿إِنَّ ذٰلِكَ﴾ المذكور من كتب الحوادث من الخير والشرّ قبل إيجادهما ﴿عَلَىٰ ٱللهِ﴾ العالم بالأمور ﴿يَسِيرٌ﴾ وسهلٌ، وذلك التقدير وكَتب المقدرات قبل وجودها والإخبار بها ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا﴾ ولأجل أن لا تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ ولم يُقبِل إليكم، أو ذهب منكم من النِّعم الدنيوية كالمال والجاه

---

١. زاد في النسخة: الفقر و.

٢. تفسير الرازي ٢٩: ٢٣٧.

٣. علل الشرائع: ٤/٩٥، تفسير الصافي ٥: ١٣٨.

٤. تفسير القمي ٢: ٣٥١، تفسير الصافي ٥: ١٣٧.

والصحّة والأمان ونظائرها ﴿وَلاَ تَفْرَحُوا﴾ ولا تسرّوا ﴿بِمَا آتَاكُمْ﴾ الله وأعطاكم منها، فانّ من عَلِم أنّ إقبال الدنيا وإدبارها بتقدير الله لابسعي الانسان وكدّه، لا يشتدّ جَزَعه على إدبارها، لعلمه بكونه لصلاحِ أنفع منه، ولا فرحه بأقبالها لتجويزه ذَهابه في أسرع وقتٍ، أو كونه امتحاناً واستدراجاً.

وعن بعض الحكماء: لا التأسّف يرُدّ فائتاً، ولا الفرح يُقرّب معدوماً ويُديم آتياً[١].

وعن ابن مسعود: لأن أمَسّ جمرةً أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت، أحبّ إلي من أن أقول لشيءٍ لم يكن ليته كان[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الزُّهد كلّه بين كلمتين في[٣] القرآن قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ ومن لم يأسَ على الماضي، ولم يفرح بالآتي، فقد أخذ الزُّهد بطرفيه»[٤].

وعن السجاد عليه السلام: «ألا إنّ الزُّهد في آيه من كتاب الله» ثمّ تلا هذه الآية[٥].

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ الأسى المذموم هو المانع عن التسليم لأمر الله، والفرح المبغوض هو الفرح الموجب للاختيال والفخر بقوله: ﴿وَاللهُ لاَ يُحِبُّ﴾ بل يُبغِض ﴿كُلَّ﴾ شخصٍ ﴿مُخْتَالٍ﴾ ومتكبّرٍ ﴿فَخُورٍ﴾ ومتطاولٍ على عباده، فانّ من عظمت عنده الحظوظ الدنيوية وفرِح بها، اختال وافتخر بها لامُحالة، وأمّا الفرح بنعمة الله والشُّكر عليها فغير مذموم.

عن ابن عباس، قال: ليس أحدٌ إلّا وهو يفرَح ويحزَن، ولكن اجعلوا للمصيبة صبراً، وللخير شُكراً[٦].

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ * لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ ٱللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [٢٤ و ٢٥]

ثمّ لمّا كان التكبّر والتطاول على الناس بالأموال وكَثْرة النِّعم الدنيويه لعظمتها في نفسه وشدّة حُبّه لها ملازماً للبُخل بها، وصف سبحانه المختال والفخور بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بأموالهم، ولا

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٧٦.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٧٦.
٣. في نهج البلاغة: من.
٤. نهج البلاغة: ٤٣٩/٥٥٣، تفسير الصافي ٥: ١٣٨.
٥. الكافي ٢: ٤/١٠٥، الخصال: ٢٦/٤٣٧، تفسير الصافي ٥: ١٣٨.
٦. تفسير الرازي ٢٩: ٢٣٩.

يُنفقونها على الفقراء، وفي سبيل الله، لحُبّهم لها، ولعزّتها عندهم، ثمّ لا يقنعون ببُخلهم، بل يبعثون ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بأموالهم وإمساكها وعدم صرفها في وجوه الخير، وهذا غاية الذمّ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ ويُعرِض عن الإنفاق، أو عن إطاعة أوامر الله ونواهيه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن إنفاقهم وطاعتهم لا يضُرّه بُخلهم وعِصيانهم، ولا ينفعه إنفاقهم وشُكرهم وطاعتهم ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في ذاته، المحمود في فعاله التي منها فتح أبواب نِعمه على البُخلاء، لأنّ فيه نظام العالم، وامتحان الخلق، ووَبال بُخلهم عائد إليهم.

ثمّ لمّا كان نظام العالم بالعلم والقواعد المقرّرة لحفظ النظام وقيام العدل وقوّة دفاع الظالمين، بيّن سبحانه إتمام نِعمه على الناس حثّاً لهم على طاعته بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إليكم أيّها الناس ﴿رُسُلَنَا﴾ في كلّ عصرٍ وقرنٍ، مستدلّين على رسالتهم من قبلنا ﴿بِٱلْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الظاهرات، والحجج الباهرات، لئلا يشُكّ أحدٌ في صدق دعواهم الرسالة ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ إتماماً للُّطف ﴿مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ السماوي الذي فيه بيان كلّما يحتاجون إليه من العلوم المربوطة بمعاشهم ومعادهم. عن الصادق عليه السلام: «الكتاب الاسم الأكبر الذي يعلم به علم كلّ شيء الذي كان مع الأنبياء ...» الخبر[١]. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ وما يُعيّن به الحقوق. رُوي أنّ جَبْرئيل نزل بالميزان فدفعه إلى نوح، وقال: مُر قومك يزنوا به[٢]. وقيل: إنّ المراد بالميزان العدل والانصاف[٣]. القمي، قال: الميزان الامام[٤].

﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ﴾ في معاملاتهم وحقوقهم ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ والعدل، ولا يظلِم أحدٌ أحداً في إيفاء حقوقهم واستيفائها، كما أنّه تعالى قائمٌ في عباده بالقسط والعدل، فوفاهم حقوقهم بلا حَيف ﴿وَأَنزَلْنَا﴾ من السماء ﴿ٱلْحَدِيدَ﴾ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «يعني السلاح»[٥] الذي ﴿فِيهِ بَأْسٌ﴾ وعذابٌ ﴿شَدِيدٌ﴾ على من لم يعمل بالكتاب وأخسر الميزان.

وقيل: يعني قوّة شديدة عليهم، فان آلات الحرب كلّها من حديد[٦].

عن ابن عمر: أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الله تعالى أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض؛ أنزل الحديد، والنار، [والماء]، والملح»[٧].

---

١. الكافي ١: ٣/٢٣٢، تفسير الصافي ٥: ١٣٨.
٢. جوامع الجامع: ٤٨٢، تفسير الصافي ٥: ١٣٩، تفسير الرازي ٩: ٢٤١، تفسير أبي السعود ٨: ٢١٢.
٣. تفسير جوامع الجامع: ٤٨٢.
٤. تفسير القمي ٢: ٢٧٤ و٣٥٢، تفسير الصافي ٥: ١٣٩.
٥. التوحيد: ٢٦٦، تفسير الصافي ٥: ١٣٩.
٦. تفسير روح البيان ٩: ٣٨٠.
٧. مجمع البيان ٩: ٣٦٣، تفسير الرازي ٢٩: ٢٤٢، تفسير الصافي ٥: ١٣٩، وتفسير روح البيان ٩: ٣٨٠، ولم ينسباه إلى أحد من الرواة.

وعن ابن عباس: نزل آدم من الجنة ومعه خمسة أشياء من الحديد: السَّندان، والكَلْبَتان، والمِيْقَعة[١] أو المِقْمَعة ـ والمِطْرَقة، والإبرة[٢].

وقيل: إنّ الإنزال التهيئه[٣]. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنزاله خلقه»[٤].

﴿وَ﴾ فيه مع ذلك ﴿مَنَافِعُ﴾ كثيرة ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافة، فانّ انتظام العالم ومصالحه بالزراعة والحياكة والبناء والسلطنة، ولايتمّ شيءٌ منها إلّا بالحديد، فلو لم يكن الحديد لاختلّ جميع مصالح العالم، ولذلك جعله الله تعالى بجُوده ورحمته سهل الوجدان كثير الوجود ليستعملوه ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللهُ﴾ ويميّز في الخارج ﴿مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ﴾ ومن يحامي عن دينه وأنبيائه بالسيوف والسِّنان والنِّبال، مع أنّه تعالى ﴿بِالْغَيْبِ﴾ والستر عن نظر ذلك الناظر، وهو مؤمن به بالدلائل و ﴿إِنَّ﴾ كان ﴿ٱللهَ﴾ العظيم لايحتاج إلى نُصرتكم وحمايتكم عن دينه ورُسله؛ لأنّه ﴿قَوِيٌّ﴾ بذاته شديد البطش ﴿عَزِيزٌ﴾ وغالبٌ غير مغلوبٍ، وإنّما يأمُركم بذلك لحاجتكم إليه، وعود نفعه إليكم في العاجل والآجل.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ[٢٦ و ٢٧]

ثمّ لمّا أمر بنُصرة رسله، ذكر عظمة شأن بعض اُولى العزم منهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً﴾ الذي هو أول اُولي العزم من الرسل ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ الذي هو الثاني منهم ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وقرّرنا ﴿فِى ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ ونسلهما طبقةً بعد طبقةٍ ﴿ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ﴾ ولم يكُ نبي إلّا من نسلهما، ولم ينزل كتاب إلّا إليهم ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ إلى الحقّ مؤمن بالكتاب ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ وخارجون عن طاعة الله؛ إما بالكفر، وإمّا بالعصيان ﴿ثُمَّ﴾ لمّا مات نوح وإبراهيم ﴿قَفَّيْنَا﴾ واتّبعنا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ وأعقابهم ﴿بِرُسُلِنَا﴾ كهود وصالح وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأضرابهم واحداً بعد واحدٍ حتّى انتهى إلى زمان عيسى عليه السلام ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ واتبعناهم ﴿بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ وهو آخر أنبياء بني إسرائيل ﴿وَآتَيْنَاهُ﴾

---

١. الميقعة: خشبة القصّار يُدَقّ عليها، والمِسنّ الطويل يُحدّد به، والمطرقة.

٢. تفسير الرازي ٢٩: ٢٤١، تفسير أبي السعود ٨: ٢١٢، وتفسير روح البيان ٩: ٣٧٩، وقد نسباه إلى القيل.

٣. تفسير الرازي ٢٩: ٢٤٢.

٤. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٩: ١٣٩.

وأعطيناه **﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾** الذي فيه هدى ونور **﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ﴾** المؤمنين **﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾** في دينه بهدايته وتربيته **﴿رَأْفَةً﴾** ومودّةً للمؤمنين **﴿وَرَحْمَةً﴾** وعطوفةً عليهم **﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾** وإعراضاً عن الدنيا ولذائذها، ولكن ما أوجبناها عليهم، وإنّما **﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾** وأحدثوها من عند أنفسهم **﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾** وما شرّعناها لهم لطريق النّدْب على ما قيل[1] **﴿إِلَّا ٱبْتِغَاءَ رِضْوَانِ ٱللهِ﴾** وطلباً للقُرب منه. قيل: إنّ الاستثناء منقطعٌ[2]، والمعنى: ما أوجبناها عليهم في كتابهم ولسان رسوله لهم، ولكن التزموها لابتغاء مرضاةِ الله.

عن ابن عباس: أنّ في أيام الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ غيّر الملوك التوراة والإنجيل، فساحَ قومٌ في الأرض ولَبِسوا الصُّوف[3].

وعن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنّه قال: «يابن مسعود، أما عَلِمت أنّ بني إسرائيل تفرّقوا ثلاث و[4] سبعين فرقة كلّها في النار، إلّا ثلاث فرق؛ فرقة آمنوا بعيسى عليه السلام وقاتلوا أعداء الله في نُصرته حتى قُتِلوا، وفرقة لم يكن لها طاقة بالقتال، فأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وفِرقة لم يكن لها طاقة بالأمرين، فلبسوا العَباء، وخرجوا إلى القِفار والفيافي، وهو قوله تعالى: **﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ...﴾** الآية»[5].

وقيل: إنّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى عليه السلام فقاتلوا ثلاث مرات، فقُتلوا حتى لم يبقَ منهم إلّا قليل، فخافوا أن يُفتَنوا في دينهم، فاختاروا الرَّهبانية في قُلل الجبال، فارّين بدينهم، مخلصين أنفسهم للعبادة، منتظرين للبعثة النبوية التي وعدها عيسى عليه السلام[6].

ورُوي أنّ الله لمّا أغرق فرعون وجنوده؛ استاذن الذين كانوا آمنوا من السَّحرة موسى عليه السلام في الرجوع إلى الأهل والمال بمِصر، فأذِن لهم، ودعا لهم، فترهّبوا في رؤوس الجبال، فكانوا أول من ترهّب، وبقيت طائفة منهم مع موسى عليه السلام حتى توفّاه الله، ثمّ انقطعت الرَّهبانية بعدهم حتّى ابتدعها بعد ذلك أصحاب المسيح عليه السلام[7].

﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ ولم يَحْفَظوها قيل: يعني المقتدين بهم بعدهم[8] **﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾** وكمال حِفظها، بل خَلَطوها وأفسدوها بالقول بالتثليث، وأكل الخنزير، وشُرب الخمر، وقصد الرياء والسُّمعة، والكفر

---

١. تفسير جوامع الجامع: ٤٨٣.
٢. تفسير الرازي ٢٩: ٢٤٦، تفسير البيضاوي ٢: ٤٧١، تفسير روح البيان ٩: ٣٨٢. ٣. تفسير الرازي ٢٩: ٢٤٥.
٤. (ثلاث و) ليست في تفسير الرازي. ٥. تفسير الرازي ٢٩: ٢٤٥.
٦. تفسير أبي السعود ٨: ٢١٣، تفسير روح البيان ٩: ٢٨٢.
٧ و٨. تفسير روح البيان ٩: ٣٨٢.

بمحمّد ﷺ.

عن النبي ﷺ قال: «من آمن بي وصدّقني، فقد رعاها حقّ رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون»[١].

﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ برسالة محمد ﷺ ﴿مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ الذي يليق بهم على رَهبانيتهم وإيمانهم بالرسول، وهو المغفرة والجنّة والرضوان ﴿وَ﴾ الأسف أنّه ﴿كَثِيرٌ مِنْهُمْ﴾ وهم الذين ابتدعوها ثمّ ضيّعوها، وكفروا بمحمد ﷺ ﴿فَاسِقُونَ﴾ وخارجون عن حدّ الاتّباع والعقل.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ[٢٨ و ٢٩]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه أنّ الذين آمنوا من أتباع عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ أُتوا أجرهم وكثير منهم لم يؤمنوا، دعاهم سبحانه إلى الايمان به بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بعيسى وسائر الرسل ﴿اتَّقُوا اللهَ﴾ واحذروا عقابه ﴿وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ النبي الأمّي ﴿يُؤْتِكُمْ﴾ الله بإزاء إيمانكم بسائر الرسل وبمحمد ﷺ ﴿كِفْلَيْنِ﴾ ونصيبين من الأجر ﴿مِن رَحْمَتِهِ﴾ وفضله وجوده ﴿وَيَجْعَل لَكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿نُوراً﴾ من بين أيديكم وأيمانكم ﴿تَمْشُونَ بِهِ﴾ في ظلمات العَرَصة إلى الجنّة ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جميع ذنوبكم التي ارتكبتموها في حياتكم الدنيا ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿رَحِيمٌ﴾ بعباده المؤمنين.

عن ابن عباس: أنّه نزل في قومٍ جاءوا من اليمن من أهل الكتاب إلى الرسول ﷺ وأسلموا، فجعل الله لهم أجرين[٢].

رُوي أنّ أهل الكتاب افتخروا بذلك على المسلمين[٣].

وعن الصادق عليه السلام ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ﴾، قال: «الحسن والحسين عليهما السلام» و ﴿نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ يعني إماماً تاتمّون به»[٤] وفي رواية، قال: «والنور علي»[٥].

ثمّ أنّه تعالى بعد دعوة أهل الكتاب بالايمان بنبيه محمد ﷺ، وكانوا يدّعون أنّ النبوة والرسالة

---

١. مجمع البيان ٩: ٣٦٦، تفسير الصافي ٥: ١٤٠، تفسير روح البيان ٩: ٣٨٢.
٢. تفسير الرازي ٢٩: ٢٤٧.
٣. تفسير أبي السعود ٨: ٢١٤، تفسير روح البيان ٩: ٣٨٧.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٥٢، الكافي ١: ٨٦/٣٥٦، تفسير الصافي ٥: ١٤٠.
٥. مناقب ابن شهرآشوب ٣: ٣٨١، تفسير الصافي ٥: ١٤٠.

مختصةً بهم، لكونهم أهل النسب الشريف، والعلم بالكتاب، بيّن سبحانه أنّ جعل الرسالة لمحمد ﷺ الذي ليس من بني إسرائيل، ووعد الأجر الجزيل على الايمان به، ونصيبين من الأجر على إيمان أهل الكتاب به ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ﴾ الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ لعدم كونه من بني إسرائيل، والمشهور زيادة (لا) والمعنى لأن يعلموا ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ﴾ نَيل ﴿شَيْءٍ﴾ قليلٍ ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ وإحسانه، أو تخصيصه وحصره في أقوام معيّنين ﴿وَ﴾ يعلموا ﴿أَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ وبقدرته ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ وقيل: إنّ ﴿لا﴾ نافية، وضمير ﴿يَقْدِرُونَ﴾ راجعٌ إلى الرسول وأصحابه[1]، والمعنى: لئلا يعتقدوا أهل الكتاب أنّ محمداً وأصحابه لا يقدِرون على شيءٍ من فضل الله، فقد عَلِموا أنّهم يقدِرون عليه، والمراد تعظيم النبي ﷺ في نبوته وشَرْعه وكتابه، وليعتقدوا أنّ الفضل بيد الله وفي تصرّفه وسلطانه ﴿وَٱللَّهُ﴾ العظيم ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فانّ العظيم لا يكون فضله إلّا عظيماً.

رُوي: أنّ النبي ﷺ كان يقرأ التسبيحات قبل أن يرقُد ويقول: «إنّ فيهن آيةً أفضل من ألف آية»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة الحديد والمجادلة في صلاة فريضة [وأدمنها]، لم يُعذّبه الله حتّى يموت أبداً، ولا يرى في نفسه ولا في أهله سوءاً أبداً، ولا خَصاصة في بدنه»[3].

وعن الباقر عليه السلام: «من قرأ المسبّحات كلّها قبل أن ينام، لم يَمُت حتى يُدرِك القائم، وإن مات كان في جِوار رسول الله ﷺ»[4].

الحمد لله الذي مَنّ عليّ بالتوفيق لإتمام تفسيرها.

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٤٨.

٢. مجمع البيان ٩: ٣٤٥، تفسير روح البيان ٩: ٣٨٧.

٣. ثواب الأعمال: ١١٧، مجمع البيان ٩: ٣٤٥، تفسير الصافي ٥: ١٤١.

٤. مجمع البيان ٩: ٣٤٥، تفسير الصافي ٥: ١٤١.

في تفسير سورة المجادلة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ[١]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الحديد المتضمّنة لبيان ابتداع الرَّهبانية التي من أركانها ترك التزوّج والعشرة مع الناس في دين المسيح، والمختتمة بدعوة الناس إلى الايمان بخاتم الأنبياء ﷺ الناسخ للرَّهبانية بقوله: «لا رَهبانية في الاسلام»[1] والآمر بالتزويج حيث قال: «النكاح سُنّتي، فمن رَغِب عن سُنّتي فليس منّي»[2] الباعث إلى مصادقة الناس والمعاشرة معهم، نُظِمت سورة المجادلة المتضمّنة لبيان بعض أحكام الأزواج والمباشرة التي يكون الالتزام بها من شؤون الإيمان بمحمد ﷺ والتحذير عن مُوادة الكفار، فابتدأها بذكر أسمائه بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ افتتحها بذكر مقدّمة نسخ حكم الظهار بين الزوج والزوجة بقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ﴾ المرأة ﴿ٱلَّتِى تُجَادِلُكَ﴾ وتُكالمك يا محمد ﴿فِى﴾ شأن ﴿زَوْجِهَا﴾ وتُراجعك بالكلام فيه ﴿وَتَشْتَكِى إِلَى ٱللَّهِ﴾ ممّا لقيته من ظِهار زوجها ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ وتَخاطبكما فيه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لكلّ مقالٍ ﴿بَصِيرٌ﴾ بكلّ حالٍ.

في بيان شأن نزول آيات الظهار

رُوي أنّ خَولة بنت ثعلبة[3] بن مالك بن خُزاعة الخَزْرجية كانت حَسَنة البدن، رآها زوجها أوس بن الصامت أخو عُبادة وهي تُصلّي، فاشتهى مواقعتها، فلمّا سلّمت راودها فأبت، فغَضِب أوس، وكان به خِفّة، وقال: أنت عليّ كظهر أُمّي، ثمّ نَدِم وقال لها: ما أظُنّك إلّا وقد حَرُمتِ عليّ، فشقّ ذلك عليها، فأتت رسول‌الله ﷺ وعائشة تغسل شِقّ رأسه عليه السلام فقالت: يا رسول الله، إنّ زوجي أوس بن الصامت أبو ولدي وابن عمّي وأحبّ الناس إليّ،

---

١. النهاية لابن الأثير ٢: ٢٨٠. ٢. جامع الاخبار: ٧٣٧/٢٧١.

٣. في النسخة: تغلب، وما في المتن من مجمع البيان، راجع: أُسد الغابة ٥: ٤٤٢.

ظاهر منّي ونَدِم[١]. وفي رواية قالت: إنّ أوساً تزوّجني وأنا شابة مرغوبٌ فيّ، فلمّا علا سنّي وكثُر ولدي جعلني كأمّه.

فقال ﷺ لها: «ما عندي في أمرك شيءٌ»[٢]. وفي رواية قال: «حرُمت عليه» فقالت: لاتَقُل ذلك يا رسول الله، إنّ لي صبية صِغار إن ضَمَمتم إليّ جاعوا، وإن ضَمَمتهم إلى أبيهم ضاعوا.

فأعاد النبيّ ﷺ قوله الأول فجعلت تراجع رسول الله ﷺ مقالتها الأولى، وكلّما قال لها رسول الله ﷺ قوله الأول هتفت وقالت: أشكو إلى الله ممّا لقيت من زوجي حال فاقتي ووحدتي، وقد طالت معه صحبتي، ونفضت له بطني. وكانت ترفع في كلّ ذلك رأسها إلى السماء وتقول: اللهمّ أنزل على لسان نبيّك ﷺ، فقامت عائشة تغسل الشِّقّ الآخر من رأسه وهي ما زالت في مراجعة الكلام مع رسول الله ﷺ وبثّ الشكوى إلى الله حتى نزل جَبْرئيل بهذه الآيات الأربع[٣].

وفي رواية: كلّما قال لها رسول الله ﷺ «حَرُمت عليه» هتفت وشكت إلى الله، فبينما هي كذلك إذ تَربّد وجه رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآيات[٤]، وقريب من الروايتين مروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، والصادقين عليهما السلام[٥].

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَراً مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنَّ ٱللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢ ـ ٤]

ثمّ بيّن الله بطلان حكم الجاهلية في امرأةٍ ظاهر منها زوجها أنها تصير حراماً أبدياً على زوجها، ونَسَخه بقوله: **﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾** أيّها المسلمون، ويقولون لأزواجهم: أنت عليّ كظهر اُمّي، اجتناباً **﴿مِّن نِّسَآئِهِم﴾** وأزواجهم، لا يَحْرُمن على أزواجهنّ بجهة الأمومة، و **﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾** لا حقيقة ولا تنزيلاً من الله **﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾** الحقيقية، وما والداتهم الواقعية **﴿إِلَّا﴾** النساء **﴿ٱلَّٰٓـِٔى**

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٣٨٨، مجمع البيان ٩: ٣٧١.
٢. تفسير الرازي ٢٩: ٢٤٩.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٣٨٨.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ٢٤٩.
٥. تفسير القمي ٢: ٣٥٣، الكافي ٦: ١/١٥٢، من لا يحضره الفقيه ٣: ١٦٤١/٣٤٠، تفسير الصافي ٥: ١٤٣.

وَلَدْنَهُمْ﴾ ووضعنهم من بطنهنّ على الأرض ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ الأزواج ﴿لَيَقُولُونَ﴾ بقولهم: إنهنّ كأمّهم في الحُرمة الأبدية ﴿مُنكَراً مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ ومخالفاً للشرع والعقل من الكلام ﴿وَزُوراً﴾ وباطلاً ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ﴾ وكثير التجاوز عن الذنوب التي منها هذا القول، إن تاب أو إن لم يتُب ﴿غَفُورٌ﴾ وستّارٌ للمعاصي بجُوده وكرمه.

ثمّ أنه تعالى بعد بيان عدم تأثيره [في] تأييد حرمة الزوجة على الزوج، بيّن ما يترتّب عليه في دين الاسلام بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِسَائِهِمْ﴾ ويقولون لهنّ هذا القول المُنكَر ﴿ثُمَّ﴾ يَنْدَمون و ﴿يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ من الظِّهار، ويرجِعون عمّا عَزَموا عليه من الاجتناب من الزوجة بقولهم ذلك إلى إلغائه والاستمتاع منها. وقيل: يعني يعودون إلى ما حرّموا على أنفسهم بلفظ الظّهار من الاستمتاع[١]، وعليه نزّل القول منزلة المقول فيه ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ واعتاق إنسانٍ مملوكٍ من قيد الملكية واجبٌ عليه، سواء أكان المملوك ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، مؤمناً أو كافراً، ولابدّ أن يكون التحرير ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ ويتلاقيا بشهوةٍ واستمتاع ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ التحرير أيّها المؤمنون ليس لتعريضكم للثواب بالتحرير، بل الغرض إنّكم ﴿تُوعَظُونَ﴾ وتَنْزَجرون ﴿بِهِ﴾ ممّا ارتكبتم من القول المُنكَر والزُّور، وترتدعون عنه، أو تؤمرون به ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الظِّهار والتكفير ونحو ذلك من القليل والكثير ﴿خَبِيرٌ﴾ ومُطّلع، ومجازيكم عليه ﴿فَمَن لَمْ يَجِدْ﴾ من المظاهرين الرقبة بأن لا يضملِكها ولا يُمكنه تَمَلّكها بالعِوض لفقره، أو لعدم وجودها[٢] في بلده ونواحيه حين إرادة التكفير ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ هلاليين ﴿مُتَتَابِعَيْنِ﴾ واجبٌ عليه بأن يصوم شهراً هلالياً ويوماً من الشهر الآخر متواليين بلا فصل بين الأيام، ثمّ يُتِمّ الشهر الآخر متوالياً أو متفرقاً ﴿مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ ويتجامعا[٣] ويتقاربا بشهوة ﴿فَمَن لَمْ يَسْتَطِعْ﴾ صيام شهريت بالكيفية المذكورة، ولم يُطق ذلك لضعف البنية أو للهرم أو للمرض أو لخوفه ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ وإشباع هذا العدد من الفقراء بالإباحة أو بتمليك كلّ واحدٍ مُدّاً من الطعام قبل أن يتماسّا، وإنّما جعلنا ﴿ذَٰلِكَ﴾ الحكم الموافق للحكمة بالبيان المُعجِز ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ وتُصدّقوا ﴿بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولا تستمرّوا على حُكم الجاهلية، من القول بأنّ الظِّهار أشدّ أنواع الطلاق، وكونه مُحرّماً أبدياً للزوجة ﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكام ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ وشرائعه المقرّرة في دينه الذي هو مرتضيه[٤]، لابدّ من إطاعتها والعمل بها ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ والمنكرين لها في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وموجِع غايته.

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٥٦، تفسير أبي السعود ٨: ٢١٦.
٢. في النسخة: وجوده.
٣. في النسخة: يجامعا.
٤. في النسخة: مرضيّة.

رُوي أنّ النبي صلى الله عليه وآله أرسل إلى أوس بن الصامت، وقال: «ما حملك على ما صنعت؟» فقال الشيطان: فهل من رخصةٍ؟ فقال: نعم. وقرأ عليه الأربع آيات، وقال له: هل تستطيع العتق؟ فقال: لا والله[1]. وفي رواية: قال: إذن يذهب جُلّ مالي.

فقال: «هل تستطيع الصوم؟» فقال: لا والله، لولا إنّي كُل في اليوم مرةً أو مرتين لكَلّ بصري ولظننت أني أموت[2]. وفي رواية قال: فصيام شهرين متتابعين؟ قال: يا رسول الله، إذا لم آكُل في اليوم ثلاث مرات كلّ بصري، وخشيت أن تعشو عيني.

فقال له: «هل تستطيع أن تُطعم ستين مسكيناً؟» فقال: لا والله يا رسول الله، إلّا أن تُعينني منك بصدقةٍ، فأعانه بخمسة عشر صاعاً، وأخرج أوس من عنده مثله[3]. وفي رواية: قال صلى الله عليه وآله: «أعينك بخمسة عشر صاعاً، وأنا أدعو لك بالبركة» وتلك البركة بقيت في آله[4].

عن الباقر عليه السلام: «أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال: إنّ امراةً من المسلمات أتت النبي صلى الله عليه وآله فقالت: يا رسول الله، إنّ فلاناً زوجي، وقد نثرت له بطني[5]، وأعنته على دنياه وآخرته، لم يَرَ منّي مكروهاً، أشكوه إلى الله وإليك. فقال صلى الله عليه وآله: ممّا تشتكيه؟ قال: إنّه قال أنتِ عليّ كظهر اُمّي، وقد أخرجني من منزلي، فانظُر في أمري.

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أنزل الله تبارك وتعالى كتاباً أقضي فيه بينك وبين زوجك، وأنا أكره أن أكون من المتكلّفين، فجعلت تبكي وتشتكي ما بها إلى الله عز وجل، وإلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وانصرفت.

قال: «فسَمع الله مجادلتها لرسول الله صلى الله عليه وآله في زوجها، وما شكت إليه، فأنزل الله عز وجل ذلك قرآنا: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ يعني مُحاورتها لرسول الله صلى الله عليه وآله في زوجها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم ...﴾ الآية».

قال: «فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المرأة فأتته، فقال لها: جيئيني بزوجك، فأتته به، فقال له: اقلت لامرأتك هذه أنت عليّ كظهر اُمّي؟ فقال: قد قلتُ لها ذلك. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: قد أنزل الله تبارك وتعالى فيك وفي امرأتك قرآناً، فقرأ عليه ما أنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٤٩.
٢. تفسير الرازي ٢٩: ٢٤٩، تفسير روح البيان ٩: ٣٩٥.
٣ و٤. مجمع البيان ٩: ٣٧١، تفسير روح البيان ٩: ٣٩٥.
٥. نثرت المرأة بطنها: كثر ولدها.

ثمّ قال: فضمّ إليك امرأتك، فانّك قد قلت منكراً من القول وزوراً، وقد عفا الله عنك وغفر لك ولا تعُد. قال: فانصرف الرجل وهو نادمٌ على ما قاله لامرأته.

وكره الله ذلك للمؤمنين بعدُ، وأنزل الله ﴿ٱلَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ يعني ما قال الرجل الأوّل لامرأته: أنتِ عليّ كظهر أمّي. قال: فمن قال بعد ما عفا الله وغفر للرجل الأول، فانّ عليه ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ يعني مجامعتها ﴿ذٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَن لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَماسَّا فَمَن لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً﴾ فجعل الله عقوبة من ظاهر بعد النبي ﷺ هذا، ثمّ قال: ﴿ذٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ﴾ قال: هذا حدّ الظهار».

ثمّ قال: «لا يكون ظِهار في يمين وإضرار، ولا في غضب، ولا يكون ظِهار إلّا على طُهرٍ من غير جِماع بشهادة شاهدين مسلمين»[1].

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ ٱللهُ وَنَسُوهُ وَٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [٥ و ٦]

ثمّ لمّا كان تغيير حُكم الجاهلية ثقيلاً على المشركين، وسبباً لشدّة عداوتهم، هدّد سبحانه المعاندين للرسول ﷺ بقوله: ﴿أَنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾ ويُعاندونهما، أو يضعون حدوداً وأحكاماً غير حدودهما وأحكامهما ﴿كُبِتُوا﴾ وأُخزُوا وأُذلّوا في الدنيا ﴿كَمَا كُبِتَ﴾ وأُخزي وأُذِلّ الأقوام ﴿ٱلَّذِينَ﴾ كانوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ بمعاندتهم لرسلهم استكباراً عليهم، كقوم نوح وعاد وثمود ﴿وَ﴾ الحال إنّا ﴿قَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ودلائل واضحات على صدق الرسول وصحّة ما جاء به من الأحكام والحدود ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ بالله والرسول والمنكرين لأحكامهما أو الكافرين بتلك الآيات في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ومُذِلّ يُذهِب بعزّهم وكِبَرهم.

ثمّ بالغ سبحانه في تهديدهم بقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللهُ﴾ ويُخرِجهم من القبور أحياءً ﴿جَمِيعاً﴾ لا يترُك منهم أحداً، أو مجتمعين في حالةٍ واحدةٍ ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ الله في ذلك اليوم، ويُنبّههم على رؤوس الأشهاد تخجيلاً وتوبيخاً لهم وتشهيراً لحالهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ في الدنيا وارتكبوا فيها من الكفر ومعاندة الرسول وغيرهما من العِصيان الذي ﴿أَحْصَاهُ ٱللهُ﴾ وأحاط به من الكمية والكيفية والزمان

---

١. الكافي ٦: ١/١٥٢، تفسير الصافي ٥: ١٤٣.

والمكان وسائر مشخّصاته ﴿وَ﴾ هم ﴿نَسُوهُ﴾ استحقاراً له وتهاوناً به ﴿وَٱللَّهُ﴾ العظيم الخالق لكلّ شيء ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الموجودات ومخلوقاته وأحوالها، وعلى جميع أحوال عباده وأفعالهم وضمائرهم والمكتومات في خواطرهم ﴿شَهِيدٌ﴾ ومُطّلع لا تَخفى عليه خافيه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَجْوَىٰ ثَلاَثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ [٧ و ٨]

ثمّ أكّد سبحانه سَعَة علمه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيّها الرائي، ولم تعلم علماً يكون كالمشاهدة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ بالذات ﴿مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ﴾ السبع ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الحقير والجليل، والنَّقير والقِطمير، والمحسوس وغير المحسوس.

عن ابن عباس، قال: نزلت في ربيعة وحبيب ابني عمرو، وصفوان بن اُمية، كانوا يوماً يتحادثون فقال أحدهم: أترى أنّ الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضاً وقال الثالث: إنْ كان يعلم بعضه فهو يعلم كلّه، وصدق لأنّ من يعلم بعض الأشياء بغير سبب، فقد عَلِمها كلّها؛ لأنّ كونه عالماً بغير سبب ثابتٌ له مع كلّ معلومٍ، فنزلت[١].

﴿مَا يَكُونُ﴾ وما يوجد ﴿مِن نَجْوَىٰ ثَلاَثَةٍ﴾ من الأشخاص ومسارّتهم في حال من الأحوال ﴿إِلَّا﴾ في حال ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿رَابِعُهُمْ﴾ وحاضرٌ عندهم ومشارك معهم في الاطّلاع عليها ﴿وَلاَ﴾ نجوى ﴿خَمْسَةٍ﴾ من الأشخاص ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى ﴿سَادِسُهُمْ﴾ في العلم والاطلاع.

قيل: تخصيص العددين بالذكر لخصوص الواقعة[٢]، فإنّ المجتمعين في النجوى كانوا مرة ثلاثة، ومرة خمسة، أو لكون العدد الوِتر أشرف من الزوج[٣] فاكتفى بذكر الوِترين الأولين، أو لكون الغالب في التشاور يكون من ثلاثة إلى الستة، ليكونوا أقلّ لفظاً، وأجدر رأياً، واكتم سرّاً.

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٦٥، تفسير روح البيان ٩: ٣٩٨. ٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٩٨.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ٢٦٥.

ثمّ عمّم الحُكم بقوله: ﴿وَلاَ أَدْنَىٰ﴾ وأقلّ ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾ العدد كالاثنين والواحد ﴿وَلاَ أَكْثَرَ﴾ منه كالستة وما فوقها ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى ﴿مَعَهُمْ﴾ بالعلم والاحاطة لا يَخفى عليه نجواهم ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ وفي أيّ مكانٍ اجتمعوا وتناجوا ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ ويُخبرهم ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾ من خيرٍ أو شرّ، وطاعة أو عِصيان ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ تفضيحاً للعصاة، وتوبيخاً لهم، وتشهيراً لفضل المطيعين، وتبشيراً لهم بالكرامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من الأشياء والأعمال الجليات والخفيّات ﴿عَلِيمٌ﴾ ومحيطٌ.

ثمّ رُوي أنّ اليهود والمنافقين كانوا يتناجون فيما بينهم، ويجتمعون ثلاثة وخمسة، ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين، يُريدون أن يُغيضوهم، فنهاهم النبي ﷺ، ثمّ عادوا لمثل فعلهم[١]، فوبّخهم الله سبحانه على ذلك بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، ولم تنظُر ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا﴾ من جانب الله ﴿عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ والمكالمة سرّاً ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ من النجوى ويُكرّرونه.

ثمّ بيّن سبحانه النجوى التي نهوا عنها[٢] بقوله: ﴿وَيَتَنَاجَوْنَ﴾ ويُسارون بينهم ﴿بِالْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ﴾ للمؤمنين من المَكْر بهم أو بشيءٍ يَسُوؤهم ﴿وَمَعْصِيَةِ ٱلرَّسُولِ﴾ في نهيه عن النجوى ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ﴾ يا محمّد ﴿حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ قيل: كانوا يقولون: السام عليك، ويُريدون بالسام الموت أو القتل بالسيف، ويُوهمون أنّهم يقولون: السلام عليك[٣]. وقيل: كانوا يقولون: أنعِم صباحاً، وهو تحية الجاهلية، وتحية الله للمرسلين هي السلام[٤]. ﴿وَيَقُولُونَ فِى أَنفُسِهِمْ﴾ وفيما بينهم إذا خرجوا من عندك: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ وهلّا يبتلينا بالعقوبة ﴿بِمَا نَقُولُ﴾ من الدعاء بالشرّ، أو تحيّة الجاهلية؟

ثمّ ردّهم الله بقوله: ﴿حَسْبُهُمْ﴾ وكافيهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ في التعذيب، فانّهم يوم القيامة ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويدخُلونها بعُنفٍ ويُقاسون حرّها لامُحالة ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمرجع لهم جهنّم.

رُوي أنّ عائشة سَمِعت قول اليهود، فقالت: عليكم السام والذامّ واللعن. فقال النبي ﷺ: «يا عائشة، ارفُقي فانّ الله يُحبّ الرِّفق في كلّ شيءٍ، ولا يُحبّ الفُحش والتفحّش، ألا سَمِعت ما رددتُ عليهم، قلت: عليكم، فيُستجاب لي منهم»[٥].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٤٧٥، تفسير روح البيان ٩: ٤٠٠.
٢. في النسخة: الذي نهوا عنه.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٤٠٠.
٤. تفسير البيضاوي ٢: ٤٧٥، تفسير روح البيان ٩: ٤٠٠.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٤٠٠ و٤٠١.

ٱلرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِى إِلَيهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ[٩و ١٠]

ثمّ أمر سبحانه المؤمنين المخلصين بالعمل بخلاف ما يعمله اليهود والمنافقون بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بألسنتكم وقلوبكم ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلاَ تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ﴾ والقبيح الذي يَخُصّكم ﴿وَٱلْعُدْوَانِ﴾ والعمل الذي يُؤدّي إلى الظُّلم بالغير ﴿وَمَعْصِيَةِ ٱلرَّسُولِ﴾ ومخالفته، ولا تَسْلُكوا في نجواكم مسلك المنافقين ﴿وَ﴾ لكن ﴿تَنَاجَوْا بِالْبِرِّ﴾ والاحسان إلى أنفسكم وإلى إخوانكم المؤمنين ﴿وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ وترك المعاصي والقيام بالطاعة ﴿وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِى إِلَيهِ﴾ بعد خروجكم من القبور ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وإلى مقام عدله تُساقون، فيُجازيكم حسب أعمالكم.

ثمّ أكّد سبحانه النهي عن النجوى بما ذكر من الأمور القبيحة بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ بتلك الأُمور تصدُر ﴿مِنَ﴾ تسويلات ﴿ٱلشَّيْطَانِ﴾ وتزيينه في أنظاركم ﴿لِيَحْزُنَ﴾ قلوب ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ حيث تُوهمهم النجوى أنّ المتناجين بلغهم قتل أقربائهم وإخوانهم المؤمنين الذين خرجوا إلى الجهاد، أو هزمهم[١] العدوّ أو أصابتهم نكبة ﴿وَلَيْسَ﴾ الشيطان، أو التناجي ﴿بِضَارِّهِمْ شَيْئاً﴾ قليلاً وقدراً يسيراً ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ﴾ وإرادته ومشيئته. قيل: بأن يُبيّن لهم كيفية مناجاة الكفّار حتّى يزول غمّهم[٢] ﴿وَعَلَى ٱللهِ﴾ وحده لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وإليه فليفوّضوا أُمورهم، ولا يبالوا بنجوى المنافقين.

عن النبي صلّى الله عليه وآله قال: «إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فانّ ذلك يُحزِنه»[٣].

وقيل: إنّ المراد بالنجوى في الآية الأخيرة الأحلام التي يراها الانسان في نومه فتُحزِنه[٤].

في ذكر رؤيا فاطمة عليها السلام وما يُدفَع به ضرر رؤيا السوء

روى بعض العامة أنّ فاطمة عليها السلام رأت كأنّ الحسن والحسين أكلا من أطيب جَزُور بعثه رسول الله صلّى الله عليه وآله إليهما فماتا، فلمّا غدت سألت النبي صلّى الله عليه وآله، وسأل هو جَبرئيل، وسأل جَبرئيل مَلَك الرُّؤيا فقال: لا علم لي به، فعلم أنّه من الشيطان[٥].

وعن الصادق عليه السلام قال: «سبب نزول الآية أنّ فاطمة عليها السلام رأت في منامها أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله همّ أن يخرُج هو وفاطمة وعلي والحسن والحسين عليهم السلام من المدينة، فخرجوا حتى جازوا حيطان المدينة، فعرض لهم طريقان، فأخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله ذات اليمين حتى انتهى إلى موضعٍ فيه

١. في النسخة: انهزمهم. ٢. تفسير الرازي ٢٩: ٢٦٨.
٣. مجمع البيان ٩: ٣٧٧، تفسير الصافي ٥: ١٤٦، تفسير روح البيان ٩: ٤٠٢.
٤. مجمع البيان ٩: ٣٧٧، تفسير الصافي ٥: ١٤٦. ٥. تفسير روح البيان ٩: ٤٠٢.

نخلٌ وماءٌ، فاشترى رسول‌الله ﷺ شاةً دراء ـ وهي التي في أحد اُذنيه نُقَط بيض ـ فأمر بذبحها، فلمّا أكلوا [منها] ماتوا [في] مكانهم، فانتبهت فاطمة عليها السلام باكيةً ذَعِرةً، فلم تُخبِر رسول الله ﷺ بذلك.

فلمّا أصبحت جاء رسول الله ﷺ بحمارٍ، فأركب عليه فاطمه عليها السلام وأمر أن‌يخرُج أمير المـؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام من المدينة كما رأت فاطمة عليها السلام في نومها، فلمّا خرجوا من حيطان المدينة، عرض لهم طريقان، فأخذ رسول‌الله ﷺ ذات اليمين حتّى انتهى إلى موضعٍ فيه نخلٌ وماءٌ، فاشترى رسول‌الله ﷺ شاةً درّاء، كما رأت فاطمة، فأمر بذبحها فذُبِحت وشُويت، فلمّا أرادوا أكـلها قـامت فاطمة وتنحّت ناحيةً منهم تبكي مخافة أن يموتوا، فطلبها رسول‌الله ﷺ حتى وقع عليها وهي تبكي فقال: ما شأنك يا بُنيّة؟ قالت: يا رسول‌الله، رأيت البارحة كذا وكذا في نومي، وقد فـعلت أنت كـما رأيته، فتنحّيت عنكم لئلا أراكم تموتون.

فقام رسول الله ﷺ وصلّى رَكْعتين، ثمّ ناجى ربّه، فنزل جَبْرَئيل، فقال: يا محمد، هذا شيطان يقال له الزهّار، هو الذي أرى فاطمة هذه الرؤيا، ويُؤذي ويُري المؤمنين في نومهم ما يغتمّون به، فجاء به إلى رسول الله ﷺ فقال له: أنت الذي أريت هذه الرؤيا، فقال: نعم يا محمد، فبزق عليه ثلاث بزقات قبيحةٍ في ثلاثة مواضع.

ثمّ قال جَبْرَئيل لمحمد ﷺ يا محمد، إذا رأيت شيئاً في منامك تركهه، أو رأى أحدٌ من المؤمنين يقول: أعوذ بما عاذت به ملائكة الله المقربون وأنبياء الله المرسلون وعباده الصالحون مـن شـرّ مـا رأيت من رؤياي، ويقرأ الحمد، والمَعُوذتين، وقل هو الله أحد، ويتفِل عن يساره [ثلاث] تَفلات فانّه لا يَضُرّه ما رأى، فأنزل الله عز وجل على رسوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ...﴾ الآية[1].

وعنه عليه السلام: «إذا رأى الرجل منكم ما يكره في منامه فليتحوّل من شِقّه الذي كان عليه نائماً، وليقل: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ﴾ ثمّ ليقل: عُذتُ بما عاذت بـه مـلائكة الله المقرّبون وأنبياؤه المرسلون وعباده الصالحون من [شرّ ما رأيت ومن] شرّ الشيطان الرجيم»[2].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي ٱلْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ ٱللهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ[١١]

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٥٥، تفسير الصافي ٥: ١٤٦.

٢. الكافي ٨: ١٤٢/١٠٦، تفسير الصافي ٥: ١٤٧.

ثمّ إنّه تعالى بعد النهي عن النجوى التي توجب[١] التباغض وشدة الاتّصال في المجلس، أمر عباده بما يُوجب التودّد والتحابب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ﴾ [سواء أ]كان القائل قريباً أو بعيداً، أو وَضيعاً أو شريفاً: يا إخواني ﴿تَفَسَّحُوا﴾ وتوسّعوا ﴿فِى ٱلْمَجَالِسِ﴾ والأماكن التي تجلسون فيها على المؤمنين الواردين عليكم ﴿فَافْسَحُوا﴾ ووسّعوا عليهم حتّى يجلسوا بينكم، فإذا تفسّحتم ووسّعتم في المكان على الواردين ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ﴾ ويُوسّع ﴿لَكُمْ﴾ فيما تُريدون التوسعة فيه من الصدور والرزق والقبر وغيرها.

في فضيلة أهل العلم

قيل: إنّ المراد مجلس النبي ﷺ، كان الأصحاب يتضامّون فيه تنافساً على القُرب منه، وحِرصاً على استماع الكلام[٢].

عن ابن عباس: دخل ثابت بن قيس بن الشمّاس في مسجد النبي ﷺ، وقد أخذ القوم مجالسهم، وكان يُريد القُرب من النبي ﷺ للوَقْر الذي كان في أُذنه، فوسّعوا له حتى قرُب، ثمّ ضايقه بعضهم، وجرى بينه وبينهم كلامٌ، فوصف للرسول ﷺ محبّة القُرب منه ليستمع كلامه، وأن فلاناً لم يَفْسَح له، فنزلت هذه الآية، فأمر القوم بأن يُوسّعوا ولا يقوم أحدٌ لأحدٍ[٣].

وقيل: إنّ الأصحاب كانوا يُحبّون القُرب من رسول الله ﷺ، وكان الرجل يكره أن يُضيّق عليه، فربما سأله [أخوه] أن يفسح له فيأبى، فأمرهم الله بأن يتعاطفوا ويتحمّلوا المكروه، وكان فيهم من يكره أن يَمَسّه الفقراء، وكان أهل الصُّفّة يلبسون الصوف ولهم روائح[٤].

وعن مقاتل: أنّ النبي ﷺ كان يوم الجمعة في الصُّفّة، وفي المكان ضِيقٌ، وكان ﷺ يُكرِم أهل بدر من المهاجرين والأنصار، فجاء ناسٌ من أهل بدر، وقد سبقوا إلى المجالس، فقاموا حِيال النبي ﷺ ينتظرون أن يُوسّع لهم، فعرف رسول‌الله ﷺ ما يحمِلهم على القيام، وشقّ ذلك على الرسول ﷺ، فقال لمن حوله من أهل بدر: «قم يا فلان، قم يا فلان» فلم يزل يُقيم بعِدّة النفر الذين هم قيام بين يديه، فشقّ ذلك على من أُقيم من مجلسه، وعُرِفت الكراهة في وجوههم، وطعن المنافقون في ذلك، وقالوا: والله ما عدل على هؤلاء، إنّ قوماً أخذوا مجالسهم، وأحبّوا القُرب منه فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه، فنزلت هذه الآيه يوم الجمعة[٥].

وقيل: إنّ المراد من التفسّح والتوسّع في مقاعد القتال، وكان الرجل يأتي الصفّ فيقول: تفسّحوا

---

١. في النسخة: الذي يوجب.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٤٠٣.
٣ و٤. تفسير الرازي ٢٩: ٢٦٩.
٥. تفسير الرازي ٦٩: ٢٦٨.

فيأبون حرصاً على الشهادة[١]، والحقّ عُموم الآية لجميع الأشخاص والمجالس، فانّ مورد النزول لايُخصّص العموم.

وقيل: إنّ المراد بالقائل رسول الله ﷺ، فانّه كان إذا دخل المسجد يقوم له الناس، فنهاهم الله عن أن يقوموا له، وقال: تفسّحوا له في المجالس[٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ آنشُزُوا﴾ وقوموا من مكانكم للتوسعة على الوارد، أو انهضوا من مجلس الرسول، ولا تُطيلوا الجلوس عنده فتُمِلّوه، أو انهضوا إلى الصلاة والجهاد وغيرهما من الأعمال الخيرية ﴿فَانشُزُوا﴾ وانهضوا وقوموا طاعةً للأمر، وتواضعاً للمؤمنين، وتوسعةً للاخوان، ومسارعةً للخيرات، إذن ﴿يَرْفَعِ آللَّهُ﴾ بالنصر وحُسن الذكر وكمال النفس في الدنيا والإيواء في غُرف الجِنان في الآخرة ﴿آلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ بايمانهم وعملهم الصالح ﴿وَ﴾ يرفع ﴿آلَّذِينَ أُوتُوا آلْعِلْمَ﴾ خاصة لجهة علمهم المقارن للعمل ﴿دَرَجَاتٍ﴾ رفيعة عالية في الفضل والإكرام في الدنيا والآخرة مراتب سامية في الروض والرضوان.

ذكر فضيلة العلماء

عن النبي ﷺ: «بين العالم والعابد مائة درجة، بين كلّ درجةٍ حُضر[٣] الجواد المُضمَر سبعين سنة»[٤].

وفي رواية أُخرى عنه ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أُمّتي»[٥].

وفي أُخرى: «كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[٦].

وعنه ﷺ أيضاً: «فضل العالم على الشهيد درجة، وفضل الشهيد على العابد درجة، وفضل النبي على العالم درجة، وفضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه، وفضل العالم على سائر الناس كفضلي على أدناهم»[٧].

وعن الباقر عليه السلام: «عالم يُنتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد»[٨].

ثمّ بالغ سبحانه في الحثّ على الطاعة بقوله: ﴿وَآللَّهُ﴾ بكلّ شيءٍ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أيّها المؤمنون من امتثال أوامره والانزجار عن معاصيه ﴿خَبِيرٌ﴾ ومطّلع، فيجازيكم على الطاعة بأفضل الثواب،

---

١. جوامع الجامع: ٤٨٥، تفسير الرازي ٢٩: ٢٦٩.

٢. تفسير القمي ٢: ٣٥٦، تفسير الصافي ٥: ١٤٨، وفيهما: فقال: تفسحوا، أيّ وسّعوا له في المجلس.

٣. الحُضر: عَدْوٌ ذو وثب.

٤. جوامع الجامع: ٤٨٥، تفسير الصافي ٥: ١٤٨، تفسير روح البيان ٩: ٤٠٤.

٥. تفسير روح البيان ٩: ٤٠٤.

٦. جوامع الجامع: ٤٨٥، تفسير الصافي ٥: ١٤٨، تفسير روح البيان ٩: ٤٠٤.

٧. مجمع البيان ٩: ٣٨٠، تفسير الصافي ٥: ١٤٨.

٨. الكافي ١: ٨/٢٥، تفسير الصافي ٥: ١٤٨.

ويُعذّبكم على عصيانه بأسوء العذاب.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَٱللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ[١٢ و ١٣]

ثمّ لمّا عَلّم الله المؤمنين ما يتناجون به من البرّ والتقوى، عظّم الرسول ﷺ ونجواه بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ**﴾ وكالمتموه سرّاً في بعض شؤونكم كما عن بعض[1]، أو في استفسار حال رؤياكم كما عن آخر[2] ﴿**فَقَدِّمُوا**﴾ وأعطوا المستحقّين ﴿**بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ**﴾ وقبلها ﴿**صَدَقَةً**﴾ ومقداراً ما من المال تقرّباً إلى الله ﴿**ذٰلِكَ**﴾ التصدّق ﴿**خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ أيّها المؤمنون في دينكم من تركه ﴿**وَأَطْهَرُ**﴾ لأنفسكم من رِجس المعاصي ودَنَس البُخل.

عن ابن عباس: لمّا أكثر المسلمون السؤال على رسول الله ﷺ حتى أسأموه وأمَلّوه، أراد الله أن يُخفّف عن نبيّه ﷺ فنزلت الآية، وأمرهم الله بتقديم الصدقة عند نجواه، فكفّ كثيرٌ من الناس عن المناجاة وشحّوا[3].

قيل: أراد سبحانه بهذا الأمر تعظيم النبي ﷺ، ونفع الفقراء، والزجر عن الإفراط في السؤال، وتمييز المخلص عن المنافق، ومُحِبّ الآخرة عن مُحِبّ الدنيا، إذ لم يُناجه أحدٌ من أصحابه عشرة أيام إلّا عليّ عليه السلام[4].

أقول: وأراد سبحانه تفضيح أغنياء الصحابة كأبي بكر على ما ادّعاه شيعته من أنّه كان غنياً، وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأضرابهم، وظهور فضيلة أميرالمؤمنين وخُلوصه في الايمان، وحبّه للآخرة ومناجاة الرسول ﷺ.

روى بعض العامة عن علي عليه السلام أنّه قال: «إنّ في كتاب الله آية ما عَمِل بها أحدٌ قبلي، ولايعمل بها أحد بعدي، كان لي دينار فاشتريت به عشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت الرسول ﷺ تصدّقت بدرهم»[5].

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٤٠٤.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٤٠٥.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ٢٧١.
٤. تفسير جوامع الجامع: ٤٨٥.
٥. تفسير الرازي ٢٩: ٢٧١، تفسير البيضاوي ٢: ٤٧٦، تفسير أبي السعود ٨: ٢٢١، تفسير روح البيان ٩: ٤٠٥.

وروى الفخر الرازي عن كثير من مفسري العامة، عن ابن عباس: أنّ المسلمين نُهوا عن مناجاة النبي ﷺ حتّى يتصدّقوا، فلم يُناجِه أحدٌ إلّا علي عليه السلام تصدّق بدينار، ثمّ نزلت الرُّخصة[١].

ورووا عن عبدالله بن عمر أنّه قال: كان لعلي عليه السلام ثلاث لو كانت لي واحدة منهنّ كانت أحبّ إلي من حُمر النَّعم: تزويجه فاطمة عليها السلام، وإعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى[٢].

في ردّ قول القاضي وبيان فساد قول الفخر الرازي

وقال القاضي أبوبكر: والأكثر في الروايات أنّه تفرّد بالتصدّق قبل مناجاته، ثمّ ورد النسخ، وإن كان قد رُوي أيضاً أنّ أفاضل الصحابة وجدوا الوقت وما فعلوا ذلك[٣].

والعجب إنّه لتوغّله في الضلال، وتعصّبه لمذهبه الباطل، تردّد فيما اتفقت عليه روايات العامة والخاصة من إطاعة عليّ عليه السلام أمر الله وعِصيان مشايخه وأئمّته، وهمّ بدفع الطعن عنهم بقوله: «وإن ثبت أنّه اختصّ بذلك، فلأنّ الوقت لم يتّسع لهذا الفرض، وإلّا فلا شُبهة أنّ أكابر الصحابة لا يقعُدون عن مثله»[٤].

أقول: فيه أنّ دعوى ضيق الوقت بعد رواياتهم بأن الحكم كان باقياً عشرة أيام ممّا تضحك به الثكلى، وأمّا أفاضل الصحابة كسلمان وأبي ذرّ والمِقداد وعمّار وحُذيفة وأضرابهم، كانوا لفقرهم خارجين عن هذا الحكم بقوله: ﴿**فَإِن لَمْ تَجِدُوا**﴾ ما تتصدّقون به لايجب عليكم ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ**﴾ للمذنبين ﴿**رَحِيمٌ**﴾ بالمؤمنين، لا يُكلّفهم بما لا يُطيقون.

والحاصل إنّ أفاضل الصحابة الذين اتفقنا على فضلهم وخلوص إيمانهم كانوا فقراء غير متمكّنين من التصدّق، وأمّا غيرهم فقد بَخِلوا بالتصدّق لعدم اشتياقهم إلى صُحبة النبي ﷺ ومناجاته ولم يسو عندهم صحبة النبي ﷺ بدرهم، ولذا صار تركهم الصدقة من أكبر المطاعن عليهم، وتصدّق أميرالمؤمنين عليه السلام بعشرة دراهم من أعظم فضائله، ولا يُصغى إلى قول القاضي بأن الصحابة ما وجدوا الوقت[٥].

وبذلك يظهر فساد ما ذكره الفخر الرازي من أنّه على تقدير أنّ الصحابة وجدوا الوقت ولم يفعلوا، فهذا لا يجرّ إليهم طعناً؛ لأنّ ذلك الإقدام على هذا العمل ممّا يضيق به قلب الفقير، فانّه لا يقدِر على مثله فيضيق قلبه، ويُوحِش قلب الغنيّ، فانّه لمّا لم يفعل الغني وفعله غيره، صار ذلك الفعل سبباً للطعن فيمن لم يفعل، فهذا الفعل لمّا كان سبباً لحزن الفقراء ووحشة الأغنياء، لم يكن في تركه كبير

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٧١ و٢٧٢.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٤٠٦.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ٢٧٢.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ٢٧٢.
٥. تفسير الرازي ٢٩: ٢٧٢.

مضرّة، لأنّ الذي يكون سبباً للأُلفة أولى ممّا يكون سبباً للوحشة[١].

والعجب أنّه يظهر من آخر كلامه أنّ ترك الصدقة كان أولى من التصدّق، وهو منافٍ للروايات الدالة على فضيلة أمير المؤمنين عليه السلام بالعمل بالآية والتصدّق قبل مناجاته النبي صلى الله عليه وآله، وتوبيخ الله سبحانه تاركي التصدّق بقوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ أيّها المسلمون وخفتم من ﴿أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ﴾ وقبل مسارّتكم مع النبي صلى الله عليه وآله ﴿صَدَقَاتٍ﴾ قيل: إفراد الصدقة أولاً لكفاية شيء قليل منها، وإتيانها بصيغة الجمع هنا لكثرة التناجي والمناجي[٢].

ثمّ لمّا ظهر حال المؤمن الصادق في إيمانه المشتاق إلى مكالمة النبي صلى الله عليه وآله مثل أمير المؤمنين عليه السلام، والمنافق غير المشتاق، نسخ سبحانه الحكم بقوله: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ ما اُمرتم به، وبَخِلتم وشقّ عليكم بذل أقلّ قليلٍ من أموالكم لدرك مكالمة النبي صلى الله عليه وآله، وتحصيل عِلم دينكم، وهو ذنب، رفع ذلك الحكم ﴿وَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ وقَبِل ندامتكم، وعفا عنكم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما يكلّفانكم[٣] من فعل سائر الواجبات وترك المحرّمات ﴿وَاللهُ﴾ العالم بكلّ شيء ﴿خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليه إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ.

قال أبو مسلم الأصفهاني من مفسّري العامة: إنّ الآية ليست ناسخة، فانّ المنافقين كانوا يمتنعون من بذل الصدقات، وإن قوماً تركوا النفاق وآمنوا ظاهراً وباطناً، فأراد الله أن يُميّزهم، فأمر بتقديم الصدقة على النجوى ليتميز هؤلاء الذين آمنوا إيماناً حقيقياً عمّن بقي على نفاقه، وإذا كان هذا التكليف لهذه المصلحة المُقدّرة بذلك الوقت، لاجَرم يُقدّر هذا التكليف بذلك الوقت[٤].

في ردّ أبي مسلم الأصفهاني

أقول: حاصل قوله: إنّ مصلحة التكليف بالصدقة قبل النجوى، كانت في الواقع وفي علم الله مقدّرة بغاية مخصوصة، فوجب انتهاء التكليف عند انتهاء مقتضيه إلى الغاية، ومقتضى كلامه أنّ غير أمير المؤمنين عليه السلام من أغنياء الصحابة كانوا منافقين، لامتناعهم عن التصدّق، وبعد ظهور حالهم ارتفع التكليف.

ثمّ اعلم أنّه لا معنى للنسخ عندنا إلّا إطلاق الحكم في الظاهر وتقييده في الواقع بوقتٍ معين، وإلّا يلزَم البَداء، ولذا توافقت الروايات العامة والخاصة في كون الآية ناسخة لإيجاب الصدقة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِم مَا هُم مِنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٧٢.

٢. تفسير روح البيان ٩: ٤٠٦.

٣. في النسخة: يكلفونكم.

٤. تفسير الرازي ٢٩: ٢٧٢.

عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ ٱللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِنَ ٱللهِ شَيْئاً أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ[١٤ـ١٧]

ثمّ لمّا افتضح المنافقون بيّن سبحانه سوء حال المنافقين، وأظهر التعجّب من سوء صنيعهم بقوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾ يا من يعقِل، أو يا محمد، ولم تنظُر ﴿**إِلَى**﴾ المنافقين ﴿**ٱلَّذِينَ**﴾ يـ﴿**تَوَلَّوْا**﴾ن، وتوادّوا ﴿**قَوْماً**﴾ من اليهود، مع أنّهم قومٌ ﴿**غَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِم**﴾ ولعنهم حيث ينقُلون أسرار المؤمنين إليهم، والعجب أنّ هؤلاء المنافقين مذبذبين ﴿**مَا هُم مِنكُمْ**﴾ وليسوا من زُمرتكم، لكفرهم في الباطن ﴿**وَلاَ مِنْهُمْ**﴾ لعدم اعتقادهم بدين اليهود، وإذا لقوكم قالوا: إنّا مسلمون، أو المراد إنّهم يشتُمون الله ورسوله، ويكيدون المسلمين، وإذا قيل لهم: إنّكم فعلتم كذا وكذا، أو قلتم كذا وكذا، قالوا: والله ما فعلنا ذلك وما قُلنا ذلك ﴿**وَيَحْلِفُونَ**﴾ ويُقسِمون بالله ﴿**عَلَى**﴾ ادّعائهم ﴿**ٱلْكَذِبِ**﴾ تحفّظاً على أنفسهم من القتل، وعلى أموالهم من النّهب ﴿**وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ كِذب ما حلفوا عليه، وهذا الحَلْف في غاية الشناعة والقباحة.

ثمّ هدّدهم سبحانه بقوله: ﴿**أَعَدَّ ٱللهُ**﴾ وهيّأ ﴿**لَهُمْ**﴾ في القبر على قول بعضٍ، أو في الآخرة ﴿**عَذَاباً شَدِيداً**﴾ لا يمكن تحديد شدّته وتوصيفها، لأجل ﴿**إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ من الكفر بالله ورسوله، وموادّة اليهود واليمين الغَمُوس[١].

رُوي أنّ النبي ﷺ كان في حُجرة من حُجراته، فقال لأصحابه: «يدخُل عليكم الآن رجلٌ قلبه قلب جبّار، وينظُر بعين الشيطان» فدخل عبدالله بن نبتل، وكان أرزق، فقال ﷺ: «على م تشتُمني أنت وأصحابك؟ فحلف بالله ما فعل. فقال ﷺ: «فعلت» فانطلق بأصحابه فحلفوا بالله ما سبّوه، فنزلت الآيات[٢].

ثمّ ذمّهم سبحانه بقوله: ﴿**ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ**﴾ الفاجرة حين الخوف من المسلمين ﴿**جُنَّةً**﴾ وتُرساً يَحْفَظون به أنفسهم من سيوف المسلمين، وأموالهم من النّهب ﴿**فَصَدُّوا**﴾ ومنعوا الناس ﴿**عَن**﴾ الدخول في دين الاسلام، وسُلوك ﴿**سَبِيلِ ٱللهِ**﴾ والعمل بما يُوجِب قُربهم إليه في خلال أمنهم وسلامتهم، بإدخال الشُّبهات في القلوب، وذكر المطاعن للاسلام، وتعييب المسلمين ﴿**فَلَهُمْ**﴾ في

---

١. اليمين الغموس: الكاذبة، تغمس صاحبها في الإثم.

٢. تفسير روح البيان ٩: ٤٠٨.

الآخرة بسبب كُفرهم وصدّهم طلباً للعزّ عند الكفّار، وتكبّراً على الرسول ﷺ ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لهم غاية الهوان، ومذلّ لهم أشدّ الذُّلّ ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ ولن تكفيهم للوقاية، ولا تنفعهم أبداً ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾ التي جمعوها في الدنيا ﴿وَلاَ أَوْلاَدُهُم﴾ الذين يفتخرون بهم ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿اللهِ﴾ إذا دخلوا النار ﴿شَيْئاً﴾ قليلاً من الإغناء والنفع ﴿أُولٰئِكَ﴾ البعيدون من ساحة رحمة الله ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وملازموها أو مالكوها: لأنّهم اكتسبوها بأعمالهم في الدنيا ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ومقيمون أبداً، لا نجاة لهم منها.

رُوي أن واحداً منهم قال: إن كان ما يقول محمد حقاً لندفعنّ العذاب من أنفسنا بأموالنا وأولادنا، فنزلت الآية تكذيباً له[1].

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ[١٨]

ثمّ بيّن سبحانه وقت ابتلائهم بالعذاب وخُلودهم في النار بقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾ ويُخرِجهم من القبور أحياءً، ويسوقهم ﴿جَمِيعاً﴾ إلى المحشر. وقيل: المعنى: واذكر يا محمد يوم يبعثم الله جميعاً[2] ﴿فَيَحْلِفُونَ﴾ هؤلاء المنافقون في ذلك اليوم حين حضورهم في مقام عتاب الله ﴿لَهُ﴾ كذباً بقولهم: والله ربّنا ما فعنا كذا وكذا، وما كنا مشركين ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أيّها المسلمون في الدنيا كذباً بقولهم: والله إنّا منكم، وما هم منكم ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ ويتوهّمون ﴿أَنَّهُمْ﴾ بتلك الأيمان الكاذبة ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من جلب نفع أو دفع ضرر، كما كانوا في الدنيا عليه حيث كانوا يدفعون بالأيمان الكاذبة عن أنفسهم وأموالهم ضرر المسلمين، ويجلُبون إليهم فوائد ﴿أَلاَ﴾ تنبّهوا أيّها العقلاء ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ والمُصرّون على الكذب إلى حدّ لايُتصوّر فوقه، حيث كانوا يتجاسرون عليه بين يدي علّام الغيوب، وزعموا أنّ الحَلْف يُروِّج[3] به الكذب لديه، كما يُروَّجه عند الغافلين.

قيل: إنّ ذكر ﴿أَلاَ﴾ التنبيهية مشعرٌ بتوغّلهم في النّفاق وتعوّدهم به بحيث لا ينفكّون عنه في الدنيا ولا في الآخرة[4].

اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ[١٩]

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٤٠٩. ٢. تفسير روح البيان ٩: ٣٩٧.

٣. روّج السلعة: أنفقها، وروّج الكلام: زيّنه، أو أبهمه فلا تُعلم حقيقته. ٤. تفسير روح البيان ٩: ٤٠٩.

ثمّ بيّن سبحانه علّة إصرارهم على مخالفة الله وعِصيانه بقوله: ﴿ٱسْتَحْوَذَ﴾ واستولى ﴿عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَانُ﴾ ومَلَك قلوبهم بحيث يسوقهم إلى طاعته فيما يُريد منهم ﴿فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ ٱللهِ﴾ وأغفلهم عن التوجّه إليه بحيث لا يخطِر ببالهم تصوّر أنّهم مخلوقه ومربوبه ﴿أُولٰئِكَ﴾ البعيدون عن الله وعن كلّ خيرٍ ﴿حِزْبُ ٱلشَّيْطَانِ﴾ وجُنده وأتباعه ﴿أَلَآ﴾ أيّها العقلاء اعلموا ﴿إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَانِ﴾ وجُنده ﴿هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾ والمتضرّرون بغاية الضرر في الدنيا والآخرة، حيث فوّتوا على أنفسهم النعيم المؤبّد، وأبدلوه بالعذاب المخلّد.

عن القمي، قال: نزلت في الثاني، لأنـه مرّ رسول الله ﷺ وهو جالسٌ عند رجلٍ من اليهود، يكتُب خبر رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا ...﴾ الآية. فجاء الثاني إلى النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «رأيتك تكتُب من اليهود، وقد نهى الله عزّ وجلّ عن ذلك؟» فقال: يا رسول الله، كتبت عنه ما في التوراة من صفتك. وأقبل يقرأ ذلك على رسول الله ﷺ وهو غضبان. فقال رجل من الأنصار: ويلك أماترى غضب النبي ﷺ عليك؟ فقال: أعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، إنّي إنّما كتبتُ ذلك لما وجدت [فيه] من خبرك. فقال له رسول الله ﷺ: «يا فلان، لو أنّ موسى بن عمران فيهم قائماً، ثمّ أتيته رغبةً عمّا جئت به، لكنت كافراً بما جئت به».

وهو قوله: ﴿ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي حِجاباً بينهم وبين الكفار، وأيمانهم إقرارهم باللسان خوفاً من السيف ودفع الجزية.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ قال: إذا كان يوم القيامة جمع الله الذين غصبوا آل محمد حقّهم، فيعرِض عليهم أعمالهم، فيحلِفون له إنّهم لم يعملوا منها شيئاً، كما حلفوا لرسول الله ﷺ في الدنيا حين حلفوا أن لا يردّوا الولاية في بنيهاشم، وحين همّوا بقتل رسولالله ﷺ في العقبة، فلمّا أطلع الله نبيه وأخبره حلفوا إنّهم لم يقولوا ذلك، ولم يَهُمّوا به حين أنزل الله على رسوله: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ﴾[١]. قال: إذا عرض الله عزّ وجلّ ذلك عليهم [في القيامة] يُنكرون ويحلِفون له، كما حلفوا لرسول الله ﷺ وهو قوله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللهُ جَمِيعاً ...﴾ الآية[٢].

أقول: الظاهر تطبيق الآية على أعمالهم، لا أنّه شأن نزولها.

---

١. إلى هنا في تفسير القمي.

٢. تفسير القمي ٢: ٣٥٧، تفسير الصافي ٥: ١٥٠.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ * كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِى إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ[٢٠ و ٢١]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان أنّ الكفار والمنافقين الذين هم حزب الشيطان هم الخاسرون، بيّن سبحانه أنّهم أذلّ خلق في الدنيا والآخرة، وأنّ العِزّة والغَلَبَة لله ولرسوله بقوله: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ﴾** ويُعارضون **﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** ويُعاندونهما من الكفّار والمنافقين، **﴿أُولَٰئِكَ﴾** البعيدون من كلّ خيرٍ كائنون **﴿فِى﴾** زمرة **﴿ٱلْأَذَلِّينَ﴾** من خلق الله، فانّ ذلّ أحد الخصمين على حسب عزّ الخصم الآخر، ومن الواضح أنّ عزّ الله لانهاية له، فلا بدّ أن يكون ذلّ خصومه لا نهاية له.

ثمّ بيّن سبحانه عزّ المؤمنين الذين هم حزبه بقوله: **﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾** في اللّوح المحفوظ، وقدّر في علمه والمكتوب فيه هو: والله **﴿لَأَغْلِبَنَّ﴾** على الأعداء المجادلين والمعارضين **﴿أَنَا وَرُسُلِى﴾** بالحجّة لدى المحاجّة، وبالسيف لدى المنازعة.

ثمّ بيّن سبحانه علّة تلك الغَلَبة بقوله: **﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾** لا يُتصوّر فيه الضعف، قدير لا يطرؤه العجز[1]. **﴿عَزِيزٌ﴾** وغالب على جميع الموجودات، لا يمنعه مانعٌ عن إنفاذ إرادته.

عن مقاتل: انّه قال المؤمنون: لئن فتح الله لنا مكة والطائف وخيبر وما حولهنّ، رجونا أن يُظهرنا الله على فارس والروم. فقال عبد الله بن أُبي رئيس المنافقين: أتظنّون الروم وفارس كبعض القرى التي غَلَبتم عليها، والله إنهم لأكثر عدداً وأشدّ بطشاً من أن تظنّوا فيهم ذلك، فنزل قوله: **﴿كَتَبَ ٱللَّهُ ...﴾** الآية[2].

لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ[٢٢]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه حال المنافقين، وأنّهم يتولّون اليهود وأهل الكتاب، بيّن حال المؤمنين المخلصين بقوله: **﴿لَا تَجِدُ﴾** يا محمّد، ولا يمكن أن‌ترى **﴿قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾** عن صميم القلب والخلوص من شَوْب النفاق **﴿يُوَادُّونَ﴾** ويُحابّون **﴿مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾** ويُعاندونهما، كأهل الكتاب والمشركين **﴿وَلَوْ كَانُوا﴾** هؤلاء المعاندون **﴿آبَاءَهُمْ﴾** الذين هم أكرم

---

١. كذا، والظاهر لا يطرؤ عليه العجز.

٢. تفسير روح البيان ٩: ٤١٠.

الناس عندهم، ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ الذين هم أحبّ الناس إليهم ﴿أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾ الذين هم أعزّ الناس لديهم ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ وأقرباءهم الذين هم أولى الناس بموادّتهم، لامتناع اجتماع حُبّ الله ورسوله في القلب مع محبّة أعدائهما.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ العظماء الذين تصلّبوا في دينهم، ولايُوادّون أعداء الله ﴿كَتَبَ﴾ الله وأثبت ﴿فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ ورسّخه فيها ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ وقوّاهم على القيام بوظائف الايمان ﴿بِرُوحٍ﴾ حاصلٍ ﴿مِنْهُ﴾ تعالى، وهو نور القرآن على قولٍ[1]، أو الايمان كما عن (الكافي) عنهما عليهما السلام[2].

وعن الصادق عليه السلام: «ما من أحدٍ إلّا ولقلبه أُذنان في جوفه؛ أُذن ينفُثُ فيها الوَسْواس الخَنّاس، وأُذن ينفُثُ فيها المَلَك، فيُؤيّد الله المؤمن بالمَلَك، فذلك قوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾»[3].

وعن الكاظم عليه السلام: «أنّ الله تبارك وتعالى أيّد المؤمن برُوحٍ منه تحضُره في كلّ وقتٍ يُحسِن فيه ويتّقي، وتغيب عنه في كلّ وقت يُذنِب فيه ويعتدي، فهي معه تهتزّ سروراً عند إحسانه، وتسِيخ في الثرى عند إساءته ....» الخبر[4].

وعن الباقر عليه السلام في قول رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إذا زنى الرجل فارقه روح الايمان». قال: «قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾»[5].

﴿وَيُدْخِلُهُمْ﴾ في الآخرة برحمته ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ذوات أشجار وقُصور ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ أبداً، والأعلى والأعظم من جميع النِّعم أنه ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بسبب إيمانهم وأعمالهم ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بسبب وفورإنعامه عليهم وإكرامه لهم في الدنيا والآخرة.

ثمّ لمّا بيّن أنّ الكفّار والمنافقين حزب الشيطان، جعل المؤمنين الخُلّصين حزبه بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ وجُنده وأنصاره ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفائزون بجميع الخيرات الدنيوية والأُخروية، كما أنّ حزب الشيطان هم الخاسرون المحرومون عن جميع الخيرات.

قيل: نزلت الآية في حاطب بن أبي بلتعة حين أخبر أهل مكة بمسير النبي صلّى الله عليه وآله إليهم لمّا أراد فتحها[6].

قد سبق في آخر سورة الحديد ثواب تلاوتها. الحمد لله الذي منّ عليّ بالتوفيق لإتمام تفسيرها.

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٤١٣.
٢. الكافي ٢: ٢ و١/١٣ و٥، تفسير الصافي ٥: ١٥١.
٣. الكافي ٢: ٣/٢٠٦، تفسير الصافي ٥: ١٥٢.
٤. الكافي ٢: ١/٢٠٦، تفسير الصافي ٥: ١٥٢.
٥. الكافي ٢: ١١/٢١٣، تفسير الصافي ٥: ١٥٢.
٦. تفسير الرازي ٢٩: ٢٧٧.

في تفسير سورة الحشر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * هُوَ ٱلَّذِى أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة المجادلة المختتمة ببيان كون الكفّار والمنافقين حزب الشيطان، وكون المؤمنين المخلصين حزب الله، وأنّ الغَلَبة لله ولرسوله، وذمّ المنافقين على موادّتهم لليهود، نُظِمت سورة الحشر المبتدئة ببيان عَظَمة الله، وكونه غالباً غير مغلوبٍ، وبيان غلبته على الكفّار وذلّتهم، وبيان موالاة المنافقين لهم، فابتدأها بذكر أسمائه الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾

ثمّ عظمّ ذاته المقدّسة ببيان تسبيح جميع الموجودات له بقوله: ﴿سَبَّحَ لِلهِ﴾ ونزّهه عن كلّ ما لا يليق به جميع ﴿مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ذاتاً وحالاً ومقالاً على حسبهم، كما قال سبحانه: ﴿وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ وقال ابن مسعود: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكَل[1].

ثمّ وصف ذاته المُقدّسة بياناً لاستحقاقه التسبيح بالعزّة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ والغالب القاهر على كلّ شيءٍ، وبالحكمة البالغة بقوله: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ وتوطئته لبيان غَلَبته على أهل الكتاب وإذلالهم، الذي هو من آثار عِزّته، وبيان إجلائهم الذي هو من مقتضيات حكمته بقوله: ﴿هُوَ﴾ العزيز الغالب ﴿ٱلَّذِى أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ﴾ وهم طائفة بني النَّضير ﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾ وأوطانهم في الوقت المقدّر ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ والإخراج من مكانهم إلى الشام.

حُكي أنّ بني النَّضير وبني قُريضة وبني قَيْنُقاع كانوا من أولاد هارون أخي موسى بن عمران، نزلوا بيثرب، واستوطنوا فيها انتظاراً لبعثة النبي ﷺ الموعود في التوراة، فلمّا هاجر النبي ﷺ من مكّة إلى المدينة، عاهدهم على أن لا يكونوا له ولا عليه، فلمّا ظهر ﷺ يوم بدر قالوا فيما بينهم: هذا النبيّ الموعود الذي نَعْتُه في التوراة أنه لا تُرَدّ له راية، فلمّا انكسر جيش النبي ﷺ في اُحد، شكّوا ونكثوا

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٤١٥.

العهد.

فخرج كعب بن أشرف ـ أحد رؤساء بني النَّضير ـ في أربعين راكباً إلى مكة، وحالفوا قريشاً على قتال النبي ﷺ، فلمّا رجع كعب إلى المدينة نزل جَبْرَئيل على رسول الله ﷺ، وأخبره بنقض بني النَّضير عهدهم، وتعاهدهم قريشاً على قتاله، فأمر النبي ﷺ محمد بن مَسلَمة الأنصاري، وكان أخا كعب بن أشرف من الرَّضاعة أن يقتُله غِيلةً، فأتاه ليلاً فاستخرجه من بيته، وقال: إنّي أتيتك لاستقرض منك شيئاً من التمر، فخرج إليه فقتله، ورجع إلى النبي ﷺ وأخبره، ففَرِح به، لأنّه أضعف قلوبهم[1].

وفي بعض الأخبار: أنّه ﷺ ذهب إلى بني النَّضير في نفرٍ من أصحابه، للاستعانة منهم في دِية، فقالوا: نعم يا أبا القاسم حتّى تُطعَم وترجِع بحاجتك، وكان ﷺ جالساً إلى جنب جِدار من بيوتهم، فخلا بعضهم ببعضٍ وقالوا: إنّكم لن تجدوا الرجل على مثل تلك الحالة، فهل من رجل يعلو على هذا البيت فيُلقي عليه صخرةً فيُريحنا منه؟ فقال عمرو بن جَحّاش ـ أحد ساداتم ـ: أنا لذلك. فقال لهم سلّام بن مِشْكَم ـ أحد ساداتهم ـ: لا تفعلوا، والله ليُخْبَرنّ بما هممتم به، إنّه لنقضٌ للعهد الذي بيننا وبينه. فلمّا صَعِد الرجل ليُلقي الصخرة أتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام ﷺ مُظهِراً أنّه يقضي حاجته، وترك أصحابه في مجالسهم، ورجع مسرعاً إلى المدينة، ولم يعلم من كان معه من أصحابه، فلمّا استبطؤوه قاموا في طلبه، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة، فسألوه فقال: رأيته داخل المدينة.

فأقبل أصحابه حتّى انتهوا إليه، فأخبرهم بما أرادت بنو النَّضير، فنَدِم اليهود، وقالوا: قد أُخبر بما أردنا، فأرسل محمد بن مَسْلَمة إليهم: أن اخرُجوا من بلدي ـ وهم كانوا في قرية زاهرة من أعمال المدينة ـ فلا تُساكنوني بها، فلقد هَممتم بما هَممتم من الغدر. فسكتوا ولم يقولوا حرفاً، فأرسل إليهم المنافقون أن أقيموا في حُصونكم فإنّا نُمدّكم.

فأرسل حُيي بن أخطب ـ أحد رؤسائهم ـ إلى رسول الله ﷺ: إنّا لا نخرُج من ديارنا، فافعل ما بدا لك. اغتراراً بقول المنافقين، فسار رسول الله ﷺ مع أصحابه إليهم راكباً على حمارٍ مخطومٍ بليفٍ، وحمل رايته علي بن أبي‌طالب ﷺ حتى نزل بهم وصلّى العصر بفِنائهم، وقد تحصّنوا وقاموا على حِصنهم يرمون بالنِّبال والحِجارة، وزَرّبوا[2] على الأزقّة وحصّنوها، فحاصرهم رسول الله ﷺ إحدى

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٤١٦.

٢. أي اتخذوا الزرائب، جمع زَريبة: الحفرة. ولعلّه تصحيف (ودرّبوا) على ما سيأتي لاحقاً عن تفسير الرازي.

وعشرين ليلة.

فلمّا قُذِف في قلوبهم الرُّعب، وأيسوا من نصر المنافقين، طلبوا الصُّلح، فأبى عليهم إلّا الجَلاء، على أن يحمل كلّ ثلاثة أبيات على بعير ما شاءوا من مَتاعهم إلّا السلاح، فحملوا ستمائة بعير، وضربوا الدُّفوف، وأظهروا السُّرور إظهاراً للجَلادة، وعبروا من سوق المدينه، وذهبوا إلى الشام إلى أريحا من فِلَسْطين، وإلى أذرعات من دمشق، إلّا أهل بيتين منهم آل أبي الحُقيق، وآل حُيي بن أخطب، فانّهم لحقوا بخيبر، ولحقت طائفة منهم بالحيرة من قُرى الكوفة، ولم يُسلِم من بني النَّضير إلّا رجلان، وكان هذا الحشر والإخراج لأهل الكتاب أول إخراجٍ لم يكُن قبله إخراج لهم من مكانٍ[١].

وقيل: هذا أول حشرهم، وآخره إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام حين بلغه الخبر عن النبي ﷺ أنّه قال: «لايبقينّ دينان في جزيرة العرب»[٢].

وقيل: آخر حشرهم يوم القيامة[٣]. وقيل: يكون في الرجعة[٤].

وعن ابن عباس: قال لهم النبيّ ﷺ: «اخرُجوا» قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»[٥].

مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِنَ ٱللهِ فَأَتَاهُمُ ٱللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى ٱلْأَبْصَارِ * وَلَوْلاَ أَن كَتَبَ ٱللهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلاَءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِ ٱللهَ فَإِنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * مَا قَطَعْتُم مِن لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَاسِقِينَ[٢ـ٥]

ثمّ بيّن سبحانه غاية قوّتهم بقوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ وما رجوتم في حقّ بني النَّضير ﴿أَن يَخْرُجُوا﴾ من المدينة وما حولها، لشدّة بأسهم ومَنَعتهم وغاية عزّتهم وشوكتهم ﴿وَظَنُّوا﴾ هؤلاء الكَفَرة ﴿أَنَّهُم مَانِعَتُهُمْ﴾ وحافظتهم ﴿حُصُونُهُم﴾ المنيعة ﴿مِنَ﴾ بأس ﴿ٱللهِ﴾ وقهره ﴿فَأَتَاهُمُ ٱللهُ﴾ بإذلالهم وخِذلانهم ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ ومن سببٍ لم يتوهّموا، وهو قتل كعب بن أشرف غِيلةً ﴿وَ﴾ بذلك ﴿قَذَفَ﴾ وألقى ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ والخوف الشديد، وكان حالهم حين الرُّعب

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٢١٧. ٢. تفسير روح البيان ٩: ٤١٨.
٣. جوامع الجامع: ٤٨٦، تفسير أبي السعود ٨: ٢٢٥، تفسير روح البيان ٩: ٤١٨.
٤. تفسير الصافي ٥: ١٥٣، وفيه: في الرجفة. ٥. مجمع البيان ٩: ٣٨٧، تفسير الصافي ٥: ١٥٣.

أنهم ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ ومساكنهم ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ ليسدّوا بأخشابها و حِجارتها أبواب الأزقّة، أو لئلا تبقى بعد جلائهم للمسلمين، أو لينقلوا معهم بعض آلاتها المرغوب فيها ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. قيل: إنّهم كانوا يُخرِبون بيوتهم من داخل، والمسلمون من خارج[1].

وقيل: إنّهم درّبوا[2] على الأزقّة وحصّنوها، افتقضوا بيوتهم وجعلوها كالحصون على أبواب الأزقّة، وكان المسلمون يُخربون سائر جوانبها[3].

وقيل: إنّ المسلمين كانوا يُخرِبون ظواهر البلد، واليهود لمّا أيقنوا بالجلاء يُخربون البيوت، لينزعوا الأخشاب والأبواب وغيرها من الآلات الحسنة، ويحمِلوها معهم[4].

ثمّ لمّا بيّن سبحانه سوء عاقبة الغدر والكفر، وإبادته شوكة اليهود وكسر قوّتهم، أمر أهل البصيرة بالاعتبار بقوله: ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾ واتّعظوا ﴿يَا أُولِى ٱلْأَبْصَارِ﴾ فلا تغدِروا، ولا تعتمدوا على غير الله في أمرٍ من الأُمور. عن ابن عباس: يُريد يا أهل اللُّب والعقل والبصائر[5].

﴿وَلَوْلَاَ أَن كَتَبَ ٱللهُ﴾ في حقّ بني النَّضير، وقدّر ﴿عَلَيْهِمُ﴾ بمقتضى حكمته البالغة ﴿ٱلْـجَلَاءَ﴾ الخروج من أوطانهم ﴿لَعَذَّبَهُمْ﴾ بالقتل والأسر، أو بعذاب الاستئصال ﴿فِى ٱلدُّنْـيَا﴾ علـى كـفرهم وغدرهم ﴿وَلَهُمْ﴾ مع الجلاء ﴿فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ بعد خروجهم من الدنيا ﴿عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ لا نجاة لهم منه ﴿ذٰلِكَ﴾ الجلاء ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللهَ وَرَسُولَهُ﴾ وعاندوهما، وخالفوا عهدهما ﴿وَمَن يُشَاقِ ٱللهَ﴾ كائناً من كان، يُعاقبه الله أشدّ العقاب ﴿فَإِنَّ ٱللهَ﴾ على من شاقّه وخالفه ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

ثمّ رُوي أنّ النبي ﷺ أمر بقطع نخيل اليهود وإحراقها، فجاؤوا إليه، وقالوا: يا محمد، إنّك قد كنت تنهى عن الفساد في الأرض، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟ وكان في أنفس المؤمنين من ذلك شيءٌ فنزلت[6]: ﴿مَا قَطَعْتُم مِن لِينَةٍ﴾ ونخلةٍ كريمةٍ قصيرةٍ طيبة الثمرة، أو أيّ نخلٍ من نخيلهم بأنواعها ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا﴾ كما كانت، ولم تقطعوها ﴿فَبِإِذْنِ ٱللهِ﴾ وأمره لمصلحة ازدياد غيظ الكفّار وتضاعف حسرتهم بسبب نفاذ حُكم أعدائهم في أعزّ أموالهم ﴿وَلِـيُخْزِىَ﴾ ويُـذلّ اليـهود ﴿ٱلْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعة الله، فانّ في كلٍّ من القطع والترك حكمةً ومصلحةً.

وَمَا أَفَاءَ ٱللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلٰكِنَّ ٱللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ[٦]

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٨٠.
٢. درّب الجنديُّ: صبر في الحرب وقت الفرار.
٣و٤. تفسير الرازي ٢٩: ٢٨٠.
٥. تفسير الرازي ٢٩: ٢٨٢.
٦. تفسير الرازي ٢٩: ٢٨٣، تفسير روح البيان ٩: ٤٢٣.

ثمّ بيّن سبحانه حُكم ما بقي منهم من أموالهم بقوله: ﴿وَمَا أَفَاءَ ٱللهُ﴾ وردّه ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ﴾ من الأملاك والأموال ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أيّها المسلمون، ولا أسرعتم السير في تحصيله ﴿مِنْ خَيْلٍ﴾ وجماعة أفراس ﴿وَلاَ رِكَابٍ﴾ وجماعة الابل، ولا تحمّلتم مشقةً عظيمةً، ولا قتالاً شديداً، وما قطعتم مسافةً بعيدةً.

قيل: إنّ قُرى بني النّضير كانت على ميلين من المدينة، لم يركب أحدٌ في مسيرهم إليهم إلّا النبي ﷺ، فانّه رَكِب حماراً مَخْطوماً باللِّيف، أو جملاً على ما قاله بعض[١].

والحاصل أنّه لم تحصُل هذه الغنيمة بقتالكم ﴿وَلٰكِنَّ ٱللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ﴾ على حسب سُنّته الجارية ﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ تسليطه عليه من أعدائه بغير الأسباب الظاهرية، فلا حقّ لكم في أموالهم، بل هي مختصّةٌ به، مُفَوَّضٌ أمرها إليه، يضعها حيث يشاء ﴿وَٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قيل: نزلت حين طلب الصحابة من الرسول ﷺ قسمة أموالهم عليهم، كما قسّم الغنيمة بينهم، فبيّن الله الفرق بين الغنيمه والفيء، فانّ الغنيمة فيما أتعب المسلمون أنفسهم في تحصيله، وأوجفوا عليه بخيلٍ ورِكابٍ، بخلاف الفيء فانّه مالم يتحمّل [المسلمون] في تحصيله تعباً شديداً[٢].

وقيل: إنّ أموال بني النّضير اُخذت بالقتال والمحاصرة أياماً، فلم تكن فيئاً، وإنما نزلت الآية في فَدَك، لأنّ أهل فَدَك جلوا عنه، فصارت تلك القرى والأموال في يد الرسول ﷺ من غير حرب[٣].

مَا أَفَاءَ ٱللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ[٧]

ثمّ أكّد سبحانه حكم الفيء في أموال بني النَّضير ببيان حُكم كلّي الفيء بقوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ ٱللهُ﴾ وردّه ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ﴾ أموال ﴿أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ والبلدان بغير حربٍ وقتالٍ ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ أشرك ذاته المقدّسة مع رسوله تشريفاً له ﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وأرحام الرسول ﷺ من بني هاشم وبني عبد المطّلب ﴿وَٱلْيَتَامَىٰ﴾ منهم ﴿وَٱلْمَسَاكِينِ﴾ والفقراء منهم ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ والمسافرين المنقطعين عن أموالهم منهم.

روى بعض العامة أنّ النبي ﷺ كان يُقسّم الفيء خمسة أسهم، ويتصرّف في أربعة أخماس كيف يشاء، ويُقسّم الخُمس الباقي خمسة أسهم، ويأخُذ لنفسه خُمس الخُمس، ويُقسّم أربعة أخماس

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٤٢٦.

٢و٣. تفسير الرازي ٢٩: ٢٨٤.

الباقية إلى الأصناف الأربعة من بني هاشم[١].

وعن أمير المؤمنين: «نحن والله الذين عنى الله بذي القربى الذين قرنهم الله بنفسه و بنبيه ﷺ فقال: ﴿مَا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ منّا خاصة، ولم يجعل لنا سهماً في الصدقة، كرّم الله نبيّه ﷺ وأكرمنا من أوساخ أيدي الناس»[٢].

وعن السجّاد عليه السلام قال: «قرباؤنا، ومساكيننا، وأبناء سبيلنا»[٣].

ثمّ ذكر سبحانه علّة اختصاص الفيء بهذه الأصناف المعينة في الآية بقوله: ﴿كَىْ لاَ يَكُونَ﴾ الفيء الذي حقّه أن يكون للرسول ﷺ وفقراء أقربائه ﴿دُولَةً﴾ وشيئاً متداولاً ودائراً ﴿بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَاءِ﴾ وذوي الثروة ﴿مِنكُمْ﴾ أيّها الناس يتكاثرون به، كما كان يتداول بين الأغنياء في الجاهلية، وينتقل من غنيٍّ إلى غنيّ، ويُحرَم منه الفقراء ﴿وَمَا آتَاكُمُ﴾ وأعطاكم ﴿ٱلرَّسُولُ﴾ من الأمر فيئاً كان أو حكماً ﴿فَخُذُوهُ﴾ واقبلوا منه ﴿وَمَا نَهَاكُمْ﴾ وردعكم ﴿عَنْهُ﴾ من إتيان عملٍ أو التصرف في مالٍ ﴿فَانتَهُوا﴾ وارتدعوا عنه ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في مخالفته ومخالفة رسوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فيعاقب من خالفه و عصاه.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ الله عز وجل أدّب رسوله حتّى قوّمه على ما أراد، ثمّ فوّض إليه، فقال: ﴿مَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ فما فوّض الله إلى رسوله فقد فوّضه إلينا»[٤].

وفي رواية: «فوّض إلى نبيه أمر خلقه، لينظُر كيف طاعتهم» ثمّ تلا هذه الآية[٥].

وعن ابن مسعود: أنّه رأى رجلاً مُحرماً وعليه ثيابه، فقال: انزع هذا عنك. فقال الرجل: اقرأ بهذا عليّ آيةً من كتاب الله. قال: نعم ﴿وَمَا آتَاكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[٦].

لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ[٨]

ثمّ بيّن سبحانه على ما قيل الأصناف الثلاثة الأخيرة في الآية في خصوص فيء بني النّضير[٧] بقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ﴾ من مكّة إلى المدينة، ومن دار الحرب إلى دار السلام، ثمّ وصفهم

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٨٥.

٢. الكافي ١: ١/٤٥٣، تفسير الصافي ٥: ١٥٥.

٣. مجمع البيان ٩: ٣٩١، تفسير الصافي ٥: ١٥٦.

٤. الكافي ١: ٩/٢١٠، تفسير الصافي ٥: ١٥٦.

٥. الكافي ١: ٢٠٨ و٣/٢٠٩و٥، تفسير الصافي ٥: ١٥٦.

٦. تفسير روح البيان ٩: ٤٢٩.

٧. تفسير البيضاوي ٢: ٤٨١، تفسير روح البيان ٩: ٤٣٠.

بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ لم يهاجروا اختياراً وبميل أنفسهم، بل ﴿أُخْرِجُوا﴾ واضطرّوا إلى الهجرة من قبل الكفّار ﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾ ومساكنهم التي كانت لهم بمكّة ﴿وَ﴾ من ﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ حال كونهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلّبون رزقهم الذي يكون ﴿فَضْلاً﴾ وإحساناً ﴿مِنَ ٱللهِ﴾ في الدنيا ﴿وَ﴾ يطلّبون ﴿رِضْوَاناً﴾ منه في الآخرة ﴿وَيَنصُرُونَ﴾ بهجرتهم ﴿ٱللهَ﴾ بإعلاء دينه ﴿وَرَسُولَهُ﴾ ببذل الأنفس في حِفظه وترويج شريعته ﴿أُولٰئِكَ﴾ المهاجرون ﴿هُمُ ٱلصَّادِقُونَ﴾ في دعوى الايمان بشهادة أعمالهم على ضمائرهم.

في نقل استدلال بعض العامة على خلافة أبي‌بكر وإمامته، وردّه

قال الفخر الرازي: يعني أنّهم لمّا هجروا لذّات الدنيا، وتحمّلوا شدائدها لأجل الدين، ظهر صدقهم في دينهم. ثمّ قال: تمسّك بعض العلماء بهذه الآية على إمامة أبي‌بكر، فقال: هؤلاء الفقراء من المهاجرين والأنصار كانوا يقولون لأبي‌بكر: يا خليفة رسول الله، والله يشهد على كونهم صادقين، فوجب أن يكونوا صادقين في قولهم: يا خليفة رسول الله، ومتى كان الأمر كذلك، وجب الجزم بصحّة إمامته[1].

أقول: هذا الاستدلال ممّا تضحك به الثكلى، فانّ المقام قرينة على كون المراد الصدق في دعوى الايمان لا في كلّ ما يتكلّمون به، كقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2] أي في دعوى الايمان، لا في جميع الأُمور، مع أنّا نعلم أنّهم كانوا كاذبين في هذا الخطاب إن كان المراد أنّه استخلفه رسول الله ﷺ ونصبه للامامة، ولم يدّعه غالب أشياعه وأتباعه، وإن كان المراد بالخليفة الجالس في مجلسه، ولو بالغصب والقهر، فنحن نقول بخلافته، ولا يحتاج إلى الاستدلال بالآية، ولا يدلّ الخطاب على إمامته من جانب الله ووجوب طاعته، كما يقوله العامّة.

ثمّ اعلم أنّه بناءً على مذهبنا من اختصاص الفيء بالرسول والأئمة بعده، كما ذكره الله في فيء بني النّضير، لابدّ من حمل الآية على استحباب صرفهم الفيء المختصّ بهم في المصارف المعينة.

وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ[٩]

ثمّ مدح سبحانه الأنصار بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ﴾ دار الهجرة، وهي المدينة ﴿وَٱلْإِيمَانَ﴾ وتمكّنوا فيهما أشدّ التمكّن في زمان سابق على هجرة المهاجرين إليهم، و ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾.

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٨٦.
٢. الحجرات: ١٧/٤٩.

قيل: إنّ المعنى تبوّءوا المدينة، وأخلصوا الايمان من قبل هجرتهم[١]. وقيل: إنّ المراد من الايمان هو المدينة، لظهور الايمان وقوّته فيها[٢].

وهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ من المؤمنين، لمحبّتهم الايمان بالله وبرسوله ﴿وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾ ولا يُدرِكون في أنفسهم ﴿حَاجَةً﴾ وإقبالاً إلى شيءٍ ﴿مِمَّا أُوتُوا﴾ وأُعطوا أُولئك المهاجرون من الفيء ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ ويقدّمون المهاجرين ﴿عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ في الفيء وغيره ممّا يرتبط بالمعاش جُوداً وحُبّاً لهم ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وشدّة حاجة.

عن ابن عباس: أنّ النبي ﷺ قال للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من دوركم وأموالكم، وقسمتُ لكم من الغنيمة كما قسمتُ لهم، وإن شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم» فقالوا: لا، بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا، ولا نُشاركهم في الغنيمة، فنزلت الآية[٣].

قيل: إن من كان له امرأتان يُفارق إحداهما ويزوّجها واحداً منهم[٤].

في إيثار المؤمنين إخوانهم على أنفسهم

أقول: كان الايثار من صفات الكاملين في الايمان، فانّ المؤمن الحقيقي يُؤثِر أخاه المؤمن على نفسه.

عن (الامالي): أنّه جاء إلى رسول الله ﷺ رجل فشكا إليه الجُوع، فبعث رسول الله ﷺ إلى بيوت أزواجه، فقلن: ما عندنا إلّا الماء، فقال ﷺ: «من لهذا الرجل الليلة؟» فقال علي بن أبي طالب عليه السلام: «أنا له يا رسول الله» فأتى فاطمة عليها السلام وقال لها: «ما عندك يا ابنة رسول الله؟» فقالت: «ما عندنا إلّا قوت العشيّة[٥]، لكنّا نُؤثِر ضيفنا». فقال: «يا ابنة رسول الله، نوّمي الصّبية، وأطفئ المصباح» فلمّا أصبح غدا على رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فلم يبرَح حتّى أنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآية[٦].

وعن أنس: أنّه أُهدي إلى رجلٍ من الأنصار رأس [شاة] وكان مجهوداً، فوجّه به إلى جارٍ له زاعماً أنّه أحوج إليه منه، فوجّه جاره أيضاً إلى آخر، فلم يزل يبعث به واحدٌ إلى آخر حتّى تداول ذلك الرأس سبعة بيوت إلى أن رجع إلى المجهود الأول[٧].

وعن حُذيفة العدوي، قال: انطلقت في غزوةٍ أطلب ابن عمّ لي ومعي شيءٌ من الماء قاصداً أنّه إذا كان به رمق سقيته، فاذا أنا به فقلت له: أسقيك؟ فأشار إليّ برأسه أن نعم، فاذا برجلٍ يقول: آه آه،

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٨٧، تفسير أبي السعود ٨: ٢٢٩، تفسير روح البيان ٩: ٤٣٢. ٢. تفسير الرازي ٢٩: ٢٨٧.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ٢٨٧. ٤. تفسير البيضاوي ٢: ٤٨١، تفسير روح البيان ٩: ٤٣٣.
٥. في المصدر: الصبية. ٦. أمالي الطوسي: ١٨٥/٣٠٩، تفسير الصافي ٥: ١٥٧. ٧. تفسير روح البيان ٩: ٤٣٣.

فأشار إلى ابن عمّي أن انطلق إليه، فإذا هو هِشام بن العاص، فقلت: أسقيك؟ فأشار برأسه أن نعم، فسَمِع آخر يقول: آه آه فأشار هِشام أن انطلق إليه فجئتُ إليه فاذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فاذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمّي فاذا هو قد مات[١].

وقال بعض العامة: إنّ الآية قد نزلت في أبي طلحة الأنصاري حين نزل برسول الله ﷺ ضيف، ولم يكن عنده ما يُضيفه به، فقال: «ألا رجلاً يُضيف هذا رحمه الله؟» فقام أبو طلحة، فانطلق به إلى رَحْله، وقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله، فنوّمت الصّبية، وأطفأت السّراج، وجعل الضيف يأكُل وهما يُريان أنّهما يأكُلان معه ولا يأكُلان، فنزلت[٢].

ثمّ بيّن سبحانه أنّ سعادة الدارين لمن يحفَظ نفسه عن البُخل، فكيف بمن يُؤثِر غيره على نفسه بقوله: ﴿وَمَن يُوقَ﴾ ويَحفَظ ﴿شُحَّ نَفْسِهِ﴾ وحِرصها على البُخل بالمال بتوفيق الله وإعانته ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والفائزون بأعلى المقاصد من خير الدنيا والآخرة وسعادتهما.

وَٱلَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ[١٠ و ١١]

ثمّ مدح سبحانه المؤمنين التابعين للمهاجرين والأنصار في الايمان والصلاح بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاءُوا﴾ حين مات المهاجرون والأنصار، ووجدوا ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ من المؤمنين الصالحين إلى يوم القيامة يُحِبّون السابقين منهم بالايمان، ويدعون لأنفسهم ولهم و ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾ ذنوبنا ﴿وَلِإِخْوَانِنَا﴾ في الدين ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ من المهاجرين والأنصار وغيرهم ﴿وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلّاً﴾ وحِقداً وعداوةً ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بك وبرسولك لمكان الأخوّة الدينية ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ﴾ بعبادك المؤمنين ﴿رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فلا ترضى ـ برأفتك بنا ـ باستيلاء الشيطان علينا، ولا تَرُدّ برحمتك دعاءنا.

ثمّ لمّا أرسل عبدالله بن أُبي بن[٣] سلول رأس المنافقين سراً إلى بني النضير: أن اثبتوافي أماكنكم،

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٤٣٤.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٤٣٤.
٣. زاد في النسخة: أبي، راجع: الأعلام للزركلي ٤: ٦٥.

وقاتلوا محمداً إن قاتلكم، فانّا ننصركم، وإن أخرجكم بالقهر لنخرجنّ معكم. ذمّهم سبحانه على قولهم ونفاقهم، وأكذبهم في وعدهم الموافقة والنُصرة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، أو يا من يعقِل، ولم تنظُر ﴿إِلَى﴾ الكفار ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُوا﴾ المسلمين في المدينة حتى تتعجّب منهم، فأنّهم ﴿يَقُولُونَ﴾ سراً ﴿لإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ﴾ الموافقون لهم في عداوة الرسول والمؤمنين المشاركين معهم في الكفر: يا إخواننا، والله ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم قَسراً واضطراراً بأمر محمد وجَور أصحابه ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ من المدينه البتة. ونصاحبنكم حيثما ذهبتم أداءً لحقّ الصداقة والأُخوة ﴿وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ ولا نُوافق في شأنكم ﴿أَحَداً﴾ يمنعنا من الخروج معكم ﴿أَبَداً﴾ وفي وقت من الأوقات، وإن طال الزمان ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾ وحاربكم محمّد وأصحابه ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ ولنعاوننّكم على قتالهم ولا نخذُلنكم ﴿وَٱللَّهُ﴾ العالم بالضمائر والسرائر ﴿يَشْهَدُ﴾ ويُخبِر عن علمٍ ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في وعدهم وغارّون لهم، مع تأكيدهم إياه باليمين الغمُوس.

لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لاَ يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ[١٢]

ثمّ أنه تعالى بعد تكذيبهم الإجمالي كذّبهم تفصيلاً بقوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا﴾ من ديارهم وأموالهم قهراً وجبراً وإذلالاً، والله ﴿لاَ يَخْرُجُونَ﴾ من المدينة ﴿مَعَهُمْ﴾ لشدّة علاقتهم بدُورهم ووطنهم ﴿وَلَئِن قُوتِلُوا﴾ وحُوربوا من طرف النبي ﷺ ﴿لاَ يَنصُرُونَهُمْ﴾ لشدّة حُبّهم أنفسهم ﴿وَلَئِن نَصَرُوهُمْ﴾ على الفرض والتقدير، والله ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلأَدْبَارَ﴾ وليفِرّن من القتال أفظع الفِرار، لضَعف قلوبهم، وتحفّظاً على أنفسهم ﴿ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ أولئك المنافقون بعد ذلك من قِبَل أحد، أو لايُنْصَرون أُولئك اليهود، وعلى أيّ تقدير لا ينفعهم نُصرة المنافقين.

قيل: إنّ عبد الله بن أبي أرسل إلى بني النَّضير سرّاً: أنّ معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخُلون حِصنكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يصل إليكم محمد، وتَمُدّكم بنو قُريظة وحلفاؤهم من غَطفان، فطَمع بنو النُّضير فيما قاله اللعين و [هو] جالس في بيته، حتى قال أحد سادات بني النُّضير - وهو سلّام بن مِشْكَم لحُيي بن أخطب الذي هو المتولّي لأمر بني النُّضير -: والله يا حُيي إنّ قول ابن أُبي لباطلٌ، وليس بشيءٍ، وإنّما يُريد أن يُورّطك في الهَلَكة حتى تُحارب محمّد فيجلِس في بيته ويترُكك. فقال حُيي: نأبىٰ إلّا عداوة محمد وإلّا قتاله. فقال سلّام فهو والله جلاؤنا من أرضنا،

وذَهاب أموالنا وشرفنا، أو سبي ذرارينا مع قتل مقاتلينا، فكان ما كان[١].

وفيه دلالةٌ واضحةٌ على صحّة نبوة نبينا ﷺ وإعجاز القرآن من حيث إخباره بالغيب ووقوع المُخبَر به موافقاً لإخباره.

لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِنَ اللهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ * لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذٰلِكَ جَزَاؤُا الظَّالِمِينَ[١٣-١٧]

ثمّ بيّن سبحانه علّة خُلفهم الوعد وغدرهم بإخوانهم الكافرين بقوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ﴾ أيّها المسلمون أكثر رُعباً في قلوب المنافقين، و﴿أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِنَ اللهِ﴾.

قيل: يعني أنّهم يُظهِرون لكم في العلانية الرَّهبَة والخوف من الله، وأنتم في صُدورهم أشدّ رهبةً منه تعالى[٢] ﴿ذٰلِكَ﴾ المذكور من كون رهبتكم أشدّ من الله ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ شيئاً حتّى يعلموا عَظَمة الله وكمال قدرته وشدّة عقابه، فيخافوه حقّ المَخافة. ثمّ بيّن سبحانه شدّة خوفهم من المسلمين بقوله: ﴿لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ ولا يجترئون على حربكم حال كونهم ﴿جَمِيعاً﴾ ومتّفقين في موطنٍ واحدٍ ﴿إِلَّا فِي قُرىً﴾ وقلاعٍ ﴿مُحَصَّنَةٍ﴾ محكمةٍ بالدُّروب والخنادق وما أشبه ذلك ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ وعَقيب الحيطان، ولا يُبارزونكم في المَيدان، وليس ذلك لضَعفِ قلوبهم وقوّتهم، وجُبنهم ووهن أعضائهم، بل ﴿بَأْسُهُم﴾ وسَطوتهم وبَطْشتهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وفي قِبال أقرانهم ﴿شَدِيدٌ﴾ وإنّما ضَعفهم وجُبنهم منكم لِما قَذَف الله في قلوبهم من الرُّعب، مع أن الشُّجاع يجبن، والعزيز يذلّ عند محاربة الله ورسوله.

وقيل: إنّ المراد أنّهم إذا اجتمعوا يقولون: لنفعلنّ كذا وكذا، فهم يُهدّدون المؤمنين ببأسٍ شديدٍ من وراء الحيطان والحصون، ويحترزون عن الخروج للقتال، فبأسهم فيما بينهم شديدٌ لا فيما بينهم وبين المؤمنين[٣].

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٤٣٩.

٢. الكشاف ٤: ٥٠٧، تفسير روح البيان ٩: ٤٤٠.

٣. تفسير الرازي ٢٩: ٢٩٠.

وعن ابن عباس: معناه أنّ بعضهم عدوّ للبعض[١]، ويدُلّ عليه قوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً﴾ ومتّفقين ومؤتلفين ومتحابّين في الظاهر ﴿وقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ ومتفرقةٌ لاألفة بينهم، لأنّ لكلّ واحدٍ منهم مذهباً غير مذهب الآخرين، ولذا بينهم في الواقع عداوةٌ شديدةٌ.

﴿ذٰلِكَ﴾ التشتّت بين قلوبهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ ولا يُدرِكون أنّ تشتّت القلوب يُوهِن قوّتهم، وتقلّ به حُظوظهم، أو لا يعقِلون شيئاً حتّى يعرفوا الحقّ فيتّبعوه وتتّحد كلمتهم. اعلموا أنّ مَثَل هؤلاء اليهود والمنافقين وحالهم العجيبة ﴿كَمَثَلِ﴾ الكفّار ﴿ٱلَّذِينَ﴾ حاربوا الرسول في بدر، أو كَمثَل بني قَيْنُقاع على ما قيل من أنّهم كانوا أشجع اليهود وأكثرهم أموالاً، فلمّا كانت وقعة بدر أظهروا البغي والحسد، ونبذوا العهد كبني النَّضير، فأخرجهم رسول الله[٢] من المدينة إلى الشام[٣] ﴿مِن قَبْلِهِمْ قَرِيباً﴾ من زمانهم. قيل: قبل ستة أشهر من قضية بني النَّضير[٤]، أو قيل: سنة[٥]. فانّهم ﴿ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ ورأوا سوء عاقبة كُفرهم في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يُقادَر قدرُه، ومَثَل المنافقين الذين غرّروا اليهود ووعدوهم النصر ثمّ خَذَلوهم ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَانِ﴾ الغويّ ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ﴾ إغراءً وإغواءً: ﴿ٱكْفُرْ﴾ بالله وبرسوله ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ الانسان بإغوائه وحلّ به العذاب في القيامة ـ وقيل: إنّ المراد بالانسان أبوجهل[٦]، ومعنى (اكفُر) دُم على كُفرك، فلمّا كفروا جاء إلى بدر، وابتلى بالقتال ـ ﴿قَالَ﴾ الشيطان له، ﴿إِنِّى بَرِىءٌ مِنكَ﴾ ومنقطعٌ عنك ﴿إِنِّى أَخَافُ ٱللهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ من أن يُعذّبني بأشدّ العذاب. قيل: هذا من كذبات اللّعين[٧]. وقيل: إنّه قال ذلك استهزاءً[٨]، ولو كان صادقاً لم يستمرّ على عِصيان الله ﴿فَكَانَ﴾ مآل كفر الانسان والشيطان المُغوي له و ﴿عَاقِبَتَهُمَا﴾ في الآخرة ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾ التي سجّرها الجبّار بغضبه حال كونهما ﴿خَالِدَيْنِ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ لا خَلاص لهما منها أبداً ﴿وَذٰلِكَ﴾ العذاب المقيم ﴿جَزَاؤُا ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهما العاصين لله، وكذلك كان عاقبة اليهود والمنافقين.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا ٱللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ[١٨ و ١٩]

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٩٠.
٢. في النسخة: فأخرجوا بالرسول.
٣ و ٤. تفسير روح البيان ٩: ٤٤٢.
٥. تفسير روح البيان ٩: ٤٤٣.
٦ ـ ٧. تفسير روح البيان ٩: ٤٤٣.

ثمّ شرع سبحانه في وعظ المؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ وخافوا عذابه على عِصيانه، واحترزوا عن مخالفته ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾ أيّ نفسٍ كانت ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ وأيّ عملٍ هيّأت وادّخرت ﴿لِغَدٍ﴾ ويومٍ عظيم في القرب بمنزلة اليوم البَعْد، وهو يوم القيامة.

ثمّ أكّد سبحانه الأمر بالتقوى التي هي[1] أقوى سبب النجاة من العذاب والفوز بالنِّعم الأبديه بقوله: ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ أيّها المؤمنون فيما تأتون وما تَذَرون.

ثمّ هدّد العُصاة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ العالِم بكُلّ شيءٍ ﴿خَبِيرٌ﴾ وعليمٌ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي فيُعاقبكم عليه أشدّ العقاب ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا ٱللَّهَ﴾ وذهبوا عن عَظَمته وحُقوقه باشتغالهم بلذّات الدنيا وزَخارفها، ولم يُراعوا أوامره ونواهيه حقّ الرِّعاية ﴿فَأَنسَاهُمْ﴾ الله بسبب ذلك ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ وأذهلهم عن خيرها وما فيه نجاتها من المهالك، وفوزها بما فيه حياتها الدائمة وتنعّمها وراحتها الأبديه ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الناسون ﴿هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾ والخارجون عن طاعة العقل والشرع، وفي تخصيص الفِسق بهم إشعارٌ بأنّ فِسق غيرهم كالمعدوم لأنّهم كفّار.

لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ * لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ[٢٠ و ٢١]

ثمّ لمّا نهى سبحانه عن مُماثلة الكفّار، بيّن عدم أهلية الكفّار لأن يُماثلهم ويُساويهم أحدٌ من المؤمنين بقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي﴾ ولا يُماثل الكفّار الذين هم أهل العذاب و ﴿أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾ في الآخرة، والمؤمنون الذين هم أهل الرحمة ﴿وَأَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ﴾ فانّ أصحاب النار هم الخاسرون و ﴿أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَائِزُونَ﴾ بأعلى المقاصد وأسنى المطالب.

عن الرضا عليه السلام: «أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله تلا هذه الآية، فقال: أصحاب الجنة من أطاعني وسلّم لعليّ بن أبي طالب بعدي وأقرّ بولايته، وأصحاب النار من سَخِط الولاية ونقض العهد»[2].

ثمّ لمّا ذكر سبحانه بعض المواعظ الموجبة لرقّة القلب والخشوع، مدح القرآن بغاية التأثير، وذمّ قلوب الكفار بغاية القساوة بقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ﴾ العظيم الشأن، الذي فيه المواعظ الشافية والتهديدات الكثيرة ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ وكان المقصود بالمواعظ والانذارات التي فيه وعظه وإنذاره، والله

---

١. في النسخة: الذي هو.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٢/٢٨٠، تفسير الصافي ٥: ١٥٩.

﴿لَرَأَيْتَهُ﴾ يا محمد مع غاية صلابته وعدم تأثّره ممّا يُصادفه ﴿خَاشِعاً﴾ وضارعاً ومَنقاداً و ﴿مُتَصَدِّعاً﴾ ومتشقّقاً ﴿مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ﴾ وخوف عقوبته وعذابه، فانّ إدراك الجمادات عَظَمة خالقها ومَهابة ربّها وشعورها بشدّة[١] عذابه ممّا ثبت بالآيات كقوله: ﴿وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٢] وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللهِ﴾[٣] وغيرهما من الآيات والروايات الكثيرة كرواية بُكاء الجبل من خوف أن يكون من حِجارة جهنّم[٤] وغيرها، فلا وجه لما قيل: من أنّ الآية من باب التمثيل والتخييل[٥]، والمعنى لو جعل في الجبل حياة وعَقْل، كما جعل فيكم، ثمّ أنزل عليه القرآن بمواعظه وإنذاراته لصار خاشعاً، ولم تتأثّر قلوب الكفار، فهي أشدّ قسوةً من الحجارة ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ﴾ والبيانات العجيبة ﴿نَضْرِبُهَا﴾ ونبيّنها ﴿لِلنَّاسِ﴾ كافة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، فيتّعظون بها.

هُوَ ٱللهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ * هُوَ ٱللهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَامُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ ٱللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ ٱللهُ ٱلْخَالِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[٢٢-٢٤]

ثمّ لمّا كان عظمة القرآن وقوّة تأثيره منوطاً بمعرفة عظمة الله وكمال قدرته، شرع سبحانه في بيان صفاته الجليلة الدالة على كمال عظمته بقوله: ﴿هُوَ ٱللهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود بالحقّ سواه في عالم الوجود، وهو ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ المُطّلع على المعدومات والموجودات أو على ما غاب عن الحواسّ وما يُدرَك بها، أو على السرّ والعَلانية، أو على الدنيا والآخرة، و ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قد تكرّر في السابق تفسيره ﴿هُوَ ٱللهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ والسُلطان المُطلَق في جميع عوالم الوجود ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ والبليغ في النزاهة عن العيوب في ذاته ﴿ٱلسَّلَامُ﴾ قيل: يعني السالم عن الآفات لا يطروءه[٦] نقصٌ في ذاته وصفاته[٧] وقيل: يعني معطي السلامة للموجودات[٨]. وقيل: يعني المُسلّم على المؤمنين في الجنة[٩].

---

١. في النسخة: شدّة. ٢. الإسراء: ٤٤/١٧. ٣. البقرة: ٧٤/٢.
٤. الخرائج والجرائح ١: ٢٥٩/١٦٩.
٥. جوامع الجامع: ٤٨٨، تفسير البيضاوي ٢: ٤٨٣، تفسير أبي السعود ٨: ٢٣٣.
٦. كذا، والظاهر: لا يطرؤ عليه. ٧ و٨. تفسير روح البيان ٩: ٤٥٩.
٩. تفسير روح البيان ٩: ٤٥٩.

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ والمصدّق للأنبياء بإجراء المعجزات على أيديهم، أو معطي الأمان لأوليائه من العذاب، أو لمن توكّل عليه من الآفات والمَضارّ. وعن ابن عباس: هو الذي آمن الناس من ظلمه، وآمن مَن آمن من عذابه[1].

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ والمُسلّط على ما سواه، والرقيب عليهم، والحافظ لهم. وقيل: يعني القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم[2].

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ والغالب على كلّ شيءٍ، أو الخطير الذي لا مَثَل له، أو معطي العزّ لكلّ ذي عزّ ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ والقهّار لخلقه على ما أراد، أو المُصلح لأعمالهم. وعن ابن عباس: المَلِك العظيم[3].

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ والعظيم، أو البليغ في الكبرياء، الذي كلّ شيءٍ دونه، ومفتقرٌ إليه، وخاضعٌ لديه. عن ابن عباس: الذي تكبّر بربوبيته، فلا شيء مثله[4].

﴿سُبْحَانَ ٱللهِ﴾ وتنزّه ﴿عَمَّا﴾ إشراك ﴿مَّا يُشْرِكُونَ﴾ به من الأصنام والأوثان والكواكب وغيرها، كما أشرك به الجاهلون.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سُئِل عن تفسير ﴿سُبْحَانَ ٱللهِ﴾ فقال: «هو تعظيم جلال الله وتنزيهه عمّا قال فيه كلّ مشركٍ، فإذا قالها العبد صلّى عليه كلّ مَلَك»[5].

وعن [عبدالله بن] عمر قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله قائماً على هذا المِنْبَر في المدينة، وهو يحكي عن ربّه تعالى فقال: «إنّ الله عز وجل إذا كان يوم القيامة جمع السماوات والأرضين في قبضته تبارك وتعالى» ثمّ قال هكذا، وشدّ قبضته ثمّ بسطها «ثمّ يقول: أنا الله، أنا الرحمن، أنا الرحيم، أنا المَلِك، أنا القُدّوس، أنا السلام، أنا المؤمن، أنا العزيز، أنا الجبّار أنا المتكبّر، أنا الذي بدأت الدنيا ولم تكُ شيئاً، أنا الذي أعدتها، أين الملوك، أين الجبابرة»[6].

﴿هُوَ ٱللهُ﴾ تعالى وحده ﴿ٱلْخَالِقُ﴾ والمُقدّر لكلّ شيءٍ على مُقتضى حكمته ووَفق مشيئته ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ والمُوجِد للأشياء بعد تقديرها ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ لها بعد إيجاد موادّها.

ثمّ أشار سبحانه إلى سائر أسمائه إجمالاً بقوله: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والصفات العليا، ولذا ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات الناطقة والصامتة، ويُنزّهه عمّا لا يليق بألوهيته بلسان الحال والمقال.

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٤٦٠.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٤٦٢.
٣ و٤. تفسير الرازي ٢٩: ٢٩٤.
٥. التوحيد: ١/٣١٢، تفسير الصافي ٥: ١٦٠.
٦. تفسير روح البيان ٩: ٤٦٤.

ثمّ لمّا كان جميع صفاته راجعة إلى القدر والعلم، ختم تمجيد ذاته المقدّسة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ والقدير العليم.

عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة الحشر، لم يبق جنّةٌ ولا نارٌ ولا عرشٌ ولا كرسيٌ ولا حجابٌ ولا السماوات السبع والأرضون السبع والهواء والريح والطير والشجر والجبال والدوابّ والشمس والقمر والملائكة إلّا صلّوا عليه، واستغفروا له، وإن مات في يومه أو ليلته مات شهيداً»[1].

الحمد لله على ما أنعم عليّ من التوفيق لإتمام تفسيرها.

---

١. ثواب الأعمال: ١١٧، مجمع البيان ٩: ٣٨٤، تفسير الصافي ٥: ١٦٠.

في تفسير سورة الممتحنة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوْا بِمَا جَاءَكُم مِنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُم خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ[١]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الحشر المتضمّنة لبيان خِذلان الكفّار والمنافقين وذمّهم، ونُصرة المسلمين، والمواعظ الشافية، أُردفت بسورة الممتحنة المتضمّنة لنهي المؤمنين عن موادّة الكفّار، وبيان حُكم أزواجهم إذا هاجرن إلى المسلمين، وأخذ الرسول البيعة منهنّ على العمل بأحكام الاسلام، وبيان المواعظ الشافية، فابتدأها سبحانه بذكر الأسماء المباركات بقوله تبارك وتعالى: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**﴾.

ثمّ شرع في نُصح المؤمنين والنهي عن موادّة الكفار بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ عن صميم القلب ﴿**لاَ تَتَّخِذُوا**﴾ ولا تختاروا لأنفسكم ﴿**عَدُوِّى**﴾ ومنكر توحيدي ورسالة رسولي، الساعي في إطفاء نوري ﴿**وَعَدُوَّكُمْ**﴾ ومُبغضكم لمخالفتكم لدينه ﴿**أَوْلِيَاءَ**﴾ وأحبّاءً وأنصاراً ﴿**تُلْقُونَ إِلَيْهِم**﴾ وتُظهرون له ﴿**بِالْمَوَدَّةِ**﴾ والمحبّة والنصيحة، أو تُلقون إليهم بأخبار النبي ﷺ بسبب المودة التي بينكم وبينهم ﴿**وَ**﴾ الحال أنّهم ﴿**قَدْ كَفَرُوْا بِمَا جَاءَكُم مِنَ**﴾ قبل الله دين ﴿**ٱلْحَقِّ**﴾ أو القرآن بتوسّط رسولي، والشاهد على معاداتهم إياكم أنهم ﴿**يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ**﴾ من أوطانكم لأجل ﴿**أَن تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ**﴾ مع أنّ العقل حاكمٌ بوجوب الايمان به، لوضوح أُلوهيته وربوبيته، والشاهد على موادّتكم إياهم أنّكم ﴿**إِن كُنتُم خَرَجْتُمْ**﴾ من المدينة إليهم ﴿**جِهَاداً**﴾ ولأجل القتال معهم ﴿**فِى سَبِيلِى**﴾ وترويج ديني ﴿**وَٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِى**﴾ ولأجل طلب رحمتي وجنّتي ﴿**تُسِرُّونَ**﴾ إلى الكفار،

وتُرسِلون ﴿إِلَيْهِم﴾ خُفية أخبار النبي ﷺ ﴿بِالْمَوَدَّةِ﴾ وبسبب المحبّة والنصيحة ﴿وَ﴾ الحال ﴿أَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ في قلوبكم من مودّتكم، أو من الناس من كتابكم إليهم ﴿وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ وأظهرتم للرسول من الاعتذار من إظهار المودّه لهم ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ وخالف نهيي عن موادّتهم واتّخاذهم أولياء ﴿فَقَدْ ضَلَّ﴾ وأخطأ ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ووسط طريق الحقّ والصواب المُوصِل إلى السعادة الأبدية والقُرب من الله. عن ابن عباس: أنّه عدل عن قصد الايمان في اعتقاده[1].

روى بعض العامة: أنّ حاطب بن أبي بلتعة ـ وكان من المهاجرين والبدريين والمبايعين بيعة الرضوان ـ لمّا تجهّز رسول الله ﷺ لغزوة الفتح في السنة الثامنة من الهجرة، كتب إلى أهل مكّة أنّ رسول الله ﷺ يُريدكم فخُذوا حِذركم، فانّه توجّه إليكم بجيشٍ كالليل: وأرسل الكتاب مع سارة مولاة بني عبد المطّلب، وأعطاها عشرة دنانير وبُردة، وكانت سارة قدمت من مكة، وكانت مُغنية، فقال لها رسول الله ﷺ: «لماذا جئتِ؟» قالت: جئتُ لتُعطيني شيئاً. فقال ﷺ: «ما فعلتِ بعطائك من شُبّان قريش؟» قالت: مُذ قتلتهم ببدر لم يصل إليّ شيء إلّا قليل، فأعطاها شيئاً، فرجعت إلى مكّة ومعها كتاب حاطب، فنزل جَبْرئيل بالخبر، فبعث رسول الله ﷺ علياً وعمّاراً وطلحة و الزبير والمِقداد ومَرْثَد بن أبي مَرْثَد، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ـ وهو موضع بين الحرمين ـ فانّ بها ضعينةً معها كتاب حاطب إلى أهل مكّة، فخُذوه منها، فان أبت فاضرِبوا عُنقها، فأدركوها ثمّة فجحدت، فسلّ عليٌّ عليه السلام سيفه، فأخرجته من عقائصها.

فاستحضر رسول الله ﷺ حاطباً، فقال ﷺ: «ما حملك على هذا؟» فقال: يا رسول الله، ما كفرت منذ أسلمت، وما غششتك منذ نصحتك، ولكنّي كنت امرءاً ملصقاً[2] في قريش، ولم أكن من أنفسهم، ومن معك من المهاجرين كان له فيهم قرابات يحمون أهاليهم وأموالهم، وليس فيهم من يحمي أهلي، فأردت أن آخذ عندهم يداً، ولم أفعله كفراً وارتداداً عن ديني، وقد علمت أنّ كتابي لا يُغني عنهم. فصدّقه رسول الله ﷺ وقَبِل عُذره. فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرِب عُنق هذا المنافق. فقال: «يا عمر، إنّه شَهِد بدراً، وما يُدريك لعلّ الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم» ففاضت عينا عمر[3].

أقول: في ذيل الرواية من القدح في عمر ـ من جرأته على رسول الله ﷺ وإظهار مخالفته له ـ ما لا يخفى.

وعن القمي، قال: نزلت في حاطب بن أبي بَلْتَعة ـ إلى أن قال ـ: كان سبب ذلك أنّ حاطب بن أبي

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٢٩٨.
٢. أي حليفاً.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٤٧٢.

بلتعة كان أسلم وهاجر إلى المدينة، وكان عياله بمكّة، فكانت قريش تخاف أن يغزوهم رسول الله ﷺ، فصاروا إلى عيال حاطب، وسألوهم أن يكتبوا إلى حاطب يسألوه عن خبر محمدٍ ﷺ وهل يُريد أن يأتي مكة، فكتبوا إلى حاطب يسألونه عن ذلك، فكتب إليهم حاطب: أنّ رسول الله ﷺ يُريد ذلك، ودفع الكتاب إلى امرأةٍ تسمّى صفيّة، فوضعته في قُرونها فمرّت، فنزل جَبْرئيل على رسول الله ﷺ وأخبره بذلك، فبعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام و الزبير بن العوّام في طلبها، فلحقوها فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أين الكتاب؟» فقالت: ما معي شيء. ففتّشوها فلم يجدوا معها شيئاً. فقال الزبير: ما نرى معها شيئاً. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «والله ما كذّبنا رسول الله ﷺ، ولا كذّب رسول ﷺ على جَبْرئيل، ولا كذّب جَبْرئيل على الله جلّ ثناؤه، والله لئن لم تُظهري الكتاب لأرُدّن رأسك إلى رسول الله ﷺ» فقالت: تَنَحَّ عنّي حتى أُخرجه. فأخرجت الكتاب من قُرونها.

فأخذه أمير المؤمنين عليه السلام وجاء به إلى رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «يا حاطب، ما هذا؟» فقال حاطب: يا رسول الله، ما نافقت ولا غيّرت ولا بدّلت، وإنّي أشهد أن لا إليه إلّا الله، وأنّك رسول الله حقاً، ولكن أهلي وعيالي كتبوا إليّ بحُسن صُنع قريش إليهم، فأحببت أن أُجازي قريشاً بحُسن معاشرتهم. فأنزل الله عزّ وجلّ على رسول الله ﷺ الآية[1].

إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[٢ و ٣]

ثمّ بيّن سبحانه شدّة عداوة الكفّار للمؤمنين، وإن ألقوا إليهم بالمودّة بقوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ ويظهر الكفّار عليكم، ويتمكّنوا منكم أيّها المؤمنون ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ متجاهرين في العداوة والبُغض، ومظهرين ما في قلوبهم من الغَيظ والحِقد ﴿وَيَبْسُطُوا﴾ ويَمُدّوا ﴿إِلَيْكُمْ﴾ من غيظهم ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾ بالضرب والقتل والإيذاء ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ من الشّتم والسبّ واللّعن ﴿وَوَدُّوا﴾ وتَمنّوا في جميع الأوقات قبل الظفر والظهور عليكم وبعده ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وأن ترجعوا إلى دينهم، وتعبُدوا آلهتهم، وأن تُوادّوهم أيّها المؤمنون لرعاية أهلكم وأرحامكم، فاعلموا أنّه ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾ بجلب خيرٍ أو دفع ضرٍّ ﴿أَرْحَامُكُمْ﴾ وأقاربكم ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ وذراريكم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فانّه يوم ﴿يَفْصِلُ﴾ الله ويفرّق ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وبين أرحامكم وأولادكم وأصدقائكم، لأنّه لاهمّ لأحدٍ فيه إلّا نجاة نفسه من

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٦١، تفسير الصافي ٥: ١٦١.

الأهوال والعذاب ﴿وَٱللَّهُ﴾ الخالق لشراشركم وجميع أجزائكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من المـوادّة للكفار وإرسال الكتاب إليهم وسائر معاصيكم وزلّاتكم الجَلية والخَفية ﴿بَصِيرٌ﴾ لأنّ جميعها بـمنظرٍ مـنه ومرآة، كأنّه يُدرك جميعها بحُسن البصر.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةُ وَٱلْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[٤ و ٥]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ وظيفة الايمان التبرّي من الأهل والأقارب إذا كانوا مشركين، كما تبرأ إبراهيم عليه السلام والمؤمنون به من أقاربهم بقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ﴾ أيّها المؤمنون بمحمد صلى الله عليه وآله ﴿أُسْوَةٌ﴾ وقُدوة وتَبعة ﴿حَسَنَةٌ﴾ مرضية كاملة ﴿فِى﴾ عَمل ﴿إِبْرَاهِيمَ وَٱلَّذِينَ﴾ آمنوا بالله وشاركوا ﴿مَعَهُ﴾ في التوحيد من سائر الأنبياء والأولياء والمؤمنين ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ وأقاربهم المشـركين ﴿إِنَّا بُرَآءُ﴾ ومـتنفّرون ﴿مِنكُمْ﴾ لشِركِكم ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان والكواكب وغيرها وأعداؤكم وأعداؤها.

ثمّ بالغوا في تبرّيهم منهم بقولهم: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ وتبرّأنا منكم، كما عن أمير المـؤمنين عليه السلام[1]، أو أنكرنا دينكم ﴿وَبَدَا﴾ وظهر ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لاختلافنا في الدين ﴿ٱلْعَدَاوَةُ﴾ وطلب الشرّ والضرّ لكم ﴿وَٱلْبَغْضَاءُ﴾ والغضب عليكم ﴿أَبَداً﴾ دائماً ﴿حَتَّىٰ﴾ تتركوا الشُرك و ﴿تُؤْمِنُوا﴾ عن صميم القلب ﴿بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ فحينئذٍ تنقلب العداوة والبغضاء بـالصداقـة والمـحبّة والألفـة، فـعليكم أيّـها المؤمنون الاقتداء بإبراهيم عليه السلام في أقواله ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ إشفاقاً ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر المشرك بـرجـاء إيمانه، ولموعدةٍ وعدها إياه ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ يا أبه، فانّ الاستغفار هو الذي أقدِر عليه ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ﴾ وليس في قدرتي ﴿مِنَ﴾ دفع عذاب ﴿ٱللَّهِ﴾ عنك ﴿مِن شَىْءٍ﴾ يسير إن دُمت على الشـرك، وإنّما وعده الاستغفار لكونه راجياً إيمانه بالتوحيد، فليس لكم أيّـها المـؤمنون أن تـتأسّوا وتـقتدوا بإبراهيم في استغفاره للمشرك بأن تستغفروا للمشركين، لأنّه موادّة ولغو، لعدم إمكان المغفرة لهم،

---

١. التوحيد: ٥/٢٦٠، تفسير الصافي ٥: ١٦٢.

وكذا لكم أيّها المؤمنون الأسوة في إبراهيم عليه السلام ومن معه في دعائهم بقوله: ﴿رَبَّنَا﴾ ومليكنا ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ واعتمدنا في جميع اُمورنا ﴿وَإِلَيْكَ﴾ يا ربّ ﴿أَنَبْنَا﴾ ورجعنا من ذنوبنا ومعاصينا بالتوبة والطاعة ﴿وَإِلَيْكَ﴾ وحدك ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ والمرجِع بعد الموت وحين الخروج من القبر ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا﴾ ولا تُصيّرنا في الدنيا ﴿فِتْنَةً﴾ وامتحاناً وبلاءً ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأن تُسلّطهم علينا، فيظنّون بذلك أنّهم على الحقّ، كما عن ابن عباس[1].

وقيل: إنّ المعنى لاتعذّبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على الحقّ لما أصابهم ذلك[2] ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ واستُر ذنوبنا في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ والقادر على إنفاذ إرادتك، فلا تُذِلّ من لجأ إليك ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في فعاله، فلا يصدُر منك إلّا ما فيه الصلاح الأتمّ.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو ٱللهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ * عَسَى ٱللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِنْهُم مَوَدَّةً وَٱللهُ قَدِيرٌ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ[٦ و ٧]

ثمّ أكّد سبحانه وجوب التأسّي بإبراهيم عليه السلام ومن معه بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيّها المؤمنون بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله ﴿فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أعني ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُو ٱللهَ﴾ ويأمُل النيل بثوابه، ويُؤمن بلقائه ﴿وَٱلْيَوْمَ ٱلآخِرَ﴾ ويُصدّق به، لوضوح أنّ من يؤمن بالله وبيوم الجزاء لا يترُك التأسّي بإبراهيم عليه السلام ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ ويُعرِض عن الاقتداء بهم، وعن مواعظ الله ﴿فَإِنَّ ٱللهَ﴾ وحده ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ بالذات عنه وعن جميع خلقه، وطاعتهم ونصرتهم لدينه ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ والمحمود في ذاته وصفاته، أو المستحقّ للحمد وإن لم يكن حامداً ﴿عَسَى ٱللهُ﴾ والرجاء منه ﴿أَن يَجْعَلَ﴾ ويُوجِد ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أيّها المؤمنون ﴿وَبَيْنَ﴾ الكفّار ﴿ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم﴾ وباغضتم ﴿مِنْهُم﴾ بسبب اختلاف الدين ﴿مَوَدَّةً﴾ ومحبّةً بأن يُوفّقهم للاسلام ويُوافقهم معكم في الدين، كما جعل باسلام جميع أهل مكة ومخالطتهم أصحاب الرسول ومناكحتهم فيهم ﴿وَٱللهُ قَدِيرٌ﴾ على تقليب قلوبهم وتغيير سوء أخلاقهم إلى حسنها ﴿وَٱللهُ غَفُورٌ﴾ لمن أسلم، أو لمن فَرَط منكم في موالاتهم من قبل ﴿رَحِيمٌ﴾ بالمؤمنين.

عن الباقر عليه السلام: «أنّ الله أمر نبيه والمؤمنين بالبراءة من قومهم ماداموا كفاراً، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قطع الله ولاية المؤمنين منهم، وأظهروا لهم العداوة، ثمّ قال: ﴿عَسَى ٱللهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِنْهُم مَوَدَّةً﴾ فلمّا أسلم أهل مكة خالطهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله

١و٢. تفسير الرازي ٢٩: ٣٠٢.

وناكحوهم، وتزوّج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب»[١].

لَا يَنْهَاكُمُ ٱللهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ[٨]

ثمّ أنّه تعالى بعد أمر المؤمنين بالانقطاع عن الكفّار وترك موالاتهم، رخّص سبحانه في مواصلة الذين لم يُظهِروا العداوة ولم يضرّوهم بقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ ٱللهُ﴾ ولا يمنعكم أيّها المؤمنون ﴿عَنِ﴾ الكفّار ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ ولم يُقدِموا على حربكم لاطفاء نور الله ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ﴾ وأوطانكم من ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ وتُحسِنوا إليهم بتطييب قلوبهم، وحُسن عشرتهم، وبذل المال لهم ﴿وَتُقْسِطُوا﴾ وتؤدّوا حقوقهم ﴿إِلَيْهِمْ﴾ ولا تظلِمواهم ﴿إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ والعادلين في معاملاتهم.

قيل: إنّ المراد من هذا القِسم من الكفار، هم الذين عاهدوا الرسول ﷺ على ترك القتال والمظاهرة في العداوة، وهم خُزاعة، فانّهم عاهدوا رسول‌الله ﷺ على أن لا يُقاتلوه ولا يُخرِجوه، فأمر الرسول ﷺ بالوفاء إلى مُدّتهم والبرّ بهم، كما عن ابن عباس[٢].

وعنه: أنّهم قوم من بني هاشم منهم العباس أخرجوهم يوم بدر كرهاً[٣]. وقيل: هم الذين آمنوا بمكة ولم يُهاجروا[٤]. وقيل: إنّهم النّسوان والصبيان[٥]. وقيل: إنّ المسلمين استأمروا رسول الله ﷺ في أقربائهم من المشركين[٦].

وعن ابن الزبير: أنّ فتيلة أمّ أسماء بنت أبي‌بكر قَدِمت عليها وهي مشركةٌ بهدايا، فلم تقبلها، ولم تأذن لها في الدخول، فنزلت الآية، فأمر النبي ﷺ أن تُدخِلها وتقبل منها وتُكرِمها وتُحسِن إليها[٧].

إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ ٱللهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ٱللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٦٢، تفسير الصافي ٥: ١٦٣.
٢. تفسير الرازي ٢٩: ٣٠٣.
٣ ـ ٦. تفسير الرازي ٢٩: ٣٠٤.
٧. تفسير الرازي ٢٩: ٣٠٤.

آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ[٩و ١٠]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ النهي عن تولّي عُتاة المشركين والكفّار بقوله: ﴿**إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ ٱللهُ**﴾ ويمنعكم أيّها المؤمنون ﴿**عَنِ**﴾ الكفار ﴿**ٱلَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ**﴾ ونازلوكم لإطفاء نوره ﴿**وَأَخْرَجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ**﴾ وأوطانكم كجبابرة أهل مكّة ﴿**وَظَاهَرُوا**﴾ وعاونوا قريشاً ﴿**عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ**﴾ من مكّة عن ﴿**أَن تَوَلَّوْهُمْ**﴾ وتُوادّوهم ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُمْ**﴾ ويتودّد معهم ﴿**فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ**﴾ على أنفسهم بعصيان الله ويوضع الودّ موضع العداوة.

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حُكم معاملة المؤمنين مع الفريقين من الكفّار، بيّن سبحانه حُكم النساء اللاتي يأتين المؤمنين مظهرات للايمان بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ**﴾ النساء اللاتي يدّعين أنّهن ﴿**ٱلْمُؤْمِنَاتُ**﴾ بألسنتهنّ حال كونهنّ ﴿**مُهَاجِرَاتٍ**﴾ إليكم من أوطانهنّ، ولم تعلموا صِدقهنّ في دعوى الايمان ﴿**فَامْتَحِنُوهُنَّ**﴾ واختبروهن ﴿**ٱللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ**﴾ الحقيقي، لعلمه بسرائر الخلق، وأنتم لا تعلمون إلّا بالأمارات والامتحان.

قيل: إنّ من أرادت منهنّ إضرار زوجها قالت: سأهاجر إلى محمد[١].

رُوي أنّ النبي ﷺ كان يقول للتي يمتحنها: «بالله الذي لا إله إلّا هو، ما خرجتُ عن بُغضِ زوجي، بالله ما خرجتُ رغبةً عن أرضٍ إلى أرضٍ، بالله ما خرجتُ التماس دنيا، بالله ما خرجتُ حبّاً لرجلٍ من المسلمين، بالله ما خرجتُ لحدثٍ أُحدثه، بالله ما خرجتُ إلّا رغبةً في الاسلام وحبّاً لله ولرسوله»[٢].

﴿**فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ**﴾ بعد الامتحان ﴿**مُؤْمِنَاتٍ**﴾ صادقات في دعوى الايمان ﴿**فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ**﴾ ولا تَرُدّوهن ﴿**إِلَى**﴾ أزواجهن من ﴿**ٱلْكُفَّارِ**﴾ لأنه ﴿**لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ**﴾ لانقطاع عُلقة الزوجية بينهما بالإيمان ﴿**وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ**﴾ لوضوح ارتفاع الزوجية من الجانبين لا من جانبٍ واحدٍ.

وقيل: إنّ الجملة الأُولى لبيان زوال النكاح الأول، والثانية لبيان امتناع النكاح الجديد[٣]، أو للتأكيد، وأعطو أزواجهنّ الكفرة[٤] ﴿**وَآتُوهُم**﴾ من مال المؤمنات، أو من بيت المال ﴿**مَا أَنفَقُوا**﴾ عليهنّ ودفعوا إليهنّ من المهور.

رُوي أنّ صُلح الحُديبية كان على أنّ من أتى المسلمين من الكفّار ردّوه إليهم، فجاءت سبيعة بنت

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٤٨٢.
٢. تفسير الرازي ٢٩: ٣٠٥، تفسير روح البيان ٩: ٤٨٢.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٤٨٣.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ٣٠٥، تفسير روح البيان ٩: ٤٨٣.

الحارث الأسلمية مُسلمة، والنبي ﷺ بالحُديبية، فأقبل مسافر المخزومي زوجها طالباً لها، فقال: يا محمد، اُرْدُد عليّ امرأتي فانّك قد شرطت أن ترُدّ علينا من أتاك منّا، فنزلت الآية. فقال رسول الله ﷺ: «إنّما الشرط كان في الرجال دون النساء» فاستحلفها رسول الله ﷺ فحلفت، فأعطى زوجها ما أنفق[1].

وعن القمي رحمه الله: إذا لَحِقت امرأةٌ من المشركين بالمسلمين تُمتحن بأن تحلِف بالله إنّه لم يحمِلها على اللُّحوق بالمسلمين بُغض زوجها الكافر، ولا حبّ أحدٍ من المسلمين، وإنّما حملها على ذلك الاسلام، فاذا حلفت على ذلك قُبِل إسلامها وأتوهم ما أنفقوا، يعني تَرُدّ المسلمةُ على زوجها الكافر صَداقها [ثم يتزوجها المسلم][2].

﴿وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أيّها المسلمون **﴿أَن﴾** تتزوّجوا المهاجرات و**﴿تَنكِحُوهُنَّ﴾** لخلوهنّ عن الزوج بالاسلام **﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾** وحين أعطيتموهنّ **﴿أُجُورَهُنَّ﴾** والتزمتم مهورهنّ، فانّه لا يكفي ما أعطى الزوج عن المهر **﴿وَلاَ تُمْسِكُوا﴾** ولا تعتدّوا **﴿بِعِصَمِ﴾** النساء **﴿الْكَوَافِرِ﴾** ونكاحهنّ لبطلانه بسبب الاختلاف في الدين.

عن ابن عباس: من كانت له امرأةٌ كافرةٌ بمكة فلا يعتدّنّ بها من نسائه[3]، يعني لا يَعُدّها من الأربع، بل يجوز تزويج غيرها ونكاح اُختها.

عن الباقر عليه السلام - في هذه الآية - قال: «يقول: من كانت عنده امرأة كافرة - يعني على غير ملة الاسلام - وهو على ملّة الاسلام، فليعرِض عليها الاسلام، فان قَبِلت فهي امرأته، وإلّا فهي بريئةٌ منه، فنهى الله أن يُمسك بعِصمتها»[4].

وعنه عليه السلام قال: «لا ينبغي نكاح أهل الكتاب» قيل: وأين تحريمه؟ قال: «قوله: **﴿لاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾**»[5].

أقول: يُعارضه أخبارٌ معتبرةٌ، فلا بدّ من حملها على الكراهة **﴿وَسْأَلُوا﴾** أيّها المؤمنون من الكفّار، واطلُبوا منهم **﴿مَا أَنفَقْتُمْ﴾** من مُهور نسائكم إذا لَحِقن بهم **﴿وَلْيَسْأَلُوا﴾** اُولئك الكفّار، ويطلُبوا منكم **﴿مَا أَنفَقُوا﴾** وأعطوا من مهور نسائهم، إذا لَحِقن بكم **﴿ذٰلِكُمْ﴾** الأحكام **﴿حُكْمُ اللهِ﴾** الذي **﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾** وبين الكفّار **﴿وَاللهُ عَلِيمٌ﴾** بمصالح العباد **﴿حَكِيمٌ﴾** يُشرّع ما تقتضيه حكمته.

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ٢٣٩، تفسير روح البيان ٩: ٤٨٣.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٦٢، تفسير الصافي ٥: ١٦٤.
٣. تفسير أبي السعود ٨: ٢٣٩، تفسير روح البيان ٩: ٤٨٥.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٦٣، تفسير الصافي ٥: ١٦٤.
٥. الكافي ٥: ٧/٣٥٨، تفسير الصافي ٥: ١٦٥.

وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ[١١]

ثمّ لمّا حكم الله تعالى أن يسأل المسلمون من الكفار مهر المرأة المسلمة إذا ذهبت إليهم، ويسأل الكفار من المسلمين مهر نسائهم إذا جاءت إليهم مسلمة، أقرّ المسلمون بحُكم الله، وأبى المشركون العمل به، بيّن سبحانه حكم ذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿**وَإِن فَاتَكُمْ**﴾ وانفلت منكم أيّها المسلمون ﴿**شَىْءٌ**﴾ واحدٌ ﴿**مِنْ أَزْوَاجِكُمْ**﴾ وذهبت ﴿**إِلَى ٱلْكُفَّارِ**﴾ ولم يُمكنكم إرجاعها.

قيل: إطلاق الشيء على أحدٍ للتحقير[١]. وقيل: للإشباع في التعميم[٢]. وقيل: يعني شيءٌ من مهور أزواجكم[٣] ونسائكم ﴿**فَعَاقَبْتُمْ**﴾ وغَنِمتم من الكفّار كما عن ابن عباس[٤] أو جاءت نوبتكم من أداء المهر وتزوّجتم بأُخرى عَقيبها ﴿**فَآتُوا**﴾ وأعطوا المسلمين ﴿**ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم**﴾ إلى الكفّار من الغنيمة، أو من مهر المرأة المسلمة التي جاءت إلى المسلمين ﴿**مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا**﴾ على أزواجهم الفائتة من المهر ﴿**وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ**﴾ في العمل بأحكامه ولا تُخالفوه، فانّ الايمان مقتضي لذلك.

قيل: نزلت الآية في عمر بن الخطاب، كانت عنده فاطمة بنت أبي اُمية ابن المُغيرة، فكَرِهت الهجرة، وأقامت مع المشركين، فنكحها معاوية بن أبي سفيان، فأمر الله تعالى رسوله أن يُعطي عمر مثل صَداقها[٥].

وقيل: لَحِق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ستّ نسوة، فأعطى رسول الله ﷺ أزواجهم مهور نسائهم من الغنيمة[٦].

وعنهما عليهما السلام: سُئِلا ما معنى العقوبة هنا؟ قال: «إنّ الذي ذهبت امرأته، فعاقب على امرأةٍ أُخرى غيرها ـ يعني تزوّجها ـ فاذا هو تزوّج امرأةً أُخرى غيرها فعلى الامام أن يُعطيه مهر امرأته الذاهبة».

فسُئلا كيف صار المؤمنون يرُدّون على زوجها المهر بغير فعلٍ منهم في ذَهابها، وعلى[٧] المؤمنين أن يرُدّوا على زوجها ما أنفق عليها ممّا يُصيب المؤمنون؟ قال: «يردّ الامام عليه، أصابوا من الكفّار أو لم يصيبوا، لأنّ على الامام أن يجبر[٨] حاجته من تحت يده، وإن حضرت القسمة فله أن يسدّ كلّ نائبة تنوبه قبل القسمة، وإن بقي بعد ذلك شيءٌ قسمه بينهم، وإن لم يبق شيءٌ فلا شيء لهم»[٩].

يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلاَ

١ـ٣. تفسير أبي السعود ٨: ٢٤٠، تفسير روح البيان ٩: ٤٨٦.
٤. تفسير الرازي ٢٩: ٣٠٧.
٥. تفسير الصافي ٥: ١٦٥.
٦. جوامع الجامع: ٤٩١.
٧. في النسخة: قيل على.
٨ في علل الشرائع: ينجز، وفي تفسير الصافي: يحيز.
٩. علل الشرائع: ٦/٥١٧، تفسير الصافي ٥: ١٦٥.

يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ الله إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[١٢]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان حُكم هجرة النساء وتزويج المسلمين إيّاهن، بيّن كيفية بيعتهنّ بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ**﴾ النساء ﴿**ٱلْمُؤْمِنَاتُ**﴾ بقصد أن ﴿**يُبَايِعْنَكَ**﴾ ويُعاهدنك ﴿**عَلَىٰ أَن لاَ يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً**﴾ من الأصنام والأوثان والكواكب والملائكة وغيرها ﴿**وَلاَ يَسْرِقْنَ**﴾ ولا يأخُذن أموال أزواجهنّ[١] وغيرهم خُفيةً بغير إذن مالكها ﴿**وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ**﴾ بشُرب الدواء والحركات الموجبة لسقطهنّ وغير ذلك من الأسباب، أو المراد قتلهنّ البنات ﴿**وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ**﴾ ونسبة الولد كذباً إلى أزواجهنّ حال كونهنّ ﴿**يَفْتَرِينَهُ**﴾ ببطونهنّ اللاتي ﴿**بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ**﴾ وفروجهنّ اللاتي بين أرجلهنّ.

قيل: كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هذا ولدي منك، فذلك البُهتان المُفترى بين أيديهنّ ﴿**وَأَرْجُلِهِنَّ**﴾، وذلك أنّ الولد إذا رضعته الأمّ وضعته بين يديها ورجليها، أو بطنها الذي تحمله فيه بين يديها، ومَخْرَجه بين رجليها[٢].

عن ابن عباس: يعني لا تُلحِق بزوجها ولداً ليس منه[٣].

﴿**وَلاَ يَعْصِينَكَ فِى**﴾ عملٍ ﴿**مَعْرُوفٍ**﴾ وحسن تكلّفهنّ به من فعلٍ أو تركٍ.

حكى بعض أكابر مفسري العامة: أنّ المراد هو النهي عن النِّياحة، والدعاء بالويل، وتمزيق الثوب، ونَتف الشعر ونشره، وخَمْش الوجه[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «هو ما فرض الله عليهنّ من الصلاة والزكاة، وما أمرهنّ به من خير»[٥].

﴿**فَبَايِعْهُنَّ**﴾ على ما ذكر ﴿**وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ**﴾ الله لُطفاً عليهنّ ﴿**إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ**﴾ لذنوب المؤمنين ﴿**رَّحِيمٌ**﴾ بهم بإعطاء الثواب العظيم.

روى الفخر الرازي: أنّ النبي صلّى الله عليه وآله لمّا فرغ من بيعة الرجال يوم الفتح، أخذ في بيعة النساء وهو على الصفا، وعمر أسفل منه يُبايع النساء بأمر النبي صلّى الله عليه وآله، فجاءت هند بنت عُتبة امراة أبي سفيان متقنعة متنكّرة خوفاً من رسول الله صلّى الله عليه وآله أن يَعرِفها، فقال صلّى الله عليه وآله: «أُبايعكنّ على أن لا تُشرِكن بالله شيئاً» فرفعت

---

١. في النسخة: زوجهنّ. ٢. جوامع الجامع: ٤٩١، تفسير الرازي ٢٩: ٣٠٨، تفسير روح البيان ٩: ٤٨٩.
٣. مجمع البيان ٩: ٤١٤، تفسير الرازي ٢٩: ٣٠٨. ٤. تفسير روح البيان ٩: ٤٨٩.
٥. تفسير القمي ٢: ٣٦٤، تفسير الصافي ٥: ١٦٦.

هند رأسها، وقالت: والله لقد عبدنا الأصنام، وإنّك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال، تُبايع الرجال على الاسلام والجهاد فقط؟

فقال ﷺ: «ولا تسرِقن» فقالت هند: إنّ أباسفيان رجلٌ شحيحٌ، وإنّي أصبتُ من ماله هناة، فما أدري أتحِلّ لي أم لا؟ فقال أبوسفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى وفيما غير فهو لك حلال. فضَحِك رسول الله وعرفها، فقال لها: «وإنّك لهند بنت عُتبة؟» قالت: نعم، فاعفُ عمّا سلف يا نبيّ الله، عفا الله عنك.

فقال: «ولا تزنين» قالت: أتزني الحُرّة؟ فقال: «ولا تقتلن أولادكنّ» فقالت: ربّيناهم صِغاراً، وقتلتهم كباراً، فأنتم وهم أعلم، وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قُتِل يوم بدر. فضَحِك عمر حتى استلقى، وتبسّم رسول الله ﷺ.

فقال: «ولا يأتين ببُهتان يفترينه» وهو أن تقذِف على زوجها ما ليس منه، فقالت هند: إن البُهتان لأمرٌ قبيحٌ، وما تأمُرنا إلّا بالرُّشد ومكارم الأخلاق.

فقال ﷺ: «ولا تعصينني في معروفٍ» فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيءٍ، انتهى[١].

في كيفية أخذ النبي ﷺ البيعة من النساء

قال بعض العامة: إنّ مبايعة عمر إيّاهن من قبل رسول الله ﷺ[٢]؛ لأنّه لا يجوز للرسول ﷺ مسّ أيدي الأجنبية.

أقول: كذلك والله لايجوز لعمر مسّها بطريق أولى، ورووا أنّ النبي ﷺ كلّف امرأةً وقفت على الصفا فبايعتهنّ، وهي أُميمة أُخت خديجة[٣].

وعن الصادق عليه السلام قال: «لمّا فتح رسول الله ﷺ مكّة بايع الرجال، ثمّ جاءت النساء يُبايعنه، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الآية، قالت هند: أمّا الولد فقد ربّيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً. وقالت أُمّ الحكم بنت الحارث بن هِشام، وكانت عند عكرمة بن أبي جهل: يا رسول الله، ما ذلك المعروف الذي أمرنا الله أن لا نعصيك فيه؟ قال: لا تُلْطِمن خدّاً، ولا تَخمُشن وجهاً، ولا تَنْتِفن شعراً، ولاتَشْقُقن جَيباً، ولاتُسَوّدن ثوباً ولاتَدعين بالويل، فبايعهنّ رسول الله ﷺ على هذا. فقالت: يا رسول الله كيف نُبايعك؟ قال: إنّني لا أُصافح النساء، فدعا بقَدحٍ من ماء، فأدخل يده فيه، ثمّ أخرجها، فقال: اذْخِلن أيديكنّ في هذا الماء، فهي البيعة»[٤].

---

١. تفسير الرازي ٢٩: ٣٠٧.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٤٩١.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٤٩١.
٤. الكافي ٥: ٥/٥٢٧، تفسير الصافي ٥: ١٦٦.

وعنه عليه السلام قال: «جمعهنّ حوله، ثمّ دعا بتَوْر برام[١]، فصبّ فيه ماءً نُضُوحاً، ثمّ غمس يده فيه، ثمّ قال: اسمعن يا هؤلاء، اُبايعكنّ على أن لا تُشرِكن بالله شيئاً -إلى آخر ما في الآية - ثمّ قال: أقررتُنّ؟ قلن: نعم، فأخرج يده من التَّوْر، ثمّ قال لهن: اغْمِسنَ أيديكنّ فيه، ففعلن، فكانت يد رسول الله ﷺ أطيب من أن يَمَسّ بها كفّ اُنثى ليست [له] بمَحْرَم»[٢].

ورُوي عن عائشة أنّها قالت: «ما أخذ رسول الله ﷺ قطّ إلّا بما أمر الله، وما مسّت كفّ رسول الله ﷺ كفّ امرأة قطّ، وكان يقول إذا أخذ عليهنّ قد بايعتك على كُلّها، فاذا أقررن بذلك من قولهنّ، قال لهنّ: انطلقن فقد بايعتكنّ»[٣].

وروى بعض العامة أنّ النبي ﷺ بايعهنّ وبين يديه وأيديهن ثوب قِطْريّ - وهو ضربٌ من البُرد - يأخُذ بطرفٍ منه ويأخُذن بالطرف الآخر[٤].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ[١٣]

ثمّ أكّد سبحانه النهي عن مولاة الكفّار، أو عن مولاة خصوص اليهود بقوله: **﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ﴾** عن ابن عباس يقول: لا تتولّوا اليهود والمشركين، وذلك لأنّ جمعاً من فُقراء المسلمين كانوا يُخبرون اليهود أخبار المسلمين لحاجتهم إليهم، فنهوا عنه، ولمّا كان اليهود قد كذّبوا محمداً ﷺ، وهم يعرِفون أنّه رسول الله، وأنهم أفسدوا آخرتهم بتكذيبهم إياه[٥]، فهم **﴿قَدْ يَئِسوا﴾** وقطعوا الطمع **﴿مِنَ﴾** نعيم الدار **﴿الْآخِرَةِ﴾** وثوابها **﴿كَما يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾** الذين ماتوا على كفرهم وصاروا جميعاً **﴿مِنْ أَصْحَابِ ٱلْقُبُورِ﴾** فانّهم عاينوا الآخرة، وعَلِموا بخِذلانهم فيها، وعدم حظّهم منها.

رُوي عن مقاتل: أنّ الكافر إذا وُضِع في قبره أتاه مَلَكٌ شديد الانتهار، ثمّ يسأله من ربّك، ومن نبيّك؟ فيقول: لا أدري. فيقول المَلَك: أبعدك الله، أنظُر إلى منزلك في النار، فيدعو بالويل والثبور، ويقول: هذا لك، فيفتح باب الجنة فيقول: هذا لمن آمن بالله، فلو كنتَ آمنتَ بربّك نزلتَ الجنّة، فيكون حسرةً عليه، وينقطع رجاءة ويعلم أنّه لاحظّ له فيها، فييأس من خير الجنّة[٦].

---

١. التور: هو إناء من صُفرٍ أو حجارةٍ كالإجّانة، وقد يُتوضأ منه، والبُرمة: القِدر مطلقاً، وجمعها بِرَام، وهي في الأصل المتّخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن.
٢. الكافي ٥: ٢/٥٢٦، تفسير الصافي ٥: ١٦٧.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٤٩١.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٤٩١.
٥. تفسير الرازي ٢٩: ٣٠٩.
٦. تفسير روح البيان ٩: ٤٩٢.

وقيل: إنّ المعنى كما يئسوا من موتاهم أن يُبْعَثوا ويرجِعوا إلى الدنيا أحياء[١].

عن السجاد عليه السلام: «من قرأ سورة الممتحنة في فرائضه ونوافله، امتحن الله قلبه للايمان، ونـوّر له بصره، ولا يصيبه فَقْرٌ أبداً، ولا جنون في بدنه، ولا في ولده»[٢].

الحمد لله والشُّكر له على التوفيق لاتمام تفسيرها.

---

١. تفسير أبي السعود ٨: ٢٤١، تفسير روح البيان ٩: ٤٩٢.

٢. ثواب الاعمال: ١١٨، مجمع البيان ٩: ٤٠٢، تفسير الصافي ٥: ١٦٧.

في تفسير سورة الصف

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلّٰهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ[١ـ٣]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الممتحنة المبدوءة والمختتمة بالنهي عن موالاة أعداء الله واليهود الذين غضب الله تبارك وتعالى عليهم، نُظِمت سورة الصفّ التي فيها الترغيب إلى معاداة أعداء الله والاصطفاف في مقابلهم في ميدان الجهاد طلباً لمرضاة الله تعالى، فابتدأها سبحانه بذكر الأسماء الحسنى بقوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ أعلن سبحانه بكمال عظمته المقتضية لتعظيمه وتحصيل القُرب منه والمحبوبية عنده بقوله: ﴿سَبَّحَ لِلّٰهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ وقد مرّ تفسيره مراراً.

ثمّ وبّخ سبحانه المؤمنين على تخلّفهم عن وعدهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ﴾ ولأيّ علّةٍ تُظهِرون وتَعِدون ﴿مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ ولاتَفُون به. رُوي أنّ المسلمين كانوا يقولون: لو عَلِمنا أحبّ الأعمال إلى الله، لبذلنا أموالنا وأنفسنا فيه، فلمّا نزل الجهاد كَرِهوه، فنزلت الآية[١] توبيخاً عليهم بعدم وفائهم بقولهم.

في وجوب الوفاء بالوعد وعدمه

ثمّ عظّم الله سبحانه قُبح ترك العمل بالقول وخُلف الوعد بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتاً﴾ وعظُم بُغضاً ﴿عِندَ ٱللهِ﴾ وفي علمه ﴿أَن تَقُولُوا﴾ أيّها المؤمنون ﴿مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الخُلف يُوجب المَقْت عند الله وعند الناس، قال الله: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ ٱللهِ﴾ الآية»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «عدة المؤمن أخاه نَذْرٌ لا كفّارة له، فمن أخلف فبخُلف الله بدأ، ولمقته تعرّض،

١. تفسير الصافي ٥: ١٦٨، تفسير روح البيان ٩: ٤٩٣. ٢. نهج البلاغة: ٤٤٤ الكتاب ٥٣، تفسير الصافي ٥: ١٦٨.

وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ﴾... الآيتان»[1].

أقول: ذهب بعض الأعاظم إلى وجوب الوفاء بالوعد، وقال به صاحب المستند[2]، وادّعى بعض الإجماع على عدم وجوبه، والأحوط الاهتمام بالوفاء.

إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ[٤ و ٥]

ثمّ أنّه تعالى بعد توبيخ المخالفين للوعد الذين وعدوا بالقتال وتخلّفوا عنه، وإظهار غضبه عليهم، مدح المؤمنين المقاتلين لاعلاء كلمة التوحيد بقوله: ﴿إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ أعداءه ﴿فِي سَبِيلِهِ﴾ وطريق مرضاته، ولإعلاء كلمة الحقّ حال كونهم ﴿صَفّاً﴾ وقائمين في مقابل الأعداء في معركة القتال مستوين وثابتين ومستقرين، ومنضمّين بعضهم ببعضٍ ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ﴾ وجِدارٌ ﴿مَّرْصُوصٌ﴾ ومستحكمٌ لايتحرّك من مكانه، ولا يكون فيه الخَلل والفَرج.

عن ابن عباس: يُوضَع الحَجَر على الحَجَر، ثمّ يُرصّ بأحجارٍ صغارٍ، ثمّ يُوضَع اللِّبن عليه، فيُسمّيه أهل مكّة المرصوص[3].

وعن ابن جبير: هذا تعليم الله للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوّهم[4].

ثمّ لمّا كان مخالفة المنافقين وعدهم بالقتال سبباً لإيذاء النبي ﷺ وإنكسار قلبه الشريف، سلّاه سبحانه بشكاية موسى من إيذاء قومه بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ قيل: إنّ التقدير واذكُر يا محمد وقت[5] قال ﴿مُوسَىٰ﴾ بن عمران مع كونه صاحب المعجزات الباهرة ﴿لِقَوْمِهِ﴾ وطائفته، وهم بنو إسرائيل، بعد ما أفرطوا في إيذائه بالقول والفعل: ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ بالمخالفة والعِصيان فيما آمركم به ﴿وَ﴾ الحال أنّكم ﴿قَد تَّعْلَمُونَ﴾ بالأدلّة الواضحة والمعجزات الباهرة ﴿أَنِّي رَسُولُ ٱللهِ﴾ الذي اُرسلت ﴿إِلَيْكُمْ﴾ لهدايتكم إلى الدين الحقّ وإرشادكم إلى السعادة الأبديه، فعليكم أن تُعظّموني وتوقّروني، وتُحسنوا إليّ ﴿فَلَمَّا زَاغُوا﴾ ومالوا عن الحقّ، وأصرّوا على العقائد الفاسدة، ولم يتّعظوا بمواعظه ﴿أَزَاغَ ٱللهُ﴾ وصرف ﴿قُلُوبَهُمْ﴾ عن قَبول الدين الحقّ، بالطبع عليها، وتسليط الشيطان عليهم ﴿وَٱللهُ لاَ يَهْدِي﴾ ولا يُوفّق للوصول إلى الخير والسعادة ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾ والخارجين عن حدود العقل

---

١. الكافي ٢: ١/٢٧٠، تفسير الصافي ٥: ١٦٨.
٢. مستند الشيعة ٢: ٣٨٩.
٣. تفسير الرازي ٢٩: ٣١٢، تفسير روح البيان ٩: ٤٩٥.
٤. تفسير روح البيان ٩: ٤٩٥.
٥. تفسير أبي السعود ٨: ٢٤٣، تفسير روح البيان ٩: ٤٩٦.

وطريق الصواب.

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَابَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللهِ إِلَيْكُم مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى ٱسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ[٦]

فـي بشـارة عيسى عليه السلام ببعثة محمد صلى الله عليه وآله

ثمّ سلّاه بمخالفة قوم عيسى عليه السلام إياه بقوله: ﴿**وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ**﴾ لبني إسرائيل منادياً لهم استمالةً لقلوبهم إلى تصديقه: ﴿**يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللهِ**﴾ الذي اُرسلت ﴿**إِلَيْكُم**﴾ لدعوتكم إلىالتوحيد والدين المرضيّ عندالله، وجئتكم حال كوني ﴿**مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ**﴾ واُنزل قبلي عليكم ﴿**مِنَ**﴾ كتاب ﴿**ٱلتَّوْرَاةِ**﴾ الذي جاءبه موسى ﴿**وَمُبَشِّراً**﴾ إياكم ﴿**بِرَسُولٍ**﴾ عظيمالشأن الذي ﴿**يَأْتِى**﴾ من قبلالله ﴿**مِن بَعْدِى**﴾ وبعد ذهابي من بينكم. ثمّ كأنّه قيل: ما اسمه؟ قال: ﴿**ٱسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾.

عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أنا دعوة إبراهيم، وبُشرى عيسى»[١].

عن الصادق عليه السلام قال: «لمّا أن بعث الله عيسى عليه السلام قال: إنّه سوف يأتي من بعدي نبيٌّ اسمه أحمد من ولد إسماعيل يجيء بتصديقي وتصديقكم وعذري وعُذركم»[٢].

وعن الباقر عليه السلام قال: «لم تزل الأنبياء تُبشّر بمحمّدٍ صلى الله عليه وآله حتى بعث الله المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فبشّر بمحمّد صلى الله عليه وآله، وذلك قوله: ﴿**يَجِدونَهُ**﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿**مَكْتُوباً**﴾ يعني صفة محمد صلى الله عليه وآله واسمه ﴿**عِندَهُمْ**﴾ يعني في التوراة والإنجيل ـ إلى أن قال ـ: [وهو قول الله عزوجل] يُخبر عن عيسى عليه السلام: ﴿**وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى ٱسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾»[٣].

وعنه عليه السلام: «أنّ اسم النبي صلى الله عليه وآله في صُحف إبراهيم الماحي، وفي توراة موسى الحادّ، وفي إنجيل عيسى أحمد، وفي الفرقان محمد»[٤].

وعن القمي: أنه سأل بعض اليهود لم سمّيت أحمد؟ قال: «لأنّي في السماء أحمد منّي في الأرض»[٥].

ثمّ وبّخ سبحانه اُمّة عيسى عليه السلام أو اُمّة محمد صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم**﴾ محمدٌ أو عيسى عليهما السلام

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٤٩٨.
٢. الكافي ١: ٣/٢٣٢، تفسير الصافي ٥: ١٦٩.
٣. الكافي ٨: ٩٢/١١٧، تفسير الصافي ٥: ١٦٩.
٤. من لايحضره الفقيه ٤: ٤٥٤/١٣٠، تفسير الصافي ٥: ١٦٩.
٥. تفسير القمي ٢: ٣٦٥، وفيه: وأما أحمد فاني في السماء أحمد منه، تفسير الصافي ٥: ١٦٩.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات ﴿قَالُوا﴾ عِناداً ولَجاجاً ﴿هَٰذَا﴾ الذي جاءنا به باسم المعجزة ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وشَعْبذة ظاهرة، لايشُكّ أحدٌ في كونه سحراً وشَعْبذةً.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى ٱلْإِسْلَامِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ[٧-٩]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ الذين ينسِبون المعجزات إلى السحر أظلم الناس بقوله: ﴿وَمَنْ﴾ هو ﴿أَظْلَمُ﴾ وأكثر إضراراً على نفسه ﴿مِمَّنِ﴾ نسب كلام الله، أو المعجزات التي جاء بها رسوله إى السحر و ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ونسب إليه ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بنسبة الكذب إلى رسوله ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰ﴾ بلسان رسوله ﴿إِلَى﴾ دين ﴿ٱلْإِسْلَامِ﴾ أو إلى السلامة من المكاره في الدارين، والسعادة في النشأتين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى﴾ ولا يُرشد ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ على الله بتضييع حقوقه، وعلى أنفسهم بإهلاكها في الآخرة إلى ما فيه سعادتهم وخيرهم وفلاحهم أُولئك الظالمون ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾ ويُخمِدوا ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ ويبطلوا دينه أو حُجّته، أو يُوهنوا كتابه ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ وأقوالهم الفاسدة ومطاعنهم الردئة، كمن يُريد أن يُطفئ نور الشمس بنفخة ﴿وَٱللَّهُ﴾ القادر على كلّ شيءٍ ﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ ومُكمّله، ومُظهِر دينه، ومُتقن حُجّة رسوله، وناشر كتابه في الآفاق ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ﴾ والمعاندون لدين الاسلام من اليهود والنصارى وغيرهم إتمامه وإكماله وظهوره واتقانه وانتشاره إرغاماً لأُنوفهم، فانّ سعيهم في إنفاذ مُرادهم كسعي الخُفّاش في إعدام الشمس وإطفاء نورها ﴿هُوَ﴾ الله اللطيف ﴿ٱلَّذِى أَرْسَلَ﴾ بلُطفه على عباده ﴿رَسُولَهُۥ﴾ محمداً إلى كافة الناس إلى يوم القيامة مصاحباً ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ وما به رشاد الخلق من القرآن العظيم والمعجزات الباهرات ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ الذي ارتضاه لملائكته، واختاره لرسوله وأُمّته ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ ويُعليه بقُدرته وتأييده ﴿عَلَى﴾ جنس ﴿ٱلدِّينِ﴾ المخالف لما جاء به ﴿كُلِّهِۦ﴾ بحيث لا يبقى على وجه الأرض دينٌ غير دينه ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ ذلك الظهور والغَلَبة لعِنادهم وتعصّبهم وحَسَدهم، لأنّ فيه محض التوحيد بكماله، وإبطال الشرك بمراتبه جَليّه وخَفيّه، وقد أنجز الله تعالى وعده حيث جعل دينه غالباً على جميع الأديان بالحُجّة والسيف، وسيُكمِل بفضله وحكمته إنجازه بظهور وليّه وحجّته ابن الحسن العسكري الغائب المنتظر، فانّه في ذلك الزمان المبارك والعصر المنوّر لايبقى على وجه الأرض دينٌ غير الاسلام وشَرع خير الأنام.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ ٱللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ[١٠-١٣]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه رسالة رسوله، وإيتاءه بالهدى ودين الحقّ، وتكميل لُطفه وتفضّله على العباد، حثّ المؤمنين على الإخلاص في الايمان به والجهاد معه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بألستكم بمحمدٍ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ وأُرشدكم ﴿عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ واكتسابٍ ومعاوضةٍ رابحةٍ، تعالَوا وعاملوا مع ربّكم معاملةً يكون أهمّ فوائدها أنّها ﴿تُنجِيكُم﴾ وتُخلّصكم ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الآخرة، كما تُنجيكم التجارة الدنيوية من عذاب الفقر وألم الفاقة.

ثمّ كأنّه قيل: أيّ تجارةٍ هي، وكيف نعمل، وما نصنع[1]؟ فقال سبحانه: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ أولاً عن صميم القلب وخُلوص النيّة ﴿بِاللهِ﴾ وبوحدانيته ﴿وَ﴾ برسالة ﴿رَسُولِهِ﴾ محمد.

عن ابن عباس قال: المؤمنون: لو نعلم أحبّ الأعمال إلى الله لعَلِمنا، فنزلت الآية، فمكثوا ما شاء الله يقولون: يا ليتنا نعلم ما هي، فدلّهم الله عليها بقوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾[2]. ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿تُجَاهِدُونَ﴾ أعداء الله ﴿فِي سَبِيلِ ٱللهِ﴾ ونُصرة دينه ﴿بِأَمْوَالِكُمْ﴾ بأن تَبْذُلوها للفقراء والمجاهدين ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بأن تَبذُلوا مُهجكم دون رسوله ﴿ذٰلِكُمْ﴾ الايمان والجهاد ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من الدنيا وما فيها ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك لعَمِلتم به، أو إن كنتم تعلمون أن العاقل لايختار إلّا ما هو خيرٌ له، لا تختارون غيرالايمان والجهاد في سبيل الله، فانّ فائدتهما إنفعلتما ذلك ﴿يَغْفِرْ﴾ الله ﴿لَكُمْ﴾ بكرمه ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ ويستُر عن أنظاركم وأنظار جميع الخلق يوم القيامة معاصيكم وخطاياكم، وفي تلك المغفرة نجاتكم من العذاب ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يُدْخِلْكُمْ﴾ بفضله ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين ذات أشجارٍ كثيرةٍ وقصورٍ عاليةٍ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة، وبعد دخول الجنّة يُدخِلكم منازل ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً﴾ مرضيةً نَزِهة كائنة ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ وخُلود ﴿ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

سُئل النبي ﷺ عن هذه المساكن الطيبة فقال: «قصر من لؤلؤ في الجنة، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتةٍ حمراء، في كلّ دارٍ سبعون بيتاً من زُمُرّدةٍ خضراء، في كلّ بيتٍ سبعون وصيفاً

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٥٠٥.
٢. تفسير الرازي ٢٩: ٢١٧.

ووصيفةً، فيُعطي الله المؤمن من القوة في غداةٍ واحدةٍ ما يأتي على ذلك كلّه»[1].

قد مرّ عن ابن عباس مراراً أنّ جنة عدن عَلَمٌ لإحدى الجنات السبعة[2].

ولكم أيّها المؤمنون مع ذلك ثوابٌ آخر ﴿وَ﴾ نعمة ﴿أُخْرَىٰ﴾ في الدنيا ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ وتشتاقون إليها، وهو ﴿نَصْرٌ﴾ عزيزٌ لكم ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿آللهِ﴾ على أعدائكم ﴿وَفَتْحٌ﴾ مبينٌ لمكة، أو الروم وفارس ﴿قَرِيبٌ﴾ وعاجلٌ ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أيّها الرسول على حسب وظيفتكم ﴿آلْمُؤْمِنِينَ﴾ بي وبك بتلك النِّعم الدنيوية والأُخروية، وفي توصيف النعمة الدنيوية، وهو النصر على الأعداء وفتح المسلمين بقوله: ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ إشعارٌ بأنّهم يُؤثرون رواج الاسلام وقوّة الدين على النِّعم الأُخروية.

يَا أَيُّهَا آلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ آللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى آبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى آللهِ قَالَ آلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ آللهِ فَآمَنَت طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا آلَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ[١٤]

ثمّ أنّه تعالى بعد بيان فوائد الايمان والجهاد، حثّ المؤمنين على الجهاد، ودعاهم إلى نُصرة دينه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا آلَّذِينَ آمَنُوا﴾ جاهدوا الأعداء و ﴿كُونُوا أَنصَارَ آللهِ﴾ وأعوان رسوله في إعلاء كلمة التوحيد ورواج دين الاسلام ﴿كَمَا﴾ نصر الحواريون إذ ﴿قَالَ عِيسَى آبْنُ مَرْيَمَ﴾ أو المعنى: قل يا محمد للمؤمنين بك: يا أيّها الذين آمنوا، كونوا أنصار الله، كما قال عيسى بن مريم ﴿لِلْحَوَارِيِّينَ﴾: يا حواريين ﴿مَنْ أَنصَارِي﴾ وأنكم جُندي وعسكري تقرّباً ﴿إِلَى آللهِ﴾ أو متوجّها إليه ﴿قَالَ آلْحَوَارِيُّونَ﴾: يا نبي الله ﴿نَحْنُ﴾ كلّنا ﴿أَنصَارُ آللهِ﴾ وحماة دينه ﴿فَآمَنَت﴾ بعيسى ﴿طَائِفَةٌ﴾ وجماعةٌ قليلةٌ ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وأطاعوه فيما أمرهم به من نُصرة دينه ﴿وَكَفَرَت﴾ منهم ﴿طَائِفَةٌ﴾ وجماعة أُخرى.

عن ابن عباس، قال: يعني الذين آمنوا بعيسى في زمانه، والذين كفروا كذلك، وذلك لأنّ عيسى لمّا رُفِع إلى السماء تفرّقوا ثلاث فرق؛ فرقة قالوا: كان الله فارتفع، وفرقة قالوا: كان ابن الله فرفعه إليه، وفرقة قالوا: كان عبدالله ورسوله فرفعه إليه، وهم المسلمون، واتّبع كلّ فرقةٍ منهم طائفةٌ من الناس، واجتمعت الطائفتان الكافرتان على الطائفه المُسلمة فقتلوهم وطردوهم في الأرض، فكانت الحالة

---

١. مجمع البيان ٩: ٤٢٣، تفسير روح البيان ٩: ٥٠٧. ٢. تفسير روح البيان ٩: ٥٠٨.

هذه حتى بعث الله محمداً ﷺ فظهرت المؤمنة على الكافرة[١]، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا﴾ وقوّينا ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بمحمدٍ ﷺ ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ وصاروا أُولئك المؤمنون ﴿ظَاهِرِينَ﴾ وغالبين على عدوّهم بالحُجّة بتصديق محمدٍ ﷺ أنّ عيسى عليه السلام كلمة الله وروحه.

عن الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة الصفّ وأدمن قراءتها في فرائضه ونوافله، صفّه الله مع ملائكته وأنبيائه المرسلين»[٢].

الحمد لله ربّ العالمين على إنعامه عليّ بالتوفيق لإتمام تفسير السورة المباركة.

---

١. مجمع البيان ٩: ٤٢٣، تفسير الرازي ٢٩: ٣١٩.

٢. ثواب الأعمال: ١١٨، مجمع البيان ٩: ٤١٦، تفسير الصافي ٥: ١٧١.

في تفسير سورة الجمعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ * هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلاَلٍ مُبِينٍ[١ـ٣]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الصفّ المبدوءة بتعظيم الله تعالى ببيان تسبيح الموجودات له بصيغة الماضي، المتضمّنة لبيان رسالة محمّد ﷺ، وبشارة عيسى عليه السلام ببعثته، وكونه على الهدى ودين الحقّ، المختتمة بدعوة الناس إلى التجارة الرابحة، وهو الايمان به والجهاد معه، نُظِمت سورة الجمعة المبدوءة أيضاً بتعظيم الله ببيان تسبيح جميع الموجودات له بصيغة المضارع الدالة على دوام التسبيح له في جميع الأوقات: الماضي والمستقبل، المتضمّنة لبيان رسالة محمد ﷺ وعموميتها لكافة العرب والعجم والمشركين وأهل الكتاب، وأنّ نبوته ودينه من أعظم فضل الله وإنعامه على الخَلْق، وذمّ المكذبين بآيات الله والمعرضين عن التوراة التي بشّرت برسالته، وحثّ الناس على ذكر الله وعبادته، وتوبيخ المقبلين إلى التجارة الدنيوية، وكون ما عندالله من الثواب خيراً منها، فابتدأها بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ عظّم سبحانه ذاته المقدّسة ببيان تسبيح الموجودات له بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلّٰهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثمّ وصف ذاته بالسلطنة على جميع الموجودات المقتضية لكونها بأجمعها جنوده بقوله: ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ والسُّلطان الذي لا زوال لمُلكه وسُلطانه ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ والمُنزّه والمُبرّأ من كلّ عيبٍ ونقصٍ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ والغالب على كلّ شيءٍ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ والفاعل لما هو الأصوب والأصلح، والواضع لكلّ شيءٍ في موضعه، والمُعطي لكلّ شيءٍ ما يستحقّه ويليق به، ثمّ منّ على الخلق ببعثة النبيّ الأميّ ﷺ الذي هو من آثار سلطنته وقدرته وحكمته بقوله: ﴿هُوَ﴾ السلطان القادر الحكيم ﴿ٱلَّذِى بَعَثَ﴾ بحكمته ولُطفه ﴿فِى﴾ المشركين ﴿ٱلْأُمِّيِّينَ﴾ الذين لايعلمون الكتابة والخطّ، ولم يقرءوا

شيئاً. وعن ابن عباس: هم الذين ليس لهم كتاب ولا نبيّ بُعِث فيهم[١] ﴿رَسُولاً﴾ من جنس الأُميين ونبياً ﴿مِنْهُمْ﴾ وهو محمد ﷺ الذي مع اُمّيته ﴿يَتْلُوا﴾ ويقرأ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ كلام الله و ﴿آيَاتِهِ﴾ القرآنية التي فيها جميع العلوم والمعارف الإلهية الدالة على رسالته ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ ويُطهّر نفوسهم من أرجاس الأخلاق الرذيلة والصفات الدنيّة الذميمة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ﴾ السماوي، أو الخطّ كما عن ابن عباس[٢] ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ قيل: هي الفرائض والسُّنن[٣]. وقيل: هي سُنّته[٤]. وقيل: هي العِظة[٥].

﴿وَإِن﴾ الشأن أنّهم ﴿كَانُوا مِن قَبْلُ﴾ وفي الأزمنة السابقة على بعثته ﴿لَفِى ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ وانحرافٍ ظاهرٍ عن الصراط المستقيم، يعني مُصرّين على الشرك، ومجبولين على ذمائم أخلاق الجاهلية، وكانوا في غاية الافتقار إلى الهادي إلى الحقّ، والرسول المرشد إلى الصواب وسعادة الدارين.

قيل: إنّ توسيط التزكية التي هي تكميل النفس بحسب قوّتها العلمية، وتهذيبها للتفرّع على تكميلها بحسب القوة النظرية الحاصلة بالتعليم المترتّبة على التلاوة، للايذان بأنّ كلاً من الأُمور المترتّبة نعمةٌ جليلةٌ على حيالها، مستوجبةٌ للشكر عليها، فلو رُوعي الترتيب في الوجود لتبادر إلى الفَهم كون الكلّ نعمةً واحدةً[٦].

وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * ذٰلِكَ فَضْلُ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَٱللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ * مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللهِ وَٱللهُ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ[٣ ـ ٥]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ رسالته ليست مختصةً بالأُميين، بل تعُمّ غيرهم من أهالي جميع الأزمنة بقوله: ﴿وَآخَرِينَ﴾. قيل: المعنى ويعلم الآخرين[٧]، والذين لايكونون ﴿مِنْهُمْ﴾ بل يكونون من غيرهم كأهل الكتاب و ﴿لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ ولم يكونوا في زمانهم وسيَلْحَقون بهم ويكونون بعدهم.

قيل: إنّ المراد غير العرب من الأعاجم كما عن ابن عباس[٨]، وعن الباقر عليه السلام[٩].

ورُوي أنّ النبي ﷺ قرأ هذه الآية فقيل له: من هؤلاء؟ فوضع يده على كَتِف سلمان، وقال: «لو كان

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٣. ٢. تفسير روح البيان ٩: ٥١٤.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٣، وفيه: والسّنة. ٤. تفسير روح البيان ٩: ٥١٤.
٥ و٦. تفسير روح البيان ٩: ٥١٤. ٧. تفسير الرازي ٣٠: ٤، تفسير روح البيان ٩: ٥١٥.
٨ تفسير الرازي ٣٠: ٤. ٩. مجمع البيان ١٠: ٤٢٩، تفسير الصافي ٥: ١٧٣.

الايمان في الثريا لناله رجالٌ من هؤلاء»[١].

ورُوي أنّ النبي ﷺ قال: «رأيتني أسقي غنماً سوداء، ثمّ أتبعها غنماً عُفراً» قيل: هو الشاة التي يعلو بياضها الحُمرة. ثمّ قال: «أوّلها يا أبابكر» فقال: يا نبي الله، أما السُّود فالعرب، وأما العُفرة فالعجم تتبعك بعد العرب. فقال عليه السلام: «كذلك أوّلها المَلَك» يعني جَبرَئيل[٢].

وقيل: يعني بالآخرين التابعين الذين لم يَلْحَقوا بالصحابه في الفضل[٣].

وقيل: إنّ آخرين عطفٌ على أُميين[٤]، والمعنى بعث في الأميين وغيرهم من الأمم والطوائف. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ والمبالغ، في العزّة والغَلَبة، ولذلك يُمكّن رجلاً من الأُميين من ذلك الأمر العظيم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المبالغ في العلم ورعاية الصلاح، ولذلك اصطفاه من كافة الناس ﴿ذَٰلِكَ﴾ المَنصِب العظيم، أو الدين الذي جاء به ﴿فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ وإنعامه الفاضل الذي تُستَحقر دونه نِعم الدنيا والآخرة ﴿يُؤْتِيهِ﴾ الله ويُعطيه ﴿مَن يَشَاءُ﴾ إعطاءه من عباده، وقد أعطاه محمداً ﷺ والمؤمنين به ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والمواهب الجسيمة[٥] على جميع خلقه في الدنيا وبخصوص المؤمنين، بتعليم الكتاب والحكمة في الدنيا، وبإجزال الثواب على الايمان والأعمال في الآخرة.

ثمّ قيل: لمّا ذكر سبحانه أن محمداً ﷺ بعث إلى الأُميين والمشركين، اعترض اليهود على نبوّته بأنّه مبعوثٌ إلى العرب خاصة، وليس مبعوثاً إلينا. أجاب سبحانه عن الاعتراض بضرب المثل[٦] بقوله: ﴿مَثَلُ﴾ اليهود ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَاةَ﴾ وعَلِموها، وكُلّفوا العمل بما فيها، وتعهّدوا القيام بها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ ولم يعملوا بها، ولم يلتزموا بما فيها في عدم الانتفاع بها ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ﴾ الذي ﴿يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾ وكتباً كباراً فيها علوم كثيرة، فكما لاينتفع الحمار بتلك الكتب والعلوم التي فيها، ولا يُدرِك إلّا ثقلها، لاينتفع اليهود بالتوراة الدالة على نبوة محمد ﷺ وعموم رسالته إلى الجنّ والإنس والعرب والعجم والأبيض والأسود، ووجوب الايمان به على جميع الخلق إلى يوم القيامة، وإنّما قنعوا بمجرد تلاوتها، ولم يتأمّلوا في معانيها ومداليل آياتها لغاية تعصّبهم وبلادتهم ﴿بِئْسَ﴾ مثلاً ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ﴾ وكفروا بما في التوراة من الإخبار بعموم نبوّة محمد ﷺ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي﴾ ولا يُوفّق للخير والسعادة ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بتعريضها للهلاك الأبد والعذاب الدائم كاليهود ونظائرهم.

قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا

---

١. مجمع البيان ١٠: ٤٢٩، تفسير الصافي ٥: ١٧٢. ٢ و٣. تفسير روح البيان ٩: ٥١٥.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ٤. ٥. في النسخة: الجسيم. ٦. تفسير الرازي ٣٠: ٥.

ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْـدِيهِمْ وَٱللهُ عَـلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ثُـمَّ تُـرَدُّونَ إِلَـىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[٦ـ٨]

ثمّ لمّا كان اليهود مدّعين أنّهم أبناء الأنبياء، وأنّهم أولياء الله، وأولى بالرسالة من العرب والأميين، أمر الله نبيّه ﷺ بتبهيتهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوا﴾ وتديّنوا بدين اليهودية ﴿إِن زَعَمْتُمْ﴾ وتخيّلتم ﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلّهِ﴾ وأحباؤه ﴿مِن دُونِ﴾ سائر ﴿ٱلنَّاسِ﴾ من العرب والعجم، فلا مُحالة تعتقدون أنّ لكم الدار الآخرة خاصة، وأنّ الجنة ونعمها مختصةٌ بكم، إذن ﴿فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ﴾ من الله، واسألوه أن يُخرجكم من الدنيا كي تَصِلوا إلى الجنّة والنِّعم الدائمة، وتستريحوا من تعب الدنيا ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في الدعوى بزعمكم مطمئنين بحقانيته.

ثمّ أخبر سبحانه بكذبهم في دعوى حُبّ الله، وأن الجنّة لهم خاصة، بل هم عالمون بأن لاحظّ لهم في النِّعم الأُخروية، لعلمهم بكونهم عاصين ومُشاقّين لله وللرسول بقوله: ﴿وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ﴾ ولا يُحبّون لقاء الله ﴿أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ وارتكبت جوارحهم من الكفر والطُّغيان والذنب والعِصيان الموجب لاستحقاقهم النار ﴿وَٱللهُ﴾ العالم بالسرائر ﴿عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ مطّلع على خواطرهم وسرائرهم من الكفر والمعاصى الموجبين لأنواع العذاب.

ثمّ أمر سبحانه نبيّه ﷺ بتهديدهم بالموت والعذاب بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى﴾ لا تتمنّونه، بل ﴿تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ مخافة أن تُعاقَبوا على كفركم وسيئات أعمالكم لا يفيدكم الفِرار منه ﴿فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ﴾ ومُدرِككم لا مُحالة ﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت ﴿تُرَدُّونَ﴾ وترجعون ﴿إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ والحاكم المُطّلع على البواطن والظواهر ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ويُخبِركم ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وترتكبون من الكفر والمعاصي، وتحريف التوراة، وإخفاء أوصاف رسول آخر الزمان وعلائمه، وإضلال الناس، وإلقاء الشُّبهات في نبوّته في القلوب، فيُعذّبكم بها أشدّ العذاب.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَـىٰ ذِكْـرِ ٱللهِ وَذَرُوا ٱلْبَيْعَ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا مِن فَضْلِ ٱللهِ وَٱذْكُرُوا ٱللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[٩ و١٠]

في فضيلة يوم الجمعة والعبادة فيه، وابتداء صلاة الجمعة فيه

ثمّ لمّا بيّن سبحانه أنّ الموت ملاقِ الناس ولايمكن الفِرار منه، بيّن ما يوجب الراحة عنده، وما ينفع بعده بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بوحدانية الله ورسالة محمد ﷺ

﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ وأذّن المؤذّن لها ﴿مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ الذي هو عيد المسلمين وأشرف الأيام الذي أمر الناس بالاجتماع فيه للعبادة، ولذا سمّي جمعة ﴿فَاسْعَوْا﴾ وأسرعوا ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

عن الباقر عليه السلام قال: «اعملوا وعجّلوا، فانّه يومٌ مضيّقٌ على المسلمين، وثواب أعمال المسلمين على قَدر ما ضيّق عليهم، والحسنة والسيئة تُضاعَف». قال: «والله بلغني أنّ أصحاب النبي صلّى الله عليه وآله كانوا يتجهّزون للجمعة يوم الخميس، لأنّه يوم مضيّق على المسلمين»[1].

﴿وَذَرُوا﴾ واترُكوا ﴿الْبَيْعَ﴾ والمعاملة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ السعي إلى العبادة وترك البيع ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأنفع من التواني والمعاملة، أو من الدنيا وما فيها ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشرّ، وما في السعي من الأجر.

في الحديث: «إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على باب المسجد بأيديهم صُحف من فِضّة وأقلام من ذَهَب، يكتُبون الأول فالأول على مراتبهم، فاذا خرج الامام طُويت الصُحف واجتمعوا للخُطبة، والمُهاجر إلى الصلاة كالمُهدي بَدَنة، ثمّ الذي يليه كالمُهدي بقرة، ثمّ الذي يليه كالمُهدي شاة» حتى ذكر الدُّجاجة والبيْضة[2].

رُوي أنّ النبي صلّى الله عليه وآله لمّا قَدِم المدينة مهاجراً نزل قُبا على بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، فأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسّس مسجدهم، ثمّ خرج يوم الجمعة عائداً المدينة، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم قد اتّخذ القوم في ذلك الموضع مسجداً، فخطب صلّى الله عليه وآله وصلّى وقال فيها: «الحمد لله واستعينه واستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأُعادي من يكفُر به، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحقّ والنور والموعظة والحكمة، على فترةٍ من الرسل، وقلّةٍ من العلم، وضلالةٍ من الناس، وانقطاعٍ من الزمان، ودنوّ من الساعة، وقُربٍ من الأجل، من يُطع الله ورسوله فقد رُشِد، ومن يعصِ الله ورسوله فقد غوى وفرط وضلّ ضلالاً بعيداً، أُوصيكم بتقوى الله، فانّ خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يَحُضّه على الآخرة، وأن يأمُره بتقوى الله، واحذر ما حذّركم [الله] من نفسه ...». إلى آخر الخطبة الشريفة[3].

ورُوي أنّه صلّى الله عليه وآله قال بعد الخُطبة: «إنّ الله افترض عليكم الجمعة في يومي هذا، وفي مقامي هذا، فمن تركها في حياتي وبعد مماتي، وله إمامٌ عادلٌ من غير عُذرٍ، فلا بارك الله له، ولا جمع الله شمله،

---

١. الكافي ٣: ١٠/٤١٥، تفسير الصافي ٥: ١٧٤.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٥٢٣.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٥٢٢.

ألا فلا حجّ له، ألا فلا صوم له، ومن تاب تاب الله عليه»[١].

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ التي نُوديتم لها ﴿فَٱنتَشِرُوا﴾ وتفرّقوا ﴿فِي﴾ وجه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لإقامة مصالحكم وقضاء حوائجكم وإصلاح معاشكم ﴿وَٱبْتَغُوا﴾ أيها المؤمنون، واطلبوا لأنفسكم وأهليكم الرزق الحلال الذي هو ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ وإحسانه إليكم. رُوي أنّه قال: «طلب الكسب بعد الصلاة فريضة[٢] بعد الفريضة»[٣].

وعن ابن عباس: لم يُؤمروا بطلب شيء من الدنيا، إنّما هو عيادة المرضى، وحضور الجنائز، وزيارة أخٍ في الله[٤]. وعن أنس، عن النبي ﷺ ما يقرب منه[٥].

﴿وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ﴾ في جميع الأوقات والأحوال ذِكراً ﴿كَثِيراً﴾ ولا تخصّوا ذكره بحال الصلاة ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتنجون من المهالك، وتفوزون بأعلى المقاصد.

عن النبي ﷺ: «إذا أتيتم السوق فقولوا: لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، له المُلك، وله الحمد، يُحيي ويُميت، وهو على كلّ شيءٍ قديرٌ، فانّ من قالها كتب الله له ألف ألف حسنة، وحطّ عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة»[٦].

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً ٱنفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَارَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ[١١]

ثمّ لمّا نهى الله سبحانه المؤمنين عن البيع والتجارة وقت النداء، وبّخ سبحانه الذين أقبلوا إلى التجارة حين خُطبة النبي ﷺ بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ﴾ سَمِعوا ﴿لَهْواً﴾ وصوت طَبْل وصَفْق ﴿ٱنفَضُّوا﴾ وتفرّقوا من حولك متوجّهين ﴿إِلَيْهَا﴾ حبّاً للدنيا وزخارفها ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ وحيداً ﴿قَائِماً﴾ على المِنْبَر.

رُوي أن دِحية بن خليفة الكلبي قَدِم المدينة بتجارةٍ من الشام، وكان قبل إسلامه، وكان بالمدينة مجاعةٌ وغلاء سعر، وكان معه جميع ما يحتاج إليه من بُرٍّ ودقيقٍ وزيتٍ وغيرها، والنبي ﷺ يخطُب يوم الجمعة، فلمّا عَلِم أهل المسجد ذلك قاموا إليه خشية أن يُسْبَقوا إليه، فما بقي معه إلّا ثمانية أو أحد عشر أو اثنا عشر أو أربعون، وفيهم عليّ عليه السلام وأبوبكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة [ابن] الجرّاح وسعيد بن زيد وبلال وعبدالله بن

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٥٢٤.
٢. في تفسير روح البيان: هو الفريضة.
٣. تفسير روح البيان ٩: ٥٢٥.
٤. تفسير أبي السعود ٨: ٢٥٠.
٥. مجمع البيان ١٠: ٤٣٥، تفسير الصافي ٥: ١٧٥.
٦. تفسير الرازي ٣٠: ٩.

مسعود. وفي رواية: عمار بن ياسر [بدل عبدالله] وجابر وامرأة فقال: «والذي نفس محمدٍ بيده لو خرجوا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً» وفي رواية: «لولا الباقون لنزلت عليهم الحجارة»[1].

ثمّ أمر الله سبحانه النبي ﷺ بوعظ المسلمين ونُصحهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المؤمنين: اعلموا أيّها المؤمنون أنّ ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وأعدّه من الثواب للمصلّين ومستمعي الخُطبة في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ لكم وأنفع ﴿مِنَ﴾ استماع ﴿ٱللَّهْوِ﴾ وصوت الطّبل والصّفق ﴿وَمِنَ﴾ نفع ﴿ٱلتِّجَارَةِ﴾ وتحصيل البُرّ والدقيق وغيرهما لرزقكم ورزق أهليكم ﴿وَٱللَّهُ﴾ القادر على كلّ شيءٍ ﴿خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ﴾ فانّ عنده خزائن السماوات والأرض، ولا ينقُص منها شيءٌ بالعطاء، وهو الجواد الذي لايبخَل، فاسْعَوا إليه واطلُبوا الرزق منه.

عن الصادق عليه السلام: «الواجب على كلّ مؤمنٍ إذا كان لنا شيعةٌ أن يقرأ في ليلة الجمعة بالجمعة و ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي صلاة الظهر بالجمعة والمنافقين، فإذا فعل ذلك فكأنّما يعمل بعمل رسول الله ﷺ، وكان ثوابه وأجره على الله الجنّة»[2].

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٥٢٦.

٢. ثواب الأعمال: ١١٨، مجمع البيان ٩: ٤٢٧، تفسير الصافي ٥: ١٧٦.

في تفسير سورة المنافقين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللهِ وَٱللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَٱللهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوْا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ[١ـ٣]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الجمعة المتضمّنة لبيان عظمة الله ومنّته على الناس بإرسال محمّد ﷺ بالرسالة، ومنافع بعثته، وعموم رسالته لكافة الناس إلى يوم القيامة، ومعارضة اليهود وإلقائهم الشُّبهة في عموم رسالته، والجواب عنها، وذمّ المسلمين على توجّههم إلى التجارة واللّهو، نُظِمت سورة المنافقين المتضمّنة لبيان كيد المنافقين وإلقائهم الشُّبهات في رسالته، وأمر المؤمنين بالإعراض عن الأولاد والأموال المُلهين عن ذكر الله، وإن في تركه الخُسران، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنى بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع سبحانه في ذمّ المنافقين بقوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلْـمُنَافِقُونَ﴾ الذين يُظهِرون الاسلام ويُبطِنون الكفر وحين حضروا عندك ﴿قَالُوا﴾ لك نفاقاً وكيداً: إنّا ﴿نَشْهَدُ﴾ ونُقِرّ عن اعتقادٍ جازم ويقينٍ صادقٍ ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللهِ﴾ والمبعوث من قبله إلى الخلق لهدايتهم إلى الدين الحقّ ﴿وَٱللهُ﴾ العالم بكلّ شيءٍ ﴿يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ وأنّ شهادتهم برسالتك صدقٌ ومطابقٌ للواقع ﴿وَٱللهُ﴾ مع ذلك ﴿يَشْهَدُ﴾ شهادة حقّه ﴿إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ الذين يَشْهَدون برسالتك كعبد الله بن أُبي واصحابه وأضرابه ﴿لَكَاذِبُونَ﴾ فيما تضمّنت[1] شهادتهم من إظهار اليقين والاعتقاد بها، أُولئك الذين ﴿ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ الفاجرة وجعلوها ﴿جُنَّةً﴾ وتُرساً ووقايةً لأنفسهم من القتل والسبي، وأموالهم من النهب والغارة.

---

١. في النسخه: تضمّن.

قيل: إنّ قولهم ﴿نَشْهَدُ﴾ جارٍ مجري اليمين في التأكيد[١].

﴿فَصَدُّوا﴾ ومنعوا أنفسهم، أو الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ وقَبول دينه وطاعته وطاعة رسوله ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من النّفاق والصدّ والكذب ﴿ذٰلِكَ﴾ الحكم من الله بكذبهم، أو بسوء أعمالهم إنّما هو ﴿بِأَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ بألستهم بتوحيد الله ورسالة رسوله ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بهما بقلوبهم، أو اظهروا الكفر عند اهوانهم الشياطين، أو آمنوا بالتوراة ثمّ كفروا بما فيها من نُعوت خاتم الأنبياء ﷺ ﴿فَطُبِعَ﴾ وخُتِم لذلك ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بكفرهم ﴿فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ ولا يفهمون القرآن وصدق محمد ﷺ في دعوى رسالته، أو فوائد الايمان وضرر الكفر، أو لايفهمون أنّ قلوبهم مطبوعةٌ.

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُسْتَكْبِرُونَ[٤ و ٥]

ثمّ إنّه تعالى بعد ذمّهم بكثر مكرهم بالنبي والمسلمين، ذمّهم بقلّة فهمهم وإدراكهم بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ ونظرت إليهم ﴿تُعْجِبُكَ﴾ ويعظُم في نفسك ﴿أَجْسَامُهُمْ﴾ من حيث الضّخامة وصَباحة الوجه ﴿وَإِن يَقُولُوا﴾ لك قولاً ﴿تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لفصاحتهم وذلاقة لسانهم، ولكنّهم في عدم الفَهم والعقل والنفع ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ﴾ يابسةٌ وعيدانٌ غليظةٌ ﴿مُسَنَّدَةٌ﴾ ومعتمدةٌ على الحائط، ومن غاية جُبنهم وشدّة ضَعْف قلوبهم ﴿يَحْسَبُونَ﴾ ويتوهّمون ﴿كُلَّ صَيْحَةٍ﴾ سَمِعوها من أحدٍ ونِداء منادٍ ولو لإنشاد ضالّته، أو انفلات دابّته، أنّه من عدوّهم واقعةٌ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ حيث يتوقّعون في كلّ ساعةٍ أن يُظهِر الله نفاقهم ويهتِك سرّهم ويكشِف سرّهم فيقصِدهم المسلمون، فاعلم يا محمد أن ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ الكاملون في العداوة لك وللمسلمين ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ واحترز منهم أن تأمنهم على سرّك وتُدخِلهم في أمرٍ من أمورك ﴿قَاتَلَهُمُ اللهُ﴾ وأفناهم من وجه الأرض ولعنهم، والعجب من حُمقهم وجهلهم أنّهم ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وكيف يعدِلون ويُصرَفون عن الحقّ مع كمال وضوحه ولمعان نوره ﴿وَ﴾ من حُمقهم أنّهم ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ نُصحاً من قبل المؤمنين حين ظُهور فسادهم: أيّها المنافقون، ﴿تَعَالَوْا﴾ عند الرسول واتوه ﴿يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ﴾ ويسال الله العفو من ذنوبكم ﴿لَوَّوْا﴾ وعطفوا ﴿رُؤُوسَهُمْ﴾ وأمالوا وجوههم إلى الطرف الآخر ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ ويُعرِضون عن القائل

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ١٣.

﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإتيان عند الرسول، ويتأنّفون عن أن يسألوه الاستغفار لهم.

رُوي أنّه لمّا نزل القرآن على الرسول ﷺ بذمّ المنافقين مشى[1] إليهم عشائرهم من المؤمنين وقالوا لهم: ويلكم افتضحتم بالنفاق، وأهلكتم أنفسكم، فاتوا رسول الله وتوبوا إليه من النفاق، واسالوه أن يستغفر لكم، فأبوا ذلك وزهدوا في الاستغفار فنزلت[2].

وعن ابن عباس: لمّا رجع عبدالله بن أبي من أحد بكثير من الناس، مقته المسلمون وعنّفوه، وأسمعوه المكروه، فقال له بنو أبيه: لو أتيت رسول الله ﷺ حتّى يستغفر لك ويرضى عنك؟ فقال: لا أذهب إليه، ولا أُريد أن يستغفر لي، وجعل يلوي رأسه. فنزلت[3].

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللهَ لاَ يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ * هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لاَ تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلهِ خَزَائِنُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لاَ يَفْقَهُونَ[٦ و ٧]

ثمّ أخبر الله تعالى بعدم قابليتهم للعفو والمغفرة بقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ ومساوياً بالنسبة إليهم ﴿أَسْتَغْفَرْتَ﴾ يا محمد ﴿لَهُمْ﴾ إذا جاءوك معتذرين من نِفاقهم وسيئات أعمالهم ﴿أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لاستكبارهم عن الاعتذار وطلب الاستغفار ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللهُ لَهُمْ﴾ أبداً لعدم قابليتهم للعفو والمغفرة لإصرارهم على الكفر والفُسوق ﴿إِنَّ ٱللهَ لاَ يَهْدِى﴾ ولا يُوصِل إلى الخير والسعادة الأبدية ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾ والجماعة الخارجين عن الدين وحدود العقل والصلاح.

ثمّ بيّن سبحانه علّة عدم قابليتهم للمغفرة وبلوغهم إلى غاية الفِسق والشقاوة بقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ للأنصار جهلاً وعِناداً للحقّ: أيّها الأنصار ﴿لاَ تُنفِقُوا﴾ من أموالكم ﴿عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللهِ﴾ من المؤمنين المهاجرين إليه ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ ويتفرّقوا من حوله ويَرجِعوا إلى أوطانهم وعشائرهم ويرجِع العبيد إلى مواليهم والأبناء إلى آبائهم. قيل: إنّ قولهم (رسول‌الله) إما للهُزْء، أو لاشتهاره ﷺ بهذا اللّقب[4]، أو أنّهم قالوا (على من عند محمد) وذكره الله بهذا اللقب إجلالاً له[5].

ثمّ أبطل سبحانه قولهم بقوله: ﴿وَلِلهِ خَزَائِنُ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وبيده أرزاق الخلائق يُعطيها لمن يشاء ويقدِر ﴿وَلٰكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ لجهلهم بالله وشؤونه ﴿لاَ يَفْقَهُونَ﴾ ذلك، ولذا يقولون من مقالات الكفر ما يقولون.

---

١. في النسخة: سيء. ٢و٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٥. ٤. تفسير روح البيان ٩: ٥٣٦.
٥. مجمع البيان ١٠: ٤٤٤.

يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ[٨]

ثمّ حكى سبحانه قولهم الآخر الذي هو أشنع من قولهم الأول بقوله: ﴿**يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا**﴾ من سفرنا هذا ﴿**إِلَى ٱلْمَدِينَةِ**﴾ والله ﴿**لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ**﴾ وهم المنافقون باعتقادهم، أو خصوص عبدالله بن أبي ﴿**مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ**﴾ وهم المؤمنون، أو خصوص النبي ﷺ.

رُوي أنّ في غزوة بني المُصطَلق ازدحم على الماء جَهْجَاه بن سعيد الغفاري أجير عمر بن الخطاب يقود فرسه وسِنان الجَهمي حليف عبدالله بن اُبي رئيس المنافقين واقتتلا، فصَرَخ جَهجاه بالمهاجرين، وسِنان بالأنصار، فاعان جَهجاه جِعال من فقراء المهاجرين، ولطم سِناناً، فاشتكى إلى عبدالله بن اُبي، فقال للأنصار ماذا فعلتم بأنفسكم؟ أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم من جِعال وذوي فضل طعامكم لم يركبوا رقابكم، ولأوشكوا أن يتحوّلوا عنكم، فلاتُنفِقوا عليهم حتّى ينفضّوا من حول محمّد، ولئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنّ الأعزّ منها الأذلّ عنى بالأعزّ نفسه، وبالأذلّ جانب المؤمنين، أو خصوص الرسول ﷺ، وإنّما نسب سبحانه القول إلى المنافقين لرضاهم به.

فسَمِع ذلك زيد بن أرقم وهو حَدَثٌ، فقال: أنت والله الذليل القليل المُبغض في قومك، ومحمد في عزٍّ من الرحمن، وقوةٍ من المسلمين. فقال ابن أبي: اسكُت، فانّما كنت ألعب.

فأخبر زيدٌ رسول الله ﷺ بما قال ابن أبي، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرِب عُنق هذا المنافق. فقال: إذاً ترغَم أنوفاً كثيرة بيثرب. فقال عمر: فإن كَرِهت أن يقتُله المهاجرون، فأمر به أنصارياً. فقال: إذاً تحدّث الناس أن محمداً يقتُل أصحابه. وقال عليه السلام لابن أبي: «أنت صاحب الكلام الذي بلغني»؟ قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك، وإنّ زيداً لكاذب. فقال الحاضرون: شيخنا وكبيرنا يُصدّق عليه كلام غلامٍ، عسى أن يكون قد وَهِم. فقال رسول الله لزيد: «لعلّك غَضِبت عليه»؟ قال: لا. قال: «فلعلّك أخطاك سَمْعك»؟ قال: لا. قال: «فلعلّه اشتبه عليك» قال: لا.

فلمّا نزلت الآيه لَحِق رسول الله ﷺ زيداً من خلفه، فعَرَك اُذنه، وقال: «وفت اُذنك يا غلام، إنّ الله صدّقك وكذّب المنافقين»[١]. وردّ عليهم بقوله: ﴿**وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ لا لغيرهم ﴿**وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ ذلك لجهلهم وغرورهم.

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٥٣٧.

روى بعض العامة أنه قيل للحسن بن علي عليه السلام: إنّ الناس يزعُمون أنّ فيك تَيهاً - أي كِبراً - فقال: «ليس ذلك بتيه، ولكنّه عزّة» وتلا الآية[1].

وعن القمي، قال: نزلت الآية أو السورة في غزوة مُرَيْسيع - وهي غزوة بني المُصْطَلِق - في سنة خمس من الهجرة، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله خرج إليها، ولمّا رَجَع منها نزل على بئر، وكان الماء قليلاً فيها، وكان أنس بن سيّار حليف الأنصار، وكان الجَهْجاه بن سعيد الغِفارى أجيراً لعمر بن الخطاب، فاجتمعوا على البئر، فتعلّق دلو أنس بن سيّار بدلو جَهْجاه، فقال أنس بن سيّار: دلوي. وقال جَهْجاه: دلوي، فضرب جَهْجاه يده على وجه انس بن سيّار، فسال منه الدم، فنادى أنس بن سيّار بالخرزج، ونادى جَهْجاه بقريش، فأخذ الناس السلاحن وكاد أن تقع الفتنة.

فسَمِع عبدالله بن أُبي النداء، فقال: ما هذا؟ فأخبروه بالخبر، فغَضِب غضباً شديداً، ثمّ قال: قد كنت كارهاً لهذا المسير، [إنّي] لأذلّ العرب، ما ظننت أن أبقى إلى أن أسمع مثل هذا النداء فلا يكن عندي تغيير[2]. ثمّ أقبل على أصحابه فقال: هذا عملكم، أنزلتموهم منازلكم، وواسيتموهم بأموالكم، ووقيتموهم بانفسكم، وأبرزتم نحوركم للقتل، فأرمل نساءكم، وأيتم صبيانكم، ولو أخرجتموهم لكانوا عيالاً على غيركم. ثمّ قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرِجنّ الأعزّ منها الأذلّ.

وكان في القوم زيد بن أرقم، وكان غلاماً قد راهق، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله في ظلّ شجرةٍ وعنده قومٌ من المهاجرين والأنصار، وجاء زيدٌ فأخبره بما قال عبدالله بن أبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لعلّك وَهِمت يا غلام» قال: لا والله ماوَهِمت. فقال: «لعلّك غَضِبتَ عليه» قال: لا والله ما غَضِبتُ عليه. قال: «فلعلّه شُبّه عليك» قال: لا والله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لشُقْران مولاه: «أحدِج»[3]. فأحْدَج راحلته ورَكِب، فتسامع الناس بذلك، فقالوا: ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله ليرحل في مثل هذا الوقت. فرحل الناس ولَحِقه سعد بن عُبادة. فقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته. فقال: «وعليك السلام» فقال: ما كنت لتركب في مثل هذا الوقت؟ فقال: «أوما سَمِعت قولاً قال صاحبكم»؟ قال: وأيّ صاحبٍ لنا غيرك يا رسول الله؟ قال: «عبدالله بن ابيّ زعم انه ان رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الاذل» فانّك وأصحابك الأعزّ، وهو وأصحابه الأذلّ.

فسار رسول الله صلى الله عليه وآله يومه كلّه، لا يُكلّمه أحد، فأقبلت الخزرج على عبدالله بن أُبي يَعْذِلونه،

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٥٣٨.

٢. في المصدر: تعيير، وفي النسخه: تعبير.

٣. أحدج بعيره: شدّ عليه قَتبه بأداته.

فحلف عبدالله أنّه لم يقُل شيئاً من ذلك، فقالوا: فقُم بنا إلى رسول‌الله ﷺ حتى نعتذر إليه، فلوى عنقه، فلمّا جنّ الليل سار رسول‌الله ﷺ ليله كلّه ونهاره، فلم ينزلوا إلّا للصلاة، فلمّا كان من الغد نزل رسول الله ﷺ ونزل أصحابه، وقد أمهدهم الأرض من السّهر الذي اصابهم، فجاء عبدالله بن اُبي إلى رسول‌الله ﷺ، فحلف أنّه لم يقُل ذلك، وأنّه ليشهَد لا إله إلّا الله، وأنّك رسول‌الله ﷺ، وأنّ زيداً قد كَذَب عليّ، فقَبِل رسول الله ﷺ منه، وأقبلت الخزرج على زيد بن أرقم يَشْتُمونه، ويقولون له: كَذَبت على عبدالله بن اُبي سيّدنا.

فلمّا رحل رسول‌الله ﷺ كان زيد معه يقول: اللهمّ إنّك لتعلم أنّي لم أكذِب على عبدالله بن اُبي، فما سار إلّا قليلاً حتى أخذ رسول‌الله ﷺ ما كان يأخُذه من البُرحاء[1] عند نزول الوحى عليه، فثقُل حتّى كادت ناقته أن تبرُك من ثِقْل الوحي، فسُرّي عن رسول الله ﷺ وهو يسكُبُ العرق عن جبهته، ثمّ أخذ بأُذني زيد بن أرقم، فرفعه من الرّحل، ثمّ قال: «يا غُلام، صدق فُوك، ووعى قلبك، وأنزل الله فيك قرآناً» فلمّا نزل جمع أصحابه، وقرأ عليهم سورة المنافقين، ففضح الله عبدالله بن اُبي[2].

[وفي رواية عن أبي جعفر عليه السلام] قال: فلمّا نعتهم الله لرسوله ﷺ وعرّفه [مساءتهم]، مشى إليهم عشائرهم فقالوا لهم: قد افتضحتم، فأتوا نبيّ الله يستغفر لكم، فلووا رؤوسهم وزهدوا في الاستغفار[3].

رُوي أنّ ولد عبدالله بن اُبي أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن كنت عزمت على قتل أبي، فمُرني أن أكون أنا الذي أحمل إليك رأسه فوالله لقد عَلِمت الأوس والخزرج أنّي أبرهم ولداً بوالدٍ، فإنّي أخاف أن تأمُر غيري فيقتله، فلا تطيب نفسي أنّي أنظُر إلى قاتل عبدالله، فأقتُل مؤمناً بكافرٍ، فأدخل النار. فقال رسول‌الله ﷺ: «بل نُحسِن لك صحابته مادام معنا»[4].

وعن (الكافي) عن الكاظم عليه السلام، قال: «إنّ الله تبارك وتعالى سمّى من لم يتّبع الرسول ﷺ في ولاية وصيّه منافقين، وجعل من جحد وصيّه إمامته كمن جحد محمداً ﷺ وأنزل بذلك قرآناً، فقال: يا محمد ﴿إِذَا جَاءَكَ ٱلْمُنَافِقُونَ﴾ بولاية وصيك ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللهِ وَٱللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَٱللهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ﴾ بولاية علي ﴿لَكَاذِبُونَ * ٱتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللهِ﴾ والسبيل هو الوصي ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ برسالتك ﴿ثُمَّ كَفَرُوا﴾ بولاية وصيك ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يقول: لا يعقِلون بنبوتك، وإذا قيل لهم إرجعوا إلى

---

١. البُرحاء: الشدّة والمشقّة.

٢. تفسير القمي ٢: ٣٦٨، تفسير الصافي ٥: ١٧٨.

٣. تفسير القمي ٢: ٣٧٠، تفسير الصافي ٥: ١٨٠.

٤. تفسير القمي ٢: ٣٧٠، تفسير الصافي ٥: ١٨٠.

ولاية عليّ يستغفر لكم النبي من ذنوبكم ﴿لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ﴾ قال الله: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ عن ولاية علي ﴿وَهُم مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عليه ثمّ عطف القول من الله بمعرفته بهم فقال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِر لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يقول: الظالمين لوصيّك[1].

أقول: لا شكّ في أنّ الرواية في بيان تأويل الآية لاتفسيرها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنفِقُوا مِن مَا رَزَقْنَاكُم مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ [٩-١١]

ثمّ لمّا كان الكفر والنفاق مع وضوح الحقّ لا يكون إلّا لجمع الأموال وراحة الأولاد، وعظ الله سبحانه المنافقين والمؤمنين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ﴾ ولا تُغفِلكم ﴿أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ﴾ ولايشغلكم الاهتمام بتدبير أُمورهما وتنظيم مصالحهما ﴿عَن ذِكْرِ اللهِ﴾ والتوجّه إليه والقيام بعبادته ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ﴾ التلهّي بالمال والولد والاشتغال بالأمور الدنيوية ﴿فَأُولٰئِكَ﴾ الغافلون والمُلهُون عن ذكر الله ﴿هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في تجارتهم في سوق الدنيا، حيث إنّهم باعوا الجنة والنِّعم الدائمة والراحة الأبدية باللّذّة الدنيوية القليلة الفانية المَشُوبة مع التعب الكثير.

وفي الحديث: «ما طلعت الشمس إلّا بجنبيها مَلَكان يناديان ويُسمِعان الخلائق غير الثقلين: يا أيها الناس: هلمّوا إلى ربّكم، ما قلّ وكفى خيرٌ ممّا كثُر وألهى»[2].

﴿وَأَنفِقُوا﴾ شيئاً ﴿مِن مَا رَزَقْنَاكُم﴾ وأعطيناكم بفضلنا في سبيل الله ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ وعاين مخائله وأماراته ﴿فَيَقُولَ﴾ عند حلوله تمنياً وتحسّراً: يا ﴿رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي﴾ وهلّا أمهلتني ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وأمد قصيرٍ وزمانٍ قليلٍ في الدنيا ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ مالي للفقراء، وأنفق عليهم تقرّباً إليك، أو أؤدّي زكاتي ﴿وَأَكُن﴾ في آخر عُمري ﴿مِنَ﴾ عبادك ﴿الصَّالِحِينَ﴾ والمتعبّدين المُخلصين.

عن ابن عباس: من كان له مالٌ يجب فيه الزكاة فلم يُزكّه، أو مال يُبلغه إلى بيت الله فلم يحُجّ، يسأل عند الموت الرجعة فقال رجل: اتقِ الله يابن عباس، إنّما سألت الكفّار الرجعة. فقال ابن عباس: إنّي اقرأ عليك هذا القرآن. فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى قوله ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فقال

---

١. الكافي ١: ٩١/٣٥٨، تفسير الصافي ٥: ١٨٠.
٢. تفسير روح البيان ٩: ٥٤١.

الرجل: ما يُوجب الزكاة. قال: مائتا دِرْهم. قال: ممّا يُوجب الحجّ. قال: الزاد والراحلة[١].

ورُوي عنه أيضاً أنه قال: هذا دليلٌ على أنّ القوم لم يكونوا مؤمنين، إذ المؤمن لا يسأل الرجعة[٢].

وقيل: لاينزل الموت بأحدٍ لم يحُجّ ولم يؤدّ الزكاة إلا وسأل الرجعة، وقرأ هذه الآية[٣].

وعن (الفقيه) سئل [الصادق] عليه السلام عن قول الله: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ قال: «﴿أَصَّدَّقَ﴾ من الصدقه ﴿وَأَكُن مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ أحُجّ»[٤].

وعن الصادق عليه السلام قال: «الصلاح هنا الحجّ»[٥].

وعن ابن عباس قال: تصدّقوا قبل ان ينزِل عليكم سُلطان الموت، فلا تُقبَل توبةٌ ولا ينفع عملٌ[٦].

ثمّ بيّن سبحانه أنّ من انقضى أجله وحان حَيْنه لايُمهَل في الدنيا بقوله: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ﴾ عن الموت أبداً ﴿نَفْساً﴾ من النفوس ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ وحضر وقت موتها ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌ﴾ وعالم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خيرٍ وشرٍّ، فيجازيكم على حسب استحقاقكم في الآخرة.

قد مرّ ثواب قراءتها[٧].

---

١. تفسير روح البيان ٩: ٥٤٢.   ٢ و٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٩.

٤. من لا يحضره الفقيه ٢: ٦١٨/١٤٢، تفسير الصافي ٥: ١٨١.

٥. مجمع البيان ١٠: ٤٤٥، تفسير الصافي ٥: ١٨١.   ٦. تفسير الرازي ٣٠: ١٩.

٧. تقدم في سورة الجمعة.

في تفسير سورة التغابن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة المنافقين المتضمّنة لبيان سوء أخلاق المنافقين وأقوالهم، وأنّ خزائن السماوات والأرض والعزّة الكاملة له تعالى، ووعظ الناس بأنّه لا ينبغي أن تُلهيهم أموالهم وأولادهم عن ذكر الله، وعليهم أن يتّقوا الله ويُنفِقوا أموالهم في سبيله، نُظِمت سورة التغابن المبدوءة ببيان عظمة الله وعزّه وجلاله، وأنّ الناس صنفان: كافر في الظاهر والباطن، ومؤمن خالص، وأنّه لا ينبغي للانسان أن يفتتن بمحبّة الأزواج والأولاد والأموال، بل عليه أن يتّقي الله ويُنفق أمواله في سبيله، وذكر في السورة السابقة أنّ المُلهون عن ذكر الله في الخسارة، وهنا بيّن أن المنفقين لهم الفلاح في الدارين، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾

ثمّ بيّن سبحانه كمال عظمته وعزّته بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قد مرّ تفسيره و ﴿لَهُ﴾ تعالى وحده ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ والسلطنة المطلقة التامة في تمام عوالم الوجود ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ على نِعمه السابغة الوافرة، فعليكم أن تتذلّلوا لعزّه، وتهابوه لسلطانه، وتستغرقوا في ذكره، ولا تلهوا عن تسبيحه وحمده وشكره.

ثمّ لمّا خصّ مُلك الوجود بنفسه، ولازمه اختصاص التصرّف فيه بذاته، بيّن كمال قدرته بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الايجاد والإعدام والتصرّف والتدبير في الموجودات ﴿قَدِيرٌ﴾ لاعجز في ساحته، ولا مانع عن إنفاذ إرادته.

ثمّ ذكر سبحانه الناس بأصل النِّعم الذي أنعم عليهم وأعظمها بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ أيّها الناس بقدرته، وأوجدكم أولاً من تُراب، ثمّ من نُطفةٍ، فكان الواجب أن تُؤمنوا جميعاً به وتشكروه

في جميع الأوقات، ومع ذلك صِرتم صنفين ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ به لجهله وعِناده ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ به مُصدّق بأنّه خالقه ورازقه، والمُنعِم عليه بالنِّعم الجِسام، فيشكُره ويقوم بمرضاته. عن ابن عباس: أنّ الله خلق بني آدم مؤمناً وكافراً، ثمّ يُعيدهم يوم القيامة كما خلقهم مؤمناً وكافراً[1]. قيل: يعني فمنكم جاحدٌ، ومنكم مصدّقٌ[2].

وقيل: يعني فمنكم كافرٌ في السرّ مؤمنٌ في الظاهر والعلانية كالمنافقين، وكافر في العلانية ومؤمن في السرّ كأبي طالب وعمّار بن ياسر[3].

ثمّ هدّد على الكفر والعِصيان، ووعد على الايمان والطاعة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والعِصيان والايمان والطاعة ﴿بَصِيرٌ﴾ ومُطّلع في الغاية، ويُجازيكم يوم القيامة حسب استحقاقكم وأعمالكم، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرٌ.

عن الصادق عليه السلام - في هذه الآية قال: «عرف الله إيمانهم بولايتنا وكفرهم بتركها يوم أخذ [عليهم] الميثاق في صُلب آدم وهم ذرّ»[4].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ * يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٣ و ٤]

ثمّ ذكر سبحانه نعمتين عظيمتين أُخريين بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ والحكمة البالغة خلقاً بديعاً نافعاً، حيث إنّ جميع الحيوانات بإمطار السماوات وإنبات الأرض يرتزقون ويتعيّشون ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾ يا بني آدم في الأرحام بقدرته ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وزيّن أشكالكم ببدائع الصفات من استواء القامة واعتدال الأعضاء مع ما فيكم من الجمال الظاهر وكمال القوى والمشاعر التي نيطت به الكمالات الظاهرية والباطنية المستتبعة للرُّقي إلى عام القُرب والرُّوحانية ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمرجِع في ترقيّاتكم في هذا العالم بالعلم والعمل وبعد خروجكم من الدنيا، فخُذوا في أعمال القوي والجوارح التي أنعم الله بها عليكم، حتّى تُلاقوا ربّكم وهو راضٍ منكم غير ساخطٍ عليكم.

ثمّ لمّا بيّن سبحانه أنّ الناس صنفان: كافرٌ ومؤمن، ومصير الكلّ إليه فيُجازيهم على حسب

١و٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢١. ٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢١، ولم يرد فيه: أبوطالب.

٤. تفسير القمي ٢: ٣٧١، الكافي ١: ٤/٣٤١، تفسير الصافي ٥: ١٨٢.

استحقاقهم، بيّن سبحانه سَعَة علمه بجميع الموجودات في جميع العوالم العلوية والسُّفلية بقوله: ﴿يَعْلَمُ﴾ بذاته ﴿مَا فِى ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الموجودات الكبيرة والصغيره، وأحوالها الخفية والجلية.

ثمّ أكّد علمه أحوال الناس تشديداً للوعد والوعيد وإرعاباً للقلوب بقوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ وما تَسْتُرونه عن غيركم من الأعمال ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وتُظهِرونه لسائر الناس من الطاعة والمعصية ﴿وَٱللَّهُ﴾ العظيم المنتقم ﴿عَلِيمٌ﴾ ومحيطٌ ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وخُطُورات القلوب ومكنونات الضمائر، فلا يخفي عليه خافيةٌ، ولا يعزُب عنه مِثقال ذرةٍ، فيجازيكم حين رجوعكم إليه على عقائدكم وأعمالكم، فأحسنوها كما أحسن صوركم ونَظَم اُمور معاشكم.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حمِيدٌ[٥ و ٦]

ثمّ وجّه خطابه إلى الكفّار وهدّدهم بمثل ما نزل على الكَفَرة من الاُمم السابقة من العذاب بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ ولم يصِل إليكم أيّها الكفار الحاضرون في عصر النبي الخاتم ﷺ ﴿نَبَأُ﴾ الامم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ كأمّة نُوح وهُود وصالح، وخبر حالهم السيء، وذلك الخبر الهائل أنّهم أصرّوا على الكفر بالله ورسله ﴿فَذَاقُوا﴾ وأحسّوا ﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ وشدّة عاقبة كفرهم في الدنيا حيث استأصلهم بالعذاب ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ لا يُمكن بيان شدّته وإيلامه في الدنيا وكان ﴿ذٰلِكَ﴾ العذاب الدنيوي والاُخروي ﴿بِأَنَّهُ كَانَت تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾ من قبل الله مستدلّين على رسالتهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والمعجزات الباهرات ﴿فَقَالُوا﴾ جواباً لرسلهم وإنكاراً لرسالتهم: ﴿أَبَشَرٌ﴾ مثلنا ﴿يَهْدُونَنَا﴾ ويُرشدوننا إلى معبودنا ودين آخر؟! فتعجّبوا من أن يكون الرسول بشراً، ولم يتعجّبوا من أن يكون إلـههم حَجَراً ﴿فَكَفَرُوا﴾ بالله ورسله جهلاً وعِناداً ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن قبول قولهم والتدبّر في معجزاتهم ﴿وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ عن إيمانهم وطاعتهم، ولذا أهلك جميعهم وقطع دابرهم، ولولا غناء، ما فعل ذلك ﴿وَٱللَّهُ﴾ المالك لجميع الموجودات الخالق لهم ﴿غَنِيٌّ حمِيدٌ﴾ ومحمودٌ في فعاله، أو مستحقّ للحمد بذاته ولو لم يكن حامد.

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِى أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ[٧ـ ٩]

ثمّ لمّا أخبر سبحانه بعذاب الأمم السابقة في الآخرة، حكى إنكار المشركين المعاد بقوله: ﴿زَعَمَ﴾ وظنّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَن﴾ يحيوا بعدموتهم ولن ﴿يُبْعَثُوا﴾ أحياءً من قبورهم للحساب والجزاء أبداً.

ثمّ أمر سبحانه النبي ﷺ بردّ قولهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ من قبوركم للحساب والمجازاة ﴿ثُمَّ﴾ بعد البعث ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ ولتُخبرنّ ﴿بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ في الدنيا من الكفر والعِصيان برؤية العذاب عليه ﴿وَذٰلِكَ﴾ البعث والتعذيب ﴿عَلَى ٱللهِ﴾ القادر على كلّ شيء ﴿يَسِيرٌ﴾ وسهل لكمال القدرة ووجود المقتضي وعدم المانع، فإذا كان الأمر كذلك ﴿فَآمِنُوا﴾ أيها الناس ﴿بِاللهِ﴾ ووحدانيته ﴿وَرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِى أَنزَلْنَا﴾ على محمد ﷺ، وهو القرآن المبين لكلّ حقّ والمُظهِر لكلّ صواب.

وعن الكاظم عليه السلام: «الامامة هي النور»[1].

وعن الباقر عليه السلام: «النور والله الأئمة»[2].

﴿وَٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من الايمان والعمل بالقرآن ﴿خَبِيرٌ﴾ ومُطّلعٌ في الغاية، واذكروا أيها الناس ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ الله ﴿لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ والحساب، يجمع الله فيه الأولين والآخرين، وهو يوم القيامة ﴿ذٰلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ والتخاسر يغبِن ويُخسر بعض الناس بعضاً، يتمكّن بعضهم في مسكن بعض.

عن ابن عباس: أنّ قوماً في النار يُعذّبون، وقوماً في الجنة يتنعّمون[3].

وقيل: يوم يغبِن أهل الحقّ أهل الباطل، وأهل الهدى أهل الضّلالة، وأهل الايمان أهل الكفر، فلا غَبْن أبين من هذا[4].

وعن الصادق عليه السلام: «يوم يغبِن أهل الجنّة أهل النار»[5].

وفي الحديث: «ما من عبدٍ يدخُل الجنّة إلّا أُري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، وما من عبدٍ يدخُل النار إلّا أُري مقعده من الجنّة لو أحسن ليزداد حسرةً»[6].

---

١. الكافي ١: ٦/١٥١، وفيه: النور هو الإمام، تفسير الصافي ٥: ١٨٣.
٢. الكافي ١: ٤/١٥١، تفسير الصافي ٥: ١٨٣. ٣و٤. تفسير الرازي ٣٠: ٢٤.
٥. معاني الأخبار: ١/١٥٦، تفسير الصافي ٥: ١٨٣. ٦. تفسير روح البيان ١٠: ١١.

قيل: إطلاق الغَبْن على نزول الأشقياء في منازل السُّعداء من باب التهكّم[١].

وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَٱلَّذِينَ كَفَروا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَٱللهُ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ * وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ[١٠ـ١٢]

ثمّ بين سبحانه ربح المؤمنين في تجارتهم بقوله: ﴿**وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ**﴾ صادقاً مُخلصاً ﴿**وَيَعْمَلْ**﴾ عملاً ﴿**صَالِحاً**﴾ مرضياً لله ﴿**يُكَفِّرْ**﴾ الله ﴿**عَنْهُ**﴾ ويغفِر له ﴿**سَيِّئَاتِهِ**﴾ يوم القيامة، فلا يفضحه بها بين الناس ﴿**وَيُدْخِلْهُ**﴾ بفضله ﴿**جَنَّاتٍ**﴾ ذات قصورٍ وأشجارٍ ﴿**تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ**﴾ الكثيرة، حال كونهم ﴿**خَالِدِينَ**﴾ ومقيمين ﴿**فِيهَا أَبَداً**﴾ دائماً ﴿**ذٰلِكَ**﴾ الأجر المذكور على إيمانهم وعملهم هو ﴿**ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ**﴾ والنَّيل بأعلى المقاصد من النجاة من العذاب والظَّفر بأجلّ الطيبات.

ثمّ بيّن سبحانه غَبْن الكفّار بقوله: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَروا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**﴾ القرآنية ومعجزات نبيّنا ﷺ ﴿**أُولٰئِكَ**﴾ المغبونون ﴿**أَصْحَابُ ٱلنَّارِ**﴾ ومُلازموها حال كونهم ﴿**خَالِدِينَ فِيهَا وَ**﴾ هي ﴿**بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ**﴾ والمرجِع للكفّار.

ثمّ لمّا بيّن سبحانه حُسن حال المؤمنين في الآخرة، كان مجال أن يقال: فلِم يُبتلى المؤمن في الدنيا بالفَقر والمرض والشدائد؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿**مَا أَصَابَ**﴾ أحداً ﴿**مِن مُصِيبَةٍ**﴾ وبلية من فقرٍ أو مرضٍ أو غيرهما من الشدائد ﴿**إِلَّا بِإِذْنِ ٱللهِ**﴾ وتقديره وإرادته المنبعثة عن الحكمة البالغة ﴿**وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ**﴾ اللطيف الحكيم ﴿**يَهْدِ**﴾ الله ﴿**قَلْبَهُ**﴾ عند المُصيبة للصبر والثّبات والشُّكر والرضا والتسليم لحكمه. عن ابن عباس: يهدي قلبه لما يُحبّ ويرضى[٢].

﴿**وَٱللهُ**﴾ المحيط بخلقه ﴿**بِكُلِّ شَىءٍ**﴾ من الأشياء التي من جملتها القلوب وأحوالها من الرضا والتسليم ﴿**عَلِيمٌ**﴾ ومُطّلعٌ كمال الاطلاع ﴿**وَأَطِيعُوا ٱللهَ**﴾ فيما أمركم به ﴿**وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ**﴾ فيما يُؤدّي إليكم عنه، ولا تَشْغَلكم المصائب عن العمل بوظائف الايمان، قيل: تَكْرار الأمر بالطاعة للتأكيد وبيان الفرق بين الطاعتين[٣] ﴿**فَإِن تَوَلَّيْتُمْ**﴾ وأعرضتم أيّها الناس عن طاعة الرسول وإجابته فيما

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ١٠.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢٦.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ١٤.

دعاكم إليه لا يضرّه بشيءٍ ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا﴾ أيّ رسولٍ كان ﴿ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾ وتأدية الرسالة ببيانٍ واضحٍ، وقد فعل بما لا مزيد عليه، وقد بقي ما عليكم.

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ[١٣ و ١٤]

ثمّ لمّا بيّن أنّ جميع المصائب والبلايا بتقدير الله وإرادته، وصف ذاته المقدّسة بالعظمة والوحدانية، وأمر المؤمنين بالتوكّل عليه بقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود مستحقّ للعبادة سواه ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ العظيم وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وليُفوّضوا إليه الأمور، ومنه يسألوا الحِفْظ من المصائب والصبر عليها.

ثمّ لمّا صلّى سبحانه في المصائب والبلايا الدنيوية، تعرّض للبلايا الأُخروية وما يمنع عن طاعة الله ويصرِف عنها من الأزواج والأولاد بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ﴾ بعضاً ﴿مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ﴾ يكونون ﴿عَدُوّاً لَّكُمْ﴾ يمنعونكم من الهجرة والجهاد والعمل بالتكاليف، كعداوة الشيطان لبني آدم، إذن ﴿فَاحْذَرُوهُمْ﴾ واحترزوا عن موافقتهم وقَبول قولهم. قيل: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، كان أهله وولده يُثبّطونه عن الهجرة والجهاد[1].

وعن ابن عباس: أنّه سُئل عن هذه الآية، فقال: هؤلاء رجالٌ من أهل مكّة أسلموا وأرادوا أن يأتوا المدينة، فلم يَدَعهم أزواجهم وأولادهم، فهو قوله: ﴿عَدُوّاً لَّكُمْ﴾ فاحذروا أن تُطيعوهم وتَدَعوا الهجرة. وقوله: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا﴾ قال: هو أنّ الرجل من هؤلاء إذا هاجر ورأى الناس قد سبقوا إلى الهجرة، وفقِهوا في الدين، همّ أن يُعاقب زوجته وولده الذين منعوه من الهجرة، وإن لَحِقوا به في دار الهجرة لم يُنفِق عليهم، ولم يُصبهم بخير، فنزل: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2] قيل: يعني فعليكم أن تتخلّقوا بأخلاق الله[3].

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْراً لِأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ[١٥ و ١٦]

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢٧.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢٧.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ١٨.

ثمّ لمّا كان محبّة المال والولد فتنةً وبلاءً عظيماً أمر سبحانه المؤمنين بإيثار محبة الله على محبّتهما بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ واختباراً وبلاءً ومِحنةً لكم يُوقعانكم في معصية الله وعذابه ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن آثر محبّته على محبّتهما وطاعته على الاشتغال بمصالحهما، فلا تعصوا الله بسبب حبّهما.

عن امير المؤمنين عليه السلام قال: «لا يقولنّ أحدكم: اللهمّ إنّي أعوذ بك من الفتنة، لأنّه ليس أحدٌ إلّا وهو مشتملٌ على فتنةٍ، ولكن من استعاذ الله فليستعذ من مُضلّات الفتن، فانّ الله يقول: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾»[1].

وحكى بعض العامة عن ابن مسعود ما يقرُب منه[2].

في فضيلة الحسنين عليهما السلام

وعن بعض العامة: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يخطُب، إذ جاء الحسن والحسين عليهما السلام وعليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثُران، فنزل صلى الله عليه وآله من المِنبَر، فحملهما ووضعهما بين يديه[3].

وفي رواية: وضعهما في حُجرةٍ على المنبَر وقال: «صدق الله عز وجل ﴿إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثُران فلم اصبر حتّى قطعت حديثي ورفعتهما». ثمّ أخذ في خطبته[4].

فإذا عَلِمتم أنّ الأزواج والأولاد أعداءكم، وأنّ المال والولد فتنةٌ لكم، وأنّ الله عنده أجرٌ عظيمٌ وجنةٌ ونعيم ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ واحذروه أن يُعذّبكم على مخالفة أحكامه لحُبّ المال والولد ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ومِقدار وسعكم، ولا ترتكبوا ما يُوجِب سَخَطه عليكم ﴿وَٱسْمَعُوا۟﴾ مواعظ الله سَماع القبول ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾ أيّها المؤمنون أوامره ونواهيه ﴿وَأَنفِقُوا۟﴾ في سبيله ممّا رزقَكم لوجهه، تكُن التقوى والسماع والطاعة والانفاق ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ وأنفع من الدنيا وما فيها فضلاً عن المال والولد.

في ذم البخل والترغيب في الانفاق وثوابه

ثمّ حثّ سبحانه المؤمنين بعد أمرهم بالانفاق إلى ترك البُخل بقوله: ﴿وَمَن يُوقَ﴾ ويمنع ﴿شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ وبُخلها الكامن فيها من التأثير في المنع عن الانفاق في سبيل الله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الرادعون أنفسهم عن البُخل ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والفائزون بالجنّة ونعيمها.

---

١. نهج البلاغة: ٤٨٣ الحكمة ٩٣، تفسير الصافي ٥: ١٨٥.

٢ ـ ٤. تفسير روح البيان ١٠: ١٩.

رُوي أنّ النبي ﷺ كان يطوف بالبيت، فاذا رجلٌ متعلّق بأستار الكعبة وهو يقول: بحرمة هذا البيت إلّا غفرت لي. قال ﷺ: «ما ذنبك؟» قال: هو أعظم من أن أصفه لك. قال: «ويحك ذنبك أعظم أم الأرضون؟» قال: بل ذنبي يا رسول الله. قال: «ويحك ذنبك أعظم أم الجبال؟» قال: بل ذنبي أعظم. قال: «فذنبك أعظم أم السماوات» قال: بل ذنبي أعظم. قال: «فذنبك أعظم أم العرش» قال: بل ذنبي أعظم. قال: «فذنبك أعظم أم الله» قال: بل الله أعظم وأعلى.

قال: «ويحك صِف لي ذنبك» قال: يا رسول الله، إنّي رجلٌ ذوثروةٍ من المال، وإن السائل ليأتيني ليسألني فكأنّما يستقبلني بشُعلةٍ من النار. فقال ﷺ: «اعزُب عنّي لاتحرقني بنارك، فو الذي بعثني بالهداية والكرامه لو قمتُ بين الرُّكن والمقام، ثمّ بكيت ألفي عام حتى تجرى من دموعك الأنهار وتُسقى بها الاشجار، ثمّ مُت وأنت لئيم، لأكبّك الله في النار، أما علمت أنّ البُخل كفرٌ، وأنّ الكفّار في النار، ويحك أما علمت أنّ الله يقول: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَفْسِهِ﴾ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾»[١].

إِن تُقْرِضُوا ٱللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[١٧ و ١٨]

ثمّ بالغ سبحانه في الترغيب في الانفاق في سبيله بقوله: ﴿إِن تُقْرِضُوا ٱللهَ﴾ أيها المؤمنون ﴿قَرْضاً حَسَناً﴾ ببذل شيءٍ من أموالكم في الوجوه البِرية، وفي المصارف الخيرية، بخلوص النية، وطيب النفس ﴿يُضَاعِفْهُ﴾ الله ﴿لَكُمْ﴾ أضعافاً كثيرةً على حسب النيات والأوقات والمحالّ، فبعضٌ بالواحد عشرة، وآخر بالواحد سبعين، وبعض بالواحد سبعمائة، وبعض أكثر منها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم وخطاياكم ﴿وَٱللهُ﴾ الكريم ﴿شَكُورٌ﴾ لعبيده بإكثار الثواب والعِوض على إنفاقهم والأجر على حسناتهم، أو بإكثار الثناء على عبده المُحسِن ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعجَل في عقوبة البخيل وغيره من العصاة ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ والمُطّلع على الخفيّ والظاهر من أعمال عباده وغيرها بحيث لا يعزُب عن علمه شيءٌ، فيعلم صدقة السرّ والعَلَن وخُلوص نيّة المُصَدّق ورياءه فيها ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ والقادر على إثابة المطيعين وعقوبة العصاة المُتمرّدين ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لايصدُر منه إلّا ما هو الأصلح والأصوب، ويُثيب ويُعاقب على حسب الاستحقاق.

روى بعض العامة عن عبدالله بن عمران قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلّا وفي شبابيك

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٢١.

رأسه مكتوبٌ خمس آيات من سورة التغابن»[١].

أقول: لعلّ المراد خمس آيات من أول السورة مع عدّ ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ آية، كما هو الحقّ.

وفي الحديث: «من قرأ سورة التغابن رُفِع عنه موت الفَجأة»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة التغابن في فريضةٍ كانت له شفيعةً يوم القيامة، [و] شاهد عدلٍ عند من يجيز شهادتها، ثمّ لا تفارقه حتّى يدخُل الجنّة»[٣].

الحمد لله على التوفيق لإتمام تفسيرها.

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٢٤.
٢. تفسير أبي السعود ٨: ٢٥٩، تفسير روح البيان ١٠: ٢٤.
٣. ثواب الأعمال: ١١٨، مجمع البيان ١٠: ٤٤٦، تفسير الصافي ٥: ١٨٥.

في تفسير سورة الطلاق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُوا ٱللهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِى لَعَلَّ ٱللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً[١]

ثمّ لمّاخُتِمت سورةالتغابن المتضمّنة لبيان عداوة النساء لأزواجهنّ، وتهديد الكفّار بذوق الأُمم السابقة وَبال كُفرهم، وحثّ المؤمنين على التقوى والانفاق في سبيل الله، نُظِمت سورة الطلاق المتضمّنة لبيان بعض أحكام طلاق الأزواج، ووجوب الانفاق عليهنّ في العِدّة الرجعية وإذا كُنّ ذوات الحَمْل ووجوب الانفاق على الأولاد والحثّ على التقوى وتهديد الكفّار بما ذاقت الأُمم السابقة من العذاب، ففافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

في ذكر شرائط الطلاق وبعض أحكامه

ثمّ شَرَع سبحانه ببيان بعض أحكام الطلاق بعد خِطاب النبيّ ﷺ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ثمّ خاطب أُمّته لأنّه سيّدهم وقُدوتهم، فكان خِطابه بمنزلة خِطابهم. وقيل: إنّ التقدير قُل لأمتك[١] ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ﴾ المدخول بهنّ، وأردتم فراقهنّ وقطع عُلقة نكاحهنّ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ وأنشِئوا صيغة طلاقهنّ حال كونهنّ مستقبلات ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وزمان تربّصهنّ بعد الطلاق، ومنعهنّ عن التزوج بالغير إذا كُنّ في سنّ من تحيض.

عن النبي ﷺ والسجاد عليه السلام: «فطلقوهن من[٢] قبل عِدّتهنّ»[٣]. وعن الصادق عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: إذا أراد الرجل الطلاق طلّقها[٤] من قبل عِدّتها بغير جِماع»[٥].

---

١. مجمع البيان ١٠: ٤٥٦.

٢. في مجمع البيان وتفسير الصافي: في.

٣. مجمع البيان ١٠: ٤٥٥، تفسير الصافي ٥: ١٨٦.

٤. في الكافي: في.

٥. الكافي ٦: ٩/٦٩، تفسير الصافي ٥: ١٨٦.

وعن الباقر عليه السلام: «إنّما الطلاق أن يقول لها في قبل العِدّة بعد ما تطهُر من مَحيضها قبل أن يُجامعها: أنت طالق ...» الخبر[١].

وقيل: إن لام ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ بمعنى في، والمعنى فطلّقوهن في عِدّتهنّ[٢]، لأنّ الطُّهر الذي يقع فيه الطلاق معدودٌ من إظهار العِدّة، وهي ثلاثة. وعن الباقر عليه السلام: «العِدّة: الطُّهر من الحيض»[٣].

﴿وَأَحْصُوا﴾ أيها الأزواج واضبطوا ﴿الْعِدَّةَ﴾ بحفظ الوقت الذي يقع فيه الطلاق، وأكملوها ثلاث أطهار، أو ثلاث أشهر، إذا كُنّ في سنّ من تحيض، فانّ النساء عاجزات عن إحصائها لغَلَبة الغَفْلة عليهنّ.

ثمّ لمّا كان الغالب وقوع الطلاق لكراهة الزوج معاشرة الزوجه، ولازم ذلك سرعة الزوج في إخراجهنّ من منزلهم، نهى سبحانه عن إخراجهن مع التهديد على ذلك بقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ﴾ أيها الأزواج وخافوا عذابه على إخراجهن، ولذا ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ إذا كنّ رجعيات ﴿مِن بُيُوتِهِنَّ﴾ ومساكنهنّ اللاتي أسكنتموهنّ فيها حال الطلاق ﴿وَ﴾ هن أيضاً ﴿لَا يَخْرُجْنَ﴾ منها ما دُمن في العِدّة.

وقيل: إنّ المراد اتّقوا الله ربّكم في تطويل عِدّتهنّ والاضرار بهنّ بايقاع طلاق ثانٍ بعد الرجعة[٤].

ثمّ حرّم إخراجهنّ وخرُوجهنّ ﴿إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ ويعملن عملاً ظاهر القَباحة كالزنا، فيُخرَجن لإقامة الحدّ عليهنّ.

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عنه، فقال: «إلا أن تزني، فتُخرَج ويُقام عليها الحدّ»[٥].

وعن ابن عباس: وهو كلّ معصية[٦].

وعن الرضا عليه السلام قال: «أذاها لأهل الرجل وسوء خُلقها»[٧].

وعنه عليه السلام: «يعني بالفاحشة المبينة أن تُؤذي أهل زوجها، فاذا فعلت فان شاء أن يُخرِجها من قبل أن تنقضي عِدّتها فعل»[٨].

وقيل: إنّها خروجهنّ من البيوت، والمعنى لايُخرَجن إلّا إذا ارتكبن الفاحشة بالخروج[٩].

ثمّ عظّم سبحانه أمر هذه الأحكام بقوله: ﴿وَتِلْكَ﴾ الأحكام ﴿حُدُودُ اللهِ﴾ وقوانينه الموضوعة لصلاح الناس ﴿وَمَن يَتَعَدَّ﴾ ويتجاوز ﴿حُدُودَ اللهِ﴾ ويُخالفها ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ وأضرّها بإيقاعها

---

١. الكافي ٦: ١/٦٩، تفسير الصافي ٥: ١٨٦.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٣٠.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٧٣، تفسير الصافي ٥: ١٨٦.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٢٨.
٥. من لا يحضره الفقيه ٣: ١٥٦٥/٣٢٢، تفسير الصافي ٥: ١٨٧.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٢٨و٢٩.
٧. الكافي ٦: ١/٩٧، تفسير الصافي ٥: ١٨٧.
٨. الكافي ٦: ٢/٩٧، تفسير الصافي ٥: ١٨٧.
٩. تفسير روح البيان ١٠: ٢٩.

في معصية الله وتعريفها للعذاب.

ثمّ بيّن سبحانه علّة تحريم إخراجهن وخروجهنّ بقوله: **﴿لاَ تَدْرِى﴾** أيّها الزوج المطلّق **﴿لَعَلَّ ٱللهَ﴾** ويُرجى أنّه **﴿يُحْدِثُ﴾** ويُوجد **﴿بَعْدَ ذٰلِكَ﴾** الذي فعلت من الطلاق **﴿أَمْراً﴾** آخر من الندم والمحبّة للمطلّقة والإقبال إليها.

عن ابن عباس: يُريد الندم على طلاقها، والمحبّة لرجعتها في العِدّة[١].

وعن القمي قال: لعلّه يبدو لزوجها في الطلاق فيراجعها[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «أُحب للرجل الفقيه إذا أراد أن يُطلّق امرأته أن يُطلّقها طلاق السُّنّة» ثمّ قال: «وهو الذي قال الله عز وجل: **﴿لَعَلَّ ٱللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً﴾** [يعني بعد الطلاق وانقضاء العدّة التزويج بها من قبل أن تزوّج زوجاً غيره»[٣].

وعن الصادق عليه السلام قال: «المطلّقة تكتحل وتختضب وتطيب وتلبس ما شاءت من الثياب لأنّ الله عزّ وجل يقول: **﴿لَعَلَّ ٱللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً﴾**] لعلّها أن تقع في نفسه فيُراجعها»[٤].

روي بعض العامة عن أنس: أن رسول الله طلّق حَفصة بنت عمر، فأتت إلى أهلها، فنزلت[٥].

وعن الكلبي: أنّ النبي صلى الله عليه وآله غَضِب على حَفصة لمّا أسرّ إليها فاظهرته لعائشة، فطلّقها تطليقةً، فنزلت[٦].

أقول: لعلّ نزولها لخروجها إلى أهلها، فلمّا نزلت راجعها.

وقيل: إنّها نزلت في عبدالله بن عمر، فانّه طلّق امرأته في الحيض. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «فاذاً راجعها، فاذا طَهُرت طلّقها إن شئت» فنزلت **﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾**[٧].

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلشَّهَادَةَ لِلهِ ذٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ ٱللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ ٱللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً[٢ و ٣]

ثمّ بيّن سبحانه حُكم الرجوع في العِدّة بقوله: **﴿فَإِذَا بَلَغْنَ﴾** المُطلّقات وقَربن **﴿أَجَلَهُنَّ﴾** وآخر مدّة عِدّتهن، وأشرفن على انقضائها **﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾** وارجعوا إلى نكاحهنّ إن شئتم **﴿بِمَعْرُوفٍ﴾**

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٣٣.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٧٤، تفسير الصافي ٥: ١٨٧.
٣. الكافي ٦: ٣/٦٥، تفسير الصافي ٥: ١٨٧.
٤. الكافي ٦: ١٤/٩٢، تفسير الصافي ٥: ١٨٧.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ٢٩.
٦. تفسير الرازي ٣٠: ٢٩.
٧. تفسير روح البيان ١٠: ٢٥.

وإيفاء حقوقهن، ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ وعدم الاضرار بهنّ بتطويل عِدّتهنّ بالرجوع والطلاق ثانياً ﴿وَأَشْهِدُوا﴾ على طلاقهنّ رجلين ﴿ذَوَيْ عَدْلٍ﴾ وصاحبي عدالة ﴿مِنكُمْ﴾ أيها المؤمنون.

عن الكاظم عليه السلام أنّه قال لأبي يوسف القاضي: «إنّ الله تبارك وتعالى أمر في كتابه بالطلاق، وأكّد فيه بشاهدين، ولم يرضَ بهما إلّا عدلين، وأمر في كتابه بالتزويج فأهمله بلا شهود، فأثبتم شاهدين فيما أهمل، وأبطلتم الشاهدين فيما أكّد»[١].

و ﴿وَأَقِيمُوا﴾ وأدّوا أيّها الشهود ﴿الشَّهَادَةَ﴾ عند الحاجة إليها خالصاً ﴿لِلَّهِ﴾ وتقرباً إليه ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الأحكام من طلاق السّنة، والحثّ على الإشهاد وإقامة الشهادة لله مما ﴿يُوعَظُ﴾ ويرتدع ﴿بِهِ﴾ عن المخالفة خوفاً من العذاب ﴿مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ عن صميم القلب ﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ودار الجزاء، فانّ لازم الايمان بالله مراعاة عظمته وحقوق ألوهيته وربوبيته، وأقلّها طاعة أحكامه، ولازم الايمان باليوم الآخر الخوف من الحساب والعقاب على مخالفة أحكامه ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ﴾ في مخالفة أحكامه المذكورة في السورة، أو في القرآن ﴿يَجْعَل﴾ الله ﴿لَهُ مَخْرَجًا﴾ ومخلصاً ممّا عسى أن يبتلي به من الغموم الراجعة إلى الازدواج، ويُفرّج عنه ما يعتريه من الكُروب، أو خلاصاً من غموم الدنيا والآخرة.

عن النبي صلى الله عليه وآله - بطريق عامي - أنّه صلى الله عليه وآله قرأها فقال: «مخرجاً من شُبهات الدنيا، وغَمرات الموت، وشدائد يوم القيامة»[٢]. وقيل يجعل له مخرجاً إلى الرَّجعة[٣].

عن ابن عباس، أنّه سُئل عمّن طلّق امرأته ثلاثاً، أو ألفاً، هل له من مخرجٍ؟ فقال: لم يتّق الله، فلم يجعل له مخرجاً، بانت منه بثلاث، والزيادة إثمٌ في عُنقه[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «مخرجاً من الفِتن، ونوراً من الظلم»[٥].

﴿وَيَرْزُقْهُ﴾ الله في الدنيا ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ ومن وجه لا يخطِر بباله.

رُوي أنّ عوف بن مالك الأشجعي أسر المشركون ابنه سالماً، فأتى رسول‌الله صلى الله عليه وآله وقال: أُسر ابني، وشكا إليه الفاقة. فقال: «اتّقِ الله، وأكثر قول: لاحول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم» ففعل، فبينما هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل غَفَل عنهما العدوّ فساقها، فنزلت[٦].

وفي رواية: أفلت بأربعة آلاف شاة وبالأمتعة[٧].

وعن الصادق عليه السلام: «﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي يُبارك له فيما آتاه»[٨].

---

١. الكافي ٥: ٣٨٧/٤، تفسير الصافي ٥: ١٨٧.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٣٤، تفسير روح البيان ١٠: ٣١.
٣ و٤. تفسير روح البيان ١٠: ٣١.
٥. نهج البلاغة: ٢٦٦ الخطبة ١٨٣، تفسير الصافي ٥: ١٨٨.
٦ و٧. تفسير روح البيان ١٠: ٣٢.
٨. مجمع البيان ٩: ٤٦٠، تفسير الصافي ٥: ١٨٨.

وعنه، عن آبائه، عن علي عليهم السلام: «من أتاه برزقٍ لم يَخطُ إليه برجله، ولم يمُدّ إليه يده، ولم يتكلّم فيه بلسانه، ولم يشُدّ إليه ثيابه، ولم يتعرّض له، كان ممّن ذكره الله عز وجل في كتابه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾[١] الآية».

وعن النبي صلى الله عليه وآله - بطريق عاميّ «أنّي لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾» الآية، فما زال يقولها ويُعيدها[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ قوماً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا نزلت هذه الآية أغلقوا الباب، وأقبلوا على العبادة، وقالوا: قد كُفينا، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله، فارسل إليهم، فقال: ما حملكم على ما صنعتم؟ فقالوا: يا رسول الله، تُكفِّل لنا بأرزاقنا فأقبلنا على العبادة. فقال: من فعل ذلك لم يُستَجَب له، عليكم بالطلب»[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله: «هؤلاء قومٌ من شيعتنا ضُعفاء، ليس عندهم ما يتحمّلون به إلينا، فيسمعوا حديثنا ويقتبِسوا من عِلمنا، فيرحل قومٌ فوقهم، ويُنفِقون أموالهم، حتّى يدخُلوا علينا فيسمعوا حديثنا، فينقلوه إليهم، فيعيه هؤلاء ويضيّعه هؤلاء، فأُولئك الذين يجعل الله لهم مخرجاً، ويرزُقهم من حيث لا يحتسبون»[٤].

في بيان حقيقة التوكل

أقول: الظاهر تطبيق الآية عليهم لاحصر المراد فيهم.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ﴾ ويعتمد في أُموره ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ ويفوّض إليه ويثق به فيها ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ وكافيه مهمّاته، ومُصلِح أُموره، ومُعطيه مراده.

م تتوكّلون على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزُق الطير، تغدو خِماصاً

---

١. من لايحضره الفقيه ٣: ٣٩٩/١٠١، تفسير الصافي ٥: ١٨٨.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٣٢.
٣. الكافي ٥: ٥/٨٤، تفسير الصافي ٥: ١٨٨.
٤. الكافي ٨: ٢٠١/١٧٨، تفسير الصافي ٥: ١٨٨، وفيهما: عن الصادق عليه السلام.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٣٣.

حكمته البالغة، لايتقدّم بسعي ساعٍ، ولا يتأخّر بمنع مانعٍ وتقصير مقصّر، فاذا وصل الوقت يصل إليه ما قسم له من أنصبة الدنيا، ومن المعلوم أنّ من تيقّن ذلك ما خاف أحداً ولا رجى أحداً وفوض أمره إليه تعالى، وهو تعالى يبلغ ما أراد من أمره بلا مانعٍ ولا عائقٍ.

روي أن جَبْرئيل جاء إلى النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: يا جَبْرئيل، ما التوكّل على الله؟ فقال: العلم بأنّ المخلوق لايضرّ ولاينفع ولايعطي ولايمنع، واستعمال اليأس من الخلق، فاذا كان العبد كذلك لم يعتمد على أحدٍ سوى الله، ولم يرجُ ولم يَخَف سوى الله، ولم يطمع في أحدٍ سوى الله، فهذا هو التوكّل[1].

وعن الكاظم عليه السلام أنّه سُئِل عن هذه الآية فقال: «للمتوكّل على الله درجات، منها أن تتوكّل على الله في أُمورك كلّها، فما فعل بك كنت عنه راضياً، تعلم أنّه لايألوك خيراً وفضلاً، وتعلم أن الحُكم في ذلك له، فتوكّل على الله بتفويض ذلك إليه، وثق به فيها وفي غيرها»[2].

وَٱللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِسَائِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ وَٱللاَّئِى لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاَتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللهَ يَجْعَل لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً * ذٰلِكَ أَمْرُ ٱللهِ أَنزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً [٤ و ٥]

ثمّ بيّن سبحانه عِدّة النساء اللاتي انقطع حيضهنّ بقوله: ﴿وَٱللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِسَائِكُمْ﴾ وأزواجكم اللاتي دخلتم بهنّ وانقطع حيضهنّ ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ وشككتم في أمرهنّ، ولاتدرون أنّهنّ يائسات، أو في سنّ من تحيض ولا تحيض لمانعٍ ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ﴾ هلالية.

عن (المجمع) عن أئمتنا عليهم السلام «هنّ اللواتي أمثالهنّ يحِضن، لأنهنّ لو كنّ في سنّ من لا تحيض لم يكن للارتياب معنى»[3].

رُوي أنّ مَعاذ بن جَبل قال: يا رسول الله، قد عرفنا عِدّه التي تحيض، فما عِدّة التي لم تَحِض؟ فنزل: ﴿وَٱللَّائِى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِسَائِكُمْ﴾[4] فلمّا نزلت قام رجل فقال: يا رسول‌الله، فما عِدّة الصغيرة التي لم تَحِض؟ فنزل ﴿وَٱللاَّئِى لَمْ يَحِضْنَ﴾ الصغر، فهنّ أيضاً كالكبيرة التي انقطع حيضها، عِدّتهن ثلاثة أشهر[5]. قيل: فقام رجلٌ آخر. وقال: ما عِدّة الحوامل يا رسول‌الله؟ فنزل:

---

١. معاني الأخبار: ١/٢٦١، تفسير الصافي ٥: ١٨٩.
٢. الكافي ٢: ٥/٥٣، تفسير الصافي ٥: ١٨٩.
٣. مجمع البيان ١٠: ٤٦١، تفسير الصافي ٥: ١٨٩.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ٣٥.
٥و٢. تفسير الرازي ٣٠: ٣٥.

﴿وَأُولَاتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾[١] وآخر عِدّتهنّ ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وعن (المجمع) عنهم عليهم السلام: «هي في الطلاق خاصة»[٢].

وروى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ في عِدّة الوفاة يُعتبر أبعد الأجلين؛ لأنّ أُولات الأحمال في عدّة الطلاق»[٣]. وعن ابن عباس ما يقرُب منه[٤].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن رجلٍ طلّق امرأته وهي حُبلى، وكان في بطنها اثنان، فوضعت واحداً وبقي واحدٌ؟ قال: «تبين بالأول، ولا تحِلّ للازواج حتى تضع ما في بطنها»[٥].

وعنه سئل عن الحبلى يموت زوجها فتضع، فتزوّج قبل أن يمضي لها أربعة أشهر وعشراً؟ قال: «إن كان دخل بها فُرّق بينهما، ثمّ لم تحلّ له أبداً، واعتدّت بما بقي من الأول، واستقبلت عِدّةً أُخرى من الأخير ثلاثة قُروء، وإن لم يكن دخل بها فُرّق بينهما، واعتدّت بما بقي عليها من الأول، وهو خاطب من الخُطّاب»[٦].

ثمّ حثّ سبحانه المؤمنين على العمل بأحكامه بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في العمل بأحكامه والقيام بحقوقه ﴿يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ﴾ الراجع إلى الدنيا والآخرة ﴿يُسْراً﴾ وسهولةً بحيث لا يصعُب عليه شيءٌ من أُمور الدارين ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأحكام ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وحكمه الذي ﴿أَنزَلَهُ﴾ بتوسط جَبْرئيل ﴿إِلَيْكُمْ﴾ أيّها المؤمنون من اللّوح المحفوظ، لتعملوا به ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ويخافه في مخالفة أحكامه ﴿يُكَفِّرْ﴾ بتقواه وبمواظبته على الحسنات ﴿عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ ويستُر معاصيه، فلايفضحه بها يوم القيامة، ولا يُخجِله برؤيتها فضلاً عن أن يُعذّبه بها ﴿وَيُعْظِمْ لَهُ﴾ يوم القيامة ﴿أَجْراً﴾ ويُضاعف له جزاءً. قيل: إنّ الله أمر بالتقوى في أحكام الطلاق ثلاث مرات، ووعد في كلّ مرةٍ نوعاً من الجزاء. فقال أولاً: يجعل له مخرجاً يُخرجه ممّا دخل فيه وهو يَكْرَهه، ويُهيء له محبوبه من حيث لا يأمل. وقال في المرة الثانية: يُسهّل عليه كلّ صعبٍ من أمره، ويفتح له خيراً ممّن طلّقها، ووعد في المرة الثالثة عليه بأفضل الجزاء في الآخرة، وهي كَفْر الذنوب ودخول الجنّة والنّيل بالنعماء[٧].

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِن وُجْدِكُمْ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ

---

٢. مجمع البيان ١٠: ٤٦١، تفسير الصافي ٥: ١٨٩.
٣و٥. تفسير الرازي ٣٠: ٣٥.
٥. الكافي ٦: ١٠/٨٢، تفسير الصافي ٥: ١٨٩.
٦. الكافي ٥: ٤/٤٢٧، تفسير الصافي ٥: ١٩٠.
٧. تفسير روح البيان ١٠: ٣٦.

أُخْرَىٰ[٦]

ثمّ كأنّه قيل: كيف يعمل بالتقوى في شأن المُطلّقات المعتدات؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ في مدّة عِدّتهن ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ وفي أي مكانٍ تمكّنتم ﴿مِن وُجْدِكُمْ﴾ ووسعكم واستطاعتكم ﴿وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ﴾ بإسكانهنّ في مكانٍ لايناسبهنّ أو مع من لا يُوافقهنّ في الأخلاق ﴿لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ في المسكن وتسلُبوا منهنّ الراحة حتى تُلجئوهن إلى الخروج، أو إلى تحمّل غاية المشقّة.

عن الصادق عليه السلام: «لا يُضارّ الرجل امرأته إذا طلّقها فيضيّق عليها حتّى تنتقل قبل أن تنقضي عِدّتها، فانّ الله تعالى قد نهى عن ذلك» ثمّ تلا هذه الآية[١].

﴿وَإِن كُنَّ﴾ المطلّقات حال الطلاق ﴿أُولاَتِ حَمْلٍ﴾ وصاحبات الولد في الرّحم، أي حَمْلٍ كان، قريب الوضع أو بعيده ﴿فَأَنفِقُوا﴾ أيها المُطلّقون ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ في مدّة عِدّتهن، كانت رجعية أو بائنة ﴿حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ويخرُجن من العِدّة. عن الصادق عليه السلام أنه سُئِل عن المُطلّقة ثلاثاً، ألها النفقة والسُّكنىٰ؟ قال: «أحبلي هي؟» قيل: لا. قال: «فلا»[٢].

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ﴾ بعد الوضع الولد الذي هو ﴿لَكُمْ﴾ ونفقته عليكم ﴿فَآتُوهُنَّ﴾ وأعطوهنّ ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ على إرضاعهن ﴿وَأْتَمِرُوا﴾ وتشاوروا أيها الآباء والأُمّهات ﴿بَيْنَكُم﴾ في مدّة الإرضاع ومقدار الأجرة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ وجميلٍ ومستحسنٍ في مدّة الإرضاع ومقدار الأجر، بأن لا يُقصّر الرجل في أجر المرأة ونقصها، ولا تُقصّر المرأة في حقّ الولد ورَضاعة ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ وتضايقتم بأن طلبت المرأة زائداً على الأُجرة المتعارفة للرَضاع، وامتنع الأب عن أداء أُجرة المِثل ﴿فَسَتُرْضِعُ﴾ الولد ﴿لَهُ﴾ مرضعةٌ ﴿أُخْرَىٰ﴾ غير الأمّ مجاناً أو بأُجرة يرضاها الأب، وفيه إشعارٌ بالعتاب على الأمّ على المُعاسرة.

لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ ٱللهُ لاَ يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ ٱللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً[٧]

ثمّ بيّن سبحانه قدر الانفاق بقوله: ﴿لِيُنفِقْ﴾ الرجل الذي هو ﴿ذُو سَعَةٍ﴾ وصاحب ثروةٍ على المُطلّقة المرضعة ﴿مِن سَعَتِهِ﴾ وبمقدار ثروته وغِناه.

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عن الرجل المُوسِر يتّخذ الثياب الكثيرة الجياد والطَّيالسة والقُمص

---

١. الكافي ٦: ١/١٢٣، تفسير الصافي ٥: ١٩٠.

٢. التهذيب ٨: ٤٦٢/١٣٣، تفسير الصافي ٥: ١٩٠.

الكثيرة يصون بعضها بعضاً يتجمّل بها، أيكون مسرفاً؟ قال: «لا، إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِن سَعَتِهِ﴾[١].

﴿وَمَن قُدِرَ﴾ وضُيّق من جانب الله ﴿عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ وكان فقيراً ﴿فَلْيُنفِقْ﴾ على المُطلّقة والمُرضعة مقداراً ﴿مِمَّا آتَاهُ اللهُ﴾ وأعطاه من المال، وإن كان مقدار القوت.

عن الصادق عليه السلام قال في الآية: «إن أنفق الرجل على امرأته ما يُقيم ظهرها مع كُسوة، وإلّا فُرّق بينهما»[٢].

﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً﴾ من النفوس ﴿إِلَّا﴾ إعطاء ﴿مَا آتَاهَا﴾ وأعطاها من المال، ولا يُمكن أن يُكلّف الفقير بمثل ما كلّف الغني.

ثمّ بشّر سبحانه الفقراء تسليةً لقلوبهم بقوله: ﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ وبعد الفَقْر غِنىً، وبعد الشدّة رَخاءً، وبعد الخوف أمناً، وبعد السُّقم صِحّةً، فليتنظر من وقع في العُسر الفرج واليُسر سواء كان المُعصِر زوجاً أو غيره، أو كان فقيراً في وقت نزول الآية أو في غيره، لعدم كون المورد مخصّصاً للحكم.

وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً[٨و ٩]

ثمّ هدّد سبحانه المخالفين لأحكامه والعاتين على ربّهم بما نزل على العُتاة من الأمم السابقة بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِن قَرْيَةٍ﴾ وكثير من أهل بلدةٍ ﴿عَتَتْ﴾ وأعرضت ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ وخالقها ﴿وَ﴾ أمر ﴿رُسُلِهِ﴾ المبعوثين إليهم بسبب التجاوز عن الحدّ في التكبّر والعِناد ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً﴾ وأخذناهم بدقائق ذنوبهم بأن ابتليناهم بالقَحْط والأمراض والخوف وغيرها من البلايا والشدائد مقدّماً على استئصالهم بالعذاب، ليرجِعوا إلى الله، ويتوبوا ممّا هم فيه من العُتوّ والعِصيان ﴿وَعَذَّبْنَاهَا﴾ بذنوبهم ﴿عَذَاباً نُكْراً﴾ وعاقبناهم عقاباً هائلاً عظيماً، أو عذاباً غير متوقّع من الغَرَق والحَرَق بالصاعقة والخسف والرجعة وغيرها من المستأصلات ﴿فَذَاقَتْ﴾ القرية، يعني أهلها ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ وعاقبة كفرها في الدنيا ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً﴾ وضرراً عظيماً لا خُسر ولا ضَرر أعظم منه.

أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا

---

١. الكافي ٦: ١٢/٤٤٣، تفسير الصافي ٥: ١٩١.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٧٥، تفسير الصافي ٥: ١٩١.

وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ[١٠ و ١١]

ثمّ هدّدهم بعذاب الآخرة بقوله: ﴿أَعَدَّ ٱللهُ﴾ وهيّأ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة بعد ذلك ﴿عَذَاباً شَدِيداً﴾ لا يُقادر قدرة، ولا يوصف كُنهه، إذا كان الأمر كذلك ﴿فَاتَّقُوا ٱللهَ﴾ وخافوه في مخالفة أحكامه ﴿يَا أُوْلِى ٱلْأَلْبَابِ﴾ وذوي العقول السليمة والأفهام المستقيمة، واعتبروا بحال أمثالكم من الأُمم الماضية.

ثمّ وصف سبحانه أصحاب العقول السليمة من شوائب الأوهام بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ عن صميم القلب بتوحيد الله، فاعلموا أنه من أعظم النّعم عليكم أنّه ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللهُ﴾ وبعث ﴿إِلَيْكُمْ﴾ بلطفه ﴿ذِكْراً﴾ وواعظاً وهادياً إلى الحقّ، أعنى ﴿رَسُولاً﴾ عظيم الشأن، وهو ﴿يَتْلُو﴾ ويقرأ ﴿عَلَيْكُمْ﴾ مع أمّيته ﴿آيَاتِ﴾ كتاب ﴿ٱللهِ﴾ وقرآنه العظيم حال كونها ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ ومُوضِحات لكم جميع ما تحتاجون إليه في معاشكم ومعادكم وعقائدكم من معارف ربكم وصفاته الجمالية والجلالية ﴿لِيُخْرِجَ﴾ ذلك الرسول بتلاوته ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ به وبكتابه عن صميم القلب ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ بتعليمه وهدايته ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ﴾ التي بعضها فوق بعضٍ كالكفر والشُّبهات والجهل والأخلاق النميمة والشهوات المُردية ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الذي هو كمال الايمان الحقيقي والعلم والمعرفة الكاملة بالله والأخلاق الحميدة والصفات الجميلة.

قيل: إنّ المراد بالذين آمنوا الذين يؤمنون على استعمال الماضي في المستقبل المحقّق الوقوع، أو المراد من الظلمات الظلمات التي تحدُث بعد الايمان[١].

وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ ٱللهُ لَهُ رِزْقاً * ٱللهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ ٱللهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمَاً[١١ و ١٢]

ثمّ حثّ سبحانه الناس إلى الايمان والعمل الصالح ببيان حُسن عاقبتهما بقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللهِ﴾ إيماناً خالصاً من شَوْب النفاق ﴿وَيَعْمَلْ﴾ عملاً ﴿صَالِحاً﴾ خالصاً من الرِّياء والسُّمعة والعُجب ﴿يُدْخِلْهُ﴾ الله في الآخرة ﴿جَنَّاتٍ﴾ ذات قصورٍ وأشجارٍ كثيرةٍ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة حال كونهم ﴿خَالِدِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا﴾ لايَخرَجون منها ﴿أَبَداً﴾ وهو تأكيدٌ للخلود، لأن لا يَتوهّم أنّ المراد المكث الطويل المنقطع ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللهُ لَهُ﴾ في تلك الجنّات ﴿رِزْقاً﴾ واسعاً وافراً من

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢٩.

نِعم الجنة. قيل: فيه معنى التعجّب والتعظيم، والمعنى ما أحسن رزقهم الذي رزقهم الله، وما أعظمه[١]! وقيل: إنّ المراد بالرزق الطاعة في الدنيا والثواب في الآخرة[٢].

ثمّ لمّا بيّن سبحانه حسن المجازاة على الايمان والعمل الصالح، ذكّر الناس كمال قدرته بقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ تعالى هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ بقدرته الكاملة ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ سوى العرش والكُرسيّ بعضها فوق بعضٍ كالقُبّة، ﴿وَ﴾ خلق ﴿مِنَ﴾ جنس ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بعدد السماوات و ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ في كونهنّ طباقاً متلاصقة.

قيل: إنّ المراد من الأراضي السبعة الأقاليم السبعة على حسب سبع سماوات وسبع كواكب، فانّ لكلّ واحدٍ منها خواصاً تظهر في كلّ إقليم، فتصير الأرض بهذا الاعتبار سبعة[٣].

وفي رواية عن الرضا عليه السلام: «أنّ السماء الدنيا فوق هذه الأرض قُبّة عليها، وأنّ الأرض الثانية فوق سماء الدنيا، والسماء الثانية فوقها قُبّة، وهكذا إلى السابعة منهما، وهو قول الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾»[٤].

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ﴾ من الله في السماوات السبع والأرضين السبع و ﴿بَيْنَهُنَّ﴾ ويجري حكمه وقضاؤه فيهنّ، وإنّما خلق ما خلق وأنفذ في كلّ شيءٍ قضاءه وقدره ﴿لِتَعْلَمُوا﴾ يا بني آدم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ الذي خلقكم وخلق الموجودات ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الايجاد والإعدام والإعادة والبعث والحساب والجزاء بالثواب والعقاب في الآخرة ﴿قَدِيرٌ﴾ ومقتدرٌ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ الخالق لكلّ شيءٍ ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ خلقه ﴿عِلْمًا﴾ واطّلاعاً وخبراً، فأطيعوا أوامره ونواهيه، ولا تُخالفوا أحكامه، واخضعوا لعظمته، وخافوا عقوبته.

عن ابن عباس لمّا سُئل عن هذه الآية قال: لو فسّرتها لقطعوا حلقومي، أو رجموني[٥].

أقول: فيه إشارةٌ إلى ما فيها من الأسرار الغامضة التي تعلّمها من أُستاذه أمير المؤمنين عليه السلام.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة الطلاق والتحريم في فرائضه أعاذه الله من أن يكون يوم القيامة ممّن يخاف ويحزَن، وعوفي من النار، وأدخله الله الجنّة بتلاوته إياهما، ومحافظته عليهما، لأنّهما للنبي صلّى الله عليه وآله»[٦].

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٢ و ٤٣. ٢. تفسير الرازي ٣٠: ٣٩. ٣. تفسير الرازي ٣٠: ٤٠.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٢٩، تفسير الصافي ٥: ١٩٢. ٥. تفسير روح البيان ١٠: ٤٧.
٦. ثواب الأعمال: ١١٩، مجمع البيان ١٠: ٤٥٤، تفسير الصافي ٥: ١٩٢.

في تفسير سورة التحريم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ ٱللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قَدْ فَرَضَ ٱللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَٱللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الطلاق المتضمّنة لأحكام طلاق النساء، وتهديد الكفّار على مخالفة أحكامه، وتعظيم شأن النبي ﷺ، نُظِمت سورة التحريم المتضمّنة لبيان حُكم تحريم الزوجة بالحَلْف على ترك مقاربتها، وتهديد الكفّار، وتعظيم الرسول ﷺ ووعده بالنُصرة على أعدائه، وغيرها من جهات الارتباط، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ إنّه تعالى كما خاطب نبيّه ﷺ في السورة السابقة بصفة النبوة إجلالاً له عند ذكر حُكم تحريم الزوجة بالطلاق، خاطبه في هذه السورة أيضاً بصفة النبوة عند بيان حُكم تحريم الزوجة بالحَلْف على ترك مقاربتها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ على نفسك، ولأيّ علّةٍ تجعل ممنوع الانتفاع ﴿مَا أَحَلَّ ٱللهُ لَكَ﴾ من النساء باليمين على ترك المقاربة، أو العسل بالحَلْف على ترك شُربه ﴿تَبْتَغِي﴾ وتطلّب بتحريم الحلال على نفسك ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ وطيب قلوبهنّ مع عدم قابليتهنّ لأن تطلّب رضاهنّ، بل عليهنّ أن يطلّبن رضاك ﴿وَٱللهُ غَفُورٌ﴾ لرعايتك ما لايُحبّ الله رعايته ﴿رَحِيمٌ﴾ بك بإعطائك الأجر العظيم على تحمّل مشاقّ صُحبتهنّ وإيذائهنّ ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللهُ لَكُمْ﴾ وأوجب عليكم ﴿تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ ومخالفة حَلْفكم على ترك الاستمتاع ممّا أحل الله لكم ﴿وَٱللهُ﴾ القادر على كلّ شيءٍ ﴿مَوْلاَكُمْ﴾ وناصركم على أعدائكم الذين من جملتهم أزواجكم، كما قال: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ... عَدُوّاً لَكُمْ﴾، ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بمصالحكم ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أفعاله وأحكامه، وفي خطاب النبي بضمير الجمع كمال تعظيمه.

روت العامة: أنّ النبي ﷺ خلا بمارية القِبطية التي أهداها إليه المُقوقس مَلِك مِصر في يوم عائشة

ونوبتها، وعلِمت بذلك حَفْصة، فقال ﷺ: «اكتُمي عليّ ولاتُعلمي عائشة، فقد حرّمت مارية على نفسي، وأُبشّرك أن أبابكر وعمر يَملِكان بعدي أمر أُمّتي» فأخبرت به عائشة، ولم تكتُم، وكانتا متصادقتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي ﷺ[1].

وقيل: خلا بها في يوم حفصة حيث استأذنت رسول الله ﷺ في زيارة أبيها في يومها، فأذِن لها، فلمّا خرجت أرسل رسول الله ﷺ إلى أمّ ولده مارية فأدخلها بيت حفصة، فوقع عليها، فلمّا رجعت حفصة وجدت الباب مغلقاً، فجلست عند الباب، فخرج رسول الله ﷺ ووجهه يقطُر عرقاً وحَفْصة تبكي فقال: «ما يُبكيك»؟ فقالت: إنّما أذنت لي من أجل هذا، أدخلت أمتك بيتي ثمّ وقعت عليها في يومي على فراشي! فلو رأيت لي حقاً وحُرمةً ما كنت تصنع هذا. فقال رسول الله ﷺ: «أليس هي جاريتي، أحلها الله لي، اسكُتي فهي حرامٌ عليّ، التمس بذلك رضاك، فلا تُخبري بذلك امرأةً منهنّ».

فلمّا خرج رسول الله ﷺ قرعت حفصة الجِدار بينها وبين عائشة فقالت: ألا أُبشّرك أنّ رسول الله قد حرّم عليه أمته مارية، وقد أراحنا الله منها، وأخبرت عائشة بما رأت، ولم تكتُم، فطلّقها رسول الله ﷺ بطريق الجزاء على إفشاء سرّه، واعتزل نساءه، ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية[2].

وقيل أقسم أن لا يدخُل عليهنّ شهراً من شدّة مواجدته عليهنّ حتّى نزلت الآية، ودخل عمر على بنته وهي تبكي، فقال: أطلقكنّ رسول الله؟ فقالت: لاأدرى، هو ذا معتزلٌ في هذه المَشْرَبة[3] ـ وفي رواية، قال لها: لو كان في آل الخطّاب خيرٌ لما طلّقك ـ قال عمر: فأتيت النبي ﷺ، فدخلت وسلّمت عليه، فإذا هو متكيء على رمل حصير قد أثّر في جنبه، فقلت: أطلقت نساءك يا رسول الله؟ فقال: «لا». فقلت: اللهأكبر، لو رأيتنا يا رسولالله وكنّا معشر قريش نغلِبالنساء، فلمّا قَدِمنا المدينة وجدنا قوماً تغلِبهمنساءهم، وطَفِقن نساؤنا يتعلّمن مننسائهم، فتبسّم رسولالله ﷺ، فنزلت الآية[4].

وروى بعضهم أنّه ﷺ كان كلّما دخل على زينب بنت جَحْش شرب العسل، ولذا كان يُكثِر وقوفه عندها، فتواطأت عائشة وحَفْصة، فقالتا له: إنّا نشُمّ منك ريح المغافير، والمغفور: صَمغٌ حُلو الطعم كرية الرائحة، وكان رسول الله ﷺ يكره الرائحة الكريهة، فحرّم العسل[5].

وعن القمي، قال: كان سبب نزولها أنّ رسول الله ﷺ كلّما ذهب في بيوت نسائه، كانت مارية القِبطية معه تخدِمه، وكان ذات يوم في بيت حَفْصة، فذهبت حَفْصة في حاجةٍ لها، فتناول رسول الله ﷺ من مارية، فعَلِمت حَفْصة بذلك، فغَضِبت وأقبلت على رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله،

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٧.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٤٧.
٣. المَشْرَبة: الغرفة.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٤٨.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٤٨.

في يومي وداري وعلى فراشي! فاستحيا رسول الله ﷺ فقال: «كفّي وقد حرّمت مارية على نفسي، ولا أطاها بعد هذا أبداً، وأنا أفضي إليك سراً إن أنت أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين». فقالت: نعم ما هو؟ قال: إنّ أبابكر يلي الخلافة بعدي، ثمّ بعده أبوك عمر».

فأخبرت حَفْصة به عائشة من يومها ذلك، وأخبرت عائشة أبابكر، فجاء أبوبكر إلى عمر، فقال له: إنّ عائشة أخبرتني عن حَفْصة بشيءٍ ولاأثق بقولها، فاسأل أنت حَفْصة، فجاء عمر إلى حَفْصة فقال لها: ما هذا الذي أخبرت عنك عائشة؟ فأنكرت حَفْصة ذلك، وقالت: ما قلت لها من ذلك شيئاً. فقال لها عمر: إن [كان] هذا حقاً فأخبرينا حتّى نتقدّم فيه. فقالت: نعم، قد قال [ذلك] رسول‌الله[1]... الخبر.

وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ ٱللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ[٣]

ثمّ شرع سبحانه في تفضيح بعض نساء النبي ﷺ التي طلب رضاها بتحريم مارية بقوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ والمعنى اذكروا أيّها المسلمون وقتاً أفضى النبي ﷺ ﴿إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ وهي حَفْصة ﴿حَدِيثاً﴾ وكلاماً خُفيةً من غيرها، وأمرها بكتمانه وإخفائه عن سائر أزواجه، فخالفت النبيّ ﷺ وعصته، وأخبرت به عائشة ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ﴾ عائشة بسرّ النبي ﷺ أخبرتها ﴿بِهِ﴾ لمصادقة كانت بينهما، وأخبر الله نبيّه ﷺ بإفشاء حَفْصة سرّه ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللهُ﴾ بتوسّط جَبْرَئيل ﴿عَلَيْهِ﴾ بلا ريثٍ وتأخيرٍ ﴿عَرَّفَ﴾ النبي ﷺ حَفْصة وأعلمها بإفشائها سرّه، ولكن لاكلّه، بل ﴿بَعْضَهُ﴾ وهو تحريمه مارية على نفسه ﴿وَأَعْرَضَ﴾ ﷺ ﴿عَن بَعْضٍ﴾ ولم يقُل لها: إنّك أخبرتِ بأنّ أبابكر وعمر يليان الخلافة بعده كراهة انتشاره بين الناس، وتكرّماً منه وحِلماً ﴿فَلَمَّا﴾ أخبرها النبي ﷺ بخيانتها وعصيانها و ﴿نَبَّأَهَا بِهِ﴾ معترضاً عليها ﴿قَالَتْ﴾ حَفْصة ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هٰذَا﴾ العِصيان، وأخبرك بهذه الخيانة منّي ﴿قَالَ﴾ النبي ﷺ: ﴿نَبَّأَنِيَ﴾ الله ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بالأسرار و ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بخفايا الأمور.

أقول: فيه دلالةٌ على إخباره بالغيب، وهو من معجزاته.

إِن تَتُوبَا إِلَى ٱللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذٰلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٧٥، تفسير الصافي ٥: ١٩٤.

أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً[٤ و ٥]

ثمّ وجه سبحانه الخطاب إلى المرأتين العاصيتين تشديداً للعتاب لهما بقوله: ﴿إِن تَتُوبَا﴾ يا عائشة ويا حَفصة من خيانتكما وعِصيانكما ﴿إِلَى ٱللهِ﴾ وتستغفرانه فهو خيرٌ لكما ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ وأعرضت ﴿قُلُوبُكُمَا﴾ عن الله وطاعته برغبتكما إلى إيذاء نبيّه ﷺ ﴿وَإِن﴾ لم تتوبا و ﴿تَظَاهَرَا﴾ وتعاونا ﴿عَلَيْهِ﴾ وتواطئا على إيذائه، فإنّه لا يُبالي بكما، لأنّ له مظاهراً ومعاوناً أقوى من جميع أهل العالم ﴿فَإِنَّ ٱللهَ﴾ الغالب القاهر ﴿هُوَ﴾ بالخصوص ﴿مَوْلاَهُ﴾ وناصره قبل كلّ شيء، لأنّه حبيبه وصفيّه ﴿وَ﴾ بعده ﴿جِبْرِيلُ﴾ رئيس الكُروبيين، وأقوى الملائكة ناصره ﴿وَ﴾ بعدهما ﴿صَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وسيدهم علي بن أبيطالب ﷺ ناصره بنفسه وماله، كما عن مجاهد[1] والباقر عليه السلام[2]، ويؤيّده حديث المنزلة[3].

وعن الباقر عليه السلام «لقد عرّف رسول الله ﷺ علياً عليه السلام أصحابه مرّتين؛ أمّا مرّة فحيث قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، وأمّا الثانية فحيث ما نزلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ ٱللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أخذ رسول الله ﷺ بيد علي عليه السلام وقال: أيّها الناس، هذا صالح المؤمنين».

وقالت أسماء بنت عُميس: سَمِعتُ النبي ﷺ يقول: «﴿وَصَالِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ علي بن أبي طالب»[4] فما نسبه العامّة إلى ابن عباس من أنّ المراد أبوبكر وعمر[5] فِريةٌ لاعتداد بها، مع أنّ مولاه لابُدّ أن يكون أقوى الناس لاأضعفهم.

وقيل: إنّ المراد خِيار المؤمنين. وقيل: من بريء منهم من النفاق. وقيل: عموم اصحابه. وقيل: جميع الأنبياء[6].

﴿وَٱلْمَلاَئِكَةُ﴾ كلّهم ﴿بَعْدَ ذٰلِكَ﴾ المذكورين ﴿ظَهِيرٌ﴾ ومعاوناً له على أعدائه، فلا يُبالي بكيد امرأتين ضعيفتين من له اُولئك الظُّهراء. ثمّ خوّفهنّ سبحانه بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ﴾ ويُرجى منه أنّ النبيّ ﷺ ﴿إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ وأخرجكنّ من حِبالة نكاحه ﴿أَن يُبْدِلَهُ﴾ الله ويُعوّضه منكنّ ﴿أَزْوَاجاً﴾ أُخر ﴿خَيْراً﴾ له وأفضل ﴿مِنكُنَّ﴾ من جهة كونهنّ ﴿مُسْلِمَاتٍ﴾ بألسنتهنّ، أو منقادات بجوارحهنّ ﴿مُؤْمِنَاتٍ﴾ ومخلصات أو مصدّقات بقلوبهنّ ﴿قَانِتَاتٍ﴾ ومطيعات أو خاضعات لله ولرسوله

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٥٣.

٢. تفسير القمي ٢: ٣٧٧، تفسير الصافي ٥: ١٩٥.

٣. تفسير روح البيان ١٠: ٥٣.

٤. مجمع البيان ١٠: ٤٧٥، تفسير الصافي ٥: ١٩٥.

٥. تفسير الرازي ٣٠: ٤٤.

٦. تفسير الرازي ٣٠: ٤٤.

﴿تَائِبَاتٍ﴾ من زلّاتهنّ، و ﴿عَابِدَاتٍ﴾ لله مواضبات على الصلوات، أو متذلّلات لأوامر الرسول ﴿سَائِحاتٍ﴾ وصائمات، يكون بعضهنّ ﴿ثَيِّبَاتٍ وَ﴾ بعضهنّ ﴿أَبْكَاراً﴾ كما أنّ في أزواجه ثيّبات وبكر.

في فضيحة عائشة وحفصة وردّ بعض العامة

أقول: في ذكر الصفات في مقام بيان خيرية الأزواج إشعارٌ بعدم اتّصاف عائشة وحَفصة بجميع الصفات، وإلّا لم يكنّ خيراً منهما، وفيها ردّ على استدلال الفخر الرازي بآية ﴿اَلطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾[١] على كون عائشة مبرّأةً من جميع العيوب[٢]، والظاهر أنّ الله تبارك وتعالى أنزل السورة لتفضيحهما بين المؤمنين بكونهما مؤذيتين للنبي ﷺ ومتظاهرتين عليه، كما أنزل سورة المنافقين لتفضيح عبدالله بن أبي وأصحابه بين المؤمنين بكفرهم ومعارضتهم للنبي، فلا يُعبأ بما روته العامة من أنّ النبي ﷺ لمّا طلّق حَفْصة قال له جَبْرَئيل: ارجِع إليها، فانّها صوّامة قوّامة[٣]، مع كون النبي ﷺ أعلم بحالها من غيره، وإنّما رجع إليها لدخالتها في الفتنة بعد الرسول ﷺ.

يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا اَلنَّاسُ وَاَلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اَللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ[٦]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه عِصيان زوجتي النبي ﷺ وأمرهما بالتوبة أمر المؤمنين بحفظ نسائهم وأولادهم وأقربائهم من العِصيان بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا اَلَّذِينَ آمَنُوا قُوا﴾ واحْفَظوا ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بطاعة الله وترك عصيانه ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ من أزواجكم وأولادكم وأقاربكم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنُصح والعِظَة ﴿نَاراً﴾ مُوقَدةً التي ﴿وَقُودُهَا﴾ وحَطَبها ما تشتعل به ﴿اَلنَّاسُ﴾ الكَفَرة والعُصاة ﴿وَاَلْحِجَارَةُ﴾ عن ابن عباس هي حجارة الكبريت؛ لأنّها أشدّ الأشياء حرّاً إذا أوقد عليها[٤]. وقيل: حجارة الأصنام[٥]. وقيل: الذهب والفِضّة الذين أصلهما الحجر[٦].

تسلّط ﴿عَلَيْهَا﴾ بأمر ربّها تسعة عشر ﴿مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ﴾ أجرامهم وقلوبهم، أو غلاظ أقوالهم ﴿شِدَادٌ﴾ وجُفاة وخُشن على أعداء الله، لم يخلَق فيهم رحمة ورقّة، مطيعون لأمر الله ﴿لاَ يَعْصُونَ اَللهَ﴾ ولا يُخالفون ﴿مَا أَمَرَهُمْ﴾ الله في تعذيب أعدائه ومخالفي أحكامه ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ من أنواع العذاب من غير توانٍ و تأخيرٍ، وبلا زيادةٍ ونُقصانٍ.

---

١. النور: ٢٦/٢٤. ٢. تفسير الرازي ٢٣: ١٩٥.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٤١، تفسير روح البيان ١٠: ٤٨. ٤. تفسير الرازي ٣٠: ٤٦.
٥. تفسير روح البيان ١٠/٥٩. ٦. تفسير روح البيان ٥٩/١٠.

في الحديث «رَحِم الله رجلاً قال: يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم، لعلّ الله يجمعكم معهم في الجنّة»[1].

عن الصادق عليه السلام: «لمّا نزلت هذه الآية جلس رجلٌ من المسلمين يبكي، وقال: عَجَزت عن نفسي، وكلّفت أهلي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: حسبك أن تأمُرهم بما تأمُر نفسك، وتنهاهم عمّا تنهى عنه نفسك»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله، قيل له: هذه نفسي أقيها، فكيف أقي أهلي؟ فقال: «تأمُرهم بما أمرهم الله به، وتنهاهم عمّا نهاهم الله عنه، فان أطاعوك وقيتهم، وإن عصوك كنت قضيت ما عليك»[3].

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[٧]

ثمّ إنّه تعالى بعد أمر المؤمنين بحفظ أنفسهم وأهليهم من النار، هدّد الكفّار بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ والتقدير على ما قيل: يقال لكم حين إدخالكم النار يوم القيامة وإرادتكم الاعتذار عن كفركم وعصيانكم[4]: ﴿**لَا تَعْتَذِرُوا**﴾ في هذا ﴿**ٱلْيَوْمَ**﴾ الذي هو يوم الجزاء بعد إتمام الحُجّة عليكم بتوسّط الرسل في الدنيا، وتبليغ الأوامر والنواهي إليكم بأبلغ بيان، فلم يبق لكم عذرٌ قابل للقبول مفيدٌ بحالكم ﴿**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ**﴾ اليوم ﴿**مَا كُنتُمْ**﴾ في الدنيا ﴿**تَعْمَلُونَ**﴾ وترتكبون من الكفر والطُّغيان والعُتوّ والعِصيان بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَىٰ ٱللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ[٨]

ثمّ علّم الله سبحانه المؤمنين طريق الخلاص من العذاب والاعتذار من العِصيان بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَىٰ ٱللهِ**﴾ من معاصيكم وزلّاتكم في الدنيا قبل معاينة الآخرة وانسداد باب التوبة ﴿**تَوْبَةً نَصُوحاً**﴾ لا رجوع بعدها إلى ما ارتكبتم من الذنب، واعتذروا إلى الله ممّا فرط منكم من العِصيان مع الندم عليه ندامة شديدةً مستلزمةً للعزم الأكيد على أن لا تعودوا إليه أبداً.

---

١. جوامع الجامع: ٤٩٩، تفسير روح البيان ١٠: ٥٨. ٢. الكافي ٥: ١/٦٢، تفسير الصافي ٥: ١٩٦.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٧٧، وتفسير الصافي ٥: ١٩٦، عن الصادق عليه السلام. ٤. تفسير روح البيان ١٠: ٦٠.

في شرائط قبول التوبة

روى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سَمِع أعرابياً يقول: اللهمّ إنّي استغفرك وأتوب إليك. فقال: «يا هذا: إنّ سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذّابين» قال: فما التوبة؟ قال: «إنّ التوبة يجمعها ستة أشياء: على الماضي من الذنوب الندامة، وللفرائض الإعادة، وردّ المظالم، والاستحلال من الخصوم، وأن تعزِم على أن لا تعود، وأن تُذيب نفسك في طاعة الله كما ربّيتها في المعصية، وأن تُذيقها مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعاصي»[1].

عن الصادق عليه السلام: أنّه سُئِل عن هذه الآية، فقال عليه السلام: «يتوب العبد من الذنب ثمّ لا يعود فيه»[2].

وفي رواية: قيل له: وأيّنا لايعود؟ فقال: «إنّ الله يُحبّ من عباده المُفتّن التوّاب»[3].

وعن الكاظم عليه السلام في هذه الآية، قال: «يتوب العبد ثمّ لا يرجِع فيه، وأحبّ عباد الله إلى الله: المُفتّن التائب»[4].

وعن الصادق عليه السلام: «التوبة النّصوح أن يكون باطن الرجل كظاهره، بل أفضل»[5].

ثمّ بيّن سبحانه فائدة التوبة بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ ويُرجى من خالقكم اللطيف بكم ﴿أَن يُكَفِّرَ﴾ ويستُر ﴿عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ وخطيئاتكم.

عن الصادق عليه السلام: «إذا تاب العبد توبةً نصوحاً أحبه الله فيستُر عليه في الدنيا والآخرة» قيل: وكيف يستُر عليه؟ قال: «يُنسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، ويُوحي إلى جوارحه: اكتُمي عليه ذنوبه، ويُوحي إلى بِقاع الأرض: اكتُميى ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله وليس شيء يشهد عليه بشيءٍ من الذنوب»[6].

﴿وَيُدْخِلَكُمْ﴾ برحمته ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ ذات قصور وأشجارٍ كثيرة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ قيل: ذكر سبحانه الوعد بصيغة الإطماع جرياً على عادة الملوك، وإشعاراً بأنّه تفضّلٌ، ولأنّ العبد ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء[7]، وذلك اللطف بالمؤمنين وإدخالهم الجنّة يكون في يوم القيامة، وهو يكون ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ﴾ ولايفضح، أو لا يُخجِل ﴿ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ به حال كونهم ﴿مَعَهُۥ﴾ ومصاحبه ﴿نُورُهُمْ﴾ وضياء إيمانهم وطاعاتهم كشُعاع الشمس ﴿يَسْعَىٰ﴾ ويسير بسرعةٍ على الصِّراط ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ وقُدّامهم ﴿وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ وشمائلهم.

قيل: إنّ المراد من جميع جوانبهم وجهاتهم، وإنّما اكتفى سبحانه بذكر الجهتين لأنّهما أشرف الجهات،

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٦١.
٢. الكافي ٢: ٣/٣١٤، تفسير الصافي ٥: ١٩٦.
٣. الكافي ٢: ٤/٣١٤، تفسير الصافي ٥: ١٩٦، والمفتّن: المُمْتَحن، يمتَحِنه الله بالذّنب ثم يَتُوب، ثم يعود ثم يَتُوب.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٧٧، تفسير الصافي ٥: ١٩٦.
٥. معاني الأخبار: ٣/١٧٤، تفسير الصافي ٥: ١٩٦.
٦. الكافي ٢: ١/٣١٤، تفسير الصافي ٥: ١٩٧.
٧. تفسير روح البيان ١٠: ٦٤.

أو لأنّ أهل السعادة يُؤتون صحائفهم من الجهتين[١].

عن الباقر عليه السلام: «من كان له نور يومئذٍ نجا، وكلّ مؤمنٍ له نور»[٢].

وعن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: «يسعى [أئمة] المؤمنين يوم القيامة بين أيدي المؤمنين وبأيمانهم حتّى يُنزلوهم منازلهم في الجنة»[٣].

وهم مع ذلك ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ قيل: هذا قول بعض المؤمنين، وهم الذين يجوزون على الصراط حَبواً وزَحفاً[٤] وقيل: يدعو كلّهم تقرباً إلى الله مع تمام نورهم[٥]. وقيل: إنّ المراد من الاتمام الابقاء حتّى يدخلوا الجنّة ويَردوا دارالسلام[٦].

عن ابن عباس: يقولون ذلك عند انطفاء نور المنافقين إشفاقاً[٧].

وقيل: إنّ أدناهم منزلةً من نوره بقدر ما يُبصر مواطئ قدمه، لأنّ النور على قدر الأعمال[٨].

يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَةَ نُوحٍ وَٱمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ٱدْخُلاَ ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ[٩ و ١٠]

ثمّ لمّا بدأ السورة بالخطاب إلى النبي صلّى الله عليه وآله، ختم سبحانه الخطابات بالخطاب إليه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ صلّى الله عليه وآله ﴿جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيف والسّنان ﴿وَٱلْمُنَافِقِينَ﴾ بالحُجّة والبرهان، وبالتهديد بالفضيحة والخِذلان ﴿وَٱغْلُظْ﴾ وشدّد وأخشن ﴿عَلَيْهِمْ﴾ فيما يجاهد الفريقين من القتال والمُحاجّة حتّى تضيّق عليهم الدنيا، وأنا حكمتُ بأنّ منزلهم ﴿وَمَأْوَاهُمْ﴾ في الآخرة ﴿جَهَنَّمُ﴾ التي أُعدّت للكفار ﴿وَ﴾ هي ﴿بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمرجع في الآخرة، فلايكون لهم دنيا ولاآخرة.

ثمّ لمّا بيّن سبحانه خيانة زوجتي النبي صلّى الله عليه وآله وعصيانهما إيّاه في أول السورة، بيّن سبحانه عدم انتفاعهما بصحبته، وعدم استفادتهما من كونهما من أزواجه، بتمثيل حالهما بزوجة نوح وزوجة لوط بقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وبيّن حالهم الغريبة التي تُشابه المَثل في الغرابة بتذكيركم حال واعلة التي هي ﴿ٱمْرَأَةَ نُوحٍ﴾ وأهله ﴿وَٱمْرَأَةَ لُوطٍ﴾ فانّهما ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٦٥ و٦٦.

٢. تفسير القمي ٢: ٣٧٨، تفسير الصافي ٥: ١٩٧.

٣. مجمع البيان ١٠: ٤٧٨، تفسير الصافي ٥: ١٩٧.

٤ و٥. تفسير الرازي ٣٠: ٤٨.

٦. تفسير روح البيان ١٠: ٦٦.

٧ و٨. تفسير الرازي ٣٠: ٤٨.

صَالِحَيْنِ﴾ كاملين في العبودية وحُسن الأعمال والأخلاق، وفي تصرّفهما وتربيتهما وحكمهما المقتضي لصيرورتهما مؤمنتين صالحتين **﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾** بإفشاء سرّهما عند الكفّار، كما كانت عائشة وحَفْصة تحت تربيتك وحِلمك المقتضي لكونهما صالحتين، ومع ذلك خانتاك بإفشاء سرّك **﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾** ذلكما النبيان المرسلان مع عظم شأنهما **﴿عَنْهُمَا﴾** بحقّ النكاح والصُحبة **﴿مِنَ﴾** عذاب **﴿اللهِ﴾** ونَكاله **﴿شَيْئاً﴾** يسيراً من الإغناء، فشملهما عذاب الاستئصال في الدنيا بأنّ هلكت إحداهما بالغرق بالطُّوفان، والأُخرى بالصيحة ومطر الحجارة **﴿وَقِيلَ﴾** لهما عند موتهما أو يوم القيامة: يا زوجة نوح، ويا زوجة لوط **﴿ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ﴾** سائر **﴿الدَّاخِلِينَ﴾** فيها من الكفار الذين لاوُصْلة بينهم وبين الأنبياء.

وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ[١١ و ١٢]

ثمّ بيّن سبحانه حُسن حال المؤمنات اللاتي لاوُصْلة بينهنّ وبين الأنبياء، بل كُنّ تحت أشقى الأشقياء بقوله: **﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾** وبيّن حُسن حالهم الغريبة بتذكيركم حال آسية، مع أنّها كانت **﴿امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ﴾** الذي ادّعى الأُلوهية وعارض موسى بن عمران، فلم يَضُرّها صُحبة زوجها الكافر، وصبرت على اذاه **﴿إِذْ قَالَتْ﴾** وحين دَعَت ربّها لمّا ابتُليت بعذاب فِرعون وأذاه بقولها: **﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ﴾** وفي جوار قُربك **﴿بَيْتاً﴾** ومنزلاً **﴿فِي﴾** أعلى درجات **﴿الْجَنَّةِ﴾** لإيماني بك وبرسولك موسى **﴿وَنَجِّنِي مِن﴾** صُحبة **﴿فِرْعَوْنَ﴾** وعذابه **﴿وَ﴾** من **﴿عَمَلِهِ﴾** الباطل، وكفره بآياتك **﴿وَنَجِّنِي﴾** يا ربّ وخلّصني **﴿مِنَ﴾** ظلم **﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾** على أنفسهم وعلى عبادك المؤمنين.

رُوي أنّه لمّا غَلَب موسى السَّحرة آمنت آسيه بنت مُزاحم زوجة فرعون بموسى بن عِمران. قيل: كانت عمّته، فلمّا عَلِم فرعون بإيمانها أمرها بالرجوع عن الايمان إلى الكفر فأبت عن ذلك، فأوتد يديها ورجليها بأربعة أوتاد في حرّ الشمس، فأمر الله الملائكة أن يُظلّوها من الشمس بأجنحتهم، فلمّا قالت: ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة، رُفِعت الحُجُب، فأراها بيتاً في الجنة من دُرّةٍ بيضاء،

ورُفِع عنها ألم العذاب فضَحِكت، فقال الكفّار: هي مجنونةٌ لأنّها تضحك وهي في العذاب[١]، ثمّ طارت روحها إلى جوار رحمة الله.

وعن الضحّاك: أمر فرعون أن يُلقى عليها حَجَر رَحى، وهي في الأوتاد، فقالت رب ابن لي...إلى آخره فلم يَصِل الحَجَر حتّى رفع رُوحها إلى الجنّة، فأُلقي الحَجَر عليها بعد خروج رُوحها، فلم تجد ألماً[٢].

ثمّ بيّن سبحانه حُسن حال المؤمنات اللاتي لازوج لهنّ بتمثيلهنّ بمريم بنت عمران بقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ﴾ اُمّ عيسى ﴿ٱلَّتِى أَحْصَنَتْ﴾ وحَفِظت ﴿فَرْجَهَا﴾ من مَساس الرجال حراماً وحلالاً على آكد حفظٍ، وقيل: يعني طهّرت ذيلها من ريبة الفجور ﴿فَنَفَخْنَا﴾ في جَيْبها بتوسّط جَبْرئيل، وأدخلنا ﴿فِيهِ﴾ كالريح من الروح العظيم الشأن الذي يصِحّ أن تقول تشريفاً: إنّه ﴿مِن رُوحِنَا﴾ وقيل: إنّ المراد بالروح جَبْرَئيل[٣]، والمعنى فنفخنا في جَيْبها من جَبْرئيل ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ عن صميم القلب ﴿بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ المنزلة على الأنبياء، أو المراد بالبشارات التي بُشّر بها جَبْرئيل ﴿وَكُتُبِهِ﴾ المنزلة من السماء كصُحف شيث وإبراهيم وتوراة موسى و زبور داود وغيرها ﴿وَكَانَتْ﴾ واحدة ﴿مِنَ ٱلْقَانِتِينَ﴾ والخاشعين لله، أو من المطيعين والمعتكفين في المسجد الأقصى، وعدّها من الرجال القانتين للإشعار بعدم قُصور عبادتها عن عبادة الأنبياء.

روت العامة عن النبي ﷺ أنّه قال: «كَمُل من الرجال كثيرٌ، ولم يكمُل من النساء إلّا أربع: آسية بنت مزاحم، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ»[٤].

قيل: جمعه الله في التمثيل بين التي لها زوج والتي لازوج لها تسليةً للأرامل وتطييباً لأنفسهن[٥].

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٦٩.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٦٩.
٣ و٤. تفسير روح البيان ١٠: ٧١.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٧٠.

في تفسير سورة المُلك

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة التحريم المشتملة على اظهار غاية التعظيم لنبيه واللطف به وبالمؤمنين وتهديد الكفار بالعذاب وانقطاع عُذرهم في الآخرة، أُردفت بسورة المُلك المشتملة على بيان سلطنته المُطلقة في عالم الوجود، وكمال قدرته، وتهديد الكفار بورودهم في النار، وانقطاع عُذرهم واعترافهم باستحقاقهم العذاب، وإبطال قولهم بإنكار المعاد، وإظهار اللُّطف بالمؤمنين، فافتتحها بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها ببيان عظمة ذاته المقدّسة وكَثْرة خيره وكمال قدرته بقوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ وتعالى وتعظّم، أو كثر خير الإله ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ﴾ وتحت قدرته وسلطنته ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ وعالم الوجود من العلويات والسفليات، يُقلّبه كيف يشاء، ويحكم فيه كيف أراد بلا ضِدّ ولانِدّ ولا معارض ولا معاضد ﴿وَهُوَ﴾ في ملكه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الايجاد والإعدام والعطاء والمنع والإعزاز والإذلال والإحياء والإماتة وغيرها ﴿قَدِيرٌ﴾.

ثمّ بيّن سبحانه آثار قدرته وسلطانه بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وقدّر بقدرته وحكمته ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ﴾ لكلّ ما يقبلهما.

عن ابن عباس: أنّ الموت والحياة جسمان، وأنّ الله خلق الموت على صورة كبشٍ أملح لا يمُرّ بشيءٍ ولا يجد رائحته شيءٌ إلّا مات، وخلق الحياة على صورة فرس أُنثى بَلْقاء[1]، وهي التي كان جَبرئيل والأنبياء يركبونها، خُطوتها مدّ البصر، فوق الحمار ودون البَغْل، لا تَمُرّ بشيءٍ ولايجد رائحتها [شيء] إلّا حيي، وهي التي أخذ السامري من أثرها قبضةً فألقاها على العِجل فحيي[2].

---

١. الفرس البلقاء: التي فيها سواء وبياض.

٢. تفسير روح البيان ١٠: ٧٤.

تحقيق في الموت وبيان نكتة تقديمه على الحياة

أقول: ظاهر ما ذكره أنّ الموت المخلوق هو حيوان يُشبه الكبش الأملح، وأثر قُربه ورائحته في الشيء الحي هو عروض الموت عليه، كالسُّمّ وسائر الأشياء المُهلِكة، وهو غير الموت الذي يعرِض للأشياء الحيّة، فالموت الذي هو من العوارض الوجودية على قول والعدمية على القول الحقّ غير ذلك الموت الذي هو مخلوقٌ وصورته في عالم الصُّور والمِثال صورة الكبش، فلا دلالة لكلام ابن عباس على صحّة أحد القولين.

والحقّ أنّ المفهوم من لفظ الموت الذي يكون في قِبال الحياة في الاستعمال الشائع، هو من العدميات التي لها شائبة الوجود، ويسمّى بالعدم والملكة والعدم المضاف، وهو يتحقّق بانتفاء علّة الحياة، فانّ عدم علّة الوجود علّة للعدم، وقبض ملك الموت الروح من الجسد سبب لطُروّ الموت عليه، ويمكن أن تكون صورته المثاليه البَرزَخية صورة الكبش الأملح التي يؤتى بها يوم القيامة، ويذبحه يحيى بن زكريا على رواية[١].

وهذا المعنى الذي للموت مخلوقٌ بتبع خلق الحياة، كما أنّ خلق الليل الذي عدم النور فوق الأرض إنّما يكون بتبع خلق النهار، فانّ ذَهاب الشمس من فوق الأرض وعدمها منه علّة لظُلمة الليل، وعليه يكون معنى خلق الموت والحياة جعل الروح في القالب وسلبه منه، وهذا هو الموت الذي يكون بعد الحياة، كما عن الباقر عليه السلام: «أنّ الله خلق الحياة قبل الموت»[٢]. وأمّا الموت الذي هو فقد الحياة وعدمها، كما يكون للنُّطفة وللأرض الميتة، فهو قبل الحياة.

فتحصّل ممّا ذكر أنّ الموت بالمعنى الأعمّ عدمي صرف لايحتاج إلى السبب، وأمّا الموت الذي هو زهاق الروح فهو مُسبّب عن ذَهاب مُقتضى الحياة بنفسه أو وجود ما هو ضدّها، وعليه يمكن حمل ما عن الباقر عليه السلام من قوله: «الحياة والموت خَلْقان من خلق الله، فاذا جاء الموت فدخل في الانسان، لم يدخُل في شيء إلا خرجت منه الحياة»[٣] وحمل دخول الموت على دخول ما هو مانع الحياة، وإن كان ظاهره مقرراً لما قاله الأشاعرة من أنّ الموت والحياة صفتان وجوديتان مستدلّين عليه بالآية المباركة، إلّا أن يقال: إنّ اتّصاف الجسم بالموت (والسكون) مثلاً وتقيّده به أمرٌ وجوديّ كالحياة.

وعلى أي تقدير قيل في وجه تقديم ذكر الموت: إنّ المراد به حال النُّطفة والعَلَقة والمُضغة، وبالحياة نفخ الروح[٤].

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٥٥، تفسير روح البيان ١٠: ٧٥.
٢. الكافي ٨: ١١٦/١٤٥، تفسير الصافي ٥: ٢٠٠.
٣. الكافي ٣: ٣٤/٢٥٩، تفسسر الصافي ٥: ٢٠٠.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ٥٥.

وعن ابن عباس، قال: يزيد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة، وفي معناه ما قيل من ان أيام الموت هي أيام الدنيا وهي من قضيته وأيام الحياة هي أيام الآخرة وهي متأخّرة[١].

وقيل: إنّ أقوى الدواعي للعمل كون الموت نُصب العين، وإنّما قدّم الموت لأنّ الغرض - وهو البعث على العمل فيه - أهمّ[٢].

عن النبي ﷺ: «أكثِروا ذكر هادم اللذّات» [وقال لقوم «لو أكثرتم ذكر هادم اللذات] لَشغَلكم عمّا أرى»[٣].

ورُوي أنّه ﷺ سأل عن رجلٍ فأثنوا عليه فقال: «كيف ذكره الموت؟» قالوا: قليل. قال: «فليس كما تقولون»[٤].

وفي الحديث: «لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه: الفقر، والمرض، والموت»[٥].

وإلى ما ذكر أشار سبحانه بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختركم ويُعلمكم بسبب خلق الموت والحياة ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ فيجازيكم على اختلاف المراتب.

عن النبي ﷺ قال: «يقول أيّكم أحسن عقلاً» ثمّ قال: «أتمّكم عقلاً أشدّكم لله خوفاً، وأحسنكم فيما أمر الله به ونهى عنه نظراً»[٦].

وفي رواية قال: «أيكم أزهد في الدنيا، وأشدّكم تركاً لها»[٧].

وفي رواية قال: «أيّكم أحسن عقلاً، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله»[٨].

وعن الصادق عليه السلام: «ليس يعني أكثركم عملاً، ولكم أصوبكم عملاً، وإنّما الإصابة خَشية الله والنيّة الصادقة ...»[٩] الخبر.

﴿وَهُوَ﴾ تعالى وحده ﴿الْعَزِيزُ﴾ والغالب على كلّ شيءٍ لا يفوته من أساء و ﴿الْغَفُورُ﴾ لمن شاء إمّا بالتوبة أو بالشفاعة أو بالتفضّل.

ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٥٥. ٢. تفسير الرازي ٣٠: ٥٥.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٥٥، وفيه في الموضعين: هازم، بدلاً من: هادم. ٤. تفسير الرازي ٣٠: ٥٥.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٧٥. ٦. تفسير الرازي ٣٠: ٥٦.
٧. تفسير الرازي ٣٠: ٥٦. ٨ تفسير روح البيان ١٠: ٧٦.
٩. الكافي ٢: ٤/١٣، تفسير الصافي ٥: ٢٠٠.

خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ * وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّماءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ[٣ـ٥]

ثمّ بالغ سبحانه في ذكر آثار قدرته بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وأبدع ﴿سَبْعَ سَماوَاتٍ﴾ حال كونهنّ ﴿طِبَاقاً﴾ بعضها فوق بعضٍ لكلّ حدٌّ معينٍ وحركةٍ خاصةٍ مُقدّرة بقدر مخصوص من السرعة والبطئ، متناسبات في الخلق بحيث ﴿مَا تَرَىٰ﴾ أيّها الرسول، أو الرائي ﴿فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمٰنِ﴾ وإبداع الإله الفيّاض المنّان يسيراً ﴿مِن تَفَاوُتٍ﴾ واختلافٍ وعيبٍ. يقول الرائي: لوكان كذا كان أحسن، أو من فروج وشُقوق ﴿فَارْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ ورُدّه إلى رؤيتها، وأعد النظر إليها لطلب الخروق والصُّدوع فيها[1] ﴿يَنقَلِبْ﴾ ويرجع ﴿إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئاً﴾ محروماً من إصابة ما طلبه من العيب والخَلل ﴿وَهُوَ﴾ لطول المعاودة وكثرة المراجعة ﴿حَسِيرٌ﴾ وكليلٌ، وبالغ غاية الإعياء والعجز عن الظُّفر بالمطلوب من وجدان العيب.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان كمال خلقه السماوات بيّن كمال قدرته وحكمته بتحسينها وتزيينها منّةً على العباد بقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾ وحسنّا بقُدرتنا ﴿ٱلسَّماءَ ٱلدُّنْيَا﴾ وأقربها إلى الأرض ﴿بِمَصَابِيحَ﴾ وسُرُجٍ مضيئةٍ من النجوم والكواكب الثوابت والسيارة.

أقول: لا يَنافي ذلك كون جميعها أو بعضها في السماوات الأُخر، فانّها تُرى في السماء الدنيا وتُرى زينة لها.

وصيّرنا الكواكب ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ مع ذلك ﴿رُجُوماً﴾ ومُطرِدات ﴿لِلشَّيَاطِينِ﴾ وكَفَرة الجنّ بالشُّهب المنفصلة منها، إذا أرادوا استراق السمع وقيل: يعني جعلناها ظُنوناً ورُجوماً بالغيب لشياطين الإنس، وهم الأحكاميّون من المنجّمين[2] ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ لأُولئك الشياطين وهيّأنا ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ والنار المُوقَدة التي أوقدها الجبّار بغضبه.

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِىَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ[٦ـ١١]

---

١. يوجد في النسخة بياض بمقدار سطر وأربع كلمات.

٢. تفسير الرازي ٣٠: ٦٠.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان أنّ كفار الشياطين لهم عذاب جهنّم، هدّد جميع الكفّار من الجنّ والإنس به بقوله: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ [سواء] كانوا من الشياطين أو الجنّ أو الانس ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ في الآخرة ﴿وَ﴾ هي ﴿بِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ والمرجِع لهم.

ثمّ بيّن سبحانه بعض أهوال جهنّم مضافاً إلى التعذيب بها بقوله: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟﴾ أولئك الكفّار في جهنّم وطُرِحوا ﴿فِيهَا﴾ كالحَطَب الذي يُطرَح في النار من غير رقّةٍ وترحّم ﴿سَمِعُوا۟﴾ أولئك المُلقَون في جهنّم ﴿لَهَا شَهِيقًا﴾ وصوتاً مُنكَراً كصوت الحِمار غضباً عليهم ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ وتغلي غَليان القِدر بالماء الذي فيه بغاية الشدّة من شدّة التلهّب والتسعّر، فهم لايزالون صاعدين فيها وهابطين كالحبّ الذي في الماء المغلي لاقرار لهم فيها.

ثمّ بالغ سبحانه في بيان شدّة غضب جهنّم عليهم بقوله: ﴿تَكَادُ﴾ وتقرُب جهنّم من أن ﴿تَمَيَّزُ﴾ وتفرّق ﴿مِنَ﴾ شدّة ﴿ٱلْغَيْظِ﴾ والغضب عليهم.

ثمّ بيّن سبحانه حال المُلقَون فيها بقوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ﴾ في جهنّم وطُرِح ﴿فِيهَا﴾ من الكفرة ﴿فَوْجٌ﴾ وجماعةٌ بدفع الملائكة الذين هم أغيظ عليهم من النار ﴿سَأَلَهُمْ﴾ مالك جهنّم وأعوانه الذين هم مُوَكلون عليها و ﴿خَزَنَتُهَآ﴾ بطريق التوبيخ والتقريع أيّها الكفرة ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ في الدنيا من قِبل ربّكم ﴿نَذِيرٌ﴾ ومُخوّف لكم من عذاب هذا اليوم وأهواله؟ ﴿قَالُوا۟﴾ في جواب الخَزَنه اعترافاً بجُرمهم واستحقاقهم للعذاب: ﴿بَلَىٰ﴾ أيّها الخَزَنة ﴿قَدْ جَآءَنَا﴾ في الدنيا من قبل ربّنا ﴿نَذِيرٌ﴾ عظيم الشأن كثير المعجزات ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ذلك النذير في دعوى كونه من الله ﴿وَقُلْنَا﴾ في ردّ ما كانوا يتلون علينا من الآيات ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ ممّا تتْلُون علينا ﴿مِن شَىْءٍ﴾ يسيرٍ فضلاً عن جميع تلك الآيات الكثيرةِ أو من شيءٍ من كتابٍ ورسولٍ ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ وما نراكم أيّها المُدّعون للرسالة ﴿إِلَّا﴾ مُنغمرين ﴿فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ ومُنحرفين عن طريق واضح عند عامة العقلاء في دعواكم الرسالة، وكون ما تتلُون علينا من جانب الله ﴿وَقَالُوا۟﴾ تحسّراً وتندّماً: إنا ﴿لَوْ كُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَسْمَعُ﴾ مواعظ الرُّسل سَماع القبول ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ امتناع الشرك ووجوب بعث الرسول وجعل دار الجزاء على الله، وبراهين الأنبياء على التوحيد، وسائر ما جاءوا به ﴿مَا كُنَّا﴾ اليوم ﴿فِىٓ﴾ زُمرة ﴿أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ ومُستحقي العذاب.

قيل: كأنّ الخَزَنة قالوا لهم في تضاعيف توبيخهم: ألم تسمعوا آيات ربّكم من ألسنة الرُّسل، ولم تعقِلوا معانيها؟ قالوا في جوابهم ذلك[1] ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟﴾ في جواب الخَزَنة اضطراراً لما رأوا أنّه

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٨٥

لايمكنهم الفِرار والإنكار ﴿بِذَنبِهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي ومعارضة الرسل وتكذيبهم اختياراً في الدنيا وأقرّوا باستحقاقهم العذاب ﴿فَسُحْقاً﴾ وبُعداً لا غاية له من رحمة الله ﴿لِأَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وهم الكَفَرة من الجنّ والإنس اعترفوا أو جحدوا.

وعن (الاحتجاج) في الخطبة الغديرية: «أنّ هذه الآيات في أعداء عليٍّ وأولاده عليهم السلام والتي بعدها في أوليائه»[١].

قيل: إنّ التقدير فسُحِقوا سُحقاً وبُعدوا بُعداً على التحقيق، أو على الدعاء عليهم، بمعنى تعليم الله العباد أن يدعوا عليهم بهذا إشعاراً بأنّهم مستحقّون لهذا الدعاء[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ * وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[١٢ و ١٣]

ثمّ إنّه تعالى بعد ذكر سوء حال الكفّار في الآخرة، ذكر حُسن حال المؤمنين فيها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ يؤمنون بالله، و ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ الذي هو ﴿بِالْغَيْبِ﴾ عن أبصارهم لايَرَونه بعيونهم، بل يعرفونه بقلوبهم، أو المراد يَخشَون عذاب ربّهم بعد الموت ويوم القيامة مع [أنّ] ذلك العذاب غائبٌ عنهم غير مرئيّ لهم في الدنيا، أو هم بالغيب عن الناس فيتركون معاصي الله في الخَلْوة ﴿لَهُم مَغْفِرَةٌ﴾ عظيمةٌ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ﴾ وثوابٌ ﴿كَبِيرٌ﴾ وعظيمٌ لا يُوصَف بالبيان تصغُر دونه الدنيا وما فيها.

ثمّ إنّه تعالى بعد وعيد الكفّار ووعد المؤمنين بطريق المغايبة، خاطب جميع الناس وحذّرهم عن العِصيان في السّر والعَلَن بقوله: ﴿وَأَسِرُّوا﴾ وأخفوا ﴿قَوْلَكُمْ﴾ السيّء ﴿أَوِ ٱجْهَرُوا﴾ وأعلنوا ﴿بِهِ﴾ لايتفاوت بالنسبة إلى الله ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ بكلّ شيءٍ ظاهر وخفيّ حتى ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ والخُطورات التي في القلوب.

عن ابن عباس: كانوا ينالون من رسول الله صلى الله عليه وآله فيُخبره جَبْرَئيل فيقول بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم، لئلا يسمع إله محمد، فنزلت هذه الآية[٣].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ * هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[١٤ و ١٥]

---

١. الاحتجاج: ٦٣، تفسير الصافي ٥: ٢٠٢.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٨٥.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٦٦.

ثمّ أنكر سبحانه على الكفّار إنكار علمه تعالى بمخلوقه بقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ وهل لا يُحيط ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ شيئاً بمخلوقه؟ ماهيةً وصفةً ومقداراً ﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿هُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ والعالم بخفيّات الأمور ودقائق الأشياء ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ والمحيط ببواطنها. قيل: اللطيف من يعلم دقائق المصالح وغوامضها، ثمّ يُوصلها إلى المستصلح بالرِّفق دون العُنف، والخبير من لا يعزُب عنه الأخبار الباطنة، فلا يجري في المُلك والمَلَكوت شيءٌ حتى حركة الدُّودة في بطن صخرة إلّا وعنده خبره وعلمه[١].

ثمّ رجع سبحانه إلى آثار قدرته في الأرض بعد ذكر آثارها في السماوات بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ بقدرته نفعاً ﴿لَكُمُ﴾ أيّها الناس ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ بأقطارها ﴿ذَلُولاً﴾ ومنقادةً لكم غاية الانقياد، لتنتفعوا بها بالسُّكونة، والزَّرْع والغَرْس، وحفر الآبار، وشقّ العيون والأنهار، وبناء الأبنية، ودفن الأموات وغيرها ﴿فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا﴾ واسلُكوا في جوانبها وأطرافها، أو في جبالها فضلاً عن سهلها كما عن ابن عباس[٢] ﴿وَكُلُوا مِن﴾ نِعم الله و ﴿رِزْقِهِ﴾ الذي أحلّ لكم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ تعالى وحده ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ والمرجِع بعد البعث من قبوركم، فاجتهدوا في شُكره، وجُدّوا في طاعته.

قيل: إنّ وجه نظم هذه الآية أنّه تعالى بعد تهديد الكفّار بعلمه بسرّهم وعلنهم، بالغ في تهديدهم بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ فهو نظير أن يقول المولى لعبده العاصي: كُن في هذه الدار، وكُل هذا الخُبز، ولاتأمن من تأديبي[٣].

ءَأَمِنتُم مَن فِى ٱلسَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَن فِي ٱلسَّماءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ [١٦ و ١٧]

ثمّ هدّد الكفّار على ترك شُكر نِعمه بقوله: ﴿ءَأَمِنتُم﴾ أيّها المُكذّبون الكافرون لنِعم الله ﴿مَن فِى ٱلسَّماءِ﴾ نفاذ أمره، وظهور كمال قدرته وسلطانه وملكه، أو المراد بمن في السماء جَبْرَئيل الموكّل بالعذاب ﴿أَنْ يَخْسِفَ﴾ ويَقْلِب ﴿بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ ويَغلِبكم في بطنها بعد جعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها وتأكُلون ممّا ينبُت فيها بكفرانكم نِعمه ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ بعد أن خُسِفت بكم ﴿تَمُورُ﴾ وتضطرب وتتحرّك ذَهاباً ومجيئاً لتبلغكم إلى الطبقة السُّفلى منها تعذيباً لكم كما فعلت بقارون.

ثمّ بالغ سبحانه في تهديدهم بقوله: ﴿أَمْ أَمِنتُم﴾ أيّها الكفار ﴿مَن فِى ٱلسَّماءِ﴾ من ﴿أَن يُرْسِلَ﴾ ويُنزِل ﴿عَلَيْكُمْ﴾ منها تعذيباً لكم ﴿حَاصِباً﴾ ومطر حجارةٍ كما أرسل على قوم لوط. فاذاً لاأمان

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٨٧.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٦٩.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٦٨.

﴿لَكُمْ يَنصُرُكُم﴾ عند نزول العذاب والآفات ﴿مِن دُونِ ٱلرَّحْمٰنِ﴾ وما سواه.

أقول: هذا التبكيت يُساوق قوله: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِن دُونِنَا﴾[1].

ثمّ قرّر سبحانه حماقتهم وجهلهم بقوله: ﴿إِنِ ٱلْكَافِرُونَ﴾ وما هم في زعمهم أنّهم محفوظون من الآفات بحفظ آلهتهم ﴿إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ عظيمٍ وظلالٍ فاحشٍ.

ثمّ وبّخهم سبحانه على اعتمادهم على آلهتهم في إيصال الخيرات إليهم بقوله: ﴿أَمَّنْ﴾ وبل أيّ شيءٍ ﴿هٰذَا﴾ الصنم الحقير ﴿ٱلَّذِى﴾ تَزعُمون أنّه ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾ ويُوصِل إليكم ما تعيشون به من النِّعم ﴿إِنْ أَمْسَكَ﴾ الرحمن ﴿رِزْقَهُ﴾ ونِعمه بحبس المطر ومبادى الانتفاع بنعمه، ياللعجب كيف لايتأثّر الكفّار بتلك المواعظ والمنبّهات! ﴿بَل لَّجُّوا﴾ وتمادوا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ وطُغيان على الله ﴿وَنُفُورٍ﴾ واشمئزاز عن الحقّ، كأنّهم حُمُرٌ مستنفرةٌ.

أَفَمَن يَمْشِى مُكِبّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِى سَوِيّاً عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ[٢٢]

ثمّ بيّن سبحانه عدم قابليتهم للهداية بضرب المثل بقوله: ﴿أَفَمَن يَمْشِى﴾ حال كونه ﴿مُكِبّاً﴾ وساقطاً ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ كالمصروع ﴿أَهْدَىٰ﴾ وأوصل إلى مقصوده ومطلوبه ﴿أَمَّن يَمْشِى﴾ حال كونه ﴿سَوِيّاً﴾ وقائماً على رجليه مصوناً من السقوط والعِثار ﴿عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وطريق سوى لاعوج فيه ولاانحراف؟ ومن الواضح أنّ الأول يمتنع وصوله إلى مطلوبه أبداً.

قيل: إنّ الكافر لمّا كان في الدنيا مكبّاً على معاصي الله، حشره الله في الآخرة مكبّاً على وجهه، والمؤمن لمّا كان في الدنيا قائماً على أوامر الله مُقدِماً على امتثال أحكامه، حشره الله في الآخرة قائماً على قدميه سائراً إلى الجنّة[2].

عن الباقر عليه السلام أنّه قال: «القلوب أربعة: قلبٌ فيه نفاقٌ وإيمانٌ، وقلبٌ منكوسٌ، وقلبٌ مطبوعٌ، وقلبٌ أزهر أنور» قال: «فأمّا القلب المطبوع فقلب المنافق، وأمّا القلب الأزهر فقلب المؤمن، إذا أعطاه الله عزّ وجلّ شكر، وإن ابتلاه صبر، وأمّا القلب المنكوس فقلب المشرك» ثمّ قرأ هذه الآية[3].

وعن الكاظم عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «إنّ الله ضرب مثل من حاد عن ولاية عليّ لايهتدي لأمره، وجعل من تَبِعه سوياً على صراطٍ مستقيم، والصراط المستقيم أمير المؤمنين عليه السلام»[4].

---

١. الأنبياء: ٤٣/٢١.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٩٤.
٣. معاني الأخبار: ٥١/٣٩٥، تفسير الصافي ٥: ٢٠٤.
٤. الكافي ١: ٩١/٣٥٩، تفسير الصافي ٥: ٢٠٤.

أقول: هذا تأويل الآية لاتفسيرها.

وعن ابن عباس رضوان الله عليه قال: نزلت في أبي جهل وحمزة بن عبدالمطلب[١]، وقيل: في أبي جهل، وعمّار بن ياسر[٢].

قُلْ هُوَ ٱلَّذِى أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ[٢٣ ـ ٢٥]

ثمّ رجع سبحانه إلى الاستدلال على قدرته ونعمه بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين المنكرين لقدرة الله على البعث الكافرين لنعمه: إنّ الله تعالى ﴿هُوَ﴾ القادر ﴿ٱلَّذِى أَنشَأَكُمْ﴾ وخلقكم أولاً من تُراب، ثمّ من نُطفةٍ قذرةٍ، ثمّ أكمل خلقكم ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتدركوا المسموعات، وتسمعوا المواعظ والآيات الإلهية ﴿وَ﴾ شقّ لكم ﴿ٱلْأَبْصَارَ﴾ وجعل فيها قوة الرؤية لتدركوا بها المبصرات، وتنظروا إلى آيات توحيد الله وحكمته وقدرته ومعجزات رسله ﴿وَ﴾ جعل لكم ﴿ٱلْأَفْئِدَةَ﴾ والقلوب وقوّة الفَهْم فيها، لتتفكروا فيما تُبصرونه وتسمعونه، وتميّزوا[٣] صحيحه وفاسده وحقّه وباطله، وتعتبروا بالعِبر منهما، وتتأمّلوا في الآيات التنزيلية والتكوينية، و ترتقوا بها في درجات الايمان والطاعة، والاسف انكم شُكراً أو زماناً ﴿قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ لله هذه النِّعم العظام باستعمالها فيما خلقت له، فانّ شكر النعمة صرفها فيما فيه رضا المنعم، بل تكفرونها حيث تصرفونها فيما فيه غضبه وسَخَطه. وقيل: إنّ القليل هنا كنايةٌ عن العدم[٤].

﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الكفرة: إنّ ربّكم ﴿هُوَ﴾ القادر ﴿ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ﴾ وأكثركم من نفسٍ واحدةٍ، أو فرّقكم ﴿فِى﴾ وجه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ وأقطارها، لتتعيشوا فيها وتستريحوا عليها ثمّ أنتم بعد انقضاء هذا العالم تحيون ثانياً في القبور بقدرة الله ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده يوم القيامة ﴿تُحْشَرُونَ﴾ وتُساقون، أو تُجْمَعون للحساب وجزاء الأعمال، فاستعدّوا لهذا اليوم العظيم، وبادروا إلى أحسن الأعمال وأفضل العبادات، كي تنجوا من الأهوال والشدائد التي فيه، وتصلوا إلى الجنّة والنِّعم الدائمة.

ثمّ إنّه تعالى بعد وعده بالحشر والبعث حكى استهزاء المشركين المنكرين للبعث به بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عِناداً واستهزاءً بالنبي ﷺ[٥] والمؤمنين المخبرين بالحشر ﴿مَتَىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ وفي أيّ

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٧٢.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٧٣.
٣. زاد في النسخة: في.
٤. تفسير أبي السعود ٩: ٩، تفسير روح البيان ١٠: ٩٥.
٥. في النسخة: للنبي.

زمانٍ يقع هذا الحشر الذي تُخبروننا بوقوعه؟ أخبرونا بوقت وقوعه ﴿إِن كُنتُمْ﴾ في هذا الإخبار والوعد ﴿صَادِقِينَ﴾ وبوقوعه عالمين.

قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ[٢٦ و ٢٧]

ثمّ أمر سبحانه النبي ﷺ بجوابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ليس لي بوقت وقوعه علم ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بوقته ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ فقط مكتومٌ عن غيره، لاقتضاء حكمته البالغة ذلك ﴿وَإِنَّمَا أَنَا﴾ من قبل الله ﴿نَذِيرٌ﴾ ومخوّفٌ للناس بالإخبار بأصل وقوعه ﴿مُّبِينٌ﴾ ومظهرٌ لهم ببيان واضح يعرفه كلّ أحدٍ، لتتِم الحُجّة عليهم، والعلم بالوقوع لا يستلزم العلم بوقت الوقوع، والإخبار بالأول عن علمٍ من قبل الله كافٍ في الانذار.

ثمّ هدّدهم سبحانه ببعض أهوال ذلك اليوم بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ وقريباً منهم أو معاينةً ﴿سِيٓـَٔتْ﴾ وقُبحت، أو اسودّت ﴿وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وأنكروا وقوعه، وعن ابن عباس: يكون عليها الكابة والقَتَر[١] ﴿وَقِيلَ﴾ لهم من قبل الله بلسان الزبانية، أو القائل بعضهم لبعض: ﴿هَٰذَا﴾ اليوم الذي ترونه هو ذلك اليوم ﴿ٱلَّذِى كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ وتطلُبون وتستعجلون، أو تدّعون بطلانه أو امتناعه، وإنّه لايأتي أبداً. قيل: إنّه استفهامٌ انكاريٌ، والمعنى: أهذا الذي تدّعونه، لابل تدّعون عدمه[٢] وامتناع وقوعه.

وقيل: إنّ الآية تهديدٌ لهم بالعذاب الدنيوي، والمعني: فلمّا رأوا عذاب الاستئصال زُلفةً وقريباً منهم.

عن القمي ﵀ قال: إذا كان يوم القيامة نظر أعداء أمير المؤمنين عليه السلام إليه وإلى ما أعطاه الله من الكرامة والمنزلة الشريفة العظيمة، وبيده لواء الحمد، وهو على الحوض يسقي ويمنع، تسودّ وجوه أعدائه، فيقال لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ منزلته وموضعه واسمه[٣].

وعن الباقر عليه السلام قال: «هذه الآية نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه الذين عَمِلوا ما عَمِلوا، يرون أمير المؤمنين عليه السلام في أغبط الأماكن لهم، فتسيء وجوههم، ويقال لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ الذي انتحلتم اسمه»[٤].

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٧٥.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٧٥
٣. تفسير القمي ٢: ٣٧٩، تفسير الصافي ٥: ٢٠٥.
٤. الكافي ١: ٦٨/٣٥٢، تفسير الصافي ٥: ٢٠٥.

وعنه عليه السلام: «فلمّا رأوا مكان علي عليه السلام من النبي صلى الله عليه وآله سيئت وجوه الذين كفروا» يعني الذين كذبوا بفضله»[1].

وعن الأعمش قال: لمّا رأوا ما لعليّ عند الله من الزلفى سيئت وجوه الذين كفروا[2].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٢٨ و ٢٩]

ثمّ لمّا كان المشركون يقولون: ننتظر موت محمد ونستريح منه، وكانوا يَدْعُون عليه بالهلاك على ما رُوي[3]، أمر سبحانه النبي صلى الله عليه وآله أن يُجيبهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين الذين ينتظرون هلاكك: أيّها المشركون ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ﴾ بدعائكم عليّ ﴿وَ﴾ أهلك ﴿مَن مَّعِيَ﴾ من المؤمنين، وأخرجنا من الدنيا بالموت أو القتل، أو بعذابٍ من عنده على الفرض ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ وأطال أعمارنا، فأيّ راحةٍ لكم في ذلك، وأيّ نفعٍ يعود بموتنا إليكم؟ ثمّ إن متنا أو بقينا ﴿فَمَن يُجِيرُ﴾ كم وأنتم من ﴿الْكَافِرِينَ﴾ بتوحيده ﴿مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أعدّ لكم؟ إذا نزل بكم أتظنّون أنّ الأصنام والأوثان تُجيركم منه؟! حاشا وكلّا ﴿قُلْ﴾ يا محمد: إنّ مجير الخلق ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ﴾ والإله الواسع الرحمة وحده، لا الأصنام ولا الأوثان ولاغيرهما من الموجودات، ولذا نحن ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ وأنتم لجهلكم كفرتم به ﴿وَ﴾ نحن ﴿عَلَيْهِ﴾ وحده ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ واعتمدنا في أُمورنا، وفوّضنا مهمّاتنا إليه لعلمنا بأنّه القادر الرؤف الضارّ النافع، وغيره بمَعْزِلٍ عن التصرّف في الأُمور، وأنتم لحُمقكم توكّلتم على أصنامكم وأموالكم وأعوانكم ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ وعن قريبٍ عند معاينة الشدائد والعذاب تَفْهَمون ﴿مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وانحرافٍ واضحٍ عن طريق الحقّ وخطأ ظاهر، نحن أو أنتم؟

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾[٣٠]

ثمّ إنّه تعالى بعد تهديد المشركين بالعذاب الأليم، ونفي مجيرٍ لهم إلّا الله، هدّدهم ببلاء فقدان الماء الذي هو أهمّ ما يحتاجون إليه، وأعظم ما يعيشون به، وأسهل ما ينالون منه، ونفي القادر على إيجاده غير الله بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للمشركين: إن ظننتم أنّ أصنامكم ينفعونكم ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ وأخبروني

---

١. مجمع البيان ١٠: ٤٩٤، تفسير الصافي ٥: ٢٠٥.

٢. مجمع البيان ١٠: ٤٩٤، شواهد التنزيل ٢: ٩٩٧/٢٦٥، تفسير الصافي ٥: ٢٠٥.

٣. تفسير الرازي ٣٠: ٧٦.

﴿إِنْ أَصْبَحَ﴾ وصار ﴿مَاؤُكُمْ﴾ الذي تنالون منه بسهولة من آباركم ﴿غَوْراً﴾ ونازلاً في الأرض بالكلية بحيث لايمكن لكم نَيْله بنوعٍ من الحِيل ﴿فَمَن﴾ يقدِر على أن ﴿يَأْتِيكُم﴾ على ضَعْفكم حينئذٍ ﴿بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ جارٍ على وجه الأرض تنتفعون به بسهولةٍ، ءأصنامكم تأتيكم به، أم الرحمن؟

قيل: تخصيص الماء بالذكر لكونه أهون موجودٍ وأعزّ مفقود[1].

قيل: إنّ الكفار لما قالوا نتربّص به ريب المنون، أمر الله تعالى نبيّه ﷺ بأن يُجيبهم بقوله: ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَعِيَ﴾ من المؤمنين، فأيّ نفعٍ لكم فيه، وأنتم تستحقّون عذابه، ومن يُجيركم من عذابه[2].

ثمّ أمره بأن يُجيبهم بأنّ الله هو الرحمن لايقبل دعاءكم وأنتم أهل الكفر والعِناد في حقّنا، مع أنّا آمنا به وعليه توكّلنا.

ثمّ لمّا ذكر أنّ توكّله عليه أمره بإقامة الدليل على أنّه يجب التوكّل عليه بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً ...﴾ إلى آخره، والمقصود إقرارهم ببعض نِعمه، ليريهم قُبح ما هم عليه من الكفر، حيث إنّهم إن قالوا: هو الله، فيقال لهم: فلم تجعلون من لا يقدِر على شيءٍ أصلاً شريكاً له في العبودية؟

عن الرضا عليه السلام أنّه سُئل عن هذه الآية فقال: «ماؤكم أبوابكم[3] الأئمّة، الأئمّة أبواب الله، فمن يأتيكم بماءٍ معينٍ؟ أي من يأتيكم بعلم إمام؟»[4].

وعن الباقر عليه السلام قال: «نزلت في الامام القائم، يقول: إن أصبح إمامكم غائباً عنكم لاتدرون أين هو، فمن يأتيكم بامامٍ ظاهرٍ يأتيكم بأخبار السماوات والأرض وحلال الله وحرامه؟» ثمّ قال: «والله ماجاء تأويل هذه الآية، ولابدّ أن يجيء تأويلها»[5].

في الحديث: «سورة في كتاب الله ما هي إلّا ثلاثون آية، شفعت لرجل فأخرجته يوم القيامة من النار وأدخلته الجنة، وهي سورة تبارك»[6].

وفي حديث آخر: «وددتُ أنّ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ في قلب كلّ مؤمنٍ» وكان لاينام ﷺ حتّى يقرأ سورة المُلك وألم تنزيل السجدة[7].

وقال علي عليه السلام: «من قرأها يجيء يوم القيامة على أجنحة الملائكة، وله وجهٌ في الحُسن كوجه يوسف»[8].

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٩٧ و٩٨. ٢. تفسير الرازي ٣٠: ٧٦.
٣. في النسخة: أبواكم. ٤. تفسير القمي ٢: ٣٧٩، تفسير الصافي ٥: ٢٠٥.
٥. كمال الدين: ٣/٣٢٥، تفسير الصافي ٥: ٢٠٦. ٦ ـ ٨. تفسير روح البيان ١٠: ٩٨.

وعن ابن عباس: ضرب بعض الصحابة خيامه على قبرٍ، وهو لايشعُر أنّه قبرٌ، فاذا فيه إنسانٌ يقرأ سورة المُلك، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ضربت خيامي على قبرٍ ولاأعلم أنّه قبرٌ، فاذا إنسان يقرأ سورة المُلك. فقال: «هي المانعة من عذاب الله، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر» وكانوا يُسمّونها على عهد رسول الله ﷺ المنجية، وكانت تُسمّى في التوراة المانعة، وفي الانجيل الواقية[1].

عن ابن مسعود: أنّه يُؤتى الرجل في قبره من قبل رأسه فيقال: ليس لكم عليه سبيل، إنّه كان يقرأ على رأسه سورة المُلك، فيُؤتى من قبل رجليه فيقال: ليس لكم عليه سبيل، إنه كان يقوم فيقرا سورة المُلك، فيُؤتى من قبل جوفه فيقال: ليس لكم عليه سبيل، إنّه وعى سورة المُلك، أي حَفِظها[2].

وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ في المكتوبة قبل أن ينام، لم يزل في أمان الله حتى يُصبح، وفي أمانه يوم القيامة حتى يدخُل الجنة»[3].

قد تمّ تفسير لسورة المباركة بمنّ الله وتوفيقه.

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٩٨.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٩٨.
٣. ثواب الأعمال: ١١٩، مجمع البيان ١٠: ٤٨٢، تفسير الصافي ٥: ٢٠٦.

في تفسير سورة القلم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

ن وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ[١]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة المُلك بذكر جواب اعتراضات المشركين على النبي ﷺ، وجواب دعائهم عليه بالهلاك، وتهديدهم بقوله: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[١]، أُردفت في النَّظم بسورة القلم المبتدئة بردّ المشركين في نسبتهم الجنون إلى النبيّ ﷺ، وبيان أنّهم يُبصرون بأيّكم المفتون والابتلاء بالجنون، وأنّ الله عالم بضلالتهم وهداية نبيّه وتسليته ﷺ في سوء مقالات المشركين وتهديدهم بالعذاب، فافتتحها سبحانه بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ خاطب سبحانه نبيه ﷺ بقوله: ﴿ن﴾ فانّه على قول بعض مفسري العامة اسمٌ من أسماء النبي ﷺ[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ لرسول الله ﷺ عشرة أسماء: خمسة في القرآن، وخمسة ليست في القرآن، فأمّا التي في القرآن: محمد، وأحمد، وعبدالله، ويس، ون»[٣].

تحقيق في الجمع بين الروايات

أقول: لعلّ المراد من ﴿ن﴾ أنّه مفتاح ناصر دين الله، ونعمة الله العظمى، والنور المطلق الذي هو أصله وحقيقته وأوّل ما خُلِق حيث قال: «أوّل ما خلق الله نوري وهو أصل كلّ شيءٍ من الرّوحانيات والجسمانيات التي كلّها كلمات الله، ومنه النهر الذي في الجنّة، وهو مادة جميع ما خلق الله في عالم الأشباح والصور كالمِداد الذي يُكتَب به، ويكون مادة جميع صور الحروف والخطوط، ولذا فسّر النور بالمِداد والدواة، فلامنافاة بين ماذُكر من أنّه اسمٌ من أسماء النبي عليه السلام وبين ما رُوي عن الصادق عليه السلام من أنه قال: وأمّا ﴿ن﴾ فهو نهرٌ في الجنّة، قال الله عز وجل له: اجمُد فجمد، فصار مِداداً، ثمّ قال للقلم: اكتُب فسطَر العلم في اللّوح المحفوظ ما

---

١. الملك: ٢٩/٦٧. ٢. تفسير روح البيان ١٠: ١٠٠.
٣. الخصال: ٢/٤٢٦، تفسير الصافي ٥: ٢٠٨.

كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فالمِداد مِدادٌ من نُور، والقلم قلمٌ من نور، واللَّوح لوحٌ من نُور».

قال سفيان: فقلت له: يابن رسول [الله] بيّن لي أمر اللّوح والقلم والمِداد فضل بيانٍ، وعلّمني ممّا علّمك الله. فقال: «يابن سعيد، لولا أنّك أهلٌ للجواب ما أجبتك، فنُون مَلَك يُؤدّي إلى القلم، والقلم مَلَك يُؤدّي إلى اللّوح، واللّوح مَلَكٌ يُؤدّي إلى إسرافيل، وإسرافيل يُؤدّي إلى ميكائيل، وميكائيل يُؤدّي إلى جَبْرئيل، وجَبْرئيل يُؤدّي إلى الأنبياء والرُّسل عليهم السلام»[1].

وعنه عليه السلام: «وأمّا ﴿ن﴾ فكان نهراً في الجنّة أشدّ بياضاً من الثّلج وأحلى من العسل ...»[2] الخبر.

أقول: ويُمكن أن يُؤوّل إلى ما ذكرنا قول من قال إنّه آخر كلمة (الرحمن) كما أنّه لا يُنافي كونه اسماً للنبي صلى الله عليه وآله من أسماء الله كما عليه بعضٌ، ثمّ أكد سبحانه المخبر بالقسم على عادة الخلق بقوله تعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ وهو مطلق ما يُكتَب به على قول، والحَلْف به لشرافته بسبب كَثْرة فوائده، كما قال سبحانه: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ والقلم الخاصّ الذي قال ابن عباس: أوّل ما خلق الله القلم، ثمّ قال له: اكتُب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، فجرى القلم بما هو كائنٌ إلى أن تقوم الساعة من الآجال والأعمال قال: وهو قلمٌ من نُورٍ طوله كما بين السماء والأرض[3].

أقول: يمكن أن يكون المراد من الكتابة إيجاد صور الموجودات في عالم الملكوت من أصلٍ واحدٍ، وهو نور النبي صلى الله عليه وآله، وبملاحظة اتحاده مع نور علي عليه السلام.

روى بعض العامة أنّ علياً عليه السلام قال على رؤوس الأشهاد: «أنا نقطة باء بسم‌الله، أنا جنب الله الذي فرطتم فيه، أنا القلم، أنا اللّوح المحفوظ، وأنا العرش، وأنا الكُرسيّ، وأنا السماوات السبع والأرضون»[4].

ثمّ ثنّى سبحانه القسم مبالغة في التأكيد بقوله: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ويكتُبون أهل القلم من الملائكة السماوية والأرضية في كلّ كتابٍ ولوحٍ، أو القلم الخاص في اللّوح المحفوظ، وإتيان صيغة الجمع للتعظيم.

مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ[٢]

ثمّ ذكر سبحانه المقسم عليه بقوله: ﴿مَا أَنتَ﴾ يا حبيبي محمد ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وبسبب عقلك الكامل ورسالتك العامة التي أعطاكها إلهك اللطيف بك، أو بدلالة عقلك الكامل وسيرتك المرضية

---

١. معاني الأخبار: ١/٢٣، تفسير الصافي ٥: ٢٠٧.
٢. علل الشرائع: ٢/٤٠٢، تفسير الصافي ٥: ٢٠٧.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٧٨.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ١٠٣.

وبراءتك من كلّ عيبٍ واتّصافك بكلّ مَكْرُمة ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ لوضوح منافاة هذه الصفات الكمالية لهذه النسبة الشنيعة.

عن ابن عباس رضوان الله عليه: أنّ النبي ﷺ غاب عن خديجة إلى حِراء، فطلبته فلم تجده، فاذا به ووجهه متغيّرٌ بلاغُبار، فقالت له: مالك؟ فذكر نزول جَبْرَئيل عليه، وأنّه قال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾[1] وهو أوّل ما نزل من القرآن. قال: «ثمّ نزل بي إلى قرار الأرض، فتوضّأ وتوضّأت، ثمّ صلّى وصلّيت معه ركعتين، وقال: هكذا الصلاة يا محمد» فذهبتْ خديجة إلى وَرَقة بن نَوفل، وهو ابن عمّها، وكان قدْ خالف قريش في الدين، ودخل في دين النصرانية، فسألته فقال: ارسلي إليّ محمداً فأرسلته، فلمّا أتاه قال: هل أمرك جَبْرئيل أن تدعو أحداً؟ قال: «لا» فقال: والله لئن بقيت إلى دعوتك لأنصرنّك نصراً عزيزاً. ثمّ مات قبل دعاء الرسول ﷺ ووقعت تلك الواقعة في ألسنة قريش، فقالوا: إنّه مجنون، فاقسم الله على أنّه ليس بمجنون، وهو خمس آيات من أول هذه السورة[2].

وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ[٣و ٤]

ثمّ سلّى سبحانه رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ﴾ يا محمد بإزاء صبرك على أذى قومك وتحمُّلك أعباء الرسالة ﴿لَأَجْراً﴾ عظيماً وثواباً جسيماً ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ومنقوصٍ، وعطاءً غير مجذوذٍ ومقطوعٍ. وقيل: يعني بغير واسطة يَمُنّ عليك بإيصاله إليك، أو بغير أن يتكدّر عليك بسبب المِنّة لأنّه ممّا تستحقّه بعملك، وليس من التفضّل الابتدائي[3].

في بيان خلق الرسول ﷺ

﴿وَإِنَّكَ﴾ بنعمة ربّك وتفضّله عليك ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ﴾ ودينٍ ﴿عَظِيمٍ﴾ الشأن عند الله، وهو الاسلام. عن الباقر عليه السلام: «يقول: على دينٍ عظيم» وفي رواية: «هو الاسلام»[4] فانّ فيه جميع مكارم الأخلاق، والتنزّه عن كلّ مساوئها بحيث لايُدانيه دينٌ وأنت ملتزمٌ به مسؤول عليه، لايفوتك شيءٌ منه، ولذا فُقت سائر الأنبياء والرسل في الكمال والمعارف وحُسن الأخلاق والأعمال.

رُوي أنّه قيل لعائشة: أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ. قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قالت: فإنّه كان خلق رسول الله. وسُئلت مرّة أُخرى فقالت: كان خلقه القرآن. ثمّ قرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى عشر آيات[5].

---

١. العلق: ١/٩٦. ٢. تفسير الرازي ٣٠: ٧٩.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ١٠٥. ٤. معاني الأخبار: ١/١٨٨، تفسير الصافي ٥: ٢٠٨.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ٨١، والآية من سورة المؤمنون: ١/٢٣.

عن الصادق عليه السلام: «أنّ الله عز وجل أدّب نبيّه صلى الله عليه وآله فأحسن تأديبه، فلمّا أكمل له الأدب قال: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[١].

عن (البصائر) مقطوعاً: «أنّ الله أدّب نبيّه فأحسن تأديبه، فقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ﴾[٢] فلمّا كان ذلك، أنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾»[٣].

وعن عائشة قالت: ما كان أحدٌ أحسن خُلقاً من رسول الله صلى الله عليه وآله، ما دعاه أحدٌ من أصحابه ولا من أهل بيته إلّا قال صلى الله عليه وآله: «لبيك»[٤].

وعن أنس قال: خدمت رسول الله صلى الله عليه وآله عشر سنين، فما قال لي في شيءٍ فعلته: لم فعلت، ولا في شيءٍ لم أفعله: هلّا فعلت[٥]!

وقيل: إنّه لم ينحرف عن بلاء، ولم ينصرف عن عطاء[٦].

وقيل: كيف لايكون خلقه عظيماً وقد تجلّى الله فيه بأنوار أخلاقه[٧].

فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ[٥ـ٩]

ثمّ لمّا وعد سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله أفضل الأجر، ومدحه بأكرم الأخلاق، ذمّ معانديه ومكذّبيه بقوله: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ يا محمد، وعن قريب‌ترى ﴿وَ﴾ المشركون ﴿يُبْصِرُونَ﴾ في الدنيا كما قيل، أو في الآخرة[٨] حين نزول العذاب عليهم ﴿بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ وابتلاء بالجنون، أبك وبفرق المؤمنين، أم بفرق الكافرين والمكذّبين؟ فانّ المجنون هو الذي هام في تِيه الضّلال، وابتلى نفسه بالعذاب والنّكال، ومن الواضح ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾ من كلّ أحدٍ ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وانحرف ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ المُؤدّي إلى سعادة الدارين ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ إلى سبيله الناجين من كلّ هَلَكةٍ وعذابٍ، الفائزين بكلّ خيرٍ وصوابٍ.

فاذا تبيّن أنّ أعداءك في ضلال ﴿فَلَا تُطِعِ﴾ يا محمد، ولاتجب ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ في سؤالهم منك الإعراض عن الدين الحقّ، والدخول في دين آبائك المشركين باعتقادهم وزعمهم، ودُم على ما أنت عليه من التوحيد وعبادة الله، وتشدّد عليهم مع قلّة أنصارك وأصحابك، وإن عارضوك بأجمعهم مع

---

١. الكافي ١: ٤/٢٠٨، تفسير الصافي ٥: ٢٠٨.
٢. الأعراف: ١٩٩/٧.
٣. بصائر الدرجات: ٣/٣٩٨، تفسير الصافي ٥: ٢٠٨.
٤ و٥. تفسير الرازي ٣٠: ٨١
٦ و٧. تفسير روح البيان ١٠: ١٠٧.
٨. تفسير الرازي ٣٠: ٨٢

كثرتهم أشدّ المعارضة، فإنّا ناصروك وخاذلوا أعدائك قيل: إنّ هذه السورة من أوائل ما نزل[١].

إنّهم ﴿وَدُّوا﴾ وأحبّوا ﴿لَوْ تُدْهِنُ﴾ هؤلاء الكَفَرة وتلين معهم، وتصانعهم[٢] بأن تترُك بعض ما أنت عليه من سبّ آلهتهم والنهي عن عبادتها ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ ويصانعوك[٣] بأن لا يذُمّون دينك ويلاينون في مكالمتك.

وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ * هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ[١٠-١٦]

ثمّ إنّه تعالى بعد نهي نبيّه ﷺ عن موافقة آراء رؤساء المشركين، نهاه عن اتّباع رأي بعضهم المذموم بأقبح الذمائم بقوله: ﴿وَلاَ تُطِعْ﴾ ولاتتّبع ﴿كُلَّ حَلاَّفٍ﴾ وكثير اليمين في الحقّ والباطل وفي الكذب ﴿مَهِينٍ﴾ وحقيرٍ بين الناس لكثرة كذبه وحلقه عليه، فانّ من حقر الله بعصيانه وكثرة الحَلْف به، حقّره الله في الدنيا والآخرة ﴿هَمَّازٍ﴾ وعيّابٍ للناس، طعّانٍ عليهم، أو كثير الذكر لهم بما يكرهونه ﴿مَشَّاءٍ﴾ بينهم ﴿بِنَمِيمٍ﴾ وكثير السعي في السّعاية، نقّالٍ للحديث من أحدٍ إلى أحدٍ للافساد بينهما، وفي الحديث: «لايدخُل الجنّة نمّام»[٤].

﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ وبخيلٍ لامال، أو كثير المنع للناس من الإيمان وطاعة الله والإنفاق ﴿مُعْتَدٍ﴾ وظالمٍ للناس، أو متجاوز عن الحدّ في سوء الأعمال والأخلاق ﴿أَثِيمٍ﴾ وكثير الإقدام في العصيان ﴿عُتُلٍّ﴾ وغليظ القلب والطبع وعن ابن عباس رضوان الله عليه: قويّ ضخيم[٥].

وقيل: واسع البطن[٦] وثيق الخلق[٧] وقيل: الفاحش الخلق اللئيم النفس[٨]. وقيل: الأكول [أو] الحافي الغليظ[٩].

﴿بَعْدَ ذٰلِكَ﴾ المذكور من القبائح ﴿زَنِيمٍ﴾ ومُلحَق بقومٍ في النسب وليس منهم، وهو أقبح القبائح في العرب. وقيل: هو المعروف بالشرّ كما يُعرَف الشاة بالزَّنَمة، وهي ما يُقْطَع من أُذنها فيُدلّى[١٠] منها. وقيل: إنّه ولد الزنا[١١].

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٨٣

٢. في النسخة: وتصابقهم.

٣. في النسخة: ويصابقونك.

٤. تفسير روح البيان ١٠: ١١١.

٥ و٦. تفسير الرازي ٣٠: ٨٤ وفيه: قويّ ضخم.

٧. تفسير الرازي ٣٠: ٨٤ وفي النسخة: وبنو الحلقوم.

٨ و٩. تفسير الرازي ٣٠: ٨٤

١٠. تفسير الرازي ٣٠: ٨٤ و٨٥

١١. تفسير الرازي ٣٠: ٨٥ تفسير روح البيان ١٠: ١١٢.

قيل: لم يُعلَم أنّ الله وصف أحداً ولاذكر من عيوبه مثل ما ذكر للوليد بن المُغيرة من العيوب، وكان الوليد دعيّاً في قريش وليس من نسبهم[١]. قيل: ادّعاه أبوه المُغيرة بعد ثماني عشرة سنة من مولده[٢].

قيل: نزلت الآيات في الوليد بن المُغيرة، فلمّا تلا رسول الله ﷺ الآيات في مجمع قريش وفيهم الوليد، وجد الوليد جميع العيوب في نفسه إلّا الولادة من زنا، وقال في نفسه: أنا سيد قريش، وأبي كان معروفاً، وأعلم أن محمداً لايكذِب فأخذ بسيفه وجاء إلى اُمّه، وقال لها: ما قصّة ولادتي؟ فلمّا أبلغ في تهديدها قالت: كان أبوك غير راغبٍ في النساء، وكان له بنو أخيه ينتظرون موته، ويطمعون في ميراثه، فثقل عليّ ذلك، فاستأجرت عبداً فراودته عن نفسي، فاحتبلت منه فولدتك[٣].

وعن علي عليه السلام: «الزنيم: هو الذي لاأصل له»[٤]. وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل عن قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ فقال: «العتلّ عظيم الكفر، والزنيم: المستهتر بكفره»[٥].

وعن (المجمع) أنّ النبي ﷺ سئل عن العُتلّ الزّنيم فقال: «هو الشديد الخلق، الشحيح[٦]، الأكول الشروب، الواجد للطعام والشراب، الظلوم للناس، الرّحب الحلقوم»[٧].

وعنه عليه السلام قال: «لايدخُل الجنّة جَوّاظ ولاجعظري ولاعُتلّ زَنيم» قيل: فما الجوّاظ؟ قال: «كلّ جمّاعٍ منّاعٍ» قيل: فما الجعظري؟ قال: «الفظّ الغليظ» قيل: فما العُتلّ الزّنيم؟ قال: «رحب الجوف، سيء الخُلق، أكول شروب، غشوم ظلوم»[٨].

وعن القمي، قال: الحلّاف: الثاني، حَلَف لرسول الله ﷺ أن لا ينكُث عهده ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ قال: كان يَنِمّ على رسول الله ﷺ ويهمِز بين أصحابه ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ﴾ قال: الخير أمير المؤمنين عليه السلام ﴿مُعْتَدٍ﴾ قال: اعتدى عليه ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ قال: العُتُلّ: العظيم الكفر، والزَنيم: الدَّعيّ[٩].

قيل: كان للوليد عشرة بنين وأموال كثيرة، كان له بُستان بالطائف، وتسعة آلاف مثقال من فِضّة[١٠]، فلامه سبحانه بقوله تبارك وتعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ قيل: إنّ التقدير كَفَر بالله لأجل أن كان ذا مالٍ وبنين[١١]، مع أنّ حقّه الشُّكر وليس الكفر والعِصيان جزاء نِعمه وقيل: إنّ المعنى لاتُطِع من كان له هذه المطاعن والمثالب، لأجل أن كان ذامالٍ وبنين[١٢]، ومن كفره أنه ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ القرآنية

---

١ و٢. تفسير الرازي ٣٠: ٨٥، تفسير روح البيان ١٠: ١١٢.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ١١٢.
٤. مجمع البيان ١٠: ٥٠٢، تفسير الصافي ٥: ٢١٠.
٥. معاني الأخبار: ١/١٤٩، تفسير الصافي ٥: ٢٠٩.
٦. في النسخة: المفتحج، وفي تفسير الصافي: المصحاح.
٧. مجمع البيان ١٠: ٥٠٢، تفسير الصافي ٥: ٢٠٩، وفي المصدر: الرحيب الجوف، وفي الصافي: الجوف.
٨. مجمع البيان ١٠: ٥٠٢، تفسير الصافي ٥: ٢١٠.
٩. تفسير القمي ٢: ٣٨٠، تفسير الصافي ٥: ٢١٠.
١٠. تفسير روح البيان ١٠: ١١١.
١١ و١٢. تفسير الرازي ٣٠: ٨٥

﴿قَالَ﴾ تكذيباً لها: هذا المتلوّ علينا ﴿أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقَصص مُلفّقة من السابقين كقصة رُستم وإسفنديار.

ثمّ هدّده سبحانه بقوله: ﴿سَنَسِمُهُ﴾ وعن قريب نُعلّمه بعلامةٍ قبيحة ﴿عَلَى﴾ أنفه الذي هو مثل ﴿ٱلْخُرْطُومِ﴾ للفيل والخنزير. عن ابن عباس، قال: سَنَخْطِمه بالسيف، فنجعل ذلك علامةً باقيةً على أنفه ما عاش[١]، رُوي أنّه قاتل يوم بدرٍ فخُطِم بالسيف في القتال[٢]. وقيل: إنّه لم يَعِش إلى يوم بدر[٣]، والمراد سنشهره بالذكر الرديء والوصف القبيح في العالم، كما يقال لمن تَسُبّه مَسبّةً قبيحةً باقيةً: سَنَسِمُه مِيسَم سُوء، والمراد أنّه ألحق به عاراً لايُفارقه[٤].

وقيل: يعني سنُعلّمه يوم القيامة بعلامةٍ مشوّهةٍ يُعلَم بها من سائر الكَفَرة بأن تسوّد وجهه غاية التسويد، إذ كان في عداوة الرسول بالغاً أقصى المراتب، فيكون الخُرطوم كناية عن وجهه على طريق ذِكر الجُزء وإرادة الكلّ[٥].

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ ٱغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ[١٧ـ٢٨]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه أنّ الغرور بالمال والأولاد صار سبب طُغيان هذا الظالم الكافر، بيّن أنّه تعالى أنعم بهذه النّعم عليه لابتلائه واختباره، أنّه يشكُر أم يكفُر، بقوله: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ﴾ واختبرناهم بإعطائهم المال والبنين ﴿كَمَا بَلَوْنَا﴾ واختبرنا ﴿أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وقيل: إنّ المعنى إنّا كلّفناهم بالشُّكر على نِعمنا كما كلّفنا أصحاب الجنّة التي كانت ذات ثمارٍ أن يَشكُروا ويَعْطوا الفقراء حُقوقهم[٦] فكفروا.

في قضية أصحاب الجنّة

روي أنّ رجلاً من ثقيف كان مسلماً، وكان له ضَيعة بقرب صنعاء على فرسخين منها[٧] ـ وقيل: على فراسخ[٨] ـ فيها نخلٌ وزرعٌ، وكان يجعل عند الحَصاد من كلّ ما فيها نصيباً وافراً

١و٢. تفسير الرازي ٣٠: ٨٦.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ١١٣.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ٨٧.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ١١٤.
٦. تفسير الرازي ٣٠: ٨٧.
٧. تفسير أبي السعود ٩: ١٤، تفسير روح البيان ١٠: ١١٤.
٨. تفسير روح البيان ١٠: ١١٤.

للفقراء، فلمّا مات وَرِثها بنوه، ثمّ قالوا: عيالنا كثيرٌ والمال قليلٌ، ولايمكننا أن نُعطي المساكين مثل ما كان أبونا يُعطي[١].

وقيل: كانت الضيعة باليمن، وكان أصحاب الجنّة بُخلاء، وكان أبوهم يأخُذ منها قوت سنة ويتصدّق بالباقي، وكان ينادي الفقراء وقت الصِّرام، ويترُك لهم ما أخطأه المِنْجَل، وما في أسفل الأكداس، وما أخطأه القِطاف من العنب، وما بقي على البِساط الذي يُبْسَط تحت النخل إذا أُصرمت، وكان ذلك بعد رفع عيسى عليه السلام بقليل، وكان يبقى لهم مع ذلك شيءٌ كثيرٌ، ويتزوّدون به أياماً كثيرة، فلمّا مات أبوهم قال بنوه: إن فعلنا ما كان أبونا يفعل ضاق الأمر علينا ونحن أُولو عيال[٢].

وعلى كلّ تقديرٍ كان وقت ابتلائهم ﴿إِذْ أَقْسَمُوا﴾ وحين حلفوا ﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾ ويقطعنّ ثمر نخلهم وأعنابهم وزروعهم وقت كونهم ﴿مُصْبِحِينَ﴾ ودخولهم في الصباح وظُلمة الليل باقية وقبل اطّلاع الفقراء على جمعهم الثمار ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولايقولون إن شاء الله على دأب أهل الايمان ﴿فَطَافَ﴾ على الجنّة ونزل ﴿عَلَيْهَا﴾ في الليل ﴿طَائِفٌ﴾ وبلاءٌ محيطٌ بثمارها ﴿مِّن﴾ جانب ﴿رَّبِّكَ﴾ بحيث لم يبقَ من الثمار شيءٌ ﴿وَهُمْ﴾ في بيوتهم ﴿نَائِمُونَ﴾ وغافلون عمّا نزل بهم وبثمارهم ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ الجنّه وصارت بنزول البلاء والنار فيها ﴿كَالصَّرِيمِ﴾ ومثل الجنة التي قُطِعت واقتطفت ثمارها بالكلّ. وقيل: يعني صارت سوداء كالليل لاحتراقها بالنار[٣].

﴿فَتَنَادَوْا﴾ وصاح بعضهم ببعض لمّا قاموا من النوم وصاروا ﴿مُصْبِحِينَ﴾ وداخلين في الصباح على حسب تواعدهم وقالوا: ﴿أَنِ اغْدُوا﴾ يا إخواننا واخرُجوا في أول الصبح وأقبِلوا ﴿عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ واقتطاف ثمار ضيعتكم وجنّتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ وعازمين على قطعها وجمعها ﴿فَانطَلَقُوا﴾ وذهبوا إلى حَرْثهم ﴿وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ ويقولون بطريق السرّ لئلّا يسمع المساكين قولهم ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ﴾ الذي هو يوم جمع الثمار ﴿عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ واحدٌ فضلاً عن الكثير ﴿وَغَدَوْا﴾ ومشوا بُكرةً ﴿عَلَىٰ﴾ حال ﴿حَرْدٍ﴾ ومنعٍ شديدٍ عن الفقراء ثمار جنّتهم حال كونهم ﴿قَادِرِينَ﴾ على نفعهم بزعمهم، أو على اجتناء ثمار الجنّة بحسبانهم.

﴿فَلَمَّا﴾ دخلوا الجنة و ﴿رَأَوْهَا﴾ محترقةً مسودّةً لاثمار فيها أقبل بعضهم على بعض ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ ومنحرفون عن طريق جنّتنا ودخلنا غيرها فلما تأملوها ووقفوا على خصوصيات الجنة وعلائمها قالوا ما نحن بضالين ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ عن نفعها ممنوعون عن ثمارها ببخلنا وسوء

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٨٧

٢. تفسير روح البيان ١٠: ١١٤.

٣. تفسير الرازي ٣٠: ٨٨

قصدنا وإرادة حرمان المساكين من خير جنّتنا، فعجّل الله في حرماننا من ثمارنا ﴿قَالَ﴾ أحدهم الذي هو ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾ وأصوبهم رأياً، وأفضلهم عقلاً، وأكملهم ديناً، وأوسطهم سِناً، وأكملهم عقلاً بطريق التوبيخ ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ يا إخواني حين عزمتم على منع المساكين: ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ الله، وهلّا تُنزّهونه عن الخُلف في وعده بأنّه يرزُق عباده، وعن الكذب في إخباره بالرزق بيده يبسُط لمن يشاء ويقدِر، وليس الرزق بتدبير الخلق؟

قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ * قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْراً مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ[٢٩ ـ ٣٢]

فلمّا قال الأوسط ذلك تنبّه إخوانه واعترفوا بذنبهم و ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ وتنزّه خالقنا عن كلّ سوءٍ ونقصٍ وكذبٍ وخُلفٍ، سيما عن الظُّلم علينا بإحراق جنّتنا، بل ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ على أنفسنا بسُوء قصدنا وإرادة منع حقوق المساكين وحِرمانهم بُخلاً وشُحّاً، إذن نتوب إلى الله ونستغفره من سوء قصدنا وصنيعنا ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهم ﴿يَتَلَاوَمُونَ﴾ ويُوبّخون كلّ منهم الآخرين على ما فعلوا، و ﴿قَالُوا﴾ اعترافاً بذنبهم وتندّماً وتحسّراً: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ ويا أسفنا ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ قبل اليوم ﴿طَاغِينَ﴾ على الله ومتجاوزين عن الحدّ الذي حدّه ربّنا بمنع المساكين عن حقوقهم في أموالنا، ثمّ إنّهم بعد التّوبة والإقبال على الله أظهروا الرجاء برحمته بقولهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا﴾ ويُرجى منه ﴿أَن يُبْدِلَنَا﴾ ويُعوّضنا عن الجنة المُحترقة ﴿خَيْراً﴾ وأنفع ﴿مِّنْهَا﴾ ببركة إقبالنا إليه وتوبتنا من ذنبنا ﴿إِنَّا﴾ متوجّهون ﴿إِلَىٰ رَبِّنَا﴾ بقلوبنا ﴿رَاغِبُونَ﴾ وطالبون عفوه وخيره.

رُوي أنّهم تعاقدوا وقالوا: إن أبدلنا الله خيراً منها، لنصنعنّ كما صنع أبونا، فدعوا الله وتضرّعوا إليه، فأبدلهم الله من ليلتهم ما هو خيرٌ منها[١].

قيل: إنّ الله تعالى أوحى إلى جَبرئيل أن يقلع تلك الجنّة المُحترقة فيضعها في براري الشام، ويأخُذ من الشام جنّة فيجعلها مكانها[٢].

عن ابن مسعود: أنّ القوم لمّا أخلصوا وعرف الله منهم الصدق، أبدلهم جنّة يقال لها الحيوان، فيها عِنبٌ يحمل البغل عُنقوداً[٣].

وعن الباقر عليه السلام قال: «إنّ الرجل ليُذنِب الذنب فيدرأ عنه الرزق، وتلا هذه الآية: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا

١ـ٣. تفسير روح البيان ١٠: ١١٧.

لَيَصْرِمُنَّهَا إلى قوله وَهُمْ نَائِمُونَ﴾[١]

وعن القمي، عن ابن عباس، أنّه قيل له: إنّ قوماً من هذه الأُمّة يَزعُمون أنّ العبد قد يُذنِب الذنب فيُحرَم به الرزق. فقال ابن عباس: فوالله الذي لاإله إلّا هو، لهذا أنور في كتاب الله من الشمس الضاحية، ذكر الله في سورة ﴿ن وَٱلْقَلَمِ﴾ أنّ شيخاً كانت له جنّة، وكان لايَدخل بيته ثمرة ولا إلى منزلة حتّى يُعطي كلّ ذي حقٍّ حقّه، فلمّا قُبِض الشيخ وَرِثه بنوه، وكان له خمسٌ من البنين، فحملت جنّته في تلك السنة التي هلك فيها أبوهم حمْلاً لم تكن حملت قبل ذلك، فراحوا الفتية إلى جنّتهم بعد صلاة العصر، فأشرفوا على ثمرةٍ ورزقٍ فاضل لم يُعاينوا مثله في حياة أبيهم، فلمّا نظروا إلى الفضل طَغَوا وبَغَوا، وقال بعضهم لبعض: إنّ أبانا كان شيخاً كبيراً قد ذهب عقله وخَرِف، فهلّموا فلنتعاقد عهداً فيما بيننا أن لا نُعطي أحداً من فقراء المسلمين في عامنا هذا شيئاً حتى نستغني وتكثر أموالنا، ثمّ نستأنف الضيعة فيما نستقبل من السنين المقبلة، فرضي بذلك أربعة وسَخط الخامس، وهو الذي قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلاَ تُسَبِّحُونَ﴾.

فقيل: يابن عباس، كان أوسطهم في السنّ! فقال: لا، بل كان أصغرهم سناً وأكبرهم عقلاً، وأوسط القوم خير القوم، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾[٢].

فقال لهم أوسطهم، اتّقوا الله، وكونوا على مِنهاج أبيكم تَسْلَموا وتَغْنَموا، فبَطَشوا به وضربوه ضرباً مُبَرِّحاً، فلمّا أيقن الأخ أنهم يُريدون قتله دخل معهم في مشورتهم كارهاً لأمرهم غير طائعٍ، فراحوا إلى منازلهم. ثمّ حلفوا بالله: أن يصرِموها إذا أصبحوا، ولم يقولوا إنشاء الله، فابتلاهم الله بذلك الذنب، وحال بينهم وبين ذلك الرزق الذي كانوا أشرفوا عليه، فأخبر عنهم في الكتاب وقال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلاَ يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ قال: كالمحترق.

فقيل لابن عباس: ما الصريم؟ قال: الليل المظلم، ثمّ قال: لاضوء به ولانور.

فلمّا أصبح القوم تنادوا مصبحين ﴿أَنِ ٱغْدُوْا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ قال: ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾.

قيل: وما التخافت يابن عباس؟ قال: يتسارّون، يسارّ بعضهم بعضاً لئلّا يسمع أحدٌ غيرهم فقالوا: ﴿لَا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ وفي أنفسهم أن يصرموها، ولايعلمون ما حلّ بهم من سَطَوات الله ونَقِمته ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ وعاينوا ما حلّ بهم ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ

---

١. الكافي ٢: ١٢/٢٠٨، تفسير الصافي ٥: ٢١٢. ٢. البقرة: ١٤٣/٢.

* ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ حرمهم الله ذلّ الرزق بذنبٍ كان منهم ولم يظلِمهم شيئاً[1].

كَذٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ * أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ[٣٣ـ ٣٥]

ثمّ بالغ سبحانه في تهويل الكفّار بقوله: ﴿كَذٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ الذي نزل على أصحاب الجنّة العذاب الدنيوي الذي ينزِل على كلّ من عصى ربّه بحبس حقوق الفقراء وغيره، كحبس المطر، وإنزال الآفات على الزروع، ورفع البركة عنها، وإشاعة الأمراض، وسلب الأمنية وغيرها ﴿وَ﴾ والله ﴿لَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ وأعظم وأشدّ من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ عِظَمه لاحترزوا عن العِصيان الموجب له.

ثمّ لمّا وعد سبحانه الكفّار عذاب الآخرة، وعد المؤمنين المتّقين نِعمها بقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ في الآخرة مذخورٌ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ومليكهم اللطيف بهم ﴿جَنَّاتِ﴾ عديدة ذوات ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ الخالصة عن شَوْب ما يُنقِصها.

ثمّ قيل: لمّا نزلت الآية قال الكفّار للمسلمين: إنّ الله فضّلنا عليكم في الدنيا بالنّعم الدنيوية، فلابدّ أن يُفضلّنا عليكم في الآخرة، فان لم يكن التفضيل فلابدّ من التساوي، فنزل ردّاً عليهم[2]: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ في الآخرة ﴿كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ والكفّار العصاة، ومساوين لهم في الإنعام والإكرام؟! حاشا وكلّا.

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ * إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ * سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذٰلِكَ زَعِيمٌ * أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ[٣٦ـ ٤١]

ثمّ بالغ سبحانه في تشديد الإنكار عليهم بتلوين الخِطاب بقوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ أيّها الحُمقاء ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ هذا الحكم المستحيل وقوعه، المستعجب صدوره من عاقل؟! لاستلزامه الظُّلم على المسلمين من الله الحكيم الغني على الاطلاق ﴿أَمْ لَكُمْ﴾ أيّها الكَفَرة ﴿كِتَابٌ﴾ نازلٌ عليكم من السماء من جانب الله أنتم ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ وتقرؤون مراراً، وتتأمّلون عباراته دائماً؟! فتبيّن لكم ممّا فيه ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ وتُريدون لأنفسكم من المشتهيات ﴿أَمْ لَكُمْ﴾ مع سَخطنا عليكم

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٨١، تفسير الصافي ٥: ٢١٢.
٢. تفسير أبي السعود ٩: ١٧، تفسير روح البيان ١٠: ١١٩.

﴿أَيْمَانٌ﴾ وعهودٌ مؤكَدةٌ ثابتةٌ ﴿عَلَيْنَا﴾ وفي عُهدتنا ﴿بَالِغَةٌ﴾ ومتهيةٌ في الصحّة والتأكد واللُّزوم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ لا يجوز لنا حِنْثها ونَقْضها، ولا يُخرَج عن عُهدتها؟! وهي ﴿إِنَّ لَكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ لأنفسكم وتطلّبون منّا، فيكون علينا بهذه العهود أن نحكّمكم في ذلك اليوم، ونوافقكم فيما تأمُرون، ونُعطيكم ما تتوقّعون.

ثمّ لوّن سبحانه الخطاب عنهم إلى رسوله بقوله: ﴿سَلْهُمْ﴾ يا حبيبي مُشافهةً ﴿أَيُّهُم﴾ ومن يكون منهم ﴿بِذَٰلِكَ﴾ الحكم المخالف للعقول ﴿زَعِيمٌ﴾ وضامن لاثباته بالحجّة والبرهان؟ ﴿أَمْ لَهُمْ﴾ في ذلك الادّعاء ﴿شُرَكَاءُ﴾ يشاركونهم في الدعوى، ويُساعدونهم في هذا القول؟ ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ﴾ عندك وليُحضِروهم في مَحْضَرك حتى يقولوا بقولهم ويُصدّقوهم في دعواهم ﴿إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعوى أنّ لهم شركاء. قيل: إنّ المراد من شركائهم أصنامهم[1]، والمعني ألهم أصنام يجعلونهم مثل المسلمين في النجاة من العذاب والدُّخول في الجنّة؟!

حاصل مفاد الآيات ـ والله أعلم ـ أنّه ليس لهم دليلٌ عقليّ على التسوية بين المطيع والعاصي والمُحسِن والمسيء، ولادليل نقلي من كتاب سماوي يقرؤونه، ولاعهد مؤكّد بالأيمان، ولا من يُوافقهم من العقلاء حتّى يُقلّدوهم، مع حُكم العقل السليم على خلافه، فظهر أنّ بطلان دعواهم أظهر من الشمس في رائعة[2] النهار.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ * فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ[٤٢ـ٤٥]

ثمّ بيّن سبحانه سوء حالهم يوم القيامة بقوله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قيل: إنّ المعنى ذكرهم يا محمد يوم الشدّة وصعوبة الخَطب على الكفّار والمنافقين، فانّ كشف الساق كنايةٌ عن الوقوع في الشدّة، كما أنّ من وقع بين الخصوم الأقوياء وانغمر رجلاه في الوحل، يُشمّر ذيله ويرفع ثيابه عن ساقه، كما عن ابن عباس[3].

وقيل: إنّ المراد من الساق أصل الأمور، يعني يُكشَف عن حقائق الأمور وواقعياتها وخفيّاتها[4].

---

١. تفسير البيضاوي ٢: ٥١٧.　٢. في النسخة: رابعة.　٣. مجمع البيان ١: ٥٠٩
٤. تفسير الرازي ٣٠: ٩٥.

وقيل: يعني يُكشَف عن ساق العرش، أو عن ساق جهنّم، أو عن ساق مَلَكٍ عظيم مهيب[١].

وعلى أيّ تقدير ذلك اليوم يوم القيامة، فانّهم في ذلك اليوم يُؤمرون ﴿**وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ**﴾ لله تعنيفاً على تركهم إياه في الدنيا تكبّراً وتعظّماً وتحسّراً على تفريطهم فيه ﴿**فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ**﴾ السجود لسلب القدرة عنهم.

عن ابن مسعود: تُعقَم أصلابهم، أي تصير عظاماً لافواصل لها، فلا تُثنى للرفع والخفض، فيبقون قياماً على حالهم حتّى تزداد حسرتهم على التفريط فيه[٢].

وفي الحديث: «وتبقى أصلابهم طبقاً واحداً[٣] ـ أي فقارة واحدة ـ كأنّ سفافيد الحديد في ظهورهم»[٤].

عن الرضا عليه السلام قال: «حِجابٌ من نور يُكشَف فيقع المؤمنون سُجّداً، وتُدمج[٥] أصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود[٦] حال كونهم ﴿**خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ**﴾ متواضعةً جوارحهم ﴿**تَرْهَقُهُمْ**﴾ وتغشاهم ﴿**ذِلَّةٌ**﴾ شديدةٌ وخزيٌ فاحشٌ جزاءً لاستكبارهم في الدنيا عن السجود لله ﴿**وَ**﴾ الحال أنّهم ﴿**قَدْ كَانُوا**﴾ في الدنيا ﴿**يُدْعَوْنَ**﴾ من قبل الله بلسان الرسل ﴿**إِلَى ٱلسُّجُودِ**﴾ لله ويُؤمرون به ﴿**وَهُمْ سَالِمُونَ**﴾ أصحّاء مستطيعون له بأتمّ الاستطاعة، فاذا كان حالهم في الآخرة كذلك ﴿**فَذَرْنِى**﴾ يا نبيّ الرحمة ودَعني ﴿**وَمَن يُكَذِّبُ بِهٰذَا**﴾ القرآن الذي هو أحسن ﴿**ٱلْحَدِيثِ**﴾ وأعظم المعاجز الذي يُصدّقه كلّ عاقلٍ منصفٍ ويستدلّ به على صدق دعواك الرسالة، فانّي أكفيكهم، واعلم أنّا ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُم**﴾ ونُنزلهم في العذاب شيئاً فشيئاً ﴿**مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ ومن الجهة التي لايشعُرون أنّه بلاءٌ وعذاب.

قيل: إنّ المراد بالاستدراج توفير النِّعم. حتّى ينسوا الاستغفار، والمعنى كما قيل: كلّما جدّدوا ذنباً جددنا لهم نعمة[٧]، وأغفلناهم عن التوجه إلينا، ثمّ نأخُذهم بَغتةً.

وفي الحديث: «إذا رأيت الله يُنعِم على عبدٍ وهو مقيمٌ على المعصية، فاعلم أنه مُسْتَدرَج، وتلا هذه الآية[٨].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «من وسع عليه دنياه، وهو لايعلم أنّه قد مكر به، فانّه مخدوعٌ عن

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٩٥.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ١٢١.
٣. في تفسير روح البيان: طبعاً واحداً.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ١٢١.
٥. في النسخة: وتديح، وفي تفسير الصافي: ويدبّخ.
٦. التوحيد: ١/١٥٤، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٤/١٢١.
٧. تفسير الرازي ٣٠: ٩٦.
٨. تفسير روح البيان ١٠: ١٢٤.

عقله»[١].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم في الدنيا بإطالة أعمارهم وتأخير آجالهم، ليزدادوا إثماً، ويكون لهم أشدّ العذاب في الآخرة، واعلم ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ وتدبيري الخفيّ عنهم في إهلاكهم وازدياد عذابهم ﴿مَتِينٌ﴾ ومستحكمٌ لقوة أثره في إهلاكهم الدنيوي والأُخروي. وقيل: إنّ المعنى أنّ أخذي إياهم بالعذاب قويٌّ شديدٌ لايَدْفَع بشيءٍ[٢].

أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِن مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِن رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ[٤٦ـ ٥٠]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان سوء حال الكفار، وتهديدهم بأهوال القيامة، وتسلية النبي ﷺ بأنّه تعالى كافيهم، وأنّه معذّبهم على تكذيبهم، عاد إلى تقريعهم وتبكيتهم في عدم إيمانهم بالرسول بقوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ وتطلُب منهم على تبليغاتك عن الله ﴿أَجْراً﴾ وجعلاً مالياً ﴿فَهُم﴾ لايُؤمنون بك ﴿مِن﴾ جهة ﴿مَغْرَمٍ﴾ وضرر مالي متوجّه إليهم لأجل الايمان بك ﴿مُثْقَلُونَ﴾ ومُتحمّلون حِمْلاً ثقيلاً فيُعرِضون عنك؟ وإلّا فليس لهم عُذرٌ في الفِرار منك وعدم التسليم لرسالتك ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ واللوح المحفوظ الذي لايعلمه أحدٌ مكتوبٌ فيه أنّهم آمنون يوم القيامة من العذاب فائزون بأعلى الثواب كالمسلمين ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ويستنسخون منه ويعتمدون عليه. وقيل: يعني أم يَدّعون أنّ المغيبات حاضرةٌ في عقولهم، ولذا يكتُبون على الله ما شاؤوا وأرادوا[٣].

ثمّ إنّه تعالى بعد إبطال قول الكفّار وزجرهم عمّا يقولون، أمر رسوله بالصبر على أقوالهم الشنيعة وأعمالهم السيئة بقوله: ﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم وتأخير نُصرتك عليهم، وتبليغك الرسالة، وتحمّلك الأذى من قومك، ﴿وَلاَ تَكُن﴾ ضيق الصدر، قليل التحمّل ﴿كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ وهو يُونس النبيّ ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ ربّه في بطن الحوت بقوله: لاإله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ ومملوء غيظاً على قومه أو مغموم كما عن الباقر عليه السلام[٤]، ولا تضجر من أذى قومك كما انضجر هو فتُبتلى كما ابتلى ﴿لَوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ﴾ ووصل إليه ﴿نِعْمَةٌ﴾ ورحمة عظيمة

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ١٢٤.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ١٢٥.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٩٨.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٨٣، تفسير الصافي ٥: ٢١٥.

﴿مِن رَبِّهِ﴾ وهي توفيقه للتوبة وقبولها منه ﴿لَنُبِذَ﴾ وطُرِح في القيامة ﴿بِالْعَرَاءِ﴾ والأرض التي لاسقف لها ولا ظلّ ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ وملومٌ عند الله وعند الناس على فعله وهجرته من بين قومه وقلّة تحمّله لأذاهم.

واعلم أنّ هذا التفسير بالنظر إلى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1].

وقيل: إنّ المعنى لنُبذ من بطن الحوت في هذه الدنيا بالعراء، في حال كونه مذموماً، ولكن لمّا تاب نُبِذ وطُرِح من بطن الحوت بالعراء ممدوحاً غير مذموم[2].

﴿فَاجْتَبَاهُ﴾ واصطفاه ﴿رَبُّهُ﴾ بعد الخروج من بطن الحوت للرسالة إلى قومه، كما كان كذلك قبل دخوله في بطنه.

عن ابن عباس: ردّ الله عليه الوحي وشفّعه في قومه[3] ﴿فَجَعَلَهُ﴾ برحمة ﴿مِنَ﴾ الأنبياء ﴿ٱلصَّالِحِينَ﴾ والمعصومين من ارتكاب خلاف الأولى.

روى بعض العامة: أنّها نزلت في أُحد حين همّ رسول الله ﷺ أن يدعو على المنهزمين[4]. وقيل: حين أراد أن يدعو على ثقيف[5].

وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ[٥١ و ٥٢]

ثمّ إنّه تعالى بعدما أمر نبيّه ﷺ بالصبر على أذى قومه، بيّن شدّة عداوتهم وغضبهم على الرسول حين تلاوته القرآن العظيم بقوله: ﴿وَإِن يَكَادُ﴾ وقد يقرُب ﴿ٱلَّذِينَ﴾ عاندوك ﴿كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ﴾ ويَصْرَعونك ﴿بِأَبْصَارِهِمْ﴾ غضباً عليك ﴿لَمَّا سَمِعُوا﴾ منك ﴿ٱلذِّكْرَ﴾ وتلاوة القرآن.

رُوي أنّه كان في بني أسد عيّانون، وكان الواحد منهم إذا أراد أن يُصيب شيئاً بعينه يتجوّع له ثلاثة أيام، ثمّ يتعرّض له، ويقول: تالله ما رأيت أحسن من هذا، فيتساقط ذلك الشيء، وكان الرجل منهم ينظُر إلى الناقة السمينة أو البقرة السمينة ثمّ يعتنيها، ثمّ يقول للجارية: خُذي المِكْتَل والدِّرْهَم فأتينا بلحمٍ من لحم هذه، فما تبرَح حتى تقع فتُنحَر، ولا يمرّ بشيءٍ فيقول فيه: لم أر كاليوم مثله إلّا عانه، وكان سبباً لهلاكه وفساده، فسال بعض كفّار قريش من بعض من كانت له هذه الصفة أن يقول في

---

١. الصافات: ١٤٣/٣٧ و١٤٤.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٩٩.
٣ -٥. تفسير الرازي ٣٠: ٩٩.

رسول الله ﷺ: مارأيت مثله ولا مثل حُججه، فعصمه الله[1] بهذه الآية.

وقيل: إن زلقه بالأبصار كنايةٌ عن شدّة الغضب، والمعنى أنّهم من شدّة عداوتهم لك ينظُرون إليك نظر الغضبان بمؤخّر عيونهم، بحيث يكادون يُزلّون قدمك ويَصْرَعونك وقت سَماعهم القرآن[2] ﴿وَيَقُولُونَ﴾ لإخوانهم حين رُؤيتك: ﴿إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ وفاسد العقل، تنفيراً للناس عنه، وتوهيناً له، وقد عَلِموا كلّهم أنّه أعقل الناس.

وقيل: إنّ المعنى أنّ محمداً معه جِنّ يُعلّمه القرآن[3] ﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿مَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وعِظةٌ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من الإنس والجنّ، وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من اُمور دينهم ودنياهم، فأين من أنزل عليه ذلك وهو مُطّلع على أسراره وحقائقه ودقائقه ممّا قالوا في حقّه من الجنون؟ فكيف ينسِبونه إليه وليس ما قالوا إلّا من غاية الحُمق والجَهالة؟

عن الصادق عليه السلام: أنّه مرّ بمسجد الغدير، فنظر إلى ميسرة المسجد فقال: «ذاك موضع قدم رسول الله ﷺ حيث قال: من كنت مولاه فعليّ مولاه» ثمّ نظر إلى الجانب الآخر فقال: «ذاك موضع فُسطاط أبي فلان وفلان وسالم مولى حُذيفة وأبي عبيدة، فلمّا أن رأوه رافعاً يده قال بعضهم لبعضٍ: انظروا إلى عينيه تدوران كأنّهما عينا مجنون، فنزل جَبْرئيل بهذه الآية»[4].

أقول: يمكن حمل نزول جَبْرئيل بها في ذلكالوقت على نزوله بها مرة ثانية.

وعن القمي: ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ قال: لمّا أخبرهم رسول الله ﷺ بفضل أمير المؤمنين عليه السلام [قالوا: هو مجنون] قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ﴾ يعني أميرالمؤمنين عليه السلام ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[5].

عن الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾ في فريضةٍ أو نافلةٍ، آمنه الله عزّ وجلّ من أن يُصيبه فَقرٌ أبداً وأعاذه الله إذا مات من ضَمّة القبر»[6].

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ١٢٧.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ١٢٧.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ١٣٠.
٤. الكافي ٤: ٢/٥٦٦، من لايحضره الفقيه ٢: ١٥٥٨/٣٣٥، تفسير الصافي ٥: ٢١٦.
٥. تفسير القمي ٢: ٣٨٣، تفسير الصافي ٥: ٢١٦.
٦. ثواب الأعمال: ١١٩، مجمع البيان ١٠: ٤٩٦، تفسير الصافي ٥: ٢١٦.

في تفسير سورة الحاقة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْـحَاقَّةُ * مَـا ٱلْـحَاقَّةُ * وَمَـا أَدْرَاكَ مَـا ٱلْـحَاقَّةُ * كَـذَّبَتْ ثَـمُودُ وَعَـادٌ بِالْقَارِعَةِ[١ ـ ٤]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة القلم المتضمّنة لتجليل الرسول ﷺ وإبطال نسبة الجنون إليه، وبيان نـزول العذاب الدنيوي على مانعي حُقوق الفقراء، وبيان أن العذاب الدنيوي كذلك، وعذاب الآخرة أكبر، وبيان شدّة عداوة الكفّار للرسول ﷺ وانضجارهم من استماع القرآن مع أنّه ذكرٌ للعالمين، نُظِمت سورة الحاقّة المتضمّنة لكثيرٍ من العذاب الدنيوي النازل على الأُمم، وبيان عـظمة عـذاب الآخـرة، وشدّة عداوة الكفّار للنبي ﷺ، ونسبة الكِهانة والشعر إليه، وإبطال هاتين النسبتين، وأن القرآن تنزيلٌ من ربّ العالمين، وبيان عَظَمة يوم القيامة، وذكر بعض أهوالها وشدائدها، إلى غير ذلك من وجوه التناسب بين السورتين المباركتين، ثمّ افتتحها سبحانه بـذكر الأسـماء الحسـنى بـقوله: ﴿بِسْـمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بذكر عَظَمة يوم القيامة بقوله: ﴿ٱلْحَاقَّةُ﴾ وإنّما سمّي يوم القيامة بالحاقة لأنّه يحِق وقوعه ويجب، أو يحِق فيه جزاء الأعمال، أو تحِقّ فيه الأمور وتُعرَف حقائقها، أو تحِقّ فيه كلمة العذاب.

ثمّ بالغ في التهويل وتفخيم فَظاعته بقوله: ﴿مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ وأيّ شيءٍ هي فـي العَـظَمة والفَـظاعة؟ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وما أعلمك ﴿مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾ وأيّ يومٍ هي؟ فانّها خارجةٌ عن دائرة علم المخلوق، كيفما قدّر عِظَمها كانت أعظم منه، ومع ذلك ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبيلة ﴿ثَمُودُ وَعَادٌ﴾ بهذا اليوم الذي يُسمّى أيضاً ﴿بِالْقَارِعَةِ﴾ لأنّها تقرَع الناس وتُصيبهم بالأفزاع والأهوال والعذاب، والسماء بـالانشقاق، والأرض والجبال بالدكّ[1] والنسف، والنجوم بالطَّمْس والانكدار.

---

١. في النسخة: بالباد، والتصحيح من تفسير روح البيان ١٠: ١٣١.

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ[٥ـ٧]

ثمّ بيّن سبحانه ما نزل على المكذّبين للقيامة من العذاب بقوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا﴾ لتكذيبهم بهذا اليوم ﴿بِالطَّاغِيَةِ﴾ والصيحة المتجاوزة عن حدّ الصيحات في الشدّة[1] فأرجفت الأرض وتقطّعت منها القلوب ﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾ الذينهم أشدّ طُغياناً وعُتوّاً من ثمود ﴿فَأُهْلِكُوا﴾ لتكذيبهم مع كمال قوّتهم ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ وباردة أو شديدة الصوت ﴿عَاتِيَةٍ﴾ ومتجاوزة عن الحدّ في الشدّة والعَصْف، كأنّها عتت على خُزّآنهاولم يتمكّنوا من ضبطها ﴿سَخَّرَهَا﴾ الله وأرسلها بقدرته القاهرة إلى قوم عاد، وسلّطها ﴿عَلَيْهِمْ﴾ غضباً وانتقاماً منهم ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ﴾ حال كون تلك الرياح ﴿حُسُوماً﴾ ومتواليات ومتتابعات، وما خفّف هبوبها تلك المدّة ساعة حتّى أهلكتهم، أو نحسات حَسَمت كلّ خيرٍ، أو قاطعات حيث قَطَعت دابر القوم ﴿فَتَرَى﴾ يا محمد، أو أيّها الرائي إن كنت حاضراً حينئذٍ ﴿الْقَوْمَ﴾ جميعهم مع كمال قوتهم وعِظَم أجسامهم ﴿فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ ومطروحين على الأرض ميتين ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في عِظَم الأجسام وطولها وعدم الحركة لها ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ وأصولها المقطوعة حال كونها ﴿خَاوِيَةٍ﴾ ومجوّفة. قيل: كانت الريح تدخُل من أفواههم، ويخرُج مافي أجوافهم من أدبارهم[2].

فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِن بَاقِيَةٍ * وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ[٨ـ١٢]

ثمّ بالغ سبحانه في بيان هلاكة جميعهم بقوله: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ﴾ أيها الرائي ﴿لَهُم مِن﴾ نفس ﴿بَاقِيَةٍ﴾ حيّة، أو من بقية من ذَكَر أو أُنثى، أو كبير أو صغير؟ لاوالله لاترى منهم أحداً ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ﴾ موسى ﴿وَمَن﴾ كان ﴿قَبْلَهُ﴾ وتقدّمه من الكفّار ﴿وَ﴾ أهل القرى ﴿الْمُؤْتَفِكَاتُ﴾ والمنقلبات، وهي قرى قوم لُوط وأتوا[3] ﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ والمعصية العظيمة، أو الأفعال السيئة العظيمة كتكذيب البعث ﴿فَعَصَوْا﴾ كلّهم ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ حين نُهوا عمّا كانوا عليه من القبائح ﴿فَأَخَذَهُمْ﴾ الله بذنوبهم وكفرهم وتكذيبهم البعث وابتلائهم بالعقاب ﴿أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ وعقوبةً زائدةً في الشدّة على عقوبات

---

١. في النسخة: الشديدة.   ٢. تفسير روح البيان ١٠: ١٣٤.   ٣. في النسخة: والوا.

سائر الكَفَرة، أو على القدر المتصوّر عند الناس، لزيادة عِصيانهم على عِصيان غيرهم، كغرق أهل العالم، وتقليب سبع بلاد[١]، وإمطار الحجارة عليهم.

ثمّ أشار سبحانه إلى قصة قوم نوح بقوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَاءُ﴾ وتجاوز عن الحدّ حتى عَلا كلّ شيءٍ في الأرض، وارتفع على الجبال، أو طغى على خُزّانه ولم يقدِروا على ضبطه ﴿حَمَلْنَاكُمْ﴾ يا بني آدم ﴿فِى﴾ السفينة ﴿ٱلْجَارِيَةِ﴾ السائرة على الماء، وإنّما كان غرق الكفّار ونجاة المؤمنين ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿تَذْكِرَةً﴾ وعِظةً ودليلاً واضحاً على قدرتنا وغضبنا على الكفر وتكذيب الرسل ﴿وَتَعِيَهَا﴾ وتَحْفَظها ﴿أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ وحافظةٌ ما هو نافع لصاحبها بتذكّره والتفكّر فيه، فانّ من تفكّر في غَرَق أهل الأرض بالطُّوفان الذي علا على الجبال الشوامخ خمسة عشر ذراعاً وإنجاء المؤمنين في السفينة، عَلِمَ أنّ للعالم مدبّراً قادراً حكيماً رحيماً بمن وجده منتقماً بمن أنكره وكذّب رُسُله.

في ذكر فضيلة أمير المؤمنين عليه السلام

روى الفخر الرازي وغيره من العامة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي عليه السلام حين نزلت الآية: «سئلت الله تبارك وتعالى أن يجعلها اُذنك يا علي» قال علي صلوات الله عليه: «فما نسيتُ شيئاً بعد ذلك، وما كان لي أن أنسى»[٢].

وفي رواية ذكرها النقّاش: أخذ صلى الله عليه وآله بأذن عليّ بن أبي‌طالب عليه السلام وقال: «هي هذه»[٣].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ * يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ[١٣ـ٢٤]﴾

ثمّ شرع سبحانه وتعالى في بيان الحاقّة، وكيفية وقوعها عَقيب بيان عِظَم شأنها وإهلاك مكذّبيها

---

١. كذا، والظاهر: سبع بلدات، أو سبع مدائن.

٢. تفسير الرازي ٣٠: ١٠٧، تفسير الطبري ٢٩: ٣٥، الكشاف ٤: ٦٠٠، الدر المنثور ٨: ٢٦٧، تفسير روح البيان ١٠: ١٣٦.

٣. تفسير روح البيان ١٠: ١٣٦.

بقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ وقد مرّ بيان الصُور والنفخ فيه ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أولية ﴿وَحُمِلَتِ﴾ وقُلِعت ﴿ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ من أماكنهما بالقدرة الإلهية، أو بالزلزلة ﴿فَدُكَّتَا﴾ وضُرِبتا: يعني كلاً بالآخر ﴿دَكَّةً﴾ وضربةً ﴿وَاحِدَةً﴾ فتسير الجبال بها كثيباً مهيلاً، والأرض هَباءً منثوراً ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ وحينئذٍ ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ العظيمة، ونزلت النازلة الهائلة الفظيعة، وهي على ما قيل صيحة القيامة[1] ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَاءُ﴾ وانفرجت لنزول الملائكة إلى الأرض ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ﴾ وفي تلك الوقت ﴿وَاهِيَةٌ﴾ مسترخيةٌ غير متماسكةٍ كالعِهْن المَنْفُوش ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ الذي يسكُن في السماء يقفون بعد انشقاقها ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ ونواحيها وأكنافها.

قيل: إنّ الملائكة يقفون في حافات السماء لحظةً ثمّ يموتون لقوله: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2] ويُحتَمل أنّ وقوفهم بعد موتهم وإحيائهم، ويُحْتَمل كون الواقفين المستثنون بقوله: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ ٱللَّهُ﴾[3].

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾ وهو على ما قيل الفلك التاسع[4]، وهو أعظم خلق خلقه الله، وبه تُحَدَّد الجهات ﴿فَوْقَهُمْ﴾ قيل: يعني فوق الملائكة الذين هم على أطراف السماء، أو فوق الحَمَلة[5] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت ﴿ثَمَانِيَةٌ﴾ أملاك.

عن النبي ﷺ: «هم اليوم أربعة، فاذا كان يوم القيامة أيّدهم الله بأربعة أُخرى»[6].

ورُوي أنّهم ثمانية أملاك أرجلهم في تُخوم الأرضين السابعة، والعرش فوق رؤوسهم، كلّهم مُطرِقون مُسبّحون[7].

أقول: ومن التخرّص بالغيب قول بعض علماء العامة: الأربعة اللاحقة الأئمة الأربعة: أبوحنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد[8].

وعن الصادق عليه السلام قال: «حَمَلة العرش ـ والعرش العِلم ـ ثمانية: أربعة منّا، وأربعة ممّن شاء الله»[9].

وعن القمي قال: حَمَلة العرش ثمانيه، لكلّ واحدٍ منهم ثمانية أعين، كلّ عينٍ طباق الدنيا[10].

قال: وفي حديث آخر قال: «حملة العرش ثمانية: أربعة من الأولين، وأربعة من الآخرين، فأما

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ١٣٧.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ١٠٨، تفسير روح البيان ١٠: ١٣٨، والآية من سورة الزمر: ٦٨/٣٩.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٠٨، تفسير روح البيان ١٠: ١٣٨، والآية من سورة الأنعام: ١٢٨/٦.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ١٣٨.
٥. تفسير أبي السعود ٩: ٢٤، تفسير روح البيان ١٠: ١٣٩.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ١٣٩.
٧ و٨ تفسير روح البيان ١٠: ١٣٩.
٩. الكافي ١: ٦/١٠٢، تفسير الصافي ٥: ٢١٩.
١٠. بحار الأنوار ٥٨: ٤٣/٢٧، وتفسير الصافي ٥: ٢١٩، عن تفسير القمي.

الأربعة من الأولين: فنوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وأمّا من الآخرين: فمحمد، وعلي، والحسن، والحسين عليهم السلام». ومعني يحمِلون العرش: يحمِلون العلم[1].

أقول: يُمكن أن يكون هذا الحديث تأويل الآية، فيكون المعنيان صحيحين.

﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ أنتم أيّها الناس ﴿**تُعْرَضُونَ**﴾ على الله للسؤال والحساب، كما يُعرَض العسكر على السُّلطان لتعرف أحوالهم ﴿**لاَ تَخْفَىٰ**﴾ على الله ممّا صدر ﴿**مِنكُمْ**﴾ في الدنيا فِعلةٌ ﴿**خَافِيَةٌ**﴾ ومستورةٌ من الغير، وكذا كلّ نيةٍ وسريرةٍ، فيظهر في ذلك اليوم جميع الضمائر والسرائر على جميع الخلق، فيكمُل بذلك سرور المؤمنين المخلصين، ويفتضح الكفار والمنافقين، ومع ذلك تتطاير صُحف الأعمال، ويُعطي كلّ أحدٍ كتابه بيده ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ**﴾ وأُعطي ﴿**كِتَابَهُ**﴾ وصحيفة عمله التي كتبتها الملائكة الحَفَظة ﴿**بِيَمِينِهِ**﴾ تعظيماً له ﴿**فَيَقُولُ**﴾ فرحاً وسروراً لمحبّيه من المؤمنين: ﴿**هَاؤُمُ**﴾ وخُذوا، أو هلمّوا يا إخواني المؤمنين وأقربائي وأحبّائي ﴿**اَقْرَؤُا كِتَابِيَهْ**﴾ وانظُروا ما فيه من البشارة بالنجاة من النار والدخول في الجنّة ﴿**إِنِّي ظَنَنتُ**﴾ في الدنيا ﴿**أَنِّى مُلاَقٍ**﴾ يوم القيامة ﴿**حِسَابِيَهْ**﴾ وإن احتملت أنّ الله لا يُحاسبني ويُدخلني الجنّة بغير حساب لشدّة رجائي بكرمه.

وقيل: إنّ الظنّ هنا بمعني اليقين[2]، والمعنى أيقنت أنّي أبعثُ يوم القيامة وأُلاقي حساب أعمالي، فتهيّأت لهذا اليوم ﴿**فَهُوَ**﴾ بفضل الله وبكرمه يستقرّ ﴿**فِى عِيشَةٍ**﴾ هنيئة وحياة ﴿**رَاضِيَةٍ**﴾ مرضية صافية عن الكُدورة مقرونة بالنِّعم والراحة والكرامة، أعني أنّه متمكّن ﴿**فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ**﴾ مرتفعة الدرجات والقصور والأشجار التي ﴿**قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ**﴾ وقريبة ممّن يُريدها ينالها قائماً وقاعداً ومضطجعاً بيده من غير تعب. وقيل: لاينتظر إدراكها[3].

ويقال لهم ﴿**كُلُوا**﴾ ممّا شئتم من الثّمار بلامنع ﴿**وَآشْرَبُوا**﴾ من أنهار الخمر والعسل واللَّبن وماء غير آسن ﴿**هَنِيئاً**﴾ وسائغاً لكم ﴿**بِمَا أَسْلَفْتُمْ**﴾ وقدّمتم من الأعمال الصالحة ﴿**فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ**﴾ والأزمنة الماضية من زمان عمر في الدنيا. وقيل: في أيام صومكم[4].

روي انّه يقول الله: يا أوليائي طالما نظرت إليكم في الدنيا وقد قَلَصت شفاهكم عن الأشربة وغارت عيونكم وخمصت بطونكم، فكونوا اليوم في نعيمكم، وكُلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية[5].

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٨٤، تفسير الصافي ٥: ٢١٩.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ١١٢.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ١٤٢.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ١٤٣.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ١٤٣.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ[٢٥ـ٢٩]

هذا حال المؤمنين الصالحين في الآخرة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمالِهِ﴾ تحقيراً له بأن تُلوى ـ على ما قيل ـ يسراه إلى خلف ظهره، ويرى ما فيه من قبائح أعماله ﴿فَيَقُولُ﴾ تحزّناً وتحسّراً[١] ﴿يَا﴾ أهل المحشر ﴿لَيْتَنِى﴾ وأتمنى أنّه ﴿لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ ولم أعط صحيفة أعمالي التي فيها جميع سيئاتي ﴿وَلَمْ أَدْرِ﴾ ولم أعلم ﴿مَا حِسَابِيَهْ﴾ فانّه ليس في أعمالي إلّا ما يُوجب العذاب.

ثمّ يتمنّى أنّ الموته التي أدركته في الدنيا لم يكن بعدها بعث بقوله: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ والقاطعة لحياتي بحيث لم يكن بعدها بعث ولاحساب، ولم ألق ما ألقى من سوء العاقبة واليوم ﴿مَا أَغْنَىٰ﴾ ولم يدفع ﴿عَنِّى﴾ شيئاً من العذاب ﴿مَا﴾ كان ﴿لِيَهْ﴾ من المال والأولاد والأتباع.

قيل: إنّ ﴿مَا﴾ استفهامية على سبيل الانكار، والمعنى أي شيءٍ أغني ما كان لي من اليسار[٢]. وقيل: يعني لم يغنِ عنّى المال الذي جمعته في الدنيا شيئاً من العذاب[٣]، بل صار سبباً لابتلائي[٤] به.

﴿هَلَكَ﴾ وذهب ﴿عَنِّى﴾ اليوم ﴿سُلْطَانِيَهْ﴾ ومُلكي واستيلائي على الناس، وبقيتُ ضعيفاً ذليلاً مقهوراً.

عن ابن عباس: يعني ضلّت عني حُجّتي التي كنتُ احتجّ بها على محمّد في الدنيا[٥]. وقيل: يعني إنّما كنت أُنازع المحقّين بسبب المُلك والسلطنة، فالآن ذهب ذلك الملك وبقي الوَبال[٦].

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا ٱلْخَاطِئُونَ[٣٠ـ٣٧]

وعلى أيّ تقدير يقول الله تعالى للملائكة الغلاظ والشِداد غضباً على العاصي: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ وقيّدوه ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ وأقلوه بعنفٍ ﴿ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ وطولها ﴿سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾ وأدخلوه وشُدّوه بحيث لايقدِر على الحركة.

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ١٤٤.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ١١٤.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ١٤٤.
٤ـ٧. تفسير الرازي ٣٠: ١١٤.

عن كعب الأحبار قال: لو جمع حديد الدنيا ما وزن حلقة منها، ولو وضعت حلقة منها على جبلٍ لذاب مثل الرَّصاص، تُدخَل السلسلة في فيه وتخرُج من دُبره، ويُلوى فضلها على عُنقه وجسده، ويُقرَن بها بينه وبين شيطانه[١].

قيل: إنّ السبعين كناية عن كثره الطول[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «لو أنّ حلقة واحدة من السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً وضعت على الدنيا لذابت الدنيا من حرّها»[٣].

وعنه عليه السلام: «كان معاوية صاحب السلسلة التي قال الله عزّ وجلّ: ﴿فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾» الآية. قال: «وكان فرعون هذه الأُمّة»[٤].

ثمّ كأنّه قالت خَزَنة النار: ماله يُعذّب بهذا العذاب الشديد؟ فقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ومن كفر به مع غاية عظمته كان عذابه في غاية العَظَمة.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان سوء اعتقاده بيّن سوء عمله بقوله: ﴿وَلاَ يَحُضُّ﴾ ولا يُحرّض أهله وغيرهم ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ وإيكالهم القوت فضلاً عن أن يُعطى ويبذُل من مال نفسه، وفيه دلالة على أنّ البُخل من أعظم المعاصي، رُوي عن النبي صلى الله عليه وآله: «البُخل كفرٌ، والكافر في النار»[٥].

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ﴾ وفي ذلك الوقت ﴿هَاهُنَا﴾ وفي عَرصة القيامة ﴿حَمِيمٌ﴾ وقريبٌ يُحامي عنه وينصُره، أو يحترق له قلبه، بل أقرباؤه وأصدقاؤه، يفِرّون منه ﴿وَلاَ طَعَامٌ﴾ له ﴿إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ وما يسيل من جلود أهل النار رُوي أنّه لو وقعت قطرةٌ منه على الأرض لأفسدت على الناس معايشهم[٦]، وعليه يكون إطلاق الطعام عليه مع أنّه شراب من باب المجاز. وقيل: إنّه اسم شجرٍ في النار[٧] ﴿لاَيَأْكُلُهُ إِلَّا ٱلْخَاطِئُونَ﴾ طريق توحيد الله، المشركون به، كما عن ابن عباس[٨]. وقيل: هم الذي يتخطّون الحقّ إلى الباطل[٩]، فيشمَل مُنكر الرسالة والإمامة.

فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِن رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ[٣٨ـ٤٣]

١و٢. تفسير روح البيان ١٠: ١٤٦.
٣. تفسير القمي ٢: ٨١، تفسير الصافي ٥: ٢٢١.
٤. الكافي ٤: ١/٢٤٤، تفسير الصافي ٥: ٢٢١.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ١٤٧.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ١٤٧.
٧ و٨. تفسير روح البيان ١٠: ١٤٨.
٩. تفسير الرازي ٣٠: ١١٦، تفسير روح البيان ١٠: ١٤٨.

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان أهوال القيامة وأحوال السعداء والأشقياء، وكان المشركون والأشقياء يُنكِرون جميعها ويُكذّبون القرآن، بيّن سبحانه عَظَمة القرآن وأنّه كلام الله المجيد بقوله تعالى: **﴿فَلاَ أُقْسِمُ﴾** وقيل: إنّ التقدير فلامجال لتكذيب المكذّبين[١] للقرآن وما أخبر به من البعث والنشور، اُقسم **﴿بِمَا تُبْصِرُونَ﴾** وما تُشاهدون من الجسمانيات **﴿وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾** ولا تُشاهدون من العقول والروحانيات **﴿إِنَّهُ﴾** من أوّله إلى آخره **﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾** صادقٍ مبعوثٍ من جانب الله **﴿كَرِيمٍ﴾** عليه عظيم الشأن عنده، وهو محمدٌ ﷺ أو جبرئيل، جاء به من قبل الله **﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾** كما تزعُمون، وأنتم إيماناً **﴿قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ﴾** بالقرآن أنّه كلام الله، وبمن جاء به أنّه رسول الله **﴿وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾** كما تدّعون ذلك مرة اُخرى تذكّراً **﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾** ولذا يلتبس عليكم الأمر.

قيل: إنّ الايمان والتذكّر القليل بالشيء الظنّ به والميل إليه[٢] وقيل: إنّ القليل في الآيتين كناية عن العدم[٣]. وقيل: إنّ الايمان القليل اليقين بالقلب والجُحود باللسان[٤]. أو الايمان ببعض أحكام القرآن دون[٥] بعض.

وإنّما قرن سبحانه عدم الايمان بالشاعرية؛ لأنّ عدم مشابهة القرآن بالشعر أمر بيّن لاينكره إلّا المعاند فلذا وبّخوا على عدم الايمان بخلاف مبانيه[٦] للكِهانة، فإنّها ليست بذاك الوضوح، فانّ من تذكّر أحوال النبي ﷺ ومعاني القرآن وتأمّل فيهما[٧] عَلِم أنّ القرآن ليس بكِهانة، فانّ الكاهن يأتيه الشيطان ويُلقي إليه أخبار السماء، وما يقوله النبي ﷺ مشتملٌ على ذمّ الشياطين وسَبّهم، فكيف يُمكن أن يكون ذلك بإلقاء الشياطين؟ وكذا معاني القرآن [فانها تشتمل على] الدعوة إلى العقائد الحقّة وتهذيب الاخلاق والأعمال الصالحة بخلاف أقوال الكَهَنة، فلو تذكّر كفّار مكّة معاني القرآن ومعاني أقوال الكَهَنة لما قالوا: إنّه كاهنٌ، وإن القرآن كِهانة، بل هو **﴿تَنزِيلٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** نزّله بتوسّط جَبْرئيل على رسوله، فهو قول الله وكلامه لأنّه نزّله، وقول جبرئيل لأنه نزل به، وقول رسول الله ﷺ لأنه أنذر به.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ *

---

١. تفسير طبرى ٢٩: ٤١.
٢ ـ ٤. تفسير روح البيان ١٠: ١٤٩.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ١٤٩ و١٥٠.
٦. في تفسير روح البيان: مباينته.
٧. في النسخة: منهما.

فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ[٤٤ـ ٥٢]

ثمّ أكّد سبحانه أنّه كلامه لاكلام النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ﴾ محمّد ﴿عَلَيْنَا﴾ ونسب إلينا كذباً ﴿بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ والكلمات التي لم نقلها ﴿لَأَخَذْنَا﴾ بعضاً ﴿مِنْهُ﴾ للانتقام ﴿بِالْيَمِينِ﴾ والقوّة.

وقيل: إنّ المراد باليمين الحقّ[1] والمعنى لانتقمنا منه بالحقّ ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ والعِرق الذي به حياته، وهو كنايةٌ عن إماتته. وقيل: يعني لضربنا عُنقه[2].

وعلى أيّ تقدير، المراد إهلاكه بأفظع ما يفعله الملوك بمن يغضبون عليه ﴿فَمَا مِنكُم﴾ أيّها الناس ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ حينئذٍ ﴿عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ ومانعين بالقوّة أو الشفاعة.

ثمّ إنّه تعالى بعد تعظيم كتابه بالغ في مدحه بذكر فائدته العظيمة بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ﴾ وعِظة ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ من إتّباع الهوى والعصبية في مذهبه الباطل، فانّهم المتنفعون به ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ﴾ كثيراً ﴿مِنكُم﴾ أيّها العرب ﴿مُكَذِّبِينَ﴾ له لحبّ الدنيا واتّباع الهوى والتوغّل في العصبية، وكافرين به حسداً وبغياً ﴿وَإِنَّهُ﴾ يوم القيامة ﴿لَحَسْرَةٌ﴾ وندامة ﴿عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾ به وبمحمد ﷺ عند مشاهدتهم عظمته وشفاعته لتاليه وثواب المصدّقين به، وفي الدنيا أيضاً إذا رأوا عز المؤمنين به وذلّة الجاحدين له قالوا: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ وفيه من المبالغة ما لا يخفى، فاذا كان القرآن أنزله إليك بهذه المَرْتَبة من العظمة والفائدة، ونعمته عليك فوق جميع النِّعم ﴿فَسَبِّحْ﴾ الله تنزيهاً له.

عن الرضا عليه السلام: «بالتقول عليه، وشكراً له على إيحائه عليك»[3] مستعيناً في تسبيحه ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ قيل: المراد بالاسم المُسمّى[4].

رُوي أنّه لمّا نزلت الآية قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في رُكوعكم»[5].

روى بعض العامة عن عمر بن الخطاب أنّه قال: خرجت بمكة يوماً متعرّضاً لرسول الله ﷺ، فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فجئت فوقفت وراءه، فافتتح سورة الحاقة، فلمّا سَمِعت سَرْد القرآن قلت في نفسي: إنّه لشاعر كما تقول قريش، حتّى بلغ إلى قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِن رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ ثمّ مرّ حتّى انتهى إلى آخر السورة، فأدخل الله في قلبي الإسلام[6].

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ١١٨.

٢. تفسير روح البيان ١٠: ١٥١.

٣. تفسير الصافي ٥: ٢٢٣.

٤ و٥. تفسير روح البيان ١٠: ١٥٢.

٦. تفسير روح البيان ١٠: ١٥٣.

عن الكاظم عليه السلام: «﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني جَبْرئيل عن الله في ولاية علي عليه السلام» قال: «قالوا: إنّ محمداً كَذَب على ربّه، وما أمره الله بهذا في عليّ، فأنزل الله تعالى بذلك قرآناً فقال: إنّ ولاية علي ﴿تَنزِيلٌ مِن رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ...﴾ الآية، ثمّ عطف القول فقال: إنّ ولاية علي لتذكرة للمتّقين - للعالمين - وإنّ علياً لحسرة على الكافرين، وإنّ ولايته لحقّ اليقين، فسبّح - يا محمد - باسم ربك العظيم. يقول: اشكُر ربّك العظيم الذي اعطاك هذا الفضل»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «لمّا أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله بيد عليّ عليه السلام فأظهر ولايته، قالا جميعاً: والله ما هذا من تِلقاء الله، ولا هذا إلّا شيءٌ أراد أن يُشرّف به ابن عمّه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ الآيات ﴿أَنَّ مِنكُم مُكَذِّبِينَ﴾ يعني فلاناً وفلاناً ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾ يعني علياً عليه السلام»[2].

عن النبي صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة الحاقة حاسبه الله حساباً يسيراً»[3].

وعن الصادق عليه السلام: «أكثر من قراءة الحاقة، فان قراءتها في الفرائض والنوافل من الايمان بالله ورسوله، [لأنّها] إنّما نزلت في أمير المؤمنين ومعاوية، ولم يُسلَب قارءها دينه حتى يلقى الله عز وجلّ»[4].

الحمد لله على التوفيق لاتمام تفسيرها.

---

١. الكافي ١: ٩١/٣٥٩، تفسير الصافي ٥: ٢٢٣.
٢. تفسير العياشي ٣: ٢٤٢٣/٢٢، تفسير الصافي ٥: ٢٢٣.
٣. تفسير أبي السعود ٢: ٢٨.
٤. ثواب الأعمال: ١١٩، تفسير الصافي ٥: ٢٢٣.

في تفسير سورة المعارج

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ ٱللهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ [١ـ٣]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الحاقة المتضمّنة لبيان عظمة يوم القيامة وعذاب مكذّبيه وأهواله حين وقوعه، وحُسن حال المؤمنين به وسوء حال الكافرين ومانعي حقوق المساكين، وأنّه ليس لهم في ذلك اليوم حميمٌ، وبيان عظمة القرآن وتسلية الرسول ﷺ، نُظِمت سورة المعارج المتضمّنة لبيان عذاب الكفار، وقُرب وقوع القيامة وطول مدّتها وأهوالها، وغفلة الحميم عن حميمه، وحُسن حال المؤمنين المؤدّين حقوق الفقراء، وسوء حال الكفّار، وتسلية النبي ﷺ وأمره[1] بالصبر على أذى قومه إلى غير ذلك من وجوه المناسبات بين السورتين، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ حكى سبحانه شدّة خباثة بعض الكفّار وجُرأته على الله بقوله: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ ودعا داع ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ لامُحالة ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ وعليهم كما عن ابن عباس، إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة[2] ﴿لَيْسَ لَهُ﴾ إذا جاء وقته أو اقتضته حكمته ﴿دَافِعٌ﴾ ومانع ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿ٱللهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ ومالك السماوات التي هي المصاعد للملائكة الذين هم مدبّرات الأمور ومقسّمات الأرزاق، وإنّما سمّى السماوات معارج لكون بعضها فوق بعض كالمدارج، أو المراد ذي مراتب من النّعم، أو ذي الدرجات التي يُعطيها أولياءه في الجنّة.

عن ابن عباس: نزلت الآية في النّضر بن الحارث من بني عبد الدار حيث قال إنكاراً للقرآن واستهزاءً به: ﴿ٱللّٰهُمَّ إِن كَانَ هٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3].

وقيل: إنّه لمّا بُعِث محمد ﷺ وخوف المشركين بالعذاب، قال بعضهم لبعضٍ: سَلُوا محمداً لمن

---

١. في النسخة: وأمر.　　٢ و٣. تفسير روح البيان ١٠: ١٥٣.

هذا العذاب، وبمن يقع؟ فنزلت ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾[١].

والباء في قوله: ﴿بِعَذَابٍ﴾ في معنى (عن). وقيل: إنّ المراد من السائل رسول الله ﷺ، حيث استعجل بعذاب الكافرين، فبشّره الله بأنّ العذاب واقعٌ بهم لادافع له بقرينة قوله بعد ذلك: ﴿فَاصْبِرْ﴾[٢].

تَعْرُجُ ٱلْمَلاَئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً * يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً[٤ـ١٠]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ إطلاق المعارج على السماوات بلحاظ عُروج الملائكة بقوله: ﴿تَعْرُجُ﴾ وتصعد ﴿ٱلْمَلاَئِكَةُ﴾ الذين هم مدبّرات الأمور ﴿وَٱلرُّوحُ﴾ الامين المسمّى بجَبرئيل بعد فراغهم من اُمور الدنيا لانهائها بأمر الله ﴿إِلَيْهِ﴾ تعالى ﴿فِى﴾ أوّل ﴿يَوْمٍ﴾ وزمانٍ ﴿كَانَ مِقْدَارُهُ﴾ من أوّله إلى آخره خمسين ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾ من سني الدنيا، وهو يوم القيامة وزمان وقوف الناس للحساب، وهذا الطول بالنسبة إلى الكفار، كما رُوي أنّه قيل لرسول الله ﷺ: ما أطول هذا اليوم: فقال: «والذي نفسي بيده إنّه ليخِفّ عن المؤمن حتّى يكون عليه أخفّ من صلاةٍ مكتوبةٍ يُصلّيها في الدنيا»[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «أنّ للقيامة خمسين موقفاً، كلّ موقفٍ مقام[٤] ألف سنة» ثمّ تلا هذه الآية[٥].

وقيل: إنّ هذا التقدير على سبيل الفرض، والمقصود أنّه لو اشتغل بالقضاء بين الناس أعقل الناس وأذكاهم لبقي فيه خمسين ألف عام، والله يفرُغ من حسابهم في مقدار نصف يومٍ من أيام الدنيا[٦] كما عن الصادق أنّه قال: «لو ولي الحساب غير الله لمكثوا فيه خمسين ألف سنة من قبل أن يفرُغوا، والله سبحانه يفرُغ من ذلك في ساعة»[٧].

وقال في رواية اُخرى: «لاينتصف ذلك اليوم حتى يُقبِل أهل الجنة في الجنّة، وأهل النار في النار»[٨].

ويُمكن أن يقال: إنّ التقدير لعروج الملائكة لاليوم القيامة، كما قال بعض[٩]. والمعنى أنّ الملائكة يعرُجون إلى مواضع لو أراد غيرهم من أهل الدنيا أن يصعد إليها لايُمكنه إلّا في مدّة خمسين ألف

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ١٢١.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ١٢١، والآية من سورة المعارج: ٧٠/٥.
٣. مجمع البيان ١٠: ٥٣١، تفسير الصافي ٥: ٢٢٥، تفسير الرازي ٣٠: ١٢٤.
٤. في الكافي: مقداره.
٥. الكافي ٨: ١٠٨/١٤٣، تفسير الصافي ٥: ٢٢٥.
٦. تفسير الرازي ٣٠: ١٢٤.
٧ و٨. مجمع البيان ١٠: ٥٣١، تفسير الصافي ٥: ٢٢٥.
٩. مجمع البيان ١٠: ٥٣٠.

سنة، ولكن الملائكة يصعدون إليها في ساعة قليلة.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام وقد ذكر النبي صلى الله عليه وآله قال: «أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مسيرة شهر، وعُرِج به إلى ملكوت السماوات مسيرة خمسين ألف عام في أقلّ من ثُلث ليلة حتى انتهى إلى ساق العرش»[١].

وروى القمّي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «تعرُج الملائكة والروح في صبح ليلة [القدر] إليه من عند النبيّ والوصي»[٢].

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا محمد، على استهزاء قومك وأذاهم ﴿صَبْراً جَمِيلاً﴾ حسناً لاجَزَع فيه ولاشكوى إلى غير الله مع انتظار الفرج بلا استعجال، ولا تدعُ على قومك لاستهزائهم بوعدك إيّاهم العذاب ﴿إِنَّهُمْ﴾ لجهلهم وحماقتهم ﴿يَرَوْنَهُ﴾ ويَزْعُمونه ﴿بَعِيداً﴾ عن إمكان الوقوع ويُحيلونه، لاستبعادهم إحياء العظام الرميم ثانياً حتى يُمكن لهم التألّم بالعذاب ﴿وَ﴾ نحن ﴿نَرَاهُ﴾ ونعلمه ﴿قَرِيباً﴾ من الوقوع لإمكان إعادة خلقهم وقدرتنا عليه واستحقاقهم للعذاب.

وقيل: إنّهم يرون الموت والبعث بعيداً لبُعد آمالهم، ونراه قريباً لأنّ كلّ آتٍ قريب[٣].

وأمّا وقوعه فانّه ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّماءُ﴾ في اللون ﴿كَالْمُهْلِ﴾ وخَبث الحديد المُذاب، أو الفضّة المُذابة كما عن ابن مسعود[٤]، أو كالقير والقَطِران في سوادهما[٥]، أو كدُرديّ الزيت[٦] في سيلانه على مَهل لثخانته[٧] ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ﴾ كلّها في سيرورتها ألواناً مختلفة ﴿كَالْعِهْنِ﴾ والصوف المصبوغ، لاختلاف ألوان الجبال منها بيض ومنها حمر، ﴿وَ﴾ منها غرابيب سود.

ثمّ لكثرة أهوال اليوم ﴿لاَ يَسْأَلُ حَمِيمٌ﴾ وقريبٌ ﴿حَمِيماً﴾ وقريباً عن حاله ولا يُكلّمه، لاشتغال كلٍّ بنفسه، فكيف الأجانب؟

يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُؤْوِيهِ * وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِلشَّوَىٰ * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ[١١ـ١٨]

---

١. الاحتجاج: ٢٢٠، تفسير الصافي ٥: ٢٢٥.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٨٦، تفسير الصافي ٥: ٢٢٥.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ١٥٩.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ١٢٥، تفسير روح البيان ١٠: ١٥٩.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ١٥٩.
٦. دُرديّ الزيت: مارسب أسفله.
٧. تفسير روح البيان ١٠: ١٥٩.

ثمّ دفع سبحانه توهّم أنّ عدم سؤالهم لعلّه لعدم رؤيتهم أو عدم معرفة بعضهم بعضاً بقوله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ ويعرِفونهم، فيعرف الرجل أباه وابنه وأخاه وعشيرته ـ وقيل: إنّ الملائكة يعرفونهم ـ ومع ذلك لايسألهم لاشتغالهم بما هم فيه[1].

عن ابن عباس: يتعارفون ساعة ثمّ يتناكرون[2].

بل من شدّة عذاب ذلك اليوم ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ ويشتاق الكافر والعاصي ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾ ويخفظ نفسه ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾ الذي ابتلي به ﴿بِبَنِيهِ﴾ وأولاده الذكور الذين هم أعزّ الأنفس عنده ﴿وَصَاحِبَتِهِ﴾ وزوجته المحبوبة عنده ﴿وَأَخِيهِ﴾ الذي كان ظهره ومعينه في الشدائد ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ وأقاربه ﴿ٱلَّتِى﴾ كانت ﴿تُؤْويهِ﴾ وتضمّه إلى نفسه، وتَحْفَظه في الدنيا بحقّ القرابة والمحبة من الشدائد، كالآباء والأعمام والأخوال وغيرهم ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من الجنّ والإنس ﴿جَمِيعاً﴾ لو كانوا تحت يديه وفي سُلطانه ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ ذلك الافتداء.

﴿كَلَّا﴾ وهيهات أنّ الافتداء يُنجيه من النار التي وصفها الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ ولهبٌ خالصٌ لايُخالطه دُخانٌ وقيل: إنّ اللّظى عَلَمٌ للنار أو للدَّرْك الثاني من جهنّم[3]، وهي ﴿نَزَّاعَةً﴾ وجذّابة ﴿لِلشَّوَىٰ﴾ والأعضاء الواقعة في أطراف الجسد وقلّاعه لها بقوّة الاحتراق وشدّة الحرارة، أو نزّاعة للجلود الرؤوس وتقشيرها عنه.

قيل: لاتترك جلداً ولالحماً ولاعصباً إلّا أحرقته[4].

﴿تَدْعُوا﴾ وتجلُب إلى نفسها كالمغناطيس الذي يجلُب الحديد، أو تهلك ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن التوحيد والحقّ وأعرض عنه ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن طاعة ربّه ورسوله، واستنكف عنه، وتلتقطهم كما يلتقط الطير الحبّ. وقيل: إنّ المراد جلب زبانية النار بحذف المضاف[5]. ﴿وَجَمَعَ﴾ المال حرصاً وحبّاً للدنيا ﴿فَأَوْعَىٰ﴾ وكنز لطول الأمل، ولم يُؤدّ زكاته وحقوقه الواجبة فيه، وتشاغل به عن الدين، وتكبّر على الفقراء باقتنائه[6].

إِنَّ ٱلْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَٱلَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ * وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَٱلَّذِينَ هُم

١و٢. تفسير روح البيان ١٠: ١٦٠
٣. تفسير روح البيان ١٠: ١٦١.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ١٢٨.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ١٢٨.
٦. في النسخة: باقتنامه، وما أثبتناه من تفسير روح البيان ١٠: ١٦٢.

مِنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ[١٩ـ٣٤]

ثمّ ذمّ سبحانه الانسان بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ﴾ بالطبع ﴿خُلِقَ هَلُوعاً﴾ ثمّ فسر سبحانه الهلوع بقوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ﴾ وأصابه ﴿ٱلشَّرُّ﴾ كالمرض والفقر والخوف وغيرها من البلايا كان ﴿جَزُوعاً﴾ وكثير القلق والشكوى لضَعْفه ﴿وَإِذَا مَسَّهُ﴾ ووصل إليه ﴿ٱلْخَيْرُ﴾ من الصحة والغِنى كان ﴿مَنُوعاً﴾ وشديد البُخل ومبالغاً في الامساك لطول أمله وجهله بالقسمة ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ ولكن لامطلقاً بل ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ وعلى أدائها مواظبون لايشغَلهم عنها شاغلٌ، لاهتمامهم على تقديم رضى الله على رضى أنفسهم.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الذين يقضون ما فاتهم من الليل بالنهار، ومافاتهم من النهار بالليل»[1].

﴿وَ﴾ إلّا ﴿ٱلَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ ونصيبٌ معينٌ أو جبوه على أنفسهم تقرباً إلى الله ﴿لِّلسَّائِلِ﴾ بالكفّ من الناس ﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ ومن لايسأل حياءً وتوكّلاً على الله.

عن السجاد عليه السلام: «الحقّ المعلوم شيءٌ يُخرجه من ماله، ليس من الزكاة، ولا من الصدقة المفروضتين، هو الشيء يُخرجه من ماله إن شاء أكثر وإن شاء أقلّ على قدر ما يملِك، يصِل به رحماً، ويقوّي به ضعيفاً، ويحمل به كَلّاً، ويصل به أخاً له في الله أو لنائبةٍ تنوبه»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «المحروم المحارف[3] الذي قد حُرِم كدّ يده في الشراء والبيع»[4].

وفي رواية: «المحروم الذي ليس بعقله بأس، ولم يُبْسَط له الرزق، وهو محارف»[5]. يعني أنّهم أهل الكسب والصنعة لاالسؤال.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ويؤمنون بدار الجزاء ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ خائفون أن يُصيبهم فيُتعِبون أنفسهم في طاعة ربّهم بأداء الواجبات وترك المُحرّمات وبذل الأموال،

---

١. الخصال: ١٠/٦٢٨، تفسير الصافي ٥: ٢٢٧. ٢. الكافي ٣: ١١/٥٠٠، تفسير الصافي ٥: ٢٢٧.

٣. المحارف: المحروم يطلَب فلا يُرزَق.

٤. الكافي ٣: ١٢/٥٠٠، التهذيب ٤: ٣١٢/١٠٨، تفسير الصافي ٥: ٢٢٧.

٥. الكافي ٣: ١٢/٥٠٠، التهذيب ٤: ٣١٣/١٠٨، تفسير الصافي ٥: ٢٢٧.

وهم مع ذلك في جميع أحوالهم خائفون لما عملوا ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ وإن بالغوا في الطاعة لجهلهم بعاقبة اُمورهم وواقعياتها، فلعلّهم قصّروا فيما هو من وظائفهم ويُعذّبون عليه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ﴾ وسوآتهم من القُبل والدُّبر ﴿حَافِظُونَ﴾ من نظر الغير ومسّه ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾ ونسائهم ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الجواري ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ على عدم حفظها من مسمين[1] ونظرهنّ ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ عند العقلاء وغير مؤاخذين عند الشرع، وفيه إشعارٌ بأنّ في ملامة العقلاء على ترك التحفّظ كفايةً لاحاجة إلى نهي الشارع ﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ﴾ وطلب لنفسه ﴿وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأزواج والإماء للاستمتاع ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ المبتغون ﴿هُمُ الْعَادُونَ﴾ والمتجاوزون لحدود العقل والشرع الكاملون في الظُّلم على النفس، ويدخُل فيه الاستمناء فانّه نكاح النفس. روي أنّ العرب كانوا يستمنون في الأسفار، فنزلت الآية[2].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ وما يُودَع عندهم ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ سواء كان من العهود التي بينه وبين الله، أو بينه وبين الناس ﴿رَاعُونَ﴾ ومُجدّون في المحافظة ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ﴾ ولو على أنفسهم، أو الوالدين والأقربين ﴿قَائِمُونَ﴾ ومؤدّون حقّ الأداء، والجمع باعتبار اختلافه الشهادات وكَثْرتها، وإنّما خصّها بالذكر مع دخولها في الأمانات لكثرة فضلها. وعن ابن عباس قال: يُريد الشهادة بأنّ الله واحدٌ لاشريك له[3].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بحفظ أجزائها وشرائطها وآدابها. في الحديث: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيامة، ومن لم يُحافظ عليها لم يكن له نور ولابرهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبي بن خلف»[4].

قيل: إنّ ذكر الصلاة أولاً وآخراً للإشارة بأنّها أوّل ما يجب على العبد أداءه بعد الايمان وآخر ما يجب رعايته بعده[5].

عن الكاظم عليه السلام: «أُولئك أصحاب الخمسين صلاة[6] من شيعتنا»[7].

وعن الباقر عليه السلام قال: «هي الفريضة، والذين هم على صلاتهم دائمون هي النافلة»[8].

أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ * فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ [٣٥-٣٧]

---

١. كذا، والظاهر: مسهنّ. ٢. تفسير روح البيان ١٠: ١٦٥ و١٦٦. ٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٣١.
٤ و ٥. تفسير روح البيان ١٠: ١٦٧. ٦. في النسخة: أصحاب الحسين.
٧. مجمع البيان ١٠: ٥٣٥، تفسير الصافي ٥: ٢٢٨. ٨. الكافي ٣: ١٢/٢٦٩، تفسير الصافي ٥: ٢٢٨.

ثمّ بيّن سبحانه نتيجة أعمالهم بقوله: ﴿أُولٰئِكَ﴾ المتّصفون بتلك الصفات الكريمة مستقرون يوم القيامة ﴿فِى جَنَّاتٍ﴾ لاتوصف بالبيان، ولا يُدْرك كُنهها الانسان، وهم مع ذلك ﴿مُكْرَمُونَ﴾ بغاية الاكرام، ومُعظّمون بنهاية التعظيم.

ثمّ رُوي أنّ الكفّار والمشركين كانوا مُحلّقين حول رسول الله حَلقاً حَلقاً وفِرقاً فِرقاً، يستمعون القرآن ويستهزؤون به، ويقولون: إن دخل هؤلاء الجنة كما يقول محمّد فلندخلها قبلهم، فنزل قوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1] وأي حالٍ عرضهم أنهم ﴿قِبَلَكَ﴾ يا محمد وحولك حال كونهم ﴿مُهْطِعِينَ﴾ ومسرعين نحوك، أو مادّين أعناقهم إليك مقبلين بأبصارهم عليك ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ منك ﴿عِزِينَ﴾ ومجتمعين فِرقاً فِرقاً، ومُحلّقين عليك حَلقاً حَلقاً. وقيل: إنّ المراد منهم المنافقون[2].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام ـ وقد ذكر المنافقين ـ قال: «وما زال رسول الله صلى الله عليه وآله يتألّفهم ويُقرّبهم ويُجلسهم عن يمينه وشماله حتى أذِن الله عزّ وجلّ له في إبعادهم بقوله: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾[3] وبقوله: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ...﴾ الآيات»[4].

أقول: ويمكن أن يكون المراد المعنى العام.

أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِمَّا يَعْلَمُونَ * فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَارِقِ وَٱلْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَىٰ أَن نُبَدِّلَ خَيْراً مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ * يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ[٣٨ـ٤٤]

ثمّ أنكر سبحانه عليهم الطمع في دخولهم الجنة بقوله: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ﴾ ونفسٍ ﴿مِنْهُمْ أَن يُدْخَلَ﴾ في القيامة ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ كالمسلمين بغير إيمان ﴿كَلَّا﴾ وحاشاأن يَدْخلوها ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ من نطفةٍ قَذرةٍ، فكيف يتأهّلون لِدخول الجنة التي هي منزل المُطهّرين حتّى يتطهّروا بالايمان والمعرفة؟ وقيل في ارتباط الآية وجوه أُخر[5].

ثمّ بيّن سبحانه قدرته على إهلاك جميعهم بقوله: ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَارِقِ﴾ التي تكون للشمس

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ١٣١، تفسير روح البيان ١٠: ١٦٩.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ١٣١.
٣. المزمل: ١٠/٧٣.
٤. الاحتجاج: ٢٣٥، تفسير الصافي ٥: ٢٢٨.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ١٣٢.

في السنة لكلّ يومٍ مشرق ﴿وَ﴾ بربّ ﴿ٱلْمَغَارِبِ﴾ التي تكون فيها. وقيل: جمعها باعتبار الكواكب السيّارة لكل مشرقٍ ومغربٍ[1]. أو المراد من المشرق ظهور دعوة نبي، ومن المغرب موته.

﴿إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾ بالذات ﴿عَلَىٰٓ أَن﴾ نُهلِك جميعهم عقوبةً على معاصيهم و ﴿نُّبَدِّلَ﴾ منهم خلقاً آخر ﴿خَيْراً﴾ وأفضل ﴿مِّنْهُمْ﴾ مكانهم ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ ومغلوبين وعاجزين إن أردنا ذلك، وإنّما أخّرنا عقوبتهم للحِكم البالغة المقتضية لتأخيرها ﴿فَذَرْهُمْ﴾ يا محمد ودَعهم ﴿يَخُوضُوا﴾ ويشتغلوا بباطلهم من عبادة الأصنام والاستهزاء بالقرآن وإيذاء المؤمنين ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ بالدنيا وزخارفها التي لانفع لها، كاشتغال الأطفال بالأشغال التي لاغرض عُقلائي فيها، ويستمروا عليها ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا﴾ ويُعاينوا ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا بلسانك أنّهم يُعذّبون فيه عقوبةً على كفرهم وسيئات أعمالهم، أعني من ذلك اليوم ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ والقبور حال كونهم ﴿سِرَاعاً﴾ وراكضين الى الداعي وهو إسرافيل، أو إلى عَرَصة المحشر ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في الإسراع في السير ﴿إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ وأحجارٍ نصبوها في الدنيا للعبادة أو للمسابقة إليها بالعدو ﴿يُوفِضُونَ﴾ ويُسرِعون أو يتسابقون حال كونهم ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ لايرفعونها من الأرض خوفاً من رؤية العذاب ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ وتُحيطهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ ومَهانة ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم الكثير الأهوال ﴿ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿يُوعَدُونَ﴾ بلسان رسولهم، وهم يُنكرون وقوعه ويستهزؤون بالوعد به.

عن الصادق قال: «أكثروا من قراءة ﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ فانّ من أكثر قراءتها لم يسأله الله يوم القيامة عن ذنبٍ عمِله، وأسكنه الجنّة مع محمّدٍ صلى الله عليه وآله»[2].

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ١٣٢، تفسير روح البيان ١٠: ١٧٠.
٢. ثواب الاعمال: ١١٩، مجمع البيان ١٠: ٥٢٧، تفسير الصافي ٥: ٢٢٩.

في تفسير سورة نوح

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى إِلَّا فِرَاراً * وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَاراً * ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّى أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً [١ ـ ٩]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة المعارج المتضمّنة لسؤال العذاب على الكفّار، وأمر الرسول بالصبر على تكذيب المكذبين، وبيان قدرته تعالى على إهلاك جميع الخلق، اُردفت بسورة نوح في النّظم المتضمّنة لشكاية نوح من تكذيب المكذّبين تسليةً للنبي ﷺ، وسؤال نوح العذاب على الكفّار، ووقوع إهلاك جميع الخلق بالطُّوفان، فافتتحها سبحانه بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع سبحانه في ذكر قصّة بعثة نوح، وكيفية دعوته وشكايته منهم[١] تسليةً للنبي ﷺ بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً﴾ الذي هو أول اُولي العزم من الرسل وشيخهم، من جزيرةٍ كان يسكُنها ـ واسمه عبد الغفّار على ما قيل[٢] ـ ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾[٣] وهم جميع من في الأرض، وكانوا يعبُدون الأصنام، وقلنا له: ﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ وخوّف ﴿قَوْمَكَ﴾ من عذاب الله على الشِّرك به وعِصيانه ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ﴾ من جانب الله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ غضباً عليهم.

---

١. في النسخة: عنهم. ٢. تفسير روح البيان ١٠: ١٧١. ٣. زاد في النسخة: من.

قيل: بُعِث وهو ابن أربعين، أو ثلثمائة وخمسين، أو أربعمائة سنة[١].

فلمّا جاء نوح بأمر الله إلى قومه ﴿قَالَ﴾ لهم بلينٍ وشفقةٍ: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ﴾ من قبل الله ﴿نَذِيرٌ﴾ ومخوّفٌ من سوء عاقبة الشرك بالله وعِصيانه ﴿مُّبِينٌ﴾ ومُوضحٌ لكم ما اُرسلت به ببيان يفهمه كلّ أحدٍ وهو ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ﴾ بامتثال أوامره، ولاتشركوا به شيئاً ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ واحذروا من مخالفته ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ واسمعوا نصائحي ومواعظي، فان قَبِلتم قولي وأجبتم دعوتي ﴿يَغْفِرْ﴾ الله ﴿لَكُم﴾ ما سلف ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ومعاصيكم كلّها ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ﴾ ويُكمِل عمركم المقدّر ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّىٰ﴾ ووقتٍ معينٍ لموتكم، ولايُعاجلكم بالعقوبة ولايُهلككم بالعذاب.

﴿إِنَّ أَجَلَ اللهِ﴾ المقدّر لموت كلّ أحدٍ مطيعاً كان أو عاصياً، وإذا حلّ الوقت المعين في اللوح المحفوظ لموت كلّ نفسٍ ﴿إِذَا جَاءَ﴾ ووصل ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ ولا يُغيّر بالزيادة ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك لسارعتم إلى الايمان والطاعة، وبادرتم إلى ما أمركم به، لأنّكم لاتدرون متى يجيء، فلم يعتنِ بقوله أحد، فلَبِث فيهم ألف سنة إلّا خمسين عاماً يدعوهم إلى التوحيد وينصحهم بأبلغ نُصحٍ، فلمّا طالت المدّه وعارضه قومه وآذوه حتى ضاق صدره وانقطعت عنه الحِيل، ناجى ربّه وشكا إليه قومه، ﴿قَالَ رَبِّ﴾ إنّك تعلم ﴿إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى﴾ إلى توحيدك وطاعتك ﴿لَيْلاً وَنَهَاراً﴾ من غير توانٍ وفتورٍ.

قيل: كان يجيء باب البيوت في الليالي فيقرع ويقول لصاحب البيت قل لا إله إلا الله[٢].

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِى﴾ إلى توحيدك وطاعتك ﴿إِلَّا فِرَاراً﴾ ممّا دعوتهم إليه، ونُفرةً ممّا نصحتهم به، وامتناعاً من قبول دعوتي ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ إلى التوحيد والإقرار برسالتي ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ذنوبهم وسيئاتهم ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ﴾ وسدّوا مسامعهم لئلا يسمعوا قولي تنفّراً منه ﴿وَاسْتَغْشَوْا﴾ ولفّوا برؤوسهم ﴿ثِيَابَهُمْ﴾ وتغطّوا بها لئلا يروني ولاأراهم ﴿وَأَصَرُّوا﴾ على كفرهم ومعاصيهم، وأقاموا عليها لَجاجاً وعِناداً ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ وتعظّموا عن إقباحي وقبول دعوتي ﴿اسْتِكْبَاراً﴾ شديداً لا يصرفهم عنه شيء ﴿ثُمَّ إِنِّى﴾ لمّا رأيت أنّ ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾ سراً غير مفيدة[٣] لهدايتهم، دعوتهم وأجهرت في دعوتهم ﴿جِهَاراً﴾ بليغاً، واظهرت دعائي إلى الايمان إظهاراً شديداً ﴿ثُمَّ إِنِّى﴾ رأيت أنّ الإجهار وحده لا يُؤثّر فيهم ﴿أَعْلَنتُ﴾ دعوتي ﴿لَهُمْ﴾ في مجامعهم ومجالسهم ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ﴾ الدعوة في أبواب بيوتهم وفي خلواتهم ﴿إِسْرَاراً﴾ وأخفيتها إخفاءً.

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ١٧١، وفيه: أربعمائة وثمانين.

٢. تفسير روح البيان ١٠: ١٧٤.

٣. في النسخة: مفيد.

فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ ٱلسَّماءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَاراً * مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً[١٠ـ ١٤]

ثمّ لمّا بيّن مراتب دعوته بيّن كيفيتها بقوله: ﴿فَقُلْتُ﴾ لهم: يا قوم ﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ واسألوه ستر ذنوبكم ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ غَفَّاراً﴾ وستّاراً للذنوب، فاذا استغفرتم الله ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّماءَ﴾ وينزل ﴿عَلَيْكُم﴾ الأمطار النافعة حال كونها ﴿مِدْرَاراً﴾ وسيالاً، أو متواتراً.

قيل: إنّ قومه قالوا: إن كان ديننا حقّاً فكيف نترُكه، وإن كان باطلاً فيكف يغفِر لنا بعد ما كنّا عليه دهراً طويلاً؟ فأمرهم الله بالاستغفار، ووعدهم عليه بالعوائد الدنيوية العاجلة، لأنّها أوقع في قلوبهم من المغفرة[1].

وقيل: لمّا كذّبوا نوحاً بعد تكرار الدعوه، حبس الله عنهم قَطر السماء، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة[2]. وقيل: سبعين، فوعدهم نوح إن آمنوا أن يرزُقهم الخصب ويدفع عنهم ما كانوا فيه[3] بقوله: ﴿وَيُمْدِدْكُم﴾ ويُقوّيكم ﴿بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ ويزدكم قوةً إلى قوّتكم ﴿وَيَجْعَل لَكُمْ﴾ بسبب إيمانكم واستغفاركم ﴿جَنَّاتٍ﴾ وبساتين كثيرة ﴿وَيَجْعَل لَكُمْ﴾ فيها ﴿أَنْهَاراً﴾ جاريةً تزيّنها بالنبات، وتَحْفَظها من اليبس، وتفرح بها القلوب.

ثمّ لامهم نوح على تركهم الايمان بالله بقوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ وأيّ مانعٍ فيكم؟ أنّكم ﴿لاَ تَرْجُونَ﴾ ولا تعتقدون ﴿لِلهِ﴾ الخالق لجميع الأشياء ﴿وَقَاراً﴾ وعظمةً مقتضيةً لايمانكم به وخضوعكم له ﴿وَ﴾ الحال أنّه ﴿قَدْ خَلَقَكُمْ﴾ بقدرته ﴿أَطْوَاراً﴾ وتارات مختلفة، خلقكم أولاً تُراباً، ثمّ أغذيةً، ثمّ أخلاطاً، ثمّ نُطفاً، ثمّ عَلقاً، ثمّ مُضغاً، ثمّ عظاماً، ثمّ لُحوماً، ثمّ أنشأكم خلقاً آخر.

وقيل: خلقكم صبياناً ثمّ شُبّاناً، ثمّ كُهولاً، ثمّ شيوخاً[4].

وقيل: خلقكم طوالاً وقصاراً، وأقوياء وضعفاء، ومختلفين في الخَلق والخُلق[5].

وعن القمي: مختلفين في الأهواء والإرادات والمشيئات[6] وعلى أيّ تقديرٍ كلّها دالٌّ على قدرة الله وحكمته ونهاية عظمته.

أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً* وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ١٧٦.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ١٧٦.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ١٧٧.
٤ و٥. تفسير روح البيان ١٠: ١٧٨.
٦. تفسير القمي ٢: ٣٨٧، تفسير الصافي ٥: ٢٣١، وفي النسخة: والمشتهيات، بدل: والمشيئات.

ٱلشَّمْسَ سِرَاجاً * وَٱللهُ أَنبَتَكُم مِنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً * وَٱللهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطاً * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً * قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا مَن لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً * وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً * وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً[١٥ـ٢٤]

ثمّ بالغ نوح بعد الاستدلال على عظمة الله بدليل الأنفس في إثبات عظمة الله بدلائل الآفاقية بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ يا قوم، ولم تشاهدوا ﴿كَيْفَ خَلَقَ ٱللهُ﴾ وأبدع بقدرته ﴿سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ عظيمة حال كونها ﴿طِبَاقاً﴾ وقُبباً بعضها فوق بعض ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ﴾ المنير ﴿فِيهِنَّ نُوراً﴾ لأهل الأرض في ظُلمة الليل.

عن ابن عباس رضوان الله عليه: أنّ الشمس والقمر والنجوم وجوهها ممّا يلي السماء، وظهورها مما يلي الأرض[١].

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ﴾ التي في السماء الرابعة ﴿سِرَاجاً﴾ لأهل الدنيا، يُزيل بضيائها ظُلمة الأرض، كما يُبصر أهل البيت بنور السّراج ما يحتاجون إلى رؤيته ﴿وَٱللهُ أَنبَتَكُم﴾ وأنشأكم ﴿مِنَ﴾ تُراب ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بواسطة إنشاء آدم منه، أو بواسطة الأغذية المتكوّنة من التراب والماء ﴿نَبَاتاً﴾ وإنشاءً عجيباً، وإنّما عبّر عن الخلق بالإنبات لقوة دلالته على الحدوث ﴿ثُمَّ﴾ بعد إنباتكم من الأرض ﴿يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بالإقبار بعد الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ﴾ منها عند البعث والحشر ﴿إِخْرَاجاً﴾ محقّقاً لاريب فيه للمحاسبة والمجازاة على الأعمال ﴿وَٱللهُ﴾ العظيم القادر ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ البسيطة ﴿بِسَاطاً﴾ وفراشاً واسعاً تتقلّبون عليها كتقلبكم على البُسط ﴿لِتَسْلُكُوا﴾ وتستطرقوا ﴿مِنْهَا سُبُلاً﴾ وطُرقاً ﴿فِجَاجاً﴾ ومتّسعات تَمشون فيها ذَهاباً وإياباً.

﴿قَالَ نُوحٌ﴾ بعد تلك المناجاة الطويلة وبيان كيفية دعوته: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ وأصرّوا على مخالفتي ومعارضتي ﴿وَٱتَّبَعُوا مَن لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ﴾ إلّا بَطَراً ﴿وَوَلَدُهُ﴾ إلّا غروراً، وليس نتيجة ذلك البَطر والغرور ﴿إِلَّا خَسَاراً﴾ وضرراً عظيماً في الآخرة، فانّ الضعفاء رأوا أنّ اتّباعهم لجاههم وعزّهم بين الناس أولى وأنفع لهم من اتّباعي، وأمّا الرؤساء [فقد] احتالو ﴿وَمَكَرُوا﴾ في الاخلال بأمر رسالتي ﴿مَكْراً كُبَّاراً﴾ واحتيالاً عظيماً بأن حرّضوا أتباعهم على سبّي وضربي وإيذائي ﴿وَقَالُوا﴾

١. تفسير روح البيان ١٠: ١٧٨.

لأتباعهم ﴿لاَ تَذَرُنَّ﴾ ولا تترُكنّ ﴿آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾ ولاتدعنّ عبادتها.

قيل: إنّ تلك الأصنام دُفِنت في الطُّوفان بساحل جُدّه، فأخرجها الشيطان بعد الطُّوفان، فوقع كلٌّ منها بيد قبيلةٍ من العرب، فكان وَدّ لكلب بدَوْمَة الجَنْدَل، وسُواع لقبيلة هَمْدان، ويَغُوث لمَذْحِج، ويَعُوق لقبيلة مُراد، ونَسْر لحِمْيَر[1].

وقيل: فُنيت هؤلاء الأصنام بالطُّوفان، ثمّ اتّخذت أمثالها وسمّوها بأسمائها وعبدوها[2].

وقيل: إنّ هذه الأسماء المذكورة في السورة كانوا أبناء آدم من صُلبه، وكان يغوث أكبرهم، وهي أسماء سُريانية، ثمّ وقعت تلك الأسماء إلى أهل الهند، فسمّوا بها أصنامهم التي زعموا أنّها على صور الدراري[3] السبعة، وكان الجنّ يُكلّمهم من جوفها، ثمّ أدخلها عمرو بن لحي في أرض العرب[4].

قيل: كان وَدّ على صورة رجلٍ، وسُواع على صورة امرأةٍ، ويَغُوث على صورة أسد، ويَعُوق على صورة فرس، ونَسْر على صورة نَسْر، وهو طائرٌ عظيم[5].

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ أولئك الرؤساء أو الأصنام خلقاً ﴿كَثِيراً﴾.

وَلاَ تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلاَلاً * مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِن دُونِ ٱللهِ أَنصَاراً * وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً * رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا[٢٤ـ٢٨]

ثمّ لمّا عدّ نوح قبائح أعمال القوم هاج غضبه ودعا عليهم بقوله: ﴿وَلاَ تَزِدِ﴾ يا ربّ الكفّار ﴿ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم بتعريضها للهلاك باختيارهم الشرك، وعليك بتضييع حقوقك ﴿إِلَّا ضَلاَلاً﴾ وضَياعاً وهلاكاً، أو ضلالاً في تمشية مكرهم وترويج مصالح دنياهم، أو لمّا يئس من إيمانهم دعا عليهم بازدياد شقاوتهم لازدياد استحقاقهم العذاب، كما قال موسى عليه السلام ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[6].

١و٢. تفسير روح البيان ١٠: ١٨١.

٣. الدراري: الكواكب.

٤. تفسير روح البيان ١٠: ١٨١ و١٨٢.

٥. تفسير روح البيان ١٠: ١٨٢.

٦. يونس: ٨٨/١٠

ثمّ أخبر الله بسوء عاقبتهم بقوله: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ﴾ العظيمه، ومن أجل فواحشهم الكثيرة في المدّة المتطاوله ﴿أُغْرِقُوا﴾ كلّهم بالطُّوفان ﴿فَأُدْخِلُوا﴾ بمَحْض خروج الروح من أبدانهم ﴿نَاراً﴾ سجّرها القهّار بغضبه في البَرْزَخ قبل القيامة ﴿فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم﴾ حين ابتلائهم بالعذاب الدنيوي والأخروي ﴿مِن دُونِ ٱللهِ﴾ وممّا سواه من الأصنام والأوثان ﴿أَنصَاراً﴾ وأعواناً يدفعون العذاب عنهم بالقوة أو الشفاعة.

ثمّ عاد سبحانه إلى حكاية قول نوح بقوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ﴾ بعد يأسه من إيمان قومه واهتدائهم وتواصيهم بعدم ترك عبادة أصنامهم: ﴿رَّبِّ لاَ تَذَرْ﴾ ولا تَدَع ﴿عَلَى﴾ وجه ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بسبب إنزال العذاب ﴿مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾ بك وبرسولك ﴿دَيَّاراً﴾ ومتحرّكاً.

ثمّ بيّن نوح أنّ دعاءه عليهم ليس للتشفّي وهوى النفس، بل للغضب لله بقوله: ﴿إِنَّكَ﴾ يا رب ﴿إِن تَذَرْهُمْ﴾ وتُبقيهم على وجه الأرض كُلاً أو بعضاً ﴿يُضِلُّوا عِبَادَكَ﴾ المؤمنين عن طريق التوحيد والقرب إليك، أو المراد يَصُدّوا عبادك عن الايمان بك، كما رُوي أن الرجل ينطلق بابنه إلى نوح ويقول له: احذر هذا الرجل، فانّه كذّاب، وإنّ أبي حذّرنيه وأوصاني بمثل ذلك[١].

﴿وَلاَ يَلِدُوا﴾ من بعد ﴿إِلَّا فَاجِراً﴾ ومعادياً لدينك ﴿كَفَّاراً﴾ ومصراً على الشرك وكفران نعمك.

عن الباقر عليه السلام أنّه سُئل ما كان علم نوح حين دعا على قومه أنّهم لايلدوا إلّا فاجراً كفّاراً؟ فقال: «أما سَمِعت قول الله لنوح: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾»[٢].

ثمّ دعا لنفسه ولأقاربه وللمؤمنين بقوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ خطاياي وزلّاتي ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ ملك بن مُتَوَشْلِخ وشمخا بنت أنوش كانا مؤمنين ﴿وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ قيل: يعني مسجدي[٣]. وقيل: يعني سفينتي[٤] حال كونه ﴿مُؤْمِناً﴾ بك وموحّداً لك ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾ عموماً إلى آخر الدهر.

ثمّ عاد إلى الدعاء على الكفّار بقوله: ﴿وَلاَ تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ على أنفسهم باختيار الشرك ﴿إِلَّا تَبَارًا﴾ وهلاكاً ودماراً.

عن الصادق عليه السلام: من كان يؤمن بالله ويقرأ كتابه، لايدع قراءة سورة ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ فأيّ عبدٍ قرأها محتسباً صابراً في فريضةٍ أو نافلةٍ أسكنه الله مساكن الأبرار، وأعطاه ثلاث جنات مع جنّته كرامة من الله وزوّجه مأتي حوراء وأربعة آلاف ثيّب إن شاء الله»[٥].

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ١٨٤.
٢. تفسير القمي ٢: ٢٣٢، تفسير الصافي ٢: ٣٨٨، والآية من سورة هود: ٣٦/١١.
٣ و٤. تفسير روح البيان ١٠: ١٨٦.
٥. ثواب الأعمال: ١٢٠، مجمع البيان ١٠: ٥٤٠، تفسير الصافي ٥: ٢٣٣.

في تفسير سورة الجن

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجباً * يَهْدِى إِلَى ٱلرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً * وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللهِ شَطَطاً * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللهِ كَذِباً * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً[١-٦]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة نوح المتضمّنة لبيان إشراك جميع أهل الأرض من الإنس في عصر نوح وإيذاءهم اياه وتمرّدهم عن الايمان بالله وطاعته، فأهلكهم الله بالغرق في الطُّوفان، نُظِمت سورة الجنّ المتضمّنة للإخبار بايمان كثير من الجنّ بالتوحيد، وانقيادهم لخاتم الأنبياء، وتصديقهم كتابه، وحكمهم بسفاهة المشركين، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ أمر رسوله بحكاية مقالة الجنّ في شأن التوحيد وعظمة القرآن بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأهل مكّة المنكرين لصدق القرآن والتوحيد: إنّه قد ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ من جانب ربّي واطّلعت بإخبار الله تعالى ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾ القرآن حين تلاوته ﴿نَفَرٌ﴾ وجماعةٌ ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ﴾. رُوي أنّهم كانوا يهودا[1].

وقيل كانوا يهوداً ونصارى ومجوساً ومشركين[2].

﴿فَقَالُوا﴾ لقومهم حين رجوعهم إليهم مع تمرّدهم وعدم مجانستهم للانس: يا قوم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ من لسان رسولٍ من الإنس ﴿قُرْآناً﴾ وكتاباً متلوّاً ﴿عَجباً﴾ وبديعاً مبايناً لكلام البشر في الفصاحة وحُسن النظم وعلوّ المعنى ﴿يَهْدِى﴾ ذلك القرآن ويدلّ جميع الخلق ﴿إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ ودين الحقّ، أو إلى كلّ خيرٍ وصوابٍ في أمور الدين والدنيا ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾ بمحض استماعه، وصدّقنا أنّه كلام الله وكتابه، وأنّ من أتى به رسول الله ﴿وَلَن نُشْرِكَ﴾ بعد اليوم بدلالة ذلك الكتاب المثبت للتوحيد

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ١٥٤.

٢. تفسير الرازي ٣٠: ١٥٤، وفيه: ومشركاً.

﴿بِرَبِّنَا أَحَداً﴾ من خلقه وشيئاً من مصنوعاته.

رُوي أنّه جاء رجلٌ إلى عبد الله بن مسعود فقال له: كنّا في سفرٍ، فاذا نحن بحيّة جريحةٍ تتشحّط في دمها، فقطع رجلٌ منّا قطعةً من عمامته فلفّها فيها فدفنها، فلمّا أمسينا ونزلنا أتتنا امرأتان من أحسن نساء الجنّ فقالتا: أيّكم صاحب عمرو؟ وأي الحيّة التي دفنتموها. فأشرنا لهما إلى صاحبها، فقالتا: إنّه كان آخر من بقي ممّن استمع القرآن من رسول الله ﷺ كان بين كافري الجن ومسلميهم قتالٌ فقُتِل فيهم، فان كنتم أردتم به الدنيا ثوبناكم؟ فقلنا: لا، إنّما فعلنا ذلك لله. فقالتا: أحسنتما وذهبتا[1].

﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ﴾ وارتفع ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ وعظمته، أو غناه ﴿مَا ٱتَّخَذَ﴾ وما اختار لنفسه ﴿صَـٰحِبَةً﴾ وزوجةً ﴿وَلاَ وَلَداً﴾ ابناً كان أو بنتاً لكمال تعاليه عن الحاجة، فانّ اتخاذ المصاحبة لايكن إلّا للحاجة إليهما، ولايتّخذ الولد إلّا لبقاء النسل والاستعانة به، وهما ينافيان الغنى المطلق ووجوب الوجود ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ وخفاف العقول منّا، كابليس وغيره من المَرَدة جُرأةً ﴿عَلَى ٱللهِ﴾ العظيم القهّار قولاً ﴿شَطَطاً﴾ وبعيداً عن الحقّ، ومتجاوزاً عن حدّ العقل، وهو القول بأنّ الملائكة بنات الله أو عيسى أو ا لعزير ابن الله، ثمّ اعتذروا عن اتّباعهم السفيه في القول بقولهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ واعتقدنا ﴿أَن لَن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ﴾ من عند أنفسهم ﴿عَلَى ٱللهِ﴾ قولاً ﴿كَذِباً﴾ أبداً، ولذا اتّبعناهم في القول بأنّ لله ولداً، ولمّا سَمِعنا القرآن تبيّن لنا كذب هذا القول ﴿وَأَنَّهُ كَانَ﴾ قبل ذلك ﴿رِجَالٌ مِنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ﴾ ويلتجئون ﴿بِرِجَالٍ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ قيل كان الرجل من العرب إذا أُمسى في وادٍ قفر في بعض مسائره، وخاف على نفسه يقول: أعوذ بسيد هذا الوادي من شرّ سُفهاء قومه، يُريد الجنّ وكبيرهم، فيبيت في أمنٍ وجوار حتى يُصبح، فاذا سَمِعوا ذلك استكبروا وقالوا: سُدنا الانس والجنّ[2] ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أُولئك الإنس ﴿رَهَقاً﴾ وعُتواً وسَفهاً.

وعن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال: «كان الرجل ينطلق إلى الكاهن الذي يُوحي إليه الشيطان فيقول: قل لشيطانك: فلان قد عاذ بك»[3].

وقيل: إن رجالاً من الإنس يعوذون برجالٍ من الجنّ خوفاً من أن يغشاهم الجنّ، فزادت الجنّ في غشيانهم، بمعنى أنّ الجنّ لمّا رأوا أنّ الإنس يتعوّذون بهم ولا يتعوّذون بالله، استذلّوهم واجترءوا عليهم فزادوهم ظلماً[4].

قيل: إنّ المعنى فزاد الجن العائذين غياً بان أضلّوهم حتى استعاذوا بهم، وإذا استعاذوا بهم فآمنوا

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ١٨٩.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ١٩١.
٣. تفسير القمي ٢: ٣٨٩، تفسير الصافي ٥: ٢٣٤.
٤. تفسير الرازي ٣: ١٥٦.

ظنّوا أنّ ذلك من الجنّ، فازدادوا رغبةً في طاعة الشياطين وقبول وساوسهم[١].

رُوي عن كَرْدَم بن أبي السائب الأنصاري أنّه قال: خرجتُ مع أبي إلى المدينة في حاجةٍ، وذلك أوّل ما ذُكِر النبي ﷺ بمكّة، فاذا في المبيت أتى[٢] راعي غنم، فلمّا انتصف الليل جاء الذئب فحمل حَمْلاً من الغنم فقال الراعي يا عامر الوادي جارك. فنادى منادٍ لانراه: يا سرحان أرسله، فأتى الحمل يشتدّ حتى دخل في الغنم ولم تُصبه كدمة، فأنزل الله على رسوله بمكة: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ...﴾[٣] الى آخره.

وعن مقاتل: كان أوّل من تعوّذ بالجنّ قومٌ من أهل اليمن، ثمّ من حنيفة، ثمّ فشا ذلك في العرب، فلمّا جاء الاسلام عاذوا بالله وتركوهم[٤].

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَداً * وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً[٧ـ ٩]

ثمّ إنّ النفر من الجنّ بعد دعوتهم قومهم إلى التوحيد دعوهم إلى القول بالرسالة بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ يا قوم ﴿ظَنُّوا﴾ لجهالتهم ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ لسفاهتكم ﴿أَن لَن يَبْعَثَ اللَّهُ﴾ من بعد موسى، أو بعد عيسى، أو مطلقاً من أول الخلق ﴿أَحَداً﴾ بالرسالة ليقيم به الحُجّة على خلقه، ثمّ علمنا أنّه تعالى بعث إلى الإنس محمداً بالرسالة فآمنوا به يا معشر الجنّ.

وقيل: إنّ المراد أنّ الانس ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله بعد الموت للحساب والمجازاة على الأعمال أحداً[٥].

وقيل: إنّ الآيتين من كلام الله، والمعنى على ذلك القول: وإنّ الجن ظنّوا كما ظننتم يا كفّار قريش أن لن يبعث الله أحداً للرسالة، كما هو مذهب البراهمة[٦].

ثمّ حكى النفر من الجنّ لقومهم الانقلاب الحاصل في السماء بقولهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا﴾ وطلبنا ﴿السَّماءَ﴾ وصعدنا إليها لاستماع ما تقول الملائكة من الإخبار بالحوادث، لنخبر بها الكَهَنة على دأبنا السابق ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ﴾ من الملائكة حال كونهم ﴿حَرَساً﴾ وحَفَظةً ﴿شَدِيداً﴾ وقوياً على دفعنا يمنعوننا عن القرب من السماء ﴿وَ﴾ وجدنا ﴿شُهُباً﴾ وشُعلاً من النار منقضّةً من الكواكب

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ١٩١.

٢. في تفسير روح البيان: بمكة، فأدّاني المبيت إلى.

٣. تفسير روح البيان ١٠: ١٩١.

٤. تفسير روح البيان ١٠: ١٩٢.

٥. تفسير روح البيان ١٠: ١٩٢.

٦. تفسير الرازي ٣: ١٥٧.

تُحرِق من قرب من السماء ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ قبل هذا اليوم نصعد إلى السماء و ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا﴾ بعد صعودنا إليهما ﴿مَقَاعِدَ﴾ خالية من الملائكة الحَفَظة ﴿لِلسَّمْعِ﴾ واستراق الأخبار من الملائكة ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ﴾ الأخبار منّا ﴿الْآنَ﴾ وفي هذا الزمان في مقعدٍ من المقاعد ومرصدٍ من المراصد ﴿يَجِدْ لَهُ﴾ ويُصيب لنفسه ﴿شِهَاباً﴾ وشُعلة نار تُحرِقه ومَلَكاً يكون له ﴿رَصَداً﴾ وقاعداً في المكمن ليُرجَم بالشهاب.

وقيل: يعني شِهاباً راصداً له، فالرصد بمعنى الراصد، وتوصيف الشهاب به من باب التنزيل والمشابهة[1].

عن عائشة، عن النبي ﷺ: «أنّ الملائكة تنزِل في السَّحاب، فتذكر الأمر الذي قُضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه، فتوحيه[2] إلى الكُهّان، فيُكذّبون معه مائة كذبة من عند أنفسهم»[3].

وعن الصادق عليه السلام ـ في حديث ـ قال: «وأمّا أخبار السماء فانّ الشياطين كانت تقعُد مقاعد استراق السمع إذ ذاك، وهي لاتُحجَب ولاتُرجَم بالنجوم، وإنما مُنِعت من استراق السمع لئلا يقع في الأرض سبب يُشاكل الوحي من خبر السماء [فيلبس على أهل الأرض ما جاءهم عن الله، لاثبات الحجة، ونفي الشبهة. وكان الشيطان يسترق الكلمه الواحدة من خبر السماء] ممّا يحدُث من الله في خلقه، فيختطفها ثمّ يهبِط بها إلى الأرض، فيقذِفها إلى الكاهن، فاذا قد زاد كلمات من عنده، فيُخْلَط الحقّ بالباطل، فما أصاب الكاهن من خبر ممّا كان يُخبِر به فهو ما أبداه إليه شيطانه ممّا سَمِعه، وما أخطأه فيه فهو من باطل مازاد فيه، فمذ منعت الشياطين عن استراق السمع انقطعت الكِهانة»[4].

وعن ابن عباس قال: كان الجنّ يصعدون إلى السماء فيستمعون الوحى، فإذا سَمِعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً، أما الكلمة فانّها تكون حقّه، وأما الزيادات فتكون باطلة. فلمّا بُعِث النبي ﷺ مُنِعوا مقاعدهم، ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك. فقال إبليس: ما هذا إلّا لأمرٍ حدث في الأرض، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يُصلّي[5] الخبر.

وعن أُبي بن كعب: أنّه لم يرم بنجمٍ منذ رُفِع عيسى حتّى بُعِث رسول الله ﷺ فرمى بها، [فرأت] قريش أمراً ما رأوه قبل ذلك[6].

أقول: لايخفى أنّ الآيات الدالة على أنّ النجوم جُعِلت رجوماً للشياطين، وإن كانت كثيرة، إلّا أنه

١. تفسير الرازي ٣٠: ١٥٧.
٢. في النسخة: فيوقيه.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ١٩٣.
٤. الاحتجاج: ٣٣٩، تفسير الصافي ٥: ٢٣٥.
٥ و٦. تفسير الرازي ٣٠: ١٥٨.

لابدّ من حملها بالنظر إلى هذه الآية والروايات على كونها مانعة من دخول الشياطين فيها لا من قُربهم إليها بحيث يستمعون كلام الملائكة، وبعد ظهور النبي ﷺ وبعثته مُنعوا بالشُّهب من قُربها.

وأمّا الاعتراض على الروايات بأنّ الشهب كامن[١] قديم الأيام، كما دلّ عليه تكلّم الفلاسفة فيها، والأشعار التي حُكيت من شعراء زمان الجاهلية.

فنقول: إنّ الشُّهب التي كانت قبل البعثة فهي الحادثة من كرة النار، والشهب التي كانت تنقضّ لمنع الشياطين كانت من النجوم، ومقتضى ذلك كثرة الشُّهب بعد البعثة لزيادة الشُّهب التي تحدُث من النجوم على الشُّهب التي كانت قبل، ولذا استوحشت قريش من رُؤيتها.

وَأَنَّا لاَ نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً * وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَن نُعْجِزَ ٱللهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُعْجِزَهُ هَرَباً[١٠ ـ ١٢]

ثمّ بعد حكاية النفر من الجنّ تغيير وضع السماء قالوا لقومه: ﴿**وَأَنَّا لاَ نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ**﴾ من ذلك التغيير ﴿**بِمن فِى ٱلْأَرْضِ**﴾ من الإنس والجنّ ﴿**أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً**﴾ وخيراً وصلاحاً.

قيل: إنّ المعنى لاندري أنّ المقصود من إرسال محمد الذي مُنِعنا عنده من استراق السمع أن تكذّبه أمّته فيهلكوا[٢] كما أهلك الأمم المُكذّبة قبله، أم أُريد أن يؤمنوا فيهتدوا[٣] وفي نسبة الخير إلى الله دون الشرّ رعاية الأدب.

ثمّ حكوا اختلاف فرقهم بقولهم: ﴿**وَأَنَّا مِنَّا**﴾ الأقوام ﴿**ٱلصَّالِحُونَ**﴾ والراغبون إلى الايمان والأعمال الخيرية ﴿**وَمِنَّا**﴾ قومٌ حالهم ﴿**دُونَ ذٰلِكَ**﴾ الحال، وأنقص من مرتبة الكمال، ففيهم المقتصد والفاسق والكافر والطاغي ﴿**كُنَّا طَرَائِقَ**﴾ وذوي مذاهب ﴿**قِدَداً**﴾ ومختلفة. وقيل: كنّا في اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة[٤] ﴿**وَأَنَّا ظَنَنَّا**﴾ وتيقنا بالدليل القاطع والبرهان الساطع والتفكّر في الآيات ﴿**أَن لَن نُعْجِزَ ٱللهَ**﴾ عن إنفاذ إرادته في شأننا أينما كنّا ﴿**فِى**﴾ وجه ﴿**ٱلْأَرْضِ**﴾ ومن أقطارها ﴿**وَلَن نُعْجِزَهُ**﴾ ونفوته أبداً إن أراد بنا أمراً أن نهرُب من الأرض إلى السماء أو البحار أو الجبال ﴿**هَرَباً**﴾ ينجينا من سطواته، فلا يمكننا الخروج من سُلطانه ومن تحت قدرته.

وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً *

---

١. كذا، والظاهر: كانت من.

٢. في النسخة: فهلكوا.

٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٥٨، وفيه: فنهيدوا.

٤. تفسير الرازي ٣٠: ١٥٩.

وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً * وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً * وَأَلَّوِ ٱسْتَقَامُوا عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً[١٣ـ١٧]

ثمّ أنّه بيّن النفر حالهم، لترغيب غيرهم إلى الايمان بقولهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا﴾ القرآن الذي يكون ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ والرشاد لأهل العالم ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ بمحض السماع، وصدّقنا أنّه كلام الله وكتابه الذي من عَمِل به نال سعادة الدارين ﴿فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ﴾ وبما أنزله من عنده ﴿فَلاَ يَخَافُ﴾ مثل هذا الشخص في الآخرة ﴿بَخْساً﴾ ونقصاً في جزائه ﴿وَلاَ رَهَقاً﴾ وغشيان ظلم أو ذلّة أو عذاب ﴿وَأَنَّا﴾ بعد استماع القرآن ﴿مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ﴾ والمستسلمون للدين الحقّ ﴿وَمِنَّا ٱلْقَاسِطُونَ﴾ والجائرون عن طريق الهدى والايمان والطاعة ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ لأمر الله وسلّم أحكامه. وعن الباقر عليه السلام: «أقرّ بولايتنا»[١] ﴿فَأُوْلَٰئِكَ تَحَرَّوْا﴾ وطلبوا ﴿رَشَداً﴾ وهدايه عظيمة إلى الصراط المستقيم والطريق القويم المُوصل إلى جميع الخيرات الدنيوية والأُخروية.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَاسِطُونَ﴾ والمنحرفون عن طريق الهدى ودين الحقّ ﴿فَكَانُوا﴾ في الآخرة ﴿لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾ تُوقد بهم نارها كما تُوقَد بأبدان كفرة الإنس.

ثمّ إنّه تعالى بعدها أوحى إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله من بيانات الجنّ ودعوتهم إلى الايمان بالقرآن، بيّن ما أوحى ذاته المقدسة إلى النبي صلّى الله عليه وآله بقوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَامُوا﴾ وثبتوا. قيل: إنّ التقدير قل يا محمد أوحي إليّ أنّ الشأن أنّ الجنّ والانس لو استقاموا أو ثبتوا ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ المستقيمة وهي دين الاسلام[٢] ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم﴾ وأشربناهم ﴿مَاءً غَدَقاً﴾ وكثيراً غزيراً. قيل: هو كناية عن سَعَة العيش وكثرة المال[٣] ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ ونمتحنهم في ذلك الاسقاء أو التوسيع ونختبرهم ﴿فِيهِ﴾ كيف يشكرونه.

وعن الصادق عليه السلام في تأويل الآية قال: لأفدناهم[٤] علماً كثيراً يتعلّمونه عن الأئمّة»[٥].

وعن الباقر عليه السلام: «لو استقاموا على ولاية أمير المؤمنين على عليه السلام والأوصياء من ولده، وقبلوا طاعتهم في أمرهم ونهيهم، لاسقيناهم ماءً غدقاً، لأشربنا قلوبهم الإيمان»[٦].

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٨٩، تفسير الصافي ٥: ٢٣٦، وفيها: الذين أقروا بولايتنا.
٢ و٣. تفسير روح البيان ١٠: ١٩٦.
٤. في النسخة: لأخذنا.
٥. مجمع البيان ١٠: ٥٦٠، تفسير الصافي ٥: ٢٣٦.
٦. الكافي ١: ١/١٧١، تفسير الصافي ٥: ٢٣٦.

﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ﴾ وعبادته، أو موعظته، أو وحيه. وعن ابن عباس: عن ولاية علي عليه السلام[١] ﴿يَسْلُكْهُ﴾ ويُدخِله ﴿عَذَاباً صَعَداً﴾ وعالٍ على طاقته وشاقّ عليه.

عن ابن عباس: أن صَعَداً اسم جبلٍ في جهنّم، وهو صخرةٌ ملساء، فيُكلّف الكافر صعودها، ثمّ يُجذَب من أمامه بسلاسل، ويُضرَب من خلفه بمقامع حتى يبلُغ أعلاه في أربعين سنة، فاذا بلغ أعلاه جُذِب إلى الأسفل، ثمّ يُكلّف الصُّعود مرةً أُخرى، فهذا دأبه أبداً، ونظير هذه الآية: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾[٢].

وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ لِلّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ ٱللهِ أَحَداً * وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً[١٨ و ١٩]

ثمّ أخبر سبحانه بأنّه أمر النبي صلّى الله عليه وآله بالدعوة إلى التوحيد في العبادة بقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَاجِدَ﴾ والبيوت المبنية لإقامة الصلاة وإتيان العبادات فيها، أو جميع وجه الأرض، حيث قال صلّى الله عليه وآله: «جُعلت لي الأرض مسجداً»[٣]، أو الأعضاء التي يجب وضعها في حال السجود على الأرض من الوجه واليدين والركبتين والابهامين، كما عن أمير المؤمنين والصادق والجواد عليهم السلام[٤]، وعليه بعض مفسّري العامة[٥]. ﴿لِلّهِ﴾ خاصّة لايشركه فيها غيره من الملائكة والمسيح والعُزير والأصنام ﴿فَلاَ تَدْعُوا﴾ ولا تعبُدوا أيها الناس ﴿مَعَ ٱللهِ﴾ العظيم المستحقّ للعبادة ﴿أَحَداً﴾ غيره، وعن الكاظم عليه السلام في تأويل الآية: «أنّ المساجد الأوصياء»[٦]. وعن الرضا عليه السلام: «هم الائمة عليهم السلام»[٧].

ثمّ حكى سبحانه تعجّب الجنّ والمشركين من عبادة الرسول بقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا﴾ قيل: إنّ المعنى وقد أُوحي إليّ أن الشأن[٨] لمّا ﴿قَامَ﴾ النبي المفتخر بأنّه ﴿عَبْدُ ٱللهِ﴾ في مقام العبودية لربّه حال كونه ﴿يَدْعُوهُ﴾ ويعبُده في منظر المشركين ﴿كَادُوا﴾ وقربوا ﴿يَكُونُونَ﴾ لتظاهرهم ﴿عَلَيْهِ﴾ وتعاونهم على عداوته ﴿لِبَداً﴾ وكمّاً ليُطفئوا نوره ويُبطِلوا عبادته.

وقيل: إنّ الآية ممّا أُوحي إليه، والمعنى أنّه قد أُوحي إليّ أنّه لمّا قام النبي صلّى الله عليه وآله يعبُد الله بصلاة

---

١. تفسير القمي ٢: ٣٩٠، تفسير الصافي ٥: ٢٣٦.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ١٦٢، والآية من سورة المدثر: ١٧/٧٤.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٦٢، تفسير روح البيان ١٠: ١٩٧.
٤. من لايحضره الفقيه ٢: ١٦٢٧/٣٨١، تفسير العياشي ٢: ١٢٦٩/٤٧، الكافي ٣: ٨/٣١٢، تفسير الصافي ٥: ٢٣٧.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ١٦٣، تفسير أبي السعود ٩: ٤٦، تفسير روح البيان ١٠: ١٩٨.
٦. الكافي ١: ٦٥/٣٥٢، تفسير الصافي ٥: ٢٣٧.
٧. تفسير القمي ٢: ٣٩٠، تفسير الصافي ٥: ٢٣٧.
٨. تفسير روح البيان ١٠: ١٩٨.

الفجر، قُرب الجنّ أن يكونوا عليه مزدحمين تعجّباً ممّا شاهدوا من كيفية عبادته وحُسن قراءته واقتداء أصحابه به قائماً وراكعاً وساجداً، لرؤيتهم مالم يروا مثله، وسَماعهم ما لم يسمعوا شبيهه[١].

قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّى وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً * قُلْ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً * قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً * إِلَّا بَلاَغاً مِنَ اللهِ وَرِسَالاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً [٢٠-٢٣]

ثمّ أمر سبحانه النبيّ بالإعلان بتوحيده ومخالفته لقريش بقوله: ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد للمشركين بغاية التجلّد ﴿**إِنَّمَا أَدْعُوا**﴾ وأعبُد ﴿**رَبِّى**﴾ المستحقّ للعبادة فقط ﴿**وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً**﴾ من الملائكة والإنس، فيكف بالأصنام التي هي جمادات؟ فلا موقع لتعجّبكم، أو إطباقكم على عداوتي.

روي أنّ كفّار قريش قالوا للنبي ﷺ: إنّك جئت بأمرٍ عظيمٍ، وقد عاديت الناس كلّهم، فارجِع عن هذا، فنزلت الآية[٢].

ثمّ أمر سبحانه النبي ﷺ بإعلانه للمشركين بأنّ الضرر والنفع والضلال والهداية كلّها بقدرة الله دون غيره بقوله: ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد للمشركين ﴿**إِنِّى**﴾ ﴿**لاَ أَمْلِكُ**﴾ ولااستطيع ﴿**لَكُمْ**﴾ أيّها الناس ﴿**ضَرّاً**﴾ ولانفعاً ولاغيّاً ﴿**وَلاَ رَشَداً**﴾ بل كلّها بيد الله وحده، فانّه المتصرّف في عالم الوجود دون غيره من الموجودات.

ثمّ قيل: إنّ المشركين قالوا له اترُك ما تدعو إليه ونحن نُجيرك[٣] ونَحْفَظك من أعدائك، فأمره الله تعالى أن يُجيبهم بقوله: ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد ﴿**إِنِّى لَن يُجِيرَنِى**﴾ ولن يَحْفَظني ﴿**مِنَ**﴾ قهر ﴿**اللهِ**﴾ وسَخَطه وعذابه، أو ممّا أراد بي ﴿**أَحَدٌ**﴾ من خلقه إن أشركت به أو خالفت أمره بتبليغ الرسالة ﴿**وَلَنْ أَجِدَ**﴾ في الدنيا والآخرة ﴿**مِن دُونِهِ**﴾ وممّا سواه ﴿**مُلْتَحَداً**﴾ وملجاءً ومفرّاً، وحاصل المفاد أنّي لاأملك لنفسي شيئاً، فكيف أملك لكم ولغيركم أمراً؟ ﴿**إِلَّا بَلاَغاً**﴾ وتبليغاً كائناً ﴿**مِنَ**﴾ جانب ﴿**اللهِ**﴾ الذي أمرني به بأن أقول: قال الله كذا ﴿**وَ**﴾ تبليغ ﴿**رِسَالاتِهِ**﴾ التي أرسلني بها بلا زيادة ونقصان.

وقيل: إنّ المراد من البلاغ تلقّي الوحي من الله تعالى، ومن الرسالات تبليغه إلى الخلق[٤].

ثمّ هدّد الناس على عصيانه بقوله: ﴿**وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ ولم يمتثل أمرهما بالتوحيد وغيره

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ١٦٣.
٢ و٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٦٤.
٤. تفسير الطبري ٢٩: ٧٦، مجمع البيان ١٠: ٥٦٢

من الواجبات ﴿فَإِنَّ لَهُ﴾ في الآخرة ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ حال كونهم ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾.

حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً * قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً * عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَداً[٢٤ ـ ٢٨]

ثمّ لمّا كان الكفّار يستضعفون أنصار النبي ﷺ، ويستقلّون عدد أصحابه، فكأنّه تعالى قال: لايزال المشركون يستضعفون المؤمنين ويستقلّون عددهم ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ ماتوا و ﴿رَأَوْا﴾ بعد الموت ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ به من فنون العذاب ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ عند حلوله بهم ﴿مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً﴾ هم أم محمد وأصحابه.

وقيل: إنّ المراد من ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ عذاب يوم بدر[١].

ثمّ لمّا قال سبحانه: ﴿إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾ قال المشركون: متى يكون هذا الوعد؟ فأمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يُجيبهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿إِنْ أَدْرِى﴾ وما أعلم ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ من العذاب ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً﴾ ومدّةً طويلةً وأجلاً بعيداً، فانّ الله لم يُعيّن وقته لحكمةٍ رآها في إخفائه، وهو تعالى ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ ومُطّلع على جميع الخفايا ﴿فَلاَ يُظْهِرُ﴾ ولايعلم ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِ﴾ ومعلوماته الخفية ﴿أَحَداً﴾ من خلقه ﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وأحبّ إعلامه بالمغيبات ﴿مِن رَّسُولٍ﴾.

عن الباقر عليه السلام قال: «وكان محمّد ﷺ ممّن ارتضاه»[٢].

وعن الرضا عليه السلام: «فرسول الله ﷺ عند الله مرتضى، ونحن وَرَثة ذلك الرسول الذي أطلعه الله على ما يشاء من غيبه، فعَلِمنا ما كان وما يكون إلى يوم القيامة»[٣].

﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ﴾ قُدّام الرسول المرتضى، ويُقيم ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَ﴾ يجعل ﴿مِنْ خَلْفِهِ﴾ ووراء ظهره ومن جميع جوانبه عند إعلامه بالغيب ﴿رَصَداً﴾ وحَرَساً من الملائكة يَحرُسونه من الشياطين.

قيل: يعني إذا نزل جَبْرئيل بالرسالة نزل معه ملائكة يَحْفَظونه من أن يسمع الجنّ الوحي، فيُلقونه

---

١. تفسير أبي السعود ٩: ٤٧.

٢. الكافي ١: ٢/٢٠٠، تفسير الصافي ٥: ٢٣٨.

٣. الخرائج والجرائح ١: ٦/٣٤٣، تفسير الصافي ٥: ٢٣٨.

إلى الكَهَنة، فتُخبِر به الكَهَنة قبل الرسول، فيختلط على الناس أمر الرسالة[١].

وقيل: يُرسِل الله ملائكته ليُخفوه من وساوس الشياطين وتخاليطهم حتّى يبلّغ ما أوحى به إليه، ومن زحمة شياطين الإنس حتّى لايُؤذونه[٢].

قيل: ما بعث الله نبياً إلّا ومعه ملائكة يَحْرُسونه من الشياطين الذين يتشبهون بصورة المَلَك[٣].

﴿لِيَعْلَمَ﴾ الله أنّ الأنبياء ﴿أَن قَدْ أَبْلَغُوا﴾ إلى الناس ﴿رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ خالية من الاختطاف والتخليط بعد ما أبلغها الرَّصَد إليهم كذلك ﴿وَأَحَاطَ﴾ الله تعالى ﴿بِمَا﴾ عند الرَّصَد والرُّسل و ﴿لَدَيْهِمْ﴾ من الأحوال ﴿وَأَحْصَىٰ﴾ وعَلِم ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ما كان وما يكون وما هو كائن ﴿عَدَداً﴾ حتّى القَطْر والرمل، فكيف لايُحيط بما لديهم.

عن ابن عباس: أحصى ما خلق، وعرف عدد ما خلق، لم يَفُته علم شيءٍ حتى مثاقيل الذرّ والخَرْدَل[٤].

عن الصادق عليه السلام: «من أكثر قراءة ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ لم يُصبه في الحياة الدنيا شيءٌ من أعين الجنّ، ولا من نفثهم، ولا من سحرهم، ولا من كيدهم، وكان مع محمد صلى الله عليه وآله فيقول: يارب ما أُريد منهم بدلاً، ولا أُريد أن أبتغي عنهم حولاً»[٥].

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٢٠٢.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ١٦٩.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٦٩.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٢٠٣.
٥. ثواب الأعمال: ١٢٠، مجمع البيان ١٠: ٥٥٠، تفسير الصافي ٥: ٢٣٩.

في تفسير سورة المزمّل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً [١ ـ ٥]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الجنّ المتضمّنة لتعظيم القرآن، وبيان تعجّب الجنّ منه، واشتياقهم إليه، وإيمانهم به، وتهديد مكذّبيه، وبيان بعض حوادث أوّل بعثة الرسول ﷺ، نُظِمت سورة المُزّمّل المتضمنة لبيان عظمة القرآن، وأمر الرسول بتلاوته وترتيله، وتهديد مكذّبي الرسول وكتابه، وبيان حال النبي ﷺ في أوائل نزول الوحي إليه، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**﴾.

ثمّ ابتدأها بخطاب النبي ﷺ بصفةٍ كانت له في أوّل نزول الوحي إليه تلطّفاً وإيناساً، كما هو دأب العرب بقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾ والمتلفّف بثيابه.

عن ابن عباس: أول ما جاء جَبْرئيل إلى النبي ﷺ خافه، وظنّ أنّ به مسّاً من الجنّ، فرجع من جبل حِراء إلى بيت خديجة مرتعداً، وقال: زمّليني، فبينما هو كذلك إذ جاء جَبْرئيل وناداه: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ**﴾[١].

أقول: ما قاله ابن عباس يُنافي الأخبار الواصلة في بيان كيفية أول نزول جَبْرئيل، وكون سورة ﴿**اقْرَأْ**﴾ أول ما نزل.

وقيل: إنّه كان نائماً متزمّلاً بقطيفةٍ، فناداه جَبْرَئيل بما يُهجّن تلك الحالة، والمعنى: يا أيّها النائم المتزمّل بثوبه، قُم واشتغل بالعبادة[٢].

وقيل: إنّه كان متزمّلاً في مِرْطٍ لخديجة مستأنساً بها فقيل له: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ**﴾ واترُك حظّ نفسك واشتغل بالعبادة[٣] ﴿**إِلَّا**﴾ مقداراً ﴿**قَلِيلاً**﴾ منه، أعني ﴿**نِصْفَهُ**﴾ فانّ النصف قليل بالنسبة

١و٢. تفسير الرازي ٣٠: ١٧١.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٧١.

إلى الكلّ.

وقيل: إنّ تقليل مقدار نومه ﷺ مع كونه نصفاً لاظهار كمال الاعتناء بشأن الجزء المقارن للقيام والإيذان بفضله، وكون القيام فيه بمنزلة القيام في أكثره في كثرة الثواب[1].

عن الصادق عليه السلام قال: «القليل النصف»[2].

﴿أَوِ ٱنقُصْ﴾ القيام ﴿مِنْهُ﴾ مقداراً ﴿قَلِيلاً﴾ بحيث لايصل إلى الثُّلث على ما قيل[3] ﴿أَوْ زِدْ﴾ القيام ﴿عَلَيْهِ﴾ إلى الثلثين، والحاصل تخييره في القيام للعبادة بين نصف الليل أو أقلّ منه أو أكثر.

وقيل: إنّ المراد من القليل الذي يُنقص ويُزاد نصف النصف، فيكون الواجب عليه من القيام للعبادة رُبع الليل، والزائد نفلٌ ومندوب[4].

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْآنَ﴾ واقرأه في أثناء قيامك في الليل على تُؤَدَةٍ وتبيين حروف ﴿تَرْتِيلاً﴾ بليغاً.

وعن ابن مسعود: لاتعجلوا في القرآن، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة[5].

وعن الصادق عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين: بيّنه بياناً، ولاتَهُذّه هذّ الشعر وتَنْثُره نثر الرمل، ولكن أفزِعوا قلوبكم القاسيه، ولايكن همّ أحدكم آخر السورة»[6].

قيل: إنّ الترتيل في القرآن قراءته بنحوٍ يتمكّن القارئ من التأمّل في حقائقه ودقائقه، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر قلبه عظمته وجلاله، وعند الوصول إلى الوعد والوعيد يحصُل الرجاء والخوف، وحينئذ يتنوّر القلب بنور المعرفة[7] واليقين، وتستعدّ النفس لإشراق جلال الله والانكشاف الأتمّ الأعظم، فكأنّه تعالى قال: إنّما أمرتك بالقيام في الليل بالصلاة والعبادة وترتيل القرآن، ليزيد استعداد نفسك لتلقّي وحينا.

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ﴾ والبتة نُوحي إليك ﴿قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ وكلاً عظيم القدر والشأن وجليل الخطر، كما عن ابن عباس[8].

وقيل: إنّ المراد قرآناً متضمّناً للأوامر والنواهي التي هي تكاليف شاقّة على العامة وعليك خاصة، لأنّك تتحمّلها بنفسك وبتبليغها إلى اُمّتك[9].

وقيل: إنّ المراد ثقل نزوله على الرسول[10].

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٢٠٤.

٢. مجمع البيان ١٠: ٥٦٨، تفسير الصافي ٥: ٢٤٠.

٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٧٣.

٤. تفسير الرازي ٣٠: ١٧٣.

٥. تفسير روح البيان ١٠: ٢٠٥.

٦. الكافي ٢: ١/٤٤٩، تفسير الصافي ٥: ٢٤٠.

٧. تفسير الرازي ٣٠: ١٧٤.

٨ ـ ٩. تفسير الرازي ٣٠: ١٧٤.

قيل: كان يَرْفَضّ[١] عَرَقاً في اليوم الشديد البرد حين نزوله، كما عن عائشة[٢].

وعن ابن عباس: كان إذا نزل عليه الوحي ثقل عليه وتربّد وجهه[٣].

ورُوي أنّ الوحي نزل عليه وهو على ناقته، فثقل عليها حتى وضعت جِرانها[٤]، فلم يستطع أن تتحرّك[٥].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «لقد نزلت عليه سورة المائدة وهو على بغلته الشّهباء[٦] وثقل عليه الوحي حتّى وقفت وتدلّى بطنها حتى رأيت سُرّتها تكاد تَمَسّ الأرض»[٧].

وقيل: يعني ثقيلاً في الميزان لكَثْرة ثواب تلاوته والعمل به[٨]، أو ثقيلاً على المنافقين حيث إنّه يهتِك أسرارهم ويُبطل أديانهم وأقوالهم[٩]. أو ثقيلاً على العقل لأنّه لايفي بإدراك فوائده ودقائقه ورقائقه[١٠].

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً * وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لاَ إِلٰـهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾[٦ـ ٩]

ثمّ بيّن سبحانه حكمة أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بقيام الليل والعبادة فيها بقوله: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ﴾ والنهضة فيه، أو العبادة فيه ﴿هِيَ﴾ خاصة ﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ أو أكثر كُلفةً ومشقّةً على النفس من التي تُؤتى بالنهار، فتكون أفضل، لأنّ أفضل العبادة أشقّها، أو أوفق بالخلوص والخشوع، أو المراد أنّ النفس الناهضة بالليل للعبادة أشدّ ثباتاً وأكثر استقامة ﴿وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾ وأحسن كلاماً، كما عن ابن عباس[١١]، أو أخلص قولاً لأن الأصوات تهدأ فيه والحركات تنقطع فيه.

عن الصادق عليه السلام في الآية: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ﴾ قال: «قام قيام الرجل عن فراشه يُريد به الله عز وجل لايُريد به غيره»[١٢].

---

١. أرفضّ العرق: سال وترشّش.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ١٧٤.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٧٤.
٤. الجِران: باطن عنق البعير.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ١٧٤.
٦. في النسخة، وتفسير الصافي: بغلة شهباء.
٧. تفسير العياشي ٢: ١١٦١/٣، تفسير الصافي ٥: ٢٤٠.
٨. تفسير الرازي ٣٠: ١٧٤، تفسير الطبرى ٢٩: ٨٠، مجمع البيان ١٠: ٥٧٠.
٩ و١٠. تفسير الرازي ٣٠: ١٧٥.
١١. تفسير الرازي ٣٠: ١٧٦.
١٢. من لايحضره الفقيه ١: ١٣٦٧/٢٩٩، التهذيب ٢: ١٣٨٥/٣٣٦، تفسير الصافي ٥: ٢٤١.

﴿إِنَّ لَكَ﴾ يا محمد ﴿فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحاً﴾ وتقلّباً[1] وتصرّفاً أو فراغاً ﴿طَوِيلاً﴾ لحاجتك ونومك، فعليك بالقيام للعبادة في الليل.

ثمّ بيّن سبحانه ما ينبغي للعبد بعد تلاوة القرآن الاشتغال به بقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ بالقلب بذكر نَعْمائه وكمال قدرته وحكمته وألطافه، وباللسان بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير ﴿وَتَبَتَّلْ﴾ وانقطع من الدنيا وما فيها، بل عن غيره تعالى ﴿إِلَيْهِ﴾ وحده ﴿تَبْتِيلاً﴾ وانقطاعاً تاماً، لاتسأل غيره في حاجةٍ، ولاتتوجّه في آنٍ إلى ما سواه.

ثمّ مدح سبحانه ذاته المقدسة بمدح يوجب العقل الانقطاع إليه بقوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ وما بينهما ﴿لاَ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا معبود سواه، فاذا عرفت ربّك بهذه العظمة والقدرة الكاملة ﴿فَاتَّخِذْهُ﴾ واختره لنفسك ﴿وَكِيلاً﴾ ومدبّراً لجميع اُمورك، ومفوّضاً إليه جميع مقاصدك، وكفيلاً بما وعدك من النصر والغَلَبة على أعدائك.

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً * وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً * إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً * يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً[١٠ـ١٤]

ثمّ سلّى سبحانه حبيبه ﷺ بقوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ حبيبي بعد ما اتخذتني وكيلاً ﴿عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ هؤلاء المشركون فيك، وفوّض أمرهم إليّ، ولاتشغَل قلبك باصلاح اُمورك الراجعة إليهم ﴿وَٱهْجُرْهُمْ﴾ واترُك مخالطتهم، واصرِف قلبك عن التفكّر في أمرهم ﴿هَجْراً جَمِيلاً﴾ مقروناً بالمداراة والكفّ عن المافات ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين هم ﴿أُولِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ والتّرفُّه والرئاسة والتكبّر، وخَلِّ بيني وبينهم، فانّي اُكافي ما أهمّك من مجازاتهم ﴿وَ﴾ لكن ﴿مَهِّلْهُمْ﴾ وأخّر سؤال تعذيبهم زماناً ﴿قَلِيلاً﴾ وهو الزمان الباقي إلى يوم بدر، أو الباقي من عمرهم في الدنيا.

عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث يذكر فيه المنافقين ـ قال: «وما زال رسول الله ﷺ يتألّفهم ويُقرّبهم ويُجلسهم عن يمينه وشماله حتى أذِن الله عزّوجلّ في إبعادهم بقوله: ﴿وَٱهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾»[2].

أقول: لاينافي ذلك العموم لجميع المكذّبين.

ثمّ بيّن سبحانه ما أعدّ لهم من العذاب في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً﴾ وقيوداً ثقالاً لأرجلهم

---

١. في النسخة: وتقلباً. ٢. الاحتجاج: ٢٥٣، تفسير الصافي ٥: ٢٤٢.

﴿وَجَحِيماً﴾ وناراً عظيمةً شديدة الحرّ في مهواة ﴿وَطَعَاماً﴾ ومأكولاً ﴿ذَا غُصَّةٍ﴾ وأخذٍ بالحلق، لا هو نازلٌ منه ولا خارجٌ، كالزُّقّوم والضّريع ﴿وَعَذَاباً أَلِيماً﴾ غير ذلك لايُوصَف بالبيان.

رُوي أنّه لمّا نزلت الآية خرّ النبي ﷺ مغشيّاً عليه[1].

ثمّ عيّن سبحانه وقت النّكال والعذاب بقوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ وتُولول ﴿ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ التي هي أوتادها، وتضطربان بهيبة الله ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ كُلّها مع غاية صلابتها ﴿كَثِيباً﴾ وتلاً من رملٍ ﴿مَّهِيلاً﴾ وسائلاً من كثرة تفتيتها.

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَانَ شِيباً * ٱلسَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً * إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً[١٥ـ١٩]

ثمّ هدّد سبحانه المشركين على تكذيبهم الرسول ﷺ بقوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ﴾ أيّها المشركون ﴿رَسُولاً﴾ عظيم الشأن، ليكون ﴿شَاهِداً﴾ يشهد ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة بما صدر منكم من الايمان والكفر والطاعة والعصيان ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا﴾ في مصر ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ سلطان مصر ﴿رَسُولاً﴾ عظيم الشأن، وهو موسى بن عمران ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ ذلك ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ وكذّبه وعارضه ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾ بسبب عصيانه ﴿أَخْذاً وَبِيلاً﴾ وعذّبناه عذاباً شديداً، فاحذروا أيّها المشركون من أن ينزل عليكم بتكذيبكم رسولكم مثل ما نزل بهم، هبوا أنّكم لاتُؤخَذون بعصيانكم في الدنيا مثل أخذ فرعون ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ وتَحْفَظون أنفسكم ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ في بقية عمركم ودُمتم على عصيانكم ﴿يَوْماً يَجْعَلُ﴾ من شدّة أهواله وعظمة ما فيه من العذاب ﴿ٱلْوِلْدَانَ﴾ والأطفال الصغار ﴿شِيباً﴾ وشيوخاً بيض الشعور.

قيل: هو مَثَلٌ لشدّة الغموم والهموم؛ لأنّ لازمها انطفاء الحرارة الغريزية واستيلاء البلغم على الاخلاط وابيضاض الشعر[2].

وقيل: هو كناية عن طول المدّة واليوم[3].

ثمّ بالغ سبحانه في بيان أهوال اليوم بقوله: و ﴿ٱلسَّمَاءُ﴾ مع غاية عِظَمها وغِلْظتها ﴿مُنفَطِرٌ﴾ بسبب

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٢١٤.

٢. تفسير الرازي ٣٠: ١٨٤.

٣. تفسير روح البيان ١٠: ٢١٧.

هول ذلك اليوم، ومُنشقّ ﴿بِهِ﴾ فكيف بغيرها من الخلائق، واعلموا أنّ هذا اليوم الشديد الأهوال ممّا وعده الله و ﴿كَانَ وَعْدُهُ﴾ لامُحالة ﴿مَفْعُولاً﴾ ومُنجزاً ومتحقّقاً لامتناع الخُلف فيه، فليس للعاقل أن يرتاب في وقوعه ﴿إِنَّ هٰذِهِ﴾ المذكورات من الأنكال وما بعده ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ وعِظةٌ لمن شاء أن يَذّكّر ويتّعظ ﴿فَمَن شَاءَ﴾ من العقلاء النجاة من الأهوال والعذاب، والنيل بالراحة الأبدية وعِظَم الثواب ﴿ٱتَّخَذَ﴾ وحصّل ﴿إِلَىٰ﴾ قرب ﴿رَبِّهِ﴾ ومرضاته ﴿سَبِيلاً﴾ موصلاً له إلى مطلوبه، وهو الايمان بوحدانية الله تبارك وتعالى ورسالة رسوله ﷺ وطاعتهما.

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللهُ يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ وَآتُوا ٱلزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا ٱللهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[٢٠]

ثمّ إنّه رُوي أنّ الله تعالى لمّا فرض على النبيّ ﷺ وأصحابه في أوّل السورة قيام الليل قاموا حولاً كاملاً مع مشقّةٍ عظيمةٍ، من جهة أنّه كان يعسُرُ عليهم تمييز القدر الواجب، حتّى قام أكثرهم الليل كلّه خوفاً من الخطأ في إصابة القدر المفروض، وصاروا بحيث انتفخت أقدامهم، واصفرّت ألوانهم، فأنزل الله تبارك وتعالى التخفيف[١] بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ من نومك ومَضْجَعك للعبادة ﴿أَدْنَىٰ﴾ وأقلّ ﴿مِن ثُلُثَيِ ٱللَّيْلِ وَ﴾ تقوم ﴿نِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾ امتثالاً للأمر ﴿وَطَائِفَةٌ مِّنَ﴾ أصحابك ﴿ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ يقومون مثل قيامك اتّباعاً لك، وأنتم لاتتمكّنون من تقدير ساعات الليل والعلم بها ﴿وَٱللهُ﴾ وحده ﴿يُقَدِّرُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ ويعلم مقدار ساعاتهما و ﴿عَلِمَ أَن﴾ الشأن أنّكم ﴿لَّن تُحْصُوهُ﴾ ولا تعلمونه أبداً.

عن الباقر عليه السلام قال: «يقولون متى يكون النصف والثلث»[٢].

﴿فَتَابَ﴾ الله ورجع بالترحّم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخّص لكم ترك القيام المقدّر، ورفع التّبعة على تركه، إذن ﴿فَٱقْرَءُوا﴾ أيّها المؤمنون ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ وسهُل عليكم ﴿مِنَ ٱلْقُرآنِ﴾ في أيّ وقتٍ من الليل. قيل:

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٢١٨.
٢. تفسير القمي ٢: ٣٩٢، تفسير الصافي ٥: ٢٤٣.

يقرأ مائة آية، فانّ من قرأها كُتِب من القانتين. وقيل: خمسون. وقيل: سورة، ولو كانت قصيرة[١]. وقيل: إنّ المراد بقراءة القرآن الصلاة لاطلاق اسم[٢] الجزء على الكلّ[٣].

عن ابن عباس: سقط عن أصحاب رسول الله ﷺ قيام الليل، وصارت تَطوّعاً، وبقي ذلك فرضاً على النبي ﷺ[٤].

ثمّ ذكر سبحانه حكمةً أخرى للنسخ بقوله: ﴿عَلِمَ﴾ الله ﴿أَن سَيَكُونُ مِنكُم﴾ لامُحالة ﴿مَّرْضَىٰ﴾ يعسُر عليهم القيام بالليل ﴿وَ﴾ أشخاصٌ ﴿ءَاخَرُونَ﴾ غير المرضى ﴿يَضْرِبُونَ﴾ ويُسافرون ﴿فِى﴾ أقطار ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للتجارة أو طلب العلم أو غيرهما ﴿يَبْتَغُونَ﴾ ويطلُبون بمسافرتهم شيئاً ﴿مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ من ربحٍ أو علمٍ أو معرفةٍ ﴿وَ﴾ أشخاصٌ ﴿ءَاخَرُونَ﴾ غير الطائفتين ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ الأعداء، ويجاهدون ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ولطلب رضاه، فاذا كان الأمر كذلك ﴿فَٱقْرَءُوا﴾ أيّها المؤمنون بالقرآن ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ لكم وسهُل عليكم ﴿مِنْهُ﴾ بلا تحمّل مشقةٍ ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة بالليل والنهار ﴿وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبة. قيل: هي الفطرة إن كانت الآية مكية، والمالية إن كانت مدنية[٥].

﴿وَأَقْرِضُوا ٱللَّهَ﴾ من أموالكم بالانفاقات المستحبّة ﴿قَرْضاً حَسَناً﴾ وهو إخراجها من أطيب الأموال وأنفعها للفقراء بخلوص النية، وفي التعبير بالقرض غاية الحثّ عليه من حيث تنزيل ذاته المقدسة مع غَنائه المطلق منزلة المحتاج، والإشعار بعوده إليه مع زيادة.

ثمّ حثّ سبحانه على جميع العبادات بدنية كانت أو مالية بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا﴾ من دنياكم إلى الآخرة نفعاً ﴿لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ من الخيرات وعملٍ من الأعمال الصالحات، أيّ خيرٍ وعملٍ كان ﴿تَجِدُوهُ﴾ بعد الموت ﴿عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْراً﴾ قيل: إنّ الضمير المنفصل مؤكّد للضمير المتّصل، والمعنى تجدوه خيراً[٦].

﴿وَأَعْظَمَ أَجْراً﴾ من الوصية به حين الموت، أو من الدنيا وما فيها ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ﴾ من ذنوبكم في جميع أوقاتكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ وستارٌ للذنوب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده بإعطائهم الثواب العظيم.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة المزمّل في العشاء الآخرة أو في آخر الليل كان له الليل والنهار شاهدين مع سورة المُزمّل، وأحياه الله حياةً طيبةً، وأماته ميتةً طيبةً»[٧].

الحمد لله تعالى والشكر له.

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ١٨٧.
٢. في النسخة: لاطلاقا لاسم.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٨٦ و١٨٧.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ١٨٧.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ١٨٧، تفسير روح البيان ١٠: ٢٢١.
٦. تفسير الصافي ٥: ٢٤٤.
٧. ثواب الأعمال: ١٢٠، مجمع البيان ١٠: ٥٦٥، تفسير الصافي ٥: ٢٤٤.

في تفسير سورة المدَّثِّر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ[١ـ٧]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة المُزمّل المبدوءة بخطاب النبي ﷺ باللّقب الدالّ على التلطّف والرحمة، والمتضمّنة للأمر بتلاوة القرآن وتعظيمه وتهديد مكذّبيه، وأمره بالصبر على تكذيبهم وإيذائهم، أُردِفت بسورة المدّثر المبدوءة بخطاب النبي ﷺ باللقب المشابه للقب المذكور في السورة السابقة، وأمره بإنذار قومه وصبره على أذاهم، وتهديد بعض المكذّبين، فافتتحها بالأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ خاطب نبيّه الأكرم ﷺ بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ واللابس لثوب يُلبَس فوق الثياب للنوم أو الاستدثار[1] أو اللابس للباس النبوة. قيل: إنّ السورة من أوائل ما نزل[2]. رُوي عن جابر عن النبيّ ﷺ قال: «كنت على جبل حِراء فنُوديتُ: يا محمد إنّك رسول الله، فنظرتُ عن يميني ويساري فلم أر شيئاً، فنظرتُ فوقي فرأيت المَلَك قاعداً على عرشٍ بين السماء والأرض، فخفتُ فرجعت إلى خديجة، فقلت: دثّروني دثّروني وصبّوا عليّ ماءً بارداً، فنزل جَبْرَئيل بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾»[3].

وقيل: اجتمع أبوجهل وأبولهب وأبوسفيان والوليد بن المُغيرة والنّضر بن الحارث واُمية بن خلف والعاص بن وائل، وقالوا: إنّ وفود العرب يجتمعون أيّام الحجّ ويسألوننا عن أمر محمد، فان اُجاب كلٌّ منا بجوابٍ غير جواب الآخرين، كأن يقول بعضنا: إنّه كاهن، ويقول آخر: إنّه شاعر، ويقول ثالث: إنّه مجنون، فباختلاف الأجوبة يستدلّون على بطلانها، فتعالوا نجتمع على تسمية محمد باسمٍ واحدٍ، فقال واحدٌ: إنّه شاعرٌ. فقال الوليد: سَمِعتُ كلام عبيد بن الأبرص واُمية بن أبي الصلت وما يُشبه

---

١. في النسخة: الاستدفار.

٢. تفسير الرازي ٣٠: ١٨٩، تفسير البيضاوي ٢: ٥٤١، تفسير أبي السعود ٩: ٥٤.

٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٨٩، تفسير أبي السعود ٩: ٥٤، تفسير روح البيان ١٠: ٢٢٣.

كلامه كلامهما. وقال آخر إنّه كاهن، قال الوليد: من الكاهن؟ قالوا: الذي يَصْدُق تارةً ويكذِب أُخرى. قال الوليد: ما كَذَب محمد قطّ. قال آخر: إنّه مجنون. فقال الوليد: من المجنون؟ قالوا: مُخيف الناس. فقال الوليد: ما أُخيف محمد قطّ. ثمّ قام الوليد وانصرف إلى بيته. فقال الناس: صبأ الوليد بن المُغيرة، فدخل عليه أبوجهل، فقال: مالك يا أبا عبد شمس؟ هذه قريش تجمع لك شيئاً، زعموا أنّك احتجت وصبأت. فقال الوليد: مالي إلى حاجة، ولكنّي فكّرت في محمد فقلت: إنّه ساحرٌ، لأنّ الساحر هو الذي يفرّق بين الأب وابنه، والأخوين، وبين المرأة وزوجها. ثمّ إنهم اجتمعوا على تلقيب محمّد ﷺ بهذا اللقب، وخرجوا فصرخوا بمكة والناس مجتمعون فقالوا: إنّ محمداً ساحرٌ، فلمّا سَمع رسول الله ﷺ اشتدّ عليه ورجع إلى بيته محزوناً، فتدثّر بثوبه، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾[1].

وقيل: إنّه كان نائماً متدثّراً بثيابه، فجاءه جَبْرئيل وأيقظه، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ كأنّه قال له: قم واترُك التدثّر بالثياب والنوم، واشتغل بشُغل النبوة التي أعطاكها الله[2].

وقيل: إنّ التدثُّر كنايةٌ عن الاختفاء، فكأنّه تعالى قال: أيّها المختفي عن الناس في جبل حِراء، المتدثّر بدِثار الخُمول والاختفاء، قُم بأمر الرسالة، واخرُج من زاوية الخُمول، وأنذِر الناس، واشتغل بالدعوة إلى معرفة الله[3].

وعلى أيّ تقدير أمره الله سبحانه بقوله: ﴿قُمْ﴾ من مضجعك على الأول، أو قم قيام عزمٍ وتصميمٍ على الوجوه الأُخر ﴿فَأَنْذِرْ﴾ الناس وخوّفهم من عذاب الله على الشرك والعصيان. عن ابن عباس، قال: قم نذيراً للبشر[4]. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ وعظّم من أن يكون له شريك، أو ممّا يقوله عَبَدة الأوثان، أو فاذكُره بالكبرياء، وقُل: الله أكبر.

رُوي أنّه لمّا نزلت هذه الآية قام النبي ﷺ وقال: الله أكبر كبيراً، فكبّرت خديجة وفَرحت وعَلِمت أنّه أُوحي إليه[5].

وروى أنّه لمّا نزلت كبّر وأيقن أنّه الوحي، لأنّ الشيطان لا يأمُر بذلك[6].

قيل: إنّ حرف الفاء زائدة[7]. وقيل: إنّه لإفادة الشرط، والتقدير: وأيّ شيءٍ كان فلاتدع تكبيره[8].

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ١٨٩. ٢. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٠.
٣و٤. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٠.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ١٩١، تفسير أبي السعود ٩: ٥٤، تفسير روح البيان ١٠: ٢٢٥.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٢٢٥. ٧. تفسير الرازي ٣٠: ١٩١.
٨. تفسير أبي السعود ٩: ٥٤، تفسير روح البيان ١٠: ٢٢٥.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ من الأقذار بتشميرها، كما عن الصادق عليه السلام[١].

وعنه، عن أمير المؤمنين صلى الله عليه وآله، قال: «غسل الثياب يُذهِب الهمّ والحزن، وطهورٌ للصلاة، وتشمير الثياب طهورها، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي فشمّر»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «معناه: وثيابك فقصّر»[٣].

قيل: إنّ العرب كانوا يُطيلون ثيابهم، ويجرّون أذيالهم خُيلاءً أو كِبراً، فكانت تتنجّس، فنهى الرسول صلى الله عليه وآله عن ذلك[٤].

ورُوي أنّ المشركين ألقوا على رسول الله صلى الله عليه وآله سلى شاة، فشقّ عليه، ورجع إلى بيته حزيناً، وتدثّر بثيابه، فقيل: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾ ولا تمنعك تلك السفاهة عن الانذار ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ من أن لاينتقم منهم ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ عن تلك النجاسات والقاذورات[٥].

وقيل: تطهير الثوب كنايةٌ عن تطهير الأخلاق وتحسينها[٦]. والمراد لاتحمُلك سفاهتهم على ترك الإنذار، بل حسّن خُلقك، واصبر على أذاهم ولاتَجْزَع.

﴿وَٱلرُّجْزَ﴾ قيل: هو الشيطان[٧]. وقيل: هو العذاب[٨]. وقيل: كلّ عملٍ قبيحٍ موجبٍ للعذاب[٩]. وقيل: كلّ مستقذرٍ ورِجسٍ[١٠]. وقيل: هو الأوثان[١١].

﴿فَٱهْجُرْ﴾ وارفض ولاتَقْرَبه ﴿وَلاَ تَمْنُن﴾ على أحدٍ بإعطاء من مالك شيئاً حال كونك ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ وتطلُب زيادة مالك بعوض ما أعطيت، بل كلّما تُعطي شيئاً لاتطمع أن يُعوّضك ممّا أعطيت أكثر منه، فانّه لايليق بمقامك الرفيع ومنصبك العظيم، لأنّ الطمع في مال الناس من أخلاق طُلّاب الدنيا.

وعن الباقر عليه السلام: «لاتُعطِ العطية تلتمس أكثر منها»[١٢].

وقيل: يعني لاتُعطِ شيئاً وأنت تستكثره، بل عليك أن تستحقره وتستقلّه، وتكون كالمعتذر من قلّته[١٣].

وقيل: إنّ المراد لاتمنُنْ على الناس بما تعلّمهم من اُمور دينهم، كمن يستكثر ذلك الإنعام، فانّك

---

١. الكافي ٦: ١/٤٥٥، تفسير الصافي ٥: ٢٤٥.
٢. مجمع البيان ١٠: ٥٨١، تفسير الصافي ٥: ٢٤٦.
٣. مجمع البيان ١٠: ٥٨١، تفسير الصافي ٥: ٢٤٥.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٢.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ١٩١.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٢٢٥.
٧. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٣.
٨. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٣، تفسير روح البيان ١٠: ٢٢٦.
٩ و١٠. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٣.
١١. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٣، تفسير روح البيان ١٠: ٢٢٦.
١٢. تفسير القمي ٢: ٣٩٣، عن أبي الجارود، تفسير الصافي ٥: ٢٤٦.
١٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٥.

كنت مأموراً بالتبليغ فلا منّة لك عليهم[١].

وقيل: يعني لاتمنُنْ بنبوتك عليهم، لتستكثر وتأخُذ منهم أجراً[٢].

وقيل: يعني لاتمنُنْ على ربّك بهذه الأعمال الشاقة التي اُمِرْت بها في السورة، لكونها في نظرك كثيراً[٣].

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية: «لاتستكثر ما عَمِلت من خيرٍ لله تعالى»[٤].

﴿وَلِرَبِّكَ﴾ المنّان عليك بالنّعم العِظام ﴿فَاصْبِرْ﴾ على مشاقّ تكاليفه وأذى المشركين، لا الاغراض النفسانية والدنيوية كالمال والجاه.

فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ * فَذٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ * ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً[٨-١٧]

ثمّ إنّه تعالى بعد أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بالصبر، سلّى قلبه الشريف بتهديد الكفّار ومعانديه بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ ونُفِخ ﴿فِى ٱلنَّاقُورِ﴾ والصُّور النفخة الثانية للإحياء والنشور ﴿فَذٰلِكَ﴾ اليوم الذي بين أيديهم ﴿يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ وشاقّ في الغاية. وقيل: يعني فذلك النَّقر يومئذٍ نقر يومٍ عسير[٥]. ﴿عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾ لابتلائهم بالأهوال الفظيعة والشدائد العظيمة.

ثمّ أكّد سبحانه عُسره بقوله: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ لهم بوجهٍ من الوجوه. عن ابن عباس: لمّا قال غير يسير على الكافرين فُهِم أنّه كان يسيراً على المؤمنين[٦].

ثمّ خصّ سبحانه التهديد بأشقى المكذّبين للنبي صلى الله عليه وآله وكتابه، وهو الوليد بن المُغيرة بقوله تعالى: ﴿ذَرْنِى﴾ يا محمد، ودَعني والوليد ﴿وَ﴾ هو ﴿مَنْ خَلَقْتُ﴾ حال كونه ﴿وَحِيداً﴾ لامال له ولاولد ولاأعوان، فانّي أكفيكه وأُجازيه وأنتقم لك منه.

وقيل: إنّ المراد خلقته حال كوني وحيداً في خلقه لايُشاركني فيه غيري[٧].

وقيل: إنّ الوحيد لقب الوليد، وكان يقول: أنا الوحيد بن الوحيد، ليس لي ولا لأبي نظير[٨]. والمعنى:

١و٢. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٤.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٤.
٤. الكافي ٢: ١/٣٦٢، تفسير الصافي ٥: ٢٤٦.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٧.
٦ و٧. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٨.
٨. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٨، تفسير روح البيان ١٠: ٢٢٨.

خلّ بيني وبين الوليد، أعني وحيداً في ظنّه واعتقاده، أو وحيداً في الشقاوة والضلالة والدناءة[١]، أو وحيداً لايُعرَف له أب، لأنّه كان لحيقاً بقريش.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ﴾ في هذه الدنيا ﴿مَالاً مَمْدُوداً﴾ يأتيه شيئاً فشيئاً على الدوام كالضَّرع والزَّرع والتجارة.

وعن ابن عباس قال: كان ماله ممتدّاً ما بين مكة إلى الطائف [من] البساتين التي لاينقطع نفعها شتاءً وصيفاً، والإبل والخيل[٢].

وقيل: إن الممدود كنايةٌ عن الكثير الذي يمتدّ تعديده[٣].

﴿وَبَنِينَ﴾ كانوا كلّهم ﴿شُهُوداً﴾ وحضوراً عنده لايفارقونه، أو شهوداً معه في المجامع والمحافل. قيل: كانوا عشرة[٤]. وقيل: سبعة منهم خالد بن الوليد[٥].

﴿وَمَهَّدتُّ﴾ وبسطت ﴿لَهُ﴾ الرئاسة والجاه في قريش، وفي العيش والعمر ﴿تَمْهِيداً﴾ وبسطاً عجيباً، فأتممت عليه النِّعم الدنيوية ﴿ثُمَّ﴾ إنّه مع ذلك ﴿يَطْمَعُ﴾ من شدّة حِرصه على الدنيا ﴿أَنْ أَزِيدَ﴾ على ما أُعطيته حاشا و ﴿كَلَّا﴾ كيف يطمع [في] ذلك.

ثمّ كانّه قيل: لم لايطمع ولايُزداد؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ لخُبث ذاته ﴿كَانَ لِآيَاتِنَا﴾ ودلائل توحيدنا ومعجزات رسولنا وبراهين البعث والقيامة من قديم الأيام، أو آياتنا القرآنية ﴿عَنِيداً﴾ ومبغضاً ومعارضاً بلسانه، وإن كان معتقداً بقلبه، ولذا ﴿سَأُرْهِقُهُ﴾ وأُغشيه وأُكلّفه كرهاً بل[٦] ما يطعمه في الدنيا ﴿صَعُوداً﴾ وارتقاء عقبه شاقة المصعد بحيث تغشاه الشدّة والعذاب من كلّ جانب.

عن النبي ﷺ: «الصعود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفاً ثمّ يهوي كذا أبداً[٧].

وقيل: إنّه اسم عَقبة في النار، كلّما وضع يده عليها ذابت، فاذا رفعها عادت[٨].

إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هٰذَا إِلَّا قَوْلُ

---

١. في النسخة: والذنامة.

٢. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٨ و١٩٩، وقد المصنف خلط بين قول ابن عباس ومقاتل. تفسير أبي السعود ٩: ٥٦.

٣. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٩.

٤. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٩، تفسير أبي السعود ٩: ٥٦، تفسير روح البيان ١٠: ٢٢٨.

٥. تفسير الرازي ٣٠: ١٩٩، تفسير أبي السعود ٩: ٥٦.

٦. كذا، والظاهر: بدل، راجع تفسير روح البيان ١٠: ٢٢٩.

٧. تفسير الرازي ٣٠: ٢٠٠، تفسير أبي السعود ٩: ٥٧.

٨. تفسير الرازي ٣٠: ٢٠٠، تفسير أبي السعود ٩: ٥٧، تفسير روح البيان ١٠: ٢٢٩.

ٱلْبَشَرِ[١٨ـ٢٥]

ثمّ بيّن سبحانه كيفية عناده بقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ لعنه الله ﴿فَكَّرَ﴾ في القرآن وتدبّر ﴿وَقَدَّرَ﴾ ورتّب في خواطره كلاماً لصرف الناس عنه.

ثمّ أظهر سبحانه التعجّب من قوة فكره وتهيئة ردّه بقوله: ﴿فَقُتِلَ﴾ اللعين ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ورتّب هذا الكلام وَقيل: إنّ مدح كلامه على سبيل الاستهزاء، والمراد إظهار أنّه في غاية الرّكاكة[1].

ثمّ بالغ سبحانه في إظهار التعجّب من كلامه بقوله: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ورتّب كلامه الكذب من قبل نفسه ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ فيما قدّر.

قيل: فكّر أولاً وقدّر الكلام ثانياً، ثمّ نظر وتأمّل في ذلك المقدّر احتياطاً ثالثاً[2] أو نظر في القرآن ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ وقطّب وجهه من الغضب والعِناد حيث رأى نفسه عاجزاً عن ردّه وإبطاله ﴿وَبَسَرَ﴾ وتغيّر وجهه واسودّ، أو قبّض ما بين عينيه، أو استعجل في عبوسه وأظهره في غير موقعه.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحقّ، وأعرض عنه ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ عن اتّباعه ﴿فَقَالَ﴾ عَقيب إعراضه واستكباره: ﴿إِنْ هٰذَا﴾ القرآن الذي جاء به محمد، وما هذا الكلام الذي يتحدّي به ﴿إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ ويُتعلّم من الغير، وليس هو بكلام الله ﴿إِنْ هٰذَا﴾ وما ذلك ﴿إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾.

قيل: إنّ مراده من البشر يَسار وجُبير، كانا عبدين من فارس، وكان النبي ﷺ يُراودهما، وأبوه فكيهة كان غلاماً رومياً يتردّد إلى مكّة من طرف مُسيلمة الكذّاب في اليمامة[3].

رُوي أنّ الوليد مرّ بالنبي ﷺ وهو يقرأ حم السجدة[4] ـ وقيل: فواتح حم المؤمن[5] ـ فقال لبني مخزوم: والله لقد سَمِعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجنّ، إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطَلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمُغدق، وإنه يعلو ولايُعلى عليه. فقالت قريش صبا والله الوليد، لتصبأنّ قريش، أي بمتابعته فقال ابن أخيه أبوجهل: أنا أكفيكموه، فقعد عنده حزيناً، وكلّمه بما أغضبه، فقال الوليد: ألم تعلم قريش أنا أكثرهم مالاً وولداً إلى أن قال: أتزعُمون أنّ محمداً مجنون، فهل رأيتموه أنّه يُخلَق؟ فانّ العرب كانت تعتقد أنّ الشيطان يخلُق المجنون ويتخبّطه، أو تقولون: إنّه كاهن، فهل رأيتموه يتكهّن؟ أو تزعُمون أنّه شاعر، فهل رأيتموه يتعاطى الشعر قطّ؟ أو تزعُمون أنّه كذّاب، فهل جرّبتم عليه شيئاً من الكذب.

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢٠٠، تفسير روح البيان ١٠: ٢٢٩.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢٠٠.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٢٣١.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ٢٠٢.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٢٢٩.

فقالوا في كلّ ذلك: اللهمّ لانَعم قالوا: فما هو؟ وما تقول في حقّه؟ ففكّر فقال: ما هو إلّا ساحر، أما رأيتموه يُفرّق بين الرجل وأهله وولده ومواليه، وما الذي يقوله إلّا سحرٌ يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل، فارتجّ النادي فرحاً، فتفرّقوا متعجّبين منه راضين به[1].

وعن القمي: نزلت في الوليد بن المُغيرة: وكان شيخاً كبيراً مجرّباً من دُهاة العرب، وكان من المستهزئين برسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يقعُد في الحُجرة ويقرأ القرآن، فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المُغيرة، فقالوا: يا أبا عبد شمس، ما هذا الذي يقول محمد، أشعر، أم كِهانة، أم خُطَب؟ فقال: دعوني أسمع كلامه، فدنا من رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أنشدني من شعرك، فقال: «ما هو شعر، ولكنّه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه ورسله» فقال: اتلُ عليّ منه شيئاً فقرأ عليه رسول الله ﷺ: حم السجدة، فلمّا بلغ قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ يا محمد قريش ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[2] فاقشعر الوليد، وقامت كلّ شعرةٍ في رأسه ولحيته، ومرّ إلى بيته، ولم يرجع إلى قريش من ذلك.

ومشوا إلى أبي جهل فقالوا: يا أبا الحكم، إنّ أبا عبد شمس صبأ إلى دين محمد، أما تراه لم يرجِع إلينا. فغدا أبوجهل إلى الوليد، وقال له: يا عم، نكّست رؤوسنا وفضحتنا، وأشمت بنا عدوّنا، وصبوت إلى دين محمد! فقال: ما صبوت إلى دينه، ولكنّي سَمِعت كلاماً صعباً، تقشعرّ منه الجلود. فقال له أبوجهل: أخُطَب هو؟ قال: لا. إنّ الخُطَب كلامٌ مُتصل، وهذا كلام منثور، ولايُشبِه بعضه بعضاً. قال: أفشعر هو؟ قال: لا، أما انّي سمعت أشعار العرب بسيطها ومديدها ورملها ورجزها، ما هو بشعرٍ. قال: فما هو؟ قال: دعني أُفكّر فيه.

فلمّا كان من الغد قال له: يا أبا عبد شمس، ما تقول فيما قلنا؟ قال: قولوا هو سحر، فانّه أخذ بقلوب الناس، فأنزل الله على رسوله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾ وإنّما سمّي وحيداً لأنّه قال لقريش: أنا أتوحّد بكُسوة البيت سنة، وعليكم في جماعتكم سنة. وكان له مالٌ كثيرٌ وحدائق، وكان له عشر بنين بمكّة، وكان له عشرة عبيد، عند كلّ [عبدٍ] ألف دينار يتجر بها[3].

سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً

---

١. جوامع الجامع: ٥١٧، تفسير الصافي ٥: ٢٤٨، تفسير أبي السعود ٩: ٥٧، تفسير روح البيان ١٠: ٢٢٩.

٢. فصلت: ١٣/٤١. ٣. تفسير القمي ٢: ٣٩٣، تفسير الصافي ٥: ٢٤٧.

لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلاَ يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ وَٱلْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللهُ بِهٰذَا مَثَلاًكَذٰلِكَ يُضِلُّ ٱللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ * كَلاَّ وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَالإِحْدَى ٱلْكُبَرِ * نَذِيراً لِلْبَشَرِ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ[٢٦ـ٣٧]

ثمّ فسّر سبحانه تهديده بإرهاقه الصعود بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ﴾ وأُدخله عُنفاً وجبراً ﴿سَقَرَ﴾ وجهنم. قيل: إن سَقر أحد أسماء جهنم[١]. وعن ابن عباس: أنّه اسم للطبقة السادسة من جهنم[٢].

ثمّ بالغ سبحانه في التهويل بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأي شيء أعلمك يا محمد ﴿مَا سَقَرُ﴾؟ فانّ العلم بها وبوصفها وشدّة حرّها خارجٌ عن إدراك العقول في هذا العالم، إنّما الممكن من إدراكها أن يقال: إنّها ﴿لاَ تُبْقِى﴾ ممّا ألقى فيها شيئاً بل تُهلكه بالإحراق ﴿وَلاَ تَذَرُ﴾ هالكاً حتّى يُعاد.

عن ابن عباس: أنّها لاتبقي من الدم واللحم والعظم شيئاً، فاذا أُعيدوا خلقاً جديداً لاتَذَر أن تعاود إحراقهم بأشدّ ممّا كانت، وهكذا أبداً[٣]، ولا تبقي من المستحقّين للعذاب إلّا عذّبتهم، ثمّ لاتَذَر من أبدان أُولئك المعذّبين شيئاً إلّا أحرقته.

وقيل: يعني لاتُبقي من أبد ان المعذّبين شيئاً، ولا تَذَر من قوّتها وشدتّها شيئاً إلّا أعملت تلك القوة والشدّة في تعذيبهم[٤].

وقيل: إنّ الجملتين مترادفتان ذُكِرا للتأكيد[٥].

وتلك الجحيم ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ وظاهرة ﴿لِلْبَشَرِ﴾ وبني آدم من مسيرة خمسين عام، ويصل إلى الكافر سمومها وحُرورها، كما يصل إلى المؤمن ريح الجنة ونسيمها من تلك المسافة، كذا قيل[٦]. وقيل: إنّ المعني مغيرةٌ لظاهر الجلد[٧] ويصير لونها أسود كالليل المظلم، ومأمور من قبلنا بتنظيم أُمور سقر، وموكّل ﴿عَلَيْهَا﴾ ومُسلّط على أهلها ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ من الملائكة الغِلاظ الشّداد. قيل: أعينهم كالبرق، وأنيابهم كالصياصي، وأشفارهم تَمَسّ أقدامهم، يخرُج لهب النار من أفواههم، ما بين مَنْكِبي كلّ منهم مسيرة سنة، كفّ أحدهم يَسَع مثل ربيعة ومُضر، نُزِعت منهم الرأفة والرحمة، رئيسهم

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٢٣١.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢٠٢، تفسير روح البيان ١٠: ٢٣١.
٣ـ٥. تفسير الرازي ٣٠: ٢٠٢.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٢٣١.
٧. تفسير أبي السعود ٩: ٥٨، تفسير روح البيان ١٠: ٢٣١.

مالك[١].

ثمّ رُوي أنّه لمّا نزلت الآية قال أبوجهل لقريش: ثَكِلتكم أمّهاتكم، قال ابن أُبي كبشه أنّ خَزَنة النار تسعة عشر، وأنتم الجمع العظيم أيعجز[٢] كلّ عشرة منكم أن يبطِشوا برجلٍ منهم؟ فقال أبو الأشدّ أو أبو الأسود ـ بن أسيد بن كَلَدَة الجُمحي، وكان شديد البطش: أنا أكفيكم سبعة عشر، وأكفوني أنتم اثنين. فلمّا قال أبوجهل وأبو الأشدّ ـ أو أبو الأسود ـ ذلك قال المسلمون: ويحكم لاتُقاس الملائكة بالحدّادين أي السجّانين. فنزلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ ٱلنَّارِ﴾[٣] وخَزنتها الذين يقومون بأمرها ﴿إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ وكلّ واحدٍ منهم أقوى من جميع الإنس والجنّ، وأطوع لأوامر الله، وليس لهم رأفة بالثقلين لمخالفتهم إياهم في الجنس.

عن النبي ﷺ قال: «لقوّة أحدهم مثل قوة الثقلين، يسوق أحدهم الأُمّة وعلى رقبته جبل فيرمي بهم في النار، ويرمي بالجبل عليهم»[٤].

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا﴾ العدد الذي يكون ﴿فِتْنَةً﴾ وسبباً لازدياد الكفر ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وأصرّوا على كفرهم وعنادهم، وما أخبرنا بعددهم الا ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى بصحّة نبوّة محمد ﷺ وصدق كتابه، لما شاهدوا من موافقته لكتبهم من أنّ محمداً أُمّي لم يقرأها ولم يسمع شيئاً من علمائهم ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بمحمدٍ ﷺ وكتابه ﴿إِيمَاناً﴾ ويقيناً بهما بما رأوا من تصديق أهل الكتاب ما في القرآن.

رُوي أنّ اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن خَزَنة النار وعددهم، فأجاب ﷺ بأنّهم تسعة عشر[٥].

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ولا يعتريهم الشكّ بعد يقينهم بنوة محمد ﷺ وصدق كتابه، ولاتعرض لهم[٦] شُبهة ما، بل يكون يقينهم يقيناً ثابتاً جازماً ﴿وَلِيَقُولَ﴾ المنافقون ﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الكفر والنفاق والشكّ ﴿وَٱلْكَافِرُونَ﴾ المتجاهرون بالكفر المصرّون عليه استهزاءً بالقرآن وإنكار الآية من عند الله: ﴿مَاذَا﴾ وأي شيء ﴿أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ العدد الذي عيّن لخزنة جهنّم؟ وهو العدد الناقص عن العقد، ولم يقل عشرون أو ثلاثون، فهو يكون ﴿مَثَلاً﴾ في الغُرابة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرنا من هداية أهل الكتاب، وازدياد يقين المؤمنين بنزول هذه الآية، وإضلال الكافرين والمنافقين ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَاءُ﴾ إضلاله على خُبث طينته وذمائم أخلاقه

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢٠٣، تفسير روح البيان ١٠: ٢٣١ و٢٣٢.
٢. في النسخة: أيفجر.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢٠٣.
٤. تفسير أبي السعود ٩: ٥٩، تفسير روح البيان ١٠: ٢٣٣.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٢٣٤.
٦. في النسخة: ولايعرضهم.

وسيئات أعماله ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايته بمقتضى طيب طينته وحُسن نيته وأخلاقه، وإنّما يكون اختيار هذا العدد القليل لخزّان جهنّم لحكمة مقتضيه لذلك، لا لقلّة الملائكة الذين هم جنود الله، فانّهم من كثرتهم بحيث لايحصون[١] ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة وسائر الموجودات ﴿إِلَّا هُوَ﴾ تعالى، فهو قادر على أن يكثّر عدد الخَزَنة، بل لكلّ واحدٍ منهم أعوان من الملائكة لايعلم عددهم إلّا الله، وليست عدّة الخزنة، أو سقر، أو تلك الآيات ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ وعِظةٌ ﴿لِلْبَشَرِ﴾ كافة ولبني آدم عامة.

﴿كَلَّا﴾ لايتذكّرون بتلك الذكريات[٢] والمواعظ إلّا العقلاء وأهل الإيمان، أو المراد ليس لأحدٍ مجال إنكار سقر ﴿وَالْقَمَرِ﴾ المضيء الذي تُعرف به الأوقات والآجال، وتظهر به عجائب الصُّنع وكمال قدرته في حركاته المختلفة التي هي مع كثرتها واختلافها على نظامٍ واحدٍ. وقيل: يعني أُقسم بخالق القمر[٣].

﴿وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ وحين ذهب وانقضى، كما عن ابن عباس[٤]. ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ وأضاء، وهو من الأوقات الشريفة التي يظهر فيها قدرة الله ورحمته ﴿إِنَّهَا﴾ قيل: إن الضمير راجعٌ إلى سقر[٥]، والمعنى أُقسم بهذه الأيمان المذكورة أنّ سَقَر ﴿لَإِحْدَى﴾ الطبقات، أو الدواهي ﴿الْكُبَرِ﴾ والعِظام، والطبقات الأُخر لَظى والحُطمة والسعير والجحيم والهاوية وجهنّم.

وقيل: إنّه راجعٌ إلى الزبانية التسعة عشر، والمعنى أنّ التسعة عشر من إحدى الحجج العظام على قدرة الله على تعذيب جميع العصاة من بدو الخلقة إلى آخر الدهر بعدةٍ قليلة من الملائكة[٦]، وجعلنا ذلك ﴿نَذِيراً﴾ ومخوفاً أو انذاراً وتخويفاً ﴿لِلْبَشَرِ﴾ أعني ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ﴾ أيّها الناس ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ ويسبق إلى الخيرات بهداية الله تعالى ﴿أَوْ﴾ لم يشأ و ﴿يَتَأَخَّرَ﴾ ويُكفّ نفسه عنه باضلال الله.

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ[٣٨-٤٧]

---

١. في النسخة: لايحصى.
٢. في النسخة: الذكرات.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٢٣٨.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ٢٠٨.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ٢٠٩، تفسير روح البيان ١٠: ٢٣٨.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٢٣٨.

أيّها الناس اعلموا أنّه ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس رجلاً كان أو امرأة ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وعَمِلت في الدنيا لآخرتها ﴿رَهِينَةٌ﴾ عند الله ومحبوسةٌ بسيئاتها ﴿إِلَّا أَصْحَابَ ٱلْيَمِينِ﴾ وذوي الأعمال الصالحة من المؤمنين، فانّهم ـ بامتثال ما عليهم من التكاليف، وأداء حقوق الله إليه، وبإبراء ذممهم من الواجبات وترك المحرّمات ـ فاكوّن رقابهم كما يَفُكّ الراهن رهنه بأداء دينه.

وقيل: إنّ المراد بهم أطفال المسلمين[1] فهم ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ وهم لما يعرفوا في الدنيا التكليف والذنب ﴿يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الذين يرونهم في جهنّم، ويقولون لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ وأي شيءٍ حبسكم، أو أدخلكم ﴿فِي﴾ دركة ﴿سَقَرَ﴾ وقال القائلون بالقول الأول: إنّ المؤمنين لسال بعضهم بعضاً عن المجرمين: أين هم؟ فلمّا رأوهم قالوا لهم: ما سلككم في سقر؟ ﴿قَالُوا﴾ في جوابهم: إنّا ﴿لَمْ نَكُ﴾ في الدنيا ﴿مِنَ﴾ جملة ﴿ٱلْمُصَلِّينَ﴾ والمؤدّين للصلاة الواجبة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «تعاهدوا أمر الصلاة وحافظوا [عليها] واستكثروا منها، وتقرّبوا بها، فانّها كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً، ألا تسمعون إلى جواب أهل النار حين سُئلوا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾»[2].

وعن الصادق عليه السلام قال: «اعني لم نكُ من أتباع الأئمة الذين قال الله تعالى لهم: ﴿وَٱلسَّابِقُونَ ٱلسَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[3] أماترى الناس يُسمّون الذي يلي السابق مُصلّياً، فذلك الذي [عنى] حيث قال: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أي لم نك من أتباع السابقين»[4].

وعن الكاظم عليه السلام قال: «يعني أنّا لم نتولّ وصيّ محمد صلى الله عليه وآله والأوصياء من بعده، ولم نُصلّ عليهم»[5].

أقول: هاتان الروايتان تأويل لاتفسير.

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ ولم نُعطهم الزكاة الواجبة، أو المراد نبخُل بأموالنا ﴿وَكُنَّا﴾ في الدنيا ﴿نَخُوضُ﴾ ونُشرع في الأقوال الباطلة، كذمّ النبي صلى الله عليه وآله والاستهزاء به وبكتابه ﴿مَعَ ٱلْخَائِضِينَ﴾ والشارعين فيها ﴿وَكُنَّا﴾ مع جميع ذلك ﴿نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ونجحَد دار الجزاء ﴿حَتَّىٰ أَتَانَا ٱلْيَقِينُ﴾ وأدركنا الموت.

فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢١٠.
٢. نهج البلاغة: ٣١٦ الخطبة ١٩٩، تفسير الصافي ٥: ٢٥١.
٣. الواقعة: ١٠/٥٦ و١١.
٤. الكافي ١: ٣٨/٣٤٧، تفسير الصافي ٥: ٢٥١.
٥. الكافي ١: ٩١/٣٦٠، تفسير الصافي ٥: ٢٥١.

مُسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ[٤٨-٥١]

ثمّ لمّا حكى سبحانه سبب استحقاق المجرمين للعقاب، بيّن عدم المانع من تعذيبهم بقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ﴾ لدفع العذاب ﴿شَفَاعَةُ﴾ جميع الأنبياء والأوصياء والأولياء ﴿ٱلشَّافِعِينَ﴾ للعصاة، لو فُرض مُحالاً بشفاعتهم لهم، لاشراط قبولها بقابلية المشفوع له للشفاعة، ولاقابلية للكفّار لها، فاذا كان هذا حال المكذّبين بالقرآن ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ وأيّ داعٍ دعاهم إلى أن يكونوا ﴿عَنِ﴾ القرآن الذي هو عين ﴿ٱلتَّذْكِرَةِ﴾ والموعظة للناس لشدّة لزومه لها ﴿مُعْرِضِينَ﴾ مع تعاضُد موجبات الإقبال عليه، وتأكُّد الدواعي للايمان به والاتّعاظ منه، والعجب مع ذلك أنّهم يفِرّون من استماع القرآن ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ﴾ وحشيةٌ كما عن ابن عباس[١] ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ وهاربة ﴿فَرَّتْ﴾ وهربت ﴿مِن قَسْوَرَةٍ﴾ عن ابن عباس: القسورة: الأسد بلسان الحبشة. وقال: الحُمر الوحشية إذا عاينت الأسد هربت، كذلك المشركون إذا رأوا محمداً ﷺ هربوا منه[٢].

وقيل: القسورة: جماعة الرُّماة الذين يتصيّدون الحُمر[٣]. وقيل: رَكز الناس وأصواتهم[٤] وفيه غاية ذمّهم وتهجين حالهم وشهادة عليهم بالبَلَد[٥] حيث إنّه لانِفار مثل نِفار الحُمر الوحشية واطرادها في العَدْو إذا خافت من شيء.

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفاً مُّنَشَّرَةً * كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ[٥٢-٥٦]

ثمّ لمّا قال سبحانه: ما لهم يُعرِضون عن النبي ﷺ، أو القرآن، بيّن سبب ذلك بقوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ﴾ ورجلٍ ﴿مِّنْهُمْ﴾ ويتوقّع كلّ فردٍ من أفرادهم ﴿أَن يُؤْتَىٰ﴾ من جانب الله ﴿صُحُفاً﴾ وكُتباً ﴿مُّنَشَّرَةً﴾ ومفتوحةً.

ورُوي أنّ أباجهل وعبدالله بن اُمية وأصحابهما قالوا لرسول الله ﷺ: لن نتّبعك حتى تأتي كلّ واحدٍ منّا بكُتبٍ، أو قالوا: يُصبح عند رأس كلّ رجلٍ منّا أوراق منشورة، عنوانها: من ربّ العالمين إلى فلان بن فلان، نُؤمَر فيها باتّباعك[٦].

١و٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢١٢.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢١٢، تفسير روح البيان ١٠: ٢٤١.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ٢١٢.
٥. في تفسير الرازي: بالبله. والبَلَد: قلّة الذكاء. والبَلَه: ضعف العقل وغلبة الغفلة.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٢٤٢.

وقيل: قالوا: إن كان محمد صادقاً، فليُصبح عند رأس كلّ رجلٍ منا صحيفة فيها براءة من النار[١].

﴿كَلَّا﴾ لم يقولوا هذه الكلمات، ولم يقترحوا تلك الآيات لرفع الشُّبهة ﴿بَل﴾ للعِناد واللَّجاج ﴿لاَّ يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ وشدائدها، لأنّهم ينكرونها ويستغرقون في حُبّ الدنيا وشهواتها ﴿كَلَّا﴾ ليس لأحدٍ أن يُعرِض عن القرآن حيث ﴿إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ بليغةٌ كافيةٌ، وموعظةٌ شافيةٌ لأهل العالم ﴿فَمَن شَاءَ﴾ الذّكر والعِظة ﴿ذَكَرَهُ﴾ واتّعظ به، وجاز به خير الدارين.

وقيل: إنّ الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ و ﴿ذَكَرَهُ﴾ راجعٌ إى التذكره في قوله: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ لأنّها في معنى الذّكر والقرآن[٢].

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ ولايتّعظون ولايهتدون به ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾ تذكّرهم واتّعاظهم، أو هدايتهم به، وفيه دلالةٌ على أنّه بمشية الله وإرادته العبد، لأنّه لاجبر ولاتفويض بل أمرٌ بين الأمرين، كما حقّقناه في أوائل البقرة.

ثمّ وصف سبحانه ذاته المقدّسة بما يُوجب الخوف والرجاء بقوله: ﴿هُوَ﴾ تعالى ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ وحقيق بأن يُخاف منه ومن عقابه على ترك الايمان وطاعته، لأنّه ذوانتقامٍ وشديد العقاب ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ وحقيق بأن يغفِر لمن آمن به وأطاعه.

عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أهلٌ أن أتّقى ولايُشرِك بي عبدي شيئاً، وأنا أهلٌ إن لم يُشرِك بي عبدي شيئاً أن أدخله الجنّة».

وقال عليه السلام: «[إن الله تبارك وتعالى] أقسم بعزته وجلاله أن لايُعذّب أهل توحيده بالنار أبداً»[٣].

عن الباقر عليه السلام: «من قرأ في الفريضة سورة المدّثر، كان حقاً على الله عزوجل أن يجعله مع محمد صلى الله عليه وآله في درجته، ولايُدركه في الحياة الدنيا شقاءٌ أبداً إنشاء الله تعالى»[٤].

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢١٢.

٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢١٣، تفسير روح البيان ١٠: ٢٤٢.

٣. التوحيد: ٦/٢٠، تفسير الصافي ٥: ٢٥٢.

٤. ثواب الأعمال: ١٢٠، مجمع البيان ١٠: ٧٧، تفسير الصافي ٥: ٢٥٢.

في تفسير سورة القيامة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ[١ـ٣]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة المُدّثر المتضمّنة لبيان بعض أهوال القيامة وبيان عَظَمة القرآن، وأنّ مكذّبيه لايخافون الآخرة، نُظِمت سورة القيامة المتضمّنة لبيان بعضٍ آخر من أهوال القيامة، وبيان عَظَمة القرآن المجيد، وأنّ مكذّبيه يُحبّون العاجلة ويَذَرون الآخرة، وغير ذلك من المناسبات بين السورتين الشريفتين، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله تبارك وتعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع سبحانه في إثبات المعاد بقوله: ﴿لاَ أُقْسِمُ﴾ على وقوع المعاد ﴿بِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ﴾ عليه ﴿بِالنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ لعَظَمة شأنهما وعدم الحاجة في وقوعه إلى القسم لوضوحه. وقيل: إنّ حرف ﴿لاَ﴾ زائدة للتأكيد[١]. والمعنى أُقسم بيوم القيامة وبالنفس اللّوامة أنّكم لتُبعثنّ.

عن ابن عباس: كلّ نفس تلوم نفسها يوم القيامة [سواء] كانت فاجرة أو بَرّه، أمّا البَرّة فَلأجل أنّها لم تزد على طاعتها، وأمّا الفاجرة فلأجل أنّها لم تشتغل بالتقوى[٢].

وقيل: إنّ المراد النفوس المتقية التي تلوم النفس العاصية يوم القيامة[٣].

وقيل: إنّ المراد النفوس الشريفة التي تلوم نفسها وإن اجتهدت في الطاعة[٤].

وقيل: إنّها النفوس الشقية، فانّها تلوم نفسها إذا شاهدت أهوال القيامة[٥]. قيل: وجه المناسبة بين المقسمين أنّ ظهور شدّة اللوم يكون في ذلك اليوم[٦].

ثمّ أنكر سبحانه استبعاد البعث أو امتناعه أو أظهر التعجّب منه بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ ويتخيّل ﴿ٱلْإِنسَانُ﴾ العاقل ﴿أَلَّن﴾ نقدِر على أن ﴿نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ بعد موته. عن ابن عباس: أنّ المراد

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢١٤، تفسير روح البيان ١٠: ٢٤٣.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢١٥.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢١٦.
٤و٥. تفسير الرازي ٣٠: ٢١٦.
٦. مجمع البيان ١٠: ٥٩.

بالانسان أباجهل[١].

ورُوي أنّ عَديّ بن أبي ربيعة ختن الأخنس بن شريق، وهما اللذان قال رسول الله ﷺ فيهما: «اللهمّ أكفني شرّ جاري السُّوء» قال لرسول الله ﷺ: يا محمد، حدّثني عن يوم القيامة متى يكون، وكيف أمره؟ فأخبره رسول الله ﷺ، فقال: لو عاينت ذلك اليوم لم أُصدّقك يا محمد ولم أُؤمن بك، كيف يجمع الله العظام[٢].

بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ * وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ * يَقُولُ ٱلْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ[٤ـ١٠]

ثمّ ردّ سبحانه المنكرين بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ نحن كنّا ﴿قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ﴾ ونصنع ﴿بَنَانَهُ﴾ وأصابعه وأطرافها كما كانت بعد صيرورتها رميماً ورُفاةً مختلطاً بالتراب متفرّقاً في أقطار الأرض مع صغرها ورقّتها، فكيف بغيرها من العظام الكبار الغِلاظ؟

ثمّ نبّه سبحانه على أنّ الحسبان ليس بشُبهةٍ وترديدٍ في إمكان إحياء الموتى وقدرة الله عليه ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَانُ﴾ المنكر للبعث ﴿لِيَفْجُرَ﴾ ويكذّب بما يكون ﴿أَمَامَهُ﴾ وقُدّامه من البعث والحساب. وقيل: ليدوم على فجوره وعصيانه فيما يستقبله من الزمان لاينزع عنه[٣].

وعن القمي وسعيد بن جبير: ليُقدّم الذنب ويُؤخّر التوبة ويقول: سوف أتوب، حتى يأتيه الموت على شرّ أحواله وأسوأ أعماله[٤]. وهو لإصراره على الذنب ﴿يَسْأَلُ﴾ تكذيباً واستهزاءً بإخبار الله ورسوله بالبعث ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ﴾ ومتى يكون؟ فأجابه سبحانه بقوله: ﴿فَإِذَا بَرِقَ﴾ وتحيّر ﴿ٱلْبَصَرُ﴾ وشَخَص برؤية الأهوال الفازعة في يوم تَشْخَص فيه الأبصار، أو يوم الموت برؤية أسبابه والملائكة الحاضرين لقبض روحه، فعند ذلك يتيقّن بأن إنكاره البعث كان خطأً وغلطاً ﴿وَ﴾ إذا ﴿خَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ وذهب ضوؤه أو انعدم جُرمه بالكلية ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ في ذهاب النور، كما عن النبي ﷺ[٥] وفي الإعدام.

وقيل: يُجمعان أسودين مكوّرين كأنّهما ثوران عقيران في النار[٦]. وقيل: يُجمعان ثمّ يقذفان في

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢١٧.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢١٧، تفسير أبي السعود ٩: ٦٥، تفسير روح البيان ١٠: ٢٤٤.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٩١٨.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٩٦، تفسير الصافي ٥: ٢٥٤، تفسير الرازي ٣٠: ٢١٨، عن سعيد بن جبير.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٢٤٦.
٦. تفسير الرازي ٣٠: ٢٢٠.

[البحر، فهناك] نار الله الكبرى[١] ليكون حسرة على من عبدهما، وإنّما ذكّر الفعل لأنّ الكلام في تأويل جُمِع بينهما أو جُمِع النوران، أو لتقدّم الفعل.

فعند ذلك ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَانُ﴾ المُنكِر للبعث من كَثرة التحيّر وشدّة الوحشة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ووقت مشاهدة الأهوال: إياساً عن إمكان الفِرار: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ وهل إلى موضعٍ يَحْفَظني سبيل؟

كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّؤُ ٱلْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ ٱلْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ[١١ ـ ١٥]

ثمّ ردعهم سبحانه عن الطمع في الفِرار بقوله: ﴿كَلَّا﴾ وحاشا أن تجدوا مفرّاً ﴿لَا وَزَرَ﴾ ولاملجأ ولامعاد لأحدٍ من العذاب، بل ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ومشيئته وحُكمه ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ والمرجِع لا إلى غيره. وقيل: يعني إلى مشيئة ربّك مستقرّهم ومنزلهم من الجنّة والنار[٢].

﴿يُنَبَّؤُ﴾ ويُخبَر ﴿ٱلْإِنسَانُ﴾ المُكلّف في الدنيا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ من عمل خير وصدقة مال وعبادة خالصة ﴿وَ﴾ ما ﴿أَخَّرَ﴾ وترك ولم يعمل. وقيل: يعني ممّا قدّم من أعماله مطلقاً خيراً كان أو شراً، أو بما أخّر من زمان حياته من سُنّةٍ حسنةٍ أو سيئة[٣].

عن الباقر عليه السلام: «بما قدّم من خيرٍ وشرٍّ، وما أخّر من سُنّة يُسْتَنّ بها من بعده، فان كان شرّاً كان عليه وزر من عمل بها، ولم يَنقص من وزرهم شيئاً، وإن كان خيراً كان له مثل أُجورهم، ولايـنقص من أُجورهم شيئاً»[٤].

وقيل: إنّ معنى (ما ﴿أَخَّرَ﴾) ماخلّفه من المال، أو أوقفه، أو أوصى به[٥].

﴿بَلِ ٱلْإِنسَانُ﴾ لايحتاج إلى أن يُنبّأه بأعماله ويُخبِره غيره بها، لأنه ﴿عَلَىٰ﴾ جميع أعمال ﴿نَفْسِهِ﴾ في الخلوات والجلوات صغيرها وكبيرها حُجّة ﴿بَصِيرَةٌ﴾ وبيّنة واضحة، أو المراد ذو بصيرةٍ كاملةٍ، لحضور جميع أعماله في نظره بصورتها البَرْزَخية، وشهادة جوارحه بها، وتُقبَل شهادتها عليه ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ وأرخى ستوره وأراد إخفاء أعماله.

قيل: إن السُّتور استعمل مجازاً في الأعذار بعلامة المشابهة، فكما أنّ السُّتور تمنع رُؤية المحتجب،

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢٢٠.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢٢١، تفسير أبي السعود ٩: ٦٦، تفسير روح البيان ١٠: ٢٤٦.
٣. تفسير أبي السعود ٩: ٦٦، تفسير روح البيان ١٠: ٢٤٧.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٩٧، تفسير الصافي ٥: ٢٥٥.
٥. تفسير أبي السعود ٩: ٦٦، تفسير روح البيان ١٠: ٢٤٧.

كذلك المعذرة تمنع قُبح الذنب[1].

وقيل: يعني ولو جاء بأعذاره، بأن يقول: حملني على العصيان الضرورة وشدّة الحاجة، أو الجهل بالحكم، أو خوف ذَهاب الجاه ونحوها من الأعذار، فانّها لاتنفعه، لعلمه، بأنّه كاذبٌ فيها، أو صادق ولاتكون عُذراً فيه[2].

عن الصادق عليه السلام قال: «ما يصنع أحدكم أن يُظهر حُسناً، ويستُر سيئاً؟ أليس إذا رجع إلى نفسه يعلم أنّه ليس كذلك، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ إنّ السريرة إذا صلحت قويت العلانية»[3]. وعنه عليه السلام أنّه تلا هذه الآية فقال: «ما يصنع الانسان أن يعتذر إلى الناس بخلاف مايعلم الله منه؟ إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: من أسرّ سريرة ألبسه الله رداءها إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ»[4].

لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ * كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ [١٦ ـ ٢١]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه أنّ علم الانسان يوم القيامة بما صدر منه في الدنيا كافٍ لايحتاج إلى إخبار الغير به في ذلك اليوم، وكان النبي صلى الله عليه وآله يستعجل في قراءة ما يقرؤه عليه جَبْرئيل من القرآن ليَحْفَظه، بيّن سبحانه أنّك يا محمد لاتحتاج إلى التعجيل في القراءة في حِفظك القرآن بقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ بالقرآن ولاتنطِق ﴿بِهِ لِسَانَكَ﴾ حال قرأءة جَبْرئيل عليه آياته ﴿لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ وتُسارع إلى أخذه وحِفظه مخافة أن ينفلت، فكما أنّ علينا جمع العظام النَّخِرة ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ في صدرك بحيث لاينفلت منه شيءٌ من آياته وكلماته وحروفه، ولا يخفى عليك شيءٌ من معانيه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ﴾ عليك بلسان جَبْرئيل وتمّت قراءته وتلاوته وسكت ﴿فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ وتلاوته عليك، واتلُه كما تلي، ولا تُكلّف نفسك بالقراءة مقارنةً لقراءته.

أقول: فظهر أنّه ليس في الآية نهي تحريم حتى يرِد إشكال، بل هو إرشادٌ إلى الأسهل ورفع للكُلفة عنه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا﴾ في كلّ ما أشكل عليك فهمه ﴿بَيَانَهُ﴾ وتوضيحه، فلا تعجل في السؤال عن مشكلاته بين قراءة جَبْرئيل عليك، فظهر من الآية المباركة أنّه صلى الله عليه وآله كان يقرأ مع قراءة جَبْرئيل ويسأل في أغنائها عن مشكلاته ومعانيه، لحرصه على العلم، فأُرشد إلى تركهما.

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢٢٢، وفيه: المعذرة عقوبة الذنب.

٢. تفسير روح البيان ١٠: ٢٤٧.

٣. الكافي ٢: ١١/٢٢٣، مجمع البيان ١٠: ٥٩٨، تفسير الصافي ٥: ٢٥٥.

٤. الكافي ٢: ٦/٢٢٣، مجمع البيان ١٠: ٥٩٩، تفسير الصافي ٥: ٢٥٥.

ثمّ لمّا نهى سبحانه النبي ﷺ عن التعجيل في القرآن والسؤال اللذين هما من أعمال الدين ذمّ سبحانه الناس على حبّ الدنيا العاجلة بقوله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا﴾ ليس لأحدٍ التعجيل في الأمور، وليس اعتذاركم أيّها الناس في القيامة صدقاً ﴿بَلْ﴾ عصيتم ربّكم لأنّكم خُلِقتم من عجل وطُبِعتم عليه، ولذا كنتم ﴿تُحِبُّونَ﴾ الدنيا ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ وتعملون لها ﴿وَتَذَرُونَ﴾ وتتركون النشأة ﴿ٱلْآخِرَةَ﴾ وتُعرِضون عنها.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ * كَلَّاً إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ * وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ[٢٢ ـ ٣٠]

ثمّ بيّن سبحانه حُسن حال المؤمنين وسوء حال الكافرين فيها لحثّ الناس على العمل لها بقوله: ﴿وُجُوهٌ﴾ كثيرة وهي وجوه المؤمنين الصالحين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت ﴿نَّاضِرَةٌ﴾ وحَسنة ومُشرقة بهية من أثر النعمة والراحة، وهي ﴿إِلَىٰ﴾ رحمة ﴿رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.

عن الرضا عليه السلام قال: «يعني مشرقةً تنتظر ثواب ربّها»[١].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام ـ في حديث ـ قال: «ينتهى أولياء الله بعد ما يَفْرُغون من الحساب إلى نهر يُسمّى الحيوان فيغتسلون فيه ويشربون منه، فتبيّض وجوههم إشراقاً، فيذهب عنهم كلّ قَذىً ووعثٍ ثمّ يُؤمرون بدخول الجنّة، فمن هذا المقام يَنْظُرون إلى ربّهم كيف يُثيبهم» قال: «فذلك قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وإنّما يعني بالنظر إليه إلى ثوابه تبارك وتعالى».

والناظرة في بعض اللغة: هي المنتظرة، ألم تسمع إلى قوله: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؟ أي منتظرة[٢].

أقول: قد غلط جمهور أهل اسنّة ـ وهم الأشاعرة ـ حيث تمسّكوا بالآية لإثبات أن المؤمنين يرون الله تعالى بأبصارهم في القيامة، لعدم جواز التمسّك بظواهر الآيات لإثبات المُحال العقلي، مع أنّ الآية غير ظاهرةٍ في مُدّعاهم، لجواز كون الناظرة بمعني منتظرة.

﴿وَوَجُوهٌ﴾ كثيرة، وهي وجوه الكفّار ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، وحين قيام القيامة ﴿بَاسِرَةٌ﴾ وعابسةٌ كالحةٌ، مظلمةٌ ألوآنها معدمة آثار السرور والنعمة منها، لظهور الشقاء واليأس من رحمة الله، فعند ذلك

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢/١١٤، تفسير الصافي ٥: ٢٥٦.

٢. الاحتجاج: ٢٤٣، تفسير الصافي ٥: ٢٥٦.

﴿تَظُنُّ﴾ وتعتقد، أو تتوقّع تلك الوجوه ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا﴾ في ذلك اليوم عقوبة ﴿فَاقِرَةٌ﴾ وداهية تكسِير فِقار الظهر. قيل: أُريد بها أنواع العذاب في النار[١].

ثمّ ردع سبحانه الناس عن إيثار الدنيا على الآخرة بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ وارتدعوا عمّا أنتم عليه من حُبّ الدنيا. قيل: إنّ المراد لمّا عَرَفتم سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء في الآخرة، فارتدعوا عن إيثار الدنيا على الآخرة، وتنبّهوا على [ما] بين أيديكم من الموت الذي تنقطّع عنده الدنيا العاجلة عنكم[٢].

واذكُروا ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ الروح ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ والحناجر والعظام المحيطة بالنحر. وقُرب خروجها من جسدكم ﴿وَقِيلَ﴾ تمنياً أو انكاراً، لاحتمال شفائه بالرُّقية والتعويذ ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ ومن يقدِر على إحيائه بالأوراد والتعويذ[٣]. وقيل: يعني مَن الرافع بروحه إى السماء[٤].

عن ابن عباس: أنّ الملائكة يكرهون القُرب من الكافر، فيقول مَلَك الموت: من يرقى بهذا الكافر[٥].

وقيل: يحضُر العبد عند الموت سبعة أملاك من ملائكة الرحمة، وسبعة من ملائكة العذاب مع مَلَك الموت، فاذا بلغت نفس العبد التراقي، نظر بعضهم إلى بعضٍ أيّهم يرقي بروحه إلى السماء[٦].

﴿وَظَنَّ﴾ المحتضِر حين بلوغ روحه التَّرقُوة وأحاط به ملائكة الموت ﴿أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ من الدنيا المحبوبة ونعيمها التي ضيّع العمر في كسبها، وأهلك نفسه بالالتذاذ والاشتغال بها، أو فراق الروح من البدن، أو الفراق من الأهل والأولاد والأموال.

قيل: عبّر سبحانه عن اليقين بالموت هنا بالظنّ، لأنّ الانسان مادام فيه حُشاشة يطمع في الحياة لشدّة حِرصه عليها[٧]. في الحديث: «أنّ العبد ليعالج كَرب الموت وسَكَراته، وإنّ مفاصله ليُسلّم بعضها على بعض، تقول: السلام عليك، أُفارقك وتُفارقني إلى يوم القيامة»[٨].

﴿وَٱلْتَفَّتِ﴾ والتوت ﴿ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ عند قلق الموت، أو في الكفن، أو لَيُبسهما[٩] بالموت.

وقيل: إنّ الساق كنايةٌ عن الشدّة، والمراد التفّت شدّة فراق الدنيا بشدّة لقاء الآخرة، أو شدّة مفارقة الأهل وشدّة ترك المال والجاه، وشدّة شماتة الأعداء وغمّ الأولياء، أو شدّة الذهاب إلى الآخرة وشدّة القدوم على الله، أو شدّة فراق الأحباب وشدّة الورود في دار الغُربة[١٠]. وعند ذلك ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾

---

١ و٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣٠.

٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣١، تفسير روح البيان ١٠: ٢٥٤.

٤. تفسير الطبري ٢٩: ١٢١، تفسير روح البيان ١٠: ٢٥٥.

٥ و٦. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣١، تفسير روح البيان ١٠: ٢٥٥.

٧. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣١، تفسير روح البيان ١٠: ٢٥٥.

٨. تفسير روح البيان ١٠: ٢٥٥.

٩. في النسخة: أو ليلبسهما، راجع تفسير الرازي ٣٠: ٢٣٢.

١٠. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣٢.

وحده، ونحو محضر عدله تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ والاذهاب بالعف والقهر، أو إلى ربك مفوّض سوقهم.

عن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «ذلك ابن آدم إذا حلّ به الموت قال: هل من طبيب؟ ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أيقن بمفارقة الأحبّة ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ التفت الدنيا بالآخرة ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ قال: المصير إلى ربّ العالمين»[١].

فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّىٰ * وَلٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ * أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ[٣١ـ ٣٥]

ثمّ بيّن سبحانه أعظم معاصيهم الموجبة لاستحقاقهم العذاب بقوله: ﴿فَلاَ صَدَّقَ﴾ بالرسول ودينه وكتابه ودار الجزاء ﴿وَلاَ صَلَّىٰ﴾ الصلوات الواجبة ﴿وَلٰكِن﴾ لم يكتفِ بترك التصديق، بل ﴿كَذَّبَ﴾ الرسول وكتابه والبعث بعد الموت ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن الدينَ وعبادة ربّ العالمين ﴿ثُمَّ﴾ مع ذلك ﴿ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ وعياله وعشيرته وهو ﴿يَتَمَطَّىٰ﴾ ويتبختر ويختال في مشيه افتخاراً بتكذيب الرسول والإعراض عن عبادة الله، فقل يا محمد لهذا الكافر: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ الهلاك، أو بعداً، أو ويل لك ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ لك ﴿ثُمَّ﴾ كرّر القول، وقل: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ بعدُ أخرى. وقيل: أولى مأخوذ من آل يئول، والمعنى: عُقباك النار[٢].

قال جمع من المفسرين: أخذ رسول الله صلّى الله عليه وآله بيد أبي‌جهل: ثمّ قال: أولى لك فأولى، توعّده، فقال أبوجهل: بأيّ شيءٍ تُهدّدني؟ لاتستطيع أنت ولاربّك أن تفعلا بي شيئاً، وإنّي لأعزّ أهل هذا الوادي. ثمّ انسلّ ذاهباً، فأنزل الله تعالى كما قال رسول الله صلّى الله عليه وآله له، فأولى لك دعاءٌ عليه بأن يليه ما يكرهه[٣].

وقيل: إنّه وعيد مبتدأ من الله للكافر[٤].

عن الجواد عليه السلام أنّه سُئِل عن هذه الآية فقال: «يقول الله عز وجل بُعداً لكَ من خير الدنيا، وبُعداً لك من خير الآخرة»[٥].

أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدىً * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ[٣٦ـ ٤٠]

---

١. الكافي ٣: ٣٢/٢٥٩، تفسير الصافي ٥: ٢٥٧.
٢. تفسير البيضاوي ٢: ٥٥٠، تفسير أبي السعود ٩: ٦٩.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣٣، تفسير روح البيان ١٠: ٢٥٧.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣٣.
٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٠٥/٥٤، تفسير الصافي ٥: ٢٥٧.

ثمّ لمّا حكى سبحانه في أول السورة إنكار المشركين البعث في الآخرة بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَانُ أَلَّن نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾[١] استدلّ هنا على وجوب البعث بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ ويتوهّم ﴿ٱلْإِنسَانُ﴾ العاقل ﴿أَن يُتْرَكَ﴾ من قبل الله ﴿سُدىً﴾ ومُهملاً لايُكلّف في الدنيا ولايُحاسَب بعمله في الآخرة؟ حاشا وكلّا كيف يمكن ذلك مع أنّه تعالى أعطاه القدرة وآلات الأعمال والعقل، وذلك مقتضٍ لنهيه عن القبائح وأمره بالمحسنات، وإلّا يكون هذا الخلق الكامل عبثاً، ويكون راضياً بوقوع القبائح منه، وذلك منافٍ للحكمةالبالغة، ولو كانالتكليف ولم تكن دار الجزاء لزم تساويالمُطيع والعاصي، وذلك باطل بالبداهة، وإن كان إنكارهم من جهة عدم قدرة الله على الخلق ثانياً فنقول: ﴿أَلَمْ يَكُ﴾ ذلك الانسان قبل خلقه الأول ﴿نُطْفَةً﴾ قَذِرةً وماءً قليلاً ﴿مِن مَنِيٍّ﴾ متكوّن في صلب الرجل ﴿يُمْنَىٰ﴾ ويُصَبّ من مخرج بوله في رَحِم أُنثى ﴿ثُمَّ﴾ بعد انصبابه في الرَّحِم ﴿كَانَ﴾ ذلك المَنيّ، أو ذلك الانسان ﴿عَلَقَةً﴾ وقطعة دم ﴿فَخَلَقَ﴾ الله وقدّره ﴿فَسَوَّىٰ﴾ خلقه وعدّل قامته وأعضاءه وأكمل نشأته.

عن ابن عباس: ﴿فَخَلَقَ﴾ أي نفخ فيه الروح ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي فكمّل أعضاءه[٢].

﴿فَجَعَلَ﴾ وخلق ﴿مِنْهُ﴾ بقدرته ﴿ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ والصنفين من الانسان، أعني ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ مع اختلافهما في الطبيعة والأخلاق ﴿أَلَيْسَ﴾ أيّها الشاعر ﴿ذَٰلِكَ﴾ الخالق العظيم الذي خلق أولاً هذا الخلق البديع بلامثال من ماء ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ويخلقهم ثانياً من تُرابٍ، مع أنّ الخلق الثاني في نظر العقل أهون وأسهل من الأول.

رُوي أنّ النبي ﷺ كان إذا قرأها قال: «سبحانك اللّهم بلى»[٣].

وعن (المجمع) أنّه رُوي عن الباقر والصادق عليهما السلام[٤].

وعن ابن عباس مَن قرأها فليقل: سبحانك اللّهم بلى، إماماً كان أو مأموماً[٥].

وفي رواية: كان النبي ﷺ يقول: «بلى والله، بلى والله»[٦].

عن الباقر عليه السلام: «من أدمن قراءة ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ وكان يعمل بها بعثه الله مع رسول الله ﷺ من قبره في أحسن صورة، ويُبشّره ويضحك في وجهه حتّى يجوز على الصراط والميزان»[٧].

وفّقنا الله وجميع المؤمنين لإدمان تلاوتها، والحمد لله تبارك وتعالى على التوفيق لإتمام تفسيرها.

---

١. القيامة: ٣/٧٥. ٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣٤.
٣. تفسير الرازي ١٠: ٢٥٨، تفسير روح البيان ١٠: ٢٥٨.
٤. مجمع البيان ١٠: ٦٠٧، تفسير الصافي ٥: ٢٥٨. ٥. تفسير روح البيان ١٠: ٢٥٨.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٢٥٨.
٧. ثواب الاعمال: ١٢١، مجمع البيان ١٠: ٥٩٤، عن الصادق عليه السلام، تفسير الصافي ٥: ٢٥٨.

في تفسير سورة الانسان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَانِ حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة القيامة ببيان بدو خلق الانسان وخلق صنفين منه الذكر والأُنثى، أُردفت بسورة الانسان المبدوءة ببيان ابتداء خلق الانسان، وجعله صنفين الشكور والكفور، وقال سبحانه في السورة السابقة: إنّ الكفّار يُحبّون العاجلة ويَذَرون الآخرة، وفي هذه السورة أنّهم يُحبّون العاجلة ويَذَرون وراءهم يوماً ثقيلاً فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بذكر بدو خلق الانسان بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ ومضى ﴿عَلَى ٱلْإِنسَانِ﴾ في بدو خلقه ﴿حِينٌ مِنَ ٱلدَّهْرِ﴾ ومدّةٌ طويلةٌ من الزمان وهو ﴿لَمْ يَكُن﴾ في تلك المدّة ﴿شَيْئاً﴾ وموجوداً ﴿مَذْكُوراً﴾ باسم من الأسماء، بل كان في هذا العالم معدوماً صرفاً، وإنما كان في علم الله مقدوراً عنها، كان مذكوراً في علم الله ولم يكن مذكوراً في الخلق.

وعن الصادق عليه السلام: «كان مقدوراً غير مذكورٍ»[١].

وعنه عليه السلام: «كان شيئاً مقدوراً ولم يكن مكوّناً»[٢]. قيل: إن المراد من الانسان في الآية آدم أبو البشر[٣].

رُوي عن ابن عباس: أنّه خُلِق من طينٍ، فأقام أربعين سنة، ثمّ من صَلْصالٍ فأقام أربعين سنة، ثمّ من حَمَإٍ مسنونٍ، فأقام أربعين سنة، فتمّ خلقه بعد مائة وعشرين سنة، ثمّ نُفِخ فيه الرُّوح[٤].

وفي رواية أُخرى عنه: أنّ المراد من ﴿حِينٌ﴾ هنا هو الزمن الطويل الممتدّ الذي لايُعْرَف مقداره[٥].

أقول: المراد من الزمن الطويل الذي لايُعرَف مقداره مدّة كونه مقدوراً في علم الله.

ثمّ بيّن سبحانه خلق أولاد آدم بقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ﴾ وأولاد آدم ﴿مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾

---

١. الكافي ١: ٥/١١٤، تفسير الصافي ٥: ٢٥٩.
٢. مجمع البيان ١٠: ٦١٤، تفسير الصافي ٥: ٢٥٩.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣٥، تفسير أبي السعود ٩: ٧٠.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣٥، تفسير أبي السعود ٩: ٧٠.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣٥، ولم ينسبه إلى أحد.

ومختلطٍ ومركبٍ من ماء الرجل وماء المرأة، على ما روى عن الباقر عليه السلام[١].

قيل: لكلّ من الماءين أوصافٌ تُغاير أوصاف الآخر، فانّ ماء الرجل أبيض غليظ له قوّة العقد، وماء المرأة أصفر رقيق فيه قوّة الانعقاد، فما كان في الولد من عَصَبٍ وعظمٍ وقوّة فمن ماء الرجل، وما كان فيه من لحمٍ ودمٍ وشعرٍ فمن ماء المرأة. قيل: إنّه مروي[٢].

وقيل: إنّ المراد اختلاط ماء الرجل بدم الحيض[٣].

قال بعض المفسرين: إنّه يختلط الماء أولاً بدم الحيض، ثمّ يصير علقةً[٤].

وقيل: إنّ المعنى من نطفةٍ ذات أمشاج، واخلاط من الطبائع كالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة[٥].

وقيل: يعني ذات أطوارٍ وألوانٍ، فانّ النطفة تصير علقةً، ثمّ مُضغةً، ثمّ عظاماً إلى تمام الخلق، وهو مرويّ عن ابن عباس[٦].

ثمّ بيّن سبحانه حكمة هذا الخلق البديع بقوله: ﴿نَبْتَلِيهِ﴾ والتقدير لنبتليه بالتكليف. وقيل: إنّه حال، والمعنى: حال كوننا مريدين ابتلاءه وامتحانه[٧].

ثمّ بيّن سبحانه أنّه أعطاه ما يصحّ معه ابتلاؤه. بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ فبالسمع يُدرِك الآيات التنزيلية والمواعظ الإلهية وبالبصر يُدرِك الآيات التكوينية والعبر النافعة.

وقيل: إنّ المراد أعطيناه الحواسّ الخمس، وإنّما خصّ الحسّين السمع والبصر ـ بالذكر لكونهما أعظمها وأشرفها وأنفعها[٨]. وقيل: إنّ المراد بهما الفَهم والتميز[٩]، والمعنى: جعلناه فهيماً مميزاً.

إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً * إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً[٣ـ٦]

ثمّ بيّن سبحانه إتمام لُطفه به بقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ﴾ بتوسّط إعطائه العقل وإرسال الرسول وإنزال الكتب السماوية ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ الذي يُوصله إلى قُربنا، وكأنّه تعالى قال: خلقته للابتلاء، وأعطيته جميع ما يحتاج إليه في التعيّش والهداية إلى الحقّ ليكون ﴿إِمَّا شَاكِراً﴾ لنِعم الله بالايمان والطاعة

١. تفسير القمي ٢: ٣٩٨، تفسير الصافي ٥: ٢٥٩.
٢. تفسير أبي السعود ٩: ٧٠، تفسير روح البيان ١٠: ٢٦٠.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٢٦٠.
٤ و٥. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣٦.
٦. تفسير أبي السعود ٩: ٧٠ ولم ينسبه إلى أحد.
٧. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣٧.
٨. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣٧.
٩. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣٧.

﴿وَإِمَّا كَفُوراً﴾ لِنعمه بالكفر والعِصيان.

وقيل: إنّ المعنى أنّا هديناه، فان شاء فليشكُر، وإن شاء فليكفُر[١].

وقيل: إنّ المراد إنّا مكّناه سلوك الطريق المُوصل إلى المطلوب في حالتي شُكره وكُفرانه[٢].

عن الصادق عليه السلام قال: «عرّفناه إمّا آخذاً، وإمّا تاركاً»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «إمّا آخذٌ فشاكر، وإما تاركٌ فكافر»[٤].

ثمّ بيّن حال الكافرين في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ وهيأنا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ في الآخرة ﴿سَلاَسِلَ﴾ يُقادون بها ﴿وَأَغْلاَلاً﴾ وقيوداً يُقيّدون بها. وقيل: إنّ السلاسل بها تُشَدّ أرجلهم، والأغلال تُشَدّ بها أيديهم إلى رقابهم[٥] ﴿وَسَعِيراً﴾ وناراً مشتعلةً مُوقَدةً بأجسادهم كما تُوقَد بالحطب.

ثمّ بيّن سبحانه حال الشاكرين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ والشاكرين الأخيار ﴿يَشْرَبُونَ﴾ في الآخرة ﴿مِن كَأْسٍ﴾ وإناء خمرٍ ﴿كَانَ﴾ في علم الله ﴿مِزَاجُهَا﴾ وخليطها شيئاً يُشبه ﴿كَافُوراً﴾ في البياض والبُرودة وطيب الرائحة عن ابن عباس: أنّ المراد بالكأس هو الخمر[٦].

وقيل: إنّ الكافور اسم عينٍ في الجنّة ماؤها في البياض والبرودة والرائحة كالكافور، ولكن ليس فيه طعمه ومضرّته، والمراد أنّ شرابهم ممزوجٌ بماء تلك العين[٧]، أعني ﴿عَيْناً﴾ صفتها أنّه ﴿يَشْرَبُ﴾ الخمر ممزوجة ﴿بِهَا﴾ أو يلتذّ بها ﴿عِبَادُ ٱللهِ﴾ الأبرار، وهم ﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾ ويُجرونها حيث شاءوا من منازلهم ﴿تَفْجِيراً﴾ سهلاً لاكُلفة عليهم فيه.

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ ٱللهُ شَرَّ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً[٧ـ١٣]

ثمّ بيّن سبحانه أعمالهم التي يستحقّون بها هذا الأجر، كأنّه قيل: بماذا استحقّوا هذا الأجر؟ فقال سبحانه: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ ويُؤدّون ما أوجبوا على أنفسهم بسبب النَّذْر، فكيف بما أوجبه الله عليهم؟

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢٣٨. ٢. تفسير أبي السعود ٩: ٧١.
٣. الكافي ١: ١٢٤/٣، التوحيد: ٤/٤١١، تفسير الصافي ٥: ٢٥٩.
٤. تفسير القمي ٢: ٣٩٨، تفسير الصافي ٥: ٢٥٩. ٥. تفسير الرازي ٣٠: ٢٤٠.
٦ و٧. تفسير الرازي ٣٠: ٢٤٠.

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَخَافُونَ﴾ لاحتمال التقصير في عبادة ربّهم ﴿يَوْماً﴾ عظيماً ﴿كَانَ شَرُّهُ﴾ وهوله وعذابه ﴿مُسْتَطِيراً﴾ ومنتشراً في أقطار العالم غاية الانتشار، وبالغاً أقصى المبالغ، وواصلاً إلى كلّ أحدٍ إلّا مَن آمنه الله من المؤمنين المطيعين، أو المعنى: شرّه سريع الوصول إلى العُصاة. وعن الباقر عليه السلام «كلوحاً عبوساً»[1].

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ مع شدّة حاجتهم إليه، وكونهم ﴿عَلَىٰ حُبِّهِ﴾ عن الباقر عليه السلام يقول: «على شهوتهم»[2]. وقيل: إطعاماً كائناً على حبّ الله[3] ﴿مِسْكِيناً﴾ وفقيراً من المؤمنين ﴿وَيَتِيماً﴾ من يتاماهم ﴿وَأَسِيراً﴾ من الكفّار.

عن الباقر عليه السلام قال: «مسكيناً من مساكين المسلمين، ويتيماً من يتامى المسلمين، وأسيراً من أُسارى المشركين»[4].

وهم يقولون: لانمُنّ عليكم بإطعامكم لأنّا ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ وطلباً لمرضاته ﴿لاَ نُرِيدُ﴾ ولانطلُب ﴿مِنكُمْ﴾ بإطعامنا إياكم ﴿جَزَآءً﴾ وأجراً بالمال والنفس ﴿وَلاَ شُكُوراً﴾ وعوضاً بالمدح والدعاء.

عن الباقر عليه السلام قال: «يقولون إذا أطعموهم ذلك قال: «والله ما قالوا هذا لهم، ولكنّهم أضمروه في أنفسهم، فأخبر بإضمارهم، يقولون: لانُريد منكم جزاءً تُكافئوننا به، ولا شكوراً تُثنون علينا به، ولكنّنا إنّما أطعمناكم لوجه الله وطلب ثوابه»[5].

وكذا ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن﴾ عذاب ﴿رَّبِّنَا يَوْماً﴾ تكون الوجوه فيه ﴿عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ ومنقبضاً شديد الانقباض. رُوي أنّ الكافر يعبِس يومئذٍ حتّى يسيل العرق من بين عينيه كالقَطِران[6]. وقيل: إنّه شبّه اليوم بالأسد العبوس في الشدّة والضَّراوة[7]، فيكون المعنى: أنّا نخاف من اليوم الذي كالأسد العبوس الشديد العبوسة، ولذا نُعطيكم ليقينا الله برحمته من شرّ ذلك اليوم العظيم.

﴿فَوَقَاهُمُ ٱللَّهُ﴾ وحفظهم ودفع عنهم ﴿شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ بسبب عطائهم وخوفهم ﴿وَلَقَّاهُمْ﴾ وأعطاهم بسبب طلبهم رضى الله ﴿نَضْرَةً﴾ وبهجةً كاملةً في وجوههم بدل عُبوس الكفّار ﴿وَسُرُوراً﴾ عظيماً في قلوبهم بدل غمّ الفجّار وحزنهم ﴿وَجَزَاهُم﴾ في القيامة ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الجوع وإيثار المحتاجين على أنفسهم ﴿جَنَّةً﴾ ذات أشجارٍ وثِمارٍ وقصورٍ عاليةٍ يسكُنونها ويأكُلون من ثِمارها ونِعمها التي لاعينٌ رأت ولاأذن سَمِعت ولاخطر مثلها بقلب أحدٍ ﴿وَحَرِيراً﴾ ولباساً من

١و٢. أمالي الصدوق: ٣٣٣/٣٩٠.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٢٦٥.
٤. أمالي الصدوق: ٣٣٣/٣٩٠، تفسير الصافي ٥: ٢٦٠.
٥. أمالي الصدوق: ٣٣٣/٣٩٠، تفسير الصافي ٥: ٢٦٠.
٦. تفسير الرازي ٣٠: ٢٤٧، تفسير روح البيان ١٠: ٢٦٧.
٧. تفسير أبي السعود ٩: ٧٢، تفسير روح البيان ١٠: ٢٦٧.

سُندس واستبرق يَلبَسونه ويتزيّنون به حال كونهم ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا﴾ ومعتمدين كالسلاطين على الوسائد التي تكون ﴿عَلَى ٱلْأَرَائِكِ﴾ والسُّرر الموضونة بقُضبان الذهب والفِضّة وأنواع الجواهر، موضوعة في البيوت المزيّنة بالثياب والسُّتور، كذا قيل[١].

﴿لاَ يَرَوْنَ﴾ اُولئك الأبرار الساكنون في الجنة ﴿فِيهَا﴾ وقتاً من الاوقات ﴿شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾ ولا يَحِسّون حراً ولابرداً، بل هواؤها في غاية الاعتدال في الحديث: «هواء الجنّة سجسجٌ[٢] لا حرّ فيه ولا قرّ»[٣].

روى بعض العامة عن ابن عباس أنّه قال: بينما أهل الجنّة في الجنّة إذ رأوا ضوءً كضوء الشمس، وقد أشرقت الجنان له، فيقول أهل الجنّة: يا رضوان، قال ربّنا عزّ وجلّ: ﴿لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً﴾. فيقول لهم رضوان: ليست هذه شمسٌ ولاقمرٌ، ولكن هذه فاطمة وعلى ضَحِكا ضِحكاً أشرقت الجنان من نور ضِحكهما، وفيهما أنزل الله ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَشْكُوراً﴾[٤].

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلاَلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً[١٤ـ١٧]

ثمّ بيّن سبحانه حالهم من حيث الراحة بقوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ﴾ أغصان أشجار الجنّة، وقريبة منهم ﴿ظِلاَلُهَا﴾.

قيل: إنّ المراد لمن خاف ربّه جنتان: جنّة فيها حريرٌ لايرون فيها شمساً ولازمهريراً، وجنة اُخرى دانية عليهم ظلالها، والمقصود أنّه لو كان فيها شمس كانت أشجارها مُظِلّة لهم[٥].

﴿وَذُلِّلَتْ﴾ وقرّبت منهم، أو انقادت لهم ﴿قُطُوفُهَا﴾ وثمارها ﴿تَذْلِيلاً﴾ تاماً بحيث لايصعب لمن يُريدها اقتطافها في حال القيام والقعود والاضطجاع. عن البراء بن عازب، قال: ذللت لهم فهم يتناولون منها كيف شاءوا، فمن أكل قائماً لم يؤذه، ومن أكل جالساً لم يُؤذه[٦].

عن النبي ﷺ: «﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ من قُربها منهم، يتناول المؤمن من النوع الذي يشتهيه

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٢٦٩. ٢. يقال: يومٌ سَجْسَجٌ: لاحرّ فيه ولابرد.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٢٧٠.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٢٧٠، والآيات من سورة الانسان: ٧٦/١ـ٢٢.
٥. تفسير ابى السعود ٩: ٧٣، تفسير الرازي ٣٠: ٢٤٩. ٦. تفسير الرازي ٣٠: ٢٤٨.

من الثمار بعينه[١] وهو متكيء»[٢].

﴿وَيُطَافُ﴾ ويدور ﴿عَلَيْهِم﴾ في قصورهم ﴿بِآنِيَةٍ﴾ وأوعيةٍ كالقدح والكأس مخلوقةٍ ﴿مِن﴾ جنس ﴿فِضَّةٍ﴾ لها غاية اللّطافة ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وكِيزان لاعُري لها ولاآذان يُصبّ منها المشروب في الآنية ﴿كَانَتْ﴾ ووجدت حال كونها في الصفاء والشفافية تُشبِه ﴿قَوَارِيرَا﴾ وآنية زجاجيةً، ولكن لاقوارير متكونة من الرمل كما القارورة في الدنيا كذلك، بل ﴿قَوَارِيرَا﴾ متكونة ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ فكما أنّ الله قادرٌ على أن يقلِب الرمل الكثيف في الدنيا زجاجةً صافيةً شفّافةً، قادرٌ على أن يقلِب فِضّة الآخرة زُجاجةً صافيةً، ففي آنية الآخرة صفاءُ الزجاج وشفافيته، ونقاء[٣] الفِضّة وشرفها.

عن ابن عباس: ليس في الدنيا شيءٌ ممّا في الجنّة إلّا الأسماء[٤]. وقيل: إنّ الأكواب تكون من فِضة، ولكن لها صفاء القارورة[٥]. عن الصادق عليه السلام: «ينفُذ البصر في فضّة الجنّة، كما ينفُذ في الزُّجاجة»[٦].

وقيل: إنّ المراد من ﴿قَوَارِيرَا﴾ في الآية ليس هو الزُّجاج، فانّ العرب تُسمّى ما استدار من الأواني التي تجعل فيها الأشربة ورقّ وصفا قارورة، فمعنى الآية: وأكواب من فضّةٍ مستديرة صافية رقيقة[٧].

ثمّ لمّا بيّن سبحانه صفاء الأواني بقوله: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾ ونقائها بقوله: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾ بيّن شكلها بأنّ الشاربين ﴿قَدَّرُوهَا﴾ على قدر ريهم[٨] بارادتهم واشتهائهم، أو بأعمالهم الحسنة ﴿تَقْدِيراً﴾ موافقاً لميلهم واشتهائهم من غير زيادةٍ ونقصانٍ، وهو ألذّ لأهل الجنّة[٩].

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ بأمر الله ﴿كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا﴾ وخليطها شيئاً يُشبه ﴿زَنجَبِيلاً﴾ في الطعم والرائحة، ولكن ليس فيه لَذْعه وإحراقه، وكان الشراب الممزوج به أطيب ما تستطيبه العرب وألذّ ما تستلذّه.

عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً[١٨ و ١٩]

ثمّ لمّا كان تسمية المزاج بالزنجبيل موهمةً لأن لا يكون له سلاسة الانحدار في الخَلق وسهولة المساغ، كما هو مقتضى اللّذْع والإحراق، دفع سبحانه التوهّم بقوله: ﴿عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ﴾ عند أهل الجنّة وخَزَنتها ﴿سَلْسَبِيلاً﴾ ومشروباً في غاية العُذوبة وسهولة المساغ، ونهاية السّلاسة.

---

١. في الكافي بفيه.
٢. الكافي ٨: ٦٩/٩٩، تفسير الصافي ٥: ٢٦٣.
٣. في النسخة: وشفافته، ونقلوا.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ٢٤٩، تفسير روح البيان ١٠: ٢٧١.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ٢٤٩.
٦. مجمع البيان ١٠: ٦٢١، تفسير الصافي ٥: ٢٦٣.
٧. تفسير الرازي ٣٠: ٢٤٩.
٨. في النسخة: يريهم.
٩. في النسخة: ألذّ أهل الجنّة بقوله.

روى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّ معنى سلسبيل: سَل سبيلاً إليها»[١].

أقول: الظاهر أنّه بيان وجه التسمية، فانّه لايُشرَب منها إلا من سأل سبيلاً إليها بالأعمال الصالحة.

وعن(الخصال) عن النبي صلى الله عليه وآله: «أعطاني الله خمساً: وأعطى علياً خمساً؛ أعطاني الكوثر، وأعطاه السلسبيل»[٢].

ثمّ وصف سبحانه الخُدّام الطائفين بقوله: ﴿**وَيَطُوفُ**﴾ بالكأس ﴿**عَلَيْهِمْ**﴾ في الجنّة ﴿**وِلْدَانٌ**﴾ وغِلمان ﴿**مُخَلَّدُونَ**﴾ وباقون أبداً على ما هم عليه من الحياة والحُسن والطَّراوة والمُواظبة على الخِدمة. وعن الفراء والقمي: يعني مسوّرون[٣]. وقيل: يعني مُحَلّون[٤]. وقيل: مُقَرّطون[٥] ﴿**إِذَا رَأَيْتَهُمْ**﴾ أيّها الرائي ﴿**حَسِبْتَهُمْ**﴾ في صفاء الألوان وانتشارهم في المجالس ﴿**لُؤْلُؤاً**﴾ رطباً أُخرج من صَدَفه ﴿**مَنْثُوراً**﴾ ومُتفرّقاً. قيل: إنّ اللؤلؤ إذا انتشر وتفرّق كان أحسن في المنظر لوقوع شُعاع بعضه على بعض[٦].

روى عن أمير المؤمنين عليه السلام: «هم ولدان المسلمين الذين يموتون صغاراً»[٧].

وعن سلمان الفارسي: «هم أطفال المشركين خُدّام أهل الجنّة»[٨].

أقول: لامنافاة بينهما، لاحتمال كون كلّهم خُدّاماً.

وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً[٢٠ ـ ٢١]

ثمّ بيّن سبحانه كمال نعمه عليهم وإكرامه لهم بقوله: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ**﴾ أيّها الرائي ﴿**ثَمَّ**﴾ وهناك ﴿**رَأَيْتَ نَعِيماً**﴾ وافراً لايُوصف حُسنه ولذّته. عن ابن عباس: لايقدر واصفٌ وصف حُسنه ولاطيبه[٩] ﴿**وَمُلْكاً كَبِيراً**﴾ قيل: إنّ أدنى أهل الجنّة منزلةً ينظُر في مُلكه مسيرة ألف عام، ويرى أقصاه كما يرى أدناه[١٠].

وقيل: إنّ الكبير بمعنى أنّه لازوال له[١١]. وعن الصادق عليه السلام: «أي لايزول ولايفنى»[١٢].

وقيل: إنّ المُلك الكبير هو كثْرة التعظيم[١٣] والاكرام. رُوي أنّ الرسول يأتي من عند الله بكرامةٍ من الكُسوة والطعام والشراب والتُّحف إلى وليّ الله وهو في منزله فيستأذن عليه، ولايدخل عليه رسول ربّ العزّة من الملائكة المقرّبين إلّا بعد الاستئذان[١٤].

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٠.
٢. الخصال: ٥٧/٢٩٣، تفسير الصافي ٥: ٢٦٤.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥١، تفسير القمي ٢: ٣٩٩، وفيه: مستوون، تفسير الصافي ٥: ٢٦٤.
٤و٥. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥١.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٢٧٣.
٧ و٨ تفسير روح البيان ١٠: ٢٧٤.
٩. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٢.
١٠. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٢.
١١. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٢.
١٢. مجمع البيان ١٠: ٦٢٣، تفسير الصافي ٥: ٢٦٤.
١٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٢.
١٤. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٢.

عن الباقر عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث: «وإنّ الملائكة من رُسل الله لتستأذن عليه، ولايدخلون عليه إلّا بإذنه، فذلك المُلك العظيم»[١].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل ماهذا المُلك الكبير الذي كبّره الله عزّ وجلّ حتّى سمّاه كبيراً؟ قال: «إذا أدخل الله أهل الجنّة الجنّة أرسل رسولاً إلى وليٍّ من أوليائه، فيجد الحَجَبة على بابه، فتقول له: قف حتّى نستأذن لك، فما يصل إليه رسول ربّه إلّا بإذنه، فهو قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً﴾[٢].

﴿عَالِيَهُمْ﴾ وفوقهم وعلى ظهورهم، أو على خيامهم المضروبة عليهم ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ ودِيباج رقيق ﴿خُضْرٌ وَ﴾ ثياب ﴿إِسْتَبْرَقٌ﴾ وحرير غليظ. قيل: إنّ الآية بيان للباس الولدان[٣]. ﴿وَحُلُّوا﴾ وزيّنوا اُولئك الأبرار أو الولدان ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ قيل: كان الملوك يَحَلّون بها في الزمن الأول[٤]. وقيل: أساور الذهب ـ كما في سورة الكهف ـ للأبرار، والفِضّة للولدان، أو كلاهما للأبرار يتعاقبون أو يجمعون بينهما[٥].

﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ مضافاً إلى الشرابين السابقين الممزوجين ﴿شَرَاباً طَهُوراً﴾ هو أفضل وأعلى منهما: كما يدُلّ عليه إسناد سقيه إلى ذاته المقدّسة ووصفه بالطُّهورية.

قيل: هو عينٌ على باب الجنّة تنبُع من ساق شجرةٍ من شَرِب منها نَزع الله ما كان في قلبه من غِلّ وغِشٍّ وحسدٍ، وما كان في جوفه من قذرٍ أو أذى[٦].

وقيل: يُؤتون بالطعام والشراب، فإذا كان في آخر ذلك يُؤتون بالشراب الطُّهور فيشربون فتطهُر بذلك بُطونهم ويفيض عرق من جلودهم مثل ريح المِسك[٧].

وعن الباقر عليه السلام في حديث «وعلى باب الجنة شجرةٌ، إنّ الورق منها ليستظلّ تحتها ألف رجلٍ من الناس، وعن يمين الشجرة عينٌ مُطهّرة مزكّية» قال: «فيسقون منها شربةً فيُطهّر الله بها قلوبهم من الحسد، ويسقُطُ من أبشارهم الشعر، وذلك قول الله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾[٨].

وعن الصادق عليه السلام قال: «يُطهّرهم من كلّ شيءٍ سوى الله»[٩].

---

١. تفسير القمي ٢: ٢٤٨، الكافي ٨: ٦٩/٩٨، تفسير الصافي ٥: ٢٦٤.
٢. معاني الأخبار: ١/٢١٠، تفسير الصافي ٥: ٢٦٤.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٣.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٢٥٣.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٢٧٥، وفيه: فللمقربون الذهب وللأبرار الفضة.
٦. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٤.
٧. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٤.
٨. تفسير القمي ٢: ٥٤، عن الصادق عليه السلام، الكافي ٨: ٦٩/٩٦، تفسير الصافي ٥: ٢٦٥.
٩. مجمع البيان ١٠: ٦٢٣، تفسير الصافي ٥: ٢٦٥.

إِنَّ هٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً[٢٢]

ثمّ يقول الله، أو الملائكة، للأبرار: ﴿إِنَّ هٰذَا﴾ الذي تَرَون من العطايا والكرامات ﴿كَانَ﴾ في علم الله ﴿لَكُمْ جَزَاءً﴾ وعوضاً بمقابلة أعمالكم الحسنة وعباداتكم المقبولة ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم﴾ وسرعتكم في الخيرات وتَعبكم في الطاعات ﴿مَّشْكُوراً﴾ عند الله ومرضياً له ومقابلاً بالثواب العظيم، فيزداد بذلك الخطاب فَرَحهم وسُرورهم.

روى كثير من مفسّري العامة كالواحدي والزمخشري وأبي السعود وإسماعيل حقّي وغيرهم: أنّ الآيات نزلت في شأن علي وفاطمة والحسن والحسين، لرواية ابن عباس[1]، وهي كما في (روح البيان): أنّ الحسن والحسين عليهما السلام مرِضا فعادهما رسول الله صلى الله عليه وآله في ناسٍ معه، فقالوا لعليّ عليه السلام: لو نذرت على ولديك نَذْر؟ فنَذَر عليّ وفاطمة عليهما السلام وفِضّة جارية لهما إن بَرِءا ممّا بهما أن يصوموا ثلاثة أيام تقرّباً إلى الله وطلباً لمرضاته وشُكراً له، فشفيا فصاموا وما معهم شيءٌ يَفطِرون عليه، فاستقرض علي عليه السلام من شمعون اليهودي الخيبري ثلاثة أصوع من الشعير، فطحنت فاطمة عليها السلام صاعاً وخبزت خمسة أقراص على عددهم، فوضعوا بين أيديهم وقت الإفطار ليُفطِروا به، فوقف عليهم سائلٌ، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد، أنا مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنّة.

فقال علي لفاطمة عليها السلام:

فاطم ذات المجدِ واليقين	يا بنت خير الناس أجمعين
أماترين البائسَ المسكين	قد قام بالباب له حنين
يشكو إلى الله ويستكين	يشكو إلينا جائعاً حزين

فقالت فاطمة عليها سلام الله:

أمرك يابن عم سمع طاعة	مابي من لُؤمٍ ولاضَراعة
أرجو إذا أشبعت ذا مَجاعة	ألحق بالأخيار والجَماعة
وأدخُل الخُلد ولي شفاعة	

فآثروه كلّهم وباتوا ولم يذوقوا إلّا الماء، وأصبحوا صياماً، فطحنت فاطمة ثُلثاً آخر وخبزت، فلمّا أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم، وقف عليهم يتيمٌ، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت محمد، يتيمٌ من أولاد المهاجرين، استشهد والدي يوم العقبة، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنّة.

---

١. اسباب النزول: ٢٤٨، الكشاف ٤: ٦٧٠، تفسير أبي السعود ٩: ٧٣، تفسير الرازي ٣٠: ٢٤٤.

فقال: علي عليه السلام لفاطمة عليها السلام:

إنــي لأعــطيه ولاأبــالي	وأوثــر الله عــلى عـيالي
أمســوا جـياعاً وهـم أشبالي	أصـغرهم يُـقتَل فـي القـتالِ

فآثروه بطعامهم، وأفطروا بالماء، وباتوا جياعاً، وأصبحوا صياماً، فطحنت فاطمة الثُلث الباقي وخبزت، فلمّا أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم وقف أسيرٌ، فقال: السلام عليكم يا أهل بيت النبوة، أسيرٌ من الأُسارى، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنّة، فآثروه ولم يذوقوا إلّا الماء.

فلمّا أصبحوا في اليوم الرابع أخذ علي بيد الحسن والحسين عليهما السلام، فأقبلوا النبي صلى الله عليه وآله، فلمّا أبصرهم وهم يرتعشون كالفِراخ من شدّة الجُوع، قال صلى الله عليه وآله: «ما أشدّ ما يَسوؤني ما أرى بكم!» وقام فانطلق معهم، فرأى فاطمة سلام الله عليها في محرابها قد التصق بطنها بظهرها، وغارت عيناها، فساءه ذلك فنزل جَبْرئيل وقال: خُذ يا محمد، هَنّأك الله في أهل بيتك، فأقرأه السورة[١]، انتهى.

قال إسماعيل حقي صاحب تفسير (روح البيان): الرواية ضعيفة لضعف راويها إلّا أنّها مشهورةٌ بين العلماء مسفورةٌ في الكتب[٢].

أقول: من العجب أنّ العامة يعتمدون على ما هو أضعف منها، ومع ذلك يُظهِرون الشكّ فيها مع اعترافهم بكونها من المشهورات.

ثمّ أنّهم قد ذكروا في ردّ هذه القضية: أنّ السورة مكية، وكان نِكاح فاطمة في المدينة بعد وقعة أُحد.

وفيه: أنّ جمعاً من علماء العامة ومفسّريهم منهم: مجاهد وقَتادة قائلون بأنّ السورة مدنية إلّا آية واحدة، وهي قوله: ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً﴾ فانّها مكيّة، وكذا قال الحسن وعكرمة والماوردي على ما نُقل عنهم أنّها مدنية إلّا آية ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ...﴾ إلى آخره. وممّا يدُلّ على أنّها مدنية أن الأسير إنّما كان بالمدينة بعد آية القتال[٣].

وقال صاحب (روح البيان): نحن لانَشُكّ في صحّة القصّة[٤]، فلا يُصغى إلى ما قال الفخر الرازي من أنّه لم يذكُر أحدٌ من أكابر المعتزلة كأبي بكر الأصمّ وأبي علي الجُبّائي، وأبي القاسم الكعبي، وأبي مسلم الأصفهاني، والقاضي عبد الجبّار بن أحمد في تفاسيرهم أنّ هذه الآيات نزلت في حقّ علي بن أبي طالب عليه السلام[٥].

أقول: عدم ذكرهم القصّة لايدُلّ على إنكارهم بأنّ ظاهر الآيات العموم ولا وجه لتخصيصها، مع أنّ

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٢٦٨.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٢٦٩.
٣ و٤. تفسير روح البيان ١٠: ٢٦٩.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ٢٤٣.

[القول بأنّ] تخصيصها ينافي نظم الآيات من الأغلاط، فانّ نزول آية في حقّ أحدٍ لايستلزم تخصيص عمومها، فانّ نزول آية: ﴿إن جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ في شأن الوليد[١]، وآية: ﴿ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيلِ وَٱلنَّهارِ سِرّاً وَعَلانِيَةً﴾ في حقّ علي عليه السلام وانفاقه[٢]. ونزول آية ﴿إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلتَّوّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ في البراء بن عازب واستنجائه بالماء وتهنيته الرسول صلّى الله عليه وآله بنزول الآية فيه[٣]. نزول آية ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمانِ﴾ في شأن عمّار بن ياسر[٤]، لايوجب تخصيص عموم الآيات، بل معناه أنّ فعل أحد صار منشأ لنزول الآية، وكان النظر في الآية إلى ذلك الشخص تفصيلاً - وإن كان الحكم في الآية شاملاً لغيره إلى يوم القيامة - يدلّ على فضيلةٍ عظيمةٍ لذاك الشخص، كما ادّعوا نزول آية ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلأَتْقَىٰ * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ في حقّ أبي‌بكر وإنفاقه على المسلمين ويَعُدّونه من فضائله[٥].

وروى في (المجالس) عن الصادق عليه السلام ما يقرُب من رواية عبدالله بن عباس، وفي آخره: «فهبط جَبْرَئيل فقال: يا محمد، خُذ ما هنّأه الله لك[٦] في أهل بيتك. فقال: ما آخذ يا جَبْرَئيل؟ فقال: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَشْكُوراً﴾»[٧].

وعن (المناقب) أنّه رواه عن أكثر من عشرين من كبار المفسّرين[٨].

وفي بعض الروايات عن الباقر عليه السلام: «فرآهم النبي صلّى الله عليه وآله جياعاً، فنزل جَبْرَئيل ومعه صَحْفة من الذهب مُرصّعةٌ بالدُّرّ والياقوت، مملوّة من الثريد، وعُراق[٩] يفوح منها رائحة المِسك والكافور، فجلسوا وأكلوا حتى شَبِعوا، ولم تنقص منها لقمة واحدِ، فخرج الحسين عليه السلام ومعه قطعة عُراق، فنادته يهودية: يا أهل بيت الجُود - أو الجوع - من أين لكم هذه! أطعمنيها، فمدّ يده الحسين عليه السلام ليُطعمها، فهبط جَبْرَئيل وأخذها من يده، ورفع الصَّحفة إلى السماء، فقال عليه السلام، لولا ما أراد الحسين عليه السلام من إطعام الجارية تلك القطعة لتُرِكت تلك الصَّحفة في أهل بيتي يأكُلون منها إلى يوم القيامة، وكانت الصدقة في ليلة خمس وعشرين من ذي الحجّة، ونزول ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ في يوم الخامس

---

١. تفسير الرازي ٢٨: ١١٩، تفسير أبي السعود ٨: ١١٨، والآية من سورة الحجرات: ٦/٤٩.

٢. تفسير الرازي ٧: ٨٣، تفسير أبي السعود ١: ٢٦٥، والآية من سورة البقرة: ٢٧٤/٢.

٣. من لايحضره الفقيه ١: ٥٩/٢٠، الخصال: ٢٦٧/١٩٢، وفيهما: البراء بن معرور، والآية من سوره البقرة: ٢٢٢/٢.

٤. تفسير أبي السعود ٥: ١٤٣، تفسير روح البيان ٥: ٨٤، والآية من سورة النحل: ١٠٦/١٦.

٥. تفسير أبي السعود ٩: ١٦٨، والآيتان من سورة الليل: ١٧/٩٢و١٨.

٦. في المصدر: ما هيّأ الله لك.

٧. أمالي الصدوق: ٣٩٠/٣٣٢.

٨. مناقب ابن شهرآشوب ٣: ٣٧٣، تفسير الصافي ٥: ٢٦٢.

٩. العُراق: العظم أُكِل لحمُه.

والعشرين منه[١].

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ تَنزِيلاً * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً[٢٣ـ٢٤]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه حُسن طاعة الشاكرين وحالهم في الآخرة، صلّى رسوله وقوّى قلبه على تحمّل أذى المشركين بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا نبي الرحمة ﴿ٱلْقُرْآنَ﴾ العظيم الشأن بتوسّط جَبْرئيل ﴿تَنزِيلاً﴾ مقروناً بجهات من الإعجاز وشواهد الصدق، أو تنزيلاً مُفرّقاً مُنجّماً، لاقتضاء الحكمة البالغة اختصاص كلّ آيةٍ أو سورةٍ بوقتٍ معينٍ، فلاتعتنِ بقول المعاندين إنّه سحرٌ، أو شعر، أو كِهانة، أو اختلاق البشر، فاذا عَلِمت تلك النعمة العظيمة ﴿فَاصْبِرْ﴾ على أذى المشركين ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير الإذن في قتالهم ونصرك على أعدائك، فانّ له عاقبة حميدة ﴿وَلاَ تُطِعْ مِنْهُمْ﴾ كلّ من كان ﴿آثِماً﴾ وعاصياً لربّه في أمرك بعصيان الله بترك تبليغ الرسالة ﴿أَوْ﴾ كان ﴿كَفُوراً﴾ ومُصرّاً على الكفر والطغيان في أمرك بالرجوع إلى دينهم.

قيل: إنّ المراد بالآثم عُتبة بن ربيعة، فانّه كان متعاطياً إلى أنواع الفسوق، وبالكَفُور الوليد بن المُغيرة فانّه كان غالياً في الكفر[٢] وقيل: بالعكس، فان الله سمّى الوليد أثيماً، حيث قال في حقّه: ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[٣].

رُوي أنّ عُتبة قال للنبي ﷺ: ارجِع عن هذا الأمر حتى أُزوّجك بنتي، فانّي من أجمل قريش بناتاً: وقال الوليد: أنا أُعطيك من المال حتّى ترضى، فانّي من أكثرهم مالاً، فقرأ عليهم رسول الله عشر آيات من أول حم السجدة، إلى قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٤] فانصرفا عنه، قال أحدهما: ظننتُ أن الكعبة ستقع عليّ[٥].

وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً * إِنَّ هٰؤُلاَءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً * نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً[٢٥ـ٢٨]

---

١. مناقب ابن شهرآشوب ٣: ٣٧٥، تفسير الصافي ٥: ٢٦٢.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٨، تفسير أبي السعود ٩: ٧٥.   ٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٨، والآية من سورة القلم: ١٢/٦٨.
٤. فصلت: ١٣/٤١.   ٥. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٨.

ثمّ لمّا أمر سبحانه النبي ﷺ بالصبر أمره بالعبادة الموجبة لراحة قلبه الشريف بقوله: **﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾** واشغل قلبك بالتوجّه إليه **﴿بُكْرَةً﴾** وأول النهار **﴿وَأَصِيلاً﴾** وآخره. قيل: إنّ المراد المداومة على الذّكر في جميع الأوقات[١]. وقيل: إنّ المراد المداومة على صلاة الفجر والظهر والعصر، فانّ الأصيل يُطْلَق على ما بعد الزوال إلى المغرب[٢].

﴿وَ﴾ في بعضٍ **﴿مِنَ ٱللَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ﴾** قيل: إنّ المراد بالسجدة صلاة المغرب والعِشاء[٣] **﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً﴾** قيل: أُريد به التهجّد وصلاة نافلة الليل في ثُلثيه ونصفه وثُلثه[٤].

وقيل: إنّ المراد بالذكر والتسبيح نفسهما. قال: **﴿ٱذْكُرُوا ٱللهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾**[٥].

ثمّ إنّه تعالى بعد تسلية النبي ﷺ شرع في بيان سوء حال الكفار والمتمرّدين بقوله: **﴿إِنَّ هٰؤُلَاءِ﴾** الكفّار **﴿يُحِبُّونَ﴾** الدنيا **﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾** الفانية، ويشتاقون إلى لذّاتها ومشتهياتها **﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾** ويَدَعون خلف ظهورهم **﴿يَوْماً ثَقِيلاً﴾** عليهم شديداً أهواله لهم، ولذا أعرضوا عن الايمان بك وبكتابك، ولايعتنون بمواعظك التي فيها نفع آخرتهم، وليس عدم إيمانهم لشُبهة في نظرهم حتى تُزيلها بالدلائل، وإلّا لو كانوا تابعين[٦] لعقولهم كان عليهم إطاعة أوامرنا والانقياد لأحكامنا **﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾** وأعطيناهم الأعضاء والقُوى التي يكمل بها خلقهم وتُهيّأ[٧] لهم حياتهم **﴿وَشَدَدْنَا﴾** ما حكمنا **﴿أَسْرَهُمْ﴾** وأعضائهم، ليتمكّنوا من القيام والقعود والحركات التي ينتفعون بها من اللذائذ الدنيوية **﴿وَإِذَا شِئْنَا﴾** أهلكناهم و **﴿بَدَّلْنَا﴾** وعوّضنا عنهم في الأرض خَلقاً آخر **﴿أَمْثَالَهُمْ﴾** في الخلقة والشكل **﴿تَبْدِيلاً﴾** بديعاً.

حاصل المراد والله أعلم أنّهم محتاجون في الحياة والبقاء في الدنيا والالتذاذ بشهواتها إلينا، ونحن مستغنون عنهم لعدم حاجتنا إلى الخَلْق، ولو فرض لنا حاجة فلا حاجة لنا إليهم، بل نحن بقدرتنا الكاملة الذاتية قادرون على خلق أمثالهم.

إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللهُ

---

١. تفسير أبي السعود ٩: ٧٥، تفسير روح البيان ١٠: ٢٧٨.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٢٧٨.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٩، تفسير أبي السعود ٩: ٧٦، تفسير روح البيان ١٠: ٢٧٨.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٢٧٨.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ٢٥٩، والآيتان من سورة الاحزاب: ٣٣/٤١و٤٢.
٦. في النسخة: تابعاً.
٧. كذا الظاهر، والكلمة غير منقطة في النسخة.

إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً * يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ وَٱلظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً[٢٩ ـ ٣١]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان حال الشاكرين والكافرين نبّه على الغرض من هذه البيانات بقوله: ﴿إِنَّ هٰذِهِ﴾ المذكورات من الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والدلائل والحكم ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ وعِظةٌ شافيةٌ لمن تأمّل فيها، وتبصرةٌ لمن تفكّر في لطائفها ﴿فَمَن شَاءَ﴾ أيها الناس خير الدارين وسعادة النشأتين ﴿ٱتَّخَذَ﴾ واختار لنفسه بالعمل بهذا القرآن ﴿إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ القُرب إليه ﴿سَبِيلاً﴾ يُصِله إلى مرضاته وجنّته والنّعَم الدائمة ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ﴾ شيئاً من الهداية وغيرها في حالٍ من الأحوال ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾ ذلك الشيء بالمشيئة التكوينية من غير أن يلزَم جُبران ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ بذاته ﴿عَلِيماً﴾ بمصالح العباد واستعداداتهم ﴿حَكِيماً﴾ فيما يشاء لعباده، فلا يشاء لهم إلّا ما تستدعيه وتقتضيه حكمته.

عن القائم عجل الله فرجه أنّه سُئل عن المُفوّضه ـ كذا في النسخة ـ قال: «كذبو، بل قلوبنا أوعيةٌ لمشية الله عزّ وجلّ، فاذا شاء شيئاً شئنا» ثمّ تلا هذه الآية[١].

ثمّ بيّن سبحانه حكم مشيته بقوله: ﴿يُدْخِلُ﴾ الله ﴿مَن يَشَاءُ﴾ سعادته ودخوله ﴿فِى رَحْمَتِهِ﴾ بإعطائه التوفيق وتأييده وتسديده ﴿وَٱلظَّالِمِينَ﴾ الذين ضيّعوا حقوق نِعم الله بالكفر ﴿أَعَدَّ﴾ الله وهيّأ ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ لايوصَف بالبيان.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾ كان جزاؤه على الله جنّةً وحريراً»[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «من قرأ ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَانِ﴾ كلّ غداةٍ من الخميس، زوّجه الله من الحُور العِين ثمانمائة عذراء، وأربعة آلاف ثيّب، وكان مع محمد صلى الله عليه وآله»[٣].

وعن الهادي عليه السلام: «من أحبّ أن يقيه الله شرّ [يوم] الاثنين، فليقرأ في أول ركعة من صلاة الغَداة ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾»[٤].

---

١. الخرائج والجرائح ١: ٤/٤٥٩، تفسير الصافي ٥: ٢٦٦.

٢. تفسير البيضاوي ٢: ٥٥٥، تفسير أبي السعود ٩: ٧٧.

٣. ثواب الأعمال: ١٢١، مجمع البيان ١٠: ٦٠٨، تفسير الصافي ٥: ٢٦٦.

٤. أمالي الطوسي: ٣٨٩/٢٢٤، تفسير الصافي ٥: ٢٦٦.

في تفسير سورة المرسلات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً * وَٱلنَّاشِرَاتِ نَشْراً * فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً * فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً * عُذْراً أَوْ نُذْراً[١ـ٦]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الإنسان المتضمّنة لذمّ الكفّار بأنّهم يَذَرون وراءهم يوماً ثقيلاً، وذِكر دلائل وقوعه، وسوء حال المكذّبين، وحُسن حال المؤمنين، ونُظِمت سورة المرسلات المتضمّنة لاثبات وقوع ذلك اليوم الثقيل، وشرح ثقله بذكر أهواله وشدائده، وتهديد مكذّبيه، وبيان سوء حالهم، وحُسن حال المؤمنين، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بالقسم بالملائكة إظهاراً لعظمتهم وكرامتهم عنده وتأكيداً للمُدّعى بقوله: ﴿وَٱلْمُرْسَلاَتِ﴾ من قبل الله من الملائكة، لإيصال النّعم إلى الخلق، وتبليغ الأحكام والعلوم إلى الرسل، ولخلق ما في الأرحام، وكتابة الأعمال، وحِفظ النفوس من البلايا، وإنزال العذاب، إرسالاً ﴿عُرْفاً﴾ ومتتابعاً كعُرف الفرس، أو معروفاً ومستحسناً عند العامّة، أو المؤمنين، فانّ نزول العذاب على الأعداء إحسانٌ إلى الأولياء.

ثمّ رتّب سبحانه على رسالتهم بيان سرعتهم في امتثال أوامر الله بقوله: ﴿فَالْعَاصِفَاتِ﴾ في طيرانهم، والمسرعات بالشّدة في امتثال أوامر الله، كما تصِف الرياح ﴿عَصْفاً﴾ وسيراً شديداً، وقيل: إنّ المراد بالعاصفات الملائكة الذين يُلهبون بأرواح الكفار ويُهلكونها[١] ﴿وَٱلنَّاشِرَاتِ﴾ بأجنحتهم عند انحطاطهم إلى الأرض، أو الشرائع في أهل الأرض، أو للرحمة والعذاب، أو لصُحف الأعمال يوم الحساب، أو للنفوس المَوتى بالكفر والجهل [بطريق] الوحي الذي هو حياة القلوب ﴿نَشْراً﴾ مُعجباً بديعاً.

ثمّ رتّب سبحانه على نشرهم أمرين: الأول بقوله: ﴿فَالْفَارِقَاتِ﴾ والمميزات بين الحقّ والباطل

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢٦٤.

﴿فَرْقاً﴾ وتميزاً ظاهراً، والثاني بقوله: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ﴾ إلى الأنبياء ﴿ذِكْراً﴾ وعِظةً شافية، أو علماً وحكمةً، أو كتاباً سماوياً. قيل: هو القرآن، وإطلاق صيغة الجمع وإرادة جَبْرئيل وحده لتعظيمه، وإنّما يُلقون الذِّكر ليكون ﴿عُذْراً﴾ وقاطعاً للحُجّة بالنسبة إلى الكافرين، أو عُذراً للمعتذرين إلى الله بالتوبة والاستغفار والمحقّين ﴿أَوْ نُذْراً﴾ وتخويفاً للكافرين والمبطلين، أو بمن اتّبع الذكر.

وقيل: إنّ المراد من المرسلات والعاصفات الرياح المُرسَلة للعذاب، ومن الناشرات رياح الرحمة نشرن في الجوّ وفرّقن السَّحاب، أو نشرن للموات ففرّقن كلّ صنفٍ منها عن سائر الأصناف، أو فرّقن بين الشاكرين لنعم الله وكفورها وبين الموحّد والمشرك، وألقين الذكر والايمان في قلوب المؤمنين[1].

وقيل: إنّ المراد من الجميع آيات القرآن، فإنّها المرسلات المتتابعات، أو بكلّ خيرٍ ومعروفٍ، وهي العاصفات والمذهبات بالأديان الباطلة، وهي الناشرات للهداية والحكم في الأقطار، والفارقات بين الحقّ والباطل[2]، والذوات الطيبة والخبيثة، والملقيات لذكر الله في القلوب، وفيها العُذر والنُّذر.

وقيل: إنّ المراد من الثلاثة الأول الرياح، ومن الاثنين الآخرين الملائكة فانّهم بإنزال الوحي يفرّقون بين الحقّ والباطل، ويُلقون الذِّكر إلى الرسل[3].

وقيل: إنّ المراد بالأولين الرياح، وبالثلاثة الباقية الملائكة، لأنّهم ينشُرون الوحي والدين، وبه يفرّقون بين الحقّ والباطل، ويُظهِرون الذِّكر في القلوب والألسنة[4].

والجمع بين القسم بالرياح والملائكة، لكونهما شبيهتين في اللطافة وسرعة السير، واحتمل غير ذلك ممّا لايَهُمّنا ذكره بعد وضوح كون التفسير الأول أقرب في النظر وأنسب.

إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ * فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا ٱلسَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ * وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ[٧ـ١٩]

ثمّ ذكر سبحانه المقسم عليه بقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أيّها الناس بلسان الأنبياء من الحشر والحساب ومجازاة الأعمال ﴿لَوَاقِعٌ﴾ لامُحالة لاقتضاء الحكمة البالغة ذلك، وامتناع الخُلف للوعد

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢٦٤.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢٦٦.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢٦٧.
٤. تفسير الرازي ٣٠: ٢٦٧.

على الله.

ثمّ عيّن سبحانه وقته بذكر علاماته بقوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ﴾ والكواكب كلّها ﴿طُمِسَتْ﴾ وانعدمت أجرامها، أو مُحِقت أنوارها. عن الباقر عليه السلام: «طموسها ذَهاب ضوؤها»[١]، ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾ لنزول الملائكة، أو فتحت أبوابها ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ﴾ كلّها ﴿نُسِفَتْ﴾ وفُتّت وذُريت كالرمل فوق الأرض، أو قُلِعت من أماكنها بسرعة لانقضاء الدنيا وعدم الفائدة في بقائها أو بقاء السماء وما فيها من الكواكب ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ﴾ والأنبياء الذين هم شهداء على اُممهم ﴿أُقِّتَتْ﴾ وعُيّنت لهم أوقات شهادتهم، أو بلغوا الميقات الذي كانوا ينتظرونه، وكانوا يعدّون وقوعه، وهو يوم القيامة والمجازاة بالأعمال.

ثمّ يقال تعجّباً من عظمة القيامة: أيّها الناس لاتدرون ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ واُخّرت الاُمور الراجعة إلى الرسل من جمعهم وإحضارهم وتعذيب مكذّبيهم وإثابة مصدّقيهم والمؤمنين بهم. ثمّ كأنّه قال تعالى: إنّما اُخّرت جميع ذلك ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ والقضاء بين الخلائق، كما عن ابن عباس[٢].

ثمّ بالغ سبحانه في تعظيم ذلك اليوم بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأي شيءٍ أعلمك يا محمد ﴿مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ في كَثْرة الأهوال والشدائد وشدّة الفَظاعة ﴿وَيْلٌ﴾ وهلاكٌ دائم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت الهائل ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالأخبار بوقوع ذلك اليوم وبالرسل الذين أخبروا بوقوعه وبتوحيد الله، ثمّ استشهد سبحانه على قدرته على إتيان ذلك اليوم وتعذيب المكذّبين به بما أنزل على الاُمم السابقة من العذاب المستأصل بقوله: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ﴾ الامم ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ والسابقين بتكذيبهم التوحيد والرسل والمعاد، كقوم نوح وعاد وثمود بالعذاب الشديد ﴿ثُمَّ﴾ نحن ﴿نُتْبِعُهُمُ﴾ في الاهلاك والعذاب الامم ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ الذين هم نظراؤهم والسالكون مسلكهم في الكفر وتكذيب الرسل والمعاد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الفعل الذي فعلنا بالاُمم السابقين المكذّبين ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ والطاغين الذين هم في عصرك وبعده ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ﴾ وفي زمان إهلاكهم ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآيات الله وأنبيائه.

قيل: إنّه تعالى كرّر قضية الويل في السورة المباركة عشر مرات؛ لأنّ تَكْرار القضية المُرعِبة في مقام التوعيد والترهيب دأب العرب، وهو من البدائع والمُحسّنات[٣].

وعن الكاظم عليه السلام في تأويل الآية أنّه قال: «يقول: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ يا محمد بما أوحيت إليك من ولاية عليّ» قال: «الأولين الذين كذّبوا الرسل في طاعة الأوصياء و ﴿نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾

---

١. تفسير القمي ٢: ٤٠١، تفسير الصافي ٥: ٢٦٨.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢٧٠.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٢٨٤.

قال: من أجرم إلى آل محمد وركِب من وصيّته ما رَكِب»[١].

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِن مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَادِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتاً * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتاً * وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَاءً فُرَاتاً * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ[٢٠-٢٨]

ثمّ أنكر سبحانه على الكفّار تكذيبهم بالمعاد لاستبعادهم إياه بتقريرهم بالخلق الأول الدالّ على إمكان الخلق الثاني وقدرته عليه بقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم﴾ أيها المنكرون للمعاد في الدنيا بقدرتنا ﴿مِن مَاءٍ مَهِينٍ﴾ ومبتذلٍ لايُعتنى به، والنُّطفة القَذِرة التي يُتنفر منها ﴿فَجَعَلْنَاهُ﴾ ومكّناه ﴿فِي قَرَارٍ﴾ ومقرّ ﴿مَكِينٍ﴾ وحصين ومحفوظٍ من الآفات والعوارض الخارجية، وهو الرَّحِم الذي هو وِعاء الولد حال كونه باقياً فيه ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ﴾ وأجلٍ معينٍ ومقدارٍ ﴿مَعْلُومٍ﴾ من الوقت الذي قدّره الله تعالى للولادة، وهو من ستة أشهر إلى تسعة أشهر ﴿فَقَدَرْنَا﴾ وخلقنا جسده وأعضاءه وجوارحه أكمل خلقٍ ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَادِرُونَ﴾ نحن.

قيل: يعني فقَدَرنا في ذلك المكان الضيق المُظلِم على خَلْقه وتصويره كيف شئنا، فنعم القادرون حيث خلقناه على أحسن صورةٍ وهيئةٍ[٢] تكون مع صغره اُنموذجاً للعالم الكبير.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بقدرتنا على إعادته التي هي أهون.

قيل: إنّ الله تعالى خوّف الكفّار بكثرة نِعمه عليهم، فانّ نِعم المنعم إذا كانت أكثر كان عصيانه أقبح وعقابه أشدّ[٣]، فذكر الله سبحانه في الآية السابقة نِعمة التي في أنفسهم، ثمّ ذكر نعمه الخارجية الآفاقية بقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ لكم ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ الواسعة التي تحت أقدامكم ﴿كِفَاتاً﴾ وجامعاً أو حافظاً[٤] أو مساكن في حال كونكم ﴿أَحْيَاءً وَ﴾ كونكم ﴿أَمْوَاتاً﴾.

رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنّه نظر في رجوعه من صفّين إلى مقابر الكوفة، وقال: «هذه كِفات الأموات» ثمّ نظر إلى بيوت الكوفة فقاله: «هذه كُفات الأحياء» أي مساكنهم، ثمّ تلا هذه الآية»[٥].

﴿وَجَعَلْنَا﴾ لكم بعد خلق الأرض ﴿فِيهَا﴾ جبالاً ﴿رَوَاسِيَ﴾ وثوابت ﴿شَامِخَاتٍ﴾ ومرتفعات

---

١. الكافي ١: ٩١/٣٦١، تفسير الصافي ٥: ٢٦٩.
٢. تفسير الرازي ٣٠: ٢٧٣.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢٧٣.
٤. كذا، والظاهر: وجامعة أو حافظة.
٥. تفسير القمي ٢: ٤٠٠، تفسير الصافي ٥: ٢٦٩.

وطوالاً، لتكون أوتاداً لها ﴿وَأَسْقَيْنَاكُم﴾ برحمتنا من السماء والأرض ﴿مَاءً فُرَاتاً﴾ وعَذْباً أو لذيذاً ﴿وَيْلٌ﴾ وعذابٌ أليمٌ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الزمان الخطير ﴿لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه النِّعم العظام، والمنكرين لقدرتنا على إعادة الخلق في يوم القيامة.

ٱنطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ * ٱنطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ * لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ[٢٩ـ ٣١]

ثمّ ذكر سبحانه كيفية عذاب المكذبين يوم القيامة. قيل: إنّ الشمس تقرُب فيه من رؤوس الخلائق وليس عليهم لباسٌ وكِنان، فتَلْفَحهم[١] الشمس وتأخذ بأنفاسهم، ويمتدّ ذلك اليوم، وينجّي الله المؤمنين إلى ظلّ عرشه، فهناك يقولون: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾[٢] ويقول خَزَنة جهنّم للمكذّبين: ﴿ٱنطَلِقُوا﴾ والعبوا أيّها المكذّبون ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم﴾ في الدنيا ﴿بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ من العذاب.

ثمّ يُبالغون في تقريعهم بتكرار الأمر بقوله: ﴿ٱنطَلِقُوا﴾ أيّها المكذّبون واذهبوا ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ من دُخانٍ غليظٍ عظيمٍ من نار جهنّم، أو ظلّ من نارٍ ﴿ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ قيل: شُعبة عن يمينهم، وشُعبه عن يسارهم، وشُعبة فوق رؤوسهم، فيكونون مُحاطين بالدُّخان أو النار[٣].

قيل: يخرُج لسانٌ من النار مُحيطٌ بالكافر كالسُّرادق، فيتشعّب ثلاث شُعبٍ يكون فيها حتّى يفرغ من الحساب[٤] ﴿لَا ظَلِيلٍ﴾ ذلك الظلّ ولامانع لهم من حرّ الشمس، وقيل: يعني لابارد[٥] ﴿وَلَا يُغْنِى﴾ الكفّار ﴿مِنَ﴾ حرّ ﴿ٱللَّهَبِ﴾ ولايُبعِدهم أو لايستُرهم منه.

عن الباقر عليه السلام قال: «بلغنا والله أعلم أنّه إذا سيق[٦] أهل النار وينطلق بهم قبل أن يدخلوا النار، فيقال لهم: ادخلوا إلى ظلٍّ ذي ثلاث شُعب من دُخان النار، فيَحْسَبون أنّها الجنّة، ثمّ يدخُلون النار أفواجاً [أفواجاً و] ذلك نصف النهار» انتهى[٧].

إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ * كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ[٣٢ـ ٣٧]

---

١. في النسخة: فتلحقهم.
٢و٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢٧٥. والآية من سورة الطور ٥٢: ٢٧.
٤. تفسير أبي السعود ٩: ٨٠، تفسير روح البيان ١٠: ٢٨٦.
٥. تفسير الرازي ٣٠: ٢٧٥.
٦. في تفسيري القمي والصافي: استوى.
٧. تفسير القمي ٢: ١١٣، تفسير الصافي ٥: ٢٧٠.

ثمّ وصف سبحانه النار التي كان ذلك الظلّ دُخاناً لها بقوله: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ﴾ وشُعلات، كلّ شررٍ وشعلةٍ في العَظَمة ﴿كَالْقَصْرِ﴾ العظيم والبناء الرفيع، عن ابن عباس: يُريد القُصور العظام[١]. ورُوي عنه: أنّ هذا التشبيه ورد في بلاد العرب، وقُصورهم قصيرة السَّمك[٢] جارية مجرى الخيمة[٣].

وفي رواية أُخرى عنه، أنّه سئل عن القَصْر، فقال: هو خشبٌ كنّا ندّخره للشتاء نُقطّعه[٤]. وقيل: هو أُصول الشجر العظام والنّخل[٥].

ثمّ شبه سبحانه كلّ شررٍ في اللون والتتابع والسرعة والكَثْرة والاختلاط بجماعة الابل السُّود بقوله: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ﴾ وجماعة إبل ﴿صُفْرٌ﴾ كلّ شررة كأنّها جمل أصفر.

قيل: عبّر سبحانه عن الأسود بالأصفر، لأنّ لون الصُّفرة هو السواد المختلط بالبياض، أو لأنّ الإبل السوداء سوادها يضرب إلى الصُّفرة، أو لأنّ الإبل الصفراء يشوب رؤوس أشعارها السواد[٦].

قيل: إنّ ابتداء الشّرر يعظُم فيكون كالقَصْر، ثمّ يفترق فتكون القِطع المُتفرّقة كالجِمالة الصُّفر[٧].

قيل: في تشبيه الشرر بالجِمالة الصُّفر تقريعٌ بالكفّار، فانّهم كانوا يُحبّون الجِمال، ويعتقدون أنّ مُلكها تمام النِّعمة، كأنّه[٨] قيل لهم: إنّكم كنتم تتوقعون من دينكم نِعمة كثيرة[٩] أهمّها عندكم جِمالة وجماعة من الإبل، فاليوم صارت الجِمالة المحبوبة عندكم هذه الشرارات.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه الأهوال ﴿هَٰذَا﴾ اليوم الذي فيه تلك الأهوال العظيمة ﴿يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ هؤلاء المكذّبون بشيءٍ قيل: إنّ الكفّار حين السؤال ينطِقون، فلمّا انقضى السؤال والحساب لاينطِقون من الوحشة وعدم القدرة على التكلّم[١٠] ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ﴾ من قبل الله ﴿فَيَعْتَذِرُونَ﴾ عن تقصيراتهم لعدم عُذرٍ لهم بعد إتمام الحُجّة عليهم في الدنيا ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بهذه الأخبار.

هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ * فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [٣٨ ـ ٤٠]

ثمّ يقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿هَٰذَا﴾ اليوم العظيم الذي تَرون أهواله ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ بين الحقّ

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢٧٦.
٢. السَّمك: السقف أو الارتفاع.
٣. تفسير الرازي ٣٠: ٢٧٧.
٤ و٥. تفسير الرازي ٣٠: ٢٧٦.
٦. في النسخة: لأن الابل الأسود سواده يضرب إلى الصفرة، أو لأن الإبل الأصفر يشوب رؤوس أشعاره بالسواد. راجع: تفسير روح البيان ١٠: ١٨٨.
٧ ـ ٩. تفسير الرازي ٣٠: ٢٧٧.
١٠. تفسير الرازي ٣٠: ٢٧٩.

والباطل، أو القضاء بين الناس أجمعين ﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ يا امّة محمّد في هذا اليوم ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ والأمم السابقين لفصل القضاء والحكم للمحقّ وعلى المُبطل ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ﴾ أيّها الكفّار المبطلون ﴿كَيْدٌ﴾ وحيلة في هذا اليوم لدفع العذاب عنكم، كما كان لكم في الدنيا مكائد لإبطال دعوة الرسل و صرف الناس عنهم ﴿فَكِيدُونِ﴾ واحتالوا وتخلّصوا من عذابي، ولكن لا تقدِرون اليوم على كيدٍ و حيلةٍ، فعليكم أن تتحمّلوا ألم العذاب ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين لا حيلة لهم من التخلّص من العذاب.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَالٍ وَعُيُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ * كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلاً إِنَّكُم مُجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [٤١ـ٤٧]

ثمّ بيّن سبحانه حُسن حال المتّقين بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ والمحترزين عن الكفر والتكذيب في ذلك اليوم مستقرون ﴿فِى ظِلَالٍ﴾ يُظلّهم من حرّ الشمس وغيره، وهو ظلّ العرش، أو أشجار الجنّة، لا كظلّ المكذّبين الذي ليس بظليلٍ عن القمي في ظلال من نورٍ أنور من نور الشمس[١]. وعن الكاظم: «هم نحن وشيعتنا»[٢].

﴿وَ﴾ في ﴿عُيُونٍ﴾ عَذبةٍ لذيذةٍ يدفعون بمائها عطشهم ﴿وَ﴾ في ﴿فَوَاكِهَ﴾ كثيرة ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ ويميلون إليه: والحاصل أنّهم مستغرقون في فنون النِّعم وأنواع الترفُّه، ويقال لهم تفريحاً لقلوبهم: أيّها المتقون ﴿كُلُوا﴾ من نِعم الجنة وفواكهها ﴿وَٱشْرَبُوا﴾ من أنواع أشربتها ﴿هَنِيئاً﴾ لكم، وشرباً بلا داء ولاضرر ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَعْمَلُونَ﴾ من الأعمال الصالحة والعبادات المرضية ﴿إِنَّا﴾ بفضلنا ورحمتنا ﴿كَذٰلِكَ﴾ الجزاء الجزيل والثواب العظيم ﴿نَجْزِى﴾ المؤمنين ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في عقائدهم وأعمالهم وأخلاقهم، وبسبب طاعتهم لربّهم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث يَرَون أنفسهم في غاية الذلّ والعذاب، وأعداءهم المخاصمين لهم في نهاية الكرامة والنِّعم والراحة، وأمّا المجرمون المكذّبون فيقال لهم في الدنيا: ﴿كُلُوا﴾ من نِعم الدنيا ﴿وَتَمَتَّعُوا﴾ وانتفعوا بمشتهياتها زماناً ﴿قَلِيلاً﴾ أو انتفاعاً يسيراً ينقضي بموتكم، فانّ تلذّذكم بها كتلذّذ من يأكُل لُقمة حلواء مسمومة مهلكة، ثمّ يموتون ويهلِكون بها، وأنتم تبتلون بالعذاب لأجل ﴿إِنَّكُم مُجْرِمُونَ﴾ وطاغون على ربّكم ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيث عرّضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتّع القليل.

---

١. تفسير القمي ٢: ٤٠٠، تفسير الصافي ٥: ٢٧١. ٢. الكافي ١: ٩١/٣٦١، تفسير الصافي ٥: ٢٧١.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ[١٨ـ ٥٠]

ثمّ بيّن سبحانه شدّة طُغيانهم على الله بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا﴾ أو اخضعوا لربّكم المُنعِم عليكم بتلك النِّعم العظام الدنيوية وعظّموه شكراً عليها ﴿لاَ يَرْكَعُونَ [* وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ]﴾ ويُصِرّون على كفرهم. عن ابن عباس: أنّ المراد بالركوع في الآية الصلاة[١]. فالمعنى أنّ الكفّار إذا دُعوا للصلاة لايُصلّون، فذمّهم سبحانه على ترك انقيادهم لله في الاصول والفروع، وفيه دلالةٌ على أنّ الكفار مكلّفون بالفروع كما أنّهم مكلّفون بالأُصول ومعاقبون عليهما.

قيل: نزلت في ثقيف حين أمرهم الرسول ﷺ بالصلاة فقالوا: لاننحني فانّها سُبّة[٢].

ثمّ لمّا بالغ سبحانه في كتابه الكريم في إقامة البراهين على وجوب الايمان بالله والانقياد له، وزجر الكفار عن العتوّ والعِصيان، ومع ذلك لم يؤمنوا ولم يتأثّروا ولم يتّعظوا بمواعظه، ختم السورة المباركة بإظهار التعجّب من عدم إيمانهم بقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ﴾ وبيانٍ غير القرآن و ﴿بَعْدَهُ﴾ مع كونه إعجازاً وجامعاً للمواعظ الشافية والعلوم والحكم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فاذا لم يُؤمنوا به فهم في غاية القساوة واللّجاج والعِناد.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة ﴿وَٱلْمُرْسَلاَتِ عُرْفاً﴾ عرّف الله بينه وبين محمّد ﷺ»[٣].

---

١. تفسير الرازي ٣٠: ٢٨٤.

٢. مجمع البيان ١٠: ٦٣٦، تفسير الصافي ٥: ٢٧١، تفسير البيضاوي ٢: ٥٥٩.

٣. ثواب الاعمال: ١٢١، مجمع البيان ١٠: ٦٢٧، تفسير الصافي ٥: ٢٧٢.

في تفسير سورة النباء

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ * ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ[١ـ٣]

ثمّ لمّا خُتِمت السورة المباركة المتضمّنة لبيان عظمة القيامة وأهوالها والاستفهامات التقريرية لإثبات وقوعها بقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِن مَاءٍ مَهِينٍ﴾[١] إلى آخره، وبيان سوء حال المكذّبين بها وحسن حال المتّقين، نُظِمت السورة المباركة النبأ المتضمّنة لبيان عظمة ذلك اليوم وأهواله، والاستفهامات التقريرية لإثبات وقوعه بقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَاداً﴾[٢] إلى آخره، وبيان سوء حال المكذّبين به، وحسن حال المتّقين في الآخرة، فافتتحها سبحانه على دأبه بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها على القول الصحيح ببيان عظمة يوم القيامة بقوله: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وعن أي خبر أُولئك الكفّار يستخبرون بعضهم بعضاً، أو كلُّهم المؤمنين استهزاءً، أو المؤمنون الرسول زيادةً لليقين والبصيرة؟ يتسائلون ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾ والخبر ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ الشأن الذي لاأعظم منه. قيل: إنّ المراد من النبأ نبوّة محمد[٣]. وقيل: هو القرآن[٤] ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ فبعضهم يقولون: إنّه سحرٌ وبعضهم يقولون: إنّه شعرٌ، وبعضهم يقولون: كِهانة.

وقيل: إنّ المراد به وقوع يوم القيامة[٥]، وهو الأظهر، فانّ الكفّار كانوا فيه مختلفين، فبعضهم يُنكِرونه، وبعضهم يُظهِرون الشكّ فيه، وبعضهم يُنكِرون المعاد الجسماني دون الروحاني، وفي الاستفهام غاية تفخيم شأنه.

وعن الصادق عليه السلام ـ في تأويله ـ قال: «﴿ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الولاية»[٦].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سُئِل عن تفسير ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قال: «هو أميرالمؤمنين عليه السلام» وقال: «كان أمير

---

١. المرسلات: ٢٠/٧٧. ٢. النبأ: ٦/٧٨. ٣. تفسير الرازي ٣١: ٤.
٤. مجمع البيان ١٠: ٦٣٩، تفسير الرازي ٣١: ٤. ٥. تفسير الرازي ٣١: ٣.
٦. الكافي ١: ٣٤/٣٤٦، تفسير الصافي ٥: ٢٧٣.

المؤمنين عليه السلام يقول: ما لله عزّ وجلّ آية أكبر منّي، وما لله نبأٌ أعظم منّي»[١].

وعن الرضا عليه السلام أنّه سُئِل عنه قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: ما لله نبأٌ أعظم منّي، وما لله آيةٌ أكبر منّي، وقد عُرِض فضلي على الأُمم الماضية على اختلاف ألسنتهم فلم تُقرّ لفضلي»[٢].

وعن أبيه [عن آبائه] عن الحسين بن عليّ: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ: يا علي، أنت حُجّة الله، وأنت باب الله، وأنت الطريق إلى الله، وأنت النبأ العظيم»[٣].

وروي العلامة رحمه الله في (نهج الحق) عن العامة تأويله بأميرالمؤمنين عليه السلام[٤] أيضاً.

أقول: هذه الروايات لاتنافي إرادة الله ظاهر الآية، وإن انطبق عنوان النبأ العظيم على أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً.

كَلَّا سَيَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ [٤ و ٥]

ثمّ ردع سبحانه الكفّار عن الاختلاف في المعاد بقوله: ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر كما يقوله الكفّار في يوم القيامة، فإنّهم ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ أنّه حقٌّ واقعٌ لامُحالة.

وقيل: إنّ ﴿كَلَّا﴾ هنا بمعنى حقّاً[٥].

ثمّ كرّر سبحانه الرّدع وأبلغ فيه بكلمة ﴿ثُمَّ﴾ بقوله: ﴿ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾ أنّه واقعٌ لادافع له، فلا مجال للشكّ فيه، ولاللتساؤل عنه لوضوحه.

وقيل: يعني كلّا سيعلمون حقيته عند النّزع، ثمّ سيعلمون به يوم القيامة، أو سيعلمون حين البعث من القبور بالقيامة والحشر والحساب[٦]. ثمّ سيعلمون بالعذاب على التكذيب، أو سيعلمون ما الله فاعلٌ بهم ثمّ سيعلمون أنّ الأمر ليس كما يتوهّمون من أنّ الله غير باعثهم، أو سيعلمون بما نزل بهم في الدنيا من العذاب وسيعلمون بما ينالهم في الآخرة، أو سيعلمون الكفّار سوء عاقبة تكذيبهم وسيعلمون المؤمنون حُسن عاقبة تصديقهم[٧].

وهذا التفسير أبعد من الكلّ، لظهور الآيتين في غاية التهديد والتشديد، والسين. في الفعلين للتقريب والتأكيد.

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً * وَجَعَلْنَا

---

١. الكافي ١: ٣/١٦١، تفسير الصافي ٥: ٢٧٣.
٢. تفسير القمي ٢: ٤٠١، تفسير الصافي ٥: ٢٧٣.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٣/٦، تفسير الصافي ٥: ٢٧٣.
٤. نهج الحق: ٢١١.
٥. تفسير الرازي ٣١: ٥.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٢٩٣.
٧. تفسير الرازي ٣١: ٥.

نَوْمَكُمْ سُبَاتاً * وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاساً * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً * وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً * وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجاً * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً[٦ـ١٦]

ثمّ لمّا كان عُمدة إنكار المنكرين بالنظر إلى استبعاد الإعادة المبنيّ على عدم المعرفة بقدرة الله، ذكر سبحانه الشواهد على كمال قدرته بقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ﴾ بقدرتنا لكم ﴿مِهَاداً﴾ وفراشاً تتقلّبون عليها كما تتقلّبون على فُرشكم ﴿وَٱلْجِبَالَ﴾ الرواسي في الأرض ﴿أَوْتَاداً﴾ لها لتسكن ولاتَميد بأهلها ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ﴾ من الماء المَهين ﴿أَزْوَاجاً﴾ وأصنافاً ذكراً واُنثى، ليسكُن كلّ صنفٍ إلى الآخر، وينتظم أمر المعاش والمعاشرة والتناسُل ﴿وَجَعَلْنَا﴾ وصيّرنا ﴿نَوْمَكُمْ﴾ لطفاً بكم ﴿سُبَاتاً﴾ وقاطعاً لحركات أعضائكم، وراحةً لكم، ورافعاً لتعبكم ﴿وَجَعَلْنَا﴾ و صيّرنا ﴿ٱلَّيْلَ﴾ المظلم لكم ﴿لِبَاساً﴾ وساتراً لكم بظُلمته عن عيون الناس، كما يستُر الناس عن عيونكم، فتستريحون فيه، وتقفون عن الحركة في مطلب المعاش ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ﴾ لكم ﴿مَعَاشاً﴾ وزمان اكتساب الرزق والتقلّب في وجه الأرض لطلب المعاش ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ﴾ من السماوات ﴿سَبْعاً﴾ غير العرش والكُرسيّ ﴿شِدَاداً﴾ وغلاظاً غِلَظ كلّ سماءٍ مسيرة خمسمائة عام، أو محكمات الخلق لايُؤثّر فيها مر الدهور وكرّ العصور، ولافطور فيها ولافُروج.

قيل: إنّ إطلاق البناء على السقف مع أنّه لايُستعمل إلّا في أسافل البيت[١]، للدلالة على كمال الاستحكام، أو لتنزيلها منزلة القبّات المضروبة على الخلق[٢].

﴿وَجَعَلْنَا﴾ وخلقنا لأهل العالم ﴿سِرَاجاً﴾ ومِصباحاً ﴿وَهَّاجاً﴾ ووقّاداً، أو مُضياءً في الغاية. عن ابن عباس: الوهّاج مبالغة في النور[٣].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَاتِ﴾ والرياح المثيرات للسَّحاب، كما عن ابن عباس[٤]، أو السَّحاب كما في رواية اُخرى عنه[٥] ﴿مَاءً ثَجَّاجاً﴾ وشديد الانصباب ومتتابع القَطْر عظيم النفع ﴿لِنُخْرِجَ بِهِ﴾ من الأرض ﴿حَبّاً﴾ ونباتاً له الاكرام والثّمار ﴿وَنَبَاتاً﴾ لاأكمام له كالحشائش ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ وبساتين ﴿أَلْفَافاً﴾ ومتداخلات أو متقاربات، لتتفكّهوا بثمارها، فذكر سبحانه أولاً أغذية الانسان بقوله: ﴿حَبّاً﴾ ثمّ ذكر علوفة الحيوانات بقوله: ﴿وَنَبَاتاً﴾ وبعدها ما يستلذّ به الانسان من الفواكه.

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً * يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً * وَفُتِحَتِ

---

١. تفسير الرازي ٣١: ٨ ٢. تفسير روح البيان ١٠: ٢٩٦. ٣ـ٥. تفسير الرازي ٣١: ٨

ٱلسَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً * وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً[١٧ - ٢٠]

ثمّ إنّه تعالى بعد ما بيّن كمال قدرته وحكمته وإتمام نعمته على الخَلْق من حيث المسكن وأسباب المعيشة والراحة في الدنيا، ذكر أحوال الآخرة بقوله: ﴿إِنَّ﴾ يوم القيامة الذي هو ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ والقضاء بين الناس ﴿كَانَ﴾ بتقدير الله ﴿مِيقَاتاً﴾ وزماناً تنتهي إليه الدنيا أو الخلائق، أو موعداً للجزاء على الأعمال أو لاجتماع الخلائق.

ثمّ بيّن سبحانه ذلك اليوم بقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ النفخة الثانية التي هي نفخة الإحياء ﴿فَتَأْتُونَ﴾ أيّها الناس بعد إحيائكم في القبور وبعثكم منها إلى المحشر حال كونكم ﴿أَفْوَاجاً﴾ وجماعات قيل: يأتي كلّ نبيٍ مع أُمّته[١]، وقيل: يعني فِرقاً مختلفة[٢].

رُوي عن مُعاذ أنّه سأل رسول الله ﷺ عنه فقال: «يا مُعاذ، سألت عن أمرٍ عظيمٍ من الأمور» ثمّ أرسل عينيه وقال: «يُحشَر عشرة أصناف من أُمّتي بعضهم على صورة القِرَدَة، وبعضهم على صُورة الخنازير، وبعضهم منكوسون أرجلهم فوق وجوههم يُسْحَبون عليها، وبعضهم عُميٌ، وبعضهم صُمٌ بكم، وبعضهم يَمْضُغون ألسنتهم وهي مُدلّاة على صدورهم يسيل القيح من أفواههم يتقذّر أهل الجمع منهم، وبعضهم مُقطّعة أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مُصَلّبون على جُذوعٍ من نارٍ، وبعضهم أشدّ نَتْناً من الجِيف، وبعضهم مُلْبَسون جِباباً سابغة من قَطِران لازقة بجلودهم.

فأمّا الذين على صورة القِردة فالقتّات من الناس، وأمّا الذين على صورة الخنازير فأهل السُّحت، وأمّا المنكوسون على وجوههم فأكَلة الرّبا، وأما العُمي فالذين يجورون في الحُكم، وأمّا الصُمّ البُكم فالمُعجبون بأعمالهم، وأمّا الذين يَمضَغون ألسنتهم فالعلماء والقضاة الذين تخالف أقوالهم أعمالهم، وأمّا الذين قُطّعت أيديهم وأرجلهم فهم الذين يُؤذون الجيران، وأمّا المُصلّبون على جُذوع النار فالسعاة بالناس إلى السُّلطان، وأمّا الذين هم أشدّ نَتْناً من الجِيف فالذين يتبعون الشهوات واللذات ومنعواحقّ الله تعالى من أموالهم، وأمّا الذين يلبسون الجباب فأهل الكِبر والفخر والخُيلاء»[٣].

ورواه في (المجمع) عن النبي[٤].

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَاءُ﴾ وانشقّت شُقوقاً كثيرة ﴿فَكَانَتْ﴾ السماء لكثرة الشُّقوق[٥] ﴿أَبْوَاباً﴾ لنزول

١و٢. تفسير الرازي ٣١: ١٠.

٣. تفسير الرازي ٣١: ١٠، جوامع الجامع: ٥٢٦، تفسير أبي السعود ٩: ٨٩، تفسير روح البيان ١٠: ٢٩٩.

٤. مجمع البيان ١٠: ٦٤٢، تفسير الصافي ٥: ٢٧٥.

٥. زاد في النسخة: كأنّها، ولاتصحّ، لأن لفظ الآية بعدها منصوب.

الملائكة قيل: إنّ التقدير فكانت تلك المواضع المفتوحة أبواباً[١]. وقيل: إنّ المراد من فتحها إزالتها وإعدامها، فكانت مكانها طرق ومسالك للملائكة[٢] ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ في الجوّ بعد انقلاعها من أماكنها ﴿فَكَانَتْ﴾ وصارت في الأنظار شيئاً وليست بشيءٍ، كماترى ﴿سَرَاباً﴾ تَحْسَبه ماءً وليس بماءٍ.

قيل: إنّ الله تعالى أخبر عن الجبال بحالات؛ فأوّلها أنّها تندكّ وتتقطّع، ثمّ تصير كثيباً مهيلاً وتلاً من رمل، ثمّ تصير كالعِهن، ثمّ تنسِفها الرياح فتصير هَباءً وذراتٍ منبثّة في الهواء، فتصير في الهواء كقطعةٍ من الأرض تسير في الجوّ، وترى الأرض التي تحتها بارزةً، وهي في هذه الحالة مثل السَّراب، فكما أنّ السراب تَحْسَبه ماءً وليس بماءٍ، كذلك الجبال تَحْسَبها جبالاً وليست بجبالٍ في الحقيقة، بل هي غُبار[٣].

إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلطَّاغِينَ مَآباً * لاَبِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلاَ شَرَاباً * إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً * جَزَاءً وِفَاقاً[٢١ـ٢٦]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان خراب الدنيا ومجيء الناس إلى الحشر، بيّن حال جهنّم بقوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ﴾ في علم الله، أو صارت ﴿مِرْصَاداً﴾ ومحلّاً لترقّب خزنتها ورود الناس، فالمؤمنون يمرّون عليها كالبرق الخالطف أو كالراكب، وتكون ﴿لِلطَّاغِينَ﴾ والعُتاة والمتمرّدين خاصة ﴿مَآباً﴾ ومرجِعاً ومستقراً حال كونهم ﴿لاَبِثِينَ﴾ ومقيمين ﴿فِيهَا أَحْقَاباً﴾ ودهوراً كثيرةً لانهاية لها.

عن ابن عباس: أنّ الأحقاب ثلاثة وأربعون حُقباً، كلّ حُقبٍ سبعون خريفاً، كلّ خريفٍ سبعمائة سنة، كلّ سنة ثلاثمائة وستون يوماً، كلّ يومٍ ألف سنةٍ من أيام الدنيا[٤].

وعن النبي ﷺ: «لايخرُج من النار من دخلها حتّى يمكُث فيها أحقاباً، والحُقب ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم كألف سنةٍ ممّا تَعُدّون، فلا يتّكلنّ أحدٌ على أن يُخرَج من النار»[٥].

وعن الصادق عليه السلام قال: «الأحقاب ثمانية حُقب، والحُقب ثمانون سنة، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً، واليوم كألف سنةٍ ممّا تَعُدّون»[٦].

---

١. تفسير الرازي ٣١: ١١.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٣٠.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٣٠١.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٣٠٢.
٥. مجمع البيان ١٠: ٦٤٣، تفسير الصافي ٥: ٢٧٦.
٦. معاني الأخبار: ١/٢٢٠، تفسير الصافي ٥: ٢٧٦.

وعن الصادقين عليهما السلام: «هذه في الذين يُخرَجون من النار»[١].

وقيل: إنّه كنايةٌ عن الدوام والخُلود[٢]، وعلى أيّ تقدير أهل النار ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا﴾ ولا يحِسّون ﴿بَرْداً﴾ ينتفعون ويستريحون به، وعن بعض مفسري العامة والقمّي: يعني نوماً[٣] ﴿وَلاَ شَرَاباً﴾ رافعاً لعطشهم ﴿إِلَّا حَمِيماً﴾ وماءً متناهياً في الحرارة ﴿وَغَسَّاقاً﴾ وقيحاً سائلاً من جُلود أهل النار، إنّا نُجازيهم ﴿جَزَاءً﴾ يكون ﴿وِفَاقاً﴾ لعقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، بلا زيادة عليها ولا نُقصان، ومطابقاً لها في العِظم والصِّغر.

إِنَّهُمْ كَانُوا لاَ يَرْجُونَ حِسَاباً * وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً * وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً[٢٧ـ٢٩]

ثمّ حكى سبحانه اعتقادهم الموجب لذلك العذاب بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿لاَ يَرْجُونَ﴾ ولايحتملون ﴿حِسَاباً﴾ لأعمالهم في الآخرة، وجزاءً على سيئاتهم، ولذا كانوا لايُبالون مُنكراً، ولايرغبون في معروفٍ.

ثمّ حكى سبحانه أسوأ أعمالهم بقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على التوحيد والبعث والحساب ﴿كِذَّاباً﴾ وتكذيباً مُفرطاً إسراراً على الكفر وفنون القبائح والمعاصي، فلمّا كانت سيئاتهم بهذه الدرجة من العظمة استحقّوا هذه الدرجة الشديدة من العذاب، للزوم موافقة عذابهم وأعمالهم ومعاصيهم.

ثمّ بيّن سبحانه علمه بميزان الأعمال ومقدار الجزاء بقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء منها الأعمال وجزاؤها ﴿أَحْصَيْنَاهُ﴾ وعلمناه حال كونه ﴿كِتَاباً﴾ ومثبوتاً في اللوح المحفوظ، أو المراد علمناه علماً يكون في القوة والثّبات كأنّه مكتوبٌ، أو المراد أحصيناه إحصاءً، وكتبناه كتاباً في اللّوح المحفوظ، أو في صُحف الحَفَظة.

فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَاباً * إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً * حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً * وَكَوَاعِبَ أَتْرَاباً * وَكَأْساً دِهَاقاً * لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً * جَزَاءً مِن رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً[٣٠ـ٣٦]

---

١. مجمع البيان ١٠: ٦٤٣، وتفسير الصافي ٥: ٢٧٦، عن الباقر عليه السلام.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٣٠٢.
٣. تفسير الرازي ٣١: ١٤، تفسير القمي ٢: ٤٠٢، تفسير الصافي ٥: ٢٧٦.

ثمّ لمّا بيّن سبحانه شدّة عذاب الطُّغاة أظهر شدّة غضبه عليهم بتوجيه العتاب إليهم بقوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ أيها الكفَرة الطُّغاة طَعْم العذاب كما ذقتم في الدنيا لذّة مشتهياتها ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾ إلى الأبد ﴿إِلَّا عَذَاباً﴾ قيل: كلّما استغاثوا من عذابٍ أُغيثوا بأشدّ منه[١].

عن النبي ﷺ: «أنّ هذه الآية أشدّ ما في القرآن على أهل النار»[٢].

قيل: إنّهم لمّا كانوا يزيدون تدريجاً في تكذيب النبي ﷺ وإيذائه وإيذاء المؤمنين، زاد الله متدرّجاً في عذابهم لتحقيق الموافقة في الجزاء، فلايَرِد ما قيل من أنّه لو كان العذاب الزائد مستحقّاً في أول ورودهم في جهنّم كان تركه عفواً وإحساناً، فلاينبغي للحكيم رجوعه عن عفوه وإحسانه، وإن كان غير مستحقّ فزيادته ظُلم[٣]، مع أنّ التخفيف إلى مدّة لاينافي عذابه فيما بعد.

ثمّ بيّن سبحانه حُسن حال المتّقين في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ والمجتنبين عن الكفر وتكذيب الرسول والمعاد والعِصيان في الآخرة ﴿مَفَازاً﴾ وظَفراً بأقصى المطالب وأهمّ المقاصد بعد النجاة من النار، أعني بالمفازة ﴿حَدَائِقَ﴾ وبساتين ذات أشجارٍ كثيرةٍ وثِمارٍ وافرةٍ لم تَرَ مثلها عينٌ، ولم تسمع مثلها أُذن ﴿وَأَعْنَاباً﴾ طيبةً كثيرةً. قيل: إنّما خصّها بالذكر لشرفها وفضلها[٤].

﴿وَ﴾ لهم نساء ﴿كَوَاعِبَ﴾ ومستديرات الثديين، أو مرتفعاتها و ﴿أَتْرَاباً﴾ ومتساويات في السنّ.

عن الباقر عليه السلام: «﴿كَوَاعِبَ أَتْرَاباً﴾ فتيات ناهدات»[٥].

﴿وَ﴾ ان لهم ﴿كَأْساً﴾ من خمرٍ ﴿دِهَاقاً﴾ ومملوّةً كما عن ابن عباس[٦]، أو متتابعةً كما عن جماعة[٧]، أو صافية[٨].

وهؤلاء المتّقون الذين هم في الجنة ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ من أحدٍ ﴿فِيهَا﴾ كلاماً ﴿لَغْواً﴾ وباطلاً ﴿وَلَا كِذَّاباً﴾ الذي كان الطاغوت يقولونه في الآيات. والحاصل أنّ المتّقين لايسمعون في الجنّة كلاماً مشوّشاً ولاكلاماً ككلام الطُّغات.

وقيل: إنّ ضمير ﴿فِيهَا﴾ راجعٌ إلى الكأس[٩]، والمعنى لايسمعون في حال شربهم الخمر كلاماً لغواً وباطلاً، إذ لاتتغير عقولهم، ولايتكلّمون بما لافائدة فيه، كلّ ذلك يكون ﴿جَزَاءً﴾ على عقائدهم الصحيحة وأعمالهم الصالحة ﴿مِن رَبِّكَ﴾ الكريم الجواد، ويكون ﴿عَطَاءً﴾ لهم ﴿حِسَاباً﴾ وكافياً، أو كثيراً زائداً عن استحقاقهم بإزاء عملهم، فانّ الاحسان إلى المطيع بمقدار عمله واجبٌ على الله،

---

١. تفسير الرازي ٣١: ١٩، وتفسير روح البيان ١٠: ٣٠٧، عن النبي ﷺ.
٢. تفسير الرازي ٣١: ١٩، وتفسير روح البيان ١٠: ٣٠٧، هذا الحديث والذي قبله حديث واحد.
٣. تفسير الرازي ١٠: ٣٠٧.
٤. تفسير الرازي ١٠: ٣٠٨.
٥. تفسير القمي ٢: ٤٠٢، تفسير الصافي ٥: ٢٧٧.
٦ـ٩. تفسير الرازي ٣١: ٢٠.

لأنّه لو لم يُحسن لَزِم البُخل وتساوي المُطيع والمعاصي، وهما مُحالان، وأمّا الزائد فإحسانٌ حَسَنٌ غير واجبٍ، فلذا جمع سبحانه في ثوابهم بين الجزاء والإحسان، وهذا مراد من قال: العطاء موضع الفضل لاموضع الجزاء، لأنّ الجزاء على الأعمال، والفضل موهبةٌ من الله مختصةٌ بالخواصّ من أوليائه.

عن (الأمالي) عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث قال: «حتى إذا كان يوم القيامة حسب لهم حسناتهم، وأعطاهم بكلّ واحدةٍ عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله تعالى: **﴿جَزَاءً مِن رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً﴾**»[1].

رَبِّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمٰنِ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً * يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلاَئِكَةُ صَفّاً لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَاباً[٣٧ و ٣٨]

ثمّ بيّن سبحانه علّة جزائه وكَثْرة عطائه بقوله: **﴿رَبِّ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾** هو **﴿ٱلرَّحْمٰنِ﴾** والفيّاض المُطلَق على جميع الممكنات بجميع الخيرات، فمن كان بهذه العَظَمة والجود لايضيع عمل عاملٍ عنده، ولايكون عطاءه قليلاً، بل كان في غاية العَظَمة، ويكون من عَظَمته وكبريائه أنّ الأنبياء والرسل وأعاظم الملائكة **﴿لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ﴾** لغاية عَظَمته وكبريائه **﴿خِطَاباً﴾** ومُكالمةً معه والاعتراض عليه في ثواب أو عقاب.

ثمّ لمّا كان المشركون مدّعين أنّ الملائكة والأصنام شُفعاءهم عند الله يوم القيامة، ردّهم سبحانه بقوله: **﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾** الذي هو أعظم من جميع الملائكة **﴿وَٱلْمَلاَئِكَةُ﴾** الذين هم سُكّان السماوات وأقرب الموجودات إلى الله تعالى **﴿صَفّاً﴾** واحداً أو أكثر **﴿لاَّ يَتَكَلَّمُونَ﴾** في ذلك اليوم إجلالاً له وخُضوعاً لديه وخوفاً منه **﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمٰنُ﴾** في التكلّم والشفاعة **﴿وَقَالَ﴾** ذلك المأذون قولاً **﴿صَوَاباً﴾** وحقاً واقعاً في محلّه ومرضياً عنده، فكيف بغيرهم؟

وقيل: لايتكلّمون في حقّ أحدٍ إلّا في حقّ شخصٍ أذن له الرحمن وقال ذلك الشخص صواباً وحقّاً ـ وهو التوحيد ـ دون غيره من أهل الشرك[2]. وفي ذِكر الرحمن هنا إشعارٌ بأنّ مَناط الإذن هو الرحمة الواسعة.

---

١. أمالي الطوسي: ٣١/٢٦، تفسير الصافي ٥: ٢٧٧.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٣١٠.

قيل: إنّ المراد بالروح جَبْرَئيل[١]، وتخصيصه بالذكر لكونه أفضلهم، وقال جمع: إنّه أعظم من جَبْرَئيل[٢].

عن ابن مسعود: أنّه أعظم من السماوات والجبال[٣].

وعن بن عباس: أنّه مَلَك من أعظم الملائكة خلقاً[٤].

وعن القمي: أنّه مَلَك أعظم من جَبْرَئيل وميكائيل كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو مع الأئمة عليهم السلام، وهو مرويّ عن الصادق عليه السلام[٥].

وعن الكاظم عليه السلام: «نحن والله المأذونون لهم يوم القيامة، والقائلون صواباً». قيل: ما تقولون إذا تكلّمتم؟ قال: «نمجّد ربّنا، ونُصلّي على نبيّنا، ونشفع لشيعتنا ولا يَرُدّنا ربّنا»[٦].

ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآباً * إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَالَيْتَنِى كُنتُ تُرَاباً[٣٩ و ٤٠]

ثمّ أكّد سبحانه ثبوت ذلك اليوم ورغّب الناس في التهية له بقوله: ﴿**ذَٰلِكَ**﴾ اليوم ﴿**ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ**﴾ الثابت الذي لاريب فيه، أو اليوم الذي يُحَقّ فيه كلّ حقٍّ ويُبطَل فيه كلّ باطل، فاذا عَلِمتم ذلك ﴿**فَمَن شَاءَ**﴾ النجاة من العذاب والنّيل بالثواب ﴿**ٱتَّخَذَ**﴾ واختار لنفسه ﴿**إِلَىٰ رَبِّهِ مَآباً**﴾ وسبيلاً بالايمان بتوحيده ورسالة رسوله، وبالأعمال الصالحة.

ثمّ أعلن سبحانه في الناس إتماماً للحُجّة عليهم بقوله: ﴿**إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ**﴾ أيّها الناس في هذه السورة، أو في القرآن ﴿**عَذَاباً**﴾ في الآخرة ﴿**قَرِيباً**﴾ وقوعه على الكفّار والعُصاة، فانّ كلّ آتٍ قريبٌ وإن تَرَونه بعيداً.

ثمّ بالغ سبحانه في التخويف والإنذار بقوله: ﴿**يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ**﴾ والانسان المكلّف إلى ﴿**مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ**﴾ والذي ارتكبت جوارحه في الدنيا من الطاعة والعِصيان.

وقيل: يعني اذكُروا يوم ينظُر الانسان أي شيءٍ قدّمت يداه من الخير والشرّ والطاعة والعِصيان بالنظر إلى صحيفة أعماله، فان رأى فيها الأعمال الصالحة فرِحَ ورجا ثواب الله، وإن رأى فيها الأعمال السيئة حَزِن وخاف العقاب[٧].

---

١. تفسير الرازي ٣١: ٢٤.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٣١٠.
٣ و٤. تفسير الرازي ٣١: ٢٣.
٥. تفسير القمي ٢: ٢٦ و٤٠٢، تفسير الصافي ٥: ٢٧٧.
٦. الكافي ١: ٩١/٣٦١، تفسير الصافي ٥: ٢٧٧.
٧. مجمع البيان ١٠: ٦٤٧، تفسير روح البيان ١٠: ٣١١ و٣١٢.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ﴾ حين رأى تَبعات كُفره وعِصيانه وخُلوّ صحيفته من الحسنات: ﴿يَالَيْتَنِى كُنتُ﴾ في الدنيا ﴿تُرَاباً﴾ ولم أكن إنساناً مُكلّفاً حتى ابتلي بالعذاب، أو ليتني كنت في هذه اليوم تراباً ولم أُبعث كما كنت تراباً قبل الإحياء وقيل: يعني يا ليتني كنت متواضعاً ولم أكن متكبّراً[1].

وقيل: إنّ المراد بالكافر إبليس، وهو يقول: ياليتني كنت مخلوقاً من تُراب كآدم، ولم أكن مخلوقاً من النار[2] حتّى اتكبّر على آدم، ومن السُّجود له.

وعن (العلل) عن ابن عباس، أنّه سُئل: لم سَمّى رسول الله ﷺ علياً عليه السلام أبا تراب؟ قال: «لأنّه صاحب الأرض وحُجّة الله على أهلها بعده، وبه[3] بقاؤها، وإليه سُكونها». قال: لقد سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: إنّه إذا كان يوم القيامة ورأى الكافر ما أعدّ الله تبارك وتعالى لشيعة عليّ من الثواب والزُّلفى والكرامة قال: ياليتني كنت تُرابياً، أي من شيعة عليّ، وذلك قول الله: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَالَيْتَنِى كُنتُ تُرَاباً﴾[4].

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ لم تخرُج سنته -إذا كان مُدمِنها في كلّ يوم- حتّى يزور بيت الله الحرام إنشاء الله تعالى»[5].

---

١. تفسير الرازي ٣١: ٢٦.
٢. مجمع البيان ١٠: ٦٤٨، تفسير أبي السعود ٩: ٩٥، تفسير روح البيان ١٠: ٣١٢.
٣. في النسخة وتفسير الصافي: وله.
٤. علل الشرائع: ٣/١٥٦، تفسير الصافي ٥: ٢٧٨.
٥. ثواب الاعمال: ١٢١، مجمع البيان ١٠: ٦٣٧، تفسير الصافي ٥: ٢٧٨.

في تفسير سورة النازعات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّازِعَاتِ غَرْقاً * وَٱلنَّاشِطَاتِ نَشْطاً * وَٱلسَّابِحَاتِ سَبْحاً * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً * يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ ءَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ * ءَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ * فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ[١ـ١٤]

ثمّ لمّا خُتِمت السورة النبأ المتضمّنة لأهوال القيامة، والاستدلال على وقوعها، وسوء حال الكافرين المكذّبين لها، وحُسن حال المؤمنين المُقرّين بها، نُضِمت سورة النازعات المتضمّنة لتلك المطالب العالية، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**﴾.

ثمّ ابتدأها بذكر الايمان بأصناف الملائكة بقوله: ﴿**وَٱلنَّازِعَاتِ**﴾ والجاذبات من الملائكة لأرواح الكفّار ﴿**غَرْقاً**﴾ ونزعاً وجذباً شديداً من أجسادهم كما يُنزَع في القوس بشدّة حتى يُنتهى إلى النّصل ﴿**وَٱلنَّاشِطَاتِ**﴾ والمُخرجات من الملائكة أرواح المؤمنين ﴿**نَشْطاً**﴾ إخراجاً برِفقٍ ولُطفٍ من أبدانهم، كما يُخرَج الدلو من البئر ﴿**وَٱلسَّابِحَاتِ**﴾ والمُرفِقات في ذلك الإخراج لئلا يصل إليهم ألمٌ وشدّة، كما يرفُق السابح في الماء في حركاته لئلا يغرَق في الماء ﴿**سَبْحاً**﴾ ورفقاً بالغاً لئلّا يحِسّوا تعباً ﴿**فَالسَّابِقَاتِ**﴾ والمسرعات من الملائكة بأرواح الكفّار إلى الغار وأرواح المؤمنين إلى الجنّة والراحة والنّعمة، ليروا صدق مواعيد الله ﴿**سَبْقاً**﴾ وسرعةً لايشابهها[1] سبق سابقٍ وسرعة سريعٍ ﴿**فَالْمُدَبِّرَاتِ**﴾ من أولئك الملائكة ﴿**أَمْراً**﴾ أراد الله في حقّ كلٍّ منهم من العقاب والثواب للذين أعدهما[2] الله لهم في الآخرة، على ما رواه العامة عن أمير المؤمنين، وابن عباس، ومسروق[3].

---

١. في النسخة: لايشابهه.

٢. في النسخة: أعدّه.

٣. تفسير الرازي ٣١: ٢٧، وفي النسخة: ابن مسروق.

قيل: نُكتة عطف الثاني والثالث بالواو[١] مع اتّحاد الكُلّ الإشعار بأنّ كلّ واحدٍ من الأوصاف من الصفات العظيمة الجليلة الحقيقة بأن يكون كلّ على حياله مَناطاً لاستحقاق موصوفه للتعظيم والاجلال، وعطف الرابع والخامس بالفاء لتفرعها على الأول.

وعن الصادق عليه السلام: قوله ﴿ٱلنَّازِعَاتِ﴾ قال: «هم ملائكة الموت ينزِعون النفوس»[٢].

وعن الباقر عليه السلام: «﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً﴾ تسبق أرواح المؤمنين إلى الجَنة»[٣].

وقيل: إنّ المراد من الثلاثة الأُخر عموم الملائكة المأمورين لأُمور العالم[٤]، والمراد من السابحات طوائف الملائكة الذين ينزلون من السماء بسرعة كالسابح في الماء لعامة الأُمور، ولازم السرعة هو التقدّم في السير وإجراء الأُمور وتدبيرها بغير تراخ.

وقيل: إنّ السابقات الملائكة الذين يسبِقون الشياطين بالوحي إلى الأنبياء[٥].

وقيل: النازعات صفة النجوم التي تكون ذوات نزعٍ وجذبٍ من تحت الأرض إلى فوقها نزعاً شديداً[٦]، والناشطات هي النجوم التي تسير من بُرجٍ إلى بُرجٍ، فالمراد من نَزْعها حركتها اليومية، ومن نَشْطها حركاتها الخاصة في أفلاكها بحركةٍ ملائمةٍ لذواتها، والمراد من السابحات هي النجوم تسبح في الفلك، كما قال تعالى: ﴿كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[٧] ووصفها بالسابقات باعتبار سَبْق بعضها على بعضٍ، ووصفها بالمدبّرات باعتبار ما يترتّب عليها من الآثار كاختلاف الفصول وتميز الأوقات واختلاف الأحوال، وعلى أيّ تقديرٍ كلّها قسمٌ على وقوع البعث والقيامة، والتقدير: أُقسم بهذه الأُمور العظام لتُبعثنّ بعد الموت، أو لننفُخنّ في الصُّور، أو إن ما تُوعدون لواقعٌ.

وقيل: إنّ جواب القسم مذكورٌ، وهو قوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾[٨] والمعنى: أنّ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ وتتزلزل وتضطرب شديداً جميع الأجرام الساكنة كالأرض والجبال بالنفخة الأُولى التي هي ﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾ والمُحرّكة لكلّ شيءٍ، فأسند الفعل إلى سببه لأنّ النفخة سببٌ لاضطراب الاجرام، ثمّ ﴿تَتْبَعُهَا﴾ وتحدّث بعدها النَّفخة الثانية التي هي ﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾ للإحياء، والمراد باليوم الزمان الممتدّ الذي يَقع بين النفختين.

---

١. تفسير ابي السعود ٩: ٩٦.
٢. مجمع البيان ١٠: ٦٥١، تفسير الصافي ٥: ٢٧٩، وفيهما: هو الموت ينزع النفوس.
٣. تفسير القمي ٢: ٤٠٣، تفسير الصافي ٥: ٢٧٩.
٤. مجمع البيان ١٠: ٦٥٢.
٥. تفسير الرازي ٣١: ٢٨.
٦. تفسير الرازي ٣١: ٢٩.
٧. الأنبياء: ٣٣/٢١.
٨. تفسير الرازي ٣١: ٣٣.

عن النبي صلى الله عليه وآله: «أنّ بين النفختين أربعين عاماً»[١].

ورُوي أنّ في هذه الأربعين يُمطر الله الأرض، ويصير ذلك الماء عليها كالنُّطَف[٢].

وقيل: إنّ الرادفة يوم القيامة[٣].

وقيل: إنّ الراجفة الأرض والجبال[٤]، والرادفة السماء، فانّها تنشقّ، والكواكب فإنّها تُنثَر[٥].

وقيل: الرادفة زلزلة ثانية تتبع الزلزلة الأُولى حتّى تتقطّع الأرض وتُفنى[٦].

﴿قُلُوبٌ﴾ كثيرة للكفّار ﴿يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ومضطربةٌ من خوف الله وأهوال ذلك اليوم، ومن لوازم اضطراب القلوب وخوف النفوس ما أخبر سبحانه بقوله: ﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾ وخاضعةٌ ذليلةٌ مترقّبة لما ينزل بها من الأُمور العظام، فانّ أُولئك الكفّار كانوا ﴿يَقُولُونَ﴾ إنكاراً للبعث أو استهزاءً به: ﴿ءَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ بعد الموت ﴿فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ والحالة الأُولى التي كانت لنا من البِنية والحياة والقوّة؟ ثمّ يبالغون في الانكار بقولهم: ﴿ءَإِذَا كُنَّا﴾ وصرنا في القبور ﴿عِظَاماً نَخِرَةً﴾ وبالية يمكن بعثنا وإحياؤنا؟ هيهات لايكون ذلك أبداً. ثمّ ﴿قَالُوا﴾ بطريق الاستهزاء بالبعث: ﴿تِلْكَ﴾ الرجعة إلى الحياة التي تَدّعونها ﴿إِذاً﴾ وعلى ما تقولون ﴿كَرَّةٌ﴾ ورجعة ﴿خَاسِرَةٌ﴾ ومُضرّة لنا إذ كنا نُنكرها ونكذّب مدّعيها.

ثمّ لمّا كانوا يستصعبونها على الله لزعمهم عجزه عنها، بيّن سبحانه نهاية سهولتها عليه بقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ﴾ حاصلة لامُحالة وما توجدها إلّا ﴿زَجْرَةٌ﴾ وصيحة ﴿وَاحِدَةٌ﴾ بأمرنا، لاتكرّر فيها، فيسمعها جميع الخلق في بطون الأرض وأقطارها، كنفخ واحدٍ في صُور الناس لإقامة القافلة والعسكر ﴿فَإِذَا هُم﴾ محيون ومبعثون ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾ والأرض البيضاء المستوية بعد ما كانوا أمواتاً وعظاماً وتُراباً.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوىً * ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ * فَأَرَاهُ ٱلآيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ * فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ * فَأَخَذَهُ ٱللهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَن يَخْشَىٰ[١٥ـ٢٦]

---

١ ـ٦. تفسير الرازي ٣١: ٣٤.

ثمّ لمّا كان تكذيب المشركين للنبي ﷺ في إخباره بالمعاد ودار الجزاء مؤلماً لقلبه الشريف، سلّاه سبحانه بحكاية معارضة فرعون موسى بن عمران في دعوته إلى التوحيد، وإنه مع إنكاره ادّعى الربوبية، فابتلاه الله بالعذاب مع كونه أقوى من قومه بقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمد، وقيل: إنّ ﴿هَلْ﴾ هنا بمعنى (قد)[١] والمعنى قد جاءك ﴿حَدِيثُ﴾ دعوة ﴿مُوسَىٰ﴾ فرعون. وقيل: إنّ المعنى: هل بلغك خَبره، أم أنا أُخبرك به؟[٢] وهذا التعبير للترغيب في الاستماع ليتسلّى به.

ثمّ ذكر الحديث بقوله: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ قيل: إنّ التقدير اذكُر حين ناداه ربّه[٣] ﴿بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ والأرض المطهّرة عن الشرك، واسم ذلك الوادي ﴿طُوًى﴾ وهو على ما قيل: واقع بين المدينة ومصر[٤]. وقيل: إنّه وادٍ بالشام عند الطُّور[٥]. وعن ابن عباس: أنّ طُوى بمعنى الرجل بالعبرانية[٦]، والمعنى: يا رجل ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ وقيل: إنّه بمعنى ساعة من الليل[٧] اذهب برسالتي إلى فرعون ملك مصر ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ وتجاوز عن الحدّ في الكفر والعِصيان والتكبّر على الخلق حتّى استبعدهم على ما قيل[٨]. فاذا جئته ﴿فَقُلْ﴾ له بلسانٍ ليّنٍ يا فرعون ﴿هَل لَّكَ﴾ ميلٌ ورغبةٌ ﴿إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ وتتطهّر من دَنَس الكفر والكِبر والأخلاقالسيئة الرديّة. ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ وأدلّك إلى الطريق المقرّب ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ومعرفته وطاعته ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ من عصيانه وعذابه بعد معرفته والعلم بوجوب طاعته؟

فجاء موسى بأمر ربّه وحسب رسالته إلى فرعون، وجرى بينه وبينه ما جرى إلى أن قال فرعون: فان كنت جئت بآية فاتِ بها ﴿فَأَرَاهُ﴾ موسى ﴿الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ والمُعجزة العُظمى بإلقائه عصاه وصيرورتها ثُعباناً عظيماً، أو باليد البيضاء، أو بهما ﴿فَكَذَّبَ﴾ فرعون بموسى ونسب معجزاته إلى السِّحر ﴿وَعَصَىٰ﴾ ربّه وتمرّد عن طاعته مع علمه بصدق رسوله. ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ وأعرض عن الايمان بموسى وهو ﴿يَسْعَىٰ﴾ ويجتهد في إبطال أمر رسالته وإطفاء نوره عِناداً ولَجاجاً.

قيل: لمّا رأى فرعون الثعبان أدبر وأسرع في مشيته[٩] خشيةً منه ﴿فَحَشَرَ﴾ وجمع السحرة لمعارضة موسى وسائر الناس ليروا غَلبة السَّحرة عليه ﴿فَنَادَىٰ﴾ في مجمعهم بنفسه، أو بتوسّط منادٍ منه قبله ﴿فَقَالَ﴾: أيّها الناس ﴿أَنَا رَبُّكُمُ﴾ وإلهكم ﴿الْأَعْلَىٰ﴾ من كلّ من يلي أُموركم من الملوك والأُمراء، أو من الأصنام التي تعبُدونها ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ﴾ بسبب طُغيانه ودعواه الربوبية والأُلوهية ونكّل

---

١. تفسير الرازي ٣١: ٣٨، تفسير أبي السعود ٩: ٩٩.
٢. تفسير الرازي ٣١: ٣٨، تفسير روح البيان ١٠: ٣١٩.
٣. تفسير الطبري ٣٠: ٢٥.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٣١٩.
٥و٦. تفسير الرازي ٣١: ٣٨.
٧. تفسير الرازي ٣١: ٣٨.
٨ تفسير الرازي ٣١: ٣٩، تفسير روح البيان ١٠: ٣٢٠.
٩. الكشاف ٤: ٦٩٦، تفسير الرازي ٣١: ٤٢، تفسير روح البيان ١٠: ٣٢١.

به ﴿نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ﴾ وعاقبه بالعقوبة الشديدة، وهي إحراقه في القيامة بالنار ﴿وَ﴾ نَكال ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ والعقوبة الدنيوية، وهي غَرَقه في الماء.

وقيل: إنّ المراد من الأُولى قوله ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِي﴾[1] ومن الآخرة قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2].

عن الباقر عليه السلام: «أنّه كان بين الكلمتين أربعون سنة»[3].

وعنه عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال جَبْرَئيل: قلت: يا رب تَدَع فرعون وقد قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ «فقال: إنّما يقول هذا مثلك من يخاف الفوت»[4].

وقيل: إنّ الأُولى تكذيبه موسى[5].

﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ﴾ الذِّكر من طُغيان فِرعون وتعذيبه في الدنيا بغرقه في الماء وبإحراقه بالنار في الآخرة والله ﴿لَعِبْرَةً﴾ عظيمةً وموعظةً شافيةً ﴿لِمَن يَخْشَىٰ﴾ ربّه ويخاف عذابه.

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ ٱلسَّماءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَاهَا * مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ[٢٧ـ٣٣]

ثمّ لمّا حكى سبحانه النكار المشركين للبعث وسهولته عليه تعالى، بيّن كمال قدرته على خلق أعظم من إعادتهم وخلقهم ثاني مرّة بقوله: ﴿ءَأَنتُمْ﴾ أيّها المنكرون للبعث ﴿أَشَدُّ﴾ وأصعب ﴿خَلْقاً﴾ في زعمكم ﴿أَمِ ٱلسَّماءُ﴾ التي ﴿بَنَاهَا﴾ الله مع كمال عظمتها وقوّة تأليفها وانطوائها في البدائع التي تَحار في أدناها العقول؟! وقيل: إنّ التقدير أم السماء أشدّ؟[6]

ثمّ ابتدأ الكلام في بيان كيفية خلقها بقوله: ﴿بَنَاهَا﴾ والمراد غاية استحكامها كاستحكام أسافل القصور والبيوت ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ وعلوّها على الأرض كثيراً مسير خمسمائة عام. وقيل: إنّ المراد بالسَّمك ارتفاع السطح الأعلى بين السطح الأسفل الذي يُعبّر عنه بالثِّخَن والغِلَظ[7].

﴿فَسَوَّاهَا﴾ وعدلها وأقامها على وَفْق الحكمة والصواب، أو سوّى تأليفها أو نفي الشُّقوق عنها ﴿وَأَغْطَشَ﴾ وأظلم ﴿لَيْلَهَا﴾ والقطعة من الزمان التي تغيب الشمس فيها ضوء الشمس بحركتها

---

١. القصص: ٣٨/٢٨.
٢. مجمع البيان ١٠: ٦٥٦، تفسير الرازي ٣١: ٤٣.
٣. الخصال: ١١/٥٣٩، مجمع البيان ١٠: ٦٥٦، تفسير الصافي ٥: ٢٨١.
٤. مجمع البيان ١٠: ٦٥٦، تفسير الصافي ٥: ٢٨١.
٥. تفسير الرازي ٣١: ٤٣.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٣٢٤.
٧. تفسير روح البيان ١٠: ٣٢٤.

ودورانها ﴿وَأَخْرَجَ﴾ وأبرز ﴿ضُحَاهَا﴾ والقطعة من الزمان التي يَظهر فيها ضوء الشمس بحركتها.

قيل: إنّما عبّر سبحانه عن النهار بالضُحى الذي هو وقت ارتفاع الشمس، لكونه أشرف أوقاته[١]، فكان أحقّ بالذكر في مقام الامتنان، كما أنّ تأخير ذكره عن الليل لأنّ إضاءة النور بعد الظُّلمة أتمّ في الانعام.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الخلق العظيم ﴿دَحَاهَا﴾ وبسطها ومهدها لسُكنى أهلها وتقلّبهم في أقطارها. قيل: إنّ الله تعالى خلق الأرض أولاً قبل السماء غير قابلةٍ للسُكنى، ثمّ خلق السماء، ثمّ بسط الأرض بعد خلق السماء، كما عن ابن عباس[٢].

وقيل: إنّ كلمة ﴿بَعْدَ﴾ هنا بمعنى (مع) والمعنى: أنّ الأرض مع ذلك دحاها، كما في قوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾[٣] رُوي ذلك أيضاً عن ابن عباس[٤].

وقيل: إنّ المراد من دَحْوها بسطها بحيث تكون مهيأةً لنبات الأقوات[٥]، ولذا قال سبحانه بعد بيان نعمة دحو الأرض: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا﴾ وفجّر عيونها ﴿وَ﴾ أخرج ﴿مَرْعَاهَا﴾ وأنبت منها ما يأكل الناس والأنعام من نباتاتها ﴿وَٱلْجِبَالَ﴾ على الأرض ﴿أَرْسَاهَا﴾ وأثبتها، وانّما خلق الله سبحانه جميع ذلك ليكون ﴿مَتَاعاً﴾ وما به الانتفاع ﴿لَّكُمْ﴾ أيّها الناس ﴿وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ومواشيكم.

فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّامَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ * فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ[٣٤-٤١]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه كمال قدرته على إحياء الأموات وأعظم منه وبعثهم للحساب، أخبر عن وقوعه وشدّة أهواله بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّامَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ والداهية العظمى التي تصغُر عندها كلّ داهيةٍ سواها، وبلغ وقت ظهورها، أعنى ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَانُ﴾ المُكلّف في ذلك اليوم العظيم الهائل ﴿مَا سَعَىٰ﴾ وما عَمِله في الدنيا من خيرٍ أو شرٍّ برؤيته بصورته الأُخروية، أو في صحيفة أعماله، وقد نسبه للغفلة، أو لطول المُدّة، أو للوحشة والدَّهشة.

---

١. تفسير أبي السعود ٩: ١٠١، تفسير روح البيان ١٠: ٣٢٤.

٢. تفسير الرازي ٣١: ٤٨، ولم ينسب إلى أحد. ٣. القلم: ١٣/٦٨. ٤ و٥. تفسير الرازي ٣١: ٤٨.

قيل: إنّ الداهية الكبرى هي وقت تطاير الكتب يوم القيامة وقرأتهم أعمالهم فيها[١].

وعن (الإكمال) عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ الطامة الكبرى خروج دابة الأرض»[٢].

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ وأظهرت جهنّم إظهاراً مكشوفاً ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ ويُبصِر من أهل المحشر كائناً من كان رُوي أنّه يُكشَف عن الجحيم [فتتلظى] فيراها كلّ ذي بصرٍ مؤمن وكافر[٣].

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ على الله وتجاوز عن الحدّ بالعصيان بالكفر والشرك. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «﴿مَن طَغَىٰ﴾ أي ظلّ على عمدٍ[٤] بلاحُجة»[٥]. ﴿وَآثَرَ﴾ ورجّح في نظره لنفسه ﴿ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ولذّاتها وجَمْع زخارفها، وقدّمها على الآخرة ونِعمها ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ والمقرّ له في الآخرة أبداً لانجاة له منها.

قيل: نزلت في النضر بن الحارث وأبيه الغاليين في الكفر والطُّغيان[٦].

﴿وَأَمَّا مَنْ﴾ آمن و ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ وحين قيامه بالحكومة بين الناس وحضور نفسه في محضر عدل خالقه للحساب، أو مقامه بين يدي ربّه وخالقه ﴿وَ﴾ لذا ﴿نَهَى ٱلنَّفْسَ﴾ ومنعها ﴿عَنِ﴾ اتّباع ﴿ٱلْهَوَىٰ﴾ والعمل بما ترغب فيه من الشهوات واللذّات الدنيوية المانعة عن اتّباع الحقّ والعمل بما فيه رضا خالقه ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ﴾ العالية وقُصورها ﴿هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ والمقرّ له في الآخرة أبداً لاغيرها.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا[٤٢-٤٦]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه وقع القيامة بعد إثبات إمكانه، حكى استهزاء المستهزئين من المشركين بالسؤال عن وقت وقوعه أنّه قريب أو بعيد بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمد، أُولئك الكفّار استهزاءً ﴿عَنِ﴾ وقت ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ والقيامة ويقولون: ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ وفي أيّ وقت إتيانها وقيامها؟ أخبرنا به إن كنت من الصادقين.

ثمّ ردّهم الله سبحانه وأنكر عليهم سؤالهم عنها بقوله: ﴿فِيمَ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مِن ذِكْرَاهَا﴾ وفي أي شيءٍ تكون من أن تبيّن لهم وقتها، وتعليمهم به مع اختصاص العلم بها بعلّام الغيوب، وعدم اطّلاع غيره تعالى عليها كائناً مَن كان مِن مَلَك أو نبيّ مرسل؟ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ العالم بكلّ شيء

---

١. تفسير الرازي ٣١: ٥٠.
٢. اكمال الدين: ١/٥٢٧، تفسير الصافي ٥: ٢٨٢.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٣٢٦.
٤. في النسخة: عمل.
٥. الكافي ٢: ١/٢٨٩، تفسير الصافي ٥: ٢٨٢.
٦. تفسير أبي السعود ٩: ١٠٤.

﴿مُنتَهَاهَا﴾ وإليه راجعٌ علمها، فانّ حكمته اقتضت إخفاءها، فكيف يسألونك عنها؟

﴿إِنَّمَا أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مُنذِرُ﴾ من قبل الله بالإخبار بوقوعها ﴿مَن يَخْشَاهَا﴾ وليست وظيفتك إلّا تخويف الناس بإتيانها وإقترابها[1] وبيان أهوالها وشدائدها، ولايجب عليك تعيين وقت وقوعها بجميع الخصوصيات، وأمّا تعيينها إجمالاً فهو وقت انقضاء عُمر الدنيا، وهو في غاية السرعة، وإن كان بعد مائة ألف سنة وأزيد ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ ويُشبه أنّ المنكرين ﴿يَوْمَ﴾ تقع القيامة وحين ﴿يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا﴾ ولم يمكثوا في الدنيا ولو عمّروا فيها ألف سنة ﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾ وساعة من آخر يوم ﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾ وساعة من أول يوم تلك العشية، ولم يتخيّلوا أنّ مَكْثهم فيها يوماً كاملاً لسرعة انقضاء عمرهم فيها، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾[2].

عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ كان ممّن حبسه الله في القبر[3] والقيامة حتى يُدخِله الجنة قدر صلاةٍ مكتوبةٍ»[4].

وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾ لم يَمُت إلّا ريّاناً، ولم يبعثه الله إلّا ريّاناً، ولم يُدخِله إلّا ريّاناً»[5].

الحمد لله على توفيقه لاتمام تفسيرها.

---

١. في النسخة: وإقرابها. ٢. يونس: ٤٥/١٠. ٣. (القبر و) ليست في تفسير البيضاوي.

٤. تفسير البيضاوي ٢: ٥٦٧، تفسير روح البيان ١٠: ٣٣٠.

٥. ثواب الاعمال: ١٢١، مجمع البيان ١٠: ٦٤٩، تفسير الصافي ٥: ٢٨٣.

في تفسير سورة عبس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ * وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ * فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ [١ـ١٠]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة (والنازعات) المتضمّنة لبيان تكذيب المشركين للمعاد، والاستدلال على إمكانه والإخبار بوقوعه، وتهديدهم بأنّه يوم الطامة الكبرى، وبيان حال المكذّبين بالمعاد والمؤمنين به، نُظِمت سورة (عبس) المتضمّنة لتلك المطالب، وتهديد المكذّبين بالصاخّة المتقارب للطامة، فافتتحها بذكر أسمائه بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع سبحانه في تأديب المسلمين بتوجيه العتاب إلى عثمان بن عفّان بقوله: ﴿عَبَسَ﴾ عثمان وقبض وجهه وجمع الجلدة التي بين عينيه غضباً ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض لأجل ﴿أَن جَاءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ قال القمي رحمه الله: إنّها نزلت في عثمان وابن أُمّ مكتوم، وكان ابن أُمّ مكتوم مؤذّنا لرسول الله، وكان أعمى، وجاء إلى رسول الله وعنده أصحابه، وعثمان عنده، فقدّمه رسول الله ﷺ على عثمان، فعَبَس عثمان وجهه وتولّى عنه، يعني عثمان أن جاءه الأعمى[١].

وعن الصادق عليه السلام نزلت في رجل من بني امية كان عند النبي ﷺ فجاء ابن ام مكتوم فلما رآه تفذّر منه وجمع نفسه وعبس واعرض بوجهه عنه فحلى الله ذلك وانكره عليه[٢].

وروى بعض العامة أن ابن أُمّ مكتوم، وكان اسمه عبدالله بن شريح بن مالك من بني عامر بن لُؤي[٣]. وقيل: اسمه [عمرو بن] قيس بن زائدة من بني عامر بن هلال، ابن خال خديجة، وكان (أُمّ مكتوم) كُنية جدّته[٤]. وقيل: كُنية أُمّه[٥]، روي إنه أتى رسول الله ﷺ وهو بمكة وعنده صناديد قريش منهم عتبة

---

١. تفسير القمي ٢: ٤٠٤، تفسير الصافي ٥: ٢٨٤.
٢. مجمع البيان ١٠: ٦٦٤، تفسير الصافي ٥: ٢٨٤.
٣. الكشاف ٤: ٧٠٠، تفسير روح البيان ١٠: ٣٣٠.
٤و٥. تفسير روح البيان ١٠: ٣٣٠.

وشيبة بن ربيعة وابوجهل والعباس بن عبدالمطلب وامه خلف والوليد بن مغيرة يدعوهم إلى الاسلام رجاء أن يسلم باسلامهم غيرهم فقال للنبي ﷺ اقرئني وعلّمني ممّا علّمك الله، وكرّر ذلك، فكَرِه النبي ﷺ قطعه الكلام وعَبَس وأعرض عنه، فنزلت هذه الآيات[١].

وكان رسول الله ﷺ يُكرِمه ويقول: إذا مدحه: مرحباً بمن عاتبني فيه ربّي، رواه الزمخشري، والفخر الرازي، وأبو السعود، وإسماعيل الحقّي[٢]، وقال الفخر: أجمع المفسّرون على أنّ الذي عَبَس وتولّى هو الرسول ﷺ، وأجمعوا على أنّ الأعمى ابن أُمّ مكتوم[٣].

وقال بعض علماء أصحابنا، ما اشتهر من تنزيل هذه الآيات في النبي ﷺ دون عثمان يأباه سياق مثل هذه المعاتبات للنبي ﷺ الغير اللائقة بمنصبه، وكذا ما ذكر بعدها إلى آخر السورة[٤].

ووجّه بعض العامة فعل النبي ﷺ بأن ابن أُمّ مكتوم كان سؤاله حراماً في الواقع عن النبي ﷺ لكونه إيذاءً ومانِعاً له عمّا هو الأهمّ من دعوة جمعٍ من صناديد قريش إلى الإسلام، وكان الواجب على النبي ﷺ، الإعراض عنه والاشتغال بالأهمّ مع أنّه كان مأذوناً في تأديب المسلمين، ولذا كان ابن أُمّ مكتوم مستحقّاً للعتاب، ولكن لمّا كان فعل النبي ﷺ موهماً لتقديمه الأغنياء على الفقراء، أو لأنّه كان ميل النبي ﷺ إلى إسلامهم لقرابتهم وشرفهم وعلوّ منزلتهم، والنفرة على الأعمى الذي لاقرابة له ولاشرف[٥]، والعبوس والتولّي كانا لتلك الداعية، عاتبه الله عليه، لأنّه تركٌ للأولى، والتعبير عن ابن أُمّ مكتوم بالأعمى الدالّ على تحقيره، وإن نافى تعظيمه بتوجيه العتاب إلى النبي ﷺ بسبب إعراضه عنه وتعيين وجهه، إلّا أنّ في التعبير إشعاراً باستحقاق الأعمى مزيد الرفق والرأفة، أو لعُذره في قطع كلام النبي ﷺ، أو لزيادة الإنكار كأنّه قال تعالى: تولّى لكونه أعمى، مع أنّه لايليق هذا بمن له خلقٌ كريمٌ.

أقول: بعد الاعتراف بأنّه كان الواجب على النبي ﷺ الأعراض والتولّي عنه، والاشتغال بما هو الأهمّ، وكون تأديب المسلمين وظيفته ﷺ، وكون ميل النبي ﷺ إلى إسلامهم لقرابتهم وشرفهم، مع كونه مأموراً بإنذار خصوص أقربائه بقوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٦] وكون إسلامهم سبباً لاسلام عامة قريش، بل أكثر العرب، أي مجال للعتاب وتوهين النبي ﷺ إلى يوم القيامة بأداء الواجب عليه، وكون داعية إسلامهم موجباً لغاية تعظيمه، لاتوهينه وتعظيم الأعمى، وأمّا دعوى أنّه

---

١. الكشاف ٤: ٧٠٠، تفسير الرازي ٣١: ٥٤، تفسير أبي السعود ٩: ١٠٧، تفسير روح البيان ١٠: ٣٣٠.
٢. الكشاف ٤: ٧٠١، تفسير الرازي ٣١: ٥٤، تفسير أبي السعود ٩: ١٠٧، تفسير روح البيان ١٠: ٣٣١.
٣. تفسير الرازي ٣١: ٥٥.
٤. تفسير الصافي ٥: ٢٨٥.
٥. تفسير الرازي ٣١: ٥٥، تفسير روح البيان ١٠: ٣٣٢.
٦. الشعراء: ٢١٤/٢٦.

كان في قلب النبي ﷺ النفرة عن الأعمى لعدم القرابة بينه وبينه وعدم شرفه ففرية[1] عليه ﷺ، مع قولهم في توجيه التعبير بالأعمى بأنّه لزيادة الإنكار على النبي ﷺ فكأنّه تعالى قال: تولّى لكونه أعمى، فرية[2] على الله، لأنّه عَلِم أنّه ما تولّى لكونه أعمى، بل تولّى عنه للاشتغال بدعوة الأعاظم الذين إسلامهم في نهاية الأهمية.

ثمّ شدّد سبحانه العتاب على العابس المتولّي بتوجيه الخطاب إليه بقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ وأي شيءٍ أعلمك بحال الأعمى؟ ﴿لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ ويتطهّر بما يتعلّم ويتلقّن من الشكّ والأخلاق الرذيلة ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ﴾ ويتّعظ ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ والموعظة بزيادة رغبته في العبادة والطاعة.

ثمّ بالغ سبحانه في اللّوم بقوله: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ وكان ذامال وثروة ﴿فَأَنتَ﴾ يا عثمان ﴿لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ وإليه تعرِض، وعليه تُقبل بوجهك، وتُقرّبه إليك ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ ولاتُبالي ﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ إذا كان الجائي غنياً ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ﴾ حال كونه ﴿يَسْعَىٰ﴾ إلى الخير وتعلّم أحكام الاسلام ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ الله ويخاف عقابه ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ وتعرِض، ولاتُقبِل إليه، ولاتعتني به ﴿كَلَّا﴾ لاتتعرّض عن المسلم المسترشد.

وأمّا على ما ذكر أهل السنّة من شأن نزولها، فالمعنى ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ وأظهر عدم الحاجة إلى الايمان، أو إلى الله ﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ وعليه تُقبِل بوجهك، وتُقرّبه إليك، ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد وزرٌ ووَبالٌ في ﴿أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ ولايتطهّر ذلك المستغني بالاسلام حتى تهتمّ بأمره ودعوته، وتُعرِض عمّن أسلم فانّه ليس عليك إلّا البلاغ ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ * وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ الله ﴿فَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ وتُعرِض ولاتُقبِل عليه ﴿كَلَّا﴾ لاتتعرّض للمستغني، ولاتُعرِض عن المسلم.

قال بعض مفسّري العامة: لمّا تلا جَبْرئيل هذه الآيات على النبي ﷺ عاد وجهه كأنّما ذُرّ عليه الرماد، وينتظر ما يحكُم الله عليه، فلمّا قال: ﴿كَلَّا﴾ سُرّي عنه[3].

أقول: حبّهم لعثمان بعثهم على صرف الآيات عنه وتوجيهها إلى النبي ﷺ، مع أنّ المسلم لايرضى به، مع القطع بأنّه حبيب الله، ولايرضى الله بإيلام قلب حبيبه وتوهينه في اُمّته لإعراضه الواجب عليه عن الأعمى.

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ [١١ ـ ١٦]

---

١. في النسخة: فرية. ٢. في النسخة: قرياً. ٣. تفسير الرازي ٣١: ٥٧، تفسير روح البيان ١٠: ٣٣٣.

ثمّ إنّه تعالى بعد هذه الموعظة النافعة مدح القرآن العظيم المشتمل عليها بقوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ وعِظةٌ لأهل العالم إلى يوم القيامة ﴿فَمَن شَاءَ﴾ التذكّر والاتّعاظ بالقرآن ﴿ذَكَرَهُ﴾ واتّعظ به أو حَفِظه ولاينساه، فانّه مكتوبٌ آياته ﴿فِى صُحُفٍ﴾ ودفاتر متنسخة من اللوح المحفوظ ﴿مُكَرَّمَةٍ﴾ تلك الصُحف عند الله، لكونها صُحف القرآن الكريم ﴿مَرْفُوعَةٍ﴾ في السماوات، موضوعة في البيت المعمور الذي يكون في السماء الرابعة، أو في بيت العزّة الذي يكون في السماء الدنيا، أو مرفوعة القدر والمنزلة ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ ومنزّهة من مَساس أيدي الشياطين، متنسخة في السماء، أو مُنزلة إلى الأرض ﴿بِأَيْدِى﴾ ملائكة ﴿سَفَرَةٍ﴾ الذين يسافرون بالوحي بين الله وبين رُسله، أو الكَتَبة كما عن بن عباس[١] ﴿كِرَامٍ﴾ أُولئك الملائكة على ربّهم، أو متكرّمين من أن يكونوا مع ابن آدم عند الجِماع وقضاء الحاجة ﴿بَرَرَةٍ﴾ ومطيعين لله.

قيل: إنّ المراد من الصُّحف صُحف الأنبياء[٢]، والمراد من السَّفرة الكِرام أصحاب الرسول[٣]، أو القُرّاء[٤]، وليس بشيء.

قُتِلَ ٱلْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ[١٧ـ٢٣]

ثمّ لمّا كان الكفّار تكبّروا عن الايمان بهذا القرآن الذي يكون في نهاية العَظَمة، واستنكفوا عن تصديقه وقبوله، ذمّهم سبحانه، وأظهر الغضب عليهم بقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَانُ﴾ وهو دعاء عليه بما يكون عند العرب أشنع الدعوات ﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ وأشد كُفره بربّه مع كثرة إحسانه إليه وإنعامه عليه، أما يتفكّر في أنّه ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ﴾ حقيرٍ مَهينٍ ﴿خَلَقَهُ﴾ الله وكوّنه. قيل: نزلت في عُتبة بن أبي لهب[٥].

ثمّ بيّن سبحانه ذلك الشيء القذر الذي كان مبدأ خلقه بقوله: ﴿مِن نُطْفَةٍ﴾ قذرةٍ ﴿خَلَقَهُ﴾ الله وأوجده ﴿فَقَدَّرَهُ﴾ وسوّاه إنساناً كامل الأعضاء والجوارح والقوى. وقيل: يعني قدّر كلّ عضوٍ منه كميه وكيفية بالقدر اللائق بمصلحته[٦]. وقيل: يعني قدّره أطواراً نُطفة ثمّ علقة ثمّ مُضغة إلى آخر خلقه، ذكراً أو أُنثى، سعيداً أو شقياً[٧]، فمن كان أصله ومبدأ خلقه ذلك الشيء الحقير المَهين، كيف يرى لنفسه العظمة ويتكبّر ويتبختر؟

١ـ٤. تفسير الرازي ٣١: ٥٨.
٥. تفسير الرازي ٣١: ٥٩.
٦. تفسير الرازي ٣١: ٦٠.
٧. تفسير الرازي ٣١: ٦٠، تفسير روح البيان ١٠: ٣٣٥.

﴿ثُمَّ﴾ بعد إتمام خلقه في الرّحم ﴿السَّبِيلَ﴾ إلى الخروج منه ﴿يَسَّرَهُ﴾ وسهّله بأن فتح له باب الرّحم ونكّسه وقلبه بأن صيّر رجله من فوق ورأسه من تحت، أو المراد أنّه تعالى بعد كِبره سهّل له سبيل الخير والشرّ في الدين والسعادة والشقاوة، ومكّنه من السلوك فيهما ﴿ثُمَّ﴾ إنّه تعالى بعد انقضاء أجله ومُدّة حياته ﴿أَمَاتَهُ﴾ بقدرته ﴿فَأَقْبَرَهُ﴾ ودفنه في الأرض تَكْرِمةً له وحفظاً له من أن يبقى على الأرض فتأكله السّباع والطيور ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ﴾ ربّه انشاره ﴿أَنشَرَهُ﴾ وبعثه للحساب وجزاء الأعمال.

﴿كَلاَّ﴾ ليس للإنسان التكبّر والترفّع والكفر والطغيان وإنكار البعث ﴿لَمَّا يَقْضِ﴾ الانسان ولم يمتثّل ﴿مَا أَمَرَهُ﴾ الله به من الايمان والطاعة، بل أخلّ به بالكفر والعصيان مع أنّ حقّ نَعمائه أن يؤدّي جميع ما أمره به.

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقّاً * فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً[٢٤ ـ ٣١]

ثمّ عدّ سبحانه إنعامه على الانسان بقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ ومأكوله الذي يعيش به، كيف دبّرنا أمره؟ وعن الباقر عليه السلام أنّه سُئل: ما طعامه؟ قال: «علمه الذي يأخُذه عمّن يأخُذه»[١].

﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ وأنزلنا من السماء بالأمطار ﴿ٱلْمَاءَ﴾ أولاً ﴿صَبّاً﴾ نافعاً وافياً للنباتات ﴿ثُمَّ﴾ بعد إنزال الماء ﴿شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات ﴿شَقّاً﴾ لائقاً بما يخرُج من الأرض ما ينبُتُ منها صغراً وكبراً ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ بقدرتنا ورحمتنا ﴿حَبّاً﴾ كثيراً نافعاً من الحِنطة والشعير وأضرابهما ممّا يُحصَد ﴿وَعِنَباً﴾ وشجر كرمٍ ثمره غذاء وفاكهة ﴿وَقَضْباً﴾ ورُطَباً مقطوعاً من النخل، كما عن ابن عباس[٢]. أو الرُّطبة التي يقال لها بالفارسية (اسپست) وإذا يَبست سُمّيت (بالفت) وهو علف الدوابّ والأنعام، كما في رواية اُخرى عن ابن عباس[٣]. وقيل: إنّه كلّ نباتٍ يُؤكل رَطْباً كالكُرّاث[٤]. وقيل: إنّه مُطلق العَلَف[٥].

﴿وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً﴾ الذين هما أنفع الأشجار ﴿وَحَدَائِقَ﴾ وبساتين ﴿غُلْباً﴾ ومتكاثفة الأشجار، أو ملتفها، أو ذوات أشجارٍ عظام، كما عن ابن عباس[٦] ﴿وَفَاكِهَةً﴾ وثِماراً يُلتذّ بها ﴿وَأَبّاً﴾ وحشيشاً

---

١. الكافي ١: ٣٩/٨ تفسير الصافي ٥: ٣٨٧.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٣٣٨.
٣. تفسير الرازي ٣١: ٦٢.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٣٣٨.
٥. تفسير الرازي ٣١: ٦٢.
٦. تفسير الرازي ٣١: ٦٣.

ومرعى.

رُوي أنّ أبابكر سُئل عن قول الله: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبّاً﴾ فلم يعرف معنى الأبّ وقال: أيّ سماءٍ تُظلّني، أم أرضٍ تُقلّني، أم كيف أصنع إن قلت في كتاب الله بما لاأعلم، أما الفاكهة فنعرِفها وأما الأبّ فالله أعلم به فبلغ أمير المؤمنين عليه السلام مقالته في ذلك، فقال: «سبحان الله! أما عَلِم أنّ الأبّ هو الكلأ والمرعى»[1].

أقول: من العجائب أنّه كان في تمام زمان البعثة في حضور الرسول صلى الله عليه وآله وكانت قراءة القرآن من العبادات الشائعة في ذلك الزمان، وكان الرسول صلى الله عليه وآله يُدرّس القرآن ومعانيه وتفسيره، وهو بعد عمره كان جاهلاً باللغة المستعملة في القرآن، ولم يسأل النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه، فكيف بسائر العلوم والأحكام؟

مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ ٱلصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ[٣٢-٣٧]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه ما يغتذي به الناس والأنعام، وجّه الخطاب إلى الناس تكميلاً لامتنانه عليهم بقوله: ﴿مَتَاعاً﴾ والتقدير خلقنا هذه الأغذية لتكون متاعاً ومنفعةً ﴿لَكُمْ﴾ أيها الناس ﴿وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ومواشيكم، فلاينبغي لكم في حكم العقل أن تكفُروا هذه النِّعم، وتتمرّدوا عن طاعة المُنعم عليكم، وتتكبّروا على رسوله وسائر عبيده.

ثمّ ذكر سبحانه بعض أهوال يوم القيامة ودار الجزاء إرعاباً للقلوب وتذكيراً لمعادهم بعد بيان مبدأ خلقهم ومعاشهم بقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلصَّاخَّةُ﴾ ونزلت بكم الداهية العظيمة، وهي الصيحة التي تخرُج من الصُّور بالنفخة الثانية التي يحيا بها الأموات في القبور فتُتَح، وتفتِك شدّتها آذانهم، أو يفتحون ويستمعون لها، أعني من الصاخّة.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ﴾ فيه ﴿ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾ مع كمال الأنس بينهما في الدنيا وتظاهرهما في الشدائد ﴿وَ﴾ من ﴿أُمِّهِ﴾ التي لها عليه حقوق كثيرة ﴿وَ﴾ من ﴿أَبِيهِ﴾ الذي كان في غاية العُطوفة به والشفقة عليه ﴿وَ﴾ من ﴿صَاحِبَتِهِ﴾ وزوجته التي كانت أنيسته في الدنيا ﴿وَ﴾ من ﴿بَنِيهِ﴾ وأولاده الذين كانوا أحبّ الخلق إليه وأفلاذ كَبِده، وذلك الفِرار إنّما هو لأجل أن ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ﴾ وشُغلٌ عظيمٌ وخَطْبٌ هائلٌ فظيعٌ ﴿يُغْنِيهِ﴾ ويكفيه في الاهتمام به بحيث لامجال له أن يلتفت إليهم، أو يُغنيه ويصرِفه عنهم، وهو اشتغاله بنجاة نفسه ـ التي هي أعزّ النفوس عنده من الأهوال والعذاب.

---

١. إرشاد المفيد ١: ٢٠٠، تفسير الصافي ٥: ٢٨٦.

وقيل: إن علّة الفِرار تضييعه لحُقوقهم وارتكاب الظُّلم عليهم[1].

عن الرضا عليه السلام قال: «قام رجلٌ يسأل أمير المؤمنين عليه السلام عن آية ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ وقال: من هم؟ قال: قابيل يفِرّ من هابيل، والذي يفِرّ من اُمّه موسى، والذي يفِرّ من أبيه إبراهيم»[2]. **أقول:** لابدّ من حمل الرواية على بيان المثال.

روى في (المجمع) عن سَودة زوج النبي صلى الله عليه وآله أنّها قالت: قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله: «يُبْعَث الناس حفاةً عُراةً غُرلاً[3]، يُلجِمهم العَرَق، ويبلُغ شَحْمة الأذن» قلت: يا رسول الله، واسوأتاه ينظُر بعضنا إلى بعضٍ[4]؟ قال: شُغِل الناس عن ذلك» وتلا هذه الآية[5].

وروى بعض العامة أنّ عائشة قالت: يا رسول الله، كيف يُحشَر الناس؟ قال: «حُفاة عُراة» قالت: وكيف تُحشَر النساء؟ قال: «حُفاة عُراة» قالت: واسوأتاه النساء مع الرجال حفاة عراة؟ فقرأ رسول الله هذه الآية: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ﴾ إلى آخرها[6].

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ[٣٨_٤٢]

ثمّ ذكر سبحانه حُسن حال المؤمنين بقوله: ﴿وُجُوهٌ﴾ للمؤمنين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت الهائل ﴿مُسْفِرَةٌ﴾ ومشرقة كالشمس المضيئة ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ وفَرِحة للعلم بالفوز بالسعادة الأبدية، والنجاة من آلام الدنيا ومتاعبها، والفراغ من الحساب بسرعة ويُسر ﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ بالنعيم المقيم والراحة الدائمة من قبل الله، أو الملائكة فانّهم يقولون لهم: ﴿أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[7].

﴿وَوُجُوهٌ﴾ اُخر للأشقياء ﴿يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ وكُدورة من شدّة الخوف ﴿تَرْهَقُهَا﴾ وتغشاها ﴿قَتَرَةٌ﴾ وظُلمة وسواد كالدُّخان من الخَجْلة والوحشة ﴿أُولٰئِكَ﴾ الموصوفون بسواد الوجه والغَبَرة ﴿هُمُ ٱلْكَفَرَةُ﴾ بالله ورُسله ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ في أعمالهم، والعُصاة لخالقهم.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ و ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ كان تحت جَناح الله من الجنان، وفي ظلّ الله وكرامته في جنّاته، ولايعظُم ذلك على الله إنشاء الله تعالى»[8].

---

١. تفسير الرازي ٣١: ٦٤، تفسير أبي السعود ٩: ١١٣.
٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٤٥، تفسير الصافي ٥: ٢٨٨.
٣. الغُرل: جمع أغرل، وهو الذي لم يختتن.
٤. زاد في النسخة وتفسير الصافي: إذا جاء.
٥. مجمع البيان ١٠: ٦٦٨، تفسير الصافي ٥: ٢٨٨.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٣٤٠.
٧. فصلت: ٣٠/٤١.
٨ ثواب الأعمال: ١٢١، مجمع البيان ١٠: ٦٦١، تفسير الصافي ٥: ٢٨٩.

في تفسير سورة التكوير

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلسَّماءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ * فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ * وَٱللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ[١-١٨]

[ثمّ لمّا خُتِمت سورة عبس المتضمنة بيان أهوال القيامة وعظمة القرآن وموعظته للخلق، نظمت بعدها سورة التكوير المتضمنة أيضاً بيان بعض أهوال القيامة وتعظيم القرآن، وكون ذلك موعظةً للعالمين إلى يوم القيامة، فافتتحها سبحانه بذكر أسمائه الحسنى بقوله:][١] ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**﴾.

ثمّ شرع سبحانه بذكر بعض أهوال يوم القيامة بقوله: ﴿**إِذَا ٱلشَّمْسُ**﴾ التي هي كالسُّراج لأهل الأرض ﴿**كُوِّرَتْ**﴾ وأُلقيت من السماء، كما عن أبي هُريرة، عن النبي ﷺ قال: «إنّ الشمس والقمر نوران مُكوّران في النار يوم القيامة»[٢] أو انكشف وأُزيل ضوؤها. عن القمّي: أنّها تصير سوداء مُظلمة[٣].

﴿**وَإِذَا ٱلنُّجُومُ**﴾ التي هي مصابيح الليل في الدنيا ﴿**ٱنكَدَرَتْ**﴾ وتناثرت. قيل: تمطُر السماء يومئذٍ نجوماً، فلا يبقى في السماء نجمٌ إلا وقع على وجه الأرض[٤] ﴿**وَإِذَا ٱلْجِبَالُ**﴾ التي هي أوتاد الأرض

١. هذا النص سقط من النسخة، وأثبتناه بعد ترجمته من النص الفارسي.
٢. تفسير الرازي ٣١: ٦٦، تفسير روح البيان ١٠: ٣٤٣، ولم ينسبه إلى أحد.
٣. تفسير القمي ٢: ٤٠٧، تفسير الصافي ٥: ٢٩٠.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٣٤٤.

﴿سُيِّرَتْ﴾ ورُفعت في الأرض، وحُرّكت بسرعة كالسّحاب في وجهها، أو في الجوّ بالزّلزلة الحاصلة بالنفخة الثانية ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ والنُّوق الحوامل التي مضت من مدّة حَمْلها عشرة أشهر، وهي أحبّ الأموال عند العرب ﴿عُطِّلَتْ﴾ وتُركت مُسيّبة مُهملة لاداعي لها، لاشتغال أهلها بأنفسهم، وهي كناية عن غفلة الناس عن أموال الدنيا لرفع حاجتهم عنها، وغَلَبة الوحشة والدهشة عليهم ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ﴾ والحيوانات البرية الفارّة عن غير جِنسها ﴿حُشِرَتْ﴾ وجُمِعت في موقف القيامة واختلط بعضها ببعض وبالانسان بلاتعرّضٍ للغير من شدّة أهوال اليوم.

وقيل: يعني بُعثت للقِصاص إظهاراً للعدل[١]، قيل: يُحشَر كلّ حيوانٍ حتّى الذُّباب للقِصاص، فإذا قُضي بينها رُدّت تُراباً، فلايبقى منها إلّا مافيه سُرور بني آدم وإعجاب المؤمن بصورته أو بصوته كالطّاوس والبُلبل[٢]. وعن ابن عباس: حشرُها موتها[٣].

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ﴾ كلّها ﴿سُجِّرَتْ﴾ وانقلب ماؤها ناراً، كما عن ابن عباس[٤]. وعن ابن عمر أنّه لمّا رأى بحراً قال: يا بحرُ متى تعود ناراً[٥]. وقيل: يعني مُلِئت بتفجّر بعضها إلى بعضٍ، فيصير الكُلّ بحراً واحداً، أو حميت[٦]، أو نشفت فلا يبقى فيها رُطوبة[٧].

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ﴾ والأرواح ﴿زُوِّجَتْ﴾ بالأجساد، أو قُرِنت بمن كان مثلها في الخير والشّر،فيُضَمّ الصالح بالصالح، والفاجر بالفاجر، أو جُعِلت أزواجاً ثلاثة: أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والمُقرّبين، أو قرنت بالملائكة الذين كانوا كُتّابه أعمالهم، أو قُرنتت بأعمالهم، أو قُرِنت بشياطينهم.

وعن ابن عباس: زُوّجت نفوس المؤمنين بالحُور العين، وقُرِنت نفوس الكفّار بالشياطين[٨].أو قُرِنت كلّ نفسٍ بأهل دينها[٩]، اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس[١٠].

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ﴾ والبنت المدفونة حيّة ﴿سُئِلَتْ﴾ من جانب الله أنّها ﴿بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ تبكيتاً لقاتلها، وتسلية لها، وإظهاراً لشدّة الغضب على وائدها.

قيل: كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها، ألبسها جُبّةً من صُوفٍ أو شعرٍ، ترعى له الإبل أو الغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا بلغ سنّها ستّ سنين، فيقول لأمّها، طيبيها وزيّنيها حتّى أذهب بها إلى أحبّائها، وقد حفر لها بئراً في الصحراء، فيبلُغ بها البئر، ويقول لها: انظُري فيها، ثمّ يدفعها فيها من خلفها، ويهيل عليها التُّراب حتّى يستوي البئر بالأرض، خوفاً من الفقر أو من الأسر،

١و٢. تفسير روح البيان ١٠: ٣٤٥.
٣. تفسير الرازي ٣١: ٦٨.
٤و٥. تفسير روح البيان ١٠: ٣٤٥.
٦. تفسير أبي السعود ٩: ١١٥، تفسير روح البيان ١٠: ٣٤٥.
٧. تفسير الرازي ٣١: ٦٨.
٨ تفسير الرازي ٣١: ٦٩.
٩. في النسخة: دينه.
١٠. تفسير الرازي ٣١: ٦٩.

أو لُحوق عادٍ من قبلها[1].

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ﴾ ودفاتر الأعمال ﴿نُشِرَتْ﴾ وفُتِحت للحساب، فيُقضى بإيمان أصحابها وأعمالهم، فيقفون على مافيها.

وفي الحديث: «يُحشر الناس عُراةً حُفاةً» فقالت أُمّ سَلَمة: فكيف بالنساء؟ فقال: «شُغِل الناس يا أُمّ سَلَمة» قالت: ما شغلهم؟ قال: «نشر الصُّحف، فيها مثاقيل الذّر ومثاقيل الخَرْدل»[2].

وقيل: يعني فرّقت بين أصحابها[3]. وقيل: إذا كان يوم القيامة تطايرت الكتب من تحت العرش، فتقع صحيفة المؤمن في يده في الجنّة العالية، وصحيفة الكافر في يده في سَموم وحميمٍ[4]. قيل: يعني مكتوبٌ فيها، وهي صُحف غير صُحف الأعمال[5].

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ وكُشِفت عمّا فوقها، وظهر ما وراءها من العرش والجنّة. وقيل: يعني نُزِعت، أو طُويت[6] ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ وأُوقدت للكافرين إيقاداً شديداً غضباً عليهم ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ وقربت من المتّقين ليدخلوها، والمقصود تقرّبت منها، وعند ذلك ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ حَضَرت ما تدري أيّ نفس وما حالها ﴿مَا أَحْضَرَتْ﴾ وجلبت فيه من الأعمال خيراً أو شراً، يَرَونها في صحائفها، أو يَرَون مجازاتها، أو يَرَون نفسها لتجسمّها.

عن ابن عباس: أنّه قرأ السورة فلمّا بلغ إلى قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ قال: لهذه أُجريت القصّة[7].

﴿فَلَا﴾ ليس الأمر كما تَزْعُمون أيها الكَفَرة ﴿أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ والكواكب الرواجع، وهي الخمسة المتحيّرة التي ترجِع من آخر البُرج إلى أوله. عن أمير المؤمنين عليه السلام: «هي خمسة أنجُم: زُحل، والمُشتري، والمِرّيخ، والزُّهَرة، وعُطارِد»[8].

و ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ والسيارات ﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ والمختفيات تحت ضوء الشمس بعد رجوعها إلى أول البُرج، كما يَكنِس ويَدخُل الوحش في كُناسته وبيته الذي اتّخذه لاختفائه.

وقيل: إنّ المراد جميع الكواكب، وخُنوسها غيبوبتها عن الأنظار في النهار، وكُنوسها ظهورها بالليل في أماكنها، كالوحش في كُنُسها، وهو أيضاً مرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام[9] وقيل: الكُنّس: المتواريات

١. تفسير روح البيان ١٠: ٣٤٦.
٢ ـ ٤. تفسير أبي السعود ٩: ١١٦، تفسير روح البيان ١٠: ٣٤٧.
٥. تفسير أبي السعود ٩: ١١٦، تفسير روح البيان ١٠: ٣٤٧.
٦. تفسير الرازي ٣١: ٧٠.
٧. تفسير روح البيان ١٠: ٣٤٨.
٨ مجمع البيان ١٠: ٦٧٧، تفسير الصافي ٥: ٢٩١.
٩. تفسير الرازي ٣١: ٧١.

تحت ضوء الشمس[١]. وعن القمي قال: النُّجوم تكنِس بالنهار فلاتبين[٢].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عنها فقال: «إمامٌ يخنِس سنة ستّين ومائتين، ثمّ يظهر كالشّهاب يتوقّد في الليلة الظلماء، وإن أدركت زمانه قرّت عينك»[٣].

أقول: هذا تأويل، والأول تنزيل.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ وأقبل ظلامه، أو أدبر ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ وأقبل بطُلوعه روحٌ ونسيمٌ أو تكامل ضوؤه وامتدّ.

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ [١٩-٢١]

ثمّ ذكر سبحانه المُقسم عليه، وهو كون القرآن كلام الله بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ﴾ الله العظيم النازل بتوسّط ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ على الله رسالةً منه وقيل: إنّ المراد أنّ هذا الذي أُخبركم من أمر الساعة القول جَبْرئيل بالرسالة من الله[٤]. وقيل: إنّ من كرم جَبْرَئيل أنّه يُعطى أفضل العطايا، وهو الوحي والمعرفة والهداية، ويعطِف على المؤمنين ويقهَر أعداءهم[٥].

﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ شديدة وقُدرة على امتثال أوامر الله تعالى. رُوي أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال لجَبْرئيل: «ذكر الله قوّتك، فأخبرني بشيءٍ من آثارها. قال: رفعتُ قُرى قوم لوطٍ الأربع من الماء الأسود بقوادم جَناحي حتّى سَمِع أهل السماء نِباح الكلب وأصوات الدِّيكة ثمّ قلبتها»[٦].

وقيل: إنّ المراد القوّة في طاعة الله، وترك الإخلال بها من أول الخلق إلى آخر الدنيا[٧].

﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ العظيم والسلطان القاهر الغالب ﴿مَكِينٍ﴾ ورفيع المنزلة وعظيم الشأن ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ﴾ وفي السماء بين الملائكة لايتخلّف أحدٌ منهم عن أمره ﴿أَمِينٍ﴾ على وحي الله ورسالاته، قد عصمه الله من الخِيانة والزَّلل.

عن (المجمع): في الحديث: «أنّ رسول الله قال لجَبْرئيل: ما أحسن ما أثنى عليك ربّك ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ فما كانت قوّتك وما كانت أمانتك؟ فقال: أمّا قوّتي فانّي بُعِثت إلى مدائن لُوط، وهي أربع مدائن، في كلّ مدينةٍ أربعمائة ألف مقاتل سوى الذراري، فحملتهم

---

١. تفسير الصافي ٥: ٢٩٢.
٢. تفسير القمي ٢: ٤٠٨، تفسير الصافي ٥: ٢٩٢.
٣. الكافي ١: ٢٢/٢٧٦، تفسير الصافي ٥: ٢٩٢.
٤. تفسير الرازي ٣١: ٧٣.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٣٥١.
٦ و٧. تفسير روح البيان ١٠: ٣٥١.

من الأرض السُّفلى حتى سَمِع أهل السماوات أصوات الدجاج ونباح الكلاب[١]، ثمّ هويت بهنّ وقلبتهنّ، وأما أمانتي فانّي لم أؤمر بشيءٍ فعدوته إلى غيره»[٢].

وعن النبي ﷺ أنّه قال لجَبْرئيل لمّا نزلت: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٣]: «أصابك من هذه الرحمة شيءٌ؟» قال: نعم، إنّي كنتُ أخشى عاقبة الأمر، فآمنت بك لمّا أثنى الله عليّ بقوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾»[٤].

عن الصادق عليه السلام ـ في قوله ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ ـ قال: «يعني جَبْرئيل». قوله: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾؟ قال: «يعني رسول الله ﷺ هو المطاع عند ربّه، الأمين يوم القيامة»[٥].

أقول: لاشُبهة أن الوصفين منطبقان على رسول الله ﷺ ولكن الظاهر أنّهما وصفان لجَبْرئيل.

وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ[٢٢ـ٢٩]

ثمّ إنّه تعالى بعد إثبات كون القرآن كلام الله، ردّ قول مكذّبي الرسول ونسبتهم إياه إلى الجنون بقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ محمد ﷺ المدّعي للرسالة فيكم، يا أهل مكّة ﴿بِمَجْنُونٍ﴾ كما تزعُمون بل هو أعقل أهل العالم، ومُخبركم عن الله جميع ما يقول لكم بتوسّط جَبْرئيل.

﴿وَ﴾ بالله ﴿لَقَدْ رَآهُ﴾ وعاين شخصه ﴿بِالْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ وعند مَطْلَع الشمس الأعلى، والأظهر في السماء، وليس محمد ﴿وَمَا هُوَ عَلَى﴾ ما أخبركم من ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ كقَصص الأنبياء السابقة والأُمم السالفة ﴿بِضَنِينٍ﴾ ومتّهم بالكِهانة والتعلّم من العلماء والكِذب في الاختلاق.

وقيل: يعني ببخيل بأداء الوحي، فيُخبِر ببعضه ويُمسِك عن بعضٍ حتى يأخُذ شيئاً من الناس، كما هو دأب الكاهن[٦].

ثمّ لمّا كان المشركون يقولون: إنّ الشيطان يجيء بهذا القرآن ويُلقيه على لسان محمد؛ ردّهم الله بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ﴾ مُسترقٍ للسمع ﴿رَجِيمٍ﴾ ومطرودٍ بالشُّهب ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أيّها

---

١. في النسخة: الكلب.
٢. مجمع البيان ١٠: ٦٧٧، تفسير الصافي ٥: ٢٩٢.
٣. الأنبياء: ١٠٧/٢١.
٤. مجمع البيان ٧: ١٠٧، تفسير الصافي ٥: ٢٩٣.
٥. تفسير القمي ٢: ٤٠٨، تفسير الصافي ٥: ٢٩٣.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٣٥٣.

المشركون؟ وإلى أي درجةٍ تضِلّون عن طريق الحقّ في شأن القرآن ومحمد؟ وإلى أيّ حدّ تبعُدون عن منهج الصواب حتّى تتولوا ما تقولون؟

﴿إِنْ﴾ هذا القرآن، وما ﴿هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ وعِظةٌ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من الجنّ والإنس أجمعين، وإنّما نفعه ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ﴾ يا أهل العالم ﴿أَن يَسْتَقِيمَ﴾ بتحرّي الحقّ والملازمة للصواب.

رُوي أنّ أباجهل لمّا سَمِع الآية قال: الأمر إلينا، إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم[1]. فردّه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ﴾ الاستقامة ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾ الذي هو ﴿رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ وخالقهم ومدبّر اُمورهم بالرزق وغيره ممّا يُصلِحهم وما يَليق بهم.

عن الصادق عليه السلام - في قوله: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ - قال: «وما هو تبارك وتعالى على نبيه صلى الله عليه وآله بغيبه بضنين عليه» ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ قال: «يعني الكَهَنة الذين كانوا في قريش، فنسب كلامهم إلى كلام الشياطين الذين كانوا معهم يتكلّمون على ألسنتهم فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ مثل اُولئك ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [في] عليّ عليه السلام، يعني ولايته أين تفِرّون منها؟ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾. قال: لمن أخذ الله ميثاقه على ولايته ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ قال: في طاعة عليّ والأئمة عليهم السلام من بعده ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ قال: لأنّ المشيئة إليه تبارك وتعالى لاإلى الناس»[2].

وعن الكاظم عليه السلام: «إنّ الله جعل قلوب الأئمّة مورداً لإرادته، فاذا شاء الله شاءوا، وهو قوله: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾»[3].

في الحديث: «من سرّه أن ينظُر إلى يوم القيامة كأنّه رأي عين، فليقرأ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنشَقَّتْ﴾ فإنّ فيها بيان أهواله الهائلة على التفصيل»[4].

الحمد لله على التوفيق لإتمام تفسيرها، والشكر له.

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٣٥٤.
٢. تفسير القمي ٢: ٤٠٨، تفسير الصافي ٥: ٢٩٢.
٣. تفسير القمي ٢: ٤٠٩، تفسير الصافي ٥: ٢٩٤.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٣٥٥.

في تفسير سورة الانفطار

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّماءُ ٱنفَطَرَتْ * وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ* وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ * يَا أَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِى أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ[١ـ٨]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة التكوير أُردفت بسورة الإنفطار الرادفة لها في المطالب وبيان أهوال القيامة، فافتتحها سبحانه على دأبه بذكر أسمائه الحسنى المباركة بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بذكر بعض أهوال القيامة بقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّماءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ وانشقّت أبواباً لنزول الملائكة، أو لرفعها[١] وطيّها ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ﴾ كلّها ﴿ٱنتَثَرَتْ﴾ وتساقطت وتفرّقت لانتقاض تركيب السماء وطيّها ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ وارتفعت الحواجز من بينها بحيث يصير الكلّ بحراً واحداً، أو ذهب ماؤها فيَبِست ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ وقُلِب أسفلها أعلاها وباطنها ظاهرها، لخروج الموتى منها، فبعد وقوع تلك الأشراط العلوية والسفلية للساعة قامت القيامة وحينئذٍ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي نفسٍ كانت ﴿مَا قَدَّمَتْ﴾ ليومها[٢] ذلك من الأعمال التي عملها حال حياته ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ وتركت[٣] من سنة حسنة أو سيئة يُستنّ بها بعد موته، ثمّ يقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ﴾ العاقل بعد ما أخبرك الأنبياء بأنّ الله يُعذّبك على الكفر والعصيان في دار الجزاء أشدّ العذاب ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ وأيّ شيءٍ جرّأك على عصيانه وآمنك من عقابه إلى حدّ لايجوز، مع غاية كرمه العفو عنك والتجاوز عن الانتقام منك؟

قيل: إنّ توصيف ذاته المقدّسة بالكرم حسبما كان الشيطان يغويه بقوله: افعل ما شئت فانّ ربّك كريم، مع أنّ كرمه لايوجب الاغترار به[٤].

---

١. في النسخة: لرفعهن. ٢. في النسخة: ليومه. ٣. زاد في النسخة: أو اين.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٣٥٧.

عن النبي صلى الله عليه وآله: أنّه لمّا قرأها قال: «غرّه جهله»[١].

وقيل: إنّ ذِكره الوصف لتلقين العاصي أن يقول: غرّني كرمك[٢].

قيل: إنّ الكرم يُلازم الحكمة[٣] لأنّ العفو العطاء إذا كانا بداعي الحكمة، كانا كرماً، فكونه كريماً يَدُلّ على كونه حكيماً، كان عليه أن يعيد الخلق للمجازاة ويحشُرهم للحساب، بل يَدُلّ وصفه بالكرم على وجوب البعث من جهتين: من جهت إيصال النعمة، ومن جهة الحكمة.

عن ابن عباس: أنّ الآية نزلت في الوليد بن المُغيرة[٤]. وقيل نزلت في الأسود بن كَلَدة الجُمحي، قصد النبي صلى الله عليه وآله في بطحاء مكة، فلم يتمكّن منه، فلم يُعاقبه الله على ذلك[٥].

ثمّ وصف سبحانه ذاته بشؤون الكرم بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ وأعطاك نعمة الوجود ﴿فَسَوَّاكَ﴾ وجعل أعضاءك سوية سليمة من العيوب مُعدّة لمنافعها ﴿فَعَدَلَكَ﴾ وجعل أعضاءك متناسبة متساوية. وقيل: يعني فصرفك عن الخلقة المكروهة وأعطاك أحسن الهيئة[٦]. وعن ابن عباس: جعلك قائماً معتدلاً حسن الصورة لاكالبهيمة المنحنية[٧] ﴿فِى أَيِّ صُورَةٍ﴾ من الصور ﴿مَا شَاءَ﴾ أن يُركّبك فيها ﴿رَكَّبَكَ﴾ قيل: إنّ حرف ﴿مَا﴾ زائدة[٨]، والمعنى: في أيّ صورةٍ شاء واقتضت الحكمة ركّبك. وقيل: في أيّ صورةٍ من صور الأب والأمّ وأقاربهما[٩]. وقيل: إنّ المراد من الصور المختلفة الاختلاف بحسب الطول والقصر والحسن والقبح والذكورة والأنوثة، فانّ اختلاف النُّطفة المتشابهة والأجزاء المتّحدة بالطبيعة في الآثار دليلٌ على خالقٍ قادرٍ مختار[١٠].

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ[٩ـ١٢]

ثمّ لمّا أثبت البعث ردع الناس عن الاغترار بقوله: ﴿كَلَّا﴾ ليس لكم أن تغترّوا ﴿بَلْ﴾ لم تغترّوا بكرمه، وإنّما أنتم ﴿تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ ودار الجزاء، أو بالاسلام المتضمّن للتكاليف وبيان المُجازات عليها ﴿وَ﴾ الحال ﴿إِنَّ عَلَيْكُمْ﴾ أيّها الناس من قبلنا ﴿لَحَافِظِينَ﴾ وضابطين لأعمالكم من الملائكة حال كونهم ﴿كِرَاماً﴾ على الله، أو على العباد، حيث يُسارعون إلى كتب الحسنات، ويتوقّفون في

١. مجمع البيان ١٠: ٦٨٢، تفسير الصافي ٥: ٢٩٥.
٢. تفسير الرازي ٣١: ٨٠.
٣. تفسير الرازي ٣١: ٧٨و٧٩.
٤. تفسير الرازي ٣١: ٧٩.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٣٥٧.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٣٥٩.
٧. تفسير الرازي ٣١: ٨٠.
٨. تفسير الصافي ٥: ٢٩٦.
٩. تفسير الرازي ٣١: ٨١.
١٠. تفسير الرازي ٣١: ٨١.

كتب السيئات رجاءً أن يتوبوا، أو يتداركوها بالحسنات، أو يصعدون بأعمالهم إلى الله، فان كانت حسنة شَهِدوا بها، وإن كانت سيئة سكتوا، وقالوا: ربّنا أنت الستّار ﴿كَاتِبِينَ﴾ للأعمال ﴿يَعْلَمُونَ﴾ لحضورهم عندكم في جميع الأوقات والأحوال ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ من الأفعال قليلها وكثيرها خفيّها وجليها.

في الحديث: «أكرموا الكرام الكاتبين الذين لايفارقونكم إلّا عند إحدى الحالتين: الجنابة والغائط»[١].

وعن القمي [﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ قال]: بالنبيّ ﷺ[٢] وأمير المؤمنين عليه السلام: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ﴾ قال: المَلَكان الموكلان بالانسان[٣] ﴿كِرَاماً كَاتِبِينَ﴾ يبادرون بكتابة الحسنات لكم، ويتوانون بكتابة السيئات عليكم، لعلّكم تتوبون وتستغفرون[٤].

وعن الكاظم عليه السلام قال: «إنّ العبد إذا همّ بالحسنة خرج نفسه طيب الريح، فقال صاحب اليمين لصاحب الشمال: قف فانّه قد همّ بالحسنة، فاذا هو عَمِلها كان لسانه قلمه وريقه مداده فأثبتها له، فاذا همّ بالسيئة خرج نفسه نتن الريح، فيقول صاحب الشمال لصاحب اليمين: قف فانّه قد همّ بالسيئة، فاذا هو فعلها كان ريقه مداده ولسانه قلمه فأثبتها عليه»[٥].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئِل: ما علّة الموكلين بعباده يكتُبون ما عليهم ولهم، والله عالم السرّ وما هو أخفى؟ قال: «استعبدهم بذلك، وجعلهم شهوداً على خلقه، ليكون العباد لملازمتهم إيّاهم أشدّهم على طاعة الله مواظبةً، ومن معصيته أشدّ انقباضاً، وكم من عبدٍ يُهمّ بمعصيته فذكر مكانهم فارعوى وكفّ، فيقول: ربّي يراني، وحفظتي علي بذلك تشهد»[٦].

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ[١٣ ـ ١٩]

ثمّ بيّن سبحانه حسن حال المؤمنين في ذلك اليوم وسوء حال الكفّار والعصاة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ والصُلحاء من المؤمنين ومطيعيهم لربّهم ﴿لَفِى نَعِيمٍ﴾ عظيم دائم لاانقطاع له ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ﴾ والعُتاة والعُصاة ﴿لَفِى جَحِيمٍ﴾ ونارٍ سجّرها القهّار بغضبه ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويُقاسون حرّها

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٣٦٠.
٢. في النسخة: القمي عن النبي.
٣. تفسير القمي ٢: ٤٠٩.
٤. تفسير الصافي ٥: ٢٩٦.
٥. الكافي ٢: ٣/٣١٣، تفسير الصافي ٥: ٢٩٦.
٦. الاحتجاج: ٣٤٨، تفسير الصافي ٥: ٢٩٦.

ويُباشرونها بجميع أعضائهم ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ ووقت الجزاء على الأعمال ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا﴾ في آن من زمان حياتهم الأبدية ﴿بِغَائِبِينَ﴾ ومخرجين.

ثمّ لمّا ذكر سبحانه يوم الدين عظّم شأنه تهويلاً للناس بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأي شيءٍ أعلمك ﴿مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ وأيّ حدّ له في الشدّة والفظاعة؟

ثمّ كرّر سبحانه الجملة مبالغةً في التهويل معطوفةً بثمّ للدلالة على الترقّي في التأكيد بقوله: ﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ﴾ أيها الانسان الدراك ﴿مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ وأيّ شيءٍ صفته؟ فانّ إدراكه خارجٌ عن طوق البشر في هذا العالم.

ثمّ بيّن سبحانه فظاعة ذلك اليوم بطريق الإجمال بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ﴾ من النفوس ﴿لِنَفْسٍ﴾ اُخرى ﴿شَيْئاً﴾ من النفع والضرر، ولاقدرة لأحدٍ في حقّ غيره قريباً كان أو صديقاً أو غيرهما على أمرٍ من الأمور ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ والسلطنة المطلقة الكاملة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت الهائل ﴿لِلَّهِ﴾ وحده لايُزاحمه ولايُشاركه أحدٌ فيما أراد.

في الحديث: «من قرأ ﴿إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ أعطاه الله من الأجر بعدد كلّ قبرٍ حسنة، وبعدد كلّ قطر ماء حسنة، وأصلح الله شأنه يوم القيامة»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ هاتين السورتين، وجعلهما نُصب عينيه في صلاة الفريضة والنافلة ﴿إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنشَقَّتْ﴾ لم يَحْجُبه الله من حاجةٍ، ولم يَحْجِزه من الله حاجز، ولم يزل ينظُر إلى الله وينظُر الله إليه حتى يفرُغ من حساب الناس»[2].

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٣٦٣.

٢. ثواب الأعمال: ١٢١، مجمع البيان ١٠: ٦٧٩، تفسير الصافي ٥: ٢٩٧.

في تفسير سورة المطففين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلاَ يَظُنُّ أُولٰئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ[١ـ٦]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الانفطار المتضمّنة لبيان عظمة يوم القيامة وظهور السلطنة المطلقة الإلهية، وأن لكلّ نفسٍ ملائكة يكتُبون أعمالها، وأن الأبرار في نعيم، وأن الفُجّار في جحيم، نُظِمت سورة التطفيف المتضمّنة لبيان عظمة يوم القيامة، وقيام الناس فيه لربّ العالمين، وأنّ كتاب الأبرار في عِلّيين، وكتاب الفُجّار في سِجّين، أنّ الأبرار في نعيم: فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ لمّا هدّد سبحانه العُصاة في آخر السورة السابقة، وكان التطفيف من أعظم المعاصي ابتدأ هذه السورة بتهديد المطفّفين بقوله: ﴿وَيْلٌ﴾ وشرٌّ شديدٌ، أو هلاكٌ فظيعٌ، أو عذاب أليمٌ ـ وعن الباقر عليه السلام في حديث «بلغنا ـ والله أعلم ـ أنّها بئرٌ في جهنّم»[1] ـ ﴿لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ والباخسين حقوق الناس خُفية بالمِكيال والميزان. عن الباقر عليه السلام: «أنزل في الكيل والوزن ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ ولم يجعل الويل لأحدٍ حتى يُسمّيه كافراً، قال الله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخره»[2].

وهم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا﴾ وأخذوا بالكيل مالهم ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أو إضراراً عليهم ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ ويأخُذونه كاملاً وافياً، أو وافراً وزائداً على حقّهم بالحيل والسرقة من أفواه المكاييل أو ألسنة الموازين ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾ وأعطوا حقّهم بالكيل ﴿أَو وَزَنُوهُمْ﴾ وأعطو حقّهم بالوزن ﴿يُخْسِرُونَ﴾ ويُنقِصونه، مع أنّ الكيل والوزن جُعِلا لتسوية الحقوق وتعديلها.

عن ابن عباس: لمّا قَدِم النبي صلى الله عليه وآله المدينة كانوا من أبخس الناس كيلاً، فأنزل الله هذه الآية،

---

١. تفسير القمي ٢: ٤١٠، تفسير الصافي ٥: ٢٩٨. ٢. الكافي ٢: ١/٢٧، تفسير الصافي ٥: ٢٩٨.

فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

وقيل: كان أهل المدينة تجّاراً يُطفّفون، وكانت بيوعهم المنابذة والمُلامسة والمُخاطرة، فنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله ﷺ فقرأها عليهم، وقال: «خمسٌ بخمسٍ» قيل: يا رسول الله، وما خمسٌ بخمسٍ؟ قال: ما نقض قومٌ العهد إلّا سلّط الله عليهم عدوّهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلّا فشا فيهم الفقر، وما ظهر فيهم الفاحشه إلّا فشا فيهم الموت، ولا طفّفوا الكيل إلّا مُنِعوا النبات وأُخذوا بالسّنين، ولا منعوا الزكاة إلّا حُبِس عنهم المطر»[1].

وعن الباقر عليه السلام قال: «نزلت على نبيّ الله حين قَدِم المدينة، وهم يومئذٍ أسوأ الناس كيلاً، فأحسنوا بعدُ عَمَل الكيل»[2].

ثمّ وبّخ سبحانه المطفّفين بقوله: ﴿أَلَاْ يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾ المطفّفون ولايَحْسَبون ﴿أَنَّهُم﴾ من هذا العمل القبيح الشنيع ﴿مَبْعُوثُونَ﴾ من قبورهم ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لايُقادر قدر عظمته لعِظم أهواله وشدائده، لوضوح أنّ الظنّ بإتيان هذا اليوم كافٍ في التحرّز من القبائح التي يُظنّ الابتلاء بتبعاتها.

وقيل: إنّ المراد من الظنّ العلم[3]، لكون النظر في الآية إلى أهل المدينة، وهم كانوا مُصدّقين بالبعث في زمان نزولها. عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أليس يُوقِنون ﴿أَنَّهُم مَبْعُوثُونَ﴾[4] ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أعني ﴿يَوْمَ﴾ القيامة الذي ﴿يَقُومُ﴾ فيه ﴿ٱلنَّاسُ﴾ من قبورهم ﴿لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ وللمحاسبة عنده، وحينئذٍ تظهر لهم عظمة شناعة العمل القبيح وعقابه، وإن كانوا يَرَونه في الدنيا حقيراً، أو يُحتَمل أنّ المراد من القيام الحضور عنده تعالى.

رُوي عن النبي ﷺ أنّه قال: «يقوم الناس مقدار ثلاثمائة سنة من الدنيا لايُؤمر فيهم بأمر»[5].

وروي عنه ﷺ: «أنّه يقوم أحدكم في رَشَحه إلى أنصاف أُذنيه»[6].

وعن الصادق عليه السلام قال: «مثل الناس يوم القيامة إذا قاموا لربّ العالمين مثل السَّهم في القراب، ليس له من الأرض إلّا موضع قدمه»[7].

أقول: في الآية غاية التهديد حيث أثبت الويل للمطففين، ثمّ وبّخهم ثانياً بأشدّ التوبيخ، ثمّ وصف يومهم بالعظمة وما عظّمه الله تعالى كان في غاية العَظَمة، ثمّ ذكّرهم القيامة مع غاية الخشوع والذلّة لربّ العالمين الذي هو في غاية العَظَمة والهيبة والقدرة، وفيه دلالة على كمال حكمته وعدالته

---

١. تفسير الرازي ٣١: ٨٨ ٢. تفسير القمي ٢: ٤١٠، تفسير الصافي ٥: ٢٩٨. ٣. تفسير الرازي ٣١: ٨٩.
٤. الاحتجاج: ٢٥٠، تفسير الصافي ٥: ٢٩٨. ٥ و٦. تفسير الرازي ٣١: ٩٠، تفسير روح البيان ١٠: ٣٦٥.
٧. الكافي ٨: ١٤٣/١١٠، تفسير الصافي ٥: ٢٩٩.

المقتضية لأن لا يرضى بأقلّ قليلٍ من الظُّلم، فكيف بالكثير.

قيل: إنّ أعرابياً قال لعبد الملك بن مروان: قد سَمِعت ما قال الله في المطفّفين ـ أراد أنّه تعالى بالغ في تهديد المطفّف في أخذ القليل بالكيل والوزن ـ فكيف حالك وأنت تأخذ الكثير من أموال المسلمين بلا كيل ولاوزن[١].

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ[٧ـ١٣]

ثمّ بالغ سبحانه في تهديد المطفّفين والردع عنه بقوله: ﴿**كَلَّا**﴾ ليس أمر التطفيف بهذه الحقارة التي تَظنّونها. وقيل: إنّ ﴿**كَلَّا**﴾ هنا بمعنى حقّاً[٢] ﴿**إِنَّ كِتَابَ**﴾ أعمال ﴿**ٱلْفُجَّارِ**﴾ الذين منهم المطفّفون ﴿**لَفِى سِجِّينٍ**﴾ والأرض السابعة السُّفلى، كما عن الباقر عليه السلام وابن عباس[٣]، لغاية بشاعته وحقارته، أو في أسفل منها في مكانٍ مظلمٍ هو مسكن إبليس وذريّته، كما عن بعض المفسّرين[٤]. أو في صخرةٍ تحت الأرض السُّفلى، كما عن بعض آخر[٥].

وعن النبي صلّى الله عليه وآله، قال: «سجّين جُبّ في جهنّم»[٦].

أقول: الظاهر أنّه علمٌ مأخوذ من السجن.

عن الباقر عليه السلام ـ في رواية ـ «وأمّا الكافر فيصعد بعمله وروحه حتّى إذا بلغ في السماء نادى منادٍ: اهبِطوا به إلى سجّين، وهو وادٍ بحَضْرَمَوت يقال له: بَرَهوت»[٧].

أقول: يُحتمل أن يكون لسجّين معنيان.

وعن الكاظم عليه السلام أنّه سُئل عن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ كِتَابَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ**﴾ قال: «هم الذين فجروا في حقّ الأئمة واعتدوا عليهم»[٨].

أقول: الظاهر أنّهم أظهر مصاديق الفُجّار، كما أنّ قول الصادق عليه السلام قال: «هو فلان وفلان» كذلك[٩].

ثمّ عظّم سبحانه السجّين إرعاباً للقلوب بقوله: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾ أيّها الإنسان ﴿**مَا سِجِّينٌ**﴾ ثمّ قيل: إنّ

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٣٦٦.
٢. تفسير الرازي ٣١: ٩٢، تفسير روح البيان ١٠: ٣٦٦.
٣. تفسير القمي ٢: ٤١٠، تفسير الصافي ٥: ٢٩٩، ولم ترد فيهما كلمة: السفلى، تفسير الرازي ٣١: ٩٢.
٤. تفسير الرازي ٣١: ٩٢، تفسير أبي السعود ٩: ١٢٦.
٥. تفسير الرازي ٣١: ٩٢.
٦. مجمع البيان ١٠: ٦٨٨، تفسير الرازي ٣١: ٩٢.
٧. مجمع البيان ٤: ٦٤٦، تفسير الصافي ٥: ٢٩٩.
٨. الكافي ١: ٩١/٣٦١، تفسير الصافي ٥: ٢٩٩.
٩. تفسير القمي ٢: ٤١١، تفسير الصافي ٥: ٢٩٩.

الله تعالى ذمّ كتاب الفجّار[١] بقوله: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ ومكتوبٌ فيه أعمال الكفّار والفُجّار والفَسَقة من الجنّ والإنس، تشهده الشياطين. وقيل: مرقومٌ بمعنى مختوم[٢]. وقيل: يعني كتاب مُعلَم (بعلامة) دالة على شقاوة صاحبه وكونه من أصحاب النار[٣] ﴿وَيْلٌ﴾ عظيم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي وقت قيام الناس لربّهم، أو وقت تطائر الكتب ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أعني ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وأعرضوا عن الآيات البينات الناطقة به.

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ ومتجاوز عن حدود العقل، ومقتصر على التقليد غالٍ فيه ﴿أَثِيمٍ﴾ ومُصرّ على عِصيان الله، منهمك في الشهوات الفانية، غافل عمّا وراءها من اللذات الباقية، من خبث ذاته وإصراره على الكفر ﴿إِذَا تُتْلَىٰ﴾ وتُقرأ ﴿عَلَيْهِ﴾ لإنذاره وهدايته ﴿آيَاتُنَا﴾ المُنزلة في القرآن الدالة على صدق النبي ﷺ في دعوى رسالته وصحّة البعث. ﴿قَالَ﴾ عِناداً ولَجاجاً: إنّها ﴿أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وهي من أكاذيب الأنبياء السابقين، أو الأخبار المسطورة في دفاتر الأمم السالفين، وتعلّمها محمد ونسبها إلى الله.

قيل: إنّ القائل الوليد بن المُغيرة[٤]. وقيل: النضر بن الحارث[٥].

وعن الصادق عليه السلام في تأويله: «هو الأول والثاني، كانا يُكذّبان رسول‌الله ﷺ»[٦].

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ[١٤]

ثمّ ردعهم الله سبحانه‌عن التكذيب بقوله: ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر كما يقولون ﴿بَلْ رَانَ﴾ وغلب ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ أو غطّى عليها أو طبع عليها ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ويرتكبون من الكفر والفجور والعصيان حتّى صار كالصدأ على مرآة.

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: (أنّ العبد كلّما أذنب ذنباً حصل في قلبه نُكتة سوداء حتّى يسودّ قلبه»[٧].

وعن الباقر عليه السلام: «ما من عبدٍ إلّا وفي قلبه نُكتة بيضاء، فاذا أذنب ذنباً خرج في تلك النُّكتة نُكتة سوداء، فان تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السواد حتى يُغطّي البياض، [فإذا غطّي البياض] لم يرجِع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قوله تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٣٦٦.
٢. تفسير الرازي ٣١: ٩٣.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٣٦٦.
٤ و٥. تفسير الرازي ٣١: ٩٤.
٦. تتفسير القمي ٢: ٤١١، تفسير الصافي ٥: ٣٠٠.
٧. تفسير الرازي ٣١: ٩٤، تفسير أبي السعود ٩: ١٢٧، تفسير روح البيان ١٠: ٣٦٧.

يَكْسِبُونَ﴾»[1].

أقول: لعلّ المراد بالبياض لين القلب ونورانيته، وبالسواد قسوته وظلمته، وبُعده عن التأثّر بالمواعظ الإلهية والآيات القرآنية، وجُرأته على الله إلى أن ينتهى أمره إلى الكفر، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَاءُوا ٱلسُّوءىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ ٱللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾[2].

كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ[١٥ـ١٧]

ثمّ ردعهم سبحانه عن توهّم أنه ليس عليهم تَبِعة في تكذيبهم بقوله: ﴿كَلَّا﴾ ليس الأمر كما يتوهّمون من أنهم لايُؤاخذون بما يقولون، بل ﴿إِنَّهُمْ عَن﴾ ثواب ﴿رَبِّهِمْ﴾ وكرامته، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام[3] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وفي وقت قيامهم من القبور، أو في محضر العدل والحساب ﴿لَمَحْجُوبُونَ﴾ ومحرومون، فلا تَشْمَلهم الرحمة الواسعة الإلهية أبداً لعدم قابليتهم لنيلها.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ مع حرمانهم من الرحمة والكرامة ﴿لَصَالُوا ٱلْجَحِيمِ﴾ ومُلقون فيها بعُنفٍ وقَهْرٍ، ومباشرون حرّها من غير حاجزٍ وحائلٍ أصلاً ﴿ثُمَّ﴾ يضاف على عذابهم الجسماني العذاب الروحاني إذ ﴿يُقَالُ﴾ لهم توبيخاً وتقريعاً والقائل الزبانية والملائكة الغِلاظ الشداد حين إشرافهم على النار، أو بعد إلقائهم فيها: أيّها الكَفَرة المنكرون للبعث والحساب وجزاء الأعمال ﴿هٰذَا﴾ العذاب ﴿ٱلَّذِى﴾ ترونه بأعينكم وابتُليتم به اليوم، هو العذاب الذي أخبركم به الأنبياء والمؤمنون في الدنيا و ﴿كُنتُم بِهِ﴾ عِناداً ولَجاجاً ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ وتستهزئون.

كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ[١٨ـ٢١]

ثمّ ردعهم الله سبحانه عن توهّم أنّهم في الآخرة مساوون للمؤمنين، بل هم أحسن حالاً منهم بقوله: ﴿كَلاَّ﴾ ليس الأمر كما تتوهّمون من أنّكم في الآخرة على تقدير تحقّقها ووقوعها كالمؤمنين في حسن الحال، وأنّهم مثلكم فيها، بل ﴿إِنَّ كِتَابَ﴾ أعمال المؤمنين ﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾ والصلحاء الأخيار ﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ وأعالي الأمكنة، أو أعالى الجنّة.

---

١. الكافي ٢: ٢٠/٢٠٩، مجمع البيان ١٠: ٦٨٩، تفسير الصافي ٥: ٣٠٠.

٢. الروم: ١٠/٣٠.

٣. مجمع البيان ١٠: ٦٨٩، تفسير الصافي ٥: ٣٠٠.

عن ابن عباس: أنّ عِلّيين السماء الرابعة[١]. وفي رواية أُخرى عنه: أنّه السماء السابعة[٢]. وقيل: هي سدرة المنتهى[٣]. وقيل: هي قائمة العرش اليمنى[٤]. وقيل: هي مراتب عالية محفوفة بالجلالة والاكرام قد عظّمها الله وأعلى شأنها[٥]. وقيل: هي عند ديوان أعمال الملائكة[٦]، إن كان لهم أيضاً ديوان كما للانسان.

وعلى أي تقدير قد عظّمه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أيها العاقل الدراك ﴿مَا عِلِّيُّونَ﴾ وأي مكانٍ هو في عظمة الشأن ورفعة المنزلة عند الله وعند أوليائه؟ فانّ إدراككم وعقلكم قاصرٌ عن دَرْكه والإحاطة به في الدنيا.

ثمّ مدح سبحانه كتاب الأبرار بقوله: ﴿كِتَابٌ﴾ وديوان ﴿مَرْقُومٌ﴾ ومكتوبٌ فيه أعمالهم الخيرية، يعرفها كلّ من نظر فيه، أو مُعلّم بعلامة دالة على أنّ أصحابه من السعداء، أو مختوم ﴿يَشْهَدُهُ﴾ الملائكة ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾ عند الله. قيل: كما وكّلهم الله باللّوح المحفوظ كذلك وكّلهم بحفظ كتاب الأبرار في جملة ذلك الكتاب الذي هو أُمّ الكتاب إعظاماً له[٧].

والحاصل على ما قيل: إنّ الحفظة إذا صعدت بكُتب الأبرار يُسلّمونها إلى هؤلاء المقرّبين، فيَحْفَظونهاكما يَحْفَظون كتب أنفسهم، أو يَنْقُلون ما في تلك الكتب إلى ذلك الكتاب الذي وُكّلوا بحفظه، فيصير علمهم شهادة[٨].

وقيل: إنّ المراد كتابٌ موضوعٌ في علّيين، كُتِب فيه ما أعدّ الله لهم من الكرامة والثواب[٩].

عن ابن عباس: إنّه مكتوبٌ في لوحٍ من زَبَرْجَد مُعلّق تحت العرش[١٠].

قيل: يشهد ذلك الكتاب إذا سُعِد به إلى علّيين المقرّبون من الملائكة كرامةً للمؤمن[١١].

رُوي أنّ الملائكة لتصعد بعمل العبد فيستقلّونه، فاذا انتهوا إلى ما شاء الله من سُلطانه أوحى إليهم: أنكم الحَفَظة على عبدي، وأنا الرقيب على ما في قلبه، وإنّه أخلص عمله، فاجعلوه في عِلّيين، فقد غفرتُ له. وإنّها تصعد بعمل العبد فيُزكّونه، فاذا انتهوا به إلى ما شاء الله أوحى إليهم: أنتم الحَفَظة على عبدي، وأنا الرقيب على قلبه، إنّه لم يُخلص لي عمله، فاجعلوه في سجّين[١٢].

عن الباقر عليه السلام قال: «إنّ الله خلقنا من أعلى علّيين، وخلق قلوب شيعتنا ممّا خلقنا منه، وخلق أبدانهم من دون ذلك، وقلوبهم تهوي إلينا، لأنّها خُلِقت ممّا خُلِقنا منه» ثمّ تلا هذه الآية ﴿كَلاَّ إِنَّ

١ـ٦. تفسير الرازي ٣١: ٩٧.
٧. تفسير الرازي ٣١: ٩٧.
٨ـ١١. تفسير الرازي ٣١: ٩٧.
١٢. تفسير روح البيان ١٠: ٣٧٠.

كِتَابَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾»[1].

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ[٢٢_٢٦]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان عظمة كتاب الأبرار بيّن حال أنفسهم في الآخرة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ والصلحاء من المؤمنين في الآخرة ﴿لَفِي نَعِيمٍ﴾ ورزقٍ كريم، وإنما كيفية نعمهم أنّهم ﴿عَلَى ٱلْأَرَائِكِ﴾ والسُّرر التي في الحِجال ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعدّ الله لهم من البساتين والقُصور والأطعمة والأشربة والفواكه والحُور والغِلمان وسائر ما تشتهيه الأنفس وتَلَذّ الأعين، وإلى حال أعدائهم وشدّة عذابهم ﴿تَعْرِفُ﴾ أيّها الناظر ﴿فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ وبهجته وبهاءه والاستبشار، وقيل: يزيد في وجوههم من الحسن والجمال والنور ما لايصفه واصفٌ[2] و ﴿يُسْقَوْنَ﴾ بأيدي الحُور والغِلمان ﴿مِن رَحِيقٍ﴾ وخمرٍ صافٍ خالصٍ لاغِشّ ولاغائلة فيه ﴿مَخْتُومٍ﴾ بأمر الله مطبوعٍ عليه لئلا تَمَسّه يد لامسٍ إكراماً له بالصيانة على ما جرت العادة من ختم ما يُصان ويُكرَم ﴿خِتَامُهُ﴾ وما يُختَم به بدل الطين ﴿مِسْكٌ﴾ أذفر رطبٌ ينطبع فيه الخاتم.

وقيل: يعني عاقبته مسك، بمعنى أنّ الشارب إذا رفع فاه من آخر شربة وجد ريحه كريح المِسك[3]. وقيل: يعني خِلْطَة المِسك تطيباً لطعمه ورائحته[4]. وقيل: هو كناية عن صحة أبدانهم وقوّة شهوته، حيث إنّ خلط المسك معين على الهضم وقوّة الشهوة[5].

وعن أبي الدرداء: شراب أبيض مثل الفِضّة يختمون به آخر شربهم، ولو أنّ رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثمّ أخرجها لم يبق ذو روحٍ إلّا وجد طيب ريحه[6].

﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ النعيم المذكور، أو الرحيق المختوم ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ وليرغب الراغبون، لافي النِّعم الدنيوية الكَدِرة السريعة السؤوال والفناء.

وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ

---

١. الكافي ١: ٤/٣٢٠، و٢: ٤/٣، تفسير الصافي ٥: ٣٠١.
٢ و٣. تفسير الرازي ٣١: ٩٩.
٤. تفسير الرازي ٣١: ٩٩.
٥. تفسير الرازي ٣١: ٩٩و١٠٠.
٦. تفسير الرازي ٣١: ١٠٠.

ٱنقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ [٢٧-٣٣]

ثمّ بالغ سبحانه في مدح الرحيق بقوله: ﴿وَمِزَاجُهُ﴾ وخليطه شيء ﴿مِن﴾ ماء ﴿تَسْنِيمٍ﴾ أعني ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ سئل ابن عباس عن تسنيم فقال: هذا ممّا يقول الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُم مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1].

وقال أيضاً: أشرف شراب أهل الجنّة هو تسنيم، لأنّه يشربه المقرّبون صِرفاً، ويُمزَج لأصحاب اليمين[2].

رُوي أنّها تجري في الهواء متسنّمة فتَنصبّ في أوانيهم، فاذا ملئت مُسِك الماء حتى لاتقع قطرة منه على الأرض، فلا يحتاجون إلى الاستسقاء[3].

ثمّ لمّا ذكر سبحانه كرامة الأبرار وعُلوّ منزلتهم عنده في الآخرة، ذكر توهين الكفّار إياهم وتحقيرهم واستهزائهم بهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ وأصرّوا على الكفر والعصيان كأبي جهل والوليد بن المُغيرة وأحزابهما ﴿كَانُوا﴾ في الدنيا ﴿مِنَ﴾ حال ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالنبي عن صميم القلب ﴿يَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً بهم لما هم فيه من الفقر والشدّة، ﴿وَ﴾ إنّ المؤمنين ﴿إِذَا مَرُّوا بِهِمْ﴾ وهم في أنديتهم ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ ويعيبونهم، ويشيرون إليهم بالأجفان والحواجب، ويقولون: انظُروا إلى هؤلاء السفهة يُتعبون أنفسهم ويُحرمونها من اللذات ويُخاطرون بها[4] في طلب ثوابٍ موهومٍ ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوا﴾ وانصرفوا من مجامعهم ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِمُ﴾ وأقاربهم ﴿ٱنقَلَبُوا﴾ وانصرفوا حال كونهم ﴿فَكِهِينَ﴾ ومُعجبين بما هم فيه من الشرك والتنعّم، أو متلذّذين بذكر المسلمين بالسوء والاستهزاء.

﴿وَإِذَا﴾ يشاهدوا المؤمنين و ﴿رَأَوْهُمْ قَالُوا﴾ تحقيراً لهم: ﴿إِنَّ هٰؤُلَاءِ﴾ المؤمنين ﴿لَضَالُّونَ﴾ حيث تركوا دين آبائهم والتنعّم بالنِّعم، واغترّوا بوعد محمدٍ ووعيده ﴿وَ﴾ الحال أنّ المجرمون و ﴿مَا أُرْسِلُوا﴾ من قبلنا إلى المؤمنين ليكونوا ﴿عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ يَحْفَظونهم من الضلال، ويُرشدونهم إلى الحقّ والصواب، فيَعيبون عليهم ما يعتقدونه ضلالاً. وفيه إشعارٌ بأن تعيين الحقّ والضلال شأن المرسلين من الله، لاشأن الناس الجَهَلة والحمقاء.

روى بعض العامة منهم الفخر، أنّه جاء عليّ عليه السلام في نفرٍ من المسلمين، فسَخِر منهم المنافقون وضحكوا وتغامزوا، ثمّ رجعوا إلى أصحابهم فقالوا: رأينا الأصلح، فضَحِكوا منه، فنزلت الآيات قبل أن

---

١. تفسير الرازي: ٣١: ١٠٠، والآية من سورة السجدة: ١٧/٣٢.
٢. تفسير الرازي ٣١: ١٠٠.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٣٧٢.
٤. في النسخة: ويخاطرونها.

يصل عليّ عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله[١].

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[٣١-٣٦]

ثمّ بيّن سبحانه أنّ المجرمين يُجازون في الآخرة على ضَحِكهم من المؤمنين بقوله: **﴿فَالْيَوْمَ﴾** الذي هو يوم الحساب والجزاء على الأعمال **﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾** ويَسْخَرون حين يرونهم أذلاء، معذّبين ومعلولين لتحزّزهم وتكبّرهم في الدنيا، وإنّهم يأكلون الزقّوم ويشربون الحميم والغسّاق بعد تنعّمهم وترفهم.

روي أنّهم يُفتَح لهم بابٌ إلى الجنّة فيقال لهم: اخرُجوا إليها، فإذا وصلوا اُغلق دونهم، فيضحك المؤمنون منهم[٢] حال كونهم جالسين **﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾** والسُّرر المحجّلة **﴿يَنظُرُونَ﴾** إلى سوء حال المجرمين في النار، وهم يقولون، أو الله، أو الملائكة يقولون: **﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ﴾** وعُوّضوا **﴿مَا كَانُوا﴾** في الدنيا **﴿يَفْعَلُونَ﴾** من الضَّحِك من المؤمنين والاستهزاء بهم. وفيه تسلية للمؤمنين بأنّه سينقلب الحال ويكون الكفار في الآخرة مضحوكاً منهم، وتعظيم للأولياء.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ في الفريضة **﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾** أعطاه الله الأمن يوم القيامة من النار، ولم تره ولايراها، ولايَمرّ على جسر جهنّم، ولايُحاسب يوم القيامة»[٣]. قد تمّ تفسير السورة بحمدالله ومنّه[٤].

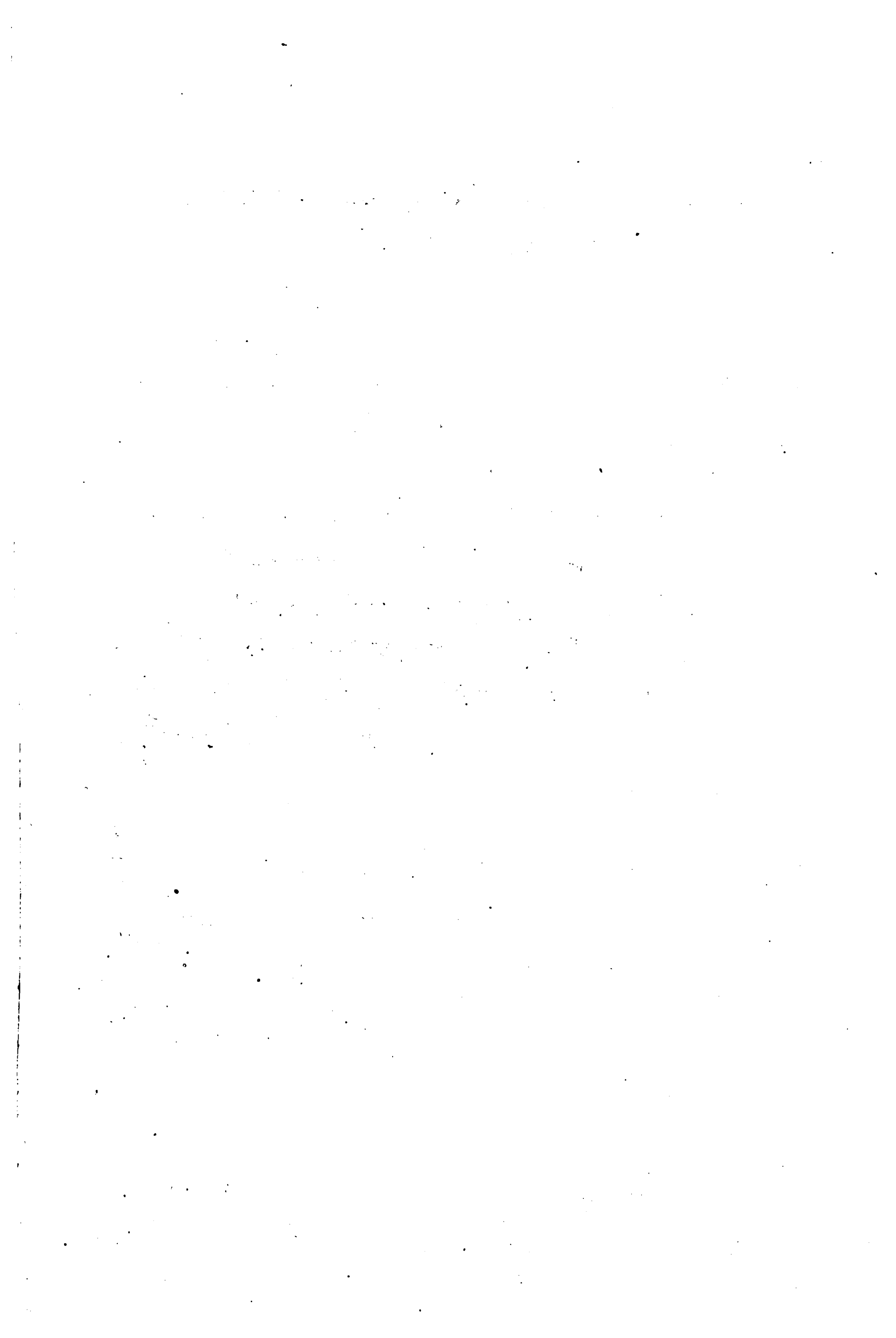
---

١. تفسير الرازي ٣١: ١٠١.

٢. جوامع الجامع: ٥٣٤، تفسير الصافي ٥: ٣٠٣، في النسخة: المؤمن منهم.

٣. ثواب الأعمال: ١٢٢، مجمع البيان ١٠: ٦٨٥، تفسير الصافي ٥: ٣٠٣.

٤. في النسخة: والمنّة.



في تفسير سورة الانشقاق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * يَا أَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ[١ـ٦]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة التطفيف المتضمنة بيان عظمة يوم القيامة، وعظمة كتاب أعمال الأبرار، ومهانة أعمال الفجّار، ورجوع الكافرين[1] إلى أهلهم مسرورين بكفرهم باستهزائهم بالمؤمنين، نُظِمت سورة الانشقاق المتضمّنة لبيان أهوال القيامة، وحُسن حال المؤمنين الذين يؤتون كتاب أعمالهم بأيمانهم، وسوء حال الفجّار الذين يؤتون كتابهم بشمالهم، ورجوع المؤمنين في الآخرة إلى أهلهم مسرورون، فابتدئهابذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ افتتحها ببيان أهوال يوم القيامة بقوله: ﴿إِذَا ٱلسَّمَاءُ ٱنشَقَّتْ﴾ لنزول الملائكة أو للسقوط، أو الانطواء أو لهول القيامة.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «تنشق من المجرّة، وهي البياض المستطيل في وسط السماء»[2].

﴿وَأَذِنَتْ﴾ السماء وانقادت ﴿لِرَبِّهَا﴾ وخالقها حين أراد انشقاقها، كانقياد العبد المطيع لأمر مولاه المُطاع، أو الرعية لحكم السلطان القاهر المقتدر ﴿وَحُقَّتْ﴾ السماء، حقيقتها بالانقياد له، لكونها موجودة بايجاد، باقية بابقائه، مقهورة تحت قدرته، مربوبة بتربيته ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ﴾ بأمره تعالى ﴿مُدَّتْ﴾ وبُسِطت بإزالة جبالها وتلالها وآكامها عن مقارّها بحيث صارت كالصحيفة الملساء، أو زيدت في سَعَتها لتتسع لوقوف الأولين والآخرين عليها للحساب.

عن ابن عباس: إذا كان يوم القيامة مدّ الله الأرض مدّ الأديم العُكاظي[3].

---

١. في النسخة: المؤمنين.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٣٧٥.
٣. تفسير الرازي ٣١: ١٠٣، وفيه: الأديم الكاظمي، تفسير روح البيان ١٠: ٣٧٥، ولم يذكر الراوي.

﴿وَأَلْقَتْ﴾ ورمت ﴿مَا فِيهَا﴾ من الكنوز والموتى من بطنها إلى ظاهرها بالزّلزال ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ عمّا تحمله بحيث لايبقى فيها شيء ﴿وَأَذِنَتْ﴾ وانقادت ﴿لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاء والتخلّي ﴿وَحُقَّتْ﴾ بهذا الانقياد، وحقيقته لأنّه شأن الممكن بالنسبة إلى الواجب، فعند ذلك وقعت الواقعة العظمى، وظهرت الأهوال التي قصرت الألسن عن شرحها ووصفها.

﴿يَا أَيُّهَا ٱلْإِنسَانُ﴾ الغافل عن عاقبة أمرك ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ ومُجدٌّ وساعٍ في دنياك، ومجتهدٌ في تحصيل شهواتك ﴿إِلَىٰ﴾ لقاء ﴿رَبِّكَ﴾ بالموت ﴿كَدْحاً﴾ وجدّاً بليغاً ﴿فَمُلاَقِيهِ﴾ بعد الموت لامُحالة، وحاضرٌ في محكمة عدله تعالى البتة لامفرّ منه.

وقيل: إنّ ضمير ﴿مُلاَقِيهِ﴾ راجعٌ إلى الكدح[1]، والمعنى فأنت ملاقٍ كدحك وعملك بملاقاة صحيفة الأعمال.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُوراً * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً * وَيَصْلَىٰ سَعِيراً * إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً * إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَن يَحُورَ * بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً * فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ * وَٱللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ[٧ـ١٨]

ثمّ بيّن سبحانه اختلاف أفراد الانسان في كتاب الأعمال بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ﴾ يوم القيامة ﴿بِيَمِينِهِ﴾ وهو المؤمن الصالح الذي كتب أعماله المَلَك القاعد عن يمينه ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ﴾ هذا المؤمن ﴿حِسَاباً يَسِيراً﴾ وسهلاً لامناقشة فيه ولااعتراض عليه بما يسوء، وهو على ما قيل: أن يعرف طاعته ومعصيته، فيُثاب على طاعته وتُغفر معصيته[2].

﴿وَ﴾ إذن ﴿يَنقَلِبُ﴾ وينصرف ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ وعياله وذريّاته إن كانوا في الجنّة، أو إلى حور العين ﴿مَسْرُوراً﴾ وفَرِحاً بنجاته من النار وفوزه بالجنة.

عن عائشة قالت: سَمِعت رسول الله يقول: «اللهمّ حاسبني حساباً يسيراً» قلت: ما الحساب اليسير؟ قال: «ينظر في كتابه ويتجاوز عن سيئاته، فأمّا من نُوقِش في الحساب فقد هلك»[3].

وعنها أنّها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من نُوقش في الحساب فقد هلك» فقلت: يا رسول‌الله، إنّ

---

١. تفسير الرازي ٣١: ١٠٥.

٢. تفسير الرازي ٣١: ١٠٦، تفسير روح البيان ١٠: ٣٧٧.

٣. تفسير الرازي ٣١: ١٠٦.

الله يقول: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾؟قال: «ذلك العرض، ولكن من نُوقش في الحساب عُذّب»[١].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ﴾ وأعطي ﴿كِتَابَهُ﴾ وصحيفة عمله بشماله الذي جعل ﴿وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ بعد ما غُلّت يده اليمنى على ما قيل[٢]، وقيل: تُخلع يده اليسرى وتُجْعَل من وراء ظهره[٣]. وقيل: إنّ يده في محلّها، ولكن يُعطى الكتاب بها من وراء ظهره. وقيل: يحوّل وجهه إى قفاه، فيقرأ الكتاب كذلك[٤] ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً﴾ وهلاكاً لنفسه، ويقول: واثبوراه، لعلمه بذلك أنّه من أصحاب النار ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿يَصْلَىٰ سَعِيراً﴾ أو يُدخَل ناراً لأجل ﴿إِنَّهُ كَانَ﴾ في الدنيا ﴿فِي أَهْلِهِ﴾ وعياله وعشيرته ﴿مَسْرُوراً﴾ بالنِّعم والراحة من تعب العبادة ومشقّة امتثال التكاليف، لعدم إيمانه بالله واليوم الآخر، وعدم خوفه من الحساب، أو مسروراً بما هو عليه من الكفر والتكذيب بالبعث، وكان يضحك ممّن آمن بهما ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَن يَحُورَ﴾ ولن يرجِع بعد الموت إلى الحياة الدنيا، أو إلى الآخرة، أو إلى الله، كما عن بن عباس[٥].

﴿بَلَىٰ﴾ يحور ويرجِع إلى الحياة ويُبعث ﴿إِنَّ رَبَّهُ﴾ الذي خلقه ﴿كَانَ﴾ حين خلقه ﴿بِهِ﴾ وبخُبث طينته وشقاوته وسوء عمله وعاقبته ﴿بَصِيراً﴾ وعالماً ﴿فَلَآ﴾ يظُنّ أن يُهمِله الله ولايُعاقبه على كفره ومعاصيه ﴿أُقْسِمُ﴾ أيّها الانسان ﴿بِالشَّفَقِ﴾ والحُمرة الباقية في الأُفق بعد غروب الشمس، كما عن بن عباس[٦] ﴿وَٱللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وجمع الليل بظلمته من النجوم والحيوانات التي يرجِع إلى أماكنها من الدوابّ والسِّباع والوحوش والهوامّ والحشرات ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ واجتمع وتمّ وصار بدراً. قيل. اقسم الله تعالى بهذه الأُمور لظهور التحوّل والتغيير فيها[٧] الدالّ على قدرته الكاملة.

لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ[١٩]

ثمّ بيّن سحانه المُقسم عليه بقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ ولتلاقنّ أيّها الناس حالاً ﴿طَبَقاً﴾ وموافقاً لحال السابق متجاوزاً في الشدّة ﴿عَن طَبَقٍ﴾ وحال موافق لسابقه. حاصل المراد ـ والله أعلم ـ لتلاقن حالاً بعد حالٍ كلّ واحدةٍ مطابقة لأُختها في الشدّة والهول أو فوقها.

وقيل: إنّ الطَّبَق جمع طَبَقة، وهي المَرتبة، والمعنى: لتركبنّ أحوالاً بعد أحوالٍ هي طبقات في الشدّة بعضها أرفع من بعض، وهي وما بعدها من مواطن البَرزَخ والقيامة ودواهيها إلى حين

---

١ -٤. تفسير الرازي ٣١: ١٠٦.
٥. تفسير الرازي ٣١: ١٠٧.
٦. تفسير الرازي ٣١: ١٠٨.
٧. تفسير روح البيان ١٠: ٣٨٠ و٣٨١.

الاستقرار في الجنّة أو النار[١].

وقيل: إنّه المقصود أنّ الناس تنتقل أحوالهم يوم القيامة ممّا كانوا عليه في الدنيا[٢] فانّ الله لما أخبر عن حال من يُؤتى كتابه وراء ظهره، وأنّه كان في أهله مسروراً، وأنه ظنّ أن لن يحور، أخبر أنه يحور. ثمّ أقسم على أنّ الناس يركبون طبقاً عن طبقٍ في الآخرة، أي حالاً بعد حالهم في الدنيا.

وقيل: يعني لتركبنّ سُنَة الأولين ممّن كانوا قبلكم في تكذيب الرسل والقيامة[٣].

عن الصادق عليه السلام: «﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ﴾ أي سُنن من كان قبلكم»[٤].

وعنه عليه السلام: «لتركبنّ سُنن من كان قبلكم من الأولين وأحوالهم»[٥].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أي لتسلكنّ[٦] سبيل من كان قبلكم من الأمم في الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء»[٧].

وعن الباقر عليه السلام قال: «أولم تركب هذه الأمّة بعد نبيها طبقاً عن طبقٍ في أمر فلان وفلان وفلان»[٨].

وعن القمي: يقول: «لتركبنّ سبيل[٩] من كان قبلكم، حَذْو النعل بالنعل، والقُذّة بالقُذّة لاتخطئن طريقهم، ولايخطئ[١٠] شبر بشير وذِراع بذِراع وباع بباع، حتى أنّه لو كان من كان قبلكم دخل في جُحر ضبٍّ لدخلتموه؟ قالوا اليهود والنصارى: من تعني يا رسول الله؟ قال: «فمن أعني، لتنقُضنّ عُرى الاسلام عُروة عروة، فيكون أول ما تَنْقُضون من دينكم الإمامة، وآخره الصلاة»[١١].

فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْآنُ لاَ يَسْجُدُونَ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ * وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ * فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ[٢٠-٢٥]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه صحّة البعث بالآيات المعجزات، وبّخ المشركين على عدم إيمانهم، وأظهر التعجّب منه بقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ﴾ من العُذر، وأي مانع لهم أنّهم ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا القرآن وما فيه من الإخبار بالبعث والحساب؟ ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْآنُ﴾ مع ما فيه من العلوم والإعجاز ﴿لاَ

---

١. تفسير الرازي ٣١: ١٠٩، تفسير روح البيان ١٠: ٣٨١.

٢ و٣. تفسير الرازي ٣١: ١١٠.

٤. كمال الدين: ٦/٤٨٠، تفسير الصافي ٥: ٣٠٥.

٥. جوامع الجامع: ٥٣٥، تفسير الصافي ٥: ٣٠٥.

٦. في النسخة: لتركبنّ.

٧. الاحتجاج: ٢٤٨، تفسير الصافي ٥: ٣٠٦.

٨. تفسير القمي ٢: ٤١٣، الكافي ١: ١٧/٣٤٣، تفسير الصافي ٥: ٣٠٦.

٩. في المصدر: سنّة.

١٠. في المصدر: ولاتخطئون طريقتهم.

١١. تفسير القمي ٢: ٤١٣، تفسير الصافي ٥: ٣٠٦.

﴿يَسْجُدُونَ﴾ ولايخضعون لله عن ابن عباس: المراد بالسجود الصلاة[١]. وعن جماعة من المفسّرين: المراد نفس السجود[٢].

رُوي أنّ النبي ﷺ قرأ ذات يوم: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ﴾[٣] فسجد هو ومن معه من المؤمنين، وقريش تُصفّق فوق رؤوسهم وتصفِر، فنزلت الآية[٤].

ثمّ بيّن سبحانه علّة عدم سجودهم وإيمانهم بقوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وبكتابه واليوم الآخر ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ الرسول والقرآن في إخبارهما بالبعث عِناداً ولَجاجاً وتقليداً لآبائهم، ولذا لايخافون ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ من أنفسهم ﴿بِمَا يُوعُونَ﴾ وما يُضمِرون في قلوبهم من الحسد والبغي واللَّجاج، أو بما يجمعون في صُحف أعمالهم من الكفر والعِصيان ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ يا محمد ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فانّهم بأعمالهم يُظهِرون أنّه مطلوبهم ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ منهم بعد كفرهم.

وقيل: إنّ الاستثناء منقطعٌ[٥]، والمعنى: لكن الذين آمنوا ﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ من الطاعات والعبادات ﴿لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرٌ﴾ وثوابٌ عظيمٌ ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ومقطوعٍ، بل متّصلٌ ودائمٌ، أو غير ممنونٍ به عليهم، فانّ المِنّة تُكدّر النعمة.

قد مرّ ذكر ثواب قراءتها.

---

١ و٢. تفسير الرازي ٣١: ١١١.
٣. العلق: ١٩/٩٦.
٤. جوامع الجامع: ٥٣٥، تفسير الصافي ٥: ٣٠٦.
٥. الكشاف ٤: ٧٢٨، تفسير الرازي ٣١: ١١٣، تفسير الصافي ٥: ٣٠٦.

في تفسير سورة البروج

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلسَّماءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ * وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ[١ـ٤]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الانشقاق المتضمّنة لانكار المشركين بالبعث ودار الجزاء، وعدم إيمانهم بالقرآن وتكذيبهم الرسول ﷺ، وكان فيه تألّم قلبه الشريف، نُظِمت سورة البُروج المتضمّنة لحكاية امتناع أصحاب الأُخدود من الايمان، وإحراقهم المؤمنين بالنار، وتهديد الذين يُؤذون المؤمنين بالعذاب، لتسلية قلب النبي ﷺ فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها سبحانه بالقسم بأشياء عظيمة القدر والشرف، لظهور آثار قدرته وحكمته بها بقوله: ﴿وَٱلسَّماءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ الاثني عشر التي فيها تسير الشمس في السنة الشمسية. وقيل: إنّ المراد بالبُروج منازل القمر[١]، وهي ثمانية وعشرون كوكباً[٢]. وقيل: هي الكواكب العِظام[٣] وتسميتها بالبُروج لظهورها ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ للناس بلسان الأنبياء، وهو يوم القيامة، كما رواه أبوهريرة عن النبي ﷺ[٤] وهو يوم فصل القضاء، وظهور تفرّد الله تعالى بالمُلك والسلطان ﴿وَشَاهِدٍ﴾ وحاضرٍ في ذلك اليوم من الملائكة والجنّ والإنس، ﴿وَ﴾ يوم ﴿مَشْهُودٍ﴾ وهو يوم القيامة، كما عن ابن عباس[٥]، لمُعاينة العجائب التي ليست في غيره، ولقوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ ٱلنَّاسُ وَذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾[٦].

وعن أبي موسى الأشعري: أنّ النبي ﷺ قال: «اليوم الموعود يوم القيامة، والشاهد يوم الجمعة، والمشهود يوم عرفة»[٧].

---

١. تفسير الرازي ٣١: ١١٣، تفسير أبي السعود ٩: ١٣٥، تفسير روح البيان ١٠: ٣٨٥.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٣٨٥.
٣. تفسير الرازي ٣١: ١١٣، تفسير أبي السعود ٩: ١٣٥.
٤. تفسير الرازي ٣١: ١١٣.
٥. تفسير الرازي ٣١: ١١٤.
٦. هود: ١٠٣/١١.
٧. تفسير الرازي ٣١: ١١٥.

وعن أبي هريرة مرفوعاً قال: «المشهود يوم عرفه والشاهد يوم الجمعة، ما طلعت شمس ولا غربت على أفضل منه، فيه ساعة لايُوافقها عبدٌ مؤمنٌ يدعو الله بخيرٍ إلّا استجاب له، ولايستعيد من شرٍّ إلا أعاذه منه»[١].

وعن ابن المسيب مرسلاً عن النبي ﷺ قال: «سيد الأيام يوم الجمعة، وهو الشاهد، والمشهود يوم عرفة»[٢].

ورواية العامة عن أمير المؤمنين[٣] رواه أصحابنا عن الصادق[٤] وعن الباقر عليهما السلام أنّه سئل عن ذلك فقال: «ما قيل لك» فقال السائل: قالوا شاهد يوم الجمعة، ومشهود يوم عرفة. فقال: «ليس كما قيل لك، الشاهد يوم عرفة، والمشهود يوم القيامة، أما تقرأ القرآن؟ قال الله عزّ وجلّ: ﴿ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ ٱلنَّاسُ وَذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾»[٥].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن ذلك فقال: «النبي ﷺ، وأمير المؤمنين عليه السلام»[٦].

وعلى أي تقدير قيل: إنّ جواب القسم محذوف[٧]، والتقدير: لُعِن كفّار مكة كما ﴿قُتِلَ﴾ ولُعِن ﴿أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ وأهل الخنادق. قيل: كانوا ثلاثة: انطيانوس الرومي بالشام، وبخت نصر بفارس، ويوسف ذو نؤاس الحِمْيري بنجران يمن، كلّ واحدٍ منهم حفر خندقاً عظيماً، طوله أربعون ذراعاً، وعرضه اثناعشر ذراعاً، وملأوه ناراً، وألقوا فيه المؤمنين[٨].

قيل: إنّ المقصود بأصحاب الأُخدود في الآية ذو نؤاس النجراني اليهودي وجنوده، قالوا: إنّ عبداً صالحاً يقال له: عبدالله بن الثامر، وقع إلى نجران، وكان على دين عيسى عليه السلام، فدعاهم فأجابوه، فسار إليهم ذونؤاس بجنود من حِمير، فخيّرهم بين النار واليهودية، فأبوا اليهودية، فحفر الخنادق وأضرم فيها النيران، فجعل يُلقي فيها كلّ من اتّبع ابن الثامر حتّى أحرق نحواً من اثني عشر ألفاً، أو عشرين ألفاً أو سبعين ألفاً، وكان اسم ذونؤاس زرعة بن حسّان ملك حِمير، وسمّى نفسه يوسف[٩].

ورُوي أنّه انفلت رجلٌ من أهل نجران، اسمه دوس ذوثعلبان، ووجد إنجيلاً محترقاً بعضه، فأتى به مَلِك الحبشة، وكان نصرانياً، فقال له: إنّ أهل دينك أُوقدت لهم نار فأُحْرقوا بها وأُحْرِقت كتبهم، وهذا بعضها. فأراه الذي جاء به، ففَزِع لذلك، فكتب إلى صاحب الروم يستمدّه بنجّارين يعملون له

---

١ و٢. تفسير الرازي ٣١: ١١٥.
٣. تفسير الرازي ٣١: ١١٥.
٤. معاني الأخبار: ٢/٢٩٨، تفسير الصافي ٥: ٣٠٨.
٥. معاني الأخبار: ٥/٢٩٩، تفسير الصافي ٥: ٣٠٨.
٦. الكافي ١: ٦٩/٣٥٢، معاني الأخبار: ٧/٢٩٩، تفسير الصافي ٥: ٣٠٨.
٧. تفسير الرازي ٣١: ١١٦، تفسير روح البيان ١٠: ٣٨٥.
٨. تفسير روح البيان ١٠: ٣٨٦.
٩. تفسير روح البيان ١٠: ٣٨٦.

السفينة، فبعث إليه صاحب الروم من عَمِل له السفن، فركِبوا فيها، فخرجوا إلى ساحل اليمن، فخرج إليهم أهل اليمن، فلقوهم بتِهامة، واقتتلوا، فلم يَرَ مَلِك حِمْير له بهم طاقة، وخاف أن يأخُذوه، فضرب فرسه حتى وقع في البحر فمات فيه، فاستولى الحبشة على حِمير وماحولها وتملّكوا، وبقي المُلك لهم إلى وقت الإسلام[1].

وفي الحديث: «كان ملك فيمن كان قبلكم» كان له ساحرٌ، فلمّا كبر قال للمَلِك: إني كَبرت فابعث إليّ غُلاماً أُعلّمه السحر. فبعث إليه غُلاماً يُعلّمه، فكان في طريقه راهبٌ، فقعد إليه وسَمِع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرّ بالراهب وقعد إليه، فاذا أتى الساحر ضرب لمكثه، فكشا إلى الراهب، فقال له: إذا خشيت الساحر فقل له: حبسني أهلي.

ثمّ إنّ الغُلام رأى يوماً في طريقه حيّة فقال: اليوم أعلم أنّ الساحر أفضل أم الراهب، فأخذ حَجَراً وقال: اللهمّ إن كان الراهب أحبَّ إليك من الساحر فقوّني على قتلها، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال الراهب: أي بُني، أنت اليوم أفضل منّي، قد بلغ من أمرك ما أدري، وإنّك ستُبتلى، فان ابتُليت فلاتُدلّ عليّ.

وكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص، ويُشفى المريض. فسَمِع ذلك جليس المَلِك، وكان أعمى، فأتاه بهدايا، فقال: ما هاهنا لك أجمع إن شفيتني. قال الغلام: إنّي لاأُشفي أحداً، إنّما يُشفي الله، فان آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله.

فأتى المَلِك فجلس إليه، كما كان يجلِس، فقال المَلِك: من ردّ بصرك؟ قال: ربّي. قال: أولك ربّ غيري؟ قال: ربّي وربّك الله. فأخذه فلم يزل يُعذّبه حتى دلّ على الغُلام، فجيء بالغلام فقال له المَلِك. أي بني، قد بلغت من سِحرك أنّك تُبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل!

فقال: أنا لاأشفي أحداً، إنما يُشفي الله، فاخذه ولم يزل يُعذّبه حتى دلّ على الراهب، فجيء بالراهب. فقال له: ارجِع عن دينك فأبى، فدعا بالمِنشار فوضعه في مَفْرِق رأسه فشقّه به حتّى وقع شِقّاه، ثمّ جيء بجليس المَلِك فقال له: ارجِع عن دينك فأبى، فوضع المِنشار على مَفرِق رأسه فشقّه به حتى وقع شِقّاه، ثمّ جيء بالغلام فقال له: ارجِع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه. فقال لهم: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فاذا بلغتم ذُروته فان رجع عن دينه وإلّا فاطرحوه.

فذهبوا به فصَعِدوا به الجبل، فقال الغلام: اللهمّ أكفينهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا،

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٣٨٦.

فجاء الغلام يمشي إلى المَلِك، فقال له المَلِك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله.

فدفعه إلى نفرٍ آخر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور[1]، فتوسّطوا به البحر، فان رجع عن دينه وإلّا فاقذِفوه في البحر، فذهبوا به، فقال الغلام: اللهمّ أكفينهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء الغلام يمشي إلى المَلِك، فقال المَلِك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله.

فقال للمَلِك: إنّك لست بقاتلي حتّى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ وتصلُبني على جذعٍ، ثمّ خُذ سهماً من كنانتي، ثمّ ضع السهم في كَبِد القوس، ثمّ قل: بسم الله ربّ الغلام، ففعل كما قال الغلام، ثمّ رماه فوقع السهم في صُدْغه، فوضع يده على صُدْغه في موضع السهم فمات. فقال الناس: آمنّا بربّ الغلام.

فأُتي المَلِك فقيل له: أرأيت قد وقع ما كنت تحذر منه، والله قد نزل بك حذرك؛ أي قد آمن الناس، فأمر بالأُخدود في افواه السكك، فخُددت واضرم النار فيها، وقال: من لم يرجِع عن دينه فأقحموه فيها، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبيٌّ رضيعٌ لها. قيل في بعض الروايات: كان لها ثلاثة أولاد أحدهم رضيع، فقال لها المَلِك: ارجِعي عن دينك وإلّا ألقيتك وأولادك في النار فأبت، فأخذ ابنها الأكبر وألقاه في النار، ثمّ قال لها: ارجِعي عن دينك فأبت، فالقى ابنها الأوسط في النار، ثمّ قال لها: ارجِعي عن دينك فأبت، فأخذوا الصبيّ ليُلقوه فيها فهمّت بالرجوع، فقال الصبي: يا أُمّاه، لاترجِعي عن الاسلام، فانّك على الحقّ ولابأس عليك»[2].

وقيل: إنّه قال: فانّ بين يديك ناراً لاتُطفأ، فألقى الصبيّ في النار، وأُمّه على أثره.

قيل: كان ذلك المَلِك ذو نوّاس الحِميري، وكانت القصّة قبل مولد النبي بتسعين سنة[3].

قال بعض العامة: رُوي أن ضَرِبة احتُفرت في زمن خلافة عمر بن الخطاب، فوجد الغلام الذي قتله المَلِك وإصبعه على صُدْغه[4].

وفي بعض التفاسير: فوجدوا عبد الله بن الثامر ـ ولعلّه اسم ذلك الغلام ـ واضعاً يده على صُدْغه، إذ أُميطت يده عنها سال دمه، وإذا تُركت على حالها انقطع، وفي يده خاتم من حديد فيه: ربّي الله، فكتبوا إلى عمر، فكتب بأن يواروه يُعيدوا التّراب عليه، وكتب إليهم، إن ذلك الغلام صاحب الأُخدود فاتركوه على حاله حتى يبعثه الله يوم القيامة على حاله[5].

وروي في (المجمع) جميع ما ذكر بأدنى تفاوت[6].

---

١. أي السفينة الطويلة العظيمة.

٢. تفسير روح البيان ١٠: ٣٨٧.

٣ ـ ٥. تفسير روح البيان ١٠: ٣٨٨.

٦. مجمع البيان ١٠: ٧٠٥، تفسير الصافي ٥: ٣١٠.

وعن القمي قال: كان سببهم أن الذي هيّج الحبشة على غزوة اليمن ذونؤاس، وهو آخر من ملك حِمْير، تهوّد واجتمعت معه حِمْير على اليهوديه، وسمّى نفسه يوسف، وأقام على ذلك حيناً من الدهر، ثمّ أُخبِر أنّ بنجران بقايا قوم على دين النصرانية والمسيحية وعلى حكم الإنجيل، ورأس ذلك الدين عبدالله بن رياس[١]، فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم ويحملهم على اليهودية، يُدخِلهم فيها، فسار حتّى قَدِم نَجْران، فجمع من كان بها على دين النصرانية، ثمّ عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها، فأبوا عليه، فجادلهم وعرض عليهم وحرص الحرص[٢] كلّه، فأبوا عليه، وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها، واختاروا القتل، فاتّخذ لهم أُخدوداً، وجمع فيه[٣] الحطب، وأشعل فيه النار، فمنهم من أُحرق بالنار، ومنهم من قُتِل بالسيف، ومثّل بهم كُلّ مُثلة، فبلغ عدد قتل وأحرق بالنار عشرين ألفاً، وأفلت رجلٌ منهم يُدعى دَوْس ذو ثعلبان على فرسٍ له وركضه[٤]، واتبعوه حتى أعجزهم في الرمل، ورجع ذونؤاس إلى ضيعةٍ[٥] في جنوده[٦].

وروى الفخر الرازي عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنّهم حين اختلفوا في أحكام المجوس قال: «هم أهل الكتاب، وكانوا متمسّكين بكتابهم، وكانت الخمر قد أُحلّت لهم، فتناولها بعض ملوكهم، فسكر فوقع على أُخته، فلمّا صحا نَدِم وطلب المخرج، فقالت له: المخرج أن تخطُب الناس فتقول: إنّ الله تعالى قد أحلّ نكاح الأخوات، ثمّ تخطُّبهم بعد ذلك فتقول: إنّ الله حرّمه، فخطب فلم يقبلوا منه ذلك فقالت له: ابسُط فيهم السوط، فلم يقبلوا، فقالت: ابسُط فيهم السيف، فلم يقبلوا، فأمرته بالأخاديد وإيقاد النيران، وطرح من أبى فيها، فهم الذين أراد الله بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ﴾»[٧].

وعن الباقر عليه السلام قال: «ارسل عليّ عليه السلام إلى أسْقُف نجران يسأله عن أصحاب الأخدود، فأخبره بشيءٍ. فقال: ليس كما ذكرت، ولكن سأُخبرك عنهم، إنّ الله بعث رجلاً حبشياً نبياً، وهم حبشة فكذّبوه، فقاتلهم فقتلوا أصحابه، وأسروه وأسروا أصحابه، ثمّ بنوا له حَيْراً[٨]، ثمّ ملأوه ناراً، ثمّ جمعوا الناس فقالوا: من كان على ديننا وأمرنا فليعتزل، ومن كان على دين هؤلاء فليرمِ نفسه في النار معه، فجعل أصحابه يتهافتون في النار، فجاءت امرأة معها صبيٌّ لها ابن شهر، فلمّا قَربت هابت ورقّت على ابنها، فناداها الصبيّ، لاتهابي وارميني ونفسك في النار، فانّ هذا والله في الله قليلٌ. فرمت بنفسها

---

١. في المصدر: عبدالله بن بريا، وفي تفسير الصافي: عبدالله بن برياس، وفي تاريخ الطبري ٢: ١٢٢، والكامل في التاريخ ١: ٤٢٩، عبدالله بن الثامر.
٢. في النسخة: بينهم وحرض الحرض.
٣. في النسخة: فيها من.
٤. ركض الفرس برجله: استحثّه للعَدْو.
٥. في المصدر: ضيعته.
٦. تفسير القمي ٢: ٤٢٣، تفسير الصافي ٥: ٣٠٩.
٧. تفسير الرازي ٣١: ١١٧.
٨. الحَيْر: شِبه الحظيرة أو الحِمىٰ.

في النار وصبيها، وكان ممّن تكلّم في المهد»[1].

أقول: قد ظهر أنّ الروايات في القصة مختلفةٌ، وجمعها وإن كان ممكناً إلّا أنه لا يَهُمّنا، لعدم حُجّيتها في المقام، وإنّما المعلوم من جميعها أنّ مَلِكاً من الكفّار، أو قوماً منهم، حفروا اُخدوداً وأحرقوا جمعاً من المؤمنين بالنار لإيمانهم، ولا يبعُد أنّ القصة كانت مشهورةً في العرب، ذكرها سبحانه تسليةً للنبي ﷺ والمؤمنين المبتلين بإيذاء المشركين.

ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ * ٱلَّذِى لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ[٥ ـ ٩]

ثمّ فسّر سبحانه الأخدود بقوله: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ والتقدير: أعني بالأُخدود النار التي اُوقدت بالحطب في الأُخدود، فارتفع لَهَبها وأحرق اُولئك القوم ﴿إِذْ هُمْ﴾ بعد إيقاد النار وإلقاء المؤمنين فيها كانوا ﴿عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ على سُرر وكراسي على ما قيل[2]، ينظُرون إلى احتراق المؤمنين فيها ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ من الإحراق والتعذيب ﴿شُهُودٌ﴾ عند المَلِك، يشهدون أنّ أحداً من المأمورين لم يُقصّر فيما أمرته لرَحِم وإشفاقٍ.

وقيل: إنّهم شهودٌ على عملهم الشنيع يوم القيامة، حيث إنّه تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون[3].

﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ اولئك الجبارون من المؤمنين، وما أنكروا ﴿مِنْهُمْ﴾ عملاً ﴿إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا﴾ اُولئك المؤمنون ﴿بِاللهِ﴾ الذي يجب بحكم العقل الايمان به، لأنّه تعالى هو ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ والقاهر على كلّ شيءٍ، وهو ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ والمستحقّ للحمد، لكونه منعماً على جميع الموجودات، فعلى العاقل أن يخاف من سطوته وقهّاريته إن لم يؤمن به، ويرجو نِعمه وإحسانه إن آمن به، وهو ﴿ٱلَّذِى لَهُ﴾ وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والسلطنة المُطلقة في عوالم المُلك والملكوت، يُعذّب من يشاء ويرحم من يشاء ﴿وَ﴾ هو ﴿ٱللهُ﴾ والإله المستجمع لجميع الكمالات والخالق لكلّ شيءٍ، وهو ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من أفعال الكفّار والمؤمنين وغيرها من الموجودات الحقيرة والجليلة الظاهرة والخفية حتى الخواطر والضمائر ﴿شَهِيدٌ﴾ ومُطّلع إطّلاع الحاضر المشاهد، فيُعذّب الكفّار والعُصاة

---

١. مجمع البيان ١٠: ٧٠٦، تفسير الصافي ٥: ٣٠٩.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٧٠٦.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٣٨٩.

على ظُلمهم وعِصيانهم، ويُثيب المؤمنين المطيعين على صبرهم وطاعتهم، وكيف يُنكرون الإيمان على المؤمنين ويَغْضَبون عليهم مع أنّهم مستحقّون لغاية التكريم والتجليل!

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ[١٠]

ثمّ بالغ سبحانه في تهديد الكفّار المُؤذين للمؤمنين والمؤمنات بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ﴾ أو محّنوهم بتعذيبهم وإيذائهم. وعن ابن عباس: أحرقوهم بالنار[١] ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك لم يؤمنوا و ﴿لَمْ يَتُوبُوا﴾ من كفرهم وعصيانهم إلى الله ﴿فَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ جزاءً على كفرهم وعِصيانهم ﴿وَلَهُمْ﴾ مضافاً إلى ذلك ﴿عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ والشديد على إيذائهم للمؤمنين، أو زائداً على تعذيب غيرهم.

وقيل: إنّ المراد من عذاب الحريق تعذيبهم في الدنيا بالنار[٢].

روي أنّ الجبّارون لمّا ألقوا المؤمنين في النار وقعدوا حولها ارتفعت النار فوقهم أربعين ذراعاً، فوقعت عليهم وأحرقتهم، ونجا المؤمنون سالمين[٣].

وقيل: إنّ الله قبض أرواح المؤمنين قبل أن تَمَسّهم النار[٤].

إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ * إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ * إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ[١١-١٦]

ثمّ أردف سبحانه تهديد الكفّار بوعد المؤمنين عموماً بالثواب العظيم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾ سواء كانوا من المفتونين أو غيرهم ﴿لَهُمْ﴾ جزاءً على إيمانهم وأعمالهم ﴿جَنَّاتٌ﴾ ذات أشجارٍ كثيرةٍ وقصورٍ عاليةٍ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ الكثيرة و ﴿ذٰلِكَ﴾ الثواب العظيم هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ والنَّيل بأعلى المقاصد الذي تصغُر عندها الدنيا وما فيها.

ثمّ أكّد سبحانه وعيده الكفّار بقوله مخاطباً للنبي ﷺ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ يا محمد، وأخذه بالقوّة ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لايطيقه[٥] أحد، وإنّما أمهلهم للحكمة البالغة لا للإهمال ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ﴾ الخلق في الدنيا

---

١. تفسير الرازي ٣١: ١٢١.

٢. مجمع البيان ١٠: ٧١٠، تفسير روح البيان ١٠: ٣٨٩.

٣و٤. تفسير روح البيان ١٠: ٣٨٩.

٥. في النسخة: لايطيق له.

﴿وَيُعِيدُ﴾هم، ويخلُقهم ثانياً في الآخرة، ليجازيهم على أعمالهم. وعن ابن عباس: أنّ أهل جهنّم تأكُلهم النار حتى يصيروا فَحْماً ثمّ يُعيدهم خلقاً جديداً، وذلك هو المراد من قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾[١].

ثمّ أكّد سبحانه وعده للمؤمنين بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ للذنوب ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ بالمؤمنين، والمُحبّ لهم، وهو ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ وصاحب سرير المُلك والسلطنة، أو خالقه ﴿ٱلْمَـجِيدُ﴾ والعظيم في ذاته، والشريف في أفعاله، وهو ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لا يُزاحمه شيءٌ في إنفاذ إرادته، ولايمنعه مانع من إتمام مُراده، يفعل ما يشاء كيف يشاء، وذِكر صيغة المبالغة لكثرة أفعاله من الإحياء والإماتة والإغناء والافقار والإعزاز والإذلال وغيرها.

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْـذِيبٍ * وَٱللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ * بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ[١٧-٢٢]

ثمّ استشهد سبحانه على شدّة بطشه بقصة أخذه الأمم المكذّبة للرسل بقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمد، وهل سَمِعت منّا ﴿حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ الكافرة وخبر الجماعات المكذّبة للرسل؟ أعني ﴿فِرْعَوْنَ﴾ ﴿وَ﴾ قومه ﴿ثَمُودَ﴾ قوم صالح، كيف فعلوا، وكيف فعلنا بهم وأهلكناهم بعذابٍ شديدٍ؟ فذكّر قومك بما نزل عليهم من العذاب لعلّهم يتذكّرون، وأنّى لهم الذكرى ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من قومك وأصرّوا على العِناد والطُّغيان ليسوا مثل الأمم السابقة، بل هم أشدّ كفراً وعناداً، لأنّهم مستقرون ﴿فِى تَكْذِيبٍ﴾ عظيمٍ لرسالتك وكتابك بحيث لاينصرفون عنه مع دلالة الأدلّة الباهرة على صحّتهما.

ثمّ بالغ سبحانه في تسليته نبيه ﷺ على تكذيب قومه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ﴾ القادر القاهر ﴿مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ بهم لايقدِرون على الفِرار من أخذه وعذابه، فلا تتألّم من تكذيبهم إيّاك، فإنّي انتقم منهم أشدّ الانتقام، وليس تكذيبهم لكتابك مُوهناً له، ولا نسبته إلى الشعر والسحر والكِهانة مُسقطاً له عن الأنظار ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ وكتابٌ شريفٌ عالي القدر في الكتب السماوية الإلهية، مثبوت ومضبوط ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ عند الله مَصُون من مَساس الشياطين وتحريف المبطلين.

عن ابن عباس: أنّ الله خلق لوحاً محفوظاً من دُرّةٍ بيضاء، دفّتاه ياقوتة حمراء، طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، ينظُر الله فيه كلّ يومٍ ثلاثمائة وستين مرة، يُحيي ويميت، ويُعزّ ويُذلّ، ويفعل ما يشاء، وفي صدر اللّوح: لا إله إلّا الله وحده، ودينه الاسلام، ومحمد

---

١ .تفسير الرازي ٣١: ١٢٢.

عبده ورسوله، فمن آمن به وصدّق وعده واتّبع رسله أدخله الجنة[١].

وعن الصادق عليه السلام قال: «بينا رسول الله صلى الله عليه وآله جالسٌ وعنده جَبْرئيل، إذ حانت من جَبْرئيل نظرةٌ قبل السماء إلى أن قال: قال جَبْرئيل: إنّ هذا إسرافيل حاجب الربّ، وأقرب خلق الله منه، واللّوح بين عينيه من ياقوتةٍ حمراء، فاذا تكلّم الربّ تبارك وتعالى بالوحي ضرب اللّوح جبينه فنظر فيه، ثمّ ألقاه إلينا نسعى به في السماوات والأرض»[٢].

وعن القمي رحمه الله، قال: اللّوح [المحفوظ] له طَرَفان، طَرَف على يمين العرش، وطَرَف على جبهة إسرافيل، فاذا تكلّم الربّ جلّ جلاله بالوحي ضرب اللّوح جبين إسرافيل، فنظر في اللّوح، فيُوحي بما في اللّوح إلى جَبْرئيل[٣].

أقول: هذه الأخبار ممّا لاتدركه[٤] عقولنا، وإنّما تُذكَر لاحتمال أن ينظُر إليها من نور الله قلبه للايمان، فيفهم منها معاني غير ظاهرها.

عن الصادق: «من قرأ سورة ﴿وَٱلسَّمَاءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ في فريضةٍ، فانّها سورة النبيين، كان محشره وموقفه مع النبيّين والمرسلين والصالحين»[٥].

---

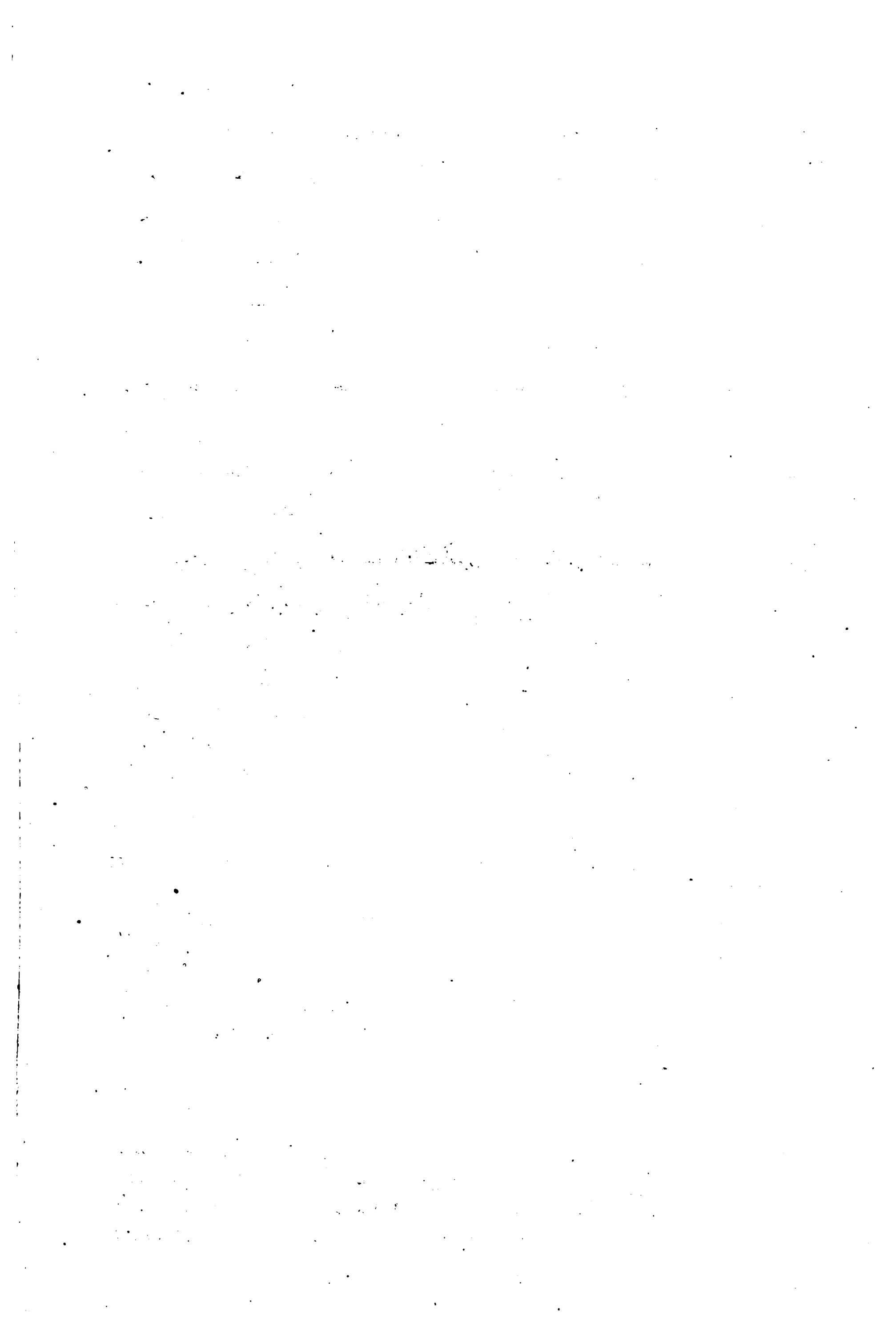
١. تفسير روح البيان ١٠: ٣٩٥.

٢. تفسير القمي ٢: ٢٧، عن الباقر عليه السلام، تفسير الصافي ٥: ٣١٢.

٣. تفسير القمي ٢: ٤١٤، تفسير الصافي ٥: ٣١٢.

٤. في النسخة: يدرك.

٥. ثواب الأعمال: ١٢٢، مجمع البيان ١٠: ٧٠٣، تفسير الصافي ٥: ٣١٢.



في تفسير سورة الطارق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلسَّماءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ[١-٣]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة البروج المبدؤة بالحَلْف بالسماء ذات البروج، المتضمّنة لبيان كونه تعالى مبدأ الخلق ومُعيدهم للجزاء، وكونه محيطاً بالكفّار، وبيان عظمة القرآن، وتكذيب الكفّار إياه، نُظِمت سورة الطارق المبدؤة بالحَلْف بالسماء والنجم الثاقب، المتضمّنة لبيان كونه تعالى حافظاً لجميع النفوس، وبيان بدء خلقه الانسان وإرجاعه بعد الموت إلى الحياة لجزاء الأعمال، وبيان كون القرآن فاصلاً بين الحقّ والباطل، وأنّ الكفّار يكيدون في إبطاله، وتهديدهم بالعذاب، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بالحَلْف بما فيه ظهور كمال قدرته بقوله: ﴿وَٱلسَّماءِ﴾ التي فيها من العجائب والآيات مافيه دلالة ظاهرة على كمال قدرته وحكمته، ﴿وَ﴾ الشيء ﴿ٱلطَّارِقِ﴾ والظاهر بالليل ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأي شيءٍ أعلمك ﴿مَا ٱلطَّارِقُ﴾ وأيّ شيءٍ هو.

ثمّ كأنّه قيل: ما هو؟ فقال سبحانه: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ والكواكب المُضيء الذي ينفُذ نوره في الأفلاك، وهو زُحَل، حيث إنّه في السماء السابعة.

عن الصادق عليه السلام: أنّه قال لرجل من أهل اليمن: «ما زُحَل عندكم في النجوم؟» قال اليماني: نجم نحس. فقال: «لاتقولوا هذا، فانّه نجم أمير المؤمنين، وهو نجم الأوصياء، وهو النجم الثاقب الذي قال الله في كتابه».

فقال اليماني: فما يعني بالثاقب؟ قال: «لأنّ مَطْلِعه السماء السابعة، وإنّه يثقُبُ بضوئه حتى أضاء في السماء الدنيا، فمن ثَمّ سمّاه الله النجم الثاقب»[1].

روى بعض العامة: أنّ أباطالب أتى النبي صلى الله عليه وآله فأتحفه بخُبزٍ ولَبن، فبينما هو جالس يأكُل إذ انحطّ

---

١. الخصال: ٦٨/٤٨٩، تفسير الصافي ٥: ٣١٣.

نجمٌ، فامتلأ ماءً ثمّ ناراً، ففزِع أبوطالب، وقال: أي شيءٍ هذا؟ فقال عليه السلام: «هذا نجمٌ رُمي به، وهو آية من آيات الله» فعَجِب أبوطالب، فنزلت السورة[١].

إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ [٤ـ١٠]

ثمّ ذكر الله سبحانه المُقسَم عليه بقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ وما من أحدٍ ﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ وقيبٌ عالمٌ بأحواله وأفعاله ومصالحه ومنافعه، وهو الله الخالق له.

وقيل: إنّه الملائكة الحافظون لأعماله الكاتبون لها دقيقها وجليها[٢]، أو المراد الحافظون لها بحِفظ رزقها وأجلها، الصائنون لها من المهالك، فإذا استوفت أجلها ورزقها قبضها إلى ربّها وسلّمها إلى المقابر[٣].

ثمّ لمّا بيّن إحاطته بالنفوس، بيّن قدرته على إعادة خلقه للمجازاة، واستدلّ عليها بقدرته على خلقه في الدنيا بقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَانُ﴾ ويتفكّر العاقل المُنكِر للبعث أنّه ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ ومن أيّ شيءٍ تكوّن في هذا العالم؟

ثمّ كأنّه قيل: ممّ خُلِق ياربّ؟ فأجاب سبحانه: ﴿خُلِقَ﴾ وتكوّن ﴿مِن مَّاءٍ﴾ لَزِجٍ قذرٍ ﴿دَافِقٍ﴾ ومُنصبٍّ في الرَّحِم ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ ٱلصُّلْبِ﴾ والنُّخاع الذي في ظهر الرجل ﴿وَ﴾ من بين ﴿ٱلتَّرَائِبِ﴾ والعِظام التي في صدر المرأة.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام وابن عباس: من بين الثديين[٤].

قيل: إذا تولّد شيءٌ من بين شيئين متباينين يقال إنّه خرج من بينهما[٥]. والدَّفق وإن كان صفته ماء الرجل، ولكن إذا اجتمع مع غيره يصِحّ أن يُوصَف الكلّ بصفة الجزء، ويقال للمجموع دافق، فدلّت الآية على أنّ الولد يُخلَق من ماء الرجل والمراة، كما دلّ عليه ما رُوي عن النبي صلّى الله عليه وآله من قوله: «إذا غلب ماء الرجل يكون الولد ذكراً، ويعود شبهه إليه وإلى أقاربه، وإذا غلب ماء المرأة فإليها وإلى أقاربها يعود الشبه»[٦].

قيل: تتكوّن النُّطفة من جميع أجزاء البدن، ثمّ تجتمع نُطفة الرجل في فَقار ظهره، ونُطفة المرأة في

---

١. تفسير الرازي ٣١: ١٢٧.
٢ و٣. تفسير الرازي ٣١: ١٢٨.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٣٩٨.
٥. تفسير الرازي ٣١: ١٢٩.
٦. تفسير الرازي ٣١: ١٢٩.

ترائبها[١].

فإذا ظهر أنّ القادر الحكيم خلق الانسان الذي هو أنموذج العالم الكبير من النُّطفة، ظهر عنده كالشمس في رائعة النهار ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ﴾ وإعادة خلقه بعد موته وصيرورته تُراباً ﴿لَقَادِرٌ﴾ فيخلُقه بقدرته ﴿يَوْمَ تُبْلَى﴾ وتُخْبَر ﴿ٱلسَّرَائِرُ﴾ والضمائر من العقائد والنيات وغيرها من المخفيات لجميع الناس، فيتباهى المؤمن الخالص الحسن السريرة، ويفتضح المنافق المرائي السيء السريرة.

عن (المجمع) عن النبي ﷺ أنّه سُئل: ما هذه السرائر التي ابتلى الله بها العباد في الآخرة؟ فقال: «سرائركم هي أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة والوضوء والغُسل من الجنابة، وكلّ مفروض، لأن الأعمال كلّها سرائر خفية، فان شاء الرجل قال: صلّيت ولم يصل، إن شاء قال: توضّأت ولم يتوضّأ، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَائِرُ﴾[٢]. ﴿فَمَا﴾ للانسان، وليس ﴿لَهُ﴾ في ذلك اليوم ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ في نفسه يدفع بها العذاب الذي حلّ به ﴿وَلاَ نَاصِرٍ﴾ ينتصر به فيَخْفَفه من العذاب بالقوة والحِيلة والشَّفاعة.

وَٱلسَّماءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ * وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ * إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ ٱلْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً[١١ـ١٧]

ثمّ بيّن سبحانه عَظَمة القرآن بقوله: ﴿وَٱلسَّماءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ وصاحبة المطر، كما عن ابن عباس[٣]، إنّما سمّى المطر رَجْعاً لظنّ العرب أنّ السَّحاب يحمل الماء من الأرض، ثمّ يُرجِعه إليها، ويُحتَمل كون المراد بتوصيف السماء بالرجوع كونها ذات حركة دورية. وقيل: إنّه باعتبار أنّ شمسها وقمرها ونجومها تغيب وتَطْلُع[٤]. ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ والانشقاق لنبعان العيون وخروج النباتات.

ثمّ ذكر سبحانه المُقسم عليه، وهو عَظَمة القرآن بقوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ﴾ وكلام ﴿فَصْلٌ﴾ وقاطعٌ للمِراء والجِدال، وفاصل بين الحقّ والباطل، ومميّز كلّ منهما عن الآخر، لظهور الاعجاز فيه وكونه كلام الله ﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ بل كلّه جِدٌّ مطابق للواقع، فحقّه أن يُهتدى به ويُطرَح ما خالفه.

ثمّ ذمّ كفّار مكّة بقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ﴾ ويحتالون في إبطاله وإطفاء نوره بإلقاء الشُّبهات نسبته إلى الشعر والسحر والكِهانة والاختلاق ﴿كَيْداً﴾ بليغاً ﴿وَأَكِيدُ﴾ أنا أيضاً، وأُدبّر في ترويجه وإبطال

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٣٩٩.
٢. مجمع البيان ١٠: ٧١٥، تفسير الصافي ٥: ٣١٤.
٣. مجمع البيان ١٠: ٧١٥، تفسير الصافي ٥: ٣١٤.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٤٠٠.

مساعيهم[1] ﴿كَيْداً﴾ وتدبيراً متيناً لايمكنهم ردّه، وهو نصرة محمد ﷺ، وإعلاء دينه، وإذلال أعدائه ﴿فَمَهِّلِ﴾ أنت يا محمد ﴿ٱلْكَافِرِينَ﴾ المعاندين للحقّ، ولا تستعجل في إهلاكهم والانتقام منهم.

ثمّ كرّر سبحانه الأمر بإمهالهم مع اختلاف اللفظين لزيادة التسكين من الرسول بقوله: ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾ إمهالاً ﴿رُوَيْداً﴾ وقليلاً وعلى رفقٍ وتُؤَدة، أمهلهم حال كونك غير مستعجلٍ في الانتقام إلى يوم القيامة، أو إلى موتهم، أو إلى أن يبلُغ في الدنيا وقت الانتقام منهم.

عن الصادق عليه السلام: «من كانت قرأته في الفرائض ﴿وَٱلسَّماءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ كان له عند الله يوم القيامة جاه ومنزلة، وكان من رفقاء النبيّين وأصحابهم في الجنّة»[2].

---

١. في النسخة: مساعهم. ٢. ثواب الاعمال: ١٢٢، مجمع البيان ١٠: ٧١٢، تفسير الصافي ٥: ٣١٥.

في تفسير سورة الأعلى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ[١]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الطارق المتضمّنة لبيان مبدأ خلق الانسان والمنّة عليه بنعمة إيجاده وبيان عَظَمة القرآن وكونه فاصلاً بين الحقّ والباطل، المقتضي لتسبيحه وتعظيمه، نُظِمت سورة الأعلى المبتدئة بأمر النبيّ بتسبيحه وتنزيهه، وبيان خلق الانسان، والمِنّة عليه بنِعمه هذه تعالى، فافتتحها بذكر الأسماء المباركات بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بأمر النبي صلى الله عليه وآله بتسبيحه بقوله: ﴿سَبِّحِ﴾ يا محمد نزّه عن العيوب والنقائص ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ وما يُطلق على ذاته ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ والأرفع من جميع الموجودات شأناً ومقاماً وسلطاناً، أو أعلى من أن يصفه الواصفون ويذكُره الذاكرون.

وقيل: إنّ المراد بالاسم علمه تعالى، والمقصود تنزيه ذاته ببيان أبلغ وآكد، حيث إن من كان اسمه واجب التنزيه والتقديس، كان تنزيه ذاته أوجب وألزم[١].

وقيل: إن تنزيه اسمه عدم تسمية غيره تعالى به[٢]، ومثل صونه عن الابتذال، والذكر على وجه التعظيم والخشوع[٣].

وقيل: إنّ المراد من الاسم ذاته[٤]، وقيل: صفته[٥]، والمعنى: نزّه صفته المُنبئة عن ذاته المقدسة عن النقائص الإمكانية.

وقيل: إنّ لفظ اسم زائد، والمراد: سبّح ربّك الأعلى[٦].

عن الباقر عليه السلام قال: «إذا قرأت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فقل: سبحان ربّي الأعلى، وإن كنت في الصلاة فقل فيما بينك وبين نفسك»[٧].

---

١. مجمع البيان ١٠: ٧١٩.

٢و٣. تفسير الرازي ٣١: ١٣٥.

٤. تفسير روح البيان ١٠: ٤٠٣.

٥. تفسير الرازي ٣١: ١٣٥.

٦. تفسير الرازي ٣١: ١٣٦.

٧. مجمع البيان ١٠: ٧١٩، تفسير الصافي ٥: 316.

وعن ابن عباس: كان النبي ﷺ إذا قرأ سورة ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: «سبحان ربّي الأعلى»[1].

وروى بعض العامة عن عُقبة بن عامر: أنّه لمّا نزل قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال [رسول‌الله ﷺ]: اجعلوها في سُجودكم[2].

وقالوا: رُوي أنّه ﷺ كان يقول في سجوده: «سبحان ربّي الأعلى»[3].

وقيل: إنّ المراد بالتسبيح الصلاة، والمعنى: صلّ باسم ربّك[4]، والظاهر هو الوجه الأول الذي ذكرنا.

ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَٱلَّذِى أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُ غُثَآءً أَحْوَىٰ[٢ـ٥]

ثمّ وصف سبحانه ذاته المقدّسة بصفات دالّة على كمال قدرته وحكمته المقتضي لاستحقاق التسبيح بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ الانسان أولاً من تُرابٍ، ثمّ من نُطفة ﴿فَسَوَّىٰ﴾ خلقه بأن عدل قامته، أو جعله بحيث يُمكنه أن يأتي بجميع الأفعال التي لايقدِر عليها غيره من الموجودات، و منها العبادات.

وقيل: يعني خلق الميزان فسوّى خلقه بأن جعل له أعضاءً أو حواساً يتوقّف تعيّشه عليها[5]، أو خلق كلّ شيءٍ فسوّى خلقه بأن أحكمه وأتقنه[6].

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ كلّ إنسانٍ، أو كلّ شيءٍ بقدرٍ مخصوصٍ يُناسبه من الجُثّة والعِظَم والصِغَر واللّون والشَّكْل وغيرها من الصفات ومدّة البقاء والسعادة والشقاوة ﴿فَهَدَىٰ﴾ الانسان بإعطائه العقل وإرسال الرسل إلى خيره وشرّه، أو الحيوان إلى ما به من التناسل وتدبير التعيّش، وجلب ما فيه صلاحه ودفع ما فيه ضرره، أو جميع الموجودات إلى ما به تكامله بجعل القُوى المصلحة فيه ﴿وَٱلَّذِى أَخْرَجَ﴾ وأنبت من الأرض ﴿ٱلْمَرْعَىٰ﴾ والكلأ الاخضر، كما عن ابن عباس[7] ﴿فَجَعَلَهُ﴾ بعد طراوته وخُضرته ﴿غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ ويابساً أسود بسبب برودة الهواء ولُصوق المُكدّرات كالغُبار أو ما يحمِله السيل من الأجزاء الكَدِرة.

سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَىٰ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ * وَنُيَسِّرُكَ

١. مجمع البيان ١٠: ٧١٩، تفسير الصافي ٥: ٣١٦. ٢ و٣. تفسير الرازي ٣١: ١٣٧.
٤. تفسير الرازي ٣١: ١٣٥.
٥. تفسير الصافي ٥: ٣١٦، تفسير البيضاوي ٢: ٥٨٩، تفسير روح البيان ١٠: ٤٠٤.
٦. تفسير أبي السعود ٩: ١٤٣، جوامع الجامع: ٥٣٨. ٧. تفسير الرازي ٣١: ١٤٠.

لِلْيُسْرَىٰ [٦ ـ ٨]

ثمّ حثّ سبحانه خصوص النبي ﷺ بذكر أكمل نعمه بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ يا محمد، ونتلو عليك القرآن الذي فيه علوم الأولين والآخرين، وما يكون وما هو كائن، وجميع ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ شيئاً منه أبداً، بل هو باقٍ في حفظك، فلا تَخَف من نسيانه ﴿إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ﴾ أن تنساه، ولا يشاء ذلك أبداً، وإنّما الفرض من الاستثناء إظهار أنّ بقاءه في حفظه لايكون إلّا بمشيئته وفضله عليه لابقدرة نفسه.

عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي يقرأه مخافة أن ينساه، فكان لايفرُغ جَبْرئيل من آخر الوحي حتّى يتكلّم هو بأوله، فلمّا نزلت هذه الآية لم يَنْسَ بعد ذلك شيئاً[١].

ثمّ أخبر سبحانه بأنّه مخيّرٌ بين الجَبْر في القراءة وإخفاته بقوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ تعالى ﴿يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ﴾ إن جهرت بالقراءة ﴿وَ﴾ يعلم ﴿مَا يَخْفَىٰ﴾ من قراءتك.

وقيل: إنّ المعنى أنّه عالم بجهرك في القراءة مع جَبْرائيل، وعالم بالسرّ الذي في قلبك[٢].

﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ ونوفّقك ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ والطريقة الأسهل في حفظ القرآن، أو للشريعة التي هي أسهل الشرائع. وعن ابن مسعود: اليُسرى الجنّة، والمعنى نيسّرك للعمل المؤدّي إليها[٣].

فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ * وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ [٩ ـ ١٣]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه لُطفه بنبيّه ﷺ بنزول القرآن، أمره بدعوة الخلق إليه بقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ والعِظَة فيهم، والنُّكتة في ذكر هذا الشرط مع وجوب العِظَة عليه نفعت أو لاتنفع، حثّ الناس على الاتّعاظ، وإن كان فيه فائدة إتمام الحجّة.

وقيل: إنّ فائدته تنبيه الرسول ﷺ بأنّ الذكر لاينفعهم، كأنّه قال: ذكّرهم إن نفعت الذكرى، ولا أرى أن تنفعهم[٤].

ثمّ بيّن سبحانه المنتفعين بالعِظَة بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ﴾ وينتفع البتة بذكرك وعِظَتك ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ الله والرجوع إليه بعد الموت، وهو الذي لايقطع بعدم البعث، ولمّا كان القاطع غير معين يجب تعميم العِظَة.

---

١. مجمع البيان ١٠: ٧٢٠، تفسير الصافي ٥: ٣١٧.
٢. تفسير الرازي ٣١: ١٤٢.
٣. تفسير الرازي ٣١: ١٤٣.
٤. تفسير الرازي ٣١: ١٤٤.

قيل: إنّ الآية نزلت في ابن أُمّ مكتوم. وقيل: في عثمان[١].

ثمّ بيّن غير المنتفع بقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ ويحترز منها ولايسمعها سَماع القَبول ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ وأقسى الناس قلباً وأعداهم للنبي ﷺ، كأبي جهل والوليد وأضرابهما ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى﴾ ويدْخل ﴿ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ والطبقة الأسفل في جهنّم ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيتخلّص من العذاب ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياة ينتفع بها.

قيل: إنّ نَفس كلّ منهم [تصير] في حلقه، فلا تخرُج فيموت، ولا ترجع إلى موضعها فيحيى[٢].

قيل: إنّ ذكر كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على أنّ هذه الحالة أشدّ وأفظع من الصلي، فهو متراخٍ في مراتب الشدّة[٣].

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ * بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ[١٤-١٩]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه حال الأشقى، ذكر حسن حال المتّقي عن الكفر بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ وفاز بأعلى المقاصد ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ وتطهّر من دَنَس الكفر عن ابن عباس: معنى ﴿تَزَكَّىٰ﴾ أن يقول: لا إله إلّا الله[٤] ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ﴾ وعرفه بقلبه. وعن ابن عباس: ذكر معاده، ووقوفه بين يدي ربّه[٥] ﴿فَصَلَّىٰ﴾ قيل: مراتب أعمال الانسان ثلاثة: إزالة العقائد الفاسدة عن القلب وهي التزكية، وإنارة القلب بنور معرفة الله وهي ذِكر الربّ، ثمّ الاشتغال بالعبادة وهو الصلاة[٦].

وعن ابن عمر: إن المراد بالتزكّي إخراج صدقة الفِطرة[٧]. وقيل: المراد بالتزكّي المُضيّ إلى المُصلّى، وبالذكر أن يُكبّر في الطريق حين خروجه إلى المُصلّى، وبالصلاة [أن يصلّي صلاة] العيد بعد ذلك مع الامام[٨].

وعن الصادق عليه السلام: أنّه سُئِل عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ قال: «من أخرج الفِطرة» قيل له: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾؟ قال: خرج إلى الجبّانة فصلّى»[٩].

وعنه عليه السلام: قال لرجل: «ما معنى قوله: ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾؟ قال: كلّما ذكر اسم ربّه قام فصلّى.

---

١. تفسير الرازي ٣١: ١٤٥.
٢ و٣. تفسير الرازي ٣١: ١٤٦.
٤ و٥. تفسير الرازي ٣١: ١٤٧.
٦. تفسير الرازي ٣١: ١٤٧، تفسير روح البيان ١٠: ٤٠٩.
٧. تفسير روح البيان ١٠: ٤١٠.
٨ تفسير روح البيان ١٠: ٤١٠.
٩. من لايحضره الفقيه ١: ١٣٧٨/٣٢٣، تفسير الصافي ٥: ٣١٧.

قال: «لقد كلّف الله هذا شَطَطاً» قال: فكيف هو؟ فقال: «كلّما ذكر اسم ربّه صلّى على محمّد وآله»[١].

ثمّ كأنّه قيل: لاتفعلون أيّها الكفار ذلك ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ﴾ وتختارون ﴿ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ولذّاتها ﴿وَ﴾ الحال أنّ ﴿ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ وأفضل من الدنيا؛ لأن نعمها ولذّاتها أعلى وأخلص من شائبة الآلام والغوائل ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ وأدوم، بل لاانقطاع لها ولاانصرام ﴿إِنَّ هٰذَا﴾ المذكور من الفلاح بالتزكية، وأن الآخرة خيرٌ وأبقى ﴿لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ والكُتب السابقة المُنزلة من السماء، أعني ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿وَ﴾ صحف ﴿مُوسَىٰ﴾ بن عمران الكليم.

رُوي أنّ جميع ما أنزل الله من كتاب مائة وأربعة كتب، أنزل على آدم عشر صحف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشر صحائف، والتوراة والانجيل والزبور والفرقان، فصُحف موسى هي الألواح التي كُتبت فيها التوراة[٢]. وقيل صُحُفه كانت قبل التوراة، وهي عشر[٣].

وعن (الخصال) عن أبيذرّ رضوان الله عليه: أنّه سأل رسول الله ﷺ: كم أنزل الله من كتاب؟ قال: «مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة، وأنزل التوراة والإنجيل والزَّبور والفُرقان».

قلت: يا رسول الله، ما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلّها، وكان فيها: أيّها الملك المُبتلى، إنّي لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعضٍ، ولكنّي بعثتك لتردّ عنّي دعوة المظلوم، فانّي لااردّها وإن كانت من كافر، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً أن يكون له أربعة ساعات: ساعة يناجي فيها ربّه وساعة يُحاسب فيها نفسه، وساعة فيها يتفكّر فيما صنع الله عزّ وجلّ إليه، وساعة يخلو فيها بحظّ نفسه من الحلال، فانّ هذه الساعة عون لتلك الساعات».

إلى أن قال: «وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، فانّ من حسب كلامه من علمه قلّ كلامه إلّا فيما يعنيه، وعلى العاقل أن يكون طالباً لثلاث: مرمّة لمعاش، أو تزوّد لمعادٍ، أو تلذّذ في غير مُحرّم».

قال: قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عِبراً كلّها، عَجِبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح، ولمن أيقن بالنار كيف يضحك، ولمن يرى الدنيا وتقلّبها كيف يطمئنّ إليها، ولمن يؤمن بالقدر كيف ينصَب، ولمن يؤمن بالحساب ثمّ لايعمل» هكذا النسخة.

---

١. الكافي ٢: ١٨/٣٥٩، وتفسير الصافي ٥: ٣١٨، عن الامام الرضا عليه السلام.

٢ و٣. تفسير روح البيان ١٠: ٤١١.

قال: قلت: فهل في أيدينا ممّا أنزل الله عليك شيء ممّا كان في صحف إبراهيم وموسى؟ قال: «يا أباذر، اقرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ إلى آخر السورة»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «ما أعطى الأنبياء شيئاً إلّا وقد أعطاه محمداً صلى الله عليه وآله». قال: «وقد أعطى محمداً صلى الله عليه وآله جميع ما أعطى الأنبياء، وعندنا الصُّحف التي قال الله عزّ وجلّ: ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾. قيل: هي الألواح؟ قال: «نعم»[2].

عن الصادق: «من قرأ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ في فريضةٍ ونافلةٍ قيل له يوم القيامة: ادخُل الجنة من أيّ أبواب الجنّة شئت إن شاء الله»[3].

وعنه: «الواجب على كلّ مؤمنٍ إذا كان لنا شيعة أن يقرأ في ليلة الجمعة بالجمعة و ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾»[4].

---

١. الخصال: ١٣/٥٢٤، تفسير الصافي ٥: ٣١٨.
٢. الكافي ١: ٥/١٧٦، تفسير الصافي ٥: ٣١٩.
٣. ثواب الأعمال: ١٢٢، مجمع البيان ١٠: ٧١٧، تفسير الصافي ٥: ٣١٩.
٤. ثواب الأعمال: ١١٨، مجمع البيان ١٠: ٤٢٧، تفسير الصافي ٥: ٣١٩.

في تفسير سورة الغاشية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْغَاشِيَةِ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصْلَىٰ نَاراً حَامِيَةً * تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ * لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِى مِن جُوعٍ[١ـ٧]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الأعلى المختتمة بذمّ الكفّار بإيثار الدنيا على الآخرة مع كون الآخرة خيرٌ وأبقى من الدنيا، نُظمت سورة الغاشية المتضمّنة لبيان أحوال الآخرة، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بذكر أهوال القيامة بقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ يا محمد ﴿حَدِيثُ ٱلْغَاشِيَةِ﴾ وخبر القيامة التي تكون داهية تُغشي الناس بشدائدها وتغطّيهم وتُحيط بهم أهوالها، فانّه من عجائب الأخبار وبدائع الآثار التي حقّها أن يُبادر إلى سَماعها العقلاء، ويشتاق إلى تلقّيها الأزكياء[1] وفي رواية: «الذين يخشون الإمام»[2].

ثمّ كأنه قيل: ماخبرها وكيف هي؟ فأجاب سبحانه بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ وفي ذلك الوقت أصحابها ﴿خَاشِعَةٌ﴾ ذليلة قد عراهم الخزي والهوان؛ لأنّهم تكبّروا عن طاعة الله ورسوله ﴿عَامِلَةٌ﴾ ومتحمّلة للمشاقّ، كالعبور على الصراط، وجرّ السلاسل والأغلال ﴿نَاصِبَةٌ﴾ وتَعِبة لطول الوقوف عراةً حفاةً جياعاً عطاشاً، أو لثقل السلاسل التي ذَرْعها سبعون ذراعاً.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «كلُّ ناصبٍ ـ وإن تعبّد واجتهد ـ منسوبٌ إلى هذه الآية ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾»[3].

وعن الصادق عليه السلام: «لايُبالى الناصب صلّى أم زنا، وهذه الآية نزلت فيهم: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾»[4].

أقول: هذه الروايات تأويل لاتنزيل.

---

١. في النسخة: سماعة العقلاء، ويشتاق إلى تلقيّة الأزكياء.

٢. الكافي ٨: ٢٠١/١٧٩، تفسير الصافي ٥: ٣٢١.

٣. الكافي ٨: ٢٥٩/٢١٣، تفسير الصافي ٥: ٣٢١.

٤. الكافي ٨: ١٦٢/١٦٠، تفسير الصافي ٥: ٣٢١.

ثمّ بعد ذلك ﴿تَصْلَىٰ﴾ وتُدخَل ﴿نَاراً حَامِيَةً﴾ وبالغة أعلى درجة الشدّة في الحرارة ﴿تُسْقَىٰ﴾ تلك الوجوه وأصحابها بعد استغاثتهم في مدّة طويلة من شدّة العطش ﴿مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ ومتناهية في الحرارة.

قيل: لو وقعت قطرةٌ منها على جبال الدنيا لذابت، وإذا اُدنيت من وجوههم تناثرت لحومها، وإذا شربوا قطعت أمعاءهم[1].

﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ وشوكٍ يابسٍ فيه سَمٌّ قاتلٌ، كما قيل[2].

وعن ابن عباس: الضريع شيءٌ في النار يُشبه الشوك، أمر من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأشدّ حرّاً من النار[3].

أقول: الظاهر أن المراد نار الدنيا.

قيل: هذا طعام بعض أهل النار، والزقّوم والغِسلين طعام آخرين[4].

عن الصادق عليه السلام في تأويل الآيات ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ قال: «**يغشاهم القائم عليه السلام بالسيف ﴿خَاشِعَةٌ﴾ لاتطيق الامتناع ﴿عَامِلَةٌ﴾ قال: عَمِلت بغير ما أنزل الله ﴿نَاصِبَةٌ﴾ قال نصبت غير ولاة أمر الله** ﴿تَصْلَىٰ نَاراً﴾ الحرب في الدنيا على عهد القائم، وفي الآخرة نار جهنم»[5].

ثمّ رُوي أنّ كفار قريش قالوا استهزاءً: إنّ الضريع ليُسمن إبلنا[6]، فنزلت ﴿لَا يُسْمِنُ﴾ الضريع آكله، لأنّه يصير جزء بدنه ﴿وَلَا يُغْنِي﴾ ولايكفي ﴿مِن جُوعٍ﴾ لأنّه ليس بطعام للبهائم فضلاً عن الإنس، إذ ليس فيه منافع الغذاء، بل أكله عذاب فوق العذاب.

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ[٨-١٦]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه سوء حال الكفّار في الآخرة، بيّن حسن حال المؤمنين فيها بقوله: ﴿وُجُوهٌ﴾ أُخر ﴿يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾ ومبتهجة وحسنة مضيئة، أو متنعّمة بالنِّعم الجسمانية والروحانية ﴿لِسَعْيِهَا﴾ وعملها في الدنيا ﴿رَاضِيَةٌ﴾ لرضائها بثمراتها وثوابها متمكّنة ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ ومرتفعة فوق السماوات، أو عالية المقدار لكمال شرفها وما فيها من النِّعم ﴿لَا تَسْمَعُ﴾ تلك الوجوه ﴿فِيهَا﴾ كلمة

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤١٣.
٢و٣. تفسير روح البيان ١٠: ٤١٣.
٤. تفسير الرازي ٣١: ١٥٣.
٥. الكافي ٨: ١٣/٥٠، تفسير الصافي ٥: ٣٢١.
٦. تفسير الرازي ٣١: ١٥٣.

﴿لَاغِيَةً﴾ لافائدة فيها ولااعتداد بها، إذ هي ما تُوذي السمع ﴿فِيهَا عَيْنٌ﴾ كثيرة مياهها ﴿جَارِيَةٌ﴾ دائماً. قيل: هي أشدّ بياضاً من الّبن، وأحلى من العسل، من شَرِب منها لايظمأ بعدها أبداً[١] ﴿فِيهَا سُرُرٌ﴾ ألواحها ـ كما عن ابن عباس ـ من ذهبٍ مُكلّلة بالدرّ والياقوت والزَّبَرجد[٢] ﴿مَرْفُوعَةٌ﴾ السَّمك عالية في الهواء، عن النبي ﷺ: ارتفاعها كما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام[٣].

قيل: إذا جاء وليّ الله ليجلس عليها تطامنت له، فاذا استوى عليها ارتفعت[٤]، فيرى جميع ما أعطاه ربّه في الجنّة من النِّعم الكثيرة والمُلك العظيم.

﴿وَ﴾ فيها ﴿أَكْوَابٌ﴾ وأواني لاعُرى لها ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ بين أيدي المؤمنين يشربون منها، لايحتاجون إلى أن يدعوا بها، ولاينافي أن يكون بعض أواني الشُّرب بيد الغِلمان ﴿وَ﴾ فيها ﴿نَمَارِقُ﴾ ووسائد ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضها إلى جنب بعض، كما تشاهد في بيوت الأكابر، يستندون إليها للاستراحة ﴿وَ﴾ فيها ﴿زَرَابِيُّ﴾ وبُسط فاخرة ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ ومبسوطة على السُّرر زينةً وتمتّعاً أو مفرّقة في المجالس.

عن أمير المؤمنين عليه السلام «[لولا] أنّ الله قدّرها لالتمعت[٥] أبصارهم بما يرون»[٦].

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ[١٧ـ ٢٠]

ثمّ لمّا كان حسن حال المؤمنين موقوفاً على معرفة الله والايمان بالمعاد، أمر الناس بالتفكّر في صنائعه العجيبة، ليستدلّو بها على كمال قدرته وحكمته المستلزمين لتوحيده وإعادة الخلق للجزاء على الأعمال بقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ﴾ ولايتفكّرون أنّها ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ قيل: إنّ التقدير: أيُنكِرون ما ذُكِر من البعث ويستبعدون وقوعه عن قدرة الله؟! أفلا ينظُرون نظر الاعتبار إلى الإبل التي نُصب أعينهم، يستعملونها كلّ حينٍ، أنّها كيف خُلِقت خلقاً بديعاً معدولاً به عن سُنن خلق سائر الحيوانات في عِظَم جثّتها، وشدّة قوّتها، وعجيب هيئتها اللائقة بتأتّي ما يصدُر عنها من الأفاعيل الشاقّة، كالنهوض من الأرض بالأوقار الثقيلة، وجرّ الأثقال الفادحة إلى الأقطار النازحة، وفي صبرها على الجُوع والعطش، حتى أن ظمأها يبلُغ العشر فصاعداً، واكتفائها باليسير، ورعيها لكلّ ما يتيسر من شوكٍ وشجرٍ، وغير ذلك ممّا لايكاد يرعاه سائر البهائم، وفي انقيادها مع ذلك للانسان في الحركة

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤١٥.
٢. تفسير الرازي ٣١: ١٥٥.
٣و٤. تفسير روح البيان ١٠: ٤١٥.
٥. في النسخة: لتمتعت.
٦. مجمع البيان ١٠: ٧٢٧، تفسير الصافي ٥: ٣٢٢.

والسكون والبروك والنهوض، حيث يستعملها في ذلك كيف يشاء ويَقتادها بقطارها كلّ صغيرٍ وكبيرٍ، كما قال أبو السعود[1].

وتبول من خلفها، لأنّ قائدها أمامها، فلايترشّش عليه بولها، وعُنقها سُلّم إليها، وتتأثر من المودّة والغرام وتسكر منهما إلى حيث تنقطع من الأكل والشرب زماناً ممتدّاً، وتتأثّر من الأصوات الحَسَنة والحِداء، وتصير من كمال التأثّر إلى حيث تهلِك نفسها من سرعة الجري، ويجري الدمع من عينها عشقاً وغراماً، هذا مع مالها من المنافع من جهة وَبَرها ولحمها ولبنها وبولها وروثها، والجمال الذي يكون فيها، ولمّا كان العرب أعرف من سائر الناس بها، أمرهم بالتفكّر فيها، والاستدلال بعجيب خلقتها على صانعها وحكمته الموجبة للبعث.

قيل: لمّا كانت مسافرة الأعراب على الإبل منفردين[2] وكان مجال التفكّر في الخلوة التي لاشاغل فيها، وهي لهم على ظهر الإبل، وهم حينئذ لايرون إلّا الإبل والسماء والأرض والجبال، أمرهم أولاً بالتفكّر في خلق الإبل[3]، ثمّ في السماء بقوله: ﴿وَإِلَى ٱلسَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ مع عِظَمها رفعاً بعيداً بلا عَمد ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ﴾ العِظام ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ على الأرض نصباً ثابتاً لاتسيل ولاتزول أوتاداً لها ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ البسيطة ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ وبسطت كالأديم للضرب فيها والتقلّب عليها، فمن تفكّر في هذه الأشياء عَلِم بكمال قدرة خالقها وحكمته وتوحيده، وتيقّن بوقوع ما وعده من البعث الذي هو موافقٌ للحكمة البالغة.

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ * إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ[٢١-٢٦]

فلمّا شرحنا الدلائل القاطعة على التوحيد والبعث ﴿فَذَكِّرْ﴾ يا محمد قومك، وأمرهم بالنظر والتفكّر والايمان، وحذّرهم عن تركها، وليس عليك أن يتذكّروا أو لايتفكّروا ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ ومبعوثٌ إلى الناس للتبليغ والتذكير ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم﴾ من قبل ربّك ﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ ومُسلّط حتى تقتلهم أو تُكرههم على النظر والايمان ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عنك وعن تذكارك ﴿وَكَفَرَ﴾ وأصرّ على عِنادك.

قيل: إنّ التقدير فذكّر قومك إلّا من تولّى وكفر منهم فانّه ليس عليك تذكيره لعدم الفائدة فيه[4].

---

١. تفسير أبي السعود ٩: ١٥٠، تفسير روح البيان ١٠: ٤١٦.
٢. في النسخة: منفرداً.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٤١٧.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٤١٨.

وقيل: إنّ الاستثناء منقطعٌ[١]، والمعنى: ولكن من تولّى وكفر[٢] ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ﴾ يوم القيامة ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ في نار جهنّم التي حرّها شديدٌ، وقَعْرها بعيدٌ، ومقامعها حديدٌ، فانّه تعالى قاهرٌ ومسيطرٌ عليهم. واعلم أنّهم لايفوتوننا ولايخرُجون من ملكنا ومن تحت قدرتنا ﴿إِنَّ إِلَيْنَا﴾ بعد الموت ﴿إِيَابَهُمْ﴾ ورجوعهم من الدنيا لاإلى غيرنا. ﴿ثُمَّ﴾ بعد رجوعهم إلينا ﴿إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ في المحشر نُحاسبهم على النَّقير والقِطْمير من عقائدهم وأعمالهم، وفيه تسلية النبي صلى الله عليه وآله.

عن الباقر عليه السلام: «إذا كان يوم القيامة وجمع الله الأولين والآخرين لفصل القضاء، دعا رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا أمير المؤمنين عليه السلام، فيُكسى رسول الله صلى الله عليه وآله حُلّة خضراء تضيء ما بين المشرق والمغرب، ويُكسى عليّ مثلها، ويُكسى رسول الله صلى الله عليه وآله حُلّة وردية يضيء لها ما بين المشرق والمغرب، ويُكسى عليّ عليه السلام مثلها، ثمّ يصعدان عندها، ثمّ يُدعى بنا فيدفع إلينا حساب الناس، فنحن والله نُدخِل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النار النار»[٣].

وعن الكاظم عليه السلام قال: «إلينا إياب الخلق، وعلينا حسابهم، فما كان لهم من ذنبٍ بينهم وبين الله حتمنا على الله في تركه لنا فأجابنا إلى ذلك، وما كان بينهم وبين الناس استوهبناه منهم وأجابوا إلى ذلك وعوّضهم الله عزّوجل»[٤].

وعن الصادق عليه السلام قال: «إذا كان يوم القيامة وكّلنا الله بحساب شيعتنا، فما كان لله سألنا الله أن يهَبَه لنا فهو لهم، وما كان لنا فهو لهم»[٥].

عن الصادق: «من أدمن قراءة ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْغَاشِيَةِ﴾ في فريضة أو نافلةٍ، غشّاه الله برحمته في الدنيا، آتاه الأمن من عذاب النار»[٦].

---

١. تفسير الرازي ٣١: ١٥٩، تفسير روح البيان ١٠: ٤١٨.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٤١٨.
٣. الكافي ٩: ١٥٤/١٥٩، تفسير الصافي ٥: ٣٢٣.
٤. الكافي ٨: ١٦٧/١٦٢، تفسير الصافي ٥: ٣٢٣.
٥. أمالي الطوسي: ٩١١/٤٠٦، تفسير الصافي ٥: ٣٢٣.
٦. ثواب الأعمال: ١٢٢، مجمع البيان ١٠: ٧٢٣، تفسير الصافي ٥: ٣٢٣.

في تفسير سورة الفجر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ * وَٱللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِى ذٰلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ[١ـ٥]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الغاشية المتضمّنة لبيان عظمة يوم القيامة وشدّة عذاب الكفّار فيه، وأمر النبي ﷺ بتذكير الناس وعدم تذكّر المصرّين على الكفر، ووعيدهم بالعذاب الأكبر، وإيابهم في القيامة إليه نُظِمت سورة الفجر المتضمّنة لوعيد الكفّار بما نزل على الأمم السابقة من العذاب الدنيوي، وتذكّرهم في يوم لاينفعهم التذكّر فيه، وإرعاب قلوبهم ببيان بعض أهوال القيامة، وبيان إياب النفوس المطمئنّة إليه، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بالقَسم بما فيه كمال الشرف لدلالته على كمال قدرته جرياً على عادة العرب على ما قيل من إكثار القَسَم على مقاصدهم[١] بقوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ وطلوع نور الشمس من اُفق المشرق المُسمّى بالصبح الصادق، كما عن ابن عباس[٢]، قبالاً للكاذب، وهو ظهور بياض مستطيل بالأُفق كذَنَب السِّرحان، فانّ بطلوع الصبح الصادق انقضاء الليل، وظهور الضوء، وانتشار الناس والحيوانات في طلب الرزق، كنشور الموتى في القيامة للحساب وجزاء الأعمال.

وقيل: إن المراد جميع النهار[٣]. وقيل: إنّ المراد صلاة الفجر؛ لأنّها في أوّل النهار، وفي مشهد ملائكةالليل والنهار[٤]. وقيل: فجر يومالنّحر[٥] الذيهو يومٌ عظيمٌ عندالله وعندالعرب. وقيل: إنّ المراد به فجر أول المحرّم الذي قيل إنّه أعظم الشهور عندالله، وعن ابنعباس، قال: فجر السَّنَة هو مُحرّم[٦].

وقيل: عنى به العيون التي ينفجر منها المياه، وفيها حياة الخلق[٧]. وقيل: إنّه فجر ذي الحجّة لقوله تعالى بعده: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[٨] من ذي الحجّة، فإنّها ليالٍ مخصوصة بفضائل لاتكون في غيرها، كما دلّ

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٢٠.

٢ـ٥. تفسير الرازي ٣١: ١٦١.

٦ـ٨. تفسير الرازي ٣١: ١٦٢.

عليه تنكيرها.

وفي الخبر: ما من أيام العمل الصالح فيها أفضل من أيام العشر[١].

وفي الحديث: «ما من أيّامٍ أزكى عند الله ولاأعظم أجراً من خير عمل في عشر الأضحى» قيل: يا رسول الله، ولا المجاهد في سبيل الله؟ [قال: «لا ولاالمجاهد في سبيل الله] إلّا رجلٌ خرج بنفسه وماله ولم يرجِع من ذلك بشيءٍ»[٢].

وقيل: إنّها العشر الأول من المحرّم[٣]، وقيل: إنّها العشر الأُخر من شهر رمضان[٤]. روي أن النبي ﷺ إذا دخل العشر الأُخر من رمضان شدّ المئزر وأيقظ أهله[٥].

﴿وَٱلشَّفۡعِ﴾ والزوج من الصلوات ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾ والفرد منها. عن عمران بن الحُصين، عن النبي ﷺ قال: «هي الصلوات، منها شَفْع، ومنها وَتْر» قيل: لأنّ الصلاة تالية القرآن»[٦].

وعن القمّي قال: الشفع رَكْعتان، والوَتْر رَكْعة[٧]. أقول: الظاهر أنّ المراد ثلاث ركعات بعد نوافل الليل.

وقيل: الشَّفع: سجدتان، والوَتْر: الركوع[٨].

وقيل: الشفع: يوم النحر، والوَتْر: يوم عرفة[٩]. وقيل: الشفع: يومان بعد يوم النحر، والوَتْر: اليوم الثالث[١٠]. وعنهما عليهما السلام: «الشفع [يوم التروية، والوتر] يوم عرفة»[١١].

وقيل: الشَّفع: جميع الممكنات لأنّها زوج تركيبي، والوَتْر: الواجب الوجود[١٢].

وقيل: الشَّفْع: آدم وحوّاء، والوَتْر: هو الله تعالى[١٣].

وقيل: إن شيئاً من المخلوقات لاينفكّ عن كونه زوجاً أو فرداً، فأقسم سبحانه بجميع الموجودات[١٤].

وقيل: الشَّفْع: أبواب الجنّة أو درجاتها، وهي ثمانية، والوَتْر: أبواب النار ودَركاتها، وهي سبعة[١٥].

وعن مقاتل الشَّفْع: هو الأيام التي لها ليالٍ، والوَتْر: اليوم الذي لاليل له، وهو يوم القيامة[١٦]. وقيل وجوه أُخر كلّها على الظاهر من التفسير بالرأي.

---

١. تفسير الرازي ٣١: ١٦٢.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٤٢٠.
٣. تفسير الرازي ٣١: ١٦٢.
٤. تفسير الرازي ٣١: ١٦٢، تفسير روح البيان ١٠: ٤٢٠.
٥. تفسير الرازي ٣١: ١٦٢، وفي النسخة: والقيظ.
٦. تفسير الرازي ٣١: ١٦٣، وفيه: تالية للايمان.
٧. تفسير القمي ٢: ٤١٩، تفسير الصافي ٥: ٣٢٤.
٨. تفسير الرازي ٣١: ١٦٤.
٩ و١٠. تفسير الرازي ٣١: ١٦٢.
١١. مجمع البيان ١٠: ٧٣٦، تفسير الصافي ٥: ٣٢٤.
١٢ـ١٤. تفسير الرازي ٣١: ١٦٣.
١٥. تفسير الرازي ٣١: ١٦٤.
١٦. تفسير الرازي ٣١: ١٦٣.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ ويمضي وينقضي. وقيل: يعني إذا جاء وأقبل[١]، وعن القمي: هو ليلة جَمع[٢].
ثمّ أظهر سبحانه فَخامة هذه الأشياء التي أقسم بها بقوله: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأشياء الجليلة الحقيقة بالإعظام ﴿قَسَمٌ﴾ مُعتدّ به موجبٌ للاعتماد عليه ﴿لِّذِى حِجْرٍ﴾ وصاحب عقلٍ مُنوّر وفكرٍ صائب وإدراكٍ قويّ، والمقسم عليه مقدّر معلوم وهو: ليعذّبن الكفّار.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَادِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا ٱلصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ[٦ـ ١٠]

ثمّ استشهد سبحانه بما فعل بالأمم المكذّبة بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد حينما كنت في عالم الأشباح مطّلعاً على الوقائع في العالم، أو المعنى: ألم تعلم بالوحي ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ قوم هودٍ، وبأيّ عذابٍ شديدٍ عذّبهم؟ أعني من عاد؟ ﴿إِرَمَ﴾ قيل: إنّه اسم لعاد الأُولى، سُمّوا باسم جدّهم، وهو إرم بن سام بن نوح[٣]. والتقدير: سبط إرم، أو أهل إرم، على ما قيل[٤]، من أنّ إرم اسم بلدتهم أو أرضهم التي كانوا يَسْكُنونها، وهي على ما قيل بين عُمان وحَضْرَ موت[٥]، وعلى أي تقدير كانوا قبيلة.
﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ وقُدود طوال تشبيهاً لقاماتهم بالأعمدة والأساطين ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ﴾ نظير تلك القبيلة و ﴿مِثْلُهَا﴾ في القوّة وعِظم الجسم وطول القامة ﴿فِى ٱلْبِلَادِ﴾ التي على وجه الأرض.
وقيل: إنّ الوصفين لمدينتهم التي بناها شدّاد بن عاد[٦]، وقد وصفوها بأوصاف تقرع الأسماع. روي أنّ لعاد ابنين: شديد، وشدّاد، فملكا وقهرا، ثمّ مات شديد، وخلص الأمر لشدّاد، فملك جميع الدنيا، ودانت له ملوكها، فسَمِع بذكر الجنّة فقال: أبني مثلها، فبنى إرم في بعض صحارى عدن في ثلاثمائة سنة، وكان عمره تسعمائة سنة، وهي مدينةٌ عظيمةٌ، قصورها من الذهب والفِضّة، وأساطينها من الزّبرجد والياقوت، وفيها أصناف الأشجار والأنهار، فلمّا تمّ بناؤها سار إليها بأهل مملكته، فلمّا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحةً من السماء فهلكوا[٧]، ثمّ غاب البلد عن أعين الناس جميعاً.
﴿وَثَمُودَ﴾ وهم قوم صالح ﴿ٱلَّذِينَ جَابُوا﴾ وقطعوا ﴿ٱلصَّخْرَ﴾ والحجر الشديد الصلابة بقوتهم

١. تفسير الرازي ٣١: ١٦٤.
٢. تفسير القمي ٢: ٤١٩، تفسير الصافي ٥: ٣٢٤، وجَمْع: هو المزدلفة، سمّي جمعاً لاجتماع الناس فيه.
٣. تفسير الرازي ٣١: ١٦٦، تفسير روح البيان ١٠: ٤٢٢ و٤٢٣.
٤ ـ٦. تفسير روح البيان ١٠: ٤٢٣.
٧. تفسير الرازي ٣١: ١٦٧، تفسير أبي السعود ٩: ١٥٤.

﴿بِالْوَادِ﴾ والمنفرج بين الجبلين. قيل: هو وادي القُرى بالقرب من المدينة من جهة الشام[١].

عن ابن عباس: أنّهم كانوا يجعلون من الصخور بيوتاً وأحواضاً وما أرادوا من الأبنية[٢].

قيل: أول من تحت الجبال والصخور والرُّخام ثمود، وبنوا ألفاً وسبعمائة مَدينة كلّها من الحجارة[٣].

﴿وَ﴾ ألم تر كيف عذّب الله ﴿فِرْعَوْنَ﴾ ملك مصر، وكان ملقّباً بلقب ﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ وقيل: لكثرة جنوده وخِيامهم التي يضرِبونها في منازلهم ويربِطونها بالأوتاد[٤].

وعن ابن عباس: أنّ فرعون إنّما سمّي ذي الأوتاد لأنّ امرأة خازنة كانت ماشطة بنت فرعون، إذ سقط المِشط من يدها فقالت: تَعِسَ من كفر بالله تعالى: فقالت ابنة فرعون: وهل لك إله غير أبـي؟ فقالت: إلهي وإله أبيك وإله السماوات والأرض واحدٌ لاشريك له. فقامت ودخلت على أبيها وهي تبكي فقال: ما يبكيك؟ قالت: إنّ الماشطة امرأة خازنك تزعُم أنّ إلهها وإلهك وإله السماوات والأرض واحدٌ لاشريك له، فأرسل إليها فسألها عن ذلك، فقالت: صدقت. فقال لها: ويحك اكفُري بإلهك. قالت: لاأفعل، فمدّها بين أربعة أوتاد، ثمّ أرسل إليها الحيات والعقارب، وقال: اكفُري بالله وإلّا عذّبتك بهذا العذاب شهرين. فقالت: لو عذّبتني سبعين شهراً ما كفرت به. وكانت لها بنتان، فجاء بابنتها الكبرى فذبحها على فيها، وقال لها: اكفُري بإلهك وإلّا ذبحت الصغرى على فيك أيضاً، وكانت رضيعة، فقالت: لو ذبحت مَن في الأرض على فيّ ما كفرت بالله. فأتى بابنتها، فلمّا أُضجعت على صدرها وأرادوا ذبحها جَزِعت المرأة، فأطلق الله لسان ابنتها فتكلّمت، وهي من الأربعة الذين تكلّموا أطفالاً، وقالت: يا أُمّاه لاتجزعي، فانّ الله قد بنى لك بيتاً في الجنة، اصبري فانّك تفيضين إلى رحمة الله تعالى وكرامته. فذُبِحت فلم تَلْبَث أن ماتت وأسكنها الله في جوار رحمته[٥].

ٱلَّذِينَ طغَوْا فِى ٱلْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ[١١ـ١٤]

ثمّ بيّن سبحانه علّة استحقاقهم العذاب بقوله: اولئك الطوائف والأُمم ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا﴾ على الله ﴿فِى ٱلْبِلَادِ﴾ فانّ عاد طَغَوا في بلاد اليمن، وثمود في بلاد الشام، وفرعون في بلاد مِصر ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾ بالكفر والعصيان والظلم على العباد ﴿فَصَبَّ﴾ الله وأراق ﴿عَلَيْهِمْ﴾ من فوقهم ﴿رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ شديد، وإنّما عبّر عن عذابهم بالسوط تنبيهاً على أنّ نسبته إلى عذاب الآخرة كنسبة

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٢٥.
٢. تفسير الرازي ٣١: ١٦٧.
٣. تفسير الرازي ٣١: ١٦٧.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٤٢٥.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٤٢٥.

السوط إلى السيف.

وقيل: لمّا كان الضرب بالسوط عند العرب أشدّ العذاب عَبّروا عن العذاب بالسوط، والتعبير عن إنزاله بالصبّ للإيذان بكثرته وتتابعه واستمراره[١].

ثمّ بيّن سبحانه أنّه مراقب لأعمال عباده بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَبِالْمِرْصَادِ﴾ وفي المكان الذي تترقّب فيه السائلة ليَظْفَر بالجائي ولأخذ المقصّر بحيث لايفوته أحد، فيعاقب قومك على طُغيانهم وعِصيانهم كما عاقب غيرهم من الأمم المكذّبة للرسل.

فَأَمَّا ٱلْإِنسَانُ إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ * كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ[١٥ـ١٨]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان كونه مراقباً لأعمال العباد ومجازاتهم، بيّن عدم اعتناء الانسان بذلك، لانهماكه بلذائذ الدنيا بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَانُ﴾ فهو غافلٌ عن ذلك ولذا ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ وامتحنه ﴿فَأَكْرَمَهُ﴾ بالجاه والثروة ﴿وَنَعَّمَهُ﴾ ووسّع عليه في رزقه، ليظهر أنّه شاكرٌ أو كافرٌ ﴿فَيَقُولُ﴾ مفتخراً: ﴿رَبِّى أَكْرَمَنِ﴾ وفضّلني على غيري بالمال والجاه، ويغترّ بذلك، ولا يخطِر بباله أنّه امتحانٌ وابتلاء ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ٱبْتَلَاهُ﴾ بالفقر ﴿فَقَدَرَ﴾ وضيق ﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ ليظهر أنّه صابرٌ أو جزوعٌ ﴿فَيَقُولُ﴾ تضجّراً: ﴿رَبِّى أَهَانَنِ﴾ وأذلني بالفقر، ولايخطِر بباله أنّه امتحانٌ.

وعلى أيّ تقدير ليس له توجّه إلى الآخرة، ولايلتفت إلى أنّ إقبال الدنيا ليس إكراماً من الله، وإدبارها ليس إهانة من الله، لذا رَدَع الانسان عن توهّماته بقوله: ﴿كَلَّا﴾ ليس ما يقول في الحالين حقّاً وصواباً.

ثمّ التفت سبحانه إلى خطاب الكفّار تشديداً لتقريعهم ببيان سوء أفعالهم بعد بيان سوء أقوالهم بقوله: ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ﴾ أيّها الأشقياء ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾ الذي يجب إكرامه بالرعاية وإعطاء النفقة ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ﴾ ولاتُحرّضون غيركم ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ لشدّة بُخلكم فضلاً عن أنْ تُطعموه من أموالكم.

قيل: كان قُدامة بن مظعون يتيماً في حِجر اُمية بن خَلف، فكان يدفعه عن حقّه، فنزلت الآيات[٢].

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٢٦.

٢. تفسير الرازي ٣١: ١٧١، تفسير روح البيان ١٠: ٤٢٩.

وعن ابن عباس: أنّها نزلت في عُتبة بن ربيعة وأبي حُذيفة بن المُغيرة[1].

وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبّاً جَمّاً * كَلَّا إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكّاً دَكّاً * وَجَاءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً * وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي * فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ * وَلاَ يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ[١٩-٢٦]

ثمّ بالغ سبحانه في تقريعهم بقوله: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ﴾ وتتصرّفون في الميراث، الذي لليتامى، أو في ميراث مُورِثكم ﴿أَكْلاً﴾ وتصرّفاً ﴿لَمّاً﴾ وجامعاً بين الحلال من إرثكم والحرام الذي هو حقّ اليتامى، أو بين الحلال والحرام ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ﴾ والأمتعة الدنيوية ﴿حُبّاً جَمّاً﴾ وكثيراً، وتحرِصون على جمعه وحفظه حرصاً شديداً، وتغفُلون عن الموت والآخرة.

﴿كَلَّا﴾ لاينبغي أن تكونوا بهذه الدرجة من الغَفلة عن الآخرة، واذكروا أهوال يوم القيامة ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ ودقّت بالزلازل ﴿دَكّاً﴾ هائلاً و ﴿دَكّاً﴾ متتابعاً حتى تكون هباءً منبعثاً، فلا يبقى عليها جبلٌ ولا تلٌّ فضلاً عن الأبنية والعمارات ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ وظهر قهره، أو صدر أمره بالمحاسبة والمجازاة، أو ظهرت آثار قدرته ومهابة سلطانه. ﴿وَ﴾ جاء ﴿ٱلْمَلَكُ﴾ في العرصات من كلّ سماءٍ، ويقومون حول المحشر حال كونهم ﴿صَفّاً﴾ طويلاً و ﴿صَفّاً﴾ آخر بعد ذلك الصفّ. قيل: تكون صفوفهم سبعة على عدد السماوات[2] ﴿وَجِيءَ﴾ بتوسّط الملائكة الغلاظ الشداد ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وحين ظهور سلطان الله وقهره ﴿بِجَهَنَّمَ﴾ في مرأى الخلق.

عن ابن مسعود، قال: تُقاد جهنّم بسبعين ألف زِمام، معه سبعون ألف مَلَك، يجرّونها حتى تُنْصَب عن يسار العرش، لها تغيّظ وزفير، فتشرُد شردةً لو تُرِكت لأحرقت أهل الجمع، ويجثو كلّ نبيٍ ووليّ من الهول والهيبة على رُكبته، ويقول: نفسي، حتّى يعترض لها رسول الله ﷺ ويقول: «أُمّتي أُمّتي» فتقول النار: مالي ولك يا محمد، لقد حرّم الله لحمك عليّ[3].

وعن الباقر عليه السلام قال: «لمّا نزلت هذه الآية ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ سُئل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: أخبرني الرُّوح الأمين أن[4] الله لا إله غيره إذا برز الخلائق وجمع الأولين والآخرين، أتى بجهنّم تُقاد بألف زِمام، أخذ بكلّ زِمام مائة ألف تقودها من الغِلاظ الشِّداد، لها هدّة وغضب وزفير وشهيق،

---

١. تفسير الرازي ٣١: ١٧٠.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٤٣٠.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٤٣٠.
٤. في النسخة: قال.

وإنّها لتزفِر زفرةً، فلولا أنّ الله أخّرهم للحساب لأهلكت الجمع، ثمّ يخرُج منها عُنقٌ فتُحيط بالخلائق البِرّ منهم والفاجر، ما خلق الله عبداً من عباد الله مَلَكاً ولانبياً إلّا ينادي: نفسي نفسي، وأنت يا نبي الله تنادي: أُمّتي أُمّتي، ثمّ يُوضع عليها الصِّراط أدقّ من الشّعر، وأحدّ من حدّ السيف، عليه ثلاث قناطر، فأمّا واحدة فعليها الأمانة والرَّحِم، والثانية فعليها الصلاة، والثالثة فعليها ربّ العالمين لا إليه غيره، فيُكلّفون الممرّ عليها، فيحبِسهم الرَّحم والأمانة فان نَجَوا منهما حَبَستهم الصلاة، فان نَجَوا منها كان المُنتهى إلى ربّ العالمين، وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ والناس على الصِّراط، فمتعلّق بيدٍ وتزِلّ قدم ويستمسك بقدم، والملائكة حولها ينادون: يا حليم اعفُ وصفَح وعُد بفضلك وسلّم، والناس يتهافتون في النار كالفَراش فيها، فاذا نجا ناجٍ فبرحمة الله مرّ بها فقال: الحمد لله وبنعمته تتِمّ الصالحات وتزكو الحسنات، والحمد لله الذي أنجاني منك بعد إياس بمنّة وفضله، إنّ ربي لغفورٌ شكور»[١].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ﴾ ويتّعظ ويندَم ﴿الْإِنسَانُ﴾ على ما فرّط في جنب الله ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ وأي نفعٍ له في الاتّعاظ والنَّدم بعد فوات أوانه؟ و ﴿يَقُولُ﴾ تندّماً وتحسّراً ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ﴾ وأتيت بطاعة الله ورسله، وعَمِلت بما كُلّفت به من قبلهم ﴿لِحَيَاتِي﴾ هذه ويوم بعثي هذا أو في وقت حياتي في الدنيا أعمالاً تُنجيني اليوم من العذاب.

﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ وحين انتقام الله من العُصاة ﴿لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ فان شدّة عذابه فوق ما يتصوّر ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ﴾ ولايَشدّ بالعمل والأغلال مثل شدّة ﴿أَحَدٌ﴾ فانّ شدّه بسلسلةٍ ذرعها سبعون ذراعاً.

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي[٢٧ ـ ٣٠]

ثمّ لمّا ذكر سبحانه سوء حال النفوس الشقيّة الأمّارة بالسوء، ذكر حال النفوس الطيّبة الزكيّة وسعادتها بقوله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ بذكر الله الساكنة في جِوار رحمة الله ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ﴾ ما أعدّ لك من كرامة ﴿رَبِّكِ﴾ الكريم وثوابه العظيم حال كونك ﴿رَاضِيَةً﴾ بما أعدّ الله لك من الجنّة والقُصور العالية والنِّعم الباقية ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عند الله ﴿فَادْخُلِي فِي﴾ زُمرة ﴿عِبَادِي﴾ الصالحين المخلصين ﴿وَادْخُلِي﴾ معهم في ﴿جَنَّتِي﴾.

قيل: إذا أراد الله قبضها اطمأنّت إلى الله، ورضيت عن الله، ورضي الله عنها[٢].

---

١. تفسير القمي ٢: ٤٢١، تفسير الصافي ٥: ٣٢٦.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٤٣٢.

وعن ابن عمر قال: إذا تُوفّي العبد المؤمن أرسل الله مَلَكين، وأرسل إليه تُحفةً من الجنة فيقال لها: اخرُجي أيّتها النفس المطمئنة إلى رُوحٍ وريحانٍ وربّ عنك راضٍ، فتخرُج كأطيب ريح مسك وجده أحدٌ في أنفه، والمَلَك على أرجاء السماء يقولون: قد جاء من الأرض رُوحٌ طيبة ونسمةٌ طيبةٌ، فلا تَمُرّ ببابٍ إلّا فُتِح لها، ولابمَلَكٍ إلّا صلّى عليها، حتّى يُؤتى بها إلى الرحمن، ثمّ يقال لميكائيل: اذهب بهذه فاجعلها مع أنفس المؤمنين.

ثمّ يؤمر فيوسّع عليه قبره سبعون ذراعاً [عرضه، سبعون ذراعاً] طوله، ويُنبَذ له فيه الريحان، فـان كان معه شيءٌ من القرآن كفاه نوره، وإن لم يكن جعل له نورٌ مثل نور الشمس في قبره، فيكون مثله مثل العروس ينام ولايُوقظه إلّا أحبّ أهله[١].

وعن سعيد بن جُبير قال: مات ابن عباس بالطائف، فشَهِدت جِنازته، فجاء طائرٌ لم يُر مثله وعلى خلقته، فدخل نعشه، ثمّ لم يُر خارجاً منه فلمّا دُفِن تُلِيت هذه الآية على شفير قبره لايُرى من تلاها: ﴿يَا أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾[٢].

عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل: هل يُكرَه المؤمن على قبض روحه؟ قال: «لاوالله، إنّـه إذا أتـاه مَـلَك الموت لقبض رُوحه جزع لذلك، فيقول له مَلَك الموت: يا وليّ الله لاتَجْزَع، فوالذي بعث محمداً لأنا أبرّ بك وأشفق عليك من والدٍ رحيمٍ لو حضرك، افتح عينيك فانظُر، فيُمثّل [له] رسول الله صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة عليهم السلام من ذُرّيتهم، فيقال له: هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام رفقاؤك، فيفتح عينيه فينظُر، فينادي رُوحه منادٍ من قبل ربّ العزّة فيقول: يا أيتها النفس المطمئنة إلى محمد وأهل بيته، ارجعي إلى ربّك راضيةً بالولاية مرضيةً بالثواب، فادخلي في عبادي يعني محمداً وأهل بيته ـ وادخُلي جنّتي. فما من شيءٍ أحبّ إليه من استلال روحه واللُّحوق بالمنادي»[٣].

وعنه عليه السلام في هذه الآية: «يعني الحسين بن علي عليهما السلام»[٤].

وعنه عليه السلام: «اقرءوا سورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم، فانّها سورة الحسين بن علي عليهما السلام، مـن قرأها كان مع الحسين عليه السلام يوم القيامة في درجته من الجنة»[٥].

ومنّ الله علينا بالتوفيق لتلاوتها، كما منّ لاتمام تفسيرها.

١و٢. تفسير روح البيان ١٠: ٤٣٢.
٣. الكافي ٣: ٢/١٢٧، تفسير الصافي ٥: ٣٢٨.
٤. تفسير القمي ٢: ٤٢٢، تفسير الصافي ٥: ٣٢٨.
٥. ثواب الأعمال: ١٢٣، مجمع البيان ١٠: ٧٣٠، تفسير الصافي ٥: ٣٢٨.

في تفسير سورة البلد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لاَ أُقْسِمُ بِهٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ[١ـ٥]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الفجر المتضمّنة للّوم على الحرص على من جمع مال الدنيا وترك الاحسان إلى اليتيم والمسكين، اُردفت سورة البلد المتضمّنة للّوم عليهما، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأ بالحَلْف بمكّة المشرّفة بقوله: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ الحرام. قيل: إنّ حرف لا زائدة جيء بها لتأكيد القسم، فانّ العرب تقول: لاوالله ما فعلت، أو لاوالله لأفعلن[1]. ويُحْتَمل أن تكون ناهية، والمعنى: لاتتوهّموا أن يكون الواقع خلاف ما أقول، اُقسم بهذا البلد المعظّم ﴿وَأَنتَ﴾ يا محمد ﴿حِلٌّ﴾ ومقيمٌ ﴿بِهٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ ونازلٌ فيه، فزيد بهذا شرفه.

وقيل: يعني وأنت مع نهاية حرمتك حلال الدم والعِرض عند المشركين بهذا البلد ولايحِلّ عندهم قتل شيءٍ من الطيور والوحوش والحشرات[2].

عن الصادق عليه السلام قال: «كانت قريش تعظّم البلد وتستحلّ محمداً فيه، فقال الله: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ يُريد أنّهم استحلّوك فيه، فكذّبوك وشتموك، وكان لايأخُذ الرجل منهم قاتل أبيه، ويتقلّدون لِحاء شجرة الحرم فيأمنون بتقليدهم إيّاه، فاستحلوا من رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يستحلّوا من غيره، فعاب الله عليهم»[3].

﴿وَوَالِدٍ﴾ عظيم الشأن، قيل: إنّ المراد إبراهيم[4] ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ من إسماعيل وإسحاق ويعقوب وذريّتهما. وقيل: محمد وذُريّته[5]، وإيثار كلمة ﴿مَا﴾ على ﴿مَن﴾ لمعنى التعجّب ممّا أعطاهم الله من الكمال، كذا قيل[6].

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٣٣.
٢. تفسير الرازي ٣١: ١٧٩.
٣. مجمع البيان ١٠: ٧٤٧، تفسير الصافي ٥: ٣٢٩.
٤. تفسير أبي السعود ٩: ١٦٠.
٥. جوامع الجامع: ٥٤٢.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٤٣٤.

وعن الصادق عليه السلام: «يعني آدم وما ولد من الأنبياء والأوصياء وأتباعهم»[١]. [وفي الكافي مرفوعاً قال][٢]: «أمير المؤمنين ومن ولد من الأئمة عليهم السلام»[٣].

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِى كَبَدٍ[٤]

ثمّ ذكر سبحانه المُقسَم عليه بقوله: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ﴾** حال كونه من أوّل خلقه مستغرقاً **﴿فِى كَبَدٍ﴾** وتَعبٍ ومشقّة. وقيل: يعني في الشدّة، وهي شدائد الدنيا من صعوبة ولادته، وقطع سُرّته، وحبسه في القِماط، وإيذاء المربّي والمعلّم، وزحمة التكسّب والتزوّج والأولاد والخدم وجمع الأموال، وتهاجم الأوجاع والهموم والغموم، كالابتلاء بالتكاليف الإلهية إلى غير ذلك من الشدائد[٤].

وقيل: إنّ المراد في شدّة الخلق والقوة[٥].وقيل: يعني في الاستواء والاستقامة[٦].

عن الصادق عليه السلام أنّه قيل له: إنّا نرى الدوابّ في بطون أيديها الرقعتين مثل[٧] الكيّ، فمن أيّ شيءٍ ذلك؟ فقال: «ذلك موضع مَنْخِريه في بطن أُمّه، وأمّا ابن آدم فرأسه متنصبٌ في بطن أُمّه، وذلك قول الله تعالى: **﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِى كَبَدٍ﴾** وما سوى بن آدم فرأسه في دُبره، ويداه بين يديه»[٨].

وعن ابن عباس، قال: **﴿فِى كَبَدٍ﴾** أي قائماً منتصباً، والحيوانات الأُخر تمشي مُنكسة، فهذا امتنانٌ عليه بهذه الخِلقة[٩].

ثمّ لايخفى أنّ في الآية بناءً على التفسير الأول تسلية النبي صلى الله عليه وآله في مكابدة الأعداء من كفّار قريش.

أَيَحْسَبُ أَن لَن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً * أَيَحْسَبُ أَن لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ[٥-٧]

ثمّ ذمّ سبحانه الانسان بقوله: **﴿أَيَحْسَبُ﴾** ويتوهّم من ضَعفه وابتلائه بالشدائد على التفسير الأول، أو بالنظر إلى شدّة خلقه وقوّته على الثاني **﴿أَن لَن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾** بأن يُجازيه على سيئاته، أو بأن يغيّر أحواله ويمنعه عن مراداته؟! بلى إنّ الله القادر على كلّ شيءٍ قادرٌ على تعذيبه والانتقام منه، أو على تعجيزه ومنعه عن مراداته.

ثمّ إنّ هذا الكافر المدّعي لكمال القدرة والقوة **﴿يَقُولُ﴾** مفتخراً: إني **﴿أَهْلَكْتُ﴾** وصرفت في

---

١. مجمع البيان ١٠: ٧٤٧، تفسير الصافي ٥: ٣٢٩.
٢. في النسخة: وعن.
٣. الكافي ١: ١١/٣٤٢، تفسير الصافي ٥: ٣٢٩.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٤٣٤.
٥ و٦. تفسير الرازي ٣١: ١٨١.
٧. في النسخة: قبل.
٨ علل الشرائع: ١/٤٩٥، تفسير الصافي ٥: ٣٣٠.
٩. تفسير الرازي ٣١: ١٨٢.

عداوة محمد ﴿مَالاً لُبَداً﴾ وكثيراً.

عن الصادق عليه السلام: «قال عمرو بن عبدودّ حين عرض عليه علي بن أبي‌طالب عليه السلام الإسلام يوم الخندق: فأين ما أنفقت فيكم من مال لُبَد؟ وكان أنفق مالاً في الصدّ عن سبيل الله، فقتله علي عليه السلام»[١].

ثمّ وبّخه سبحانه على إنفاقه وهدّده بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ﴾ هذا الكافر المباهي بإنفاقه ﴿أَن لَمْ يَرَهُ﴾ حين إنفاقه الشنيع ﴿أَحَدٌ﴾ بلى إنّ الله رآه وساءله يوم القيامة عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه. وقيل: إنّه كان كاذباً لم يُنفق شيئاً، فقال الله تعالى: أيظنّ هذا الكافر أنّ الله ما رأى ذلك منه، فعل أولم يفعل، أنفق أم لم يُنفق. بلى رآه وَعلِم منه خلاف ما قال[٢].

أَلَمْ نَجْعَل لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ * فَلاَ ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ[٨ـ١٦]

ثمّ لمّا حكى سبحانه إنكار الكافر قدرة الله عليه ورؤيته إياه، أقام الدليل عليها بقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَهُ﴾ بقدرتنا ﴿عَيْنَيْنِ﴾ يُبصِر بهما ويرى، فكيف يُمكن أن يكون مُعطي الرؤية فاقداً لها ولا يراه؟ ﴿وَ﴾ ألم نجعل له ﴿لِسَاناً وَشَفَتَيْنِ﴾ ينطِق بها، فكيف ينبغي أن يتكلّم بها الكلمات الشنيعة غير المرضية لمعطيها؟ ﴿وَهَدَيْنَاهُ﴾ بعد اتمام النعمة عليه بتكميل خلقه وقواه ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ والطريقين الواضحين إلى خيره وشرّه.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «سُبل الخير، وسُبل الشرّ»[٣].

وعن الصادق عليه السلام: «نَجْد الخير والشّر»[٤].

﴿فَلاَ ٱقْتَحَمَ﴾ وما دخل شُكراً لتلك النِّعم الجليلة ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ والأعمال الصالحة التي هي الطريق إلى كلّ خيرٍ، وإنّما أطلق عليها العقبة ـ التي هي الطريق الصعب السلوك في الجبل ـ لصعوبة سُلوكها.

ثمّ عظّم العقبة بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأي شيءٍ أعلمك يا محمد ﴿مَا﴾ تلك ﴿ٱلْعَقَبَةُ﴾؟ فانّ المراد بها ليس العقبة المعروفة، إنّما هي ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وإعتاق المملوك، والدخول فيها الاقدام عليه ﴿أَوْ إِطْعَامٌ﴾ وإشباعٌ من المأكول ﴿فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ وفي زمان غلاء وقَحط، فانّ الصرف في هذا الزمان أثقل على النفس وأوجب للأجر ﴿يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ وصاحب رحمٍ فاقد إطعامه أفضل

---

١. تفسير القمي ٢: ٤٢٢، عن أبي جعفر عليه السلام، تفسير الصافي ٥: ٣٣٠.
٢. تفسير الرازي ٣١: ١٨٣.
٣. مجمع البيان ١٠: ٧٤٨، تفسير الصافي ٥: ٣٣١.
٤. الكافي ١: ٤/١٢٤، تفسير الصافي ٥: ٣٣١.

لاشتماله على الصدقة وصلة الرَّحِم ﴿أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ وفاقة. عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ «الذي مأواه المزابل»[١] وعن ابن عباس: يعني البعيد التربة، يعني الغريب[٢]. وفي الحديث: «الساعي على الأرملة والمساكين كالساعي في سبيل الله. وكالقائم لا يفتُرُ، والصائم لا يُفطِر»[٣].

عن الصادق عليه السلام: «من أطعم مؤمناً حتى يُشبعه، لم يدرِ أحدٌ من خلق الله ماله من الأجر في الآخرة لامَلَك مُقرّب ولانبيّ مرسل إلّا الله ربّ العالمين» ثمّ قال: «من موجبات المغفرة إطعام المسلم السَّغبان» ثمّ تلا هذه الآية[٤].

وعن الرضا عليه السلام: أنّه إذا أكل أتى بصَحْفة فتوضع قُرب مائدته، فيعمد إلى أطيب الطعام بما يُؤتى به فيأخُذ من كلّ شيءٍ فيضع في تلك الصَّحْفَة، ثمّ يأمُر بها للمساكين، ثمّ يتلو هذه الآية، ثمّ يقول: «عَلِم الله أنّه ليس كلّ إنسانٍ يقدِر على عتق رقبة، فجعل لهم السبيل إلى الجنّة»[٥].

وعن الصادق أنّه سئل عن هذه الآية فقال: «من أكرمه الله بولايتنا فقد جاز العَقَبة، ونحن تلك العَقَبة التي من اقتحمها نجا» ثمّ قال: «الناس كلّهم عبيد النار غيرك وأصحابك فانّ الله فكّ رقابكم من النار بولايتنا أهل البيت»[٦].

وعنه عليه السلام: «بنا تُفَكّ الرقاب وبمعرفتنا، ونحن المُطْعِمون في يوم الجُوع وهو المَسْغَبة»[٧].

ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولٰـئِكَ أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ[١٧ـ٢٠]

ثمّ بيّن سبحانه شرط قَبول تلك الأعمال بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ﴾ ذلك الذي يفُكّ الرقبة ويُطعِم اليتيم والمسكين ﴿مِنَ﴾ زُمرة ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورُسله واليوم الآخر ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ وأمروا أقرباءهم وأصدقاءهم ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على طاعة الله ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ والعُطوفة بعباد الله، أو بموجبات رحمة الله من الخيرات والصالحات. وذكر كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للدلالة على تراخي رُتبة الايمان على تلك الأعمال، ورفعة محلّه بالنسبة إليها.

﴿أُولٰئِكَ﴾ المتّصفون بالصفات المذكورة هم يوم القيامة ﴿أَصْحَابُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ يُعطون كتبهم بأيمانهم، أو نَسْلُك بهم من الطريق الأيمن إلى الجنة، أو هم أهل اليُمن والخير والسعادة، أو القائمون

١ـ٣. تفسير روح البيان ١٠: ٤٣٨.
٤. الكافي ٢: ٦/١٦١، تفسير الصافي ٥: ٣٣١.
٥. الكافي ٤: ١٢/٥٢، تفسير الصافي ٥: ٣٣١.
٦. الكافي ١: ٨٨/٣٥٧ تفسير الصافي ٥: ٣٣١.
٧. تفسير القمي ٢: ٤٢٣، تفسير الصافي ٥: ٣٢٢.

عن يمين المحشر، أو يمين العرش.

﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا**﴾ ودلائل توحيدنا ورسالة رسولنا ﴿**هُمْ أَصْحَابُ ٱلْمَشْأَمَةِ**﴾ وأهل الشؤم والشرّ والشقاوة، أو هم الذين يُعطون كتابهم بشمائلهم، أو وراء ظهورهم ﴿**عَلَيْهِمْ**﴾ يوم القيامة ﴿**نَارٌ**﴾ أبوابها ﴿**مُّؤْصَدَةٌ**﴾ ومُطْبَقة لايُفتح لهم باب، فلايخرج منها غمّ، ولايدخل فيها روح أبداً، أو المراد نارٌ محيطة بهم.

عن الصادق عليه السلام: «من كان قراءته في فريضة ﴿**لاَ أُقْسِمُ بِهٰذَا ٱلْبَلَدِ**﴾ كان في الدنيا معروفاً [أنه من الصالحين، وكان في الآخرة معروفاً] أنّ له من الله مكاناً، وكان يوم القيامة من رفقاء النبيين والشهداء والصالحين»[١].

---

١. ثواب الأعمال: ١٢٣، مجمع البيان ١٠: ٧٤٣، تفسير الصافي ٥: ٣٣٢.

في تفسير سورة الشمس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا * وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَٱلسَّماءِ وَمَا بَنَاهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا[١ـ٨]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة البلد المتضمّنة لمنّته سبحانه على الانسان بخلقه في كَبَد واستقامة، وبهدايته إلى الخير والشرّ، وترغيبه إلى الايمان والأمر بالمعروف، وتهديد الكفّار المكذّبين بعذاب الآخرة، نُظِمت سورة الشمس المتضمّنة لمنته على الانسان بتعديل خلقه وإلهامه فُجوره وتقواه وترغيبه إلى تزكية نفسه المتوقفة على الايمان والعمل، وتهديد الكفار، فافتتحها بقوله: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**﴾.

ثمّ ابتدأها بالقسم بقوله: ﴿**وَٱلشَّمْسِ**﴾ التي فيها فضل عظيم ومنافع عظيمة لموجودات عالم المُلك ﴿**وَضُحَاهَا**﴾ وارتفاع نورها واشتداد ضوؤها، وهو قريب من نصف النهار ﴿**وَٱلْقَمَرِ**﴾ الذي هو بَعد الشمس أنفع الكواكب ﴿**إِذَا**﴾ تبع الشمس وحين ﴿**تَلاَهَا**﴾ ويطلُع بعد غروبها.

عن ابن عباس: هو في النصف الأول من الشهر[١] بعدما سمّي قمراً. وقيل: يعني إذا تَبِعها وصار مثلها في الاستداره وكمال النور، وهي في الليالي البيض[٢].

﴿**وَٱلنَّهَارِ إِذَا**﴾ ظهر الشمس وحين ﴿**جَلاَّهَا**﴾ قيل: إن الضمير راجع إلى الظُّلمة[٣] وتجليتها إذهابها. وقيل: إلى الدنيا، أو إلى الأرض، وإن لم يسبِق لهما ذكر[٤] لمعلوميتها، وتجليتهما إنارتهما[٥].

﴿**وَٱللَّيْلِ إِذَا**﴾ يُغطّي الشمس و ﴿**يَغْشَاهَا**﴾ ويذهب نورها، فكأنّ الليل بظلمته[٦] صار سبباً لغروب الشمس وزوال ضوئها، ولذا حسن القول بأنّ النهار يجلّيها ﴿**وَٱلسَّماءِ**﴾ المُظِلّ على الأرض ﴿**وَمَا**

١و٢. تفسير الرازي ٣١: ١٨٩.

٣و٤. تفسير الرازي ٣١: ١٩٠.

٥. في النسخة: لمعلوميتها، وتجليتها إنارتها.

٦. في النسخة: تظلمته.

بَنَاهَا﴾ على غاية العظمة ونهاية الوقعة.

قيل: ذكر كلمة **﴿مَا﴾** للاشارة إلى الوصفية، والمعنى: والشيء العظيم الذي بناها[١]، ويُحتمل كون كلمة **﴿مَا﴾** مصدريه، فحلف أولاً بذاتها، وثانياً بكيفية بنائها.

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ ومن بسطها على السماء من كلّ جانب **﴿وَنَفْسٍ﴾** ناطقة متميزة من نفوس الحيوانات **﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾** ومن عدلها بإعطائها القُوى الظاهرة والباطنة، ويُحتمل كون **﴿مَا﴾** مصدرية في كلتا الجملتين. وقيل: إنّ المراد بالنفس الشخص، وتسويتها تعديلها بتكميل أعضائها[٢].

﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ وعرّفها بتكميل عقلها وإرسال الرسل **﴿فُجُورَهَا﴾** وشرورها لتجتنبها **﴿وَتَقْوَاهَا﴾** ومحاسن أعمالها لتعمل بها.

عن الصادق عليه السلام قال: «بيّن لها ما تأتي وما تترُك»[٣].

قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا[٩ و ١٠]

ثمّ بيّن سبحانه المُقسَم عليه بقوله: **﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾** وظَفِر بأعلى المقاصد والمطالب **﴿مَن زَكَّاهَا﴾** وطَهّرها من دَنَس الكفر والأخلاق الرذيلة ومن رجس الذنوب والقبائح، أو المراد أنماها بالخيرات والبركات.

عن النبي صلّى الله عليه وآله: أنّه كان إذا قرأ **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾** وقف وقال: «اللهمّ آتِ نفس تقواها، أنت وليها وأنت مولاها، وزكّها أنت خير من زكّاها»[٤].

﴿وَقَدْ خَابَ﴾ وحرم من جميع الخيرات أو خسر **﴿مَن دَسَّاهَا﴾** وأدخلها في المعاصي حتّى انغمس فيها، أو دسّ في نفسه الفجور بسبب مواظبته عليها.

عن الصادق عليه السلام: «قد أفلح من أطاع، وقد خاب من عصى»[٥].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «مَن زكّاه ربّه»[٦].

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ ٱنبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللهِ نَاقَةَ ٱللهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا

---

١. تفسير الرازي ٣١: ١٩١.
٢. تفسير الرازي ٣١: ١٩١.
٣. الكافي ١: ١٢٤/٣، تفسير الصافي ٥: ٣٣٣.
٤. مجمع البيان ١٠: ٧٥٥، تفسير الرازي ٣١: ١٩٣.
٥. مجمع البيان ١٠: ٧٥٥، تفسير الصافي ٥: ٣٣٤، وفيهما: عنهما عليهما السلام.
٦. تفسير القمي ٢: ٤٢٤، تفسير الصافي ٥: ٣٣٤.

يَخَافُ عُقْبَاهَا [١١ ـ ١٥]

ثمّ هدّد سبحانه المكذبين للرسول ببيان تكذيب ثمود رسولهم وابتلائهم بالعذاب بقوله: ﴿كَذَّبَتْ﴾ قبيلة يقال لها ﴿ثَمُودُ﴾ رسولهم صالح ﴿بِطَغْوَاهَا﴾ وبسبب عُتوّها على الله، أو المعنى كذّبت بما أوعدهم الرسول من عذاب ذي طُغيان كما قال الله تعالى: ﴿فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾.

﴿إِذِ انْبَعَثَ﴾ وحين أسرع في طاعة رؤسائها قدار الذي هو ﴿أَشْقَاهَا﴾ وأخبثها وأطغاها في عقر الناقة ﴿فَقَالَ لَهُمْ﴾ صالح ﴿رَسُولُ اللهِ﴾ عليه السلام: يا قوم احذروا أن تُؤذوا ﴿نَاقَةَ اللهِ﴾ التي هي من آياته، واحذروا أن تمنعوها ﴿وَسُقْيَاهَا﴾ ومشربها، فإن مسستموها بسوء يأخذكم عذابٌ قريبٌ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما أوعدهم به من العذاب ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ وضربوا رجلها بالسيف وقتلوها.

روى بعض العامة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال لعلي: «يا على أتدري من أشقى الأولين؟ قال: «الله ورسوله أعلم، قال: «عاقر الناقة» قال: «أتدري من أشقى الآخرين»، قال: «الله ورسوله أعلم» قال: «قاتلك»[١].

﴿فَدَمْدَمَ﴾ واطبق ﴿عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ العذاب، وأهلك جميعهم بالصيحة الهائلة، أو الزلزلة ﴿بِذَنبِهِمْ﴾ وبسبب عصيانهم بتكذيب الرسول وعقر الناقة ﴿فَسَوَّاهَا﴾ قيل: إنّ الضمير راجع إلى الدمدمة، والمعنى: فعمّتهم الدمدمة[٢]. وقيل: راجعٌ إلى الأرض، والمعنى: فسوّى عليهم الأرض بأن أهلكهم فجعلهم تحت التُّراب[٣] ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ الله بالدمدمة عليهم ﴿عُقْبَاهَا﴾ وتَبِعتها لأنّها كانت باستحقاقهم والعمل بالحكمة.

وقيل: هذا الكلام لبيان تحقير إهلاكهم، والمعنى أنّه أهون من أن تُخشى فيه عاقبة الأمر[٤].

وقيل: إنّ المعنى لايخاف قدار الأشقى فيما أقدم من عقر الناقة عقبها وتَبِعة سوئها، بل كان آمناً من الهلاك ففعل مع الخوف الشديد فعل من لاخوف له، وفيه دلالة على غاية حُمقه، وعلى هذا التفسير تكون الآية في حكم المتقدّم، كأنّه قال: إذ انبعث أشقاها ولايخاف عقباها[٥].

رُوي أنّ صالحاً لمّا وعدهم بالعذاب بعد ثلاثٍ، قال الذين عقروا الناقة: هلمّوا فلنقتُل صالحاً، فإن كان صادقاً عجّلناه قبلنا، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته[٦] فأتوه ليقتلوه فدمغتهم الملائكة بالحجارة، فلمّا أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح، فوجدوهم قد رُضِحوا بالحجارة، فقالوا لصالح: أنت قتلتهم، ثمّ همّوا به، فقامت عشيرته دونه[٧] ولبسوا السلاح، وقالوا لهم: والله لاتقتلونه، قد وعدكم أنّ العذاب

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٤٦.
٢ و٣. تفسير الرازي ٣١: ١٩٥ و١٩٦.
٤ و٥. تفسير الرازي ٣١: ١٩٦.
٦. في النسخة: بناقة.
٧. في النسخة: دونها.

نازلٌ بكم في ثلاث، فان كان صادقاً زدتم ربّكم عليكم غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تُريدون، فانصرفوا عنه تلك الليلة، فأصبحوا ووجوههم مصفرّة، فايقنوا بالعذاب، فطلبوا صالحاً ليقتلوه، فهرب صالح والتجأ إلى سيد بعض بطون ثمود، وكان مشركاً، فغيّبه عنهم فلم يقدِروا عليه، ثمّ شغلهم عنه نزول العذاب[1]. فهذا هو قوله: ﴿وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾.

عن الصادق عليه السلام: «من أكثر قراءة والشمس والليل والضحى وألم نشرح، في يومٍ وليلة، لم يبق بحضرته إلّا شهد له يوم القيامة حتى شعره وبشره ولحمه ودمه وعروقه وعصبه وعظامه وجميع ما أقلّت الأرض منه، ويقول الرب تبارك وتعالى: قبلت شهادتكم لعبدي، وأجزتها له، انطلقوا به إلى جناتي حتّى، يتخير منها حيث أحبّ، فأعطوه من غير مَنّ، ولكن رحمةً منّي وفضلاً [عليه فهنيئاً لعبدي]»[2].

---

١. تفسير الرازي ٣١: ١٩٦.

٢. ثواب الأعمال: ١٢٣، مجمع البيان ١٠: ٧٥٢، تفسير الصافي ٥: ٣٣٥.

في تفسير سورة الليل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ[١ ـ ٤]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة ﴿وَٱلشَّمْسِ﴾ المتضمّنة لذكر الصنفين من الناس: صنف زكّى نفسه من الشرك والعصيان والاخلاق الرذيلة، وصنف دسّ نفسه فيها، وذكر أنّ الله ألهم فجورها وتقواها، أردفها بسورة ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ المتضمّنة لذكر صنفين من الناس: صنف من الناس بذل ماله في طاعة الله واتّقى المعاصى وصدّق بتوحيد الله والدار الآخرة، وصنف بخل بماله واشتغل بالمعاصي والشهوات وكذّب بتوحيد الله واليوم الآخر، وما لكلّ منهما من الدرجات والدركات، وإنّ الله هو الهادي إلى كلّ خيرٍ وسعادةٍ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بالحَلْف بعجائب خلقه وبدائع صنفعه بقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ ويُغطّي الشمس، أو يستُر النهار، أو سائر الموجودات غير المضيئة بظلمته ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ وحين انكشف بطلوع الشمس وظهر بزوال ظُلمة الليل، ومن المعلوم أنّ في الإقسام بهما دلالة على شرفهما وكثرة نفعهما وقيام نظام العالم بهما وبتعاقبهما.

وعن الباقر عليه السلام في تأويل الآيتين قال: «الليل في هذا الموضع الثاني، غشي أمير المؤمنين عليه السلام في دولته التي جرت له عليه، وأمير المؤمنين عليه السلام يصبِر في دولتهم حتى تنقضي» ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ قال: «النهار هو القائم منّا أهل البيت، إذا قام غلب دولة الباطل» قال: «والقرآن ضرب به الأمثال للناس، وخاطب نبيّه به ونحن، فليس يعلمه غيرنا»[١].

﴿وَمَا خَلَقَ﴾ قيل: يعني والقادر العظيم الذي خلق بقدرته ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ من ماءٍ واحدٍ[٢]. وقيل: كلمة ﴿مَا﴾ مصدرية، والمعنى: وخلقه الذكر والأنثى من جميع أصناف الحيوانات.

---

١. تفسير القمي ٢: ٤٢٥، تفسير الصافي ٥: ٣٣٦.   ٢و٣. تفسير الرازي ٣١: ١٩٧.

وعن الباقر عليه السلام في تأويله «الذكر أمير المؤمنين عليه السلام، والأنثى فاطمة»[١].

ثمّ ذكر سبحانه المُقسَم عليه بقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ﴾ وأعمالكم أيها الناس في الدنيا ﴿لَشَتَّىٰ﴾ ومتفرّقات في الحُسن والقُبح، والخير والشّر، والعقاب والثواب.

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ[٥ـ١١]

ثمّ بين سبحانه ما هو المقصود من اختلاف الأعمال وفضله بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ المال وأنفقه في سبيل الله ووجوه البرّ، أو أعطى حقوق الله من الأعمال الواجبة ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ الله بترك المحرمات واحتراز الشهوات ﴿وَصَدَّقَ﴾ عن صميم القلب ﴿بِالْحُسْنَىٰ﴾ والكلمة المرضية عند الله من الإقرار بالتوحيد والرسالة والمعاد، أو بالملّة والشريعة الحسنة، وهو دين الاسلام.

وعن الصادق عليه السلام قال: «بالولاية»[٢].

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ ونوفّقه ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾ والأعمال المؤدّية إلى الجنة والراحة الأبدية، ونسهّلها عليه حتى يكون أيسر الأمور عليه وقيل: إن المراد باليسرى الجنة والراحة[٣]، والمعنى: نهيئه لدخول الجنة بسهولة.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بماله وامتنع من صرفه في سبيل الله، أو امتنع من أداء حقوق الله وصرف قواه في طاعته، ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ بالشهوات الدنيوية عن النعم الأُخروية ولم يرغب في ثواب الله، كأنّه مستغنٍ عنه، ولم يتّقِ من المعاصي ﴿وَكَذَّبَ﴾ قولاً وعملاً ﴿بِالْحُسْنَىٰ﴾ بأحد المعاني السابقة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ ونهيئه ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ والخَصْلة المؤدّية إلى ما فيه المشقة والشدة من النار والهوان والعذاب بتثقيل الطاعة عليه وإيكاله إلى نفسه الأمّارة بكلّ سوء وشرّ ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ﴾ ولايكفي في نجاته من العذاب ﴿مَالُهُ﴾ الذي جمعه في الدنيا وبَخِل به عن صرفه في سبيل الله ﴿إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ وهلك هلاكاً أبدياً، أو سقط في قَعْر جهنّم، أو في حفيرة وقبره.

وقيل: إن كلمة ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يُغْنِى﴾ للاستفهام الانكاري، والمعنى: أي شيء يُغني عنه ماله مع أنّه يبقى لوارثه، ولم يصحَب منه شيئاً في الآخرة[٤].

---

١. مناقب ابن شهرآشوب ٣: ٣٢٠، تفسير الصافي ٥: ٣٣٦.

٢. تفسير القمي ٢: ٤٢٦، تفسير الصافي ٥: ٣٣٧.

٣. تفسير روح البيان ١٠: ٤٤٨.

٤. تفسير الرازي ٣١: ٢٠١.

في (الكافي) في تفسير الآيات عن الباقر عليه السلام: «﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ ممّا آتاه الله ﴿وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي بأنّ الله يُعطي بالواحدة عشرة إلى مائة ألف فمازاد ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ لايُريد شيئاً من الخير إلّا يسّره الله ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ﴾ بما آتاه الله ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ بأنّ الله يعطي بالواحدة عشرة إلى مائة ألف ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ لايُريد شيئاً من الشرّ إلّا يسّره له ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ قال: والله ما تردّى من جبل، ولا من حائط، ولا في بئرٍ، ولكن تردّى في نار جهنّم»[1].

وعنه عليه السلام في تأويله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ وآثر بقوته، وصام حتّى وفى بنذره، وتصدّق بخاتمه وهو راكع، وآثر المِقداد بالدينار على نفسه ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي الجنّة والثواب من الله ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ﴾ لذلك، بأن جعله إماماً في الخير وقُدوةً وأباً للائمّة، يسّره الله ﴿لِلْيُسْرَىٰ﴾»[2].

وعن (المجمع) عن ابن عباس: أنّ رجلاً كانت له نخلة، فرْعها في دار رجلٍ فقيرٍ ذي عيال، وكان الرجل إذا جاء فدخل الدار وسَعِد النخلة ليأخذ منها التمر، فربما سقطت التمرة فيأخذها صبيان الفقير، فنزل الرجل من النخلة حتّى يأخُذ التمر من أيديهم، فإن وجدها في فيّ أحدهم أدخل إصبعه حتى يُخرِج التمر من فيه، فشكا ذلك الرجل إلى النبي صلى الله عليه وآله[3] فقال صلى الله عليه وآله لصاحب النخلة: «بعني نخلتك هذه بنخلةٍ في الجنّة» فقال: لاأفعل، وانصرف، فمضى إليه أبو الدَّحْداح واشتراها منه[4]. وفي رواية: اشتراها منه بحائطه[5]. وفي رواية: بأربعين نخلة[6].

وأتى إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، خُذها وأجعل لي في الجنّة الحديقة التي قلت لهذا ولم يتبلها. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لك في الجنة حدائق وحدائق»[7].

وفي رواية ابن عباس: فذهب إلى النبي صلى الله عليه وآله وقال: يا رسول الله، إنّ النخلة قد صارت لي، فهي لك فذهب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى صاحب الدار فقال له: «النخلة لك ولعيالك، فأنزل الله ﴿وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ...﴾ السورة[8].

وفي رواية القمي رحمه الله قال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ يعني النخلة ﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ يعني بوعد رسول الله[9].

---

١. الكافي ٤: ٥/٤٦، تفسير الصافي ٥: ٣٣٨.
٢. مناقب ابن شهر آشوب ٣: ٣٢٠، تفسير الصافي ٥: ٣٣٨.
٣. مجمع البيان ١٠: ٧٥٩، تفسير الصافي ٥: ٣٣٧.
٤. تفسير القمي ٢: ٤٢٥، تفسير الصافي ٥: ٣٣٧.
٥. قرب الاسناد: ١٢٧٣/٣٥٦، تفسير الصافي ٥: ٣٣٧.
٦. مجمع البيان ١٠: ٧٥٩، تفسير الصافي ٥: ٣٣٧.
٧. تفسير القمي ٢: ٤٢٦، تفسير الصافي ٥: ٣٣٧.
٨ مجمع البيان ١٠: ٧٦٠، تفسير الصافي ٥: ٣٣٨.
٩. قرب الاسناد: ١٢٧٣/٣٥٦، تفسير الصافي ٥: ٣٣٧، ولم نعثر عليها في تفسير القمي.

أقول: على الروايتين السورة مدنية، لأنّ أبا الدَّحْداح كان من الأنصار ومن أهل المدينة.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ [١٢-١٣]

ثمّ لمّا بيّن سبحانه فائدة الإعطاء والتقوى والايمان وضرر البُخل والكفر، بيّن أنّ الهداية إلى ما فيه الخير والشرّ من شأن الربوبية بقوله: ﴿إِنَّ﴾ الواجب ﴿عَلَيْنَا﴾ بمقتضى الحكمة البالغة واللُّطف ﴿لَلْهُدَىٰ﴾ وبيان الطريق المؤدّي إلى كلّ خيرٍ وسعادة، وإلى الشرور والضلالة، وقد فعلنا بما لانزيد عليه، حيث بيّنا حال من سلك كلاً من الطريقين ترغيباً وترهيباً. عن القمي: أنّ علينا أن نبيّن لهم[١].

وعن ابن عباس: يُريد أُرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي وأحول بين أعدائي أن يعملوا بطاعتي[٢].

أقول: معنى حيلولته خذلانه، وإيكالهم إلى أنفسهم عقوبةً على كفرهم وطغيانهم.

ثمّ بيّن سبحانه غناه عن عبادة الناس، وإنّما تكون هدايتهم للنفع العائد إليهم بقوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ وتلك العُقبى والأُولى، لايزيد في ملكنا اهتداؤكم، ولايَضُرّنا ضلالكم، فمن طلب سعادة الدارين فليطلبها منّي، وليعمل بطاعتي.

فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَىٰ * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَىٰ * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ [١٤-١٨]

ثمّ هدّد سبحانه الذين لايهتدون بهداه بقوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ أيّها الناس فيما أنزلت إليكم من القرآن ﴿نَاراً تَلَظَّىٰ﴾ وتتلهّب وتتوقّد بغضبي، وخوّفتكم بها لترتدعوا عن عصياني ومخالفتي، واعلموا أنّه ﴿لَا يَصْلَاهَا﴾ ولايدخُلها ﴿إِلَّا﴾ الكافر ﴿الْأَشْقَىٰ﴾ من جميع العُصاة والأبعد من كلّ خيرٍ وسعادة، وهو ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ بآيات ربّه ورسالة رسله ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن قبول الحق، واستنكف عن طاعة ربّه.

وعن ابن عباس في رواية أُخرى: أنّها نزلت في أُمية بن خلف وامثاله الذين كذّبوا محمداً والأنبياء قبله[٣].

أقول: وهو جارٍ في حقّ كلّ كافرٍ إلى يوم القيامة، إذ لايكون الكفر إلا بالتكذيب ولو بإنكار ضروري من ضروريات الدين، ومقتضى الحصر أن لايدخل النار من كان مؤمناً عاصياً ولايبعد ذلك، نعم

---

١. تفسير القمي ٢: ٤٢٦، تفسير الصافي ٢: ٣٣٨.
٢. تفسير الرازي ٣١: ٢٠٢.
٣. تفسير الرازي ٣١: ٢٠٢.

بعض المعاصي يُوجب ذهاب الايمان عن قلب المؤمن، كترك الصلاة والزكاة والحجّ، فيحشر في صفّ الكفار.

وقيل: إنّ المراد بالأشقى هو الشقيّ، وبالصلي الدخول مع الخلود[١]. وعن (المجمع): الأشقى هو صاحب النخلة[٢]. وعن القمي: يعني هذا الذي بُخِل على رسول الله[٣].

وعن الصادق عليه السلام ـ في هذه الآية ـ قال: «في جهنم وادٍ فيه نار لايصلاها إلّا الأشقى، يعني فلان الذي كذّب رسول الله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام وتولّى عن ولايته» ثمّ قال: «النيران بعضها دون بعض، فما كان من نار هذا الوادي فللنصّاب»[٤].

﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا**﴾ ويبعد عنها بحيث لايسمع حسيسها المؤمن ﴿**ٱلْأَتْقَى**﴾ والأحرز من الشرك والعصيان، وهو ﴿**ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ**﴾ ويُعطيه الفقراء ويصرفه في سبيل الله حال كونه ﴿**يَتَزَكَّىٰ**﴾ ويقصِد ببذله الطهارة من رجس الذنوب ودَنَس البُخل، وهو أبو الدَّحْداح، كما عن (المجمع)[٥] والقمي[٦].

وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ [١٩ ـ ٢٠]

ثمّ بيّن سبحانه خُلوص نيّته في البَذْل لوجه الله بقوله: ﴿**وَمَا لِأَحَدٍ**﴾ ممّن يُعطيه المال ﴿**عِندَهُۥ**﴾ شيءٌ ﴿**مِن نِّعْمَةٍ**﴾ ومنّة يكون من شأنها أن ﴿**تُجْزَىٰٓ**﴾ وتُكافأ فيقصِد باعطائه مجازاتها، فما يكون إعطاؤه وبذله لغرض من الأغراض ﴿**إِلَّا**﴾ بغرضٍ واحدٍ وهو ﴿**ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ**﴾ الذي هو ﴿**ٱلْأَعْلَىٰ**﴾ والأرفع من كلّ موجودٍ ذاتاً وصفاتاً.

في ردّ بعض العامة ثمّ لمّا كان طلب ذات الله تعالى مَحالاً، كان التقدير: ابتغاء رضا ذات الربّ أو ثوابه، وإمكان حبّ ذات الربّ، لايوجب صحّة طلب الذات، كما ادّعاها بعض العامة[٧].

نعم لايحتاج في قوله: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ**﴾ إلى تقدير شيءٍ في الآية، لأنّ الأطعام لوجه الله معناه الإطعام لأنّه مستحقّ للطاعة، كما عن أمير المؤمنين: «عبدتك لاخوفاً من نارك، ولاطمعاً في ثوابك، بل لأنّك مستحقّ للعبادة»[٨].

فظهر الفرق بين قوله: أطعت الله ابتغاء لوجهه، وبين القول: بانّي أطعت الله لوجهه، وأنّ الخلوص

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٥٠.
٢. مجمع البيان ١٠: ٧٦٠، تفسير الصافي ٥: ٣٣٨.
٣. تفسير القمي ٢: ٤٢٦، تفسير الصافي ٥: ٣٣٨.
٤. تفسير القمي ٢: ٤٢٦، تفسير الصافي ٥: ٣٣٨.
٥. مجمع البيان ١٠: ٧٦٠، تفسير الصافي ٥: ٣٣٩.
٦. تفسير القمي ٢: ٤٢٦، تفسير الصافي ٥: ٣٣٩.
٧. تفسير الرازي ٤: ٢٠٦، و٣١: ٢٠٦.
٨. بحار الأنوار ٤١: ١٤ و٧٢: ٢٧٨ «نحوه».

في الثاني أكمل من الأول، ولاينافي هذه الدرجة من الخُلوص وجود الخوف من العقاب، أو الرجاء للثواب، فانّهما في المرتبة المتأخّرة، كما كان لرسول الله ﷺ جميع المراتب من الخُلوص.

ومن المعلوم أنّ من كان له جميع المراتب أفضل وأكمل ممّن كان له مرتبة الرجاء للثواب، فما ذكرنا ظهر فساد ما حكاه الفخر الرازي عن أبي‌بكر الباقلاني في هذه الآية من قوله: إنّ الآية الواردة في شأن علي عليه السلام **﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾**[١] وهذه الآية الواردة في حقّ أبي‌بكر **﴿إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾** فدلّت الآيتان على أنّ كلّ واحدٍ منهما فعل ما فعل لوجه الله، إلّا أنّ آية عليّ يدلّ على أنّه فعل ما فعل لوجه الله وللخوف من يوم القيامة على ما قال: **﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾** وأمّا آية أبي‌بكر فانّها دلّت على أنّه فعل ما فعل لمحض وجه الله من غير أن يشوبه طمعٌ فيما يرجع إلى رغبته في ثواب أو رهبته من عقاب، فكان مقام أبي‌بكر أعلى وأجلّ[٢]. مع أنّ نزول الآية في حقّ أبي‌بكر غير ثابت، وإنّما حكاه الفخر الرازي عن القفّال الذي هو أحد مفسّري العامة، فانّه قال: نزلت هذه السورة في أبي‌بكر وإنفاقه على المسلمين، وفي اُميّة بن خلف وبُخله وكفره بالله[٣].

ولايقاوم قول هذا الناصب قول ابن عباس الذي هو حَبر هذه الاُمة واُستاذ المفسّرين من أنّها نزلت في حقّ أبي الدَّحْداح والبخيل الذي كان يُدخِل إصبعه في فم صغار الفقير ليُخرج ثمر نخلته من فيهم، كما مرّ عن (المجمع)[٤].

وروى الفخر الرازي عنه أنّه نزلت في اُمية بن خلف وأمثاله الذين كذّبوا محمّداً والأنبياء قبله[٥]، ولم يحك عنه القول بأنّ المراد بالأتقى أبوبكر.

نعم روى بعض العامة أنّ النبي ﷺ مرّ ببلال بن رَباح[٦] الحبشي وهو يقول: أحد فقال عليه السلام: «أحد يعني الله الأحد ينجيك» ثمّ قال، أبي بكر: إنّ بلالاً يُعذّب في الله» فعرف مراده، فانصرف إلى منزله، فأخذ رَطلاً من ذهب، ومضى به إلى اُميّة بن خلف، فقال له: أتبيعي بلالاً؟ فقال: نعم، فاشتراه وأعتقه، فقال المشركون: ما أعتقه ابوبكر إلّا ليدٍ كانت له عنده، فنزلت[٧].

أقول: الظاهر من الآية مدح الأتقى الذي يُؤتي ماله في سبيل الله، وهو موافقٌ لإعطاء أبي الدَّحْداح،

---

١. الإنسان: ٩/٧٦و١٠. ٢. تفسير الرازي ٣١: ٢٠٥. ٣. تفسير الرازي ٣١: ١٩٧.
٤. مجمع البيان ١٠: ٧٥٩. ٥. تفسير الرازي ٣١: ٢٠٢.
٦. في النسخة: رياح. ٧. تفسير أبي السعود ٩: ١٦٨، تفسير روح البيان ١٠: ٤٥١.

لالاعتاق أبي بكر، فانّ الاعتاق ليس بدلاً وإعطاءً للغير، بل هو تحرير وفكّ مُلك.

وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ[٢١]

ثمّ وعد سبحانه الأتقى الباذل ماله في سبيل الله بالثواب المرضي مقروناً باليمين بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ ذلك الاتقى بما يُؤتيه الله من الثواب في الآخرة.

قيل: إنّ المعنى إلّا ابتغاء رضا ربّه، ووالله لسوف يرضى الربّ عنه[١]. وفيه: أنّ رضا الله لاتأخير فيه، وإنّما التأخير في الثواب الأُخروي، وهو وعدٌ بنيل جميع ما يبتغيه ويطلبه من الثواب على أكمل الوجوه وأجملها.

قال بعض العامة: لم ينزل هذا الوعد إلّا لرسول الله ﷺ في قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[٢] ولأبي‌بكر هاهنا[٣]. وفيه: أنّ الآيات الدالة على وعد المؤمنين عموماً بثواب فيه رضاهم كثيرة، وليس في خصوصية التعبير دلالة على فضيلة مَن وعده الله بأن يرضيه بثوابه إذا أدخله الجنّة بهذا التعبير على غيره من المؤمنين الذين قال في حقّهم ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[٤] بل في هذا التعبير وفي قوله: ﴿ٱرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[٥] احتمال فضيلة خاصة، لاحتمال كون المراد راضية ومسرورة بلقاء الله والوصول إلى مقام الرضوان، والآية المذكورة كالنصّ في إرادته رضاءه بالثواب ودخوله في الجنّة، مع أن ادّعاء كون نزول الآية في حقّ أبي‌بكر ممنوعٌ أشدّ المنع، حشرهم الله معه بتكلّفهم في إثبات فضيلة له مع أنّه خَرْط القَتاد، بل تمسّكهم بأمثاله كتمسّك الغريق المتشبّث بكلّ حشيش.

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٥٢.
٢. الضحى: ٥/٩٣.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٤٥٢.
٤. المائدة: ١١٩/٥.
٥. الفجر: ٢٨/٨٩.

في تفسير سورة الضحى

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ [١ ـ ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة والليل المتضمّنة لبيان كون الدنيا والآخرة لله، وفضيلة المؤمنين المنفقين في سبيل الله خالصاً لوجهه، وأنّ الله يرضيهم في الآخرة بثوابه، نُظِمت سورة الأضحى المتصدّرة بالأيمان المناسبة لما صدر ما قبلها من الايمان المتضمّنة لبيان كون الآخرة خيراً من الدنيا، ولمنّته على رسوله، وفيه[١] على الانفاق على الفقير، ووعده بإعطائه ما يرضى به من الدرجات العالية التي يغبِطه بها الأولون والآخرون، والشفاعة التي هي المقام المحمود، وغيرها من النِّعم التي لاتدركها العقول، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بالأيمان البالغة بقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ وبوقت ارتفاع الشمس وتجلّي النهار ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ وسكن ظلامه ولايزيد ولاينقُص إلى طلوع الفجر، وقيل: يعني إذا سكن أهله[٢]، وقيل: إذا أظلم[٣]. وعن ابن عباس: إذا غطّى الدنيا بالظُّلمة[٤].

قال الفخر الرازي: سورة ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ سورة أبي بكر، وسورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ سورة محمد ﷺ، وإنّما قدّم الله الليل على النهار في سورة أبيبكر، لأنّ أبابكر سبقه كفر، وفي هذه السورة قدّم الضحى لأنّ الرسول ما سبقه كفر، والإشارة إلى أنّه [إذا] ذكرت الليل أولاً وهو أبوبكر، وجدت بعده النهار وهو محمد ﷺ، إن ذكرت أولاً الضحى وهو محمد، وجدت بعده الليل وهو أبوبكر[٥].

أقول: على تقدير تسليم كون سورة ﴿وَٱلَّيْلِ﴾ سورة أبيبكر، يحتمل كون النُّكتة في تقديم الليل فيها على النهار الإشعار بظهور الظُّلمة الظلماء بعد وفاة الرسول ﷺ وبعد الظلمة ينجلي نور ولاية أوصيائه في آخر الزمان، والنُّكتة في تقديم الضحى في هذه السورة على الليل الإشارة إلى ظهور نور

---

١. كذا، والظاهر: وحثه. ٢. تفسير أبي السعود ٩: ١٦٩، تفسير روح البيان ١٠: ٤٥٣.
٣ و٤. تفسير الرازي ٣١: ٢٠٧. ٥. تفسير الرازي ٣١: ٢٠٨.

محمّد ودينه أولاً وظهور الطّحية العمياء بعد وفاة الرسول ﷺ.

وفي التكنية عن أبيبكر بالليل، وعن النبي ﷺ بالنهار والضحى، على اعترافه، إشارةٌ إلى أنّ أبابكر باطنه ضدّ باطن الرسول، فانّه ظلمة محضة، كما أنّ الرسول نورٌ محضٌ، وكما أنّ الرسول أضاء الدنيا بنور علمه وهدايته، كذلك أظلم أبوبكر الدنيا بظلمة جهله وغوايته.

وقيل: إنّ نكتة تقديم الليل في سورة وتقديم الضحى في سورة الاشارة إلى أنّ لكلٍّ منهما شرفٌ وفضيلةٌ، وأنّ بهما ينتظم أمر العالم[١]، فانّ المراد بالضُّحى جميع النهار، وبالليل جميعه.

وروى بعض العامة عن الصادق عليه السلام: «أنّ المراد بالضحى هو الضحى الذي كلّم الله فيه موسى وبالليل[٢] ليلة المعراج»[٣].

وقيل: إنّ المراد بالضحى الضحى الذي ألقى فيه السّحرة سُجّداً، حيث قال تعالى: ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحىً﴾[٤].

مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ [٣ـ٥]

ثمّ ذكر سبحانه المقسم عليه بقوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ وما بالغ في تركك بالحطّة عن درجة القُرب والكرامة والوحي ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ وما أبغضك[٥] بتركك وروى بعض العامّة، بل نُسِب إلى مفسّريهم: أنّه أبطاء [الوحي] عليه أربعين ليلة، فشكا ذلك إلى خديجة، فقالت: لعلّ ربّك نسيك أو قلاك[٦].

وروى بعضهم: أنّ مشركي قريش أرسلوا إلى يهود المدينة وسألوهم عن أمر محمد ﷺ، فقالت لهم اليهود: سلوه عن أصحاب الكهف، وعن قصّة ذي القَرنين، وعن الرُوح، فان أخبركم عن قصّة أهل الكهف، وقصّة ذي القرنين، ولم يُخبركم عن أمر الروح، فاعلموا أنّه صادقٌ. فجاءه المشركون سألوه عنها، فقال: إرجعوا سأخبركم غداً» ولم يقل: إن شاء الله، فاحتبس الوحي عنه، فقال المشركون: إنّ محمداً ودّعه ربّه وقلاه[٧]، فنزلت السورة.

وروى بعضهم، أنّ جُروا دخل البيت، فدخل تحت السرير ومات، فمكث نبي الله ﷺ أياماً لاينزل عليه الوحي، فقال لخادمته: «يا خولة، ما حدث في بيتي، إنّ جَبْرئيل لايأتيني» قالت خولة: فكشفت

---

١. تفسير الرازي ٣١: ٢٠٧.
٢. في النسخة: وبالليلة.
٣. تفسير أبي السعود ٩: ١٦٩.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٤٥٢، والآية من سورة طه: ٢٠/٥٩.
٥. زاد في النسخة: كي.
٦. تفسير الرازي ٣١: ٢٠٩.
٧. تفسير روح البيان ١٠: ٤٥٤.

البيت، فأهويت بالمِكْنَسة تحت السرير، فاذا جُرو ميت، فأخذته والقيته خلف الجِدار، فجاء نبيّ الله ﷺ يرتعد، وكان إذا اُنزل الوحي استقبلته الرِّعدة، فقال: «يا خولة، دثّريني، فأنزل الله هذه السورة، فلمّا نزل جَبْرئيل سأله النبي ﷺ عن سبب تأخيره، فقال: أما علمت أنّا لاندخل بيتاً فيه كذب ولاصُورة[1].

وعن القمي، عن الباقر عليه السلام: «أنّ جَبْرئيل أبطأ على رسول الله ﷺ وكانت أول سورة نزلت ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[2] ثمّ أبطأ عليه فقالت خديجة: لعلّ ربّك قد تركك فلا يرسل إليك، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾»[3] فليس الأمر كما قالوه، بل الوحي يأتيك مدّة عمرك، وتدوم محبّتي لك في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ الباقية الصافية عن شوائب المضارّ والهموم والآلام، وما أعددته لك فيها من النّعم والشّرف والكرامات ﴿خَيْرٌ لَكَ﴾ وأفضل ﴿مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ والدنيا الفانية الزائلة. وعن الصادق قال: «يعني الكرّة»[4].

﴿وَ﴾ والله ﴿لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ وعن قريبٍ يُتمّ نعمه الجسمانية والروحانية والظاهرية والباطنية والدنيوية والاُخروية عليك ﴿فَتَرْضَىٰ﴾ غاية الرضا بعطاء ربّك وإفضاله.

قيل: لمّا قال سبحانه ﴿لَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ كأنّه قيل: ما جهة خيريّتها؟ قال سبحانه: إنّ الله يُعطيه في الآخرة كلّ ما يُريده ممّا لاتتّسع الدنيا له[5].

عن ابن عباس، أنّه قال: ألف قصر في الجنّة من لؤلؤٍ أبيض، تُرابه المِسك، وفيها ما يليق [بها][6].

عن الصادق عليه السلام: «يُعطيك من الجنّة ما ترضى»[7].

وعنه عليه السلام: «دخل رسول الله ﷺ على فاطمة عليها السلام وعليها كساء من ثُلّة[8] الإبل وهي تطحن بيدها، وترضع ولدها، فدمعت عينا رسول الله لمّا أبصرها، فقال: يا بنتاه تعجّلي مرارة الدنيا بحلاوة الآخرة، فقد أنزل الله عليّ ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾»[9].

وفي رواية: قالت: «يا رسول الله، الحمد لله على نَعمائه، والشكر على آلائه، فأنزل الله ﴿وَلَسَوْفَ

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٥٤.
٢. العلق: ١/٩٦.
٣. تفسير القمي ٢: ٤٢٨، تفسير الصافي ٥: ٣٤٠.
٤. تفسير القمي ٢: ٤٢٧، تفسير الصافي ٥: ٣٤٠.
٥. تفسير الرازي ٣١: ٢١٢.
٦. تفسير الرازي ٣١: ٢١٢.
٧. تفسير القمي ٢: ٤٢٧، تفسير الصافي ٥: ٣٤٠.
٨ الثُلّة: الصوف.
٩. مجمع البيان ١٠: ٧٦٥، تفسير الصافي ٥: ٣٤٠.

يُعْطِيكَ﴾»[١] الآية.

وروى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**أنّ هذا هو الشفاعة في الامة**»[٢] ورُوي أيضاً عن ابن عباس[٣].

ورُوي أنّه صلى الله عليه وآله لمّا نزلت هذه الآية قال: «**إذاً لاأرضى وواحد من اُمّتي في النار**»[٤].

وروى بعض العامة عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «**رضا جدي أن لا يدخُل في النار موحّد**»[٥].

ورووا عن الباقر عليه السلام: «أهل القرآن يقولون: أرجى آية في كتاب الله **﴿يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾**[٦] وإنا أهل البيت نقول: أرجى آية قوله: **﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾** والله إنّها الشفاعة، ليُعطاها في أهل لا إله إلّا الله حتّى يقول: رضيت»[٧].

وعن محمد بن الحنفية أنّه قال: يا أهل العراق، تَزْعُمون أنّ أرجى آية في كتاب الله **﴿يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾** وإنّا أهل البيت نقول: أرجى آية في كتاب الله **﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ ...﴾** الآية، هي والله الشفاعة، ليُعطينّها في أهل لا إله إلّا الله حتى يقول: رضيت»[٨].

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ [٦ـ٨]

ثمّ قرّر سبحانه حبّه إياه بتعداد نعمه السابقة عليه بقوله: **﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾** ربّك يا محمد، ولم يعلمك في بدو ولادتك من اُمّك **﴿يَتِيماً﴾** وصغيراً منقطعاً عن أبيك بموته **﴿فَآوَىٰ﴾** وكفلك عبد المطلب وأباطالب في الأثر، إنّ عبد الله بن عبدالمطلب تُوفّي بالمدينة واُمّ رسول الله حامل به، ثمّ ولد رسول الله صلى الله عليه وآله فكان مع جدّه عبد المطلب واُمّه آمنه ستّ سنين، ثمّ ماتت اُمّه فكان عند جدّه سنتين، فلمّا قربت وفاة جدّه عبد المطلب أوصى به أبا طالب وهو ابن ثمان سنين، وإنّما أوصاه به لأنّ أباطالب وعبدالله كانا من اُمّ واحدة، فكان أبوطالب يكفل رسول الله بعد جدّه إلى أن بعثه الله فقام بنصرته إلى حين وفاته، فلم يظهر على رسول الله يُتم، فكان هذا نعمة عظيمة من الله عليه[٩].

رُوي انه قال أبوطالب يوماً لأخيه العبا: ألا اُخبرك بما رأيت من محمد؟ فقال: بلى. فقال: إنّي ضممته إليّ، فكنت لاأفارقه ساعةً من ليلٍ أو نهار، ولاائتمن عليه أحد حتى أنّي كنت اُنوّمه في فراشي، فأمرته أن يخلع ثيابه وينام معي، فرأيت الكراهة في وجهه، لاكنّه كَرِه أن يُخالفني، فقال: «يا عمّاه، اصرِف وجهك عنّي حتّى أخلع ثيابي، إذ لاينبغي لأحدٍ أن ينظُر إلى جسدي» فتعجّبت من

١. مناقب ابن شهرآشوب ٣: ٣٤٢، تفسير الصافي ٥: ٣٤١.
٢ -٥. تفسير الرازي ٣١: ٢١٢. ٦. الزمر: ٥٣/٣٩. ٧. تفسير الرازي ٣١: ٢١٢.
٨ مجمع البيان ١٠: ٧٦٥، جوامع الجامع: ٥٤٤، تفسير الصافي ٥: ٣٤١. ٩. تفسير الرازي ٣١: ٢١٤.

قوله، وصرفت بصري حتى دخل الفراش، فلمّا دخلت معه الفراش إذا بيني وبينه ثوبٌ، والله ما أدخلته فراشي، فاذا هو في غاية اللين وطيب الرائحة، كأنّه غُمِس في المِسك فجهدت لأنظر إلى جسده، فما كنت أرى شيئاً، وكثيراً ما كنت افتقده من فراشي، فاذا قمت لطلبه ناداني: «[ها] أنا يا عمّ» فأرجع، ولقد كنت كثيراً ما أسمع منه كلاماً يعجِبني، وذلك عند مضيّ بعض الليل، وكنّا لانُسمّي على الطعام والشراب، ولانحمد بعده، وكان يقول في أوّل الطعام: بسم الله الأحد، فاذا فرغ من طعامه قال: الحمد لله، فتعجّبت منه، ثمّ لم أر منه كذبة ولاضحكاً ولاجاهلية، ولاوقف مع صبيان يلعبون[١].

سئل الصادق عليه السلام: لم أوتم النبي صلى الله عليه وآله عن أبويه؟ فقال: «لأن لايكون لمخلوق عليه حقّ»[٢].

أقول: يعني الحقّ العظيم الذي يكون تالي حقّ الله.

وقيل: إنّ المراد باليتيم الفريد في الفضل والعزّ عديم النظير في قريش، أو في البشر، فآواك وجعل لك من تأوى إليه وهو أبوطالب.

وفي (الكشاف): ومن بدائع التفسير أنّه من قوله: درّة يتيمة، والمعنى ألم يجدك واحداً في قريش عديم النظير، أي في العزّ والشرف، فآواك في دار أعدائك، فكنت بين القوم معصوماً محروساً[٣].

وعن العياشي عن الرضا عليه السلام: «﴿يَتِيماً﴾ فرداً لامثل لك في المخلوقين ﴿فَآوَىٰ﴾ الناس إليك»[٤]. وفي (العيون) عنه ما يقرُب منه[٥].

﴿وَوَجَدَكَ﴾ ورأك ﴿ضَالاًّ﴾ عن معالم النبوة وأحكام الشريعة، غافلاً عنها ﴿فَهَدَىٰ﴾ إليها، كما عن ابن عباس[٦].

وقيل: يعني ضالاً عن النبوة، يعني ما كنت تطمعها فهداك الله إليها[٧].

وقيل: يعني وجدك خالياً عن العلم والمعارف في بدو خلقتك، فهداك بأن أعطاك العقل الكامل والمعرفة الكاملة[٨].

وقيل: يعني وجدك راغباً إلى فعال الجاهلية فهداك وحال بينك وبينها[٩].

رُوي عن علي عليه السلام أنّه قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «ما هممت بشيءٍ ممّا كان أهل الجاهلية يعملون به غير

---

١. تفسير الرازي ٣١: ٢١٤.
٢. مجمع البيان ١٠: ٧٦٥، تفسير الصافي ٥: ٣٤٢.
٣. الكشاف ٤: ٧٦٧ «نحوه»، تفسير روح البيان ١٠: ٤٥٧.
٤. مجمع البيان ١٠: ٧٦٧، تفسير الصافي ٥: ٣٤١.
٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٩٩، تفسير الصافي ٥: ٣٤١.
٦. تفسير الرازي ٣١: ٢١٥ و٢١٦.
٧ و٨. تفسير الرازي ٣١: ٢١٥ و٢١٦.
٩. تفسير الرازي ٣١: ٢١٧.

مرتين، كلّ ذلك يحول الله بيني وبين ما أُريد من ذلك، ثمّ ما هممت بعدهما بسوءٍ حتى أكرمني الله برسالته»[١].

أقول: المذهب الذي عليه أهل الحقّ أنّ النبي صلى الله عليه وآله معصومٌ من الهمّ بالمعصية من أوّل عمره إلّا أن يُحمَل السوء في الرواية على ترك الأُولى.

وقيل: إنّ العرب تسمّي الشجرة الفريدة في الفَلاة ضالة، والمعني وجدك في تلك البلاد كشجرة في مفازة الجهل، لايحمل ثمرة الايمان إلا أنت، فهديت بك الخلق[٢].

وقيل: يعني وجدك ضالاً ومنفرداً عن الضالين مجانباً لدينهم، فهديك إلى معاشرتهم، ودعوتهم إلى الدين المبين[٣].

وقيل: وجدك ضالاً عن مرضعتك حليمة حين أرادت أن تَرُدّك إلى جدّك، فدخلت على هبل فشكت إليه فتساقطت الأصنام، وسمعت صوتاً يقول: إنّما هلاكنا بيد هذا الصبي[٤].

ورُوي أنّه عليه السلام قال: «ضللت عن جدّي عبد المطلب وأنا صبيّ ضائع، كاد الجوع يقتلني، فتعلّق باستار الكعبة وهو يقول:

يـــا ربّ، رُدّ ولدي مـــحمداً　　　　[اردده ربي واصطنع عندي يدا]

فما زال يُردّد هذا عند البيت حتّى أتاه أبوجهل على ناقة ومحمّد بين يديه، وهو يقول: لاتدري ماذاترى من ابنك؟ فقال عبد المطلب: ولم؟ قال: إنّي أنخت الناقة وأركبته من خلفي فأبت الناقة أن تقوم، فلمّا أركبته أمامي قامت الناقة»[٥].

وعن ابن عباس أنّه قال: ردّه الله إلى جدّه بيد عدوّه كما فعل بموسى حين حَفِظه على يد عدوه[٦].

وقيل: إنّه صلى الله عليه وآله خرج مع غلام خديجة، فأخذ كافر بزِمام بعيره حتى ضلّ، فأنزل الله تعالى جَبْرَئيل في صورة آدمي فهداه إلى القافلة[٧].

وقيل: إنّ أباطالب خرج به إلى الشام، فضلّ عن الطريق، فهداه الله إليه[٨].

وقيل: يعني وجدك ضالاً ومغموراً في الكفّار، فقواك الله حتّى أظهرت دينك[٩].

وعن الرضا عليه السلام: «ووجدك ضالاً في قومٍ لايعرفون فضل نبوتك فهداهم الله بك»[١٠].

وفي رواية عنه عليه السلام: «﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ﴾ يعني عند قومك ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي هداهم إلى معرفتك»[١١].

---

١. تفسير الرازي ٣١: ٢١٧.　　٢ و٣. تفسير الرازي ٣١: ٢١٦.

٤ ـ٩. تفسير الرازي ٣١: ٢١٦.

١٠. تفسير القمي ٢: ٤٢٧، تفسير الصافي ٥: ٣٤١، ولم ينسباه إلى الإمام الرضا عليه السلام.

١١. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/١٠٠، تفسير الصافي ٥: ٣٤١.

﴿وَوَجَدَكَ﴾ ورآك ﴿عَائِلاً﴾ وفقيراً وعديماً لامال لك ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ك بتربية أبي‌طالب، ثمّ بمال خديجة، ثمّ باعانة الأنصار، ثمّ بالغنائم.

رُوي أنّه صلى الله عليه وآله دخل على خديجة وهو مضموم، فقالت له: مالك؟ فقال: «الزمان زمان قَحط، فان أنا بذلت المال يَنْفَد مالك فأستحي منك، وإن لم أبذُل أخاف الله تعالى» فدعت خديجة قريشاً وفيهم أبوبكر، قال أبوبكر: فأخرجت خديجة دنانير وصبّتها حتّى بلغت مبلغاً لم يقع بصري على من كان جالساً قُدّامي لكثرة المال، ثمّ قالت: اشهدوا أنّ هذا المال مال محمد، إن شاء فرّقه، وإن شاء أمسكه[1].

وقيل: يعني أغني قلبه بالقناعة، كما قال صلى الله عليه وآله: «الغني غنى النفس»[2]. وعن الرضا عليه السلام: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ يقول بأن جعل دعاءك مستجاباً»[3].

وعن القمي: يعني فأغناك بالوحي، فلاتسأل عن شيءٍ أحداً[4].

وعن الرضا عليه السلام: «ووجدك عائلاً تعول أقواماً بالعلم، فأغناهم الله بك»[5].

فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ[٩ ـ ١١]

ثمّ لمّا مَنّ سبحانه على رسوله بإيوائه ورعاية حاله في اليُتم، أمره بشكر تلك النعمة بقوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ولاتُضْجِره بكلام تكسِر قلبه، وعامل معه كما عاملت معك.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّائِلَ﴾ سواء سأل المال أو العلم أو غيرهما ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ ولاتستقبله بكلام يُضجِره.

وعن القمي رحمه الله قال: فلا تطرده[6]، قيل: المخاطبة للنبي صلى الله عليه وآله والمعنى للناس[7].

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ من الغنى والنبوة والهداية أو الكتاب ﴿فَحَدِّثْ﴾ وأظهرها بين الناس.

عن الصادق عليه السلام: «معناه فحدّث بما أعطاك الله وفضلك ورزقك وأحسن إليك وهداك»[8].

وعن الحسين بن علي عليهما السلام: «أمره أن يُحدّث بما أنعم الله عليه من دينه»[9].

وقيل: يعني إذا وفّقك الله لرعاية حقّ اليتيم والسائل، فحدّث بذلك التوفيق الذي هو نعمة الله عليك ليقتدي الناس بك[10].

---

١. تفسير الرازي ٣١: ٢١٨.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٤٥٨.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١/٢٠٠، تفسير الصافي ٥: ٣٤٢.
٤. تفسير القمي ٢: ٤٢٧، تفسير الصافي ٥: ٣٤٢.
٥. مجمع البيان ١٠: ٧٦٧، تفسير الصافي ٥: ٣٤٢.
٦. في المصدر وتفسير الصافي: أي لاتظلم.
٧. تفسير القمي ٢: ٤٢٧، تفسير الصافي ٥: ٣٤٢.
٨. مجمع البيان ١٠: ٧٦٨، تفسير الصافي ٥: ٣٤٢.
٩. المحاسن: ١١٥/٢١٨، تفسير الصافي ٥: ٣٤٢.
١٠. تفسير الرازي ٣١: ٢٢٠.

روى بعض العامة عن الحسين بن علي عليهما السلام أنه قال: «إذا عَمِلت خيراً فحدّث إخوانك ليقتدوا بك»[١].

ورووا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سُئل عن الصحابة، فأثنى عليهم وذكر خصاله، فقالوا له: فحدّثنا عن نفسك. فقال: «مهلاً، فقد نهى الله عن التزكية» فقيل له: أليس الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾؟ فقال: «فإني أُحدّث :كنت إذا سألت أُعطيت، وإذا سكتّ ابتُدئت، وبين الجوانح علمٌ جمّ فاسألوني»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «إذا أنعم الله على عبده بنعمة وظهرت عليه سمّي حبيب الله محدثاً بنعمة الله، وإذا أنعم الله على عبده بنعمةٍ فلم تظهر عليه سمّي بغيض الله مكذباً بنعمة الله»[٣].

قيل: إنّما قدّم الله حقّ اليتيم والفقير على حقّ نفسه للإشعار بأنّه غنيّ، واليتيم والفقير محتاجان، فإذا كان كذلك فتقديم المحتاج اولى، وإنّما قال: ﴿فَحَدِّثْ﴾ ولم يقل: فأخبِر، لدلالة الحديث على الإعادة مرّة بعد أُخرى لئلا ينساه[٤].

قد مرّ ثواب تلاوة السورة المباركة، والحمد لله على التوفيق لتفسيرها.

---

١. تفسير الرازي ٣١: ٢٢٠.

٢. تفسير الرازي ٣١: ٢٢٠.

٣. الكافي ٦: ٢/٤٣٨، تفسير الصافي ٥: ٣٤٢.

٤. تفسير الرازي ٣١: ٢٢٠.

في تفسير سورة الشرح

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ[١]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ المتضمّنة لبيان منّته تعالى على الرسول ﷺ، نُظِمت سورة الانشراح المتضمّنة أيضاً لبيان بعض منّته الأُخرى، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع سبحانه في تعديد بعض نِعمه على رسوله ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ ولم نوسّع ﴿لَكَ﴾ يا محمد ﴿صَدْرَكَ﴾ ولم نفسح قلبك للعلم والحكمة وتلقّي الوحي؟ بلى وسّعناه بحيث صار خزانة علمي، ومحيطاً بعوالم المُلك والملكوت، ومطّلعاً على أسرار السماوات والأرض.

رُوي أن جَبْرئيل أتاه وشقّ صدره، وأخرج قلبه وغسله وأنقاه، ثمّ ملأه علماً وإيماناً ووضعه في صدره[١].

أقول: لعلّ غسل قلبه وإنقاءه كناية عن تقويته لتحمّل ما فوق طاقة البشر من العلوم والأسرار والمعارف، وتطهيره عن الميل إلى غير الله، والتوجه إلى الراحة واللذائذ الدنيوية وقبول الأهواء الرائعة النفسانية. وقد أشار سبحانه إلى مرتبة منه بقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾[٢].

وقد سبق في تفسير الآية وأنّه عن النبي ﷺ، أنّه قيل له: أينشرح الصدر؟ قال: «نعم» قالوا: يا رسول الله، وهل لذلك علامة يُعرَف بها؟ قال: «نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإعداد للموت قبل نزوله»[٣].

أقول: فمن كان قلبه متوجّهاً إلى الله مُعرِضاً عن غيره لعلمه بحقارة الممكنات وعظمة خالقها، صار منزّهاً عن كلّ دَنَسٍ مُطهّراً عن كلّ رِجْسٍ، مُنوّراً بأنوار المعارف، ومملوءاً بالعلم والحكمة.

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٢.   ٢. الأنعام: ١٢٥/٦.   ٣. تفسير الرازي ٣٢: ٣.

وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ[٢ ـ ٤]

ثمّ مَنّ سبحانه عليه بتخفيف أعباء الرسالة بقوله: ﴿وَوَضَعْنَا﴾ وحَطَطنا ﴿عَنكَ وِزْرَكَ﴾ وثقلك ﴿ٱلَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ قيل: إنّ الحِمل إذا كان في غاية الثقل سُمِع للظهر صوت خفيّ يقال له النقيض[١]. فوصف الثّقل بكونه مُنقِضاً، كناية عن كونه في غاية الثُقل، وليس هو إلّا ثِقل أعباء الرسالة، وقد خفّفه الله عليه بتقوية قلبه، وإمداداً بعلي بن أبي طالب عليه السلام والملائكة المسوّمين.

وقيل: إنّ المراد بالوِزر وذنوب اُمّته، والمراد بوضعها وعده بقبول شفاعته فيهم حتّى يرضى[٢].

قيل: إنّ عطف ﴿وَوَضَعْنَا﴾ على معنى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ والمعنى: إنّا شرحنا لك صدرك، وإنّا وضعنا عنك وِزرك[٣]. ﴿وَ﴾ إنا ﴿رَفَعْنَا﴾ وعلونا ﴿لَكَ ذِكْرَكَ﴾ بحيث تُذكَر إذا ذُكِرت، كما عن القمّي[٤].

وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: «قال: لي جَبْرَئيل: قال الله عزّ وجلّ: إذا ذُكِرت ذُكِرت معي»[٥].

وقيل: إنّه تعالى رفع ذكره[٦] بالنبوة، وشهر اسمه في السماوات والأرضين، وكتبه على العرش، وفي الكتب السماوية المتقدّمة، وقرن ذكره بذكره في القرآن حيث قال: ﴿أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾[٧] وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[٨] إلى غير ذلك[٩].

فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً[٥ و ٦]

ثمّ لمّا كان المشركون يُعيرّونه بالفقر حتّى وقع في قلبه أنّ فقره مانعٌ عن إسلام المتكبّرين، سلبه سبحانه بقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾ والضيق الذي أنت فيه ﴿يُسْراً﴾ وسَعَة كاملة في الدنيا، فلاتحزن بالفقر الذي يَطْعَنك به الكفره، كذا قيل[١٠].

ثمّ بالغ سبحانه في تسليته بتَكْرار القضية تأكيداً بقوله: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً﴾ قال الفرّاء والزجاج: إنّ العسر المعرف بأل منصرفٌ إلى الجنس لعدم العهد وهو حقيقة واحدة، وأمّا كلمة ﴿يُسْراً﴾ لمّا كان منكراً قابلة لإرادة نوعين منه، كما عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «لن يغلِب عُسرٌ يُسرين»[١١].

وعن ابن عباس أنّه قال: يقول الله، خلقت عُسراً واحداً بين يُسرين، فلن يغلِب عسرٌ يُسرين[١٢].

قيل: إنّ تنكير اليُسر دالٌّ على عظمته، كأنّه قال: [إنّ] مع العُسر يُسراً عظيماً[١٣]، والمراد بالمعية مع كونهما ضدّين التعاقب بغير فصل، أو مع الفصل بزمان قليل.

١و٢. تفسير الرازي ٣٢: ٤.
٣. تفسير أبي السعود ٩: ١٧٢.
٤. تفسير القمي ٢: ٤٢٨، تفسير الصافي ٥: ٣٤٣.
٥. مجمع البيان ١٠: ٧٧١، تفسير الصافي ٥: ٣٤٣.
٦. في النسخة: ذكرنا.
٧. النساء: ٥٩/٤.
٨ التوبة: ٦٢/٩.
٩. تفسير الرازي ٣٢: ٥.
١٠ ـ١٣. تفسير الرازي٣٢: ٦.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾[٧ و ٨]

ثمّ إنّه تعالى بعد تعديد نعمه الجليلة أمره بالشكر والاجتهاد في العبادة بقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ من تبليغ الرسالة، أو من تنظيم ما هو من ضروريات معاشك، أو من المهام الدنيوية، أو من الجهاد ﴿فَانصَبْ﴾ وأتعب نفسك في العبادة.

وقال جمعٌ من المفسرين: يعني إذا فرغت من الصلاة المكتوبة، فانصَب نفسك في الدعاء[1] ﴿وَإِلَىٰ﴾ مسألة ﴿رَبِّكَ﴾ وحده ﴿فَارْغَب﴾ وبقلبك إليه فتوجّه.

عن الباقر والصادق عليهما السلام: «فاذا فرغت من الصلاة المكتوبة، فانْصَب إلى ربّك في الدعاء، وارغب إليه في المسألة يُعطِك»[2].

وعن الصادق عليه السلام: «هو الدعاء في دُبر الصلاة وأنت جالس»[3].

وقيل: يعني إذا فرغت من عبادة عقبها بأُخرى وأوصل بعضها ببعض، ولاتُخلِّ وقتاً من أوقاتك فارغاً لم تَشْغَله بعبادة[4].

وعن الباقر عليه السلام، قال: «فاذا فرغت من نبوّتك، فانصِب علياً عليه السلام، وإلى ربّك فارغب في ذلك»[5].

وعنه عليه السلام في حديث قال: «يقول الله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ عَلَمَك وأعلن وصيّك، وأعلمهم فضله علانيةً، فقال: من كنت مولاه ...» قال: «وذلك حين أعلم بموته نُعيت إليه نفسه»[6].

أقول: يُحتمل أن تكون هذه الأخبار بيان مصداق العبادة التي وجب إتعاب النفس فيها بعد الفراغ من العبادة، والمراد إذا فرغت من تبليغ الرسالة فأتعب نفسك فيما هو الأهمّ بعده، وهو تعيين الخليفة، فظهر أنّ صحّة مضمون الأخبار ليست موقوفةً على قرابة، فانصب بكسر الصاد من النَّصْب بالسكون فنسبة الزمخشري المتعصّب قراءة (فانصِب) بالكسر وتفسيره بالأمر بنصب عليّ عليه السلام للإمامة إلى بدع الشّيعة من الأغلاط.

ثمّ اعلم أنّ قوله ـ: بأنّه لو صحّ هذا للرافضي لصحّ للناصبي أن يقرأ هكذا، ويجعله أمراً بالنصب الذي هو بُغض عليّ وعداوته[7] ـ ممّا تضحك به الثكلى؛ لأنّ جواز بغض عليّ عليه السلام مخالفٌ لضرورة الاسلام والأخبار المتواترة الدالة على وجوب حبّه وولايته، نعوذ بالله من خُبث الطينة، وعمى القلب، وسُوء السريرة، والضلال عن الحقّ.

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٧، تفسير أبي السعود ٩: ١٧٣، تفسير البيضاوي ٢: ٦٠٧.
٢و٣. مجمع البيان ١٠: ٧٧٢، تفسير الصافي ٥: ٣٤٤. ٤. تفسير الرازي ٣٢: ٧.
٥. تفسير القمي ٢: ٤٢٩، وتفسير الصافي ٥: ٣٤٤، عن الصادق عليه السلام.
٦. الكافي ١: ٣/٢٣٣، وتفسير الصافي ٥: ٣٤٤، عن الصادق عليه السلام. ٧. الكشاف ٤: ٧٧٢.

عن الصادق عليه السلام: «ولايُجمَع بين سورتين في ركعة واحدة إلّا الضحى وألم نشرح، وألم تر كيف ولإيلاف قريش»[1].

وقد سبق ثواب قراءتها في سورة (والشمس) وفي رواية: «من قرأها فكأنّما جاءني وأنا مُغتمّ ففرّج عنّي»[2].

قد تمّ تفسير السورة المباركة.

---

١. مجمع البيان ١٠: ٨٢٧، تفسير الصافي ٥: ٣٤٥.
٢. تفسير أبي السعود ٩: ١٧٣.

في تفسير سورة التين

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ[١]

ثمّ لمّا خُتِمت السورتان المتضمّنتان لمنن الله على أشرف الخلق وأفضل البشر، نُظِمت سورة التين، المتضمّنة لبيان منّته على عموم البشر بتحسين خلقهم، وعلى مؤمنيهم بالأجر العظيم، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بالقسم بخير الفواكه وأحمدها بقوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ المشهورين، كما عن ابن عباس أنّه قال: هو تينكم وزيتونكم هذا[١]، أمّا القسم بالتين فلفضله وخواصّه، حيث إنّه غذاءٌ وفاكهةٌ ودواءٌ. قيل: إنّ الأطباء قائلون بأنّه طعامٌ لطيفٌ سريع الهضم، يلين الطبع، ويُسمن البدن، ويقلل البلغم، ويطهّر الكليتين، ويُزيل الرمل المتكون في المثانة ويفتح مسامّ الكَبِد والطِّحال[٢].

وروي: أنّه أُهدي لرسول الله ﷺ طبق من تين، [فاكل منه] ثمّ قال للصحابة: «كُلوا. فلو قلت: إن فاكهةً نزلت من الجنة لقلت هذه، لأنّ فاكهة الجنّة بلاعَجَم، فكُلوها فانّها تقطع البواسير، وتنفع من النِّقْرس»[٣].

وعن الرضا عليه السلام بطريق عامّي: «التين يزيد نَكْهة الفم، ويُطوّل الشعر، وهو أمان من الفالج»[٤].

وأمّا الزيتون فهي ثمرة الشجرة المباركة المذكورة في القرآن، هو أيضاً غذاءٌ ودواءٌ وفاكهةٌ، ودُهنه كثير المنافع مع حصوله في بقاع لادُهن فيهاكالجبال، قيل: تُعمّر شجرته ثلاثة آلاف سنّة، وتصبِر عن الماء مدّةً طويلةً، ورماد ورقها ينفع العين كُحلاً ويقوم مقام التُّوتيا[٥].

وفي الحديث العامي: «عليكم بالزيت، فانّه يكشف المِرّة، ويُذهِب البلغم، ويشُدّ العصب، ويمنع

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٨ ٢. تفسير الرازي ٣٢: ٨

٣. تفسير الرازي ٣٢: ٨ والنِقْرس: مرض مؤلم يحدث في مفاصل القدم وفي إبهامها أكثر، ويسمّى داء الملوك.

٤. تفسير الرازي ٣٢: ٨ ٥. تفسير روح البيان ١٠: ٤٦٦، والتُّوتياء: حجرٌ يُكتَحَل بمسحوقه.

الغشي، ويُحسن الخلق، ويطيّب النفس، ويُذهِب الهمّ»[١].

وعن ابن عباس: أنّ التين والزيتون جبلان من الأرض المقدّسه يقال لهما بالسريانية: طور تينا وطور زيتاً لأنهما منبتاً للتين والزيتون، وشرّفا لأنّ الأول محلّ عيسى بن مريم، والثاني هو الشام، وهو مبعث أكثر الأنبياء من بني إسرائيل[٢].

وقيل: إن التين مسجد دمشق، والزيتون مسجد بيت المقدس[٣].

وقيل: إنّ الاول مسجد أصحاب الكهف، والثاني مسجد إيليا[٤].

وعن ابن عباس: التين مسجد نوح النبي على الجُودي، والزيتون مسجد بيت المقدس[٥]، وإنّما سُمّيت تلك المساجد بهذين الاسمين لكثرة الشجرين في مكانها[٦].

وقيل: إنّ التين اسم دمشق[٧]. وقيل: اسم الكوفة، والزيتون اسم بيت المقدس[٨]. وقيل: اسم الشام[٩].

قيل: إنّما أقسم سبحانه بهذين البلدين لكثرة نِعم الدنيا فيهما[١٠].

وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ[٢ و ٣]

ثمّ أقسم سبحانه بالطّور، وهو جبل كلّم الله موسى عليه بقوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ قيل: إنّ ﴿سِينِينَ﴾ و ﴿سَيْنَاءَ﴾ اسمان للوادي الذي فيه ذلك الجبل[١١].

وعن ابن عباس: أنّ ﴿سِينِينَ﴾ بمعنى الحسن بلغة الحبشة[١٢]. وقيل: بمعنى المبارك[١٣]. وقيل: بمعني ذي شجر، والمراد القسم بجبلٍ واقعٍ بأرضٍ حسنةٍ ومباركة[١٤].

ثمّ إنّه تعالى بعد القسم بالأماكن التي يُعظّمها اليهود والنصارى أقسم بالمكان الذي يُعظّمه المشركون والمسلمون بقوله: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ وتلك القرية الآمنة من الغوائل، وهي بالاتفاق مكّة المعظّمة، وإنّما أقسم سبحانه بهذين المكانين لغاية شرفهما، بكون الأول مبعث موسى، والثاني مبعث خاتم الأنبياء، ولكثرة النِّعم الدينية فيهما.

عن الكاظم عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله تبارك وتعالى اختار من البُلدان أربعة، فقال: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ فالتين المدينة، والزيتون بيت المقدس،

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٦٧.
٢ و٣. تفسير الرازي ٣٢: ٩.
٤ و٥. تفسير الرازي ٣٢: ٩، تفسير أبي السعود ٩: ١٧٤.
٦. تفسير الرازي ٣٢: ٩.
٧. تفسير الرازي ٣٢: ١٠، تفسير أبي السعود ٩: ١٧٤.
٨ـ٩. تفسير الرازي ٣٢: ١٠.
١١. تفسير الرازي ٣٢: ١٠، تفسير روح البيان ١٠: ٤٦٧.
١٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٠.
١٣ و١٤. تفسير الرازي ٣٢: ١٠.

وطور سنين الكوفة، وهذا البلد الأمين مكة»[١].

وعنه عليه السلام في تأويل الكلمات قال: «التين والزيتون الحسن والحسين عليهما السلام، وطور سينين أمير المؤمنين عليه السلام، وهذا البلد الأمين محمد»[٢].

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ [٤ و ٥]

ثمّ ذكر سبحانه المُقسم عليه بقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾ وأوجدنا ﴿ٱلْإِنسَانَ﴾ كائناً ﴿فِى أَحْسَنِ﴾ ما يكون من ﴿تَقْوِيمٍ﴾ وتعديل صورةً[٣] ومعنىً، حيث سواه مستوي القامة، متناسب الأعضاء، حَسَن الشكل، مدبّراً في الأمور، متصرّفاً في الموجودات، جامعاً لأنموذج ما في عالم الوجود، قابلاً[٤] للكمالات الظاهرية والباطنية ﴿ثُمَّ﴾ بعد استجماعه لجميع ما يتوقّف عليه صعوده إلى أعلى عِلّيين ﴿رَدَدْنَاهُ﴾ بالخِذلان وسوء الأخلاق والأعمال من أحسن تقويم وجعلناه ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ وأقبح[٥] المخلوقين وأنزل الموجودين، وصيرناه إلى النار.

رُوي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «وضع أبواب جهنّم بعضها أسفل من بعض، فيبدأ بالأسفل فيُملا وهو أسفل سافلين»[٦].

وعن ابن عباس: يُريد أرذل العمر[٧]، والمعنى ثمّ جعلناه أضعف الضعفاء، وهم الزمنى الذين لايستطيعون حيلةً ولايجدون سبيلاً.

إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ [٦ و ٧]

ثمّ اعلم أنّه على التفسير الأول يصِحّ الاستثناء المتّصل بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ﴾ في الآخره ﴿أَجْرٌ﴾ وثواب ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ومنقطع ولا منقوص، أو المراد ثواب لامِنّة فيه.

وعلى التفسير الثاني يكون الاستثناء منقطعاً، والمعنى: ولكن الضُّعفاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ دائمٌ على إيمانهم وأعمالهم وصبرهم على الابتلاء بالضَّعف والهَرَم على مقاساة المَشاقّ وتَحمُّل كُلفة العبادة.

وعن الكاظم عليه السلام في تأويل الآيات قال: «الانسان: الأوّل ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ ببغضه أمير

---

١. الخصال: ٥٨/٢٢٥، معاني الأخبار: ١/٣٦٤، تفسير الصافي ٥: ٣٤٦.

٢. مناقب ابن شهرآشوب ٣: ٣٩٤، تفسير الصافي ٥: ٣٤٦.

٣. في النسخة: صورتنا.

٤. في النسخة: قائلاً.

٥. في النسخه: وافتح.

٦ و٧. تفسير الرازي ٣٢: ١١.

المؤمنين عليه السلام ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ الى آخره، قال: علي بن أبي‌طالب عليه السلام»[١].

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أيّها الانسان، وأيّ شيءٍ يُلجئك ويحمِلك ﴿بَعْدُ﴾ ووراء الآيات البينات والمعجزات الباهرات على التكذيب ﴿بِالدِّينِ﴾ ودار الجزاء؟ أو المراد: فما يجعلك أيّها الانسان كاذباً بسبب الدين وإنكاره بعد هذا الدليل؟ وهو خلق الانسان من نُطفةٍ من ماءٍ مَهين في أحسن تقويم، فانّ القادر على ذلك قادرٌ على البعث والجزاء، أو المراد: فأيّ، يُكذّبك يا محمد بعد ظهور هذه الدلائل بالدين.

أَلَيْسَ ٱللهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَاكِمِينَ[٨]

ثمّ إنّه تعالى بعد إثبات قدرته ببيان خلقة الانسان في احسن الصور وردّه إلى أقبحها، أو إلى أرذل العمر، أنكر على من أنكر حكمته بإنكار البعث للجزاء بقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللهُ﴾ الذي فعل ما فعل ﴿بِأَحْكَمِ ٱلْحَاكِمِينَ﴾ وأتقن من جميع المتقنين للاُمور صُنعاً وتدبيراً؟ فاذا قالوا: بلى، لعدم إمكان إنكاره، كان عليهم الاقرار بالإعادة والجزاء؛ لأنّ إنكارهما لايمكن إلّا لقولهم بعجزه عن الإعادة، أو لقولهم بكونه عابثاً، وكلاهما منافٍ للاقرار بكونه تامّ القدرة[٢] والحكمة.

وقيل: إنّ المعنى: أليس الله بأقضى القاضين؟ فهو يحكم ويقضي بينك وبين من يُكذّبك في الرسالة والإخبار بالبعث، فهو وعيدٌ للمكذّبين[٣].

رُوي عن أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان إذا قرأها يقول: «بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين»[٤].

رُوي أنّه صلى الله عليه وآله كان يأمُر أصحابه أن يقولوا إذا قرأوها ذلك[٥].

ورُوي عن أمير المؤمنين وعن الرضا عليه السلام أنهما لمّا قرآها قالا: «بلى، وإنّا على ذلك من الشاهدين»[٦].

رُوى عن بعض العامة: أنّ من قرأ هذه السورة أعطاه الله خَصْلتين: العافية، واليقين، مادام في الدنيا [فاذا مات أعطاه الله] من الأجر[٧] بعدد من قرأها»[٨].

وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ (والتين) في فرائضه ونوافله، أعطى من الجنّة حيث يرضى»[٩].

الحمد لله على التوفيق لتفسيرها.

---

١. مناقب ابن شهرآشوب ٣: ٣٩٤، تفسير الصافي ٥: ٣٤٧.
٢. في النسخة: القدر.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٤٧٠.
٤. مجمع البيان ١٠: ٧٧٧، تفسير أبي السعود ٩: ١٧٦، تفسير روح البيان ١٠: ٤٧٠.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٤٧٠.
٦. الخصال: ٦٢٩، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٥/١٨٣، تفسير الصافي ٥: ٣٤٧.
٧. في النسخة: ويعطى من الأجرة.
٨ تفسير البيضاوي ٢: ٦٠٨، تفسير أبي السعود ٩: ١٧٦.
٩. ثواب الأعمال: ١٢٣، مجمع البيان ١٠: ٧٧٤، تفسير الصافي ٥: ٣٤٧.

في تفسير سورة العلق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت السورة المباركة المتضمّنة لبيان نِعم الله على الانسان بخلقه في أحسن تقويم وأنّه مع ذلك يُرَدّ إلى أسفل سافلين، نُظِمت سورة العلق المتضمّنة لبيان خلقه من أخسّ الأشياء، وترقّيه إلى أعلى الدرجات من العلم بالكتاب وتعليمه العلوم، وطِغيانه مع ذلك على الله العظيم، فافتتحها بذكر الاسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ولمّا ذكر سبحانه في السورتين السابقتين منّته على رسوله، ابتدأ السورة بذكر أعلى منّته عليه، وهو رسالته وإنزال الوحى إليه بقوله: ﴿اَقْرَأْ﴾ يا محمد، ما يُوحى إليك من كتاب ربّك، رُوي أنّه ﷺ قال: «كيف اقرأ، وما أنا بقارئ؟» فكأنّه تعالى قال: اقرأ القرآن مفتتحاً أو مستعيناً[1] ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وإنّما وصف سبحانه ذاته المقدّسة بالربوبية وأضافها إليه ليزول الفَزَع عنه؛ لأنّه أول ما أنزل إليه. عن الباقر عليه السلام قال: «إنّها أوّل سورة نزلت»[2].

وليرغّبه في طاعته، فكأنّه تعالى قال: هو الذي ربّاك حين كنت علقاً، فكيف يُضيّعك بعد ما صرت أشرف الموجودات.

ثمّ قيل: لمّا كانت العرب يُطلقون الربّ على الصنم، ويُسمّون الأصنام أرباباً[3]، وصف ذاته المقدّسة بما يُخرِجه عن توهّم الشركة، وبما لايمكنهم إنكاره وإثباته للأصنام بقوله: ﴿اَلَّذِى خَلَقَ﴾ كلّ شيءٍ بقدرته، لاعترافهم بأنّ الخلق مختص بالله وحده. وعن الباقر عليه السلام: «الذي خلق نورك القديم قبل الأشياء»[4].

ثمّ خصّ سبحانه الانسان بالذكر لاستقلاله ببديع الصنع والتدبير، أو بيّن ما أبهم في قوله: ﴿اَلَّذِى

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٣.

٢. تفسير القمي ٢: ٤٢٨، تفسير الصافي ٥: ٣٤٨.

٣. تفسير روح البيان ١٠: ٤٧٢.

٤. تفسير القمي ٢: ٤٣٠، تفسير الصافي ٥: ٣٤٨.

خَلَقَ﴾ بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَانَ﴾ الذي هو أعجب المخلوقات وأشرفها ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ وقطعات دم متكوّنة من نُطَفٍ قَذِرة، وإنّما قال: ﴿عَلَقٍ﴾ بصيغة الجمع باعتبار معنى الانسان وكثرته، أو لمراعاة الفواصل، فنبّه سبحانه على أنّ من خلق الانسان الحي القادر القابل للكمالات العلمية والعملية من مادة خسيسة بعيدة من الحياة، قادرٌ على أن يُعلّمك القراءة وأنت حيّ متكلّمٌ قابل للعلوم.

ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ * كَلاَّ إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَآهُ ٱسْتَغْنَىٰ[٣ـ٧]

ثمّ أكّد سبحانه وجوب القراءة بقوله ثانياً: ﴿ٱقْرَأْ﴾ وقيل: إنّ الأول أمر بقراءته لنفسه، والثاني أمر بقراءته للتبليغ والتعليم[١].

ثمّ استانف سبحانه ذكر أوصافه ومننه بقوله: ﴿وَرَبُّكَ﴾ هو ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ المبالغ في الإحسان والجُود حيث إنّه يُحسِن بعبيده بعد العِصيان والتقصير كما يُحسِن قبله، وإنّ كلّ كريم يَنال بكرمه خيراً لنفسه، وربّك لايكون كرمه إلّا لمحض حُسنه. وقيل: يعني أنت كريمٌ، وربّك أكرم منك[٢]، ومن كرمه أنّه ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ﴾ الانسان الكتابة ﴿بِالْقَلَمِ﴾ وفيه تنبيهٌ على فضيلة الكتابة والخطّ.

رُوي عن سليمان عليه السلام أنّه سأل عفريتاً عن الكلام فقال: ريح لايبقى. قال: فما قيده؟ قال: الكتابة[٣].

قيل: إنّ القلم لاينطِق، ومع ذلك يُسمِع الشرق والغرب[٤] ولولا الخطّ ما استقامت اُمور الدين والدنيا[٥].

وقيل: إنّ المراد علّم الانسان بسبب الكتابة وقراءة الكتب، فالقلم كنايةٌ عن الكتابة[٦].

ثمّ بيّنه بقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَانَ﴾ بسبب مطالعة الكتب ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وأمّا على التفسير الأول يكون تعليمه علوماً كثيرةً نعمة فوق نعمة تعليم الخطّ، فذكر سبحانه في السورة مبدأ الانسان ومنتهاه، وامتنّ عليه بنقله من أدنى المراتب وهي المرتبة العلقية الخسيسة النَجِسة إلى أعلاها، وهي مرتبة العلم، وهو أشرف الكمالات الانسانية، ومن الواضح أنّ ذلك لايكون إلّا بقدرة قادر حكيم، فيدُلّ على ربوبيته وأكرميته واستحقاقه للطاعة والعبودية.

﴿كَلاَّ﴾ لايعلم الانسان أنّ الله هو الذي خلقه من العَلَقة وعلّمه بعد جهله، ثمّ بيّن سبحانه علّة غفلته بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ ويتكبّر ويصير مستغرق القلب في حبّ الدنيا لأجل ﴿أَن رَآهُ﴾ وعَلِم

١و٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٦.
٣و٤. تفسير الرازي ٣٢: ١٧.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٤٧٣.
٦. تفسير الرازي ٣٢: ١٧.

شخصه أنّه ﴿ٱسْتَغْنَىٰ﴾ وصار ذا مالٍ وجاهٍ وقدرةٍ فلايتفكّر في أطوار خلقته وترقّيه من أخسّ الأحوال إلى أعلاها، وأنّه من أول وجوده تحت قدرة قادرٍ قاهرٍ حكيم.

وقيل: إنّ كلمه ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لمن كفر بنعمة الله بطغيانه[١].

رُوي أنّ أباجهل قال لرسول الله ﷺ: أتزعُم أنّ من استغنى طغى، فاجعل لنا جبال مكّة فِضّةً وذهباً، لعلّنا نأخُذ منها فنطغى، فندع ديننا ونتّبع دينك. فنزل جَبْرئيل فقال: إن شئت فعلنا ذلك، ثمّ إن لم يؤمنوا فعلنا بهم ما فعلنا بأصحاب المائدة، فكفّ رسول الله ﷺ عن الدعاء إبقاءً عليهم ورحمةً لهم[٢].

إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰ * أَرَأَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ [٨ ـ ١٠]

ثمّ هدّد سبحانه الانسان الطاغي عليه بقوله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ ومالك أمرك وحده أيّها الانسان ﴿ٱلرُّجْعَىٰ﴾ والمصير بالموت، أو بالبعث، فترى سوء عاقبة طغيانك.

وقيل: إنّ المعنى أنّ مرجِع الانسان إلى الله، فكما أنّه ردّه من النقصان إلى الكمال، يَرُدّه ويُرجِعه إلى النقصان والفقر والموت[٣].

ثمّ بيّن سبحانه غاية طغيان الانسان مُظهراً للتعجّب منه بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ وهل عاينت يا محمد، أو أيّها الرائي، الطاغي ﴿ٱلَّذِى﴾ بلغ بطغيانه إلى أنّه ﴿يَنْهَىٰ﴾ ويمنع عن الصلاة والقيام بوظيفة العبودية لربّ الأرباب ﴿عَبْداً﴾ مُمحضاً في العبودية له ﴿إِذَا صَلَّىٰ﴾ وقام بخدمة مولاه؟

رُوي أنّ أباجهل قال في ملأ من طُغاة قريش: هل يُعفّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم. قال: فوالذي نحلِف به لئن رأيته يُصلّي لأطِئنّ عنقه، ثمّ إنّه رأى رسول الله ﷺ في الصلاه ـ قيل: هي صلاه الظهر ـ فجاءه[٤]، وقيل: همّ أن يُلقى على رأسه حَجَراً فنَكَص على عقبيه، فقالوا: مالك؟ فقال: إنّ بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً شديداً أجنحة[٥]. وقال نبي الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عضواً عضواً» فنزلت[٦].

قال الفخر الرازي في وجه إظهار الله تعالى العجب من طغيان أبي جهل ومنعه الرسول ﷺ عن

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٧٤.

٢. تفسير الرازي ٣٢: ٢٠، تفسير أبي السعود ٩: ١٧٨، تفسير روح البيان ١٠: ٤٧٤. ٣. تفسير الرازي ٣٢: ٢٠.

٤. تفسير روح البيان ١٠: ٤٧٥.

٥. في النسخة: واضحة، والمراد أجنحة الملائكة، تفسير روح البيان ١٠: ٤٧٥.

٦. مجمع البيان ١٠: ٢٨٢، تفسير الصافي ٥: ٣٤٩، تفسير الرازي ٣٢: ٢٠، تفسير روح البيان ١٠: ٤٧٥.

الصلاة: إنّه يُروى أنّ يهودياً من فُصحاء اليهود جاء إلى عمر في أيّام خلافته، فقال: أخبرني عن أخلاق رسولكم. فقال عمر: اطلُبه من بِلال، فهو أعلم به منّي. ثمّ إنّ بلالاً دلّه على فاطمة، ثمّ فاطمة دلّته على عليّ عليه السلام، فلمّا سأل علياً عنه قال: «صف لي متاع الدنيا حتى أصف لك أخلاقه» فقال الرجل: هذا لايتيسّر لي. فقال علي عليه السلام: «عَجَزت عن وصف متاع الدنيا، وقد شَهِد الله على قلّته حيث قال: ﴿مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾[1] فكيف أصف أخلاق النبي صلى الله عليه وآله وقد شَهِد الله تعالى بأنّه عظيم حيث قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾»[2]. فكأنّه قال: ينهى أشدّ الخلق عبودية عن العبودية، وذلك عين الجهل والحُمق[3].

وقيل: إنّ أُمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة[4].

وعن القمي: كان الوليد بن المُغيرة ينهى الناس عن الصلاة وأن يُطاع الله ورسوله[5].

أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ * كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ[١١ـ١٥]

ثمّ بيّن سبحانه غاية سَفاهة هذا الطاغي بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا محمد ﴿إِن كَانَ﴾ هذا الطاغي ثابتاً ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ودين الحقّ، كما أنت عليه ﴿أَوْ أَمَرَ﴾ الناس ﴿بِالتَّقْوَىٰ﴾ والاحتراز عن الشرك كما تأمُر، أما كان خيراً له من الكفر بالله والنهي عن طاعته.

وقيل: إنّ الخِطاب مع الكافر، فانّه تعالى بعد خطاب النبي صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ﴾ التفت إلى الكافر، وقال: أرأيت يا كافر إن كان النبيّ في صلاته على الهدى، ودعاءه إلى الله أو أمر بالتقوى، أتنهاه مع ذلك؟ فجعل سبحانه نفسه كالحاكم الذي حضر عنده المُدّعي والمدّعى عليه، فخاطب هذا مرّة وهذا أُخرى[6].

ثمّ خاطب نبيه صلى الله عليه وآله بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا محمد، وأخبرني ﴿إِن﴾ كان الكافر ﴿كَذَّبَ﴾ الدلائل التي ذكرنا مع كونها ظاهرة جلية عند كلّ عاقلٍ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض عن الصلاة التي هي أهم خدمات مولاه ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ﴾ بعقله ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ منه هذه القبائح ويُجازيه عليها في الآخرة فيَزْجُره علمه ذلك عن ارتكابها؟

وقيل: إنّه خطاب مع الكافر، والمراد: أرأيت أيّها الكافر إن كان محمدٌ كذب بآيات الله وتولّى عن

---

١. النساء: ٧٧/٤. ٢. القلم: ٤/٦٨. ٣. تفسير الرازي ٣٢: ٢١.
٤. تفسير الرازي ٣٢: ٢٠، تفسير أبي السعود ٩: ١٨٠.. ٥. تفسير القمي ٢: ٤٣٠، تفسير الصافي ٥: ٣٤٩.
٦. تفسير الرازي ٣٢: ٢١.

خدمة مولاه، ألم يعلم بأنّ الله يراه ويُعاقبه عليه حتّى ينتهي بعلمه ذلك[١].

ثمّ ذمّ سبحانه الكافر بقوله: ﴿كَلَّا﴾ لا يعلم بأنّ الله يرى ووالله ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ ولم يرتدع عمّا هو فيه من الطغيان ﴿لَنَسْفَعاً﴾ ولنأخذنّ البتة يوم القيامة ﴿بِالنَّاصِيَةِ﴾ وشعر مقدّم رأس هذ الكافر الطاغي بشدّة ونسحبنه بها إلى النار.

نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ * فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ[١٦-١٨]

ثمّ بالغ سبحانه في ذمّه بالكذب في إنكار الآيات والرسالة والبعث، وخطئه في إيذاء الرسول ﷺ بتوصيف ناصيته بالكذب والخطأ، بقوله: ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ فإنّ اللعين بإصراره على الكذب والخطأ صار بحيث يظهر الكذب والخطأ من ناصيته وشعر مقدّم رأسه، وفي الجرّ بالناصية غاية الإذلال والإهانة.

قيل: إنّ المراد من قبض ناصيته قبضها في الدنيا إن عاد إلى النهي عن الصلاة، فعاد إلى النهي[٢].

رُوي أنّه لعنه الله مرّ برسول الله ﷺ وهو يصلّي فقال: ألم أنهك، فأغلظ رسول الله ﷺ في جوابه، فقال: أتُهدّدني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً؟! يُريد كثرة من يُعينه، فنزلت[٣] ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ وأهل مجلسه ليُعينوه ﴿سَنَدْعُ﴾ في مقابل أعوانه ﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ وملائكة العذاب، فلمّا عاد إلى النهي مكّن الله المسلمين من ناصيته يوم بدر فجرّوه على وجهه.

رُوي أنّه لمّا نزلت سورة الرحمن قال ﷺ: «من يقرأها على رؤساء قريش؟» فتثاقلوا، فقام ابن مسعود رضي الله عنه فقال: أنا يا رسول الله، فأجلسه، ثمّ قال ثانياً: «من يقرأها عليهم؟» فلم يقم إلّا ابن مسعود، ثمّ قال ثالثاً فقال ابن مسعود: أنا، فأذِن له، وكان ﷺ يتّقي عليه، لما كان يعلم من ضَعْفه وصِغر جثّته، ثمّ إنّه وصل إليهم فرآهم مجتمعين حول الكعبة، فافتتح قراءة السورة، فقام أبوجهل فلطمه فشقّ أُذنه وأدماها، فانصرف وعينه تدمع، فلمّا رآه ﷺ رقّ قلبه وأطرق رأسه مغموماً، فاذا جَبْرئيل جاء ضاحكاً مستبشراً، فقال: «يا جَبْرئيل تضحك ويبكي ابن مسعود!» فقال: سيعلم. فلمّا ظَفِر المسلمون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في الجهاد، فقال ﷺ له: «خُذ رُمحك والتمس في الجرحى من كان له رَمَقٌ فاقتله، فانّك تَنال ثواب المجاهدين» فأخذ يُطالع القتلى، فاذا أبوجهل مصروعٌ يخور، فخاف أن يكون به قوة فيُؤذيه، فوضع الرمح في مَنْحَره من بعيدٍ فطعنه. ولعلّ هذا

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٢٢.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٤٧٦.
٣. تفسير الرازي ٣٢: ٢٥، تفسير أبي السعود ٩: ١٨٠، تفسير الصافي ٥: ٣٥٠.

[معنى] قوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾[1] على رواية ابن عباس أنّه نزل فيه، ثمّ لمّا عرف عجزه لم يقدر أن يصعد على صدره لضعفه، فارتقى عليه بحيلة، فلمّا رآه أبوجهل قال له: يا رُويعي الغنم، لقد ارتقيت مُرتقاً صعباً. فقال ابن مسعود: الاسلام يعلو ولايُعلى عليه فقال له أبوجهل: أبلغ صاحبك أنّه لم يكن أحدٌ أبغض إليّ منه في حال مماتي.

رُوي أنّه ﷺ لمّا سَمِع ذلك قال: فرعوني أشدّ من فرعون موسى، فانّه قال حين موته ﴿آمَنْتُ﴾[2] وهو قد زاد عتواً.

ثمّ قال اللعين يابن مسعود، اقطع رأسي بسيفي هذا، فانّه أحدّ وأقطع. فلمّا قطع رأسه لم يقدِر على حمله، فشقّ أُذنه، وجعل الخيط فيها، وجعل يَجُرّه إلى رسول الله ﷺ وجبرئيل بين يديه يضحك، ويقول: يا محمد، أُذن بأُذن [لكن] الرأس هنا مع الأُذن مقطوع[3].

قيل: إن الناصية كنايةٌ عن الوجه[4]، ﴿لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ﴾ أي لنلطمنّ وجهه[5]. وقيل: يعني لنسودنّ وجهه[6].

كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ[١٩]

ثمّ لمّا قابل سبحانه دعوة الطاغي ناديه بدعوة الزبانية، ردع نبيّه ﷺ عن الخوف من الطاغي بقوله: ﴿كَلَّا﴾ لايجترئ على أن يدعو ناديه، ولئن دعاهم لن ينفعوه، فهو أذلّ وأحقر من أن يُقاومك، ولذا ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ ولاتعتنِ بنهيه إياك عن الصلاة والسُّجود لربّك ﴿وَٱسْجُدْ﴾ وواضب على صلاتك وخُضوعك لله، ولاتكترث بالطاغي وأمثاله ﴿وَٱقْتَرِبْ﴾ إلى ربّك بالسجود والصلاة له، وتقرّب إليه بعبادته.

في الحديث العامي: «أقرب ما يكون العبد من ربّه إذا سجد»[7] فأكثروا من الدعاء في السجود.

وعن الرضا عليه السلام: «أقرب ما يكون العبد من الله عزّ وجلّ وهو ساجد، وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِبْ﴾»[8].

وقيل: إنّ خطاب ﴿ٱسْجُدْ﴾ مع النبي ﷺ، وخطاب ﴿وَٱقْتَرِبْ﴾ مع أبي جهل، والمعنى: اسجُد أيّها النبي، ولاتعتنِ بنهي من ينهاك، ليزداد غيظاً، واقترب أيّها الكافر وادنُ منه حتّى تُبصر ما يَنالُك من

---

١. القلم: ١٦/٦٨. ٢. يونس: ٩٠/١٠. ٣. تفسير الرازي ٣٢: ٢٣، تفسير روح البيان ١٠: ٤٧٦.
٤. تفسير الرازي ٣٢: ٢٤، تفسير روح البيان ١٠: ٤٧٧. ٥ و٦. تفسير الرازي ٣٢: ٢٣.
٧. تفسير الرازي ٣٢: ٢٦، تفسير أبي السعود ٩: ١٨١.
٨. الكافي ٣: ٣/٢٦٤، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٥/٧، تفسير الصافي ٥: ٣٥٠.

أخذ الزبانية إيّاك[1].

عن الصادق عليه السلام: «أنّ العزائم أربع: **﴿ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾** والنجم، وتـنزيل السـجدة، و [حم] السجدة»[2].

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ في يومه أو ليلته **﴿ٱقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾** ثمّ مات مات شيداً وبعثه الله شهيداً، وأحياه شهيداً، وكان كمن ضرب بسيفه في سبيل الله مع رسول الله صلى الله عليه وآله»[3].

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٢٦.

٢. الخصال: ١٢٤/٢٥٢، مجمع البيان ١٠: ٧٨٣، تفسير الصافي ٥: ٣٥٠.

٣. ثواب الأعمال: ١٢٤، مجمع البيان ١٠: ٧٧٨، تفسير الصافي ٥: ٣٥٠.

في تفسير سورة القدر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت السورة العلق المبدوءه بالأمر بقراءة القرآن العظيم، نُظِمت بعدها سورة القدر المبدوءة بتعظيم القرآن الكريم، وبيان زمان نزوله، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها ببيان عَظَمة القرآن بقوله: ﴿إِنَّا﴾ أثبتنا القرآن الحكيم في اللوح المحفوظ ثم ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ منه جملة ودفعة في البيت المعمور الذي هو أشرف بقاع السماوات، كما في بعض رواياتنا[١]، أو في بيت العزّة الذي يكون في السماء الدنيا، كما في بعض روايات العامة[٢]، وبعض روايات الخاصة[٣] ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾. قيل: إنّ الله سبحانه بيّن أولاً أنّه نزل في شهر رمضان بقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ﴾[٤] ولم يبين أنّه نزل في الليل أو النهار. ثمّ بين أنّه نزل بالليل بقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾[٥] ولم يبيّن أيّها أىّ ليل، ثمّ بيّن في هذه السورة أنّها ليلة القدر[٦].

فلا شُبهة أنّها تكون في شهر رمضان، وإنّما الختلاف في أنّها كانت في ليلة واحدة، لأنّ فضل نزول القرآن كانٰ في ليلة واحدة، وجُلّ العلماء قائلون بانّها باقية في كلّ سنة، ثمّ اختلفوا في أنّها أيّة ليلة. قيل: إنّ الله تعالى أخفاها ولم يُعيّنها ليرغب المؤمنون في إحياء جميع ليالى رمضان طلباً لدرك ثواب إحيائها[٧]، والمشهور قائلون بتعيينها، والأكثر على أنّها في أوتار العشر الأُخر بقوله ﷺ: «التمسوها في العشر الأُخر[٨] من شهر رمضان، فاطلبوها في كلّ وَتْر»[٩].

وأكثر العامّة على أنّها الليلة السابعة والعشرون، ونسبوه إلى ابن عباس[١٠]، وأسندوه إلى اعتبارات

---

١. الكافي ٢: ٦/٤٦٠. ٢. تفسير الرازي ٣٢: ٢٩، تفسير روح البيان ١٠: ٤٧٩. ٣. مجمع البيان ١٠: ٧٨٦.
٤. البقرة: ١٨٥/٢. ٥. الدخان: ٣/٤٤. ٦. تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٠.
٧. تفسير الرازي ٣٢: ٢٩، تفسير روح البيان ١٠: ٤٨١. ٨ في تفسير روح البيان: الاواخر.
٩. تفسير روح البيان ١٠: ٤٨١. ١٠. تفسير الرازي ٣٢: ٣٠، تفسير روح البيان ١٠: ٤٨١.

لااعتبار بها.

وقال بعضهم: إنّها آخر ليلة من الشهر، لقوله ﷺ: «إنّ الله تعالى في كلّ ليلة من شهر رمضان عند الإفطار يعتق ألف ألف عتيق من النار كلّهم استوجبوا العذاب، فاذا كان آخر ليلة من شهر رمضان أعتق الله في تلك الليلة بعدد من أعتق من أول الشهر إلى آخره»[١].

وعن بعض الصحابة: أنّها الليلة التاسعة والعشرون[٢]، ورووا عن أبي‌ذرّ: أنّها الخامسة والعشرون[٣]، وعن ابن مسعود: أنّها الرابعة والعشرون[٤]، وعن ابن عباس: أنّه الثالثة والعشرون[٥]، وعن محمد بن إسحاق: أنّها الحادية والعشرون[٦]، وعن أنس: أنّها التاسعة عشرة[٧]، وعن الحسن البصري: أنّها السابعة عشرة[٨]، وعن ابن رَزين أنّها الليلة الأولى منه[٩].

وعن (الكافي) عن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[١٠] قال: «نعم، ليلة القدر، وهي في كلّ سنة في شهر رمضان في العشر الأواخر»[١١].

وعنه عليه السلام أنّه سُئل عن ليلة القدر قال: «التمسها ليلة إحدى وعشرين، أو ليلة ثلاث وعشرين»[١٢].

وفي رواية «ليلة تسع وعشرة، وإحدى وعشرين، وثلاث وعشرين»[١٣].

قيل: فان أخذت إنساناً الفترة أو علّة، ما المعتمد عليه من ذلك؟ فقال: «ثلاث وعشرون»[١٤].

أقول: يُريد رواية الجُهني المعروفة[١٥] وإنّما سُمّيت تلك الليلة ليلة القدر، لتقدير أُمور السنة فيها، كما قال سبحانه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[١٦].

وعن ابن عباس: أنّ الله قدّر فيها كلّما يكون في تلك السنة من مطرٍ ورزقٍ وإحياءٍ وإماتةٍ وغيرها إلى مثل هذه الليلة من السنة الآتية[١٧]، فيُسلّمه إلى مدبّرات الأمور من الملائكة.

وفي (المعاني) عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا علي، أتدري ما معنى ليلة القدر؟ قلت: لا، يارسول الله. قال: إنّ الله قدّر فيها ما هو كائن إلى يوم القيامة، فكان فيما قدّر ولايتك وولاية الأئمّة من ولدك إلى يوم القيامة»[١٨].

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٨١. ٢ و٤. تفسير الرازي ٣٢: ٢٩.
٤ ـ١٠. تفسير الرازي ٣٢: ٢٩. ١٠. الدخان: ٣/٤٤.
١١. الكافي ٤: ٦/١٥٧، تفسير الصافي ٥: ٣٥٢.
١٢. الكافي ٤: ١/١٥٦، وتفسير الصافي ٥: ٣٥٢، عن الصادق عليه السلام.
١٣. الكافي ٤: ٨/١٥٨، تفسير الصافي ٥: ٣٥٢.
١٤. من لايحضره الفقيه ٢: ٤٦٠/١٠٣، تفسير الصافي ٥: ٣٥٢.
١٥. الكافي ٤: ٢/١٥٦، من لايحضره الفقيه ٢: ٤٦١/١٠٣. ١٦. الدخان: ٤/٤٤.
١٧. تفسير الرازي ٣٢: ٢٨. ١٨. معاني الأخبار: ١/٣١٥، تفسير الصافي ٥: ٣٥١.

أقول: ظاهر الرواية وقوع جميع التقديرات الكائنة في العالم إلى يوم القيامة في أول ليلة من ليالي القدر، وهذا غير المعني المروي عن ابن عباس، ولامنافاة بينهما.

وقيل: إنّ القدر هنا بمعنى الشرف، ومعنى ليلة القدر أنّها ليلة يحصل لمن أحياها وقصد فيها الشرف والمنزلة عند الله[١].

وقيل: لأنّه نزل فيها كتاب ذو قدر، على لسان مَلَك ذي قدر، لأنّه لها قدر[٢].

وعن الخليل: القدر هنا بمعنى الضيق، وإنّما سُمّيت الليلة ليلة القدر لأنّ الأرض تضيق فيها بالملائكة[٣].

وأمّا دلالة الآية على عظمة القرآن، فلاسناد إنزاله إلى ذاته المُعَبَّر عنها بنون العظمة المستلزم لعظمة ما أنزله، ولارجاع الضمير إليه من غير سبق ذكره الدالّ على غاية اشتهاره وتميّزه من الكتب المنزلة، ولتعظيم وقت نزوله وهو ليلة القدر بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ وأيّ شيءٍ أعلمك يا محمد ﴿مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ في علوّ القدر والشرف، فانّ العلم بها خارجٌ عن طرق البشر إلّا بالوحي من الله العالم بكُنه الأشياء وحقائقها.

لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ[٣]

ثمّ بيّن سبحانه فضيلة العبادة فيها بقوله: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ والعبادة فيها ﴿خَيْرٌ﴾ وأفضل ﴿مِنْ﴾ العبادة في ﴿أَلْفِ شَهْرٍ﴾ ليس فيها ليلة القدر في الحديث العامي: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر»[٤].

قيل: إنّ لفظ ألف كناية عن الكثير، ولم يرد حقيقتها[٥].

وقيل: إنّ في الأُمم السابقة لايقال لرجل: إنّه عابد، حتّى يعبُد الله ألف شهر، فأعطى الله هذه الأُمّة ليلةً من أحياها من المؤمنين كان أعبد من أُولئك العُبّاد[٦].

وقيل كان مُلك سليمان خمسمائة شهر، ومُلك ذي القَرنين خمسمائة شهر، فجعل الله العمل في هذه الليلة خيرٌ من مُلكهما[٧].

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٢٨، تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٢.
٢. تفسير الرازي ٣٢: ٢٨، تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٢.
٣. تفسير الرازي ٢: ٢٨، ولم ينسبه إلى أحد، تفسير الرازي ١٠: ٤٨٢.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٠.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٣.
٦. تفسير أبي السعود ٩: ١٨٢، تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٣.
٧. تفسير أبي السعود ٩: ١٨٣، تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٣.

وقيل: إنّ النبيّ ﷺ رأى أعمال الأمم كافة فاستقصر أعمار أمّته، فخاف أن لايبلُغوا من العمل مثل ما بلغ غيرهم في طول العمر، فاعطاه الله ليلة القدر، وجعلها خيراً من ألف شهر لسائر الأمم[١].

ورُوي أنّ النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل اسمه شمسون أو شمعون، لَبِس السلاح في سبيل الله ألف شهر، فتعجّب المؤمنون منه، وتقاصرت إليهم أعمالهم، فأعطوا ليلة هي خير من مدّة جهاد ذلك الرجل[٢].

وعن ابن عباس: أنّه ذُكِر عند رسول الله ﷺ رجلٌ من بني إسرائيل أنّه حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فعَجِب من ذلك عجباً شديداً، وتمنّى أن يكون ذلك في أمّته، فقال: «ياربّ، جعلت أمّتي أقصر الأمم أعماراً، وأقلّها أعمالاً، فأعطاه الله ليلة القدر، وقال: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ الذي حمل الإسرائيلي السلاح في سبيل الله [لك] ولأمّتك من بعدك إلى يوم القيامة في كلّ رمضان[٣].

وروي بعض العامّه أنّه لمّا عُوتب الحسن بن علي عليه السلام في تسليمه الأمر لمعاوية قال: «إنّ الله أرى نبيه في المنام بني أُمية يَنزُون على مِنْبَره نَزْو القِردة، فاغتمّ لذلك، فأعطاه الله ليلة القدر، وهي خيرٌ له ولذُريّته وأهل بيته من ألف شهر، وهي مُدّة ملك بني أميّة، وأعلمه أنهم يَمْلِكون أمر الناس هذا القدر من الزمان»[٤].

وعن القمي، قال: رأى رسول الله ﷺ في نومه: كأنّ قروداً[٥] تصعد مِنْبره، فغمّه ذلك، فأنـزل الله سورة القدر ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ إلى قوله: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ تملِكه بنو أُمية ليس فيها ليلة القدر[٦].

وفي (الكافي) عن الصادق عليه السلام قال: «اري رسول الله في منامه أنّ بني أُمية يصعدون مِنْبَره من بعده، ويُضلّون الناس عن الصراط القهقرىٰ، فأصبح كئيباً حزيناً، فهبط عليه جَبْرَئيل، فقال: يا رسـول الله، مالي أراك كئيباً حزيناً. قال ﷺ: إني رأيت بني أُمية في ليلتي هذه يصعدون مِنْبَري من بعدي، يُضِلّون الناس عن الصراط القهقرىٰ. فقال: والذي بعثك بالحقّ نبياً، إنّي ما اطّلعت عليه، فعرج إلى السماء، فلم يَلْبَث أن نزل عليه بآي من القرآن يُؤنسه بها قال: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٣١، تفسير أبي السعود ٩: ١٨٣، تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٣.
٢. تفسير الرازي ٣٢: ٣٠، تفسير أبي السعود ٩: ١٨٢، تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٣.
٣. مجمع البيان ١٠: ٧٨٩، تفسير الصافي ٥: ٣٥٢.
٤. تفسير الرازي ٣٢: ٣١، تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٣.
٥. في النسخة: قال: قال رسول الله ﷺ كأن قرداً.
٦. تفسير القمي ٢: ٤٣١، تفسير الصافي ٥: ٣٥٢.

كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾[١] وأنزل عليه **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾** جعل الله ليلة القدر لنبيه ﷺ خيراً من ألف شهر مُلك بني أُمية»[٢].

ذكر اشكال بعض العامة وردّه

ثمّ اعلم أنّه طعن بعض العامة في تلك الروايات بأنّ أيام مُلك بني أُمية كانت مذمومة، فكيف يبيّن الله تعالى فضل تلك الليلة بكونها خيراً من الشهور المذمومة[٣]؟

وردّه بعضهم بأنّ أيام ملكهم كانت أياماً عظيمة بحسب السعادات الدنيوية، فيكون المراد أنّ ليلة القدر بحسب السعادات الدينية أفضل من تلك السعادات الدنيوية، كقوله: **﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾**[٤]. الكفار من الأموال والزخارف الدنيوية[٥].

والأولى في دفعه أن نقول: إنّ الله صلّى نبيه ﷺ ببشارة تزول غمّه، فانّه ﷺ اغتمّ بسلطنة بني أُمية وإضلالهم الناس عن الصراط، فسرّ الله قلبه الشريف بالبشارة بأفضلية عبادة تلك الليلة لأُمّته من عبادة تلك المدّة، كما يُسلّى من تلفت أمواله ببشارته برجوع ولده من سفرٍ خطيرٍ سالماً غانماً.

تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِن كُلِّ أَمْرٍ[٤]

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان عُلوّ قدر تلك الليلة ذاتاً، بيّن ما استتبع ذلك الشرف وعلوّ القدر من الفضل بقوله: **﴿تَنَزَّلُ﴾** وتهبط **﴿الْمَلَائِكَةُ﴾** المقرّبون كلّهم فوجاً فوجاً إلى الأرض، أو إلى السماء الدنيا، ليروا عبادة أهل الأرض واجتهادهم فيها، ويُسلّموا عليهم ويَزورروهم ويُصافحوا معهم.

روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «أنّهم ينزلون ليسلّموا علينا، وليشفعوا لنا، فمن أصابته التسليمه غُفِر له ذنبه»[٦] أو ليزيد فضل عباده المؤمنين بحضورهم.

﴿وَ﴾ ينزل **﴿الرُّوحُ﴾** القُدس، وهو جَبْرَئيل، وإفراده بالذكر مع كونه من الملائكة لتعظيمه.

عن كعب: أنّ في سورة المنتهى ملائكة لايعلم عددهم إلّا الله تعالى، يعبُدون الله، ومقام جَبْرَئيل في وسطها، ليس فيها مَلَك إلّا وقد أُعطى الرّأفة والرحمة للمؤمنين، ينزلون مع جبرئيل ليلة القدر، فلا تبقى بُقعة من الأرض إلّا وعليها مَلَكٌ ساجدٌ أو قائم يدعو للمؤمنين والمؤمنات، أحداً إلا صافحه، وعلامة ذلك من اقشعرّ جلده ورقّ قلبه ودمعت عيناه، فانّ ذلك من مصافحة جَبْرَئيل.

---

١. الشعراء: ٢٠٥/٢٦-٢٠٧.
٢. الكافي ٤: ١٠/١٥٩، تفسير الصافي ٥: ٣٥١.
٣. تفسير الرازي ٣٢: ٣١.
٤. آل عمران: ١٥٧/٣.
٥. تفسير الرازي ٣٢: ٣١.
٦. تفسير الرازي ٣٢: ٣٣.

إلى أن قال: وأول من يصعد جَبْرَئيل حتى يصير أمام الشمس، فيبسط جَناحين أخضرين، لاينْشَرهما إلّا تلك الساعة من يوم تلك الليلة، ثمّ يدعوه ملكاً ملكاً، فيصعد الكلّ، ويجتمع نور الملائكة ونور جَناح جَبْرَئيل، فيقيم جَبْرَئيل ومن معه من الملائكة بين الشمس والسماء الدنيا يومهم ذلك مشغولين بالدعاء والرحمة والاستغفار للمؤمنين ولمن صام شهر رمضان احتساباً... الخبر[١].

وقيل: إنّ الرُّوح مَلَك عظيم لو التقم السماوات والأرضين كان ذلك له لقمة واحدة[٢].

وقيل: هو مَلَك رأسه تحت العرش ورجلاه في تُخوم الأرض السابعة، وله ألف رأس، كلّ رأسٍ أعظم من الدنيا، وفي كلّ رأس ألف وجه، وفي كلّ وجه ألف فم، وفي كلّ فم ألف لسان، يُسبّح الله بكلّ لسان ألف نوع من التسبيح والتحميد والتمجيد، لكلّ لسان لُغة لاتُشبه الأخرى، فاذا فتح أفواهه بالتسبيح خرّ كلّ ملائكة السماوات سُجّداً مخافة أن يُحرِقهم نور أفواهه، وإنّما يُسبّح الله غُدوة وعشيةً، فينزل تلك الليلة فيستغفر للصائمين والصائمات من اُمّة محمّد ﷺ بتلك الأفواه إلى طُلوع الفجر[٣].

أقول: على تقدير صحّة النقل لابدّ من تأويل نزوله بغير المعنى المتبادر منه.

وعن الباقر عليه السلام: «أنّ الرُّوح أعظم من جَبْرَئيل، وأنّ جَبْرَئيل من الملائكة، وأنّ الروح خلقٌ أعظم من الملائكة، أليس يقول الله تبارك وتعالى: **﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾**»[٤].

وعلى أي تقدير تتنزّل جميع الملائكة مع الرُّوح لشرف تلك الليلة **﴿فِيهَا﴾** إلى الأرض بعد استئذانهم شوقاً إلى لقاء المؤمنين **﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾** في النزول **﴿مِن﴾** أجل **﴿كُلِّ أَمْرٍ﴾** قُدّر في تلك السنة من خيرٍ أو شرّ.

عن الصادق عليه السلام: «إذا كان ليلة القدر نزلت الملائكة والرُّوح والكَتَبة إلى السماء الدنيا، فيكتُبون ما يكون من قضاء في تلك السنة»[٥].

وعن القمي رحمه الله، قال: تنزّل الملائكة والرُّوح القُدس على إمام الزمان، ويدفعون إليه ما كتبوه [من هذه الأمور][٦].

وعنه، عن الباقر عليه السلام أنّه سُئل: أتعرفون ليلة القدر؟ فقال: «فكيف لانعرف والملائكة يَطُوفون بنا

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٣٣.
٢. تفسير الرازي ٣٢: ٣٤، تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٤.
٣. تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٤.
٤. الكافي ١: ١/٣١٧، وتفسير الصافي ٥: ٣٥٣، عن الصادق عليه السلام.
٥. تفسير القمي ١: ٣٦٦، تفسير الصافي ٥: ٣٥٣.
٦. تفسير القمي ٢: ٤٣١، تفسير الصافي ٥: ٣٥٣.

فيها»[١].

سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ[٥]

ثمّ بيّن سبحانه الفضيلة الأُخرى لتلك الليلة بقوله: ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ من الملائكة للمؤمنين من أولها ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ وظهور الصبح الصادق، فانّ كثرة سلام الملائكة فيها كأنما صير الليل كلّه سلاماً.

وفي الحديث العامي: «ينزل جَبْرَئيل ليلة القدر في كَبكَبة من الملائكة يُصلّون ويُسلّمون على كلّ عبدٍ قائمٍ أو قاعدٍ يذكُر الله»[٢].

وعن السجاد عليه السلام يقول: «يُسلّم عليك يا محمد ملائكتي وروحي سلامي[٣] من أوّل ما يهبِطون إلى مَطلَع الفجر»[٤].

وعن القمي رحمه الله قال: تحية يُحيّى بها الإمام إلى أن يَطْلُع الفجر[٥].

وقيل: إنّ السلام بمعنى السلامة من جميع الآفات والشُرور ومكائد الشيطان ووساوسه[٦].

في الحديث العامّي: «من قرأ سورة القدر أُعطي ثواب من صام رمضان وأحيا ليلة القدر»[٧].

وعن الباقر عليه السلام: «من قرأ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ فجَهَر بها، كان كالشاهر سيفه في سبيل الله، ومن قرأها سرّاً كان كالمتشحّط بدمه في سبيل الله تعالى، ومن قرأها عشر مرات محا الله عنه ألف ذنبٍ من ذنوبه»[٨].

الحمد لله الموفّق لاتمام تفسيرها.

---

١. تفسير القمي ٢: ٤٣٢، تفسير الصافي ٥: ٣٥٣.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٥.
٣. في الكافي: بسلامي.
٤. الكافي ١: ١٩٣/٤، تفسير الصافي ٥: ٣٥٣.
٥. تفسير القمي ٢: ٤٣١، تفسير الصافي ٣٥٣.
٦. مجمع البيان ١٠: ٧٩٠، تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٥.
٧. تفسير أبي السعود ٩: ١٨٣، تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٦.
٨. ثواب الأعمال: ١٢٤، مجمع البيان ١٠: ٧٨٤، تفسير الصافي ٥: ٣٥٣.

في تفسير سورة البينة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ ٱللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ[١ ـ ٣]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة القدر المتضمّنة لبيان عَظَمة القرآن، نُظِمت سورة البيّنة المتضمّنة لبيان عَظَمة الرسول ﷺ وكتابه بتوصيفه بأنّه جامع لجميع ما في الكتب السماوية، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ افتتحها بذمّ أهل الكتاب والمشركين بقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله سواء كانوا ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ﴾ كاليهود والنصارى ﴿وَ﴾ من ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وعَبَدة الأصنام والأوثان ﴿مُنفَكِّينَ﴾ ومفارقين عمّا هم عليه من الكفر والعقائد الفاسدة على حسب قولهم ووعدهم ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ من قبل الله الحُجّة ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ والآية الواضحة على بطلان دينهم، وتلك البيّنة على ما أخبرت به الكتب السماوية هو ﴿رَسُولٌ﴾ عظيم الشأن، مبعوث ﴿مِنَ﴾ قبل ﴿ٱللهِ﴾ في آخر الزمان، يتلوه القرآن، ولمّا كان جامعاً لمطالب الكتب السماوية ﴿يَتْلُوا﴾ بتلاوته عن ظهر القلب ﴿صُحُفاً﴾ وكتباً سماوية ﴿مُّطَهَّرَةً﴾ ومُنزّهة عن كل باطل[١] لاقبيح وشين وذكر بسوء، أو مطهّرة من أن يمسه غير المُطهّر.

وفي رواية عامية عن الصادق عليه السلام: «أنّ النبي ﷺ كان يقرأ من الكتاب وإن كان لايكتُب»[٢].

قيل: إنّ اليهود والنصارى والمشركين كانوا قبل بعثة النبي ﷺ يقولون: لاننفكّ عما نحن فيه من ديننا ولانَتْرُكه حتّى يُبْعَث النبي الموعود، والذي هو مكتوبٌ في التوراة والانجيل[٣]، فحكى سبحانه ما كانوا يقولونه.

---

١. في النسخة: عن كامل وباطل.
٢. تفسير الرازي ٣٢: ٤٢.
٣. تفسير الرازي ٣٢: ٣٨.

وقيل: إنّ المراد أنّهم كانوا غير منفكّين عمّا كانوا عليه من الوعد باتباع الحقّ، والايمان بالنبي ﷺ المبعوث في آخر الزمان، والعزم على إنجازه، وهذا الوعد من أهل الكتاب ممّا لاريب فيه حتى أنّهم كانوا يستفتحون ويقولون: اللهم افتح علينا، وانصرنا بالنبي المبعوث في آخر الزمان. ويقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظلّ زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، وأمّا من المشركين فلعلّه قد وقع من متأخّريهم بعدما شاع ذلك من أهل الكتاب واعتقدوا صحّته بما شاهدوا من نُصرتهم على أسلافهم، كما يشهد به أنّه كانوا يسألونهم عن الرسول، هل هو المذكور في كتبهم[1].

وعليه يكون ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾ بمعنى ﴿أَتَتْهُمْ﴾ والتعبير بالمضارع باعتبار حال المحكي لا الحكاية، وإنّما عبّر عن الرسول بالبيّنة للتنبيه على غاية ظهور أمره بسبب المعجزات الكثيرة الباهرة، ومجموع الأخلاق الكريمة البالغة حدّ كمال الإعجاز، فكأنّ صفاته ﷺ بيّنة على رسالته.

وقيل: إنّ المراد بالبينة مطلق الرسول، والمراد حتى تأتيهم رسلٌ من الملائكة تتلو عليهم صُحفاً مُطهّرة، كما قال سبحانه: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ ٱلسَّماءِ﴾[2] وفيه: أنّه لايناسب وصف الصحف بقوله: ﴿فِيهَا كُتُبٌ﴾ ومكتوبات ﴿قَيِّمَةٌ﴾ مستقيمة ناطقة بالصواب، أو مستقلة بالحُجّية والدلالة على الحقّ.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا ٱلزَّكَاةَ وَذٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[٤ و ٥]

ثمّ إنه تعالى بعد حكايته وعد أهل الكتاب والمشركين بإيمانهم بالرسول الموعود واجتماع كلمتهم على الحقّ، بيّن ازدياد كفرهم بعد وضوح رسالته لهم وافتراق كلمتهم بقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ﴾ عن الحقّ، وما تباعدوا عن الايمان بالرسول الموعود مع كونهم من أهل العلم والاطلاع بالكتب وبأوصاف الرسول ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ﴾ بسبب انطباق الصفات المذكورة في التوراة والانجيل للنبي الموعود عليه وكثرة معجزاته ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ والدلالة الواضحة على أنّ محمداً ﷺ هو النبي الموعود بحيث لم يبق مجالٌ للعاقل المنصف ردّها وجحودها.

وإنّما أفرد سبحانه أهل الكتاب بالذكر بعد الجمع بينهم وبين المشركين في أول السورة للدلالة

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٦.

٢. تفسير الرازي ٣٢: ٤١و٤٢، والآية من سورة النساء: ١٥٣/٤.

على كمال شناعة حالهم، وأنّهم لمّا تفرّقوا مع كونهم من أهل العلم كان غيرهم أولى بذلك؛ لأنّ جحود العالم أقبح وأشنع من إنكار الجاهل، وفيه تسلية النبي ﷺ حيث بيّن أنّ تفرّقهم ليس لقصور الحجة وخَفاء الحقّ، بل للعناد والعصبية. **﴿وَ﴾** الحال أنّهم **﴿مَا أُمِرُوا﴾** بشيءٍ في كتبهم **﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ﴾** ولأجل أن يتذلّلوا له حال كونهم **﴿مُخْلِصِينَ لَهُ﴾** تعالى **﴿الدِّينَ﴾** ومُمحضين أنفسهم له بالعبودية، وآتين أعمالهم لصرف الداعية الالهية بحيث لايكون في أعمالهم شائبة الشرك والرياء والعِناد والعصبية والنفسانية.

وقيل: يعني موحّدين له في العبادة، لايَعْبُدون معه غيره[١]، وحال كونهم **﴿حُنَفَاءَ﴾** ومعرضين عن كلّ باطل، أو متّبعين ملّة إبراهيم الذي تبرأ من نفسه حين سلّمها للنيران، أو مستقيمين في العقائد والأعمال والأخلاق، أو مؤمنين بجميع الرسل، أو حجاجاً كما عن ابن عباس[٢].

وقيل: إنّ اللام في قوله **﴿لِيَعْبُدُوا اللهَ﴾** بمعنى **﴿أَن﴾** والمعنى إلّا أن يَعْبُدوا الله[٣].

وقيل: إنّ المراد وما أُمروا على لسان محمد ﷺ إلّا أن يُوحّدوا الله ويَعْبُدوه عبادةً خالصةً من الشرك[٤] **﴿وَ﴾** أن **﴿يُقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾** التي هي أهمّ العبادات البدنية **﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾** التي هي أهمّ العبادات المالية.

﴿وَذٰلِكَ﴾ المذكور من الخلوص في عبادته وأداء الصلاة والزكاة هو **﴿دِينُ﴾** الملّة **﴿الْقَيِّمَةِ﴾** الباقية التي لاتُنْسَخ، أو المستقيمة التي لاعِوج فيها. وقيل: إنّ القيّمة صفة للدين، والتاء للمبالغة[٥]. وقيل: إنّ القيّمة اسم أو صفة للأمة[٦]، والمعنى دين الأُمّة القائمة بالقسط. والحاصل أنّ الآية دالّة على أنّ الدين القيم مركّب من الاعتقاد الحقّ والعمل الصالح، فعلى كلّ عاقلٍ أن يقبله ولايستنكف منه[٧].

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ[٦ و ٧]

ثمّ ذكر سبحانه سوء حال الكفّار الذين لايقبلون هذا الدين في الآخرة بقوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾** من اليهود والنصارى **﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾** كعَبَدة الأصنام والأوثان والكواكب والنيران وغيرهم، كلّهم يوم القيامة متمكّنون **﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾** حال كونهم **﴿خَالِدِينَ﴾** ومقيمين **﴿فِيهَا﴾** أبداً

١و٢. تفسير الرازي ٣٢: ٤٦.

٣. تفسير الرازي ٣٢: ٤٤.

٤. تفسير الرازي ٣٢: ٤٣.

٥. تفسير الرازي ٣٢: ٤٧، وفيه: والهاء للمبالغة.

٦. تفسير روح البيان ١٠: ٤٨٨ و٤٨٩.

٧. في النسخة: يقبلوه ولايستنكفوا منه.

لايرجون الخلاص منها، لأنّ **﴿أُولٰئِكَ﴾** البعداء من رحمة الله ومن كلّ خيرٍ وسعادة **﴿هُمْ﴾** بالخصوص **﴿شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾** وأخبث الخليقة، فاستحقّوا الخلود في النار، وإن كان بعضهم أخبث من بعض وعذابهم أشدّ.

ثمّ مدح سبحانه المؤمنين الصالحين بقوله: **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾** بالله ورسوله واليوم الآخر **﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾** والمرضيات عند الله **﴿أُولٰئِكَ﴾** المؤمنون الصالحون **﴿هُمْ﴾** بالخصوص **﴿خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾** وأفضل الخليقه.

روى الصدوق عن جابر بن عبدالله، قال: كنّا عند النبي ﷺ فأقبل علي بن أبي طالب فقال النبي ﷺ: «قد أتاكم أخي» ثمّ التفت إلى الكعبة فضربها بيده، ثمّ قال: «والذي نفسي بيده، إنّ هذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة» ثمّ قال: «إنّه أولكم إيماناً معي، وأوفاكم بعهد الله، وأقومكم بأمر الله، وأعدلكم في الرعية، وأقسمكم بالسوية، وأعظمكم عند الله مَزيّة». قال: فنزلت **﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولٰئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾**.

قال: وكان أصحاب محمد ﷺ إذا أقبل علي عليه السلام قالوا: جاء خير البرية[١].

وعن النبي ﷺ في هذه الآية أنّه التفت إلى علي عليه السلام وقال: «هم والله أنت وشيعتك يا علي، وميعادك وميعادهم الحوض غداً غرّاً مُحجّلين مُتوّجين»[٢].

وعن الباقر عليه السلام قال: «هم شيعتنا أهل البيت»[٣].

جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِىَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ[٨]

ثمّ بيّن حُسن حالهم في الآخرة بقوله: **﴿جَزَاؤُهُمْ﴾** المدّخر **﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾** ومليكهم اللطيف بهم في الآخرة على إيمانهم وصالح أعمالهم **﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾** وبساتين دائمة ذات أشجار وقصور **﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾** الكثيرة أو الأربعة المعهودة في القرآن حال كونهم **﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾** ومتنعّمين فيها بفنون النِّعم دائماً لايخافون الخروج منها وزوال نعمها أو نقصها.

ثمّ بشّرهم سبحانه بما هو أفضل وأعظم من جميع النّعم الجسمانية بقوله: **﴿رَضِىَ ٱللّٰهُ عَنْهُمْ﴾** فانّ الرضوان من الله أكبر واعظم من كلّ نعمة.

---

١. أمالي الطوسي: ٤٤٨/٢٥١، تفسير الصافي ٥: ٣٥٥، ولم نعثر عليه في أمالي الصدوق.
٢. أمالي الطوسي: ٩٠٩/٤٠٥، تفسير الصافي ٥: ٣٥٥، مجمع البيان ١٠: ٧٩٥.
٣. المحاسن: ١٣٩/١٦٩، تفسير الصافي ٥: ٣٥٥.

عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الخلود في الجنة خيرٌ من الجنّة ورضى الله خيرٌ من الجنّة ومن الخُلود»[١].

قيل: إنّ جنّة الجسد هي الجنة الموصوفة، وجنة الروح هي رضا الرّب، ومبتدأ الانسان عالم الجسد، ومنتهاه عالم العقل والروح، فلا جَرم ابتدأ سبحانه بالجنّة، وجعل المنتهى رضا الله[٢].

﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ تعالى بسبب تفضلّه عليهم بما لاعين رأت ولاأُذن سَمِعت ولاخَطَر على قلب بشر.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ منشأ كمال الايمان والأعمال الصالحة هي الخشية من الله بقوله ﴿ذٰلِكَ﴾ الجزاء الجزيل من الجنة الموصوفة والرضوان، أو الايمان والعمل الصالح اللذين يترتّب عليهما الجزاء العظيم ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ وخاف منه أشدّ الخوف، وتلك الخشية خاصة بالعلماء بشؤون الله والعُرفاء به، وهي مبدأ جميع الكمالات العلمية والعملية المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية.

عن الصادق عليه السلام أنه قال لرجل من الشيعة: «أنتم أهل الرضا عن الله جل ذكره برضاه عنكم، والملائكة إخوانكم فى الخير، فاذا اجتهدتم ادعوا، وإذا غَفَلتم اجهدوا، وأنتم خير البرية، دياركم لكم جُنّة، وقبوركم لكم جَنّة، للجنّة خلقتم، وفي الجنة نعيمكم، وإلى الجنّة تصيرون»[٣].

وعن الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ كان بريئاً من الشرك، وأُدخل في دين محمد ﷺ، وبعثه الله مؤمناً، وحاسبه حساباً يسيراً»[٤].

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٥٥، واسقط كلمة: ومن الخلود.   ٢. تفسير الرازي ٣٢: ٥٥.

٣. الكافي ٨: ٥٥٦/٣٦٦، تفسير الصافي ٥: ٣٥٥.

٤. ثواب الأعمال: ١٢٤، مجمع البيان ١٠: ٧٩١، تفسير الصافي ٥: ٣٥٦.

في تفسير سورة الزلزال

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا[١ ـ ٤]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة البيّنة بذكر القيامة وبيان أحوال الكفّار والمؤمنين فيها، نُظِمت بعدها سورة الزلزال المتضمّنة لبيان بعض أهوال القيامة وبعث الناس، فافتتحها سبحانه بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع سبحانه في بيان أهوال القيامة بقوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وحَرَكت ﴿زِلْزَالَهَا﴾ وحركة شديدة متكرّرة لائقة بها في الحكمة الالهية، أو الحركة الممكنة المتصوّرة لها، أو الموعودة المكتوبة عليها ﴿وَ﴾ بتلك الحركة ﴿أَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ من بطنها ﴿أَثْقَالَهَا﴾ وأحمالها من الكنوز والموتى.

قيل: بزَلْزَلة النفخة الأُولى تُخرِج دفائنها، وبزَلْزَلة النفخة الثانية تُخرِج الأموات[١].

في الخبر العامي: تقيء الأرض أغلاذ كَبِدها أمثال الأُسطوانة من الذهب، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قَتَلت، ويجيء القاطع رَحِمه فيقول: في هذا قطعت رَحِمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطِعَت يدى، ثمّ يدعونه فلا يأخُذون منه شيئاً[٢].

قيل: يمتلئ ظهر الأرض ذهباً، ولا أحد يلتفت إليه، كأنّ الذهب يصيح ويقول: أما كنت تُخرِبُ دينك ودنياك لأجلي[٣].

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَانُ﴾ بعد بعثه من القبر وغاية هشته وتعجّبه ممّا رأى من تزلزُل الأرض: ﴿مَا لَهَا﴾ وأي حالة عرضها بزَلْزَلتها هذه الزلزلة الشديدة التي تُخرِج ما في بطنها. قيل: هذا قول الكافر والمؤمن تعجّباً ممّا يرون من العجائب التي لم تَسْمَع بها الآذان[٤].

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٥٩، تفسير روح البيان ١٠: ٤٩٢.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٤٩٢.
٣. تفسير الرازي ٣٢: ٥٨.
٤. تفسير الرازي ٣٢: ٥٩.

وقيل: هذا قول الكافر الذي يقول: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾[١] وأمّا المؤمن فانّه يـقول: ﴿هٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ﴾[٢].

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وحينئذٍ ﴿تُحَدِّثُ﴾ وتُنبئ الأرض للخلق ﴿أَخْبَارَهَا﴾ أو تبثّ إلى أولياء الله وملائكته شكواها من أعمال الخلق على ظهرها.

عن الباقر عليه السلام: «أنّه قُرئت هذه السورة عند أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أنا الانسان، وإياى تُحدّث»[٣].

وفي (العلل) عن تميم بن حاتم[٤]، قال: كنّا مع علي عليه السلام حيث تـوجّهنا إلى البـصرة قـال: فـبينما [نحن] نزول، اذ اضطربت الأرض، فضربها علي عليه السلام بيده الشريفة، وقال لها: «مالك؟» ثمّ أقبل علينا بوجهه الكريم [ثمّ] قال لنا: «انّها لوكانت الزّلزلة التي ذكرها الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز لأجابتني، ولكنّها ليست بتلك»[٥].

وفي (العلل) عن فاطمة عليها السلام قالت: «أصاب الناس زَلْزلة على عـهد أبـيبكر، وفـزع النـاس إلى أبيبكر وعمر، فوجدوهما قد خرجا فَزِعين إلى علي عليه السلام، فتَبِعهما النـاس إلى أن انـتهوا إلى بـاب علي عليه السلام، فخرج عليهم عليه السلام غير مكترثٍ لما هم فيه، فمضى واتّبعه الناس حتّى انتهى إلى تَلْعَةٍ فقعد عليها وقعدوا حوله وهم يَنْظُرون إلى حيطان ترتجّ جائية وذاهبة. فقال لهم عـلي عليه السلام: كأنّكـم قـد هالكم ما ترون؟ قالوا: وكيف لايَهُولنا ولم نر مثلها قطّ. قال: فحرّك شفتيه، ثمّ ضـرب الأرض بـيده الشريفة ثمّ قال: مالك اسكني؟ فسكنت بإذن الله، فتعجّبوا من ذلك أكثر من تعجّبهم الأول حـيث خرج إليهم فقال لهم: إنّكم قد عَجِبتم من صنيعتي[٦]؟ قالوا: نعم. قال: أنا الرجل الذي قال الله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ ٱلْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾ فـانا الانسـان الذي يقول لها: مالك ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ إياي تُحدّث»[٧].

قيل: إنّ تحديث الأرض إنّما هو بلسان الحال، فانّ انتقاض الأرض بسبب الزّلزلة تُحدّث أنّ الدنيا قد انقضت، وأن الآخرة قد أقبلت[٨].

وقال جلّ المفسرين: إنّ الأرض تنطِق كما تنطِق الجوارح يوم القيامة، وتشهَد لمن أطاع وعلى من

---

١. يس: ٥٢/٣٦.
٢. تفسير الرازي ٣٢: ٥٩، والآية من سورة الأحزاب: ٢٢/٣٣.
٣. الخرائج والجرائح ١: ١٠/١٧٧، تفسير الصافي ٥: ٣٥٧.
٤. في المصدر: جذيم، راجع قاموس الرجال ٢: ٤٢٣.
٥. علل الشرائع: ٥/٥٥٥، تفسير الصافي ٥: ٣٥٧.
٦. في المصدر: صنعتي، وفي تفسير الصافي: صنيعي.
٧. علل الشرائع: ٨/٥٥٦، تفسير الصافي ٥: ٣٥٧.
٨ تفسير الرازي ٣٢: ٥٩.

عصى على ظهرها[١]، ورووا عن النبي ﷺ: «أنّ الأرض لتُخبِر يوم القيامة بكلّ عملٍ عُمِل عليها»، ثمّ تلا هذه الآية[٢].

ورووا عن علي عليه السلام أنّه كان إذا فرغ بيت المال صلّى فيه رَكْعتين، ويقول: «لتشهدنّ أنّي ملأتك بحقّ، وفرّغتك بحقّ»[٣].

ورووا أنّ عبد الرحمن بن صَعْصَعة كان يتيماً في حِجر أبي سعيد الخُدري، فقال له أبو سعيد: يا بُني، إذا كنت في البوادي فارفع صوتك بالأذان، فإنّي سمعت رسول الله يقول: «لايسمعه جنّ ولاإنس ولاحَجَر ولاشَجَر إلّا شَهِد له»[٤].

بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ[٥ ـ ٨]

والحاصل أنّ الأرض تُبدّل غير الأرض، وتصير حَيّة عاقلة ناطقة، تشهد على الانسان وله بما عَمِل على ظهرها، كما يشهد اليوم والليل والجوارح، وذلك التحديث والشهادة ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ وبسبب أنّ مليكك ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ وأمرها بها إرعاباً للعُصاة وتبشيراً للمؤمنين ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وحين وقوع ما ذكر ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ ويُحْشَرون من قبورهم إلى موقف الحساب، ويرجِعون إلى ربّهم حال كونهم ﴿أَشْتَاتاً﴾ ومتفرّقين ومختلفين في الأحوال بعضهم بيض الوجوه، وبعضهم سُود الوجوه، فزِعين.

عن القمي: يُحيون أشتاتاً مؤمنين وكافرين ومنافقين[٥]. وقيل: أشتاتاً من أقطار الأرض من كلّ ناحية[٦]، ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ التي عَمِلوها في الدنيا من خيرٍ وشرٍّ، كما دلّت الأخبار على تجسّمها، أو المراد ليروا جزاء أعمالهم أو ليروها مكتوبةً في صُحفهم.

﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ من الناس في الدنيا ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ومقدار نملة، أو وزن مايُرى في شُعاع الشمس عملاً ﴿خَيْراً﴾ وحسناً ﴿يَرَهُ﴾ في يوم القيامة ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ في الدنيا ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وأقلّ قليل عملاً ﴿شَرّاً﴾ وسوءاً ﴿يَرَهُ﴾ في ذلك اليوم.

عن ابن عباس، في تفسير الذرّة قال: إذا وضعت راحتك على الأرض ثمّ رفعتها، فكلّ واحدٍ ممّا لَزِق بها من التراب ذرّة[٧].

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٥٩، تفسير أبي السعود ٩: ١٨٨، تفسير روح البيان ١٠: ٤٩٣.
٢. تفسير الرازي ٣٢: ٥٩، تفسير أبي السعود ٩: ١٨٨.
٣. تفسير الرازي ٣٢: ٦٠.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٤٩٣.
٥. تفسير القمي ٢: ٤٣٣، تفسير الصافي ٥: ٣٥٨.
٦. تفسير الرازي ٣٢: ٦٠.
٧. تفسير الرازي ٣٢: ٦١، تفسير روح البيان ١٠: ٤٩٤.

وعنه ﷺ: ليس من مؤمنٍ ولا كافرٍ عَمل خيراً أو شرّاً إلّا أراه الله إياه، أمّا المؤمن فيغفر له سيئاته ويُثيبه بحسناته، وأمّا الكافر فيردّ حسناته تحسيراً له ويُعذِّب بسيئاته[١].

وعن الباقر عليه السلام - في هذه الآية - قال: «يقول: إذا كان من أهل النار وقد عَمِل في الدنيا مثقال ذرّة خيراً يره يوم القيامة حسرةً، إنّه كان عمله لغير الله، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ يقول: إذا كان من أهل الجنّة وعَمِل شراً، رأى ذلك الشرّ يوم القيامة ثمّ يغفر له»[٢].

وقيل: من يعمل مثقال ذرّة من خيرٍ وهو كافر فانّه يرى ثواب ذلك في الدنيا حتّى يلقى الآخرة، وليس فيها شيءٌ، وهو مرويّ عن ابن عباس[٣].

قيل: نزلت هذه الآية في رجلين كان أحدهما يأتيه السائل، فيستقلّ أن يُعطيه التمرة والكِسرة والجَوزة، ويقول: ما هذا بشيءٍ، وإنّما نؤجر على ما نعطي[٤]، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير، ويقول: لاشيء عليّ من هذا، إنّما الوعيد بالنار على الكبائر، فنزلت هذه الآية ترغيباً في القليل من الخير، فانّه يُوشك أن يكثُر، وتحذيراً من اليسير من الذنب، فانّه يُوشك أن يكبر[٥].

قيل: إنّها أحكم آية، و سُمّيت الجامعة[٦].

روى أنّ جدّ الفرزدق بن صعصعة بن ناجية أتى رسول الله ﷺ يستقرئه، فقرأ هذه الآية، فقال: حسبي حسبي، فألقى نفسه على الأرض وبكى[٧].

ورُوي أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ، فقال: علّمني ممّا علّمك الله، فدفعه إلى رجلٍ يُعلّمه القرآن، فعلّمه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ﴾ حتّى بلغ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ إلى آخره، فقال: حسبي، فأخبر بذلك النبي ﷺ فقال: «دَعْه فقد فَقِه الرجل»[٨].

وفي الحديث العامّي: «إذا زلزلت تعدِل رُبع القرآن»[٩] وفي بعض الأخبار أنّها تعدِل نصف القرآن[١٠].

وعن الصادق عليه السلام: «لاتَمَلّوا من قراءة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ فانّ من كانت قراءته في نوافله لم يصبه الله بزَلْزَلة أبداً، ولم يمُت بها، وبصاعقة، ولابآفة من آفات الدنيا، فاذا مات أُمر به إلى الجنة، فيقول الله عزّ وجلّ: عبدي أبحتك جنّتي، فاسكُن منها حيث شئت وهويت...» الخبر[١١].

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٦١، تفسير أبي السعود ٩: ١٨٩، تفسير روح البيان ١٠: ٤٩٤.
٢. تفسير القمي ٢: ٤٣٣، تفسير الصافي ٥: ٣٥٨.
٣. تفسير الرازي ٣٢: ٦١.
٤. في النسخة: يؤخر على ما يعطي.
٥. تفسير الررازي ٣٢: ٦٢، وفي النسخة: أن يكثر.
٦. مجمع البيان ١٠: ٨٠٠، تفسير الصافي ٥: ٣٥٨، تفسير روح البيان ١٠: ٤٩٥.
٧-١٠. تفسير روح البيان ١٠: ٤٩٥.
١١. ثواب الأعمال: ١٢٤، مجمع البيان ١٠: ٧٩٦، تفسير الصافي ٥: ٣٥٩.

في تفسير سورة العاديات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً[١ـ٥]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الزّلْزال المتضمّنة لبعض أهوال القيامة، وحشر الناس إلى الموقف، وشهادة الأرض بأعمالهم، نُظِمت سورة ﴿وَٱلْعَادِيَاتِ﴾ المتضمّنة لبيان بعث الناس من القبور، وشهادة الانسان على نفسه بالكفران، وبيان علم الله تعالى بأعمال الناس من خيرٍ أو شرّ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بالقسم بخيل الغُزاة والمجاهدين في سبيل الله حال عَدْوِها بقوله: ﴿وَٱلْعَادِيَاتِ﴾ من الخيل نحو الأعداء، وهي تَضْبَح وتتنفّس من شدّة العَدْو ﴿ضَبْحاً﴾ ونفساً له صوت، ليس بصهيلق وحَمْحَمةٍ، يُسمَع من أفواه الأفراس[1] وأجوافها. وقيل: إن العَدْو لمّا كان ملازماً للضَّبْح[2]، كأنّه أراد بالعاديات الضابحات، والمعنى، والضابحات ضبحاً شديداً ﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ والمُخرِجات للنار من الأحجار ﴿قَدْحاً﴾ وضرباً بحوافرهنّ وسنابكهنّ الحجارة، فانّ الإيراء من لوازم العَدْو الشديد في أرض ذات حجارة.

عن ابن عباس: يُريد ضرب الخيل بحوافرها الجبل، فأورت منه النار، مثل الزّند إذا قدح[3].

وقيل الإيراء بالقدح وحَبْك حوافر الخيل كنايةٌ عن تهيّج الحرب بين أصحاب الخيل وبين عَدُوّهم[4].

وقيل: أُريد من الموريات جماعة الغزاة[5] يُورون النار بالليل لحوائجهم وطعامهم. وقيل: الموريات أفكار الرجال تُوري نار المكر والخديعة، ونُسِب ذلك إلى ابن عباس[6].

---

١. في النسخة: الفرس. ٢. تفسير روح البيان ١٠: ٤٩٦. ٣ـ٥. تفسير الرازي ٣٢: ٦٥.
٦. تفسير الرازي ٣٢: ٦٥.

وقيل: اُريد بالموريات قدحاً المُنجحات أمراً، والمراد الذين وجدوا مقصودهم وفازوا بمطلوبهم من الغزو[١].

﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ على عدوّ حال كون الوقت ﴿صُبْحاً﴾ كما هو المعتاد عند العرب على ما قيل في الغارات يَغْدُون ليلاً لئلا يشعُر بهم العدوّ، ويَهْجُمون عليهم صباحاً على حين الغفلة ليروا ما يأتون وما يَدْرُون[٢].

﴿فَأَثَرْنَ﴾ وهيجن ﴿بِهِ﴾ قيل: يعني بالعدوّ[٣]. وقيل: يعني في ذلك الوقت، أو في ذلك المكان[٤] ﴿نَقْعاً﴾ وغُباراً أو صياحاً[٥] من النوائح. قيل: إنّه عطف على الفعل الذي دلّ عليه اسم الفاعل، والمعنى: واللائي عَدَوْن فأورين، وأغرن وأثرن[٦] ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ وفي ذلك الوقت، أو بسبب العَدْو ﴿جَمْعاً﴾ من جموع الأعداء، ودخلن بينهم[٧].

روى أنّه بعث رسول الله ﷺ إلى الناس من بني كنانة سَريّة، واستعمل عليها المُنذر بن عمرو الأنصاري، وكان أحد النُّقباء، فأبطأ عليه خبرها شهراً، فقال المنافقون: إنهم قُتِلوا، فنزلت السورة إخباراً للنبي ﷺ بسلامتها، والبشارة له بإغارتها على القوم[٨].

وفي (الأمالي عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن هذه السورة فقال: «وجّه رسول الله ﷺ عمر بن خطاب في سَرِيّة فرجع منهزماً يُجبّن أصحابه ويُجبنونه، فلمّا انتهى إلى النبي ﷺ قال لعليّ عليه السلام: أنت صاحب القوم، فسر أنت ومن تُريد من فُرسان المهاجرين والأنصار، فوجّهه رسول الله ﷺ وقال له: اكمُن النهار وسِر الليل ولاتُفارقك العين، قال: «فانتهى عليّ، إلى ما أمره رسول الله ﷺ فسار إليهم، فلمّا كان عند الصبح أغار عليهم، فأنزل الله على نبيّه: ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ إلى آخرها»[٩].

والقمي عنه: «أنّها نزلت في أهل وادي اليابس... اجتمعوا اثني عشر ألف فارس، وتعاقدوا وتعاهدوا وتواثقوا [على] أن لايتخلّف رجلٌ عن رجلٍ، ولايخذُل أحدٌ أحداً، ولايفِرّ رجلٌ عن صاحبه حتّى يموتوا كلّهم على حلفٍ واحدٍ، ويقتلوا محمداً ﷺ وعلي بن أبي طالب عليه السلام، فنزل جَبْرَئيل فأخبره بقصّتهم، وما تعاقدوا عليه وتواثقوا وامره أن يبعث أبابكر إليهم في أربعة آلاف من المهاجرين فصَعِد رسول الله ﷺ المِنبَر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: يا معشر المهاجرين والأنصار، إنّ جَبْرئيل قد أخبرني أنّ أهل وادي اليابس اثناعشر ألفاً استعدّوا وتعاهدوا وتعاقدوا على

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٦٥.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٤٩٦.
٣ و٤. تفسير الرازي ٣٢: ٦٦.
٥. في النسخة: صيحاً.
٦. تفسير الرازي ٣٢: ٦٦، وفي النسخة: وأغرين وأثرن.
٧. في النسخة: بينهن.
٨. تفسير روح البيان ١٠: ٤٩٧.
٩. أمالي الطوسي: ٩١٣/٤٠٧، تفسير الصافي ٥: ٣٦١.

أن لا يغدِر رجلٌ منهم بصاحبه، ولايفِرّ عنه، ولايَخذُله حتّى يقتلوني وأخي علي بن أبي طالب، وأمرني أن أسيّر إليهم أبابكر في أربعة آلاف فارس، فجدّوا في أمركم، واستعدوا لعدوكم، وانهضوا إليهم على اسم الله وبركته يوم الاثنين إنشاء الله.

فأخذ المسلمون عُدّتهم وتهيّؤوا، وأمر رسول الله ﷺ أبابكر بأمره، وكان فيما أمره به أنّه إذا رآهم أن يعرِض عليهم الاسلام، فانّ تابعوا وإلّا واقعهم ـ أي حاربهم.

فقتل مقاتليهم، وسبي ذراريهم، واستباح أموالهم، وخرّب ضياعهم وديارهم.

فمضى أبوبكر ومن معه من المهاجرين والأنصار في أحسن عُدّة وأحسن هيئة، يسير سيرا رفيقاً حتّى انتهوا إلى أهل وادي اليابس، فلمّا بلغ القوم نزولهم عليهم، ونزل أبوبكر وأصحابه قريباً منهم، خرج عليهم من أهل وادي اليابس مائتا رجل مدجّجين بالسلاح، فلمّا صادفوهم قالوا لهم: من أنتم، ومن أين أقبلتم، وأين تُريدون؟ ليَخْرُج إلينا صاحبكم حتّى نُكلّمه.

فخرج إليهم أبوبكر في نفرٍ من أصحابه المسلمين، فقال لهم: أنا أبوبكر صاحب رسول الله. قالوا: ما أقدمك علينا؟ قال: أمرني رسول الله أن أعرِض عليكم الاسلام، وأن تدخلوا فيما دخل فيه المسلمون، ولكم ما لهم، وعليكم ما عليهم، وإلّا فالحرب بيننا وبينكم. قالوا: أما واللّات والعُزّى، لولا رَحِم ماسّة وقرابة قريبة لقتلناك وجميع أصحابك قتلة تكون حديثاً لمن [يكون] بعدكم، فارجِع أنت ومن معك وارتجوا[١] العافية، فانّا نُريد صاحبكم بعينه وأخاه علي بن أبي طالب.

فقال أبوبكر لأصحابه: يا قوم، القوم أكثر منكم أضعافاً، وأعدّ منكم، وقد نأت داركم عن إخوانكم المسلمين، فارجعوا نُعلِم رسول الله بحال القوم. فقالوا له جميعاً: خالفت يا أبابكر رسول الله ﷺ وما أمرك به، فاتّقِ الله، وواقع القوم، ولاتخالف قول رسول الله. فقال: إنّي أعلم مالا تعلمون، والشاهد يرى ما لايرى الغالب.

فانصرف وانصرف الناس اجمعون، فأخبر النبي ﷺ بمقالة القوم، وما ردّه عليهم أبوبكر، فقال ﷺ: يا أبابكر، خالفت أمري، ولم تفعل ما أمرتك، فكنت لي والله عاصياً فيما أمرتك.

فقام النبي ﷺ وصَعِد المِنبَر، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: يا معشر المسلمين، إنّي أمرت أبابكر أن يسير إلى أهل وادي اليابس، وأن يعرض عليهم الإسلام، ويدعوهم إلى الله، فان أجابوه وإلّا واقعهم، وإنّه سار إليهم وخرج منهم إليه مائتا رجل، فلمّا سَمِع كلامهم وما استقبلوه به انتفخ سَحْرُه[٢]،

---

١. في المصدر: واربحوا.

٢. في المصدر والنسخة وتفسير الصافي: صدره، وانتفخ سَحْرُه: امتلأ خوفاً وجَبُن.

ودخله الرُّعب منهم، وترك قولي، ولم يُطِع أمري، وإن جَبْرَئيل أمرني عن الله أن أبعث إليهم عمر مكانه في أربعة آلاف فارس، فسِر يا عمر على اسم الله، ولاتعمل كما عَمِل أبوبكر أخوك، فانّه قد عصى الله وعصاني، وأمره بما أمر به أبابكر.

فخرج عمر والمهاجرون والأنصار الذين كانوا مع أبي بكر، يقتصد بهم في مسيرهم حتّى شارفوا القوم، وكانوا قريباً بحيث يراهم ويرونه، وخرج إليهم مائتا رجلٍ، وقالوا له ولأصحابه مثل مقالتهم لأبي بكر، فانصرف وانصرف الناس معه [وكاد أن يطير قلبه مما رأى من عدّة القوم وجمعهم، ورجع يهرب منهم.

فنزل جبرئيل عليه السلام فأخبر محمداً صلى الله عليه وآله بما صنع هذا وأنّه قد انصرف وانصرف المسلمون معه،] فصَعِد النبي صلى الله عليه وآله المِنْبَر، فحمد الله وأثنى عليه، وأخبر بما صنع عمر، وما كان منه، وأنّه قد انصرف وانصرف المسلمون معه مخالفاً لأمري عاصياً لقولي، فقدِم عليه فأخبره بمثل ما أخبر به صاحبه، فقال رسول الله: يا عمر، عصيت الله في عرشه وعصيتني، وخالفت قولي، وعملت برأيك، فقبّح الله رأيك، وإنّ جَبْرَئيل أمرني أن أبعث علي بن أبي‌طالب في هؤلاء المسلمين، وأخبرني أنّ الله يفتح عليه وعلى أصحابه.

فدعا علياً، وأوصاه بما أوصا به أبابكر وعمر، وأصحابه أربعة آلاف، وأخبره أنّ الله سيفتح عليه وعلى أصحابه، فخرج علي عليه السلام ومعه المهاجرون والأنصار، وسار بهم غير سير أبي‌بكر وعمر، وذلك أنّه أعنف بهم [في] السير حتى خافوا أن ينقطعوا من التعب وتحْفى[1] دوابّهم، فقال لهم: لاتخافوا فإنّ رسول الله قد أمرني بأمرٍ وأخبرني أنّ الله سيفتح علي وعليكم، وابشروا فانّكم على خيرٍ، وإلى خيرٍ. فطابت نفوسهم وقلوبهم، وصاروا على ذلك السير والتَّعِب حتّى إذا كانوا قريباً منهم حيث يرونهم ويراهم، أمر أصحابه أن ينزلوا، وسَمِع أهل وادي اليابس بمقدم علي بن أبي‌طالب وأصحابه، فاخرجوا إليهم منهم مائتي رجل شاكّين بالسلاح.

فلمّا رآهم علي عليه السلام خرج إليهم في نفرٍ من أصحابه، فقالوا لهم: من أنتم، ومن أين أقبلتم، وأين تُريدون؟ قال علي عليه السلام: أنا علي بن أبي‌طالب، ابن عمّ رسول الله وأخوه، ورسوله إليكم، أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، ولكم إن آمنتم ما للمسلمين، وعليكم ما على المسلمين من خير وشرّ. فقالوا له: إيّاك أردنا وأنت طُلِبَتنا، قد سَمِعنا مقالتك، فخُذ حَذرك، واستعدّ

---

١. حفي من كثرة المشي: رقّت قدمه أو حافره.

للحرب العَوان[١]. واعلم أنا قاتلوك وقاتلوا أصحابك، والموعد فيما بيننا وبينك غداً [ضحوه]، وقد أعذرنا فيما بيننا وبينك.

فقال علي عليه السلام: ويلكم تُهدّدوني بكَثْرتكم وجمعكم، فأنا استعين بـالله وبـملائكته والمسـلمين عليكم، ولاحول ولاقوة إلّا بالله العلي العظيم، فانصرفوا إلى مراكزهم، وانصرف عليّ إلى مركزه.

فلمّا جنّه الليل أمر أصحابه أن يحسنوا[٢] إلى دوابّهم ويقضموا[٣] ويُسرِجوا، فلمّا انشقّ عمود الصبح صلّى بالناس بغَلَس، ثمّ غار عليهم بأصحابه، ولم يعلموا حتى وطئتهم الخيل، فما أدرك آخر أصحابه حتّى قتل مُقاتليهم، وسبى ذراريهم، واستباح أموالهم، وخرّب ديارهم، وأقبل بـالأُسارى والأمـوال معه.

فنزل جَبْرئيل واخبر رسول الله صلى الله عليه وآله بما فتح الله على علي عليه السلام وجماعة المسلمين، فصَعِد رسول الله المِنْبَر، فحمد الله وأثنى عليه، اخبر الناس بما فتح الله على المسلمين، وأعلمهم أنّه لم يُصب منهم إلّا رجلين ونزل، فخرج يستقبل علياً عليه السلام في جميع أهل المدينة من المسلمين حتّى لقيه على ثلاثة أميال من المدينة، فلمّا رآه علي عليه السلام مقبلاً نزل عن دابّته، ونزل النبي صلى الله عليه وآله حتّى التزمه وقبّل ما بـين عينيه، فنزل جماعة المسلمين إلى حيث نزل رسول الله صلى الله عليه وآله وأقبل بالغنيمة والأُسارى وما رزقهم الله من أهل وادي اليابس».

ثمّ قال الصادق عليه السلام: «ما اغتم المسلمون مثلها قطّ، إلا أن يكون من خيبر، فانّها مثل خيبر، وأنزل الله في ذلك اليوم هذه السورة **﴿وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾** يعني بالعاديات، الخيل تعدو بالرجال، والضـبح: ضبحها في أعنتّها ولُجمها **﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً﴾** فقد أخبرك أنّها غارت عليهم صُبحاً **﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً﴾** قال: يعني الخيل يأثرن بالوادي [نقعاً] **﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً...﴾**» الخبر[٤].

وروى بعض العامة عن علي عليه السلام وابن مسعود، أن المراد بالعاديات الإبل[٥].

ورووا عن ابن عباس أنّه قال: بينا أنا أجالس في الحجر إذ أتاني رجلٌ فسألني عـن **﴿ٱلْـعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾** ففسّرتها بالخيل، فذهب إلى علي عليه السلام وهو تحت سقاية زمزم، فسأله وذكر له ما قلت، فقال: «ادعُهُ لي» فلمّا وقفت على رأسه قال: تُفتي الناس بما لاعلم لك به! والله إن كانت لأوّل غـزوة فـي الاسلام بدر، وما كان معنا إلّا فرسان: فرس للزبير، وفرس للمِقداد **﴿وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾** الإبل من

---

١. وهي الحرب التي قُوتل فيها مرّة بعد أخرى كأنهم جعلوا الأُولى بكراً، والحرب العوان، هي أشدّ الحروب.
٢. في النسخة: يجيئوا.
٣. أقضم القوم: امتاروا شيئاً قليلاً في القحط، وأقضم الدابة: علفها القضم، وهو نبت من الحمض.
٤. تفسير القمي ٢: ١٣٤، تفسير الصافي ٥: ٣٦١.
٥. تفسير الرازي ٣٢: ٦٣.

عرفة إلى: مُزدلفة، ومن المُزدلفة إلى مِنى، يعني إبل الحاج. قال ابن عباس: فرجعت من قولي إلى قول علي عليه السلام[١].

وعلى هذا ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ يعني أنّ الحوافر ترمي بالحجر من شدّة العَدْو، فتضرب به حجراً آخر فتُوري النار[٢]، أو المراد إيراء الحاجّ النيران لحوائجهم بالمُزدلفة[٣]. والمراد بالمغيرات صبحاً المسرعات من المُزدلفة إلى مِنى في صُبح يوم النَّحر[٤]. قالوا: الإغارة جاء بمعنى السرعة في السير، وأثرن بالعَدْو نقعاً وغُباراً. وقيل: النَّقع اسم للوادي الذي بين المُزدلفة ومِنى[٥].

وقوله: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ يعني توسّط بالعدو المزدلفة، فانّ المزدلفة تسمّى جَمْعاً لاجتماع الناس فيها، والغرض من القسم بإبل الحاجّ، أو بخيل الغزاة في سبيل الله، إظهار شرفها المُشعِر بغاية كرامة راكبهما وفضلهم، والترغيب في الجهاد والحجّ.

إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ[٦ ـ ١١]

ثمّ ذكر سبحانه المُقسَم عليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ﴾ بالطبع والجِبلّة الأصيلة ﴿لِرَبِّهِ﴾ المُنعِم عليه بالنِّعم العِظام ﴿لَكَنُودٌ﴾ وكفور، كما عن ابن عباس وجمعٌ من المفسرين[٦].

وعن أبي اُمامة، عن النبي صلى الله عليه وآله: «أنّ الكنود الكفور الذي يمنع رِفده، ويأكُل وحده، ويضرِب عبده»[٧] وقيل: أصل الكنود مانع الحقّ والخير[٨]. وقيل: إنّه البخيل[٩]. وقيل: يعني لوّام لربّه يذكر المصيبات، وينسى النِّعم[١٠]. وعلى أيّ تقدير يكون بُخله وعصيانه ومنعه حقوق ربّه ونسيانه نِعمه شديد الكفران.

﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ المذكور من كفرانه لربّه ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يَشهَد بذلك على نفسه، لظهور آثاره في أخلاقه وأفعاله بحيث لايمكنه إنكاره ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ والاشتياق إلى الأموال الدنيوية ﴿لَشَدِيدٌ﴾ وبالغ غايته، وإنّما سمّى المال خيراً جرياً على عادة الناس.

ثمّ ذمّه سبحانه على كفرانه لنعم ربّه مع علمه بكفرانه، وإكثاره في حبّ المال المستلزم للبخل الشديد، وغفلته عن سوء عاقبته بقوله: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ هذا الانسان الكفور الطالب لمال الدنيا أنّ الله مجازيه ومعاقبه على سيئاته ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ واُخرج ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ من الأموات وبُعث إلى المحشر

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٦٣.	٢ ـ٥. تفسير الرازي ٣٢: ٦٣.

٦. تفسير الرازي ٣٢: ٦٧، عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة.

٧ـ١٠. تفسير الرازي ٣٢: ٦٧.

للمجازاة على أعمالهم في الدنيا ﴿وَحُصِّلَ﴾ وأُخرج كما يُخرج الدُّهن من اللّبن ﴿مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ من ضمائر السوء والنيّات الرديّة الفاسدة وكُشِف عنها، فضلاً عن أعمالهم القبيحة الجلية ﴿إِنَّ رَبَّهُم﴾ وخالق أرواحهم وأجسادهم وقلوبهم وشراشر وجودهم ﴿بِهِمْ﴾ وبأعمالهم وأحوالهم وأخلاقهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ وحين خروجهم من القبور ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ بصيرٌ، فيجازيهم على أعمالهم من النَّقير والقِطْمير.

وفي الرواية السابقة عن الصادق عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ قال: «لكفور». ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ قال: «يعنيهما، قد شَهِدا [جميعاً] وادي اليابس، وكانا لحُب الحياة حريصين»، ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ إلى آخر السورة قال: «نزلت الآيتان فيهما خاصة، يُضمِران ضمير السوء، ويعملان به،

فأخبره الله خبرهما وفِعالهما»[1].

وعنه عليه السلام: «من قرأ سورة والعاديات، وأدمن قراءتها، بعثه الله عزّ وجلّ مع أمير المؤمنين عليه السلام يوم القيامة، وكان في رفقائه»[2].

---

١. تفسير القمي ٢: ٤٣٩، تفسير الصافي ٥: ٣٦٥.

٢. ثواب الأعمال: ١٢٥، مجمع البيان ١٠: ٨٠١، تفسير الصافي ٥: ٣٦٥.

في تفسير سورة القارعة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ [١ـ٥]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة ﴿وَٱلْعَادِيَاتِ﴾ المتضمّنة لبيان خروج الناس من القبور، نُظِمت سورة القارعة المُنبِئة بكيفية البعث والمُخبِرة بحساب الأعمال وحُسن حال المؤمنين، فافتتحها بذكر الاسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع فيها ببيان بعض أهوال القيامة بقوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ والحادثة العظيمة التي تقرع القلوب والأسماع.

ثمّ بالغ سبحانه في تهويلها بقوله: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ وأيّ يومٍ عجيبٍ هي في الفَخامة والفَظاعة والشدّة، وكرّر سبحانه ذكر القارعة لازدياد التهويل والتأكيد.

ثمّ لمّا استفهم عن شئونها تعجيباً له، بيّن أنّ شأنها وعِظم خَطَرها ممّا لاتناله البشر إلّا بالوحي السماوي بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ يا محمد، وأي شيء أعجب ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ وما مقدار عظمتها؟ فانّ عِظَم شأنها فوق إدراك البشر.

قيل: إنّما سُمّيت القيامة بالقارعة لأنّ الفَزَع هو الضرر، وفي القيامة تصطك[1] الأجرام العلوية والسفلية اصطكاكاً شديداً عند تخريب عالم الدنيا، أو لأنّ القيامه تُفزِع الناس بالأهوال الافراع حيث إنّ السماوات تنشقّ وتنفطر، والشمس والقمر تتكوران، والكواكب تنتثر، والجبال تندكّ، والأرض تَزلزل وتُبدّل، أو لأنها تُفزِع أعداء الله بالعذاب والخزي والنُّكال[2].

ثمّ بيّن سبحانه بعض أهوالها بقوله: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ بعد إحيائهم وبعثهم من القبور ﴿كَٱلْفَرَاشِ﴾ والحيوانات التي تطير وتتهافت على السِّراج فتحترق ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ والمُفرّق في الهواء والأرض، لاتتوجّه إلى جهةٍ واحدة. قيل: وجه الشُّبه الكَثرة والانتشار والضَّعف والذِلّة والاضطراب والتطاير إلى الداعي كتطاير الفَراش إلى النار[3].

---

١. في النسخة: اصطك.　　٢. تفسير الرازي ٣٢: ٧٠.

٣. تفسير روح البيان ١٠: ٤٩٩.

وقيل: وجه الشبه في الآية اختلافهم إلى جهاتٍ مختلفةٍ، وتشبيههم في الآية الأُخرى بالجَراد المنتشر في الكَثْرة[١].

ثمّ إنّه تعالى بعد بيان تفرّق الناس في وجه الأرض، بيّن سبحانه سَعَة وجه الأرض بقوله: ﴿وَتَكُونُ﴾ في ذلك اليوم ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ التي على وجه الأرض ﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ والصُّوف المتلوّن بالألوان المختلفة ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾ والمتفرّقة[٢] أجزاؤه بالنَّدف، والمنشور بالإصبع أو آلة أُخرى، وفيه تنبيهٌ على أنّ حال الجبال الرواسي إذا كان كذلك عند القارعة، فكيف يكون حال الانسان الضعيف!

فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ[٦-١١]

ثمّ بيّن سبحانه اختلاف الناس في مقدار الأعمال الحسنة حيث إنّها تُوزَن في ذلك اليوم بالميزان بقوله: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ وأعماله الموزونة، أو كَفّة ميزان أعماله الحَسنة حين تُوضَع فيها بعد تَجَسّمها، أو تُوضَع صحيفتها فيها ﴿فَهُوَ﴾ سبب رُجحان أعماله الحسنة على أعماله السيئة مستقرّ ﴿فِى عِيشَةٍ﴾ وحياة ﴿رَاضِيَةٍ﴾ محبوبة. قيل: يعني ذات رضا، يرضى بها صاحبها[٣]. ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ﴾ في ذلك اليوم ﴿مَوَازِينُهُ﴾ لقلّة حسناته وكثْرة سيئاته ﴿فَأُمُّهُ﴾ التي يأوي إليها كالولد هي ﴿هَاوِيَةٌ﴾ وجهنّم يهوى فيها. وقيل: يعني أُمّ رأسه هاوية في النار، فانّ أهل النار يهوون فيها على رؤوسهم[٤]. وقيل: إنّ أُمه هاوية كناية عن الهلاكة، فانّ العرب إذا دعوا على رجلٍ بالهلاك قالوا: هوت أمّه، لأنّ الهالك تهوي أُمّه حزناً وثكلاً[٥].

ثمّ عظّم سبحانه الهاوية أو الداهية التي دلّ عليها قوله: ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ يا محمد ﴿مَاهِيَهْ﴾ وما حقيقتها؟ ثمّ أعلمه بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أشدّ الحرارة بحيث تكون سائر النيران بالنسبة إليها باردة، نعوذ الله منها.

عن الباقر عليه السلام: «من قرأ وأكثر من قراءة القارعة، آمنه الله من فتنة الدجّال أن يُؤمن به ومن قيح[٦] جهنّم يوم القيامة»[٧] قد تم تفسيرها بتوفيق الله تعالى ومنه.

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٤٩٩.

٢. في النسخة: والمتفرق.

٣. تفسير الرازي ٣٢: ٧٣، تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٠.

٤ و٥. تفسير الرازي ٣٢: ٧٤، تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٠.

٦. في ثواب الأعمال، وتفسير الصافي: فيح، والفيح: سطوع الحرّ وفورانه.

٧. ثواب الأعمال: ١٢٥، مجمع البيان ١٠: ٨٠٦، تفسير الصافي ٥: ٣٦٧.

في تفسير سورة التكاثر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة القارعة المتضمّنة لتهويل يوم القيامة وبيان بعض أهواله، وتهديد العُصاة بالهاوية، نُظِمت سورة التكاثر المتضمّنة لتوبيخ الناس على الغفلة عن التفكّر في الآخرة، وعدم الاشتغال بما يُنجيهم من الأهوال والعذاب فيها من طاعة الله ورسوله، وتهديدهم برؤية الجحيم، والسؤال عن النِّعم الدنيوية، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع سبحانه بتوبيخ الناس على الغفلة عن الآخرة بالاشتغال بالدنيا بقوله: ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ وصَرَفكم أيّها الناس عن ذِكر الله وطاعته وعبوديته، والتفكّر في آيات توحيده، والتدبّر في أمر الآخرة، وتحصيل موجبات السعادة الأبدية ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ والتفاخر والتباهي بكَثْرة العدد والأقرباء ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ وتَوجّهتم إلى الأموات، واستوعبتم عددهم، وتفاخرتم بكثرة أقربائكم منهم.

رُوي أنّ بني سَهْم وبني عبد مَناف تفاخروا أيّهم أكثر، فكان بنو عبد مَناف أكثر، فقال بنو سَهْم: عُدوا مجموع أحيائنا وأمواتنا [مع] مجموع أحيائكم وأمواتكم، ففعلوا فزاد بنو سَهْم، فنزلت[1].

وإنّما عبّر سبحانه عن انتقالهم إلى ذكر الأموات بزيارتهم للتهكّم بهم، فانّ زيارة القبور التي حقّها أن تكون مُذكّرة للموت مُرغّبة إلى الزُّهد في الدنيا والإعراض عنها وترك التباهي والتفاخر، جعلوها سبباً للقسوة وحُبّ الدنيا.

وقيل: إنّ المعنى الهاكم التكاثر بالأموال والأولاد، إلى أن مُتمّ وأقبرتم مضيّعين أعماركم في طلب الدنيا، مُعرضين عمّا يَهُمّكم من السعي لآخرتكم، فتكون زيارة القبور كنايةً عن الموت[2].

رُوي أنّ النبي ﷺ سمع أنّه يقرا هذه الآية ويقول بعدها: «يقول ابن آدم، مالي مالي، وهى لك إلّا ما

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٧٦، تفسير أبي السعود ٩: ١٩٥، تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٢.

٢. تفسير أبي السعود ٩: ١٩٥، تفسير الصافي ٥: ٣٦٨، تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٢.

أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدّقت فأمضيت؟»[١].

وفي التعبير عن ورود القبر بالزيارة إشعارٌ بالخروج منه إلى الحشر وموقف الحساب، حيث إنّ الزائر منصرفٌ ومفارقٌ لامقيم، وإنّما لم يذكُر سبحانه المَلهى عنه ليذهب ذهن السامع كلّ مذهبٍ، فيحتمل جميع ما فيه السعادة الأبدية والخيرات الأُخروية وما فضّل به [من] المقامات العالية والدرجات الرفيعة.

كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ[٣-٦]

ثمّ ردّ سبحانه المتكاثرين عمّا هم فيه من التكاثر بقوله: ﴿كَلاَّ﴾ ليس الأمر كما تتوهّمون من أنّ السعادة بكَثْرة العدد أو المال والأولاد ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ خطأكم، وعن قريب تطّلِعون على ضلالتكم، وذلك العلم والاطّلاع حين خُروج روحكم من أبدانكم، حيث إنّكم حينئذٍ ترون وحدتكم وعدم نفع الأقرباء والأموال لكم وشدائد الأهوال قُدّامكم، أو حين دخولكم في القبور، حيث إنّكم تُعذّبون فيها ولاناصر لكم.

في الحديث: يُسلّط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تِنّيناً تَنْهَشه وتَلْدَغه حتى تقوم الساعة، لو أن تِنّيناً منها نفخ في الأرض ما أنبتت خضراء»[٢].

وعن الصادق عليه السلام: «لو دخلتم قبوركم»[٣].

ثمّ أكّد سبحانه التهديد بقوله: ﴿ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وفي لفظ ﴿ثُمَّ﴾ دلالة على أنّ الإنذار الثاني أبلغ من الأول، لأنّ فيه تنزيلاً لبُعد المرتبة منزلة بُعد الزمان.

وقيل: إنّ التهديد الأول بعذاب القبر، والثاني بأهوال القيامه، كما روي عن ذرّ أنه قال: ما زلنا نَشُكّ في عذاب القبر حتّى سَمِعت علياً عليه السلام يقول: «﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سوف تعلمون في القبر، ثمّ في القيامة»[٤].

وقيل: إنّ الأول عند الموت حين يقال له: لابُشرى، والثاني في سؤال القبر، من ربّك، ومن نبيك، وما دينك؟[٥]

---

١. مجمع البيان ١٠: ٨١٢، تفسير الصافي ٥: ٣٦٨، تفسير الرازي ٣٢: ٧٧، تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٢.

٢. تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٣.

٣. روضة الواعظين: ٤٩٣، عن النبي صلى الله عليه وآله، تفسير الصافي ٥: ٣٦٩، لم ينسبه إلى أحد.

٤. تفسير الرازي ٣٢: ٧٨، تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٣. ٥. تفسير الرازي ٣٢: ٧٨، تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٣.

عن الصادق عليه السلام: «لو خرجتم من قبوركم إلى محشركم».

وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾[1] عند النشور حين ينادي المنادي: فلان شقيّ شقاوة لاسعادة بعدها أبداً أو حين يقال: ﴿وَٱمْتَٰزُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[2].

وعن الصادق عليه السلام قال: «ذلك حين يُؤتى بالصراط فيُنْصَب بين جسري جهنّم»[3].

وتوصيف العلم باليقين وإضافته إليه، للدلالة على قوّة العلم.

وعن الصادق عليه السلام في الآية قال: «المعاينة»[4].

وقيل: إنّ المراد باليقين الموت والبعث والقيامة، لأنّهما إذا وقعا جاء اليقين وزال الشكّ، فالمعنى: لو تعلمون علم الموت وما يلقى الانسان معه وبعده في القبر وفي الآخرة لم يُلهكم التكاثر والتفاخر عن ذكر الله وعن الاستعداد للآخرة[5].

وقيل: إنّ المعنى لو تعلمون مايجب عليكم لتمسّكتم به، أو لوتعلمون لأيّ أمر خُلقتم لاشتغلتم به[6].

وقيل: يعني لو تعلمون ما بين أيديكم على الأمر اليقين، أي ما تستيقنونه، لفعلتم ما لايوصف ولايُكتنَه، ولكنّكم ضُلّال جَهَلة[7].

ثمّ أوضح سبحانه ما أبهمه من الإنذار والوعيد بقوله: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ رؤية العين ﴿ٱلْجَحِيمَ﴾ يوم القيامة، وهو جواب قسم مُقدّر، والمعنى: والله لترونّها.

وقيل: إنّه جواب ﴿لَوْ﴾[8] والمعنى: لو تعلمون الجزاء علم اليقين الآن لَتَرَوُنّ رؤيةً بالقلب الجحيم، وتكون دائماً في نظركم، لاتغيب عنكم أصلاً.

ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ [٧ و ٨]

ثمّ أكّد سبحانه ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ رُؤية تكون هي ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ ونفسه، وفي جعل الرؤية التي هي سبب اليقين من المبالغة ما لايخفى.

وقيل: إنّ الرؤية أولاً من البعيد، والثانية إذا صاروا إلى شفير جهنّم[9]. وقيل: تَكْرارها للدلالة على دوامها[10].

---

١. روضة الواعظين: ٤٩٣، عن النبي صلى الله عليه وآله تفسير الصافي ٥: ٣٦٩، لم ينسبه إلى أحد.
٢. يس: ٥٩/٣٦.
٣. روضة الواعظين: ٤٩٣، عن النبي صلى الله عليه وآله، تفسير الصافي ٥: ٣٦٩، لم ينسبه إلى أحد.
٤. المحاسن: ٢٥٠/٢٤٧، تفسير الصافي ٥: ٣٦٩.
٥ و٦. تفسير الرازي ٣٢: ٧٩.
٧. تفسير الرازي ٣٢: ٧٩.
٨. تفسير الرازي ٣٢: ٧٨.
٩. تفسير الرازي ٣٢: ٨٠.
١٠. تفسير الرازي ٣٢: ٨٠.

﴿ثُمَّ﴾ والله أيّها المتكاثرون ﴿لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ﴾ وفي وقت رؤية الجحيم ﴿عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الذي ألهاكم الالتذاذ به عن الدين والعمل به، فتُعذّبون على كفرانه وترك شُكره.

قيل: إنّ النعمة المسؤول[1] عنها الصحّة والفراغ[2]، لِما رُوي عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «نعمتان معنون فيهما كثيرٌ من الناس الصِحّة والفراغ»[3]. وقيل: هي الماء البارد، لقول النبي صلى الله عليه وآله: «أوّل ما يُسأل العبد [عنه] من النعيم فيقال له: ألم نصح جسمك، ونروك من الماء البارد»[4].

وقيل: إنّها النِّعم الخمس شِبَع البطن، وبرد الشراب، ولذّة النوم، وظلال المساكن، واعتزال الخلق[5]، كما عن الصادق عليه السلام[6].

وقيل: ما سوى كِنّ يؤويه، وثوب يَواريه، وكسرة تقوّيه يُسأل عنه[7].

وقيل: هو نعمة وجود محمد صلى الله عليه وآله وبعثه حيث قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[8].

وعنهما عليهما السلام: «هو الأمن والصِّحة»[9].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «الرُّطب والماء البارد»[10].

وفي (الفقيه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «كلّ نعيمٍ مسؤول عنه صاحبه إلّا ما كان في غزو أو حجّ»[11]

وعن الصادق عليه السلام قال: «تُسأل هذه الأمّة عمّا أنعم الله عليهم برسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ بأهل بيته عليهم السلام»[12].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث: «أنّ النعيم الذي يسأل عنه رسول‌الله صلى الله عليه وآله ومن حلّ محلّه من أصفياء الله، فانّ الله أنعم بهم على من اتّبعهم من أوليائهم»[13].

وعن الصادق عليه السلام أنّه سأل أبا حنيفة عن هذه الآية فقال: «ما النعيم عندك، يا نعمان؟» قال: القُوت من الطعام والماء البارد. فقال: «لئن أوقفك الله يوم القيامة بين يديه حتى يسألك عن كلّ أكلةٍ أكلتها أو شربةٍ شربتها ليطولنّ وقوفك بين يديه».

قال: فما النعيم، جُعِلت فداك؟ قال: «نحن أهل البيت النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا ائتلفوا

---

١. في النسخة: المسئولة.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٤.
٣ و٥. تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٤.
٥. تفسير الرازي ٣٢: ٨١و٨٢، تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٤.
٦. روضة الواعظين: ٤٩٣، عن النبي صلى الله عليه وآله، تفسير الصافي ٥: ٣٦٩.
٧. تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٤.
٨ تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٤، والآية من سورة النحل: ٨٣/١٦
٩. مجمع البيان ١٠: ٨١٢، تفسير الصافي ٥: ٣٦٩.
١٠. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١١٠/٣٨، تفسير الصافي ٥: ٣٦٩.
١١. من لايحضره الفقيه ٢: ٦٢١/١٤٢، تفسير الصافي ٥: ٣٦٩.
١٢. تفسير القمي ٢: ٤٤٠، تفسير الصافي ٥: ٣٦٩.
١٣. الاحتجاج: ٢٥٢، تفسير الصافي ٥: ٣٧٠.

بعد أن كانوا مختلفين، وبنا ألّف الله بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءً، وبنا هداهم الله إلى الاسلام، وهو النعمة التي لاتنقطع، والله سائلهم عن حقّ النعيم الذي أنعم به عليهم، وهو النبي ﷺ وعترته عليهم السلام»[١].

وفي رواية أُخرى أنّه عليه السلام قال: «بلغني أنّك تُفسّر النعيم في هذه الآية بالطعام الطيب والماء البارد في اليوم الصائف؟» قال: نعم. قال: «لو دعاك رجل واطعمك طعاماً طيباً وسقاك ماءً بارداً ثم امتن عليك به إلى ما كنت تنصبه؟» قال: إلى البُخل. قال: «افتبخّل الله تعالى؟!» قال: فما هو؟ قال: «حُبّنا أهل البيت»[٢].

وعن الرضا عليه السلام قال: «ليس في الدنيا نعيمٌ حقيقيٌ» فقال له بعض الفقهاء ممّن حضر: يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أما هذا النعيم في الدنيا هو الماء البارد؟ فقال له الرضا عليه السلام وعلا صوته: «كذا فسّرتموه أنتم، وجعلتموه على ضروب، فقالت طائفة: هو الماء البارد، وقال غيرهم: هو الطعام الطيب، وقال آخرون: هو طيب النوم، ولقد حدّثني أبي عن أبيه أبي‌عبدالله عليه السلام أنّ أقوالكم هذه ذكرت عنده في قول الله عز وجل ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ فغَضِب وقال: إنّ الله عزّ وجلّ لايسأل عباده عمّا تفضّل عليهم به، ولايَمُنّ بذلك عليهم، والامتنان بالانعام مستقبحٌ من المخلوقين، فكيف يُضاف إلى الخالق عزّوجلّ مالايرضى المخلوقون به؟! ولكن النعيم حبّنا أهل البيت وموالاتنا، يسال الله عنه بعد التوحيد والنبوة، لأنّ العبد إذا وفى بذلك أدّاه إلى نعيم الجنة الذي لايزول»[٣].

وعن الصادق عليه السلام - في هذه الآية - قال: «إنّ الله أكرم وأجلّ أن يُطعمكم طعاماً فسوّغكموه ثمّ يسالكم عنه، ولكن يسألكم عمّا أنعم عليكم بمحمد وبآل محمد»[٤].

وعن الباقر عليه السلام «إنّما يسألكم عمّا أنتم عليه من الحقّ»[٥].

وعن الصادق عليه السلام: «ثلاثة لايُحاسب العبد المؤمن عليهم: طعامٌ يأكُله، وثوبٌ يلبسه، وزوجةٌ صالحةٌ تُعاونه ويُحصن بها فَرْجه»[٦].

وفي رواية قال: «إنّ الله أكرم من أن يسال مؤمناً عن أكلِهِ وشُربِهِ»[٧].

---

١. مجمع البيان ١٠: ٨١٣، تفسير الصافي ٥: ٣٧٠.
٢. تفسير الصافي ٥: ٣٧٠، بحار الأنوار ١٠: ٢٢٠.
٣. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٨/١٢٩، تفسير الصافي ٥: ٣٧٠.
٤. الكافي ٦: ٣/٢٨٠، تفسير الصافي ٥: ٣٧١.
٥. الكافي ٦: ٥/٢٨٠، تفسير الصافي ٥: ٣٧١.
٦. المحاسن ٨٠/٣٩٩ الكافي ٦: ٢/٢٨٠، تفسير الصافي ٥: ٣٧١.
٧. المحاسن: ٨١/٣٩٩، تفسير الصافي ٥: ٣٧١.

عن الصادق عليه السلام: «من ذكر اسم الله على الطعام، لم يُسأل عن نعيم ذلك الطعام»[١].

أقول: الظاهر وجه الجمع بين الأخبار أنّ النعيم[٢] الذي يُسأل عنه جميع الناس، نعمة رسالة الرسول صلى الله عليه وآله وولاية أهل بيته عليهم السلام أنّهم هل أدّوا شكرها بقبولها والعمل بلوازمها؟ فاذا تبيّن شكرهم لها لم يُسألوا عن صرف ما يحتاجون إليه من النِّعم في حوائجهم، بل يُسألون عن صرف ما زاد عليه من الطيبات، وإذا لم يكونوا مؤمنين بالرسالة مُسلّمين[٣] للولاية يُسألون عن جميع النِّعم التي صرفت[٤] في غير طاعة الله زائداً على الضروريات، والله أعلم.

عن الصادق عليه السلام: «من قرأ سورة ﴿أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ في فريضة كُتِب له أجر مائة شهيد، ومن قرأها في نافلة كُتِب له أجر خمسين شهيد، وصلّى معه في فريضته أربعون صفّاً من الملائكة إنشاء الله تعالى»[٥].

---

١. المحاسن: ٢٦٩/٤٣٤، تفسير الصافي ٥: ٣٦٩. ٢. في النسخة: النِّعم. ٣. في النسخة: والمسلمين.
٤. في النسخة: الذي صرف.
٥. ثواب الأعمال: ١٢٥، مجمع البيان ١٠: ٨١٠، تفسير الصافي ٥: ٣٧١.

في تفسير سورة العصر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ[١]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة التكاثر المُتضمّنة لذمّ الانسان على التكاثر بالعدد والمال، وتهديده برؤية الجحيم والسؤال عن النعيم، نُظِمت سورة ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ المتضمّنة لبيان كون الانسان بسبب رغبته في النِّعم الدنيوية في خُسران وضررٍ عظيمٍ، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بالقَسم بالعصر بقوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ قيل: إنّ الله أراد به الدهر ومُطْلَق الزمان، لما رُوي عن النبي ﷺ أنّه تعالى أقسم بالدهر[١]، الدهر[٢] مشتمل على السراء والضراء، والصِحّة والسقم، والغنى والفقر[٣] وغيرها من آثار قدرة الله تعالى، ولأنّه من أصول النِّعم الذي لو ضيعه يُسأل عنه.

وقيل: إنّه تعالى أراد به وقت العصر، والعشي الذي هو بعد مضيّ قليلٍ من الزوال إلى الغروب، وأقسم به كما أقسم بالضُّحى لظهور آثار قدرة الله فيهما، ولأنّ لوقت العصر بسبب خلق آدم فيه شرفاً زائداً على سائر الأوقات[٤]، ولأنّ في القسم به تنبيهاً على أنّه وقت إذا لم يُحصّل الانسان فيه ربحاً كان من الخاسرين.

وقيل: أراد به سبحانه عصر النبوة[٥]، فانّه أشرف الأزمنة فاقسم سبحانه بزمان النبي ﷺ كما أقسم بمكانه بقوله: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهٰذَا ٱلْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾[٦] وأقسم بعمره بقوله: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٧].

وقيل: إنّ المراد به صلاة العصر، لظهور كثير من الأخبار في كمال فضيلتها[٨].

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٨٤

٢. في النسخة: ولاالدهر.

٣. تفسير الرازي ٣٢: ٨٤

٤. تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٦.

٥. تفسير أبي السعود ٩: ١٩٧، تفسير الصافي ٥: ٣٧٢، تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٦.

٦. البلد: ١/٩٠و٢.

٧. الحجر: ٧٢/١٥.

٨ تفسير أبي السعود ٩: ١٩٧، تفسير الرازي ٣٢: ٨٥

أقول: ويُحتمل كون المراد عصر ظهور القائم عليه السلام [وسيأتي]، عن الصادق عليه السلام[١].

إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ[٢ و ٣]

ثمّ ذكر سبحانه المُقسم عليه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ﴾ بجميع أفراده ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ عظيم ونُقصانٍ وضرر لانِهاية له من حيث تضييع عمره وإتلاف ماله وإهلاك نفسه باتّباع الشهوات والإنهماك واللذّات والاستغراق في حبّ الدنيا والاشتياق إليها، مع كونه قادراً في مُدّة عمره على تحصيل السعادة الأبدية والراحة السرمدية والنِّعم الدائمة بطاعة ربّه واتّباع رضوانه.

وعن الصادق عليه السلام: «﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ﴾ إلى آخر الدهر»[٢].

وعن ابن عباس: أُريد من الانسان هنا جماعة المشركين، كالوليد بن المُغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المُطّلب[٣]. وقيل: أُريد أبولهب[٤]. ورُوي أنّه أُريد به أبوجهل[٥]. ورُوي أنّ هؤلاء كانوا يقولون: إنّ محمداً لفي خسر، فأقسم الله تعالى إنّ الأمر بالضدّ ممّا توهّموه[٦].

أقول: لامنافاة بين إرادة العموم من الآية، ونزولها في بعضهم، كإرادة العموم من قوله ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾[٧] ونزوله في حقّ الوليد، ويشهد لإرادة العموم الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسوله واليوم الآخر ﴿وَعَمِلُوا﴾ الأعمال ﴿ٱلصَّالِحَاتِ﴾ واكتسبوا بأعمارهم وأموالهم الفضائل والخيرات لأنفسهم المستتبعة للدرجات الرفيعة والمقامات العالية في الآخرة، فانّهم في تجارة لن تبور، حيث باعوا الدنيا الدنيّة الخسيسة، واشتروا الآخرة الباقية النفيسة، فيالها من صفقةٍ ما أربحها!

وهم مضافاً إلى تكميل نفوسهم بالايمان والعمل، يسعون في تكميل نفوس غيرهم بأن ردعوهم عن الشرك ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ وتعاهدوهم على الايمان ﴿بِالْحَقِّ﴾ وهو التوحيد، ورسالة الرسول، وتصديق كتابه والعمل به وباحكامه ﴿وَتَوَاصَوْا﴾ وتعاهدوا على طاعة الله ﴿بِالصَّبْرِ﴾ عليها وتحمّل مشاقّها، وكفّ النفس عن المعاصي التي تشتاق إليها.

ثمّ إنّه بناءً على كون الحقّ أعمّ من الايمان والعمل[٨] [فانّ تخصيص هذا التواصي بالذكر مع

---

١. إكمال الدين: ١/٦٥٦، تفسير الصافي ٥: ٣٧٢.
٢. تفسير القمي ٢: ٤٤١، تفسير الصافي ٥: ٣٧٢.
٣ و ٤. تفسير الرازي ٣٢: ٨٦
٥. تفسير الرازي ٣٢: ٨٦ و ٨٧
٦. تفسير الرازي ٣٢: ٨٧
٧. الحجرات: ٦/٤٩.
٨ جواب هذه العبارة سقط من النسخة، وقد أكملناه من تفسير أبي السعود ٩: ١٩٧، وتفسير روح البيان ١٠: ٥٠٧، وكذا سقط أول الحديث الآتي عن الصادق عليه السلام وأثبتناه من إكمال الدين.

اندراجه تحت التواصي بالحقّ، لإبراز كمال الاعتناء به، أو لأنّ الأول عبارة عن رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضى به الله تعالى، والثاني عن رتبة العبودية التي هي الرضا بما فعل الله تعالى، فان المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتشوق إليه من فعل وترك، بل هو تـلقّي مـا ورد مـنه تـعالى بالجميل، والرضا به ظاهراً وباطناً.

وعن الصادق عليه السلام قال: «العصر عصر خروج] القائم عليه السلام. **﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ﴾** يعني أعداءنا **﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾** يعني بآياتنا **﴿وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ﴾** يعني بمواساة الاخوان **﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾** يعني الامامة **﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾** يعني بالعترة»[1].

والقمي عنه عليه السلام، قال: «استثنى أهل صفوته من خلقه حيث قال: **﴿إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾** بولاية أمير المؤمنين **﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾** ذرّياتهم ومن خلقوا بالولاية تـواصـوا بـها وصبروا عليها»[2].

وعنه عليه السلام: «من قرأ **﴿وَٱلْعَصْرِ﴾** في نوافله بعثه الله يوم القيامة مُشرقاً وجهه، ضاحكاً سنّه، قريرة عينه[3] حتّى يدخُل الجنّة»[4].

الحمد لله على التوفيق لتفسيرها.

---

١. اكمال الدين: ١/٦٥٦، تفسير الصافي ٥: ٣٧٢.
٢. تفسير القمي ٢: ٤٤١، تفسير الصافي ٥: ٣٧٢.
٣. في النسخة: قريراً عينيه.
٤. ثواب الأعمال: ١٢٥، مجمع البيان ١٠: ٨١٤، تفسير الصافي ٥: ٣٧٣.

في تفسير سورة الهمزة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ[١]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ المتضمّنة لبيان أنّ جميع الناس غائرون في الخُسران لحبّهم الدنيا وتفخارهم بالأموال والأقارب، نُظِمت بعدها سورة الهمزة المتضمّنة لذمّ من جمع الأموال وافتخر بها ورأى لنفسه فضلاً وفخراً على غيره، وتهديده بالخلود في جهنّم في الآخرة، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع سبحانه في ذمّ من يبالي بنفسه ويتعرّض لأعراض الناس وتعييبهم بقوله: ﴿وَيْلٌ﴾ وهلاك، أو شرّ وقباحة، أو جبل نار في جهنّم، على ما رُوي[١] ﴿لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾ ومُغتاب للناس و ﴿لُمَزَةٍ﴾ وعيّاب لهم، كما عن ابن عباس[٢]. وفي رواية أُخرى عنه: الهُمزة: هم المشّاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبّة. واللُّمزة: الناعتون للناس بالعيب[٣].

وقيل: الهُمزة: هو العيّاب باليد والرأس والعين بالاشارة، واللمزة هو العيّاب باللِّسان[٤].

وقيل: الهُمزة: العيّاب بالمواجهة أو بالجهرء واللُّمزة: العيّاب بظهر الغيب أو سرّاً[٥].

قيل: إنّ السورة نزلت في الأخنس بن شريق، كان يلمِز الناس ويغتابهم وخاصة رسول الله ﷺ[٦].

وقيل: نزلت في الوليد بن المُغيرة، كان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويطعن عليه في وجهه[٧] وقيل: نزلت في اُمية بن خلف[٨]، وعلى أي تقدير لايُخصّص مورد النزول العام.

ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ[٢ـ٤]

١و٢. تفسير الرازي ٣٢: ٩١.

٣. تفسير الرازي ٣٢: ٩٢.

٤. تفسير الرازي ٣٢: ٩١و٩٢.

٥. تتفسير الرازي ٣٢: ٩٢.

٦ ـ٨. تفسير الرازي ٣٢: ٩١.

ثمّ وصف سبحانه المذموم بالويل بقوله: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً﴾ كثيراً لنفسه، أو حقيراً غير قابل لأن يُفْتخر به ﴿وَعَدَّدَهُ﴾ وذَخَره لحوادث الدهر، أو أحصاه مرّةً بعد اُخرى لالتذاذ نفسه بعدّه، أو كثرته وافتخر به. وقيل: يعني جمع مالاً وعدّد قومه الذين ينصُرونه[1]، وإنّما ذكر صفة جمعه المال لكونه سبب هَمْزه ولَمْزه، وهو من جهله وجمعه ﴿يَحْسَبُ﴾ ويَظُنّ ﴿أَنَّ مَالَهُ﴾ الذي جمعه ﴿أَخْلَدَهُ﴾ في الدنيا، وآمنه من الموت.

وقيل: إنّ المعنى: اعتقد أنّه إن انتقص ماله يموت، فيَحْفَظه من التلف والنُّقصان ليبقى حيّاً[2]. وقيل: فيه تعريض بالعمل الصالح، فانّه هو الذي يُخَلّد صاحبه في الدنيا بالذكر الجميل، وفي الآخرة في النعيم المقيم[3].

﴿كَلَّا﴾ ليس الآخرة كما يَظُنّ، ولاينبغي له هذا الحُسبان، أو المعنى: حقّاً والله ﴿لَيُنبَذَنَّ﴾ ذلك الذي جمع المال، وليُطرحنّ ذلك الظانّ للخلود ﴿فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ كالحصا الذي يُطرح في البئر.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ * نَارُ ٱللهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةَ * فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ[٥ـ٩]

ثمّ بالغ سبحانه في تهويل الحُطمة بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ يا محمد، وأيّ شيءٍ أعلمك ﴿مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ وأيّ شيءٍ هي؟ هي ﴿نَارُ ٱللهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ والمشتعلة بأمره وقدرته وغضبه، لايُطفئها شيءٌ. ولايُشبهها شيءٌ من نيران الدنيا.

في الحديث: «أوقد عليها ألف سنة حتى احمرّت، ثمّ ألف سنة حتّى ابيضّت، ثمّ ألف سنة حتى اسودّت، فهي سوداء مُظلمة»[4].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «عجباً ممّن يعصي الله على وجه الأرض والنار تَسْعَر من تحته!»[5].

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ﴾ وتعلو ﴿عَلَى ٱلْأَفْئِدَةِ﴾ وأوساط القلوب وتغشاها.

حاصل الآية والله أعلم أنّ نار جهنّم تحطِم وتكسِر العظام، وتأكل اللحوم، وتدخُل في أجواف العُصاة وأهل الشهوات، وتُقبل إلى صدورهم، وتستولى على أفئدتهم، وتخصيص الأفئدة بالذكر لما أن الفؤاد ألطف ما في الجسد، وأشدّ تألّماً بأدنى الأذى، أو لأنّه محلّ العقائد الفاسدة والضمائر الخبيثة ومنشأ الأعمال السيئة.

١ـ٣. تفسير الرازي ٣٢: ٩٣.
٤. تفسير الرازي ٣٢: ٩٤، تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٩.
٥. تفسير الرازي ٣٢: ٩٤، تفسير روح البيان ١٠: ٥٠٩.

روي عن النبي ﷺ «أنّ النار تأكل أهلها حتّى إذا اطّلعت على افئدتهم انتهت، ثمّ إنّ الله تعالى يُعيد لحومهم وعظامهم مرة أُخرى»[1].

ثمّ بيّن سبحانه يأس الظانّين الخلود في الدنيا من خروجهم من الجحيم، وتيقّنهم بالخلود في النار بقوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ ومُغلقة الأبواب حال كونهم موثقين ﴿فِى عَمَدٍ﴾ وأعمدة ﴿مُّمَدَّدَةِۭ﴾ ومُطوّلة التي هي أثبت من القصيرة، مثل المقاطِر والخشبات التي تُجعل فيها أرجل اللصوص كيلا يَهْرُبوا.

وقيل: يعني تُطبق عليهم أبواب النيران، ويُجعَل على الأبواب العَمَد الطويلة استيثاقاً في استيثاق، لئلا يخرُجوا منها، ولا يدخُل عليهم روح[2]، والمعنى أنّ النار عليهم طبقة الأبواب بأعمدة مُدّت عليها، وإنّما لم يقل (بعَمَد) للإشعار بكثرتها بحيث صارت كأنّ الأبواب فيها.

القمّي رحمه الله قال: إذا مُدّت العَمَد كان والله الخلود[3].

وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ في فريضةٍ من فرائضه، أبعد الله عنه الفقر، وجلب عليه الرزق، ويدفع عنه مينة السوء»[4].

قد تمّ تفسيرها.

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ٩٤.

٢. تفسير روح البيان ١٠: ٥١٠، وزاد المؤلف هنا ثلاث كلمات غير مقروءة في النسخة، والذي في تفسير روح البيان: لايدخلها روح ولايخرج منها غمٌّ.

٣. تفسير القمي ٢: ٤٤٢، وفيه: العمد أكلت والله الجلود، تفسير الصافي ٥: ٣٧٤.

٤. ثواب الأعمال: ١٢٦، مجمع البيان ١٠: ٨١٦، تفسير الصافي ٥: ٣٧٥.

في تفسير سورة الفيل

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ ٱلْفِيلِ[١]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الهُمزة المتضمّنة لذمّ العيّابين للنبي ﷺ الطاعنين فيه لإطفاء نوره وإخلالاً بأمر رسالته، نُظِمت سورة الفيل المتضمّنة لبيان حفظ الله بيته من الخراب وتعذيب قاصديه، مبشراً له ﷺ بإهلاك أعدائه كإهلاك أعداء بيته الحرام، وتسلية لقلبه الشريف المتألّم بمكايد أعدائه في الإخلال بأمر رسالته، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ شرع سبحانه في تسلية قلب حبيبه ببيان قصة إهلاك أعداء بيته بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد، حين كنت في عالم الأشباح محيطاً بقضايا هذا العالم، أو المراد ألم تعلم بالتواتر علماً نازلاً منزلة الرؤية ﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾ وعامل ﴿رَبُّكَ﴾ اللطيف بك ﴿بِأَصْحَابِ ٱلْفِيلِ﴾ وجند أبرهة القاصدين تخريب الكعبة، إبقاءً لها، لتكن قبلة صلاتك، وإعظاماً لك، وتشريفاً لمقدمك الشريف. رُوي أنّ أبرهة بن الصباح الملقّب بالأشرم لمّا ملك اليمن من قبل أصحمة بن بحر النجاشي، ورأى توجّه الناس في أيام الموسم إلى حجّ البيت الحرام، حسد اهل الحِجاز على الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبه، فأراد صرف الناس عن الكعبة إلى بلده، فبنى كنيسةً بصنعاء من رُخامٍ مُلوّن، واجتهد في زخرفتها، ونقل إليها أحجاراً منقوشة بالذهب من قصر بلقيس صاحبة سليمان النبي عليه السلام، وجعل فيها صُلباناً من الذهب والفِضّة ومنابر من عاج والأبنوس، وسمّاها القليس، لارتفاع بناهائها وعلوّها، ودعا الناس إليها، ووعد زائريها بالهدايا والتُّحف والجوائز، فتوجّه الناس إليها بطَمَع أخذ الدراهم والدنانير، فلم يَزْرها أحدٌ إلّا وإنّه يرجِع بالتُّحف والهدايا، وكان رئيس مكّة في ذلك الوقت عبد المطّلب، فجاء إليه رجلٌ من بني كنانة يقال له زهير بن بدر، فاستأذن عبد المطّلب أن يذهب إلى تلك الكنيسة ويفعل فيها ما يصرِف الناس عنها، فذهب إليها، واشتغل بالعبادة فيها أياماً، فاستأذن من خُدّامها أن يبيت فيها

ليلة ليتعبّد فيها فأذنوا له[١] في ذلك، فأقام فيها الليل وحده، فتغوّط فيها، وطلى به جدرآنهاوإيوانـها ومِحرابها، ثمّ خرج منها وهرب، فانتشر الخبر في الآفاق، فتنفّر الناس منها، فلمّا سَـمِع ذلك أبـرهة غَضِب وحَلَف أن يُخرب الكعبة. وقيل: بلغ الخبر إلى النجاشي، فاغتم لذلكن وأغراه[٢] أبرهة وقال: لاتحزن، إنّ لهم كعبة هي فخرهم فنُخرب بنيانها ونبيح دماءها، فخرج أبرهة بجندٍ كثيفٍ، ومعه فيلٌ أبيض اللون لم يُرَ مثله في عِظَم الجثّة وشدّة القوّة، يقال له: محمود، فلمّا قرب من الحرم نزل، وبعث رجلاً حبشي[٣] يقال له الأسود، حتّى انتهى إلى مكّة، فساق إليه أموال تهامة ومواشيها[٤].

قيل: لمّا بلغ أبرهة المُغمّس ـ وهو منزل في طريق الطائف ـ خرج إليه عبد المطّلب، وعرض إليه ثلث أموال تهامة ليرجِع فأبى[٥].

وقيل: لمّا نزل المُغمّس بعث حناطة الحِمْيَري إلى مكّة، وقال له: سَل من سيّد هذا البلد وشريفهم، وقل له: إنّ المَلِك يقول: إنّي لم آت لحربكم، وإنّما جئت لهدم هذا البيت، فان لم تـتعرّضوا دونـه لحرب فلا حاجة لي في دمائكم، فإن لم يُرِد حربي فأتنى به، فجاء عبدالمطّلب ومعه جماعة من بني هاشم، فسبقهم الرسول إلى أبرهة، وقال له: جاءك رئيس مكة[٦].

وقيل: استأذن لعبد المطّلب بعض وزراء أبرهة، يقال له أنيس سائس الفيل، وقـال: جـاءك سـيد قريش وصاحب عير مكّة الذي يُطعم الناس في السهل، والوحوش فـي روؤس الجـبال، فأحسـن أبرهه رأيه، وجلس على السرير، فأجاز لعبد المطلب في الدخول، فلمّا ورد قال أبرهة، ونزل عـن السرير [كيلا تجلسه معه]، لأنه كَرِه أن تراه الحبشة على سرير ملكه، وجلس مع عبد المطلب على الأرض، وأكرمه وعظّمه، وأعجبه حُسن كلامه، وقال في نفسه: لو شفع في انصرافه من البيت لأجابه، فقال له: فاسأل منّي كلّما تُريد. فقال له عبد المطّلب: أُريد منك أن تامُر بردّ إبلي التي كانت ترعى بذي المجاز، فساقها بعض جيشك. فقال أبرهة لتُرجَمانه: قل له: لِمَ لَمْ تشفع في البيت الذي يَكون شرفاً وعزّاً لك ولقومك من قديم الدهر، وأنا أُريد أن أُخربه، وما قدر الإبل التي تُريدها؟!

وقيل: إنّه قال: سقطت من عيني، جئت لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك، فالهاك عنه ذَوْد أُخذلك[٧].

قال عبد المطّلب: أنا ربّ الابل، وللبيت ربّ يَحْفَظه كما حَـفِظه مـن تُـبّع وسـيف بـن ذي يَـزن

---

١. في النسخة: فأذنوه. ٢. في النسخة: وغراه. ٣. في النسخة: حبشية.
٤. تفسير روح البيان ١٠: ٥١١. ٥ و٦. تفسير روح البيان ١٠: ٥١٣.
٧. الذَوْد: القطيع من الإبل بين الثلاث إلى العشر، راجع تفسير الرازي ٣٢: ٩٦.

وكسرى، فغَضِب أبرهه، وأمر بردّ إبله، وقال: ننظُر من يَحفَظ البيت منّي؟

فرجع عبد المطّلب، وأمر أهل مكّة أن يجمعوا أموالهم وأمتعتهم ويصعدوا على الجبل، فلم يبق في مكّة أحدٌ تخوّفاً من مَعرّة الجيش، فجهّز أبرهة جيشه، وقدّم الفيل الأعظم[١]. قيل: سقوه الخمر ليذهب تمييزه، فكانوا كلّما وجّهوه إلى جهة الحرم برك ولم يَبرَح، وإذا وجّهوه إلى اليمن أو إلى سائر الجهات هرول، وجاء عبد المطّلب وأخذ بحلقة البيت، وقال:

لاهُـــمّ إنّ المـــرء يـــح ... مي رحله فامنع حلالك

لايـــغلبنّ صـــليبهم ... ومحالهم عدواً محالك

فالتفت وهو يدعوا، فاذا بطيرٍ فقال: والله إنّها لطيرٌ غريبة لانجدية ولاتهامية ولاحجازية، وإنّ لها لشأناً؛ وكان مع كلّ طائرٍ حَجرٌ في مِنقاره وحَجَران في رجليه أكبر من العَدسة وأصغر من الحِمّصة[٢].

أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ[٢ـ ٥]

ثمّ بيّن سبحانه كيفية فعله بهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ﴾ ربّك ﴿كَيْدَهُمْ﴾ وتدبيرهم وتخريب الكعبة وتعطيلها من الزوّار ﴿فِى تَضْلِيلٍ﴾ وتضييع وإبطال بأن أهلكهم أشنع إهلاك.

ثمّ بيّن سبحانه كيفية إهلاكهم بقوله: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ﴾ لاهلاكهم ﴿طَيْراً﴾ لم يُرَ مثلها حال كونها ﴿أَبَابِيلَ﴾ وجماعات. قيل: كانت أفواجاً متتابعة بعضها على أثر بعض، أو من هاهنا وهاهنا، جمع إبالة، وهي الحُزمة الكبيرة، شُبّهت بها جماعة الطير في تضامّها[٣].

قيل: كان عبد المطّلب وأبومسعود الثقفي يشاهدان من فوق الجبل عسكر أبرهة، فأرسل الله طيراً أسود صُفر المناقير خُضر الأعناق طوالها، وخضراء أو بيضاء أو بلقاء[٤].

عن عائشة: أنّها أشباه الخطاطيف والوطاويط، ولها خراطيم الطير، وأكفّ الكلاب وأنيابها[٥].

وعن ابن جبير، لم يُر مثلها ما قبلها ولابعدها[٦]. وقال [عكرمة]: هي عنقاء مغرب[٧] وفي الخبر: أنّها طيرٌ بين السماء والأرض تعيش وتُفرِخ[٨].

وقيل: من طير السماء ﴿تَرْمِيهِم﴾ من فوقهم ﴿بِحِجَارَةٍ﴾، فيها مكتوب اسم من قُتِل بها مُخطّطة بالحُمرة كالجَزْع[٩] الظَفاري، كما عن ابن عباس[١٠]، كائنة ﴿مِن سِجِّيلٍ﴾ وطينٍ متحجّر، مُعرّب سنك

---

١. تفسير روح البيان ١٠: ٥١٣.

٢. تفسير روح البيان ١٠: ٥١٤، و٥١٥.

٣. تفسير روح البيان ١٠: ٥١٧.

٤ ـ٨. تفسير روح البيان ١٠: ٥١٥.

٩. الجَزْع: ضرب من العقيق.

١٠. تفسير روح البيان ١٠: ٥١٥.

وكل، كما عن ابن عباس[١]. وقيل: هو علم للديوان الذي كُتِب فيه عذاب الكفّار، كأنّه قال: بحجارة من جملة العذاب المكتوب المُدوّن[٢]. وقيل: السِجّيل: اسم السماء الدنيا[٣]. وقيل: إنّه اسم جهنّم، وكان سجّين فأُبدلت نون آخره لاماً[٤].

وقد مرّ أنّ كلّ طائر كان يحمل ثلاثة أحجار، حَجَر بمنقاره، وحَجَران برجليه، تقتل بكلّ واحد رجلاً، ماوقع منها في موضع إلّا خرج من الجانب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج من دُبره[٥].

وفي رواية عن ابن عباس: لم يقع حجر على أحدٍ إلّا نَفِط[٦] جلده وثار به الجُدريّ[٧].

﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ الله ﴿كَعَصْفٍ﴾ ووَرَق زرعٍ ﴿مَأْكُولٍ﴾ أكلته الديدان، وإنّما سمّى ورق الزرع عَصْفاً؛ لأنّه يعصِف به الرياح من مكانٍ إلى مكان، وتوصيفه بالمأكول لأنّه حدث بهم بسبب رميهم منافذ وشقوق كورق أكله الدود.

وقيل: يعني كزرع أُكل حبّه وبقي صفراً منه، شبّههم به في ذَهاب أرواحهم وبقاء أجسادهم[٨].

وعن ابن عباس: يعني كزرعٍ وتبنٍ أكلته الدوابّ ثمّ ألقته روثاً، ثمّ يجِفّ وتتفرق أجزاؤه، شبّه تقطّع أوصالهم بتفرّق أجزاء الروث[٩].

وعلى أيّ تقدير هلك جيش أبرهة وفيلاته، وأُخذ أبرهه داءٌ أسقط أنامله وأعضاءه، ووصل إلى صنعاء كذلك، وهو مثل فرخ الطير، ومات فملك ابنه يكسوم بن أبرهة اليمن، وانفلت وزيره أبويكسوم وطائر يتحلّق فوق رأسه حتّى بلغ النجاشي فقصّى عليه القصّة، فلمّا أتمّها وقع عليه الحجر فخرّ ميتاً بين يديه[١٠].

وقيل: هلك كلّهم إلّا أبرهة، فخرج من مكّة، وجاء إلى الحبشة، وكان على رأسه طيرٌ ولم يعلم به حتّى وقف بين يدي النجاشي، فلمّا قصّ عليه القصة تعجّب النجاشي، وقال: كيف يهلِك الطير الجُند الكثير! فنظر أبرهه إلى الطير الذي كان على رأسه، فقال: هذا واحدٌ من تلك الطيور، فألقى ذلك الطير حَجَراً على رأسه، فهلك عند النجاشي[١١].

رُوي أنّ عبد المطّلب وأبو مسعود الثقفي كانا يشاهدان هلاك عسكر أبرهة من فوق الجبل حين

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٠١.
٢ -٤. تفسير الرازي ٣٢: ١٠١.
٥. تفسير الرازي ٣٢: ١٠٠.
٦. نَفِط جلده: أصابه الجُدري.
٧. تفسير الرازي ٣٢: ١٠٠.
٨ تفسير روح البيان ١٠: ٥١٨.
٩. تفسير الرازي ٣٢: ١٠١، تفسير روح البيان ١٠: ٥١٨، ولم ينسبه إلى أحد.
١٠. تفسير روح البيان ١٠: ٥١٥ و٥١٦.
١١. تفسير روح البيان ١٠: ٥١٦.

رماهم الطير بالحجارة، فقال عبد المطّلب لصاحبه: صار القوم بحيث لايُسمَع لهم رِكزٌ[١]، فانحطّا من الجبل ودخلا العسكر، فاذا هم موتى، فجمعا من الذهب والجواهر، وحفر كلّ منهما لنفسه حفيرة وملأها من المال، وكان ذلك سبب غناهما، وصارت بقية أمتعتهم غنيمة لقريش وأهل مكّة، هذا كلّه ما رواه العامة[٢].

وقال القمي ﷺ: نزلت في الحبشة حين جاءوا بالفيل ليهدِموا به الكعبة، فلمّا أدنوه من باب المسجد، قال له عبد المطّلب: تدري أين يُؤمّ بك؟ قال برأسه: لا. قال: أتوا بك لتهدِم كعبة الله، أتفعل ذلك؟ قال برأسه: لا، فجهدت به الحبشة ليدخل المسجد فامتنع، فحملوا عليه بالسيوف وقطّعوه، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل، قال: بعضها على أثر بعض ترميهم بحجارة من سجيل، قال: كان مع كلّ طيرٍ ثلاثة أحجار: حَجَر في مِنقاره، وحَجران في مخالبه، وكانت تُرفْرِف على رؤوسهم، وترمي في دِماغهم، فيدخل في دماغهم ويخرُج من أدبارهم وينتقض[٣] أبدانهم، فكانوا كما قال الله: **﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾** قال: العصف: التبن، والمأكول: هو الذي يبقى من فضله[٤].

وعن الصادق عليه السلام: «بعث الله عليهم الطير كالخطاطيف في مناقيرها حَجَر كالعَدَسة أو نحوها، فكانت تُحاذي رأس الرجل، ثمّ تُرسلها على رأسه، فتخرُج من دبره حتّى لم يبق منهم إلّا رجلٌ هرب فجعل يحدّث الناس بما رأى، فطلع عليه طائرٌ منها فرفع رأسه فقال: هذا الطير منها، وجاء الطير حتّى حاذى رأسه ثمّ ألقاها عليه، فخرجت من دُبره فمات»[٥].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سئل عن قول الله تعالى **﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴾** قال: «كان طير سافّ[٦] جاءهم من قِبَل البحر، رؤوسها كأمثال رؤوس السِّباع، وأظفارها كأظفار السِّباع من الطير، مع كلّ طائرٍ ثلاثة أحجار: في رجليه حَجَران، وفي منقاره حَجَر، فجعلت ترميهم بها حتى جَدّرت أجسادهم، فقتلهم بها، وما كان قبل ذلك رُؤي شيء من الجُدَري، ولارأوا ذلك من الطير قبل ذلك اليوم ولابعده».

قال: «ومن أفلت منهم يومئذٍ انطلق حتى إذا بلغوا حَضْرَ موت ـ وهو وادٍ دون اليمن ـ أرسل الله عليهم سيلاً فغرّقهم أجمعين». قال: «وما رُؤي في ذلك الوادي ماءٌ قطّ قبل ذلك اليوم بخمس عشرة سنة» قال: «ولذلك سمّي حَضْرَ موت حين ماتوا فيه»[٧].

---

١. الرُّكز: الصوت الخفي.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٥١٦.
٣. في النسخة: وتنقص.
٤. الكافي تفسير القمي ٢: ٤٤٢، تفسير الصافي ٥: ٣٧٦.
٥. الكافي ٤: ٢/٢١٦، تفسير الصافي ٥: ٣٧٦.
٦. أسفّ الطائر: دنا من الأرض.
٧. الكافي ٨: ٤٤/٨٤، تفسير الصافي ٥: ٣٧٧.

وعن الكاظم عليه السلام: «أنّ أبرهة بن يكسوم قاد الفيل إلى بيت الله الحرام ليهدمه قبل مَبعث النبي صلى الله عليه وآله فقال عبد المطّلب: إنّ لهذا البيت ربّاً يمنعه، ثمّ جمع أهل مكّة فدعا، وهذا بعد ما أخبره سيف بن ذي يزن، فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل، ودفعهم عن مكة وأهلها»[1].

وعن الصادق عليه السلام: «من قرأ في فرائضه ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ شَهِد له يوم القيامة كلّ سهلٍ وجبلٍ ومَدَرٍ بأنّه كان من المصلّين، ويُنادي يوم القيامة منادٍ: صَدَقتم على عبدي، قَبِلت شهادتكم له وعليه، أدخلوه الجنّة ولا تحاسبوه، إنّه ممّن أحبّه الله وأحبّ عمله»[2].

وعن العياشي: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ﴾ و ﴿لِإِيلَافِ﴾ سورةٌ واحدةٌ[3].

١. قرب الإسناد: ١٢٢٨/٣١٩، تفسير الصافي ٥: ٣٧٧.
٢. ثواب الأعمال: ١٢٦، مجمع البيان ١٠: ٨٢٠، تفسير الصافي ٥: ٣٧٧.
٣. مجمع البيان ١٠: ٨٢٧، تفسير الصافي ٥: ٣٧٨.

في تفسير سورة قريش

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلاَفِ قُرَيشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَاءِ وَٱلصَّيْفِ[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الفيل المتضمّنة لبيان إنعام الله على قريش بدفع أصحاب الفيل عنهم، وحفظ الكعبة التي كان بها عزّهم وشرفهم، نُظِمت سورة قريش المتضمّنة لبيان منّته عليهم بإدامة تجارتهم إلى اليمن والشام وإطعامهم من الجوع، وتوسعة معاشهم، وأمنهم من الخوف من أصحاب الفيل وغيرهم، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها ببيان حكمة من حكم إهلاك أصحاب الفيل، وهي إنعامه على قريش بقوله: ﴿لِإِيلاَفِ قُرَيشٍ﴾ قيل: إنّ التقدير جعل الله أصحاب الفيل كعصفٍ مأكول وأهلكهم أشنع إهلاك، لأجل إبقاء قريش على ما التزموا به[١]

ثمّ كأنّه قيل: [ما] ذلك الايلاف والالتزام؟ فأجابه سبحانه بقوله: ﴿إِيلاَفِهِمْ﴾ والتزامهم ﴿رِحْلَةَ ٱلشِّتَاءِ﴾ والسفر في الأزمنة الباردة للتجارة إلى اليمن ﴿وَ﴾ في ﴿ٱلصَّيْفِ﴾ والأزمنة الحارة إلى الشام، ولأجل أن يألفوا هاتين الرحلتين، ويجمعوا بينهما، ويداوموا عليهما.

عن ابن عباس قال: كانت قريش إذا أصاب أحدهم فَقر وجُوع أخذ بيد عياله وخرج إلى الصحراء، وضرب على نفسه وعياله خيمة، وبقى هناك حتّى يموت هو وعياله، وكانوا على ذلك إلى أن جاء هاشم بن عبد مَناف، وكان سيد قومه، وكان له ابن يقال له أسد، وكان له تِربٌ[٢] من بني مخزوم يُحبّه ويلعب معه، فشكا إليه ضرر المجاعة، فدخل أسد على اُمّه يبكى، فأرسلت إلى اُولئك بدقيقٍ وشحم، فعاشوا به أياماً، ثمّ أتى تِرب أسد إليه مرّة اُخرى، وشكا إليه من الجوع، فقام هاشم خطيباً في قريش فقال: إنكم أجدبتم جدباً تقلّون فيه وتذِلّون، وأنتم أهل حرم الله، وأشراف ولد آدم، والناس لكم تبع.

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٠٣.

٢. التِرْب: المماثل في السنّ.

قالوا: نحن تبعٌ لك، وليس عليك منّا خلافٌ، فجمع جميع أولاد النضر[١] بن كنانة على الرحلتين[٢] في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام، ليتجروا فيما بدا لهم من التجارات، فما ربح الغني قسم بينه وبين فقرائهم حتّى كان فقيرهم كغنيهم، فجاء الاسلام وهم كانوا على ذلك، فلم يكن في العرب بنو أب واحد أكثر مالاً ولاأعزّ من قريش[٣].

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِى أَطْعَمَهُم مِن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ[٣و ٤]

ثمّ اعلم أنّ بعض من فسّر السورة بهذا التفسير وقال بتعلق لام ﴿لِإِيلَافِ﴾ بالسورة السابقة، قال بكونها سورة واحدة، ويؤيده جعل[٤] كعب بن أُبي السورتين في مصحفه سورة واحدة، ولم يفصل بينهما بالبسملة[٥].

وروى العياشي عن أحدهما أنّه قال: «﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ﴾ و ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ سورةٌ واحدةٌ»[٦].

وقيل: إنّ اللام متعلّقة بقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذَا ٱلْبَيْتِ﴾ لايلافهم، أي ليجعلوا عبادتهم شكراً لهذه النعمة واعترافاً بها، وإنّما أدخل الفاء على ليعبدوا لما في الكلام من معنى الشرط، والمعنى إن لم يَعْبُدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لهذه النعمة الواحدة التي هي نعمة ظاهرة[٧].

وقيل: ليست متعلقة بما قبلها ولابما بعدها، بل هي لام التعجّب، والمعنى اعجبوا لإيلاف قريش، فانّهم كلّ يوم يزدادون غياً وجهلاً وانغماساً في عبادة الأوثان، والله يُؤلّف شملهم، ويدفع الآفات عنهم، وينظِم أسباب معايشهم[٨].

فليعبدوا رب هذا البيت، وليوحّدوه، أو فليخضعوا له؛ لأنّه حَفِظ البيت، وعظّمهم بحفظه في أنظار الناس، وهو ﴿ٱلَّذِى أَطْعَمَهُم﴾ بسبب تينك[٩] الرحلتين اللتين تمكنوا[١٠] منهما ﴿مِن جُوعٍ﴾ شديد. رُوي أنّهم أصابتهم شدّة حتّى أكلوا الجِيف والعظام المُحرقة[١١].

وقيل: إنّ تنكير الجُوع والخوف للتحقير، والمعنى أنّه تعالى لم يرض لهم بالجوع والخوف القليل، فيكف يرضى لهم إن عبدوه أن يُهمل أمرهم[١٢] لكونهم جيرانه وسُكّان حرمه.

وقيل: إنّه سبب دعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[١٣].

---

١. في النسخة: نصر، راجع جمهرة أنساب العرب: ١١.
٢. في النسخة: المرحلتين.
٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٠٦، تفسير روح البيان ١٠: ٥١٩.
٤. في النسخة: وابده يجعل.
٥ و٦. مجمع البيان ١٠: ٨٢٧، تفسير الصافي ٥: ٣٧٨.
٧. تفسير الرازي ٣٢: ١٠٥.
٨ تفسير الرازي ٣٢: ١٠٥.
٩. في النسخة: بتيك.
١٠. في النسخة: تمكثوا.
١١ و١٢. تفسير الرازي ٣٢: ١١٠.
١٣. تفسير روح البيان ١٠: ٥٢٠، والآية من سورة القصص: ٥٧/٢٨.

﴿وَآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ﴾ عظيم، كان لهم من أصحاب الفيل، أو من خوف التخطّف في بلدهم واسفارهم، فانّ إهلاك أصحاب الفيل صار سبباً لهيبتهم في قلوب الناس وفضل احترام لهم بحيث لم يكن يجترى عليهم أحد، فانتظم الأمر لهم في رحلتيهم، بل في جميع أسفارهم وأحوالهم.

عن القمي رحمه الله قال: نزلت في قريش، لأنّه كان معاشهم من الرحلتين: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام، وكانوا يحمِلونه الأدمَ واللباس[1]، وما يقع من ناحية البحر من الفلفل وغيره، فيشترون بالشام الثياب والدَّرْمك[2] والحُبوب، وكانوا يأتلفون في طريقهم، ويُثبتون في الخروج في كلّ خرجة رئيساً من رؤساء قريش، وكان معاشهم من ذلك، فلمّا بعث الله نبيه صلى الله عليه وآله استغنوا من ذلك لأنّ الناس وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وحجّوا إلى البيت، فقال الله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِى أَطْعَمَهُم مِن جُوعٍ﴾ فلايحتاجون أن يذهبوا إلى الشام ﴿وَآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ﴾ يعني خوف الطريق[3].

عن أمّ هانئ بنت أبي طالب قالت: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله فضّل قريشاً بسبع خصال لم يُعطَها أحد قبلهم ولايُعطاها أحد بعدهم: النبوة فيهم، والخلافة فيهم، والحِجابة للبيت فيهم، والسِّقاية فيهم، ونُصِروا على أصحاب الفيل، وعبدوا الله سبع سنين[4] ـ وفي رواية: عشر سنين ـ لم يعبُده أحدٌ غيرهم، ونزلت فيهم سورة في القرآن لم يذكر فيها أحداً غيرهم ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾[5].

اقول: الظاهر أنّ المراد من قولها: عبدوا الله سبع سنين، عبادتهم في بدو ظهور الرسالة، فانّ المؤمنين بالرسول صلى الله عليه وآله في تلك المدّة كلّهم كانوا من قريش.

عن الصادق عليه السلام: «من أكثر قراءة ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ بعثه الله يوم القيامة على مركبٍ من مراكب الجنّة حتى يقعُد على موائد النور يوم القيامة»[6].

الحمد لله على إتمام تفسيرها.

---

١. في النسخة: واللّبّ. ٢. الدَّرْمك: الدقيق الأبيض.
٣. تفسير القمي ٢: ٤٤٤، تفسير الصافي ٥: ٣٧٩. ٤ و٥. تفسير روح البيان ١٠: ٥٢١.
٦. ثواب الأعمال: ١٢٦، مجمع البيان ١٠: ٨٢٠، تفسير الصافي ٥: ٣٧٩.

في تفسير سورة الماعون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ[١ و ٣]

ثمّ لمّا خُتِمتِ سورة قريش المتضمّنة لبيان إنعامه ومنّته على قريش بدفع أصحاب الفيل عن البيت الذي هو سبب عزّهم وسعة معاشهم وآمنهم من خوف الأعداء، نُظِمت سورة الماعون المتضمّنة لبيان كفرهم وكفرانهم بنعم الله، وبُخلهم على الفقراء، وظلمهم على اليتيم، طُغياناً على الله، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بذمّ بعض قريش، وإظهار التعجّب من كفرهم وطُغيانهم بقوله: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ يا محمد، الكافر العنود ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ﴾ عِناداً ولَجاجاً ﴿بِالدِّينِ﴾ وجزاء الأعمال وبدين الاسلام، وإن أردت أن تعرفه ﴿فَذٰلِكَ﴾ الكافر هو الظالم ﴿ٱلَّذِى يَدُعُّ﴾ ويدفع الطفل ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾ عن حقّه ظلماً وجفوةً.

رُوي أن أباجهل كان وصياً ليتيم فجاءه يوماً عُرياناً يسأله من مال نفسه، فدفعه دفعاً شنيعاً، فأيس الصبيّ، فقال له بعض أكابر قريش: قل لمحمد يشفع لك، وكان غرضهم الاستهزاء به، والنبي ﷺ ما كان يرُدّ محتاجاً، فذهب معه إلى أبيجهل، فرحّب به وبذل المال لليتيم، فعيّره قريش، وقالوا له: صبوت! فقال: لاوالله ما صبوت، ولكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربةً [خفت] إن لم أُجبه يطعنها فيّ[١].

وعن القمي ﵀ قال: نزلت في أبيجهل وكفّار قريش[٢].

وقيل: نزلت في أبي سفيان، كان ينحر جَزُورين في كلّ أُسبوع، فأتاه يتيم فساله لحماً، فقرعه بعصاه[٣].

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١١١.
٢. تفسير القمي ٢: ٤٤٤، تفسير الصافي ٥: ٣٨٠.
٣. مجمع البيان ١٠: ٨٣٤، تفسير الرازي ٣٢: ١١١.

وقيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي، وكان من صفته الجمع بين التكذيب بيوم القيامة والإتيان بالأعمال القبيحة[١].

وقيل: في الوليد بن المُغيرة[٢].

ورُوي عن ابن عباس أنّها نزلت في منافقٍ جمع بين البُخل والمراءاة[٣].

وقيل: أنّه عام لكلّ من كان مكذباً بيوم الدين[٤].

﴿وَلاَ يَحُضُّ﴾ ولايحُثّ نفسه أو غير ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ لغاية بُخله، وخَساسَة طبعهِ، وقساوة قلبه، وعدم اعتقاده بأجرٍ وثوابٍ على إطعامه في الآخرة.

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ[٤-٧]

ثمّ ذمّ سبحانه بعض المنافقين منهم بقوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ وعذابٌ شديدٌ ﴿لِلْمُصَلِّينَ﴾ منهم نفاقاً ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ يأتون بصورة الصلاة، وهم ﴿عَن صَلاَتِهِمْ﴾ من أولها إلى آخرها ﴿سَاهُونَ﴾ وغافلون، لعدم مبالاتهم بها، وإنّما غرضهم من إتيانها خُدعة المؤمنين.

عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية، أهي وسوسة الشيطان؟ فقال: «لا، كلّ أحد يُصيبه هذا، ولكن أن يُغْفَلها ويَدَع أن يصلّى في أول وقتها»[٥].

وعن القمّي رحمه الله عنه عليه السلام، قال: «هو الترك لها والتواني عنها»[٦].

وعن الكاظم عليه السلام قال: «هو التضييع»[٧].

وقال جمعٌ من مفسّري العامة: معنى ساهون لايتعهّدون أوقات صلواتهم ولاشرائطها، ومعناه أنّه لايُبالي صلّى أم لم يُصلّ[٨]. فيكون أول السورة في المكذّبين المتجاهرين، وهذه الآية في المكذّب المنافق، وفي تصديرها بالويل دلالةٌ على كون المنافق أسوأ حالاً من الكافر المتجاهر بالكفر.

ثمّ ذمّهم سبحانه بالرياء وغاية البُخل بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ الناس، ويرون أعمالهم ويظهرون أن لهم من الخشوع والخضوع في الصلاة ماليس في قلوبهم ليُثنوا عليهم.

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١١١.

٢. مجمع البيان ١٠: ٨٣٤، تفسير الرازي ٣٢: ١١١.

٣ و٤. تفسير الرازي ٣٢: ١١٢.

٥. مجمع البيان ١٠: ٨٣٤، تفسير الصافي ٥: ٣٨٠.

٦. مجمع البيان ١٠: ٨٣٤، تفسير الصافي ٥: ٣٨١.

٧. الكافي ٣: ٥/٢٦٨، مجمع البيان ١٠: ٨٣٤، تفسير الصافي ٥: ٣٨١.

٨. تفسير الرازي ٣٢: ١١٤، وهو قول: سعد بن أبي وقاص ومسروق والحسن ومقاتل.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «يُريد بهم المنافقين الذين لايرجون لها ثواباً إن صلّوا، ولايخافون عليها عقاباً إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، فاذا كانوا مع المؤمنين صلّوها رِياءً، وإذا لم يكونوا معهم لم يُصلّوا، وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾»[١].

﴿وَيَمْنَعُونَ﴾ الناس ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ والأمتعة القليلة التي يحتاج إليها مثل القدر والقَصْعة والغِربال والقَدُوم والدلو وأمثالها، والنار والماء والملح ممّا يسأله الفقير والغني، ولايعتاد منعه، ويُنسَب مانعه إلى اللوم وخساسة الطبع. رُوي: ثلاثة لايحِلّ منعها: الماء، والنار والملح[٢]. وقيل: سمّيت الزكاة ماعوناً لأنها قليلٌ من كثير[٣].

وعن أمير المؤمنين والصادق عليهما السلام: «هو الزكاة المفروضة»[٤].

وعن الصادق عليه السلام قال: «هو القرض تُقرضه، والمعروف تصنعه، ومتاع البيت تُعيره، ومنه الزكاة». قيل: إنّ لنا جيراناً إذا أعرناهم متاعاً كسروه وأفسدوه، فعلينا جُناح أن نمنعهم؟ فقال: «لا، ليس عليكم جُناح أن تمنعوهم إذا كانوا كذلك»[٥].

قيل: في وجه المناسبة بين الرياء ومنع الماعون، كأنّه تعالى يقول: الصلاة لي والماعون للخلق، فما كان لي يعرِضونه على الخلق، وما هو للخلق يستُرونه عنهم، فتكون معاملتهم مع الربّ والخلق على العكس[٦].

عن الباقر عليه السلام: «من قرأ سورة ﴿أَرَأَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ في فرائضه ونوافله، قَبِل الله صلاته وصيامه، ولايُحاسبه بما كان منه في الحياة الدنيا»[٧].

الحمد لله على إتمام تفسيرها.

---

١. مجمع البيان ١٠: ٨٣٤، تفسير الصافي ٥: ٣٨١.
٢. تفسير الرازي ٣٢: ١١٥.
٣. تفسير الرازي ٣٢: ١١٦، تفسير روح البيان ١٠: ٥٢٣.
٤. مجمع البيان ١٠: ٨٣٤، تفسير الصافي ٥: ٣٨١.
٥. الكافي ٣: ٩/٤٩٩، تفسير الصافي ٥: ٣٨١.
٦. تفسير الرازي ٣٢: ١١٦.
٧. ثواب الأعمال: ١٢٦، مجمع البيان ١٠: ٨٣٢، تفسير الصافي ٥: ٣٨١.

في تفسير سورة الكوثر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ[١]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الماعون المتضمّنة لذمّ المنافقين بترك الصلاة والرياء بها والبخل، نُظِمت سورة الكوثر المتضمّنة لأمر النبي ﷺ بالصلاة الخالصة، ونحر البُدن، وإطعام الفقراء، فافتتحها بذكر الاسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بذكر غاية إنعامه على النبي ﷺ بقوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ﴾ يا محمد، من خزائن رحمتنا إنعاماً عليك لكرامتك علينا ونهاية محبوبيتك عندنا ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ وهو النهر في الجنة فيه خيرٌ كثير على المشهور بين السلف والخلف من مفسّري العامة على ما قيل[١]، لما رُوي عن النبي ﷺ أنّه قال: «رأيت نهراً في الجنّة، حافتاه قِباب اللؤلؤ المُجوّف، فضربتُ بيدي على مجرى الماء، فاذا أنا بمِسكٍ أذفر، فقلت: ماهذا؟ قيل: الكوثر الذي أعطاك الله»[٢].

ورُوي عنه ﷺ أنّه قرأ السورة فقال: «أتدرون ما الكوثر؟ إنّه نهرٌ في الجنّة، وعدنيه ربي فيه خيراً كثيراً، أحلى من العسل، وأشدّ بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وألين من الزُّبد، حافتاه الزَّبرجد، و أوانيه من فضّة عدد نجوم السماء، لا يضمأ من شَرِب منه أبداً، أول وارديه فقراء المهاجرين الدنسو الثياب الشُّعث الرؤوس»[٣].

وقيل: إنّه حوضه، وسمّي الكوثر لكثرة وارديه[٤]. وفي الحديث: «حوضي ما بين صنعاء إلى أيلة»[٥].

قيل في التوفيق بين الروايتين: إنّ النهر ينصبّ في الحوض، أو يسيل منه، فيكون الحوض كالمَنْبَع له[٦].

وقيل: إنّ المراد بالكوثر الخير الكثير، كما عن ابن عباس[٧]، رُوي أنّه فسّر الكوثر بالخير الكثير، فقال له سعيد بن جبير: إنّ ناساً يقولون هو نهرٌ في الجنة؟ فقال: هو من الخير الكثير[٨].

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٢٤.
٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٢٤.
٣. تفسير أبي السعود ٩: ٢٠٥، تفسير روح البيان ١٠: ٥٢٤.
٤ و٥. تفسير روح البيان ١٠: ٥٢٤.
٦. تفسير الرازي ٣٢: ١٢٤.
٧. تفسير روح البيان ١٠: ٥٢٤.
٨. تفسير روح البيان ١٠: ٥٢٤.

أقول: عليه تكون جميع النِّعم التي أعطاه الله الظاهرة والباطنة داخلةً في الخير الكثير.

وقيل: إنّه النبوة[١] وقيل: إنّه القرآن[٢]. وقيل: هو دين الاسلام[٣]. وقيل: هوالفضائل الكثيرة التي فيه[٤]. وقيل: إنّه العلم الكثير[٥]. وقيل: إنّه الخلق الحسن، لانتفاع عموم الناس به[٦]. وقيل: إنّه رفعة الذكر[٧]. وقيل: إنّه المقام المحمود الذي هو الشفاعة[٨].

وقيل: إنّه كَثرة أولاده، لأنّ هذه السوره نزلت ردّاً على من عابه بعدم الأولاد، فالمعنى أنّا نُعطيك نسلاً يبقون مرّ الزمان[٩].

قال الفخر الرازي: فانظركم قُتِل من أهل البيت، ثمّ العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بني اُمية في الدنيا أحدٌ يُعبأ به، ثمّ انظُركم كان فيهم من أكابر العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم[١٠].

وقيل: هو كَثرة علماء اُمّته، لأنّهم كانوا كأنبياء بني إسرائيل[١١]. وقيل: إنّه كَثرة أتباعه[١٢]، وقيل: إنّه هذه السورة، لأنّها مع قِصَرها وافيةٌ بجميع منافع الدنيا والآخرة[١٣]، حيث إنّ فيها مع قِصرها إعجاز البيان وإخبار بالمغيبات، فهي كافية لإثبات النبوة الجامعة للخيرات الدنيوية والاُخروية.

وعن الصادق عليه السلام قال: «هو الشفاعة»[١٤].

وعنه عليه السلام قال: «هو نهرٌ في الجنّة، أعطاه الله نبيّه صلى الله عليه وآله [عوضاً من ابنه]»[١٥].

وروى الصدوق عن ابن عباس قال: لمّا نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ قال له علي بن أبي طالب عليه السلام: ما الكوثر يا رسول الله؟ قال: «هو نهر، أكرمني الله به» قال وعليٌّ عليه السلام: «هو نهرٌ شريفٌ، فانعته لنا يا رسول الله». قال: «نعم يا علي، الكوثر نهرٌ يجري من تحت عرش الله، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزّبد، حصاه الزَّبَرجد والياقوت والمرجان، حشيشه الزَّعفران، تُرابه المِسك الأذفر[١٦]، قواعده تحت عرش الله عزّ وجلّ». ثمّ ضرب رسول الله صلى الله عليه وآله على جنب أمير المؤمنين عليه السلام وقال: يا علي، هذا النهر لي ولك ولمحبّيك من بعدي»[١٧].

وفي (الخصال) عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعي عترتي وسبطيّ[١٨] على الحوض، فمن أرادنا فليأخُذ بقولنا، وليعمل عملنا، فانّ لكلّ أهلٍ نجيباً، ولنا نجيبٌ ، ولنا الشفاعة،

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٢٤.
٢ و٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٢٦.
٤ ـ٨. تفسير الرازي ٣٢: ١٢٧.
٩ ـ١١. تفسير الرازي ٣٢: ١٢٤.
١٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٢٦.
١٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٢٧.
١٤ و١٥. مجمع البيان ١٠: ٨٣٦، تفسير الصافي ٥: ٣٨٢.
١٦. الأذفر: الشديد الرائحة.
١٧. أمالي الطوسي: ١٠٢/٦٩، تفسير الصافي ٥: ٣٨٢.
١٨. في النسخة: ومع عترتي.

ولأهل مودّتنا الشفاعة، فتنافسو في لقائنا على الحوض، فإنّا نذود عنه أعداءنا، ونسقي منه أحباءنا وأولياءنا، من شَرِب منه شُربة لم يَظمأ بعدها أبداً، حوضنا فيه مَثْعَبان[1] ينصبّان من الجنّة: أحدهما من تسنيم، والآخر من مَعين، على حافته الزعفران، وحصاه اللؤلؤ، وهو الكوثر»[2].

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[٢ و ٣]

ثمّ إنّه تعالى بعد ما فضّل نبيه ﷺ على العالمين بإعطائه الكوثر، طالبه بشكره بأمره بالقيام بعبوديته وتعظيمه بقوله: ﴿فَصَلِّ﴾ يا حبيبي الصلاة التي هي جامعة لجميع وظائف العبودية وشؤون التعظيم ﴿لِرَبِّكَ﴾ المتفضّل عليك بالنِّعم التي لاتُحصى أداءً لشكره عليها.

قيل: إنّه تعالى لمّا أمر نبيّه ﷺ بالصلاة قال ﷺ: «كيف أُصلي، ولست على وضوء؟» فقال الله ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ ثمّ ضرب جَبْرَئيل بجَناحه على الأرض، فنبع ماء الكوثر فتوضّأ[3].

ثمّ أمره بأفضل العبادات المالية بقوله: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ البّدن التي هي أنفس الأموال عند العرب. وقيل: لمّا كانت صلاة المشركين ونحرهم للأصنام، قال سبحانه: لتكن صلاتك ونحرك لربّك[4].

وقيل: أُريد بالصلاة صلاة العيد الأضحى، وبالنحر النحر للأضحية[5].

وقيل: يعني صلاة الفجر بالمزدلفة، والنحر بمِنىٰ[6].

وقيل: يعني استقبل في الصلاة بنحرك إلى القبلة[7].

وقيل: يعني ارفع يديك إلى نحرك عند تكبيرات الصلاة[8].

روي بعض العامة عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لمّا نزلت هذه السورة قال النبي ﷺ لجَبْرَئيل: ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربّي؟ قال: ليست بنحيرة، ولكنّه يأمُرك إذا تحرّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبّرت وإذا ركعت وإذا رفعت رأسك من السجود وإذا سجدت، فانّه صلاتنا وصلاة الملائكه الذين في السماوات السبع، وإنّ لكلّ شيءٍ زينة وزينة الصلاه رفع اليدين عند كلّ تكبير»[9].

ورووا عنه عليه السلام أنّه فسّر هذا بوضع اليدين على النحر في الصلاة، وقال: رفع اليدين قبل الصَلاة عادة المستجير العائذ، ووضعها على النحر عادة الخاضع الخاشع[10].

---

١. في النسخة: مشعبان، والمثعب : مسيل المياه.
٢. الخصال: ٦٢٤/١٠، تفسير الصافي ٥: ٣٨٣.
٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٢٩.
٤. تفسير الرازي ٣٢: ١٣٠.
٥. تفسير الرازي ٣٢: ١٣٠، تفسير روح البيان ١٠: ٥٢٥.
٦. تفسير الرازي ٣٢: ١٣٠، تفسير أبي السعود ٩: ٢٠٥.
٧. تفسير أبي السعود ٩: ٢٠٥.
٨ جوامع الجامع: ٥٥٤، تفسير أبي السعود ٩: ٢٠٥.
٩. مجمع البيان ١٠: ٨٣٧، تفسير الصافي ٥: ٣٨٣، تفسير الرازي ٣٢: ١٢٩.
١٠. تفسير الرازي ٣٢: ١٢٩.

وقيل: يعني ارفع يديك عَقيب الدعاء إلى نحرك[١]. وقيل: يعني اقعُد بين السجدتين حتى يبدوا نحرك[٢]، وهذه الأقوال كلّها متّفقة على أنّ النحر بمعنى الصدر.

وعن الصادق عليه السلام: «هو رفع اليدين حذاء وجهك»[٣]. [وفي رواية] فقال بيده هكذا، يعني استقبل بيده حذاء وجهه القبلة في افتتاح الصلاة[٤].

وعن الباقر عليه السلام أنّه سُئل عنه فقال: «النحر الاعتدال في القامة بأن يقيم صُلبه ونَحْره»[٥].

ثمّ إنه تعالى بعد إظهار غاية لُطفه بحبيبه، ردّ طعن المشركين عليه بأنّه أبتر بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ يا محمد ومُبغضك ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ومنقطع النسل. رُوي أنّ العاص بن وائل كان يقول بعد موت عبدالله بن رسول الله من خديجة: إنّ محمداً أبتر لاابن له يقوم مقامه بعده، فاذا مات انقطع ذكره واسترحتم، كما عن ابن عباس وعامة المفسرين على ما قيل[٦].

وعن السُّدّي: لمّا مات ابنه القاسم وعبد الله بمكّة، وإبراهيم بالمدينة، كانت قريش يقولون: إنّ محمداً ابتر ليس له من يقوم مقامه، فأخبر الله أنّ عدوه أبتر، ومن معجزات النبيّ صلى الله عليه وآله حيث نرى أنّ نسل اولئك الكفّار قد انقطع، ونسله عليه السلام يزداد وينمو كلّ يوم إلى يوم القيامة[٧].

وقيل: إنّها نزلت في أبي‌جهل، فانّه لمّا مات ابن رسول الله قال أبوجهل: إني اُبغضه لأنّه أبتر[٨].

وقيل: نزلت في عمّه أبي لهب، فانّه لمّا شافهه بقوله: تباً لك، كان يقول في غيبته: إنّه أبتر[٩].

وقيل: نزلت في عُقبة بن أبي مُعيط، وإنّه هو الذي كان يقول ذلك[١٠].

وقيل: إنّ الأبتر هو المنقطع عن قومه[١١]، قيل: لمّا أوحى الله إلى رسوله ودعا قريشاً إلى الاسلام قالوا: أبتر محمد، أي خالفنا وانقطع عنّا[١٢].

وعن ابن عباس: لمّا قَدِم كعب بن الأشرف مكّة أتاه جماعة من قريش، فقالوا: نحن أهل السِّقاية والسِّدانة، وأنت سيد أهل المدينة، أفنحن خيرٌ أم هذا الأبتر من قومه، يَزْعُم أنه خيرٌ منّا؟! فقال: بل أنتم خيرٌ منه، فنزل ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[١٣].

وقيل: إن المراد بالأبتر هنا المنقطع عن المقصود قبل بلوغه، فأجابهم الله تعالى أنّ خصمه هو الذي يكون كذلك، فانّهم صاروا مدبرين مغلوبين مقهورين، وصارت رايات الاسلام عالية وأهل الشرق

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٣٠، تفسير روح البيان ١٠: ٥٢٥. ٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٢٩.
٣ و٥. مجمع البيان ١٠: ٨٣٧، تفسير الصافي ٥: ٣٨٣. ٥. الكافي ٢: ٩/٣٢٦، تفسير الصافي ٥: ٣٨٣.
٦. تفسير الرازي ٣٢: ١٣٢، وعن مقاتل والكلبي وعامة أهل التفسير.
٧-١١. تفسير الرازي ٣٢: ١٣٣. ١١-١٤. تفسير الرازي ٣٢: ١٣٢.

والغرب لها متواضعة[١].

وقيل: إنّ المراد به من لاناصر له ولامُعين، فكذّبهم الله؛ لأنّ الله هو مولاه وجَبْرَئيل وصالح المؤمنين، وأنّ الكفار لاناصر لهم[٢].

وقيل: إنّ المراد به الحقير الذليل، رووا أنّ أباجهل اتّخذ ضيافة لقومه، ثمّ قال: محمد ابتر، ثمّ قال: قوموا حتى نذهب إلى محمد وأسارعه واجعله ذليلاً حقيراً، فلمّا وصلوا إلى دار خديجة، وتوافقوا على ذلك، أخرجت خديجة بساطاً، فلمّا تصارعا جعل أبوجهل يجتهد في أن يصرعه، وبقي النبيّ واقفاً كالجبل، ثمّ بعد ذلك رماه النبي ﷺ على أقبح وجه، فلمّا رجع أخذه باليد اليسرى، فصرعه على الأرض مرة اُخرى، ووضع قدمه على صدره[٣].

وقيل: إنّ المراد من قوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ هذه الواقعة[٤].

وقيل: إنّه لمّا نسب النبي ﷺ إلى القلّة والذلّة، ونفسه بالكثرة والدولة، قلب الله الأمر عليه، وبيّن أن العزيز من أعزّه الله، والذليل من أذلّه الله، والكثرة والكوثر لمحمد، والابترية والذّمامة[٥] والذلّة لعدوّه، فكان من أول السورة وآخرها نوع مطابقة.

وقيل: إنّ المراد به المنقطع عن المُلك والسلطنة، وقد مرّ أنّ رجلاً قام إلى الحسن بن علي وقال: سوّدت وجه المؤمنين بأن تركت الإمامة لمعاويه، فقال: «لاتؤذيني يرحمك الله، فانّ رسول الله ﷺ رأى بني اُمية في المنام يصعدون مِنْبره رجلاً رجلاً، فساءه ذلك، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ و ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ فقال: مُلك بني اُمية كذلك، ثمّ انقطعوا وصاروا مبتورين»[٦].

وقيل: إنّ المراد أنّ كلامهم الفاسد في حقّك منقطع ومضمحلّ، وأمّا المدح الذي ذكرناه فيك فإنّه باقٍ على وجه الدهر[٧].

عن القمي رحمه الله قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، وفيه عمر بن العاص والحكم بن العاص، فقال عمرو: يا أبتر، وكان الرجل في الجاهلية إذا لم يكن له ولد سُمّي أبتر. ثمّ قال عمرو: إنّي لأشنأ محمداً أي أبغضهُ، فأنزل‌الله على‌رسوله السورة ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي مُبغضك ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أي لادين‌له ونسب[٨].

ومِمّا تضحك به الثكلى معارضة مسليمة لهذه السورة بقوله: إنا أعطيناك الجماهر، فصلّ لربك وهاجر، إن مبغضك رجل كافر. فانّ تغيير ثلاث كلمات لايكون معارضة مع عدم المناسبة بين

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٣٣.

٢ - ٤. تفسير الرازي ٣٢: ١٣٣.

٥. في تفسير الرازي: والدناءة.

٦ و٧. تفسير الرازي ٣٢: ١٣٤.

٨. تفسير القمي ٢: ٤٤٥، تفسير الصافي ٥: ٢٨٣.

الإعطاء والجماهر والصلاة والهجرة، وحكم الذوق السليم بركاكته.

عن الصادق عليه السلام: «من كان قراءته ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ في فرائضه ونوافله، سقاه الله من الكوثر يوم القيامه وكان محلّه عند رسول الله صلى الله عليه وآله في أصل شجرة طُوبى»[1].

---

١. ثواب الأعمال: ١٢٦، مجمع البيان ١٠: ٨٣٥، تفسير الصافي ٥: ٣٨٤.

في تفسير سورة الكافرون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ[١ ـ ٥]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة ثمّ لمّا خُتِمت سورة الكوثر المتضمّنة لغاية إنعام الله وتفضّله على رسوله وأمره بعبادته، نُظِمت سورة الجحد المتضمّنة لامتناع الرسول ﷺ عن عبادة غير الله، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**﴾.

ثمّ خاطب نبيّه بقوله: ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد تقريعاً للمشركين الذين طعنوا فيك بأنّك أبتر ﴿**يَاأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ**﴾ قيل: في ندائهم بهذا الوصف الذي يسترذلونه في بلدهم ودار عزّهم وشوكتهم، إيذانٌ بذلّهم، وكونه ﷺ محروساً منهم[١]، وأنّه مؤيّد من الله.

رُوي أنّ رَهْطاً من عُتاة المشركين كالوليد بن المُغيرة وأبي جهل والعاص بن وائل وأمية بن خلف والأسود بن عبد يغوث والحارث بن قيس وأضرابهم، قالوا لرسول الله ﷺ: هلمّ فاتّبع ديننا ونتّبع دينك، تعبُد إلهنا سنة ونعبُد إلهك سنة، فيحصل الصُّلح بيننا وبينك، وتزول العداوة. فقال: «مَعاذ الله أن أُشرِك بالله غيره» فقالوا: استلم بعض آلهتنا نُصدّقك ونعبُد إلهك، فنزلت[٢] السورة: ﴿**يَاأَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾ من دون الله أبداً ﴿**وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ**﴾ بعد ﴿**مَا أَعْبُدُ**﴾ الله الواحد الذي لاإله غيره ﴿**وَلاَ أَنَا عَابِدٌ**﴾ في حالٍ من الأحوال ﴿**مَا عَبَدتُّمْ**﴾ من الأصنام والكواكب، فلاتطمعوا منّي ذلك الأمر المَحال ﴿**وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ**﴾ في وقتٍ من الأوقات ﴿**مَا أَعْبُدُ**﴾ وهو الله الواحد الذي خلق جميع الأشياء بقدرته، لتصلّبكم في دينكم الباطل، ولَجاجكم وعِنادكم للحقّ. قيل: إنّ التّكرار للتأكيد[٣]، فانّ الكفّار ـ على ما قيل ـ رجعوا إلى رسول الله ﷺ في ذلك مراراً، وسكت

١و٢. تفسير روح البيان ١٠: ٥٢٦.

٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٤٥.

الرسول ﷺ عن جوابهم، فوقع في قلوبهم أنّه قد مال إلى دينهم بعض الميل، فنزلت الآية مُكرّراً[١].

وقيل: إنّ الكفّار قالوا: استلِم بعض آلهتنا حتى نُؤمن لك، فأنزل الله: **﴿لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾** ثمّ قالوا بعد مدّة: تعبُد آلهتنا شهراً أو سنه، ونعبُد إلهك شهراً أو سنه، فأنزل: **﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾**[٢].

وذكر كلمة **﴿مَا﴾** في قوله: **﴿مَا أَعْبُدُ﴾** مع أنّها لغير ذوي العقول، لإرادة الصفة بها، والمعنى: لاأعبد الباطل الذي تعبُدونه، ولاأنتم عابدون الحقّ الذي أعبُد، كذا قيل[٣]. وقيل: إنّها بمعنى (الذي)[٤] أو مصدرية، والمعنى، لاأعبُد عبادتكم ولاتعبُدون عبادتي في المستقبل، ثمّ قال ثانياً: لاأعبُد عبادتكم ولاتعبُدون عبادتي في الحال[٥].

وقيل: إنّ ذكرها لاتساق الكلام، فانّه تعالى لمّا قال أولاً **﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ﴾** حمل الثاني عليه، كما قال: **﴿جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾**[٦].

لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ[٦]

ثمّ كأنّه قال: إنّ أردتم الصُلح، فانّ الصُلح بيننا وبينكم أن **﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾** لاتترُكونه **﴿وَلِىَ دِينِ﴾** لاأترُكه ولاأرفضه.

عن ابن عباس قال: يُريد لكم كفركم بالله، ولي التوحيد الخالص[٧].

وقيل: لكم دينكم فكونوا عليه إن كان الهلاك خيراً لكم[٨].

وقيل: إنّ الدين هو الحساب، والمعنى: لكم حسابكم، ولي حساب أعمالي، لايرجع عمل كلّ إلّا على عامله[٩].

وقيل: يعني لكم جزاء أعمالكم ودينكم وبالاً وعقاباً، ولي جزاء ديني ثواباً وتعظيماً[١٠].

وقيل: إنّ الدين هو العقوبة[١١]، والمعني: لكم العقوبة من ربّي، ولي العقوبة من أصنامكم، وفيه تهديد وتهكّم[١٢].

عن الصدوق في (الامالي): شأن نزول السورة أنّ نفراً من قريش اعترضوا لرسول الله ﷺ منهم: عُتبة بن ربيعة وأُمية بن خلف والوليد بن المُغيرة والعاص بن وائل أو سعد[١٣]، فقالوا: يا محمد، هلمّ فلنعبُد ما تعبُد، وتعبُد ما نعبُد، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فان يكن الذي نحن عليه حقّاً فقد

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٤٦. ٢ـ٥. تفسير الرازي ٣٢: ١٤٦.

٦. تفسير الرازي ٣٢: ١٤٦، والآية من سورة الشورى: ٤٢/٤٠.

٧. تفسير الرازي ٣٢: ١٤٧، وفيه: التوحيد والإخلاص له.

٨ و٩. تفسير الرازي ٣٢: ١٤٧. ١٠ـ١٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٤٧.

١٣. في أمالي الطوسي: العاص بن سعيد، وفي مجمع البيان ١٠: ٨٤٠ العاص بن أبي وائل.

أخذت بحظّك، وإن يكن الذي أنت عليه الحقّ فقد أخذنا بحظّنا منه، فأنزل الله السورة[١].

وفي الرواية العامية السابقة: فغدا رسول الله إلى المسجد [الحرام] وفيه الملأ من قريش، فقام على رؤوسهم فقرأها عليهم [فأيسوا][٢] منه عند ذلك، فآذوه وأصحابه[٣].

وعن القمّي: سال أبو شاكر الديصاني أبا جعفر الأحول عن تَكْرار الآية في السورة، وقال: هل يتكلّم الحكيم بمثل هذا القول ويُكرّره مرّة بعد أُخرى؟! فلم يكن عند الأحول في ذلك جواب، فدخل المدينة فسأل الصادق عليه السلام عن ذلك، فقال: «كان سبب نزولها وتَكْرارها أنّ قريشاً قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله تعبُد آلهتنا سنة، ونعبُد إلهك سنة، وتعبُد آلهتنا سنة ونعبُد إلهك سنة، فأجابهم الله بمثل ما قالوا»[٤].

وعنه عليه السلام: «من قرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في فريضةٍ من الفرائض، غفر الله له ولوالديه، وإن كان شقياً مُحي من ديوان الأشقياء وأُثبِت في ديوان السُّعداء، وأحياه الله سعيداً، وأماته سعيداً، وبعثه شهيداً»[٥].

وعنه عليه السلام: «كان أبي يقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ﴾ ربع القرآن، وكان إذا فرغ منها قال أعبُد الله وحده، أعبُد الله وحده»[٦].

وعنه عليه السلام، «إذا فرغت منها فقل: ديني الاسلام، [ثلاثاً]»[٧].

وروت العامة عن ابن عباس: ليس سورة في القرآن أشقّ على الشيطان من هذه السورة الكريمة، لأنّها توحيد مَحْض وبراءة من الشرك، فمن قرأها برئ من الشرك، وتباعد عنه مَرَدة الشياطين، وأمِن من الفزع الأكبر، وهي تعدِل رُبع القرآن»[٨].

وفي الحديث العامي: «مُروا صبيانكم فليقرؤها عند المنام، فلا يعرِض لهم شيءٌ، ومن خرج مسافراً فقرأ هذه السور. الخمس: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ﴾ و ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ رَجع سالماً، ولاتصبه آفة ومُصيبة»[٩].

---

١. أمالي الطوسي: ٢٢/١٩، تفسير الصافي ٥: ٣٨٥. ٢. في النسخة: فراغ.

٣. تفسير روح البيان ١٠: ٥٢٦، مجمع البيان ١٠: ٨٤٠.

٤. تفسير القمي ٢: ٤٤٥، تفسير الصافي ٥: ٣٨٥.

٥. ثواب الأعمال: ١٢٧، مجمع البيان ١٠: ٨٣٩، تفسير الصافي ٥: ٣٨٦.

٦. الكافي ٢: ٧/٤٥٤، وفيه إلى: ربع القرآن، مجمع البيان ١٠: ٨٣٩، تفسير الصافي ٥: ٣٨٦، وفيه: أعبد الله وحده، مرّة واحدة. ٧. تفسير القمي ٢: ٤٤٦، تفسير الصافي ٥: ٣٨٦.

٨ و٩. تفسير روح البيان ١٠: ٥٢٨.

في تفسير سورة النصر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجاً[١و٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة الجحد المتضمّنة لأمر النبي ﷺ بخطاب أهل مكّة بأشنع الخطاب، والإعلان بالتبري من عبادة أصنامهم المُؤذن جميع ذلك بعدم مبالاته إياهم، وكونه محروساً منهم ومنصوراً عليهم، نُظِمت سورة النصر المُبشّرة بنصرته على الكفّار، ودخول الناس في دينه، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بتبشير نبيّه ﷺ بالنصر والغَلَبة على الكفّار، وفتح مكّة الذي كان من أهمّ مطالبه بقوله: ﴿إِذَا جَاءَ﴾ ك يا محمد ﴿نَصْرُ ٱللهِ﴾ والغَلَبة التامة على أعداء الدين من قريش وسائر العرب ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ الذي تأمّله وتنتظره بسبب نصر الله وإعانته إياك عليه، وهو فتح مكّة التي هي مولدك ومسكن آبائك.

قيل: لمّا قال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْكَافِرُونَ﴾ خاف من قريش وسائر العرب بعض الخوف، فقلّل في الخشونة وقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ فآمنه تعالى وقال: لاتخف فإنّي لاأذهب بك إلى النصر، بل أجيء بالنصر إليك[1].

عن ابن عباس: الفتح هو فتح مكّة، وهو الفتح الذي يقال له فتح الفتوح[2].

رُوي أنّه لمّا كان صُلح الحُديبية، وانصرف رسول الله ﷺ، أغار بعض من كان على عهد قريش على خُزاعة، وكانوا على عهد رسول الله ﷺ، فجاء سفير ذلك القوم وأخبر رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليه، ثمّ قال: أما إنّ هذا العارض يُخبرني أنّ الظُّفر يجيء من الله، ثمّ قال لأصحابه: انظُروا. فانّ أبا سفيان يجيء ويلتمس أن يُجدّد العهد، فلم تمض إلّا ساعة أن جاء الرجل ملتمساً لذلك، فلم يُجبه رسول الله ﷺ ولاأكابر الصحابة، فالتجأ، إلى فاطمة، فلم ينفعه ذلك، فرجع إلى مكّة آيساً،

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٥٠.

٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٥٣.

وتجهّز رسول الله ﷺ إلى المسير لمكّة.

ثمّ رُوي أنّ سارة مولاة بني هاشم أتت المدينة، فقال لها النبي ﷺ: جئت مسلمة؟» قالت: لا، لكن كنتم الموالي ولي حاجة. فحثّ عليها رسول الله ﷺ بني عبد المطّلب فكسوها وحملوها وزوّدوها، فأتاها حاطب بن أبي بَلْتعة بعشرة دنانير، واستحملها كتاباً إلى مكّة نسخته: اعلموا أنّ رسول الله يُريدكم، فخذوا حذركم، فخرجت سارة، فنزل جَبْرَئيل بالخبر، فبعث رسول الله علياً عليه السلام وعماراً في جماعةٍ أمرهم أن يأخُذوا الكتاب، وإلّا فاضربوا عُنقها. فلمّا أدركوها جحدت وحلفت، فسلّ عليّ سيفه، وقال: والله ما كُذّبنا، فأخرجته من عَقيصة شعرها، واستحضر النبي ﷺ حاطباً، وقال: «وما حملك عليه؟» فقال: والله ما كفرتُ منذ أسلمت، ولا أجبتهم منذ فارقتهم، ولكن كنت غريباً في قريش، وكلّ من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن اتّخذ عندهم يداً.

فقال عمر: دعني ـ يا رسول الله ـ أضرِب عُنق هذا المنافق. فقال: «وما يدريك ـ يا عمر ـ لعلّ الله قد اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فغاضت عينا عمر.

أقول: لايخفى ما فيه من الطعن على عمر.

ثمّ خرج رسول الله ﷺ ثمّ نزل بمَرّ الظّهران، وقَدِم العباس عمّ النبي مع أبي سفيان إليه فاستأذناه، فأذِن لعمّه خاصّة، فقال أبوسفيان: إمّا أن تأذن لي، وإلّا أذهب بولدي إلى المَفازة فيموت جُوعاً وعَطشاً؛ فرقّ قلبه الشريف، فأذِن له، وقال له: «ألم يأن أن تُسلِم وتوحّد؟» فقال: أظُنّ أنّه واحدٌ، ولو كان هاهنا غير الله لنصرنا. فقال له: «ألم يأن أن تعرِف أنّي رسول الله؟» فقال: إنّ لي شكّاً في ذلك. فقال العباس: أسلِم قبل أن يقتُلك عمر، فقال: وما أصنع بالعُزّ؟» فقال عمر: لولا أنّك بين يدي رسول الله لضربت عُنقك.

فقال: يا محمد، أليس الأُولى أن تترُك هؤلاء الأوباش وتُصالح قومك وعشيرتك، فسُكّان مكة عشيرتك وأقاربك وتعرّضهم للشنّ والغارة؟

فقال رسول الله: «هؤلاء نصروني وأعانوني وذبّوا عن حريمي، وأهل مكة أخرجوني وظلموني، فان أُسروا فبسوء صنيعهم».

وأمر العباس بأن يذهب به، ويُوقِفه على المِرصاد ليُطالع العسكر، فكانت الكتيبة تَمرّ عليه فيقول: من هذا؟ فيقول العباس: هو فلان من أُمراء الجند والعسكر، إلى أن جاءت الكتيبة الخضراء التي لايُرى منها إلّا الحَدَق قال من هم؟ فقال العباس، هذا رسول الله ﷺ، فقال: لقد أُوتي ابن أخيك ملكاً

عظيماً! فقال العباس: هو النبوة. فقال: هيهات النبوة.

ثمّ تقدّم رجلٌ ودخل مكة وقال: إنّ محمداً جاء بعسكرٍ لايُطيقه أحد، فصاحت هند وقالت: اقتُلوا هذا المبشّر، وأخذت بلحيته، فصاح الرجل فدفعها عن نفسه، فلمّا سَمِع أبوسفيان أذان القوم للفجر، وكانوا عشرة آلاف فَزِع لذلك فَزَعاً شديداً، وسأل العباس، فأخبره بأمر الصلاة، ودخل رسول الله ﷺ مكة على راحلته، ولحيته على قَرَبُوس سرجه كالساجد تواضعاً وشُكراً، ثمّ التمس أبوسفيان الأمان، فقال رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» فقال أبوسفيان: ومن تسع داري؟ فقال ﷺ: «من دخل المسجد فهو آمن» فقال أبوسفيان: ومن يسع المسجد. فقال النبي ﷺ: «من ألقى سلاحه فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن».

ثمّ وقف رسول الله على باب المسجد، وقال: لاإله إلّا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب جنده، أو وحده» ثمّ قال: «يا أهل مكّة، فما ترون أنّي فاعلٌ بكم؟» فقالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخٍ كريم. فقال: «اذهبوا فأنتم الطُّلقاء»[1].

ثمّ إن القوم بايعوا رسول الله ﷺ على الاسلام، فصاروا يدخُلون في دين الله أفواجاً.

ثمّ اعلم أنّ فتح مكة كان في سنة ثمان من الهجرة، وقال بعض مفسّري العامة: إنّ السورة نزلت قبل الفتح[2]، فيكون ما فيها إخباراً بالغيب، ودليلاً على صحّة النبوة، وقال بعض: إنّها نزلت في سنة عشرة[3].

ورووا عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لمّا نزلت هذه السورة مَرِض رسول‌الله ﷺ، فخرج إلى الناس فخطبهم وودعهم، ثمّ دخل المنزل فتوفّي بعد أيام»[4].

ورُوي أنّه دعا فاطمة عليها السلام فقال: يا بنتاه إنّي نعيت إليّ نفسي» فبكت فقال: «لاتبكي، فـانّك أول أهلي لُحوقاً بي» فضحكت[5].

وعن ابن مسعود: أنّ هذه السورة تسمّى سورة التوديع لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا[6].

وقيل: إنّ المراد بالفتح فتح خيبر[7] وقيل: إنّه فتح الطائف[8]. وقيل: إنّه فتح بلاد الشرك على الاطلاق[9]، ويدُلّ على كون المراد فتح مكّة تعريفه بلام العهد، فانّ المعهود عندهم هو ذلك الفتح، وإنّ الناس قبل فتح مكة كانوا يدخُلون في الاسلام واحداً بعد واحدٍ واثنين اثنين، والله سبحانه قرن

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٥٣.

٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٥٥، تفسير أبي السعود ٩: ٢٠٨، تفسير روح البيان ١٠: ٥٢٨.

٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٥٥. ٤ـ٦. تفسير روح البيان ١٠: ٥٣١.

٧ـ٩. تفسير الرازي ٣٢: ١٥٥.

بذكر الفتح قوله: ﴿وَرَأَيْتَ﴾ وأبصرت ﴿ٱلنَّاسَ﴾ وعامّة العرب ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بالطوع والرغبة ﴿فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ وملّة الإسلام حال كونهم ﴿أَفْوَاجاً﴾ وجماعات كثيرة كأهل مكّة والطائف واليمن وهوازن وسائر قبائل العرب.

رُوي أنّ النبي ﷺ لمّا فتح مكة أقبلت العرب بعضها على بعض، فقالوا: إذا ظَفِر بأهل مكّة وأهل الحرم، فلن يقاومه أحد، وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ومن كلّ من أرادهم من الجبابرة، فكانوا يدخُلون في دين الاسلام أفواجاً من غير قتال[1].

وقيل: لم يَمُت رسول الله ﷺ وفي العرب رجلٌ كافر، بل دخل الكلّ في الاسلام بعد حُنين، منهم من قدِم إلى رسول الله ﷺ ومنهم من قَدِم وافده[2].

وعن جابر بن عبدالله الأنصاري أنّه بكى ذات يومٍ فقيل له في ذلك، فقال: سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «دخل الناس في دين الله أفواجاً، وسيخرُجون منه أفواجاً»[3].

فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً[٣]

ثمّ لمّا بشّر سبحانه حبيبه بالنصر على الأعداء الدالّ على كمال قدرته، أمره بتسبيحه وتنزيهه عن الشرك والعجز بقوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ ونزّه إليك ـ يا محمد ـ عن العجز والنقائص الامكانية، ولمّا بشّره بنعمة الفتح أمره أن يُقرِن تسبيحه[4] بحمده على نعمة التي منها الفتح، وكأنّه تعالى قال: فسبّح حال كونك متلبساً ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ المُنعم عليك.

ثمّ أومأ إلى كمال دينه وتمام أمر دعوته وقُرب أجله بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ لما فَرَط منك من ترك الأولى والأفضل، ولذنوب الداخلين في دينك، أو هضماً لنفسك، واستصغاراً لعملك، واستعظاماً لحقوقه ﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿كَانَ﴾ بذاته وبلطفه ﴿تَوَّاباً﴾ ومبالغاً في قبول التوبة بحيث يعامل مع التائب معاملة من لم يُذنِب.

قيل: إنّ علّة الأمر بالاستغفار كونه تعالى غفّاراً، وأمّا التعليل بكونه تواباً للدلالة على أنّ المقدّر، وتُب إنّه كان تواباً، والامر بالتوبة بعد الاستغفار للدلالة على أنّ طلب المغفرة لاينفع إلّا إذا قُرِن بالندم على المعاصي، والعزم على عدم العود[5].

روت عائشة أنّه كان رسول الله ﷺ بعد نزول هذه السورة يُكثِر أن يقول: «سبحانك اللهمّ

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٥٧، تفسير روح البيان ١٠: ٥٢٩.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٥٢٩.
٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٥٧، تفسير روح البيان ١٠: ٥٣٠.
٤. في النسخة: بتسبيحه.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٥٣٢.

وبحمدك، استغفرك وأتوب إليك»[١].

وعنها أيضاً: كان نبي الله ﷺ في آخر أمره لايقوم ولايقعُد ولايذهب ولايجيء إلّا قال: «سبحان الله وبحمده». فقلت يا رسول الله انك تكثر من قول سبحان الله وبحمده، قال: إني أمرت بها وقرأ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾[٢]. وروي ذلك عن أُمّ سَلَمة أيضاً[٣].

وقالت أيضاً: كان الرسول ﷺ يقول كثيراً في ركوعه: «سبحانك اللهم وبحمدك اللهمّ اغفر لي[٤].

وعن ابن مسعود: لمّا نزلت هذه السورة كان يُكثِر من أن يقول: «سحانك اللهمّ وبحمك، اللهمّ اغفر لي، إنّك أنت التواب الغفور[٥].

عن الصادق عليه السلام: «أنّ أول ما نزل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ وآخره ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾»[٦].

وعنه عليه السلام: «من قرا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ في نافلةٍ أو فريضةٍ، نصره الله على جميع أعدائه، وجاء يوم القيامة ومعه كتابٌ ينطِق قد أخرجه الله من جوف قبره، فيه أمان من جسر جهنّم، ومن النار، ومن زفير جهنّم، فلايَمُرّ بشيءٍ يوم القيامة إلّا بشّره وأخبره بكلّ خيرٍ حتّى يدخُل الجنة، ويفتح له في الدنيا من أسباب الخير ما لم يتمنّ ولم يخطِر على قلبه»[٧].

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٠، تفسير روح البيان ١٠: ٥٣١.
٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٠.
٣. مجمع البيان ١٠: ٨٤٤، تفسير الصافي ٥: ٣٨٧.
٤. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٠.
٥. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٠.
٦. الكافي ٢: ٥/٤٦٠، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٢/٦، تفسير الصافي ٥: ٣٨٧.
٧. ثواب الأعمال: ١٢٧، مجمع البيان ١٠: ٨٤٣ وفيه إلى قوله: يدخل الجنة.

في تفسير سورة المسد

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة النصر المتضمّنة لبيان تمامية دعوة الرسول ﷺ، ونفوذ كلمته، ودخول الناس في دينه، ونُصرته على أعدائه، نُظِمت سورة أبي‌لهب المتضمّنة لبيان خبث[١] أبي لهب وذمّ زوجته أمّ جميل[٢] الساعيين في الإخلال بأمر رسالته وإطفاء نوره، وغاية خُسرانها [في] معاندته، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ افتتحها بذكر خُسران أبي لهب في معاندته للرسول ﷺ بقوله: ﴿تَبَّتْ﴾ وخسرت، أو خابت ﴿يَدَا أَبِى لَهَبٍ﴾ رُوي أن رسول الله ﷺ صَعِد على الصفاذات يوم، وقال: «يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقالوا: مالك؟ قال: «أرايتم إن أخبرتكم أنّ العدوّ مُصبّحكم أو مُمسيكم، أما كنتم تُصدّقوني؟» قالوا: بلى. قال: «فانّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديدٍ، فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا دعوتنا! فنزلت السورة[٣].

وروي أيضاً أنّه ﷺ جمع أعمامه، وقدّم إليهم طعاماً في صَحْفةٍ، فاستحقروه. وقالوا: إنّ أحدنا يأكُل كلّ الشاة، فقال: «كُلوا» فأكلوا حتى شَبِعوا ولم ينقُص من الطعام إلّا اليسير، ثمّ قالوا: فما عندك؟ فدعاهم إلى الاسلام. فقال أبولهب: تباً لك، ألهذا دعوتنا![٤]

وروي أنّه قال أبولهب: فما لي إن أسلمت؟ فقال: «ما للمسلمين» فقال: أفلا أُفضّل عليهم؟ فقال النبي ﷺ: «بماذا تُفضّل؟» فقال: تباً لك ولهذا الدين، يستوى [فيه] أنا وغيري[٥]. وفي رواية: كان إذا وفد على النبي ﷺ وفدٌ سألوا عمّه عنه، وقالوا: أنت أعلم به. فيقول لهم: إنّه ساحرٌ، فيرجِعون عنه ولايَلْقونه، فأتاه وفدٌ فقال لهم مثل ذلك، فقالوا: لانتصرف حتّى نراه. فقال: إنّا لم نزل نُعالجه من

---

١. في النسخة: خبيثة. ٢. في النسخة: جميلة.
٣. مجمع البيان ١٠: ٨٥١، تفسير الصافي ٥: ٣٨٩، تفسير الرازي ٣٢: ١٦٥.
٤ و٥. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٥.

الجنون، فتباً له وتَعساً، فأُخبر النبي ﷺ بذلك فحزن، فنزلت السورة[١].

وفي رواية ابن عباس: اجتمعت عنده قريش فقال ﷺ: «إنّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وأنتم الأقربون، اعلموا أنّي لاأملك لكم من الدنيا حظاً، ولا من الآخرة نصيباً، إلّا أن تقولوا: لاإله إلّا الله، فأشهد بها لكم عند ربّكم». فقال أبولهب ذلك: تباً لك، ألهذا دعوتنا! فنزلت السورة[٢].

وعنه قال: ﴿تَبَّتْ﴾ أي خابت، لأنه كان يدفع القوم عنه بقوله: إنه ساحرٌ، فينصرفون عنه قبل لقائه. لأنّه كان شيخ القبيلة، وكان له ﷺ كالأب، فكان لايتّهم، فلمّا نزلت السورة غَضِب وأظهر العداوة الشديدة، فصار متّهماً، فلم يُقبَل قوله في الرسول ﷺ بعد ذلك، فكأنّه خاب سعيه وبطل غرضه[٣].

قيل: إنّما ذكر سبحانه اليد، لأنّه كان يضرِب يديه على كَتِف الوافد عليه لدفعه، ويقول: انصرف راشداً فانّه مجنون[٤]. وقيل: يعني صَفِرت يداه عن كلّ خير[٥]، وعليه يكون المراد باليد حقيقتها، فانّه كان يؤذي النبي ﷺ بيده.

رُوي عن طارق المحاربي أنّه قال: رأيت رسول الله ﷺ في السوق يقول: «أيّها الناس، قولوا لاإله إلّا الله تُفلِحوا» ورجل خلفه يرميه بالحجارة. وقد أدمى عَقِبيه، وقال: لاتُطيعوه فانّه كذّاب، فقلت: من هذا؟ فقالوا: محمّد، وعمّه أبولهب[٦].

وقيل: إنّما اسند الخُسران أو الخيبة إلى يديه، لما رُوي أنّه كان يقول: يَعِدنيى محمد أشياء لاأرى أنّها كائنة، يزعم أنّها بعد الموت، فلم يضع في يدي من ذلك شيئاً، ثمّ ينفُخ في يديه، ويقول: تباً لكما، ما أرى فيكما شيئاً، فنزلت السورة[٧].

أولما رُوي أنّ النبي ﷺ لمّا دعاه نهاراً فأبى، فلمّا جنّ الليل ذهب إلى داره مستنّاً بسنّه نوح عليه السلام ليدعوه ليلاً كما دعاه نهاراً، فلمّا دخل عليه قال له: جئتني معتذراً، فجلس النبي ﷺ أمامه كالمحتاج، وجعل يدعوه إلى الاسلام، وقال: «إن كان يمنعك العار فأجبني في هذا الوقت وأسكت» فقال: لاأؤمن بك حتّى يُؤمن بك هذا الجَدي. فقال ﷺ للجَدي: من أنا؟ فقال: رسول الله، وأُطلق لسانه فأثنى عليه، فاستولى الحسد على أبي لهب، فأخذ يدي الجَدي فمزّقه وقال: تباً لك أثّر فيك السحر! فقال الجَدي: بل تباً لك، فنزلت السورة على وَفْق ذلك ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ﴾ لتمزيقه يدي الجَدي[٨] ﴿وَتَبَّ﴾ وحصلت الخيبة والخُسران: أو الهلاك له، فيكون إخباراً بعد إخبار، ولكن أراد بالأول هلاك

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٦.
٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٥.
٣ ـ ٦. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٦.
٧. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٧.
٨. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٧.

عمله، وبالثاني هلاك نفسه، وقيل: إنّ اليد كنايةٌ عن ماله[١]، والمعنى: هلك ماله، وأُهلكت نفسه، وقيل: إنّها كناية عن نفسه[٢] والمعنى: هلك أو خسر أو خاب نفسه ﴿وَتَبَّ﴾ ولده عتبة ، رُوي أنّه خرج إلى الشام مع اناسٍ من قريش، فلمّا همّوا أن يرجِعوا قال عُتبة: أبلغوا محمداً عنّي أنّي كفرت بالنجم إذا هوى[٣].

وفي رواية: أنّ عَتبة لمّا أراد الخروج إلى الشام قال: لآتين محمداً ولأوْذينّه، وكانت تحته بنت رسول الله ﷺ فأتاه وقال: يا محمد، أنا كافرٌ بالنجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلّى ، ثمّ تفل في وجه رسول الله ﷺ وردّ عليه ابنته وطلّقها، فقال ﷺ : «اللهمّ سلّط عليه كلباً من كلابك» فرجع عُتبة إلى أبيه فأخبره، ثمّ خرجوا إلى الشام، فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهبٌ من الدَّير، فقال: إنّ هذه أرض مَسْبَعة[٤]، فقال أبولهب : أعينوني يا معشر قريش هذه الليله ، فانّي أخاف على ابني دعوة محمد . فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم، وأحدقوا بعُتبة، فجاء الأسد يتخلّلهم ويشتمّم وجوههم حتّى ضرب عُتبة فقتله، وهلك أبولهب بالعَدَسة بعد وقعة بدر بسبع ليالٍ، والعَدَسة على ما قيل: بَثْرة تُشبه العَدَسة، وهي من جنس الطاعون[٥].

وقيل: إنّ اليد هنا كنايةٌ عن الاحسان والمِنّة ، رُوي أنّه كان كثير الاحسان إلى رسول الله ﷺ وكان يقول: إن كان الأمر لمحمد فيكون لى عنده يد، وإن كان لقريش فلي عندها يد، فافخبر أنّه خسرت يده التي كانت عند محمد بعناده له، ويده التي كانت عند قريش أيضاً لخُسران قريش وهلاكهم في يد محمد[٦].

وقيل: إنّ يداه كنايةٌ عن دينه ودنياه، وعُقباه وأُولاه[٧].

وقيل: إنّ الجملتين دعاءٌ عليه[٨]. وقيل: إنّ الأولى دعاء، والثانية إخبار[٩]، أي كان ذلك وحصل.

قيل: كان اسمه عبد العُزّى، أو عبد مَناف، وكُنّى بأبي لهب لتلهّب وجنتيه وإشراقهما[١٠]. وإنّما ذكره سبحانه بالكنيه لكونه معروفاً بها، فصارت بمنزلة اسمه، ولأنّه وصف سبحانه نار جهنم بكونها ذات لَهَب ، فذكر بهذه الكنية للاشعار بموافقة مال أمره كنيته ، فمعنى كنيته أبو النار ، كما يقال: أبو الشرّ للشرير، وأبوالخير للخيّر.

ثمّ إنّه كان يقول: إن كان ما يقوله ابن أخي حقّاً، فأنا افتدي منه نفسي بما لي وأولادي، فردّ الله تعالى عليه بقوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ﴾ ولم ينفعه حينما حلّ به التّباب ﴿مَالُهُ﴾ الذي جمعه ﴿وَمَا كَسَبَ﴾

---

١ -٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٧.
٤. أي كثيرة السباع.
٥. تفسير روح البيان ١٠: ٥٣٤.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٥٣٣.
٧. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٧.
٨ تفسير أبي السعود ٩: ٢١٠، تفسير روح البيان ١٠: ٥٣٣.
٩. تفسير أبي السعود ٩: ٢١٠.
١٠. مجمع البيان ١٠: ٨٥٢، تفسير الرازي ٣٢: ١٦٨، ولم يذكرا: عبد مناف.

من أولاده، كما عن ابن عباس[١].

ورُوي أنّ أطيب ما يأكُل الرجل من كسبه، وأنّ ولده من كسبه[٢].

وقيل: إنّ ﴿مَا كَسَبَ﴾ عمله الشنيع من كيده في عداوة الرسول ﷺ وإقدامه في قتله[٣].

وقيل: إنّ المراد بالمال هو الماشية، ومن كسبه نتاجها، فانّه كان صاحب ماشية ونَعم ونـتاج[٤]، أو المراد ماله الذي وَرِثه من أبيه، وممّا كسب ما كسبه بنفسه[٥].

وقيل: إنّ كلمة ﴿مَا﴾ استفهامية للإنكار[٦]، والمعنى: أي شيء أغنى عنه في دفـع التّباب، أو فـي عداوة الرسول، أو في دفع النار.

سَيَصْلَىٰ نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ[٣]

ثمّ إنّه تعالى بعد إخباره بخيبته وخُسرانه في الدنيا، أخبر من سوء حاله في الآخرة وبعد الموت بقوله: ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ وعن قريبٍ يدخُل بعنف ﴿نَاراً﴾ عظيمة ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ واشتعال وتَوقُّد، هي نار جهنم.

ثمّ اعلم أنّ الآيات متضمّنة لأخبار ثلاثة عن الغيب: الإخبار عنه بالتّباب والخسارة، والإخبار بعدم انتفاعه بماله وولده، والإخبار بأنّه يموت على الكفر ويدخُل النار، وقد وقع جميع ذلك.

روى أبو رافع مولى رسول الله ﷺ قال: كنت غُلاماً للعباس بن عبد المُطّلب، وكان الاسلام قـد دخل [بيتنا] فأسلم العباس، وأسلمت أمّ الفضل، وأسلمت أنا، وكان العباس يَـهاب القـوم ويكـتُم إسلامه، وكان أبولهب تخلّف عن بدر، فبعث مكانه العاص بن هِشام، ولم يتخلّف رجـلٌ مـنهم إلّا بعث مكانه رجلاً آخر، فلمّا جاء الخبر عن واقعة أهل بدر وجدنا فـي أنـفسنا قـوّة، وكـنت رجـلاً ضعيفاً، وكنت أعمل القِداح ألحيها[٧] في حُجرة زمزم، فكنت جالساً هناك، وعندي أمّ الفضل جالسة، وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبولهب يَجُرّ رجليه، فجلس على طُنب[٨] الحُجرة، وكان ظهري إلى ظهره، فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا أبوسفيان بن الحارث بن عبد المطّلب، فقال له أبولهب: كيف الخبر يابن أخي؟ فقال: لقينا القوم ومنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف أرادوا، وايم [الله] مع ذلك تأمّلت الناس، لقينا رجالٌ بيضٌ على خيلٍ بُلقٍ بين السماء والأرض. قال أبـو رافـع فـرفعت طُـنب الحجرة، ثمّ قلت: أُولئك والله الملائكة، فأخذني أبـولهب وضـربني عـلى الأرض، ثـمّ بـرك عـليّ

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٩، تفسير روح البيان ١٠: ٥٣٤. ٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٩.

٣. جوامع الجامع: ٥٥٥، تفسير الرازي ٣٢: ١٧٠، تفسير روح البيان ١٠: ٥٣٤.

٤و٥. تفسير الرازي ٣٢: ١٦٩. ٦. تفسير أبي السعود ٩: ٢١٠، تفسير روح البيان ١٠: ٥٣٣.

٧. لحى القِدح: قشره. ٨ الطُنب: حبل يُشدّ به الخِباء والسُّرادق ونحوهما، أو الطرف والناحية.

فضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أُمّ الفضل إلى عمودٍ فضربته على رأسه وشجّته، وقالت: تستضعفه أن غاب سيده، والله نحن مؤمنون منذ أيامٍ كثيرة، وقد صدق فيما قال. فانصرف ذليلاً، فوالله ما عاش إلّا سبع ليالٍ حتى رماه الله بالعَدَسة فقتلته، ولقد تركه ابناه ليلتين أو ثلاثاً ما دفناه حتى أنتن في بيته، وكانت قريش تتّقي العَدَسه وعدواها كما يُتّقى الطاعون، وقالوا: نخشى هذه القُرحة، ثمّ دفنوه وتركوه، فهذا معنى ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[١]. وقيل: ثمّ استأجروا بعض السودان واحتملوه ودفنوه[٢]. وقيل: لم يَحفِروا له حفيرةً، ولكن أسندوه إلى حائطٍ وقذفوا عليه الحجارة من خلف الحائط حتّى واروه[٣]. وفي روايةٍ حضروا له ثمّ دفعوه بعودٍ في حفرته، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتّى واروه[٤].

وَٱمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ[٤]

ثمّ هدد سبحانه زوجته الكافرة بقوله: ﴿وَٱمْرَأَتُهُ﴾ وزوجته المُسمّاه أم جميل[٥] ستصلى أيضاً مع زوجها نار جهنم. وقيل: إنّ اسمها العوراء، وكنيتها أُمّ جميل، وهي أُخت أبي سفيان بن حرب[٦]، وكانت ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ قيل: كانت تحمِل الشوك والحَسَك والسَّعدان[٧] بالليل وتنشُرها في طريق رسول الله ﷺ حتّى صار هو ﷺ وأصحابه في شدّة وعناء[٨].

وقيل: كان النبي ﷺ يطأها كما يطأ الحرير[٩].

وقيل: إنّها مع كثرة مالها تحمِل الحطب على ظهرها لشدّة بُخلها، فذمّها سبحانه بالبُخل، ولقب حمّالة على الذمّ، يعني أذُمّ حمالة الحطب[١٠].

وقيل: ذمّها سبحانه بكونها نمّامة، وحمل الحطب كناية عن مشيها بالنميمة، فانّها كانت تمشي بالنميمة وتُفسِد بين الناس، كأنّها تحمِل الحطب وتوقده، أي[١١] تُوري بينهم نائرة الشرّ[١٢].

وقيل: كناية عن حمل الآثام[١٣] والمعاصي، تحمِل الحطب لإحراق نفسها[١٤].

فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ[٥]

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٧٠.
٢ـ٤. تفسير روح البيان ١٠: ٥٣٤.
٥. في النسخة: جميلة.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٥٣٤.
٧. السّعدان: نبت ذوشوك.
٨و٩. تفسير روح البيان ١٠: ٥٣٤.
١٠. تفسير روح البيان ١٠: ٥٣٥.
١١. في النسخة: وتوقدها وتوري.
١٢. تفسير روح البيان ١٠: ٥٣٥.
١٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٧٢.
١٤. في النسخة: نفسه.

ثمّ بالغ سبحانه في ذمّها بقوله: **﴿فِي جِيدِهَا﴾** وعُنقها، أو موضع قِلادتها، كالحطّابين **﴿حَبْلٌ مِن مَسَدٍ﴾** جيّد الفتل من أي شيءٍ كان من جِلد الإبل أو من اللّيف أو الخُوص، وإنّما ذمّها بذلك لأنّها كانت تحمِل الحُزمة من الشوك وتربُطها في جيدها كما يحمِل[١] الحطّابون لخساستها.

وقيل: إنّه بيان لسوء حالها في جهنّم، والمقصود أنّها كما كانت في الدنيا تحمِل الحطب والشوك لخساستها، أو لايذاء النبي ﷺ والمؤمنين، لاتزال تحمِل على ظهرها في جهنّم حُزمةً من حطب النار من شجرة الزقّوم والضّريع، وفي جيدها حبلٌ من سلاسل النار، ولايبعُد بقاء الحبل من مَسَدٍ في النار أبداً، كما يبقى الجلد واللحم والعَظْم من الانسان أبداً في النار[٢].

روي عن أسماء بنت عُميس لمّا نزلت السورة جاءت أُمّ جميل، ولها ولولة وبيدها حجر، فدخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس ومعه أبوبكر، وهي تقول:

مذمّماً قلينا ودينه أبينا

وحكمة عصينا

فقال أبوبكر: يارسول الله، قد أقبلت إليك وأنا أخاف أن تَراك. فقال ﷺ: «إنّها لاتراني، وقرأ **﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً﴾**[٣] فقالت لأبي‌بكر: قد ذُكِر لي أنّ صاحبك هجاني. فقال أبوبكر: لا وربّ هذا البيت، ما هجاك. فولّت وهي تقول: قد علمت قريش أنّي بنت سيّدها[٤].

وعن الكاظم عليه السلام في حديث يذكُر فيه معجزات النبي ﷺ قال: «ومن ذلك أنّ أُمّ جميل امرأة أبي لهب أتته حين نزلت سورة تبّت، ومع النبي أبوبكر بن أبي قُحافة فقال: يا رسول الله، هذه أُمّ جميل تُريدك ومعها حَجَر تُريد أن ترميك به؟ فقال: «إنّها لاتراني» فقالت لأبي‌بكر: أين صاحبك؟ قال: حيث شاء الله. قالت: لقد جئته، ولو رأيته لرميته، فانّه هجاني، واللات والعُزّى إنّي لشاعرة. فقال أبوبكر: يا رسول الله، إنّها لم تَرَك؟ قال: «لا، ضرب الله بيني وبينها حِجاباً»[٥].

عن الصادق عليه السلام قال: «إذا قرأتم **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾** فادعوا[٦] على أبي لهب، فانّه كان من المكذّبين بالنبيّ ﷺ وبما جاء به من عند الله»[٧] لعن الله أبي لهب.

---

١. كذا، والظاهر: يعمل أو يفعل. ٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٧٣.
٣. الإسراء: ٤٥/١٧. ٤. تفسير الرازي ٣٢: ١٧٢.
٥. قرب الإسناد: ١٢٢٨/٣٢٩، تفسير الصافي ٥: ٣٨٩. ٦. في النسخة: فالعنوا.
٧. ثواب الأعمال: ١٢٧، مجمع البيان ١٠: ٨٥٠، تفسير الصافي ٥: ٣٨٩.

في تفسير سورة الإخلاص

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ[١ و ٤]

ثمّ إنّه تعالى بعد إذلال رأس الضلال ومُجسّمة الشرك، ذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ أمر رسوله بالاعلان بالتوحيد الخالص بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لعموم الناس: إنّ ربكم وخالقكم ومعبودكم ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ المستجمع لجميع صفات الكمال المُبرأ والمنزّه من جميع النقائص، فهو ﴿أَحَدٌ﴾ لامثل له ولانظير، ولاجزء ولاتركيب.

قيل: إنّ الواحد والأحد بمعنى[١]. وقيل: إنّ الأحد من أسمائه الخاصة التي لاتُطلق على غيره تعالى[٢]. وقيل: ﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، والمعنى أنّ الشأن والحديث هو أنّ الله أحد[٣]. وفيه تفخيمٌ لمعنى الجملة. وقيل: إنّ المعنى ما اُوحى إليّ ممّا سألتموه هو أنّ الله أحد[٤].

رُوي أنّها نزلت حين أرسل المشركون عامر بن الطفيل إلى النبي ﷺ وقالوا: قل له شققت عصانا، وسببت آلهتنا، وخالفت دين آبائك، فان كنت فقيراً أغنيناك، وإن كنت مجنوناً داويناك، وإن هويت امرأة زوّجناكها. فقال: «لست بفقير ولامجنون ولا هويت امرأة، أنا رسول الله، أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته» فأرسلوه ثانياً وقالوا: قل له بيّن لنا جنس معبودك، أمن ذهبٍ أو فِضّة؟ [، فأنزل الله هذه السورة[٥].

عن ابن عباس قال: قدم وفد نجران، فقالوا: صف لنا ربك أمن زبرجد أو ياقوت، أو ذهب، أو فضة؟] فقال: «إنّ ربّي ليس من شيءٍ، لأنّه خالق الأشياء» فنزلت ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قالوا: هو واحدٌ وأنت واحدٌ؟ قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٦]. قالوا: زدنا من الصِّفة فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ فقالوا: وما

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٧٨.

٢ و٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٧٨.

٤. مجمع البيان ١٠: ٨٥٩، جوامع الجامع: ٥٥٦.

٥. تفسير الرازي ٣٢: ١٧٥.

٦. الشورى: ١١/٤٢.

الصمد؟ فقال: «الذي يُصْمَد إليه في الحوائج»[١].

وعن القمي رحمه الله قال: سبب نزولها أنّ اليهود جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: ما نسبة ربّك؟ فأنزل الله السورة[٢].

وعن الصادق عليه السلام قال: «إنّ اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا: انسُب لنا ربّك، فلبث ثلاثاً لايُجيبهم، ثمّ نزلت ﴿قُلْ هُوَ ٱللهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها»[٣].

وعن الباقر عليه السلام - في تفسيرها - قال: «﴿قُلْ﴾ يعني أظهِر ما أوحينا إليك ونبّأناك به بتأليف الحروف التي قرأناها لك، ليهتدي بها من ألقى السمع وهو شهيد، و ﴿هُوَ﴾ اسم مكنّى مشار[٤] إلى غائبٍ، فالماء تنبيه على مكنّى ثابت، والواو إشارة إلى الغائب عن الحواسّ: كما أنّ (هذا) اشارة إلى الحاضر، أو المشاهد عند الحواسّ، وذلك أنّ الكفّار نبّهوا عن آلهتهم بحرف إشارة الشاهد المُدرَك فقالوا: هذه آلهتنا المحسوسة المُدرَكة بالأبصار، فاشِر أنت - يا محمد - إلى إلهك الذي تدعو إليه حتى نراه ونُدرِكه ولاناله فيه. فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هُوَ﴾ فالهاء تثبيت للثابت، والواو إشارة إلى الغائب عن دَرك الأبصار ولَمْس الحواسّ، وإنّه تعالى عن ذلك، بل هو مُدرِك الأبصار ومُبدِع الحواسّ»[٥].

ثمّ قال: «﴿ٱللهُ﴾ وهو المعبود الذي أَلِه الخلق عن دَرْك ماهيته والإحاطة بكيفيته، يقول العرب: أَلِه الرجل، إذا تحيّر في الشيء ولم يُحِط به علماً، ووَلَه إذا فرغ من شيءٍ يحذره ويخافه، والإله هو المستور عن الخلق.

ثمّ قال: ﴿أَحَدٌ﴾ وهو الفرد المتفرّد، والأحد والواحد بمعنى، وهو المتفرّد الذي لانظير له، والتوحيد الاقرار بالوحدة، وهو الانفراد، والواحد: المتبائن الذي لاينبعث من شيء ولايتّحد بشيءٍ، ومن ثَمّ قالوا: إنّ بناء العدد من واحد، وليس الواحد من العدد، لأنّ العدد لايقع على واحدٍ، بل يقع على اثنين، فمعنى قوله: ﴿ٱللهُ أَحَدٌ﴾ أي المعبود الذي يألَهُ الخلق عن إدراكه والإحاطة بكيفيته، فردٌ بالهيته، متعالٍ عن صفات خلقه»[٦].

قال عليه السلام: «وحدثني أبي زين العابدين، عن أبيه الحسين بن علي عليه السلام قال: «الصمد الذي لاجوف له، والصمد الذي قد انتهى سؤدده، والصمد الذي لايأكُل ولايشرب، والصمد الذي لاينام، والصمد الدائم الذي لم يَزَل ولايزال».

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٧٥.
٢. تفسير القمي ٢: ٤٤٨، تفسير الصافي ٥: ٣٩٠.
٣. الكافي ١: ١/٧١، التوحيد: ٨/٩٣ تفسير الصافي ٥: ٣٩٠.
٤. في النسخة: مكنّى بها يشار بها.
٥. التوحيد: ١/٨٨، تفسير الصافي ٥: ٣٩٠.
٦. التوحيد: ٢/٨٩، تفسير الصافي ٥: ٣٩١.

قال عليه السلام: «كان محمد ابن الحنفية يقول: الصمد القائم بنفسه، الغنيّ عن غيره، الصمد المتعالي عن الكون والفساد، والصمد الذي لايُوصَف بالتغيير والتغاير».

وقال عليه السلام: «الصمد السيد المطاع الذي ليس فوقه أمر وناهٍ».

قال عليه السلام: وسئل علي بن الحسين عليهما السلام عن الصمد فقال: «الذي لاشريك له، ولايؤوده حفظ شيء، ولايعزُب عنه شيء»[1].

قال الراوي: قال زيد بن على عليه السلام: الصمد الذي إذا أراد شيئاً قال: كن فيكون، والصمد الذي أبدع الأشياء فخلقها أضداداً وأشكالاً وأزواجاً، وتفرّد بالوحدة بلاضدٍّ ولاشكلٍ ولامثلٍ ولانِدّ[2].

قال: وحدّثني الصادق عن أبيه: «أنّ أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي عليه السلام يسألونه عن الصمد. فكتب إليهم «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فلاتخوضوا في القرآن، ولاتجادلوا فيه، ولاتتكلّموا فيه بغير علمٍ، وقد سَمِعت جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار، وإنّ الله سبحانه قد فسّر الصمد فقال: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ثمّ فسّره وقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لم يخرُج منه شيء كثيف، كالولد وسائر الأشياء الكثيفة التي تخرُج من المخلوقين، ولاشيء لطيف كالنفس، ولاتنشعب منه البَدَوات كالسِّنَة والنوم، والخَطْر والهمّ، والحزن والبَهْجة، والضُّحك والبكاء، والخوف والرجاء، والرغبة والسأمة، والجوع والشِّبَع، تعالى من أن يخرُج منه شيءٌ وأن يتولّد منه شيءٌ كثيفٌ أو لطيفٌ.

﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ ولم يتولّد من شيءٍ، ولم يخرُج من شيءٍ كما تخرُج الأشياء الكثيفة من عناصرها، كالشيء من الشيء، والدابّة من الدابّة، والنبات من الأرض، والماء من الينابيع، والثمار من الأشجار [ولا] كما تخرُج الأشياء اللطيفة من مراكزها، كالبصر من العين، والسمع من الأُذن، والشمّ من الأنف، والذوق من الفم، والكلام من اللسان، والمعرفة والتمييز من القلب، وكالنار من الحجر، لابل هو الله الصمد، الذي لامن شيء، ولا في شيء، مبدع الأشياء وخالقها، ومُنشئ الأشياء بقدرته، يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته، ويبقى ما خلق للبقاء بعلمه، فذلكم الله الصمد الذي لم يلد ولم يولد، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، ولم يكن له كُفواً أحد»[3].

ثمّ اعلم أنّ مفسّري العامة قد ذكروا في معنى الصمد أقوالاً:

---

١. التوحيد: ٣/٩٠، تفسير الصافي ٥: ٣٩١.
٢. التوحيد: ٤/٩٠، تفسير الصافي ٥: ٣٩١.
٣. التوحيد: ٥/٩٠، تفسير الصافي ٥: ٣٩٢.

الأول: السيد الذي يُرجَع إليه في الحوائج.

الثاني: هو الذي لاجوف له.

الثالث: هو العالم بجميع المعلومات.

الرابع: هو السيد الحليم.

الخامس: هو السيد الذي انتهى سؤدده.

السادس: هو الخالق للأشياء.

السابع: هو المقصود في الرغائب، المستغاث به عند المصائب.

الثامن: هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد، لامُعقّب لحكمه، ولارادّ لقضائه.

التاسع: هو السيد المُعظّم.

العاشر: هو الفَرْد الماجد لايُقضى في أمرٍ دونه.

الحادي عشر: هو الغني.

الثاني عشر: هو الذي ليس فوقه أحد.

الثالث عشر: هو الذي لايأكُل ولايشرب، ويُطعِم ولايُطعَم.

الرابع عشر: هو الباقي بعد فناء كلّ شيء.

الخامس عشر: هو الذي لم يَزَل ولايزال.

السادس عشر: هو الذي لاينام ولايسهو.

السابع عشر: هو الذي لايُوصَف بصفةٍ أحد.

الثامن عشر: هو الذي لا عيب فيه.

التاسع عشر: هو الذي لاتعتريه الآفات.

العشرون: هو الكامل في جميع أفعاله.

الحادي والعشرون: نسبوا إلى الصادق عليه السلام أنه قال: «هو الذي يغلِب ولايُغلَب».

الثاني والعشرون: هو المستغنى عن كلّ أحد.

الثالث والعشرون: هو الذي ايس الخلائق من الاطّلاع على كيفيته.

الرابع والعشرون: هو الذي لم يلد ولم يولد، لأنّه لاشيء يلد إلاّ سيُورث، ولاشيء يُولَد إلا سيموت.

السادس والعشرون: هو المنزّه عن قَبول النقصانات والزيادات، وعن أن يكون مورد التغييرات

والتبديلات، وعن إحاطة الأمكنة والأزمنة والآنات والجهات[١].

وقيل: إنّ معناه الواجب الوجود[٢]، ولازمه تنزّهه من النقائص ووجدانه جميع الكمالات الإلهية.

روي عن الصادق عليه السلام أنه قال: «قدمَ وفدٌ من فِلَسْطين على الباقر عليه السلام، فسألوه عن مسائل فأجابهم، ثمّ سألوه عن الصمد، فقال: في تفسيره: الصمد خمسة أحرف، فالألف دليل على إنّيته، وهو قوله: ﴿شَهِدَ ٱللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[٣] وذلك تنبيهٌ وإشارة إلى الغائب عن درك الحواس.

واللام دليلٌ على إلهيته، وأنّه هو الله، والألف واللام يُدغمان ولايَظْهران على اللسان ويَقَعان في السمع، ويظهران في الكتابه، وهما دليلان [على] أنّ إلهيته بلُطفه خافية لاتُدْرَك بالحواسّ، ولاتقع في لسان واصف، ولافي أُذن سامع، لأنّ تفسير الإله هو الذي أَلِه الخلق عن درك ماهيّته وكيفيته بحسّ أو بوهم، لابل هو مبدع الأوهام وخالق الحواسّ، وانما يظهر ذلك عند الكتابة، وهو دليلٌ على أنّ الله تعالى أظهر ربوبيته في إبداع الخلق وتركيب أرواحهم اللطيفة في أجسادهم الكثيفة، فإذا نظر عبد إلى نفسه لم يَرَ روحه، كما أنّ لام الصمد لاتتبيّن، فلاتدخُل في حاسّة من الحواسّ الخمس، فاذا نظر في الكتابة ظهر له ما خفي ولَطُف، فمتى تفكّر العبد في ماهية الباري وكيفيته أَلِه فيه وتحيّر، ولم تُحِط فكرته بشيءٍ يُتَصوّر له، لأنّه عز وجل خالق التصوّر، فإذا نظر إلى خلقه ثبت له أنّه عز وجل خالقهم ومركّب أرواحهم وأجسادهم.

وأمّا الصاد فدليلٌ على أنّه صادق، وقوله صدق، وكلامه صدق، ودعا عباده إلى اتّباع الصدق، ووعد بالصدق دار الصدق.

وأمّا الميم فدليلٌ على مُلكه، وأنّه المَلِك الحقّ، لم يزل ولايزال ولايزول ملكه.

وأمّا الدالّ فدليلٌ على دوام مُلكه، وأنه عز وجل متعالق عن الكون والزوال، بل هو عز وجل مكوّن الكائنات، الذي كان بتكوينه كلّ كائنٍ.

ثمّ قال: لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله حَمَلة لنشرت التوحيد والاسلام والايمان والدين والشرائع من الصمد.

إلى أن قال الباقر: «الحمد لله الذي منّ علينا ووفّقنا لعباده، الأحد الصمد الذي لم يَلِد ولم يُولَد، ولم يكن له كُفواً أحد، وجنّبنا عن عبادة الأوثان، حمداً سَرْمداً، وشُكراً واصِباً».

ثمّ قال: «قوله عز وجل: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ يقول: لم يلد فيكون له ولدٌ يَرِثه مُلكه، ولم يُولد

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٨١ و١٨٢.
٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٨١.
٣. آل عمران: ١٨/٣.

فيكون له والد يَشرَكه في ربوبيته ومُلكه، ولم يكن له كُفواً أحد فيُعارضه في سُلطانه»[١].

أقول: ما ذكره عليه السلام في تفسير الصمد، فهو من البطون التي للقرآن، وليس من التفسير المصطلح.

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه سأله رجلٌ عن تفسير هذه السورة فقال: «هو الله أحد بلاتأويل عدد، الصمد تبعيض بَدد، ولم يلد فيكون موروثاً هالكاً، ولم يولد فيكون إلهاً مُشاركاً، ولم يكن من خلقه كُفواً أحد ...» الخبر[٢].

ثمّ اعلم أنّ تَكْرار اسم الجلالة قبل ﴿أَحَدٌ﴾ وقبل ﴿ٱلصَّمَدُ﴾ للدلالة على أنّ كلّ واحد من الوصفين من لوازم الألوهية وخصائصها، ونُكتة تقديم جملة ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ على جملة ﴿لَمْ يُولَدْ﴾ هي شيوع اعتقاد أنّ له ولد في اليهود والنصارى في ذلك الزمان، وأن الملائكة بنات الله في العرب، فاقتضى ذلك تقديمها ردّاً عليهم.

عن السجاد عليه السلام أنّه سئل عن التوحيد فقال: «إنّ الله عزوجل عَلِم أنّه يكون في آخر الزمان أقوامٌ متعمّقون، فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ والآيات من أول سورة الحديد إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٣] فمن رام وراء ذلك فقد هلك»[٤].

أقول: الظاهر أنّ المراد أنه يجيء أقوامٌ يتفكّرون في ذات الله، فردعهم الله عنه بذكر صفاته، فمن تفكّر في الذات فقد هلك.

وعن الرضا عليه السلام أنّه سُئل عن التوحيد فقال: «كلّ من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ وآمن بها، فقد عرف التوحيد».

قيل: كيف يقرأها؟ قال: «كما يقرأ الناس، وزاد فيها: كذلك الله ربّي مرتين»[٥].

وعن الباقر عليه السلام قال: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثُلث القرآن»[٦].

وروى الصدوق عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرّة، فكأنّما قرأ ثُلث القرآن [ومن قرأها مرتين فكأنّما قرأ ثلثي القرآن، ومن قرأها ثلاث مرات فكأنّما قرأ القرآن كله[٧].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنّما قرأ ثلث القرآن]، وأُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أشرك بالله وآمن بالله»[٨].

أقول: لعلّ وجه كون هذه السورة بمنزلة قراءة ثلث القرآن أنّ عمدة مطالب القرآن كلّه التوحيد والرساله والمعاد، وتمام السورة المباركة بيان التوحيد الكامل.

---

١. التوحيد: ١/٩٢، تفسير الصافي ٥: ٣٩٢.
٢. مجمع البيان ١٠: ٨٦٢، تفسير الصافي ٥: ٣٩٣.
٣. الحديد: ٦/٥٧.
٤. الكافي ١: ٣/٧٢، تفسير الصافي ٥: ٣٩٣.
٥. الكافي ١: ٤/٧٢، تفسير الصافي ٥: ٣٩٣.
٦. الكافي ٢: ٧/٤٥٥، تفسير الصافي ٥: ٣٩٤.
٧. كمال الدين: ٦/٥٤٢، تفسير الصافي ٥: ٣٩٤.
٨. تفسير الرازي ٣٢: ١٧٤.

ورُوي بطريق عامي عن النبي ﷺ أنه قال «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرّةً واحدةً أُعطى من الأجر كمن آمن بالله وملائكته وكُتبه ورسله، وأُعطي من الأجر مثل مائة شهيد»[١].

ورُوي أيضاً أنّه كان جَبْرَئيل مع الرسول ﷺ إذ أقبل أبوذرّ الغِفاري فقال جَبْرَئيل: هذا أبوذرّ قد أقبل. فقال ﷺ: «أو تعرفونه» قال: هو أشهر عندنا منه عندكم. قال ﷺ: بماذا. نال: هذه الفضيلة. قال: لصغره في نفسه، وكثرة قراءته ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[٢].

وعن أنس قال: كنّا في تَبوك فطلعت الشمس مالها شعاع ولاضياء، ومارأيناها على تلك الحالة قطّ قبل ذلك، فعَجِب كلّنا. فنزل جَبْرئيل وقال: إنّ الله أمر أن ينزِل من الملائكة سبعون ألف مَلَك ويُصلّون على مُعاوية بن مُعاوية، فهل لك أن تُصلّي عليه؟ ثمّ ضرب بجَناحه الأرض فأزال الجبال، وصار الرسول ﷺ كأنّه مشرف عليه فصلّى هو واصحابه عليه.ثمّ قال ﷺ: «بماذا بلغ ما بلغ؟» فقال جَبْرَئيل: كان يُحبّ سورة الإخلاص[٣].

ورُوي أن النبي ﷺ دخل المسجد، فسَمِع رجلاً يدعو ويقول: أسألك يا أحد، يا صمد، يامن لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كُفواً أحد. فقال ﷺ: غفر لك. غفر لك» ثلاث مرات[٤].

وعن سهل بن سعد، قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ وشكا إليه الفقر فقال: «إذا دخلت بيتك فسلّم إن كان فيه أحد، وإن لم يكن فيه أحد فسلّم على نفسك، واقرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرّة واحدةً، ففعل الرجل، فأدرّ الله عليه رزقاً[٥] حتّى أفاض على جيرانه»[٦].

وعن أنس: أنّ رجلاً كان يقرأ في جميع صلواته ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فسأله الرسول ﷺ عن ذلك، فقال: يا رسول الله، إنّي أُحبّها. فقال: «حبّك إياها يُدخِلك الجنّة»[٧].

وعن الصادق عليه السلام: «من مضى به يومٌ واحدٌ فصلّى فيه خمس صلوات ولم يقرأ فيه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قيل له: يا عبدالله، لست من المصلّين»[٨].

وعنه عليه السلام: «من مضت جمعة ولم يقرا فيها بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثمّ مات، مات على دين أبي لهب»[٩].

أقول: لعلّه محمولٌ على تركه استخفافاً.

---

١ و٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٧٤. ٣ و٤. تفسير الرازي ٣٢: ١٧٤.
٥. في النسخة: فقدّر الله عليه رزقه. ٦ و٧. تفسير الرازي ٣٢: ١٧٤.
٨. ثواب الأعمال: ١٢٧، مجمع البيان ١٠: ٨٥٥، تفسير الصافي ٥: ٣٩٤.
٩. ثواب الأعمال: ١٢٨، مجمع البيان ١٠: ٨٥٥، تفسير الصافي ٥: ٣٩٤.



في تفسير سورة الفلق

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ[١ و ٢]

ثمّ لمّا خُتِمت سورة التوحيد المتضمّنة للأمر بالإعلان بالتوحيد الكامل الخالص عن شوب الشرك، وكان من لوازمه التوكّل على الله في جميع الأمور والاستعاذة به من جميع الآفات والشرور، وعدم الخوف من غير الله، نُظِمت سورة الفلق المتضمّنة للأمر بإظهار الاستعاذة به تعالى من الشرور الجسمانية، فافتتحها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ ابتدأها بالأمر باظهار الاستعاذة بالله من الشرور والمضارّ الجسمانية بقوله: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، وأنت في هذا العالم الجسماني الذي يتوقّع فيه الضرر والشرّ من كلّ شيء ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وألتجيء إلى من يدفع بقدرته ظُلمة الليل عن وجه الصبح الصادق ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ في العالم الجسماني وضرره، فانّه القادر على دفع كلّ ما يخاف العائذ ويحذره.

قيل: إنّ وجه النَّظم أنّ الله تعالى لمّا أمر بقراءة سورة الاخلاص تنزيهاً له عمّا لايليق به في ذاته وصفاته، وكان ذلك من أعظم الطاعات، فكأنّ العبد قال: إلهنا هذه الطاعة عظيمة بحيث لاأثق بنفسي القيام بها؟ فأجابه تعالى: بأن ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أي استعذ بالله والتجئ إليه حتى يوفّقك للقيام بهذه الطاعة على أكمل الوجوه[1].

وقيل: إنّ الكفار لمّا سالوا الرسول ﷺ عن نسب الله وصفته، فكأنّ الرسول ﷺ قال: «كيف أنجو من هؤلاء الجُهّال الذين تجاسروا وقالوا فيك ما لايليق بك؟» قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أي استعذ بي حتّى أصونك من شرّهم[2]. وقيل: إنّ نُكتة تخصيص الفلق بالذكر عند التعوّذ أنّ الصبح كالبشر[3] بالأمن والسلامة لمن هو خائف بالليل، فالمعنى: التجئ إلى من يُعطى الخائف بالليل الأمن بطُلوع الصبح حتّى يُعطيك الأمن من الشرور.

١و٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٨٩.

٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٩١.

قيل: إنّ يوسف لمّا أُلقي في الجُبّ وجعت ركبته وجعاً شديداً، فبات نيلته ساهراً، فلمّا قَرب طُلوع الصبح نزل جَبْرَئيل بإذن الله يُسلّيه ويأمُره بأن يدعو ربّه فقال: يا جَبْرَئيل ادعُ أنت وأؤمّن أنا، فدعا جَبْرَئيل، وأمّن يوسف، فكشف الله ما كان به من ضرّ، فلمّا طاب وقت يوسف قال: يا جَبْرَئيل، وأنا أدعو أيضاً وتُؤمّن أنت، فسال يوسف ربّه أن يكشِف الضرّ عن جميع أهل البلاء في ذلك الوقت، فلاجرم ما من مريضٍ إلّا ويجد خفّةً في ذلك الوقت[١]. وقيل: إنّ الفلق هو كلّ ما يفلِقه [الله] ويفرّقه عن شيءٍ آخر، كالأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسّحاب عن الأمطار، والأرحام عن الأولاد، والبيض عن الفَرخ، بل والعدم عن الوجود، وعليه يكون المعنى بربّ الفلق ظلمات العدم بنور الوجود[٢].

وقيل: إنّ الفلق وادٍ أوجُبّ في جهنّم، إذا فُتِح صاح جميع أهل النار من شدّة حرّه[٣].

وعن الصدوق، عن الصادق عليه السلام أنّه سُئل عن الفلق فقال: «صَدْع في النار، فيه سبعون ألف دار، في كلّ دارٍ سبعون ألف بيت، في كلّ بيت سبعون ألف أسود، في جوف كلّ أسود سبعون ألف جرّة سَمّ، لابُدّ لأهل النار أن يضمُرّوا عليها»[٤].

وعن القمي، قال: الفلق: جُبّ في جهنّم، يتعوّذ أهل النار من شدّة حرّه، سأل الله أن يأذن له أن يتنفّس، فأذِن له فتنفّس فأحرق جهنّم[٥].

وقيل: إنّ النُّكتة في ذكره هنا الإشارة إلى أن من قدر على مثل هذا التعذيب الخارج عن حدّ الوهم، له رحمة أعظم وأكمل وأتمّ من عذابه، فكأنّه يقول: يا صاحب العذاب الشديد، أعوذ برحمتك التي هي أعظم من عذابك[٦].

وقيل: أُريد من الآيتين: أعوذ بربّ جهنّم من شرّ ما خلق فيها[٧] ومن عذابها. وقيل: أُريد من قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أصناف الحيوانات الموذيات، ويدخل فيه شرّ الجنّ والإنس[٨].

وعن ابن عباس: يُريد إبليس خاصّة، لأنّ الله لم يخلُق خلقاً شرّاً منه، ولأنّ السورة نزلت في الاستعانة من السحر، وذلك إنّما يتمّ بابليس وأعوانه وجنوده[٩].

وقيل: أُريد به ما خلق من الأمراض والأسقام والقَحْط وأنواع المِحَن والآفات[١٠]. والحقّ أنّ ما خلق عام لجميع ما ذُكِر.

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٩١.
٢. تفسير الرازي ٣٢: ١٩٢.
٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٩٣، وفي النسخة: شدّة حرها.
٤. معاني الأخبار: ١/٢٢٧، تفسير الصافي ٥: ٣٩٥.
٥. تفسير القمي ٢: ٤٤٩، تفسير الصافي ٥: ٣٩٤.
٦ ـ ٨. تفسير الرازي ٣٢: ١٩٣.
٩ و١٠. تفسير الرازي ٣٢: ١٩٣.

وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ[٣]

ثمّ لمّا كان الشرور بالليل أكثر، خصّ سبحانه الاستعاذة من شرّه بالذكر بقوله: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ وليلٍ مُظلم ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ ودخل، حيث إنّه إذا دخل تخرُج السُّباع من آجامها والهوامّ من أماكنها، ويهجم السّراق والأعداء، ويقع الحريق ويقل فيه المُعين والمُغيث.

وقيل: إنّ بالليل تنتشر الأرواح المؤذية المُسمّاة بالجنّ والشياطين[١].

وقيل: إنّ الغاسق هو القمر، لأنّه حين الكسوف يذهب ضوؤه ويسودّ[٢]، ووقوبه دخوله في ذلك الاسوداد. ورُوي عن عائشة أنّها قالت: أخذ رسول الله ﷺ بيدها، وأشار إلى القمر، وقال: «استعيذي بالله من شرّ هذا، فانّه الغاسق إذا وقب»[٣].

قيل: أُريد بالاستعاذة من شرّه إذا وقب، إذا دخل في الكسوف[٤].

وقيل: أُريد بالغاسق الثُّريا، وبوقوبه سقوطه، قالوا: إذا سقط الثريا ودخل تحت الأرض وغاب عن الأعين، كثُرت الأمراض، وتُرفع عند طلوعها[٥].

وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِى ٱلْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ[٤ ـ ٥]

ثمّ لعرافة السحر بالشرّ خصّه سبحانه بالذكر بقوله: ﴿وَمِن شَرِّ﴾ النفوس، أو النساء ﴿ٱلنَّفَّاثَاتِ﴾ والنافخات للسحر ﴿فِى ٱلْعُقَدِ﴾ اللاتي يعقِدنها في الخُيوط.

قيل: إنّ الساحر إذا شرع في قراءة الرُّقية أخذ خيطاً ولايزال يعقِد عليه عُقَداً بعد عُقَد وينفُث في تلك العُقَد[٦].

قيل: إنّ المراد بالنفّاثات بنات لبيد بن أعصم اليهودي، فإنّهن سَحَرن النبيّ ﷺ[٧].

روى يحيى بن مَعْمَر[٨] قال: حُبس رسول الله ﷺ عن عائشة، فبينما هو نائمٌ إذ أتاه مَلَكان، جلس أحدهما عند رأسه، والآخر عند رجليه، فهذا يقول للذي عند رأسه: ما شكواه؟ قال: السحر، قال: من فعل به؟ قال: لبيد بن أعصم اليهودي. قال: فأين صُنع السحر؟ قال: في بئر كذا. قال: فما دواؤه؟ قال: يبعث إلى تلك البئر فينزَح ماؤها، فانّه ينتهي إلى صخرة، فاذا رآها فليقلعها، فانّ تحتها كُوبة ـ قيل: هو كُوز سقط عُنقها ـ وفي الكُوبة وَتَرٌ فيه إحدى عشرة عُقدة مغروزة بالإبَر، فيُحرقها بالنار، فيبرا إن شاء الله.

---

١ ـ ٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٩٥.
٤. تفسير الرازي ٣٢: ١٩٥.
٥ و٦. تفسير الرازي ٣٢: ١٩٥.
٧. تفسير الرازي ٣٢: ١٩٦.
٨ تفسير روح البيان: يحيى بن يعمر.

فاستيقظ عليه السلام، فبعث علياً عليه السلام والزبير وعماراً، فنزحوا ماء البئر، فكأنّه نُقاعة الحِنّاء، ثمّ دفعوا راعونة البئر - وهي الصخرة التي تُوضَع في اسفل. فأخرجوا من تحتها الأسنان[1]. ومعها وَتَرٌ قد عُقِد فيه إحدى عشرة عُقدة مغرّزه بالأبَر، فجاؤوا بها إلى النبي صلى الله عليه وآله، فجعل يقرأ المعوذتين عليها، فكان كلّما قرأ آية انحلّت عُقدة، ووجد عليه السلام خِفّة حتى انحلّت العُقده الأخيرة عند تمام السورتين[2].

وقيل: إنّ المراد بالنفّاثات الجماعات من السَّحرة: لأنّه كلّما كان اجتماع السَّحرة على العمل أكثر كان التأثير أشدّ[3].

وقيل: إنّ المراد الاستعاذة من شرّ النساء اللاتي يتصرّفن في عزائم الرجال وآرائهم، فاستُعير هنا [من] عقد الحِبال في فيها، والنفث هو تليين العُقدة من الحَبل بريقٍ تقذِفه عليه لتسهيل حَلّه، فأمر النبي صلى الله عليه وآله بالتعوّذ من شرّ النساء اللاتي يتصرّفن في قلوب الرجال، ويُحوّلنّهم من رأي إلى رأي ومن عزيمةٍ إلى عزيمةٍ، كقوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[4].

ثمّ خصّ سبحانه شرّ حسد الحاسد بالذكر بقوله: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾ ومتمنّ زوال النعمة عن مستحقّها ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ وأظهر ما في نفسه من ذلك التمنّي وعَمِل بمقتضاه.

عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله: كاد الحسد أن يغلِب القدر»[5].

قيل: ذكر الله سبحانه الشرور في هذه السورة ثمّ ختمها بالحسد، ليُظهر أنّه أخبث الطبائع، كما قال ابن عباس[6].

---

١. المراد أسنان مشط النبي صلى الله عليه وآله كما ورد في أول الخبر الذي لم يذكره المصنف، وفيه: عن ابن عباس وعائشة: أنه كان غلام من اليهود يخدم النبي عليه السلام وكان عنده اسنان من مشطه عليه السلام فأعطاها اليهود فسحروه عليه السلام فيها. تفسير روح البيان ١٠: ٥٤٢.
٢. تفسير روح البيان ١٠: ٥٤٤، والباقي في ص: ٥٤٣.
٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٩٦.
٤. تفسير الرازي ٣٢: ١٩٦، والآية من سورة التغابن: ١٤/٦٤.
٥. الكافي ٢: ٤/٢٣٢، تفسير الصافي ٥: ٣٩٦.
٦. تفسير روح البيان ١٠: ٥٤٥.

في تفسير سورة الناس

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلٰـهِ ٱلنَّـاسِ * مِـن شَـرِّ ٱلْـوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ[١ـ٥]

ثمّ إنّه تعالى بعد أمره النبي ﷺ بالتعوّذ به من الشرور الجسمانية، نُظِمت سورة الناس الآمـرة له بالتعوذ به من الشرور الروحانية، فابتدأها بذكر الأسماء الحسنى بقوله: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثمّ افتتحها بأمر نبيّه باظهار التعوّذ به تعالى من الشرور الروحانية تعليماً للعباد بقوله: ﴿قُـلْ﴾ يـا محمد ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ومدبّر اُمورهم، ومُصلح مفاسدهم، ومكمّل وجودهم، والمُنعِم عليهم بجميع النِّعم التي يحتاجون إليها، فظهر أنّ ربّ الناس هو ﴿مَـلِكِ ٱلنَّـاسِ﴾ والنـاس مـملوكون له مفتقرون إليه في وجودهم وبقائهم وكمالهم، وهو غنيّ عنهم وعن كلّ شيءٍ، فظهر أنّ مَلِك الناس بهذا المعني هو ﴿إِلٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ حيث ولهت العقول في إدراك عظمته وجلاله وكبريائه ﴿مِن شَـرِّ﴾ الشيطان الذي شُغله الوسوسة، وإلقاء الخُطورات السيئة في القـلوب، وتـزيين القـبائح فـي الأنـظار بحيث يصِحّ أن يقال مبالغة: إنّه عين ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾.

ثمّ وصفه سبحانه بوصف ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ لأنّ عادته التأخّر والتولّي إذا ذكر الانسان ربّه ـ كذا قيل[١] ـ ويُحتَمل كون المراد منه كثير التخفّي من الأنظار. وعن القمي: أنّ الخنّاس اسم الشـيطان[٢]. ﴿ٱلَّـذِى يُوَسْوِسُ﴾ ويُلهِم الشرّ، ويُلقي الرغبة إلى القبائح ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ وقلوبهم إذا غَفَلوا عن ذكر ربّهم.

مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ[٦]

ثمّ عمّم سبحانه الوسوس[٣] الذي يُستعاذ من شرّه بقوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ كما قال سبحانه:

---

١. تفسير الرازي ٣٢: ١٩٨.

٢. تفسير القمي ٢: ٤٥٠، تفسير الصافي ٥: ٣٩٨.

٣. في النسخة: المسوس.

﴿شَيَاطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[١] وكما أنّ شيطان الجنّ يُوسوس تارةً ويخنِس أُخرى، كـذلك شـيطان الإنس يُرغِّب الناس إلى الشرور والقبائح، ويُري نفسه كالناصح المُشفِق، فان زجره السامع يـخنِس ويترُك الوسوسة، وإن قبِل قوله بالغ فيه[٢]. وقيل: إنّ التقدير: من شرّ الجِنّة والناس، فاستعاذ أولاً من شرّ الوَسْواس، وهو الشيطان، ثمّ استعاذ من شرّ عموم الجنّ والإنس[٣].

عن الصادق عليه السلام قال: «ما من مؤمنٍ إلّا ولقلبه أُذنان: في جوفه أُذن ينفُث فيها الوَسْواس الخَنّاس، وأُذن ينفُث فيها المَلَك، فيُؤيّد الله المؤمن بالمَلَك، فذلك قوله: ﴿وَأَيَّدَهُم بِروحٍ مِنْهُ﴾»[٤].

وعن القمي رحمه الله: ما من قلب إلّا وله أُذنان. على أحدهما مُرشِد، وعلى الآخر شيطان مُفتّن، هـذا يأمُره، وذاك يَزْجُره، كذلك من الناس شيطان يحمِل الناس على المعاصي، كما يحمِل الشيطان من الجنّ»[٥].

وعن (طب الأئمة) [عن أباعبدالله عليه السلام]: «أنّ جَبْرئيل أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا محمد. قال: لبيك يا جَبْرئيل». قال: إنّ فلاناً سَحَرك، وجعل السحر في بئر بني فلان، فابعث إليه - يعني البئر - أوثق الناس وأعظمهم في عينيك، وهو عديل نفسك حتّى يأتيك بالسحر، قال: فبعث النبي صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب وقال: انطلق إلى بئر ذروان[٦]، فانّ [فيها] سحراً سحرني [به] لبيد بن أعصم اليهودي فأتني به.

قال علي عليه السلام: فانطلقت في حاجة رسول الله صلى الله عليه وآله فهبطت فإذا ماء البئر كأنّه الحِنّاء من السِّحر، فطلبته مستعجلاً حتى انتهيت إلى أسفل القليب، فلم اظفَر به. قال الذين معي: مافيه شيءٌ. فاصعد، فقلت: لا والله ما كَذَبت ولا كَذَب.

إلى أن قال: ثمّ طلبت طلباً بلُطفٍ، فاستخرجت حُقاً، فأتيت النبي صلى الله عليه وآله، فقال: افتحه ففتحته، فإذا في الحقّ قطعة كَرَب النخل، في جوفه وَتَر، عليها إحدى عشرة عُقدة، وكان جَبْرَئيل أنـزل يـومئذٍ المعوّذتين على النبي صلى الله عليه وآله. فقال النبي صلى الله عليه وآله: اقرأها يا علي على الوَتَر، وجعل أمير المؤمنين عليه السلام كلّما قرأ آية انحلّت عُقدة حتّى فرغ منها، وكشف الله عن نبيّه صلى الله عليه وآله ما سُحر [به] وعافاه».

وفي رواية: «أنّ جَبْرئيل وميكائيل أتيا النبي صلى الله عليه وآله، فجلس أحدهما عن يمينه، والآخر عن شماله، فقال جَبْرَئيل لميكائيل: ما وجع الرجل؟ فقال ميكائيل:

هو مطبوب[٧]، فقال جَبْرئيل: مَن طَبّه؟ قال: لبيد بن أعصم اليهودي» [ثمّ ذكر الحديث إلى آخره][٨].

١.الأنعام٦/١١٢. ٢.تفسيرالرازي٣٩:١٩٩، تفسيرروح البيان ١٠:٥٥٠. ٣.تفسيرالرازى٣٢:١٩٩.

٤. الكافي ٢: ٣/٢٠٦، مجمع البيان ١٠: ٨٧٠، تفسير الصافي ٥: ٣٩٨، والآية من سورة المجادلة: ٢٢/٥٨.

٥. تفسير القمي ٢: ٤٥٠، وتفسير الصافي ٥: ٣٩٨، عن الصادق عليه السلام.

٦. في النسخة: ازوان، وفي تفسير الصافي: ازران. ٧. أي مسحور.

٨ طب الأئمة عليهم السلام: ١١٣، تفسير الصافي ٥: ٣٩٦.

وعن الصادق عليه السلام: «أنه وَعَك رسول الله صلى الله عليه وآله، فنزل جَبْرئيل بهاتين السورتين، وعوّذه بهما»[١].

ثمّ أنّه تعالى وصف ذاته بصفة واحدة، وأمر نبيه صلى الله عليه وآله بان يستعيذ به من جميع الشرور الجسمانية، وفي هذه السورة وصف ذاته بثلاث صفات، كلّ منها دالٌّ على كمال عظمته، وأمر نبيّه صلى الله عليه وآله بالاستعاذة به من شرّ الوَسْواس الذي هو راجعٌ إلى الروح والقلب، فدلّ على أنّ تضرّر الروح والقلب أعظم من جميع المضارّ.

وفي ختم كتابه المجيد بإضافة ربوبيته وسلطانه وأُلوهيته إلى الناس، وتكرير لفظ الناس مع كلّ وصفٍ، دلالةٌ على شرف الانسان على جميع مخلوقاته، ويُحْتَمل أن يكون المراد بالناس خصوص الأئمّة المعصومين عليهم السلام وعباده الصالحين، لما رواه الفخر الرازي أنّه سُئل الحسن بن علي عليهما السلام عن الناس فقال: «نحن الناس، وأشياعنا أشباه الناس، وأعداؤنا النَّسْناس»[٢] فقبلّ علي عليه السلام بين عينيه، وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾»[٣].

وعن الباقر عليه السلام قال: «من أوتر بالمعوذتين و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قيل له: يا عبد الله، أبشِر فقد قَبِل الله وَتْرك»[٤].

قد وفّقت لاتمام تفسير القرآن المجيد في آخر السنة التاسعة والستين بعد ثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية المطابق لما نظمه بعض الأجلّاء:

مـــيلاد مـــهدي الأُمـــم   نـــورُ الإله فـــي الظُّـــلم

الأحقر محمد النهاوندي

كتبه العبد المذنب محمدالصانعي

ابن مرحوم فتح الله الخوانساري

الشهير بسيمين قلم في شهر محرّم الحرام ١٣٧٠

وفرغ قسم الدراسات الاسلامية ـ مؤسسة البعثة من تحقيقه

بفضل الله ومنّه في سنة ١٤٢٢ هـ

وآخر دعوانا أن الحمد

لله ربّ العالمين.

---

١. تفسير القمي ٢: ٤٥٠، تفسير الصافي ٥: ٣٩٧.   ٢. النَّسناس: نوع من القِردة.

٣. تفسير الرازي ٣٢: ١٥٦.

٤. ثواب الأعمال: ١٢٩، مجمع البيان ١٠: ٨٦٤، تفسير الصافي ٥: ٣٩٧.



الفهرس